الجزء الثاني

من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل تأليف الامام العلامة قدوة الامة وعلم الأئمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن

تغمده الله برحمته

آمين

وقد حلي هامش هذا الكتاب بالتفسير المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل تأليف الامام الجليل العلامة أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي عليه سحائب الرحمة والرضوان

(طبع بمطبعة)

دار الكتب العربية الكبرى

على نفقة

(أصحابها مصطفى البابي الحلبي وأخويه بكري وعيسى)

(بمصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تفسير سورة الانعام﴾

﴿فصل في ذكر نزولها﴾ روى مجاهد عن ابن عباس أن سورة الانعام مما نزل بمكة وهذا قول الحسن وقتادة وجابر بن زيد وروى يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الانعام جملة ليلا بمكة وحولها سبعون ألف ملك وروى أبو صالح عن ابن عباس قال هي مكية نزلت جملة واحدة نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فانها مدنيات وهي قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى وما قدروا الله حق قدره الآية وقوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شئ الى آخر الآيتين وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين وهما قوله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق الآية وقوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية وروى عن ابن عباس أيضا وقتادة أنهما قالا هي مكية الا الآيتين نزلتا بالمدينة قوله وما قدروا الله حق قدره وقوله وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات الآية ولما نزلت سورة الانعام ومعها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد قال النبي صلى الله عليه وسلم سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخر ساجدا قال البغوي وروى عنه مرفوعا من قرأ سورة الانعام صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره وذكره بغير سند والله سبحانه وتعالى أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم) ۞ قوله عز وجل (الحمد لله الذي خلق السموات والارض) قال كعب الاحبار هذه الآية أول آية في التوراة وآخر آية في التوراة قوله تعالى وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية وفي رواية عنه ان آخر آية في التوراة آخر سورة هود قال ابن عباس افتتح الله الخلق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وختمه بالحمد فقال تعالى وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وفي قوله الحمد لله تعليم لعباده كيف يحمدونه أي قولوا الحمد لله وقال أهل المعاني لفظه خبر ومعناه الامر أي احمدوا الله وانما جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الامر لانه أبلغ في البيان من حيث انه جمع الامرين ولو قيل احمدوا الله لم يجمع الامرين فكان قوله الحمد لله أبلغ وقد تقدم معنى الحمد في تفسير سورة فاتحة الكتاب بما فيه مقنع الذي خلق السموات والارض أي احمدوا الله الذي خلق السموات والارض وانما خصهما بالذكر لانهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد لان السماء بغير عمد ترونها وفيها العبر والمنافع والارض مسكن الخلق وفيها أيضا العبر والمنافع (وجعل الظلمات والنور) الجعل هنا بمعنى الخلق أي وخلق الظلمات والنور قال السدي يريد بالظلمات ظلمات الليل وبالنور نور النهار وقال الحسن يعني بالظلمات الكفر وبالنور الايمان وقيل يعني بالظلمات الجهل وبالنور العلم وقيل الجنة والنار قال قتادة خلق الله السموات قبل الارض وخلق الظلمة قبل النور وخلق الجنة قبل النار روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى

﴿سورة الانعام مكية﴾ وهي مائة وخمس وستون آية كوفي أربع وستون بصري

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله) تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء أي الحمد له وان لم تحمدوه (الذي خلق السموات والارض) جمع السموات لانها طباق بعضها فوق بعض والارض وان كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال للبعض جعل يتعدى الى مفعول واحد اذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله (وجعل الظلمات والنور) والى مفعولين ان كان بمعنى صير كقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وفيه رد قول الثنوية بقدم النور والظلمة وأفرد النور لارادة الجنس ولان ظلمة كل شئ تختلف باختلاف ذلك الشئ نظيره ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموضع المظلم يخالف كل واحد منها صاحبه والنور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات وقدم الظلمات لقوله عليه السلام خلق الله خلقه في ظلمة

ومن أخطأه ضل ذكره البغوي بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعني والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشيء بالشيء والمعنى انهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بان الله خالق السموات والارض وقال النضر بن شميل الباء في قوله بربهم بمعنى عن أي عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشيء وقيل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو انه تعالى دل به على انكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت اليك وأنت تنكرني وتجحد احساني اليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله ۞ قوله تعالى (هو الذي خلقكم من طين) يعني انه تعالى خلق آدم من طين وانما خاطب ذريته بذلك لانه اصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيي العظام وهي رميم أعلمهم بهذه الآية انه خلقهم من طين وهو القادر على اعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت قال السدي لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل الى الارض ليأتيه بقبضة منها فقالت الارض اني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فرجع ولم يأخذ منها شيئا فقال يارب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها لاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبي موسى الاشعري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب أخرجه أبو داود والترمذي ۞ وأما قوله تعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فاختلف العلماء في معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك الاجل الاول من وقت الولادة الى وقت الموت والاجل الثاني من وقت الموت الى البعث وهو البرزخ ويروى نحو ذلك عن ابن عباس قال لكل أحد أجلان أجل الى الموت وأجل من الموت الى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث الى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث وذلك قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب وقال مجاهد وسعيد بن جبير الاجل الاول أجل الدنيا والاجل الثاني أجل الآخرة وقيل الاجل هو الوقت المقدر فاجل كل انسان مقدر معلوم عند الله لا يزيد ولا ينقص والاجل الثاني هو أجل القيامة وهو أيضا معلوم مقدر عند الله لا يعلمه الا الله تعالى وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه ثم قضى أجلا يعني النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلا يعني قدر مدة لاعماركم تنتهون اليها وهو أجل مسمى عنده يعني ان ذلك الاجل عنده لا يعلمه الا هو والمراد بقوله عنده يعني في اللوح المحفوظ الذي لا يطلع عليه غيره (ثم أنتم تمترون) يعني ثم أنتم تشكون في البعث ۞ قوله عز وجل (وهو الله في السموات وفي الارض) يعني وهو اله السموات واله الارض وقيل معناه وهو المعبود في السموات وفي الارض وقال محمد بن جرير الطبري معناه وهو الله في السموات (يعلم سركم وجهركم) في الارض وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الارض وقيل معناه وهو المنفرد بالتدبير في السموات وفي الارض لا شريك له فيهما والمراد بالسر ما يخفيه الانسان في ضميره فهو من أعمال القلوب

ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل (ثم الذين كفروا) بعد هذا البيان (بربهم يعدلون) يساوون به الاوثان تقول عدلت هذا به أي ساويته به والباء في بربهم صلة للعدل لا للكفر أو ثم الذين كفروا بربهم يعدلون عنه أي يعرضون عنه فتكون الباء صلة للكفر وصلة يعدلون أي عنه محذوفة وعطف ثم الذين كفروا على الحمد لله على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق لانه ما خلقه الا نعمة ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته أو على خلق السموات على معنى انه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه ومعنى ثم استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته (هو الذي خلقكم من طين) من لابتداء الغاية أي ابتدأ خلق أصلكم يعني آدم منه (ثم قضى أجلا) أي حكم أجل الموت (وأجل مسمى عنده) أجل القيامة أو الاول ما بين أن يخلق الى أن يموت والثاني ما بين الموت والبعث وهو البرزخ أو الاول النوم والثاني الموت أو الثاني هو الاول وتقديره وهو أجل مسمى أي معلوم وأجل مسمى مبتدأ والخبر عنده وقدم المبتدأ وان كان نكرة والخبر ظرفا وحقه التأخير لانه تخصص بالصفة فقارب المعرفة (ثم أنتم تمترون) تشكون من المرية أو تجادلون من المراء ومعنى ثم استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) مبتدأ وخبر (في السموات وفي الارض) متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل وهو المعبود فيهما كقوله وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله أو هو المعروف بالالهية فيهما أو هو الذي يقال له الله فيهما والاول تفريع على انه مشتق وغيره على انه غير مشتق (يعلم سركم وجهركم) خبر بعد خبر أو كلام مبتدأ أي وهو

يعلم سركم وجهركم (ويعلم ماتكسبون) من الخير والشر ويثيب عليه ويعاقب ومن فى (وماتأتيهم من آية) للاستغراق وفى (من آيات ربهم) للتبعيض أى وما يظهر لهم دليل قط من الادلة التى يجب فيها النظر والاعتبار (الا كانوا عنها معرضين) تاركين للنظر لا يلتفتون اليه لقلة خوفهم وتدبرهم فى العواقب (٤) (فقد كذبوا) مردود على كلام محذوف كانه قيل ان كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا (بالحق لما جاءهم) أى بما هو أعظم آية وأكبرها هو القرآن الذى تحدوا به فعجزوا عنه (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) أى أنباء الشئ الذى كانوا به يستهزؤن وهو القرآن أى أخباره وأحواله يعنى سيعلمون بأى شئ استهزؤا وذلك عند ارسال العذاب عليهم فى الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الاسلام وعلو كلمته (ألم يروا) يعنى المكذبين (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) هو مدة انقضاء أهل كل عصر وهو ثمانون سنة أو سبعون (مكناهم) فى موضع جر صفة لقرن وجمع على المعنى (فى الارض مالم نمكن لكم) التمكين فى البلاد اعطاء المكنة والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة فى الاجسام والسعة فى الاموال والاستظهار باسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدرارا) كثيرا وهو حال من السماء (وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) من تحت أشجارهم والمعنى عاشوا فى الخصب بين الانهار والثمار وسقيا الغيث المدرار (فاهلكناهم بذنوبهم) ولم يغن ذلك عنهم شيأ (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (ولو نزلنا عليك كتابا) مكتوبا (فى قرطاس) فى ورق (فلمسوه بايديهم) هو للتأكيد لئلا يقولوا سكرت أبصارنا ومن المحتج عليهم العمى بالشئ

وبالجهر ما يظهره الانسان فهو من أعمال الجوارح والمعنى ان الله لا يخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الارض (ويعلم ماتكسبون) يعنى من خير أو شر بقى فى الآية سؤال وهو ان الكسب اما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالافعال لا تخرج عن هذين النوعين يعنى السر والجهر فقوله ويعلم ماتكسبون يقتضى عطف الشئ على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك وأجيب عنه بانه يجب حمل قوله ويعلم ماتكسبون على ما يستحقه الانسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه انه محمول على المكتسب فهو كما يقال هذا المال كسب فلان أى مكتسبه ولا يجوز حمله على نفس الكسب والالزم عطف الشئ على نفسه ذكره الامام فخر الدين (وماتأتيهم) يعنى لاهل مكة (من آية من آيات ربهم) يعنى من المعجزات الباهرات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن (الا كانوا عنها معرضين) يعنى الا كانوا لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) يعنى بآيات القرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (لما جاءهم) يعنى لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) يعنى فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم اذا عذبوا فى الآخرة ۞ قوله تعالى (ألم يروا) الخطاب لكفار مكة يعنى لم ير هؤلاء المكذبون بآياتى (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) يعنى مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الامم الماضية والقرون الخالية والقرن الامة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم فى الوجود فى ذلك الزمان وقيل سمى قرنا لانه زمان بزمان وأمة بامة واختلفوا فى مقدار القرن فقيل ثمانون سنة وقيل ستون سنة وقيل أربعون سنة وقيل مائة وعشرون سنه وقيل مائة سنة وهو الاصح لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشر المازنى انك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن أهل الذين وجدوا فيه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعنى أصحابى وتابعيهم وتابعى التابعين (مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم) يعنى أعطيناهم مالم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم فى العمر والبسطة فى الاجسام والسعة فى الارزاق مثل اعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) مفعال من الدر يعنى وأرسلنا المطر متتابعا فى أوقات الحاجة اليه والمراد بالسماء المطر سمى بذلك لنزوله منها (وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) يعنى وفجرنا لهم العيون تجرى من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين (فاهلكناهم بذنوبهم) يعنى بسبب ذنوبهم وكفرهم (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يعنى وخلقنا من بعد هلاك أولئك أهل قرن آخرين وفى هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الامم السالفة والقرون الخالية فانهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الاتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ۞ قوله عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس) الآية قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه انه من عند الله وانك رسوله فانزل الله تعالى هذه الآية ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس يعنى من عندى يعنى مكتوبا فى قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التى يكتب فيها (فلمسوه بايديهم) يعنى فعاينوه ومسوه بايديهم وانما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لانه أبلغ فى ايقاع العلم

(لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره (وقالوا لولا) هلا (أنزل عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا انه نبي فقال الله (ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر) لقضي أمر هلاكهم (ثم لا ينظرون) لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين لانهم اذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ومعنى ثم بعد ما بين الامرين قضاء الامر وعدم الانظار جعل عدم الانظار أشد من قضاء الامر لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة (ولو جعلناه ملكا) ولو (٥) جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لانهم كانوا يقولون تارة لولا أنزل على محمد ملك وتارة يقولون ما هذا الا بشر مثلكم ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لجعلناه رجلا) لارسلناه في صورة رجل كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الاحوال في صورة دحية لانهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره اذا كان سبيله كسبيلك يا محمد فانهم يقولون اذا رأوا الملك في صورة الانسان هذا انسان وليس بملك يقال لبست الامر على القوم وألبسته اذا أشبهته وأشكلته عليهم ثم سلى نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل استهزائهم ومنهم متعلق بسخروا كقوله فيسخرون منهم والضمير للرسل والدال مكسورة عند أبي عمرو وعاصم لالتقاء الساكنين وضمها غيرهما اتباعا لضم التاء (قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) والفرق بين فانظروا وبين ثم انظروا ان النظر جعل مسببا عن السير في فانظروا فكانه قيل سيروا لاجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ومعنى سيروا في الارض ثم انظروا اباحة السير في الارض للتجارة وغيرها وايجاب النظر في آثار الهالكين ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح (قل لمن ما في السموات والارض) من استفهام وما بمعنى الذي في موضع الرفع على الابتداء ولمن خبره (قل لله)

بالشيء من الرؤية لان المرئيات قد يدخلها التخيلات كالسحر ونحوه بخلاف الملموس (لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعني لو أنزلنا عليهم كتابا كما سألوا لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وانه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي بهم (وقالوا) يعني مشركي مكة (لولا) يعني هلا (أنزل عليه) يعني على محمد (ملك) يعني نراه عيانا (ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) يعني لفرغ الامر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لا ينظرون) يعني انهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يعني ولو أرسلنا اليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل وذلك ان البشر لا يستطيعون أن ينظروا الى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر الى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الانبياء في صورة الانس كما جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان الى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة الى ابراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه ۞ قوله تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) يقال لبست الامر على القوم اذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلا ولبست عليه الامر اذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته ومعنى الآية ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية انا لو جعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشرا فتعود المسئلة بحالها انا لا نرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وانما كان تلبيسا لانهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون انه بشر وليس هو بشرا وانما كان فعلهم تلبيسا لانهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء ۞ قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يعني كما استهزؤا بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين اياه واستهزائهم به اذ جعل له أسوة في ذلك بالانبياء الذين كانوا قبله (فحاق) أي فنزل وقيل أحاط وقيل حل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم وفي هذه الآية تحذير للمشركين أن يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم بانبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم (قل سيروا في الارض) أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الارض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الاقدام (ثم انظروا) فعلى القول الاول يكون النظر نظر فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا باعينكم الى آثار الامم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى (كيف كان عاقبة المكذبين) يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك فحذر كفار مكة عذاب الامم الخالية ۞ قوله عز وجل (قل لمن ما في السموات والارض قل لله) هذا سؤال وجواب والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والارض فان أجابوك والا فاخبرهم

ان ذلك لله الذى قهر كل شئ وملك كل شئ واستعبد كل شئ لا للاصنام التى تعبدونها أنتم فانها أموات لا تملك شيأ ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا وانما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ فى التأكيد وآكد فى الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه فى سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته واحسانه اليهم فقال تعالى (كتب على نفسه الرحمة) يعنى انه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتوالين عنه الى الاقبال عليه واخبار بانه رحيم بعباده وانه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والانابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى تغلب غضبى وفى البخارى ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق ان رحمتى سبقت غضبى فهو مكتوب عنده فوق العرش وفى رواية لهما ان الله لما خلق الخلق وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده زاد البخارى على العرش ثم اتفقا ان رحمتى تغلب غضبى (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فامسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الارض جزأ واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه زاد البخارى فى رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم ان لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق يوم خلق السموات والارض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والارض فجعل منها فى الارض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة (ق) عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى فاذا امرأة من السبى تبتغى اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر أن لا تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام فى قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) يعنى فى يوم القيامة وقيل معناه فى قبوركم الى يوم القيامة (لا ريب فيه) أى لا شك فى انه آت (الذين خسروا أنفسهم) يعنى بالشرك بالله أو غبنوا أنفسهم باتخاذهم الاصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيأ وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل اذا غبن فى بيعه (فهم لا يؤمنون) يعنى لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذى حملهم على الامتناع من الايمان ۞ قوله تعالى (وله ما سكن فى الليل والنهار) يعنى وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل انما خص السكون بالذكر لان النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل فى الارض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما فى البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى ان جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره (وهو السميع) لاقوالهم وأصواتهم (العليم) بسرائرهم وأحوالهم ۞ قوله عز وجل (قل أغير الله أتخذ وليا) قال مقاتل لما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ وليا يعنى ربا ومعبودا وناصرا ومعينا وهو استفهام ومعناه الانكار أى لا أتخذ غير الله وليا (فاطر السموات والارض) أى خالق السموات

تقريرلهم أى هو لله لا خلاف بينى وبينكم ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيأ الى غيره (كتب على نفسه الرحمة) أصل كتب أوجب ولكن لا يجوز الاجراء على ظاهره اذ لا يجب على الله شئ للعبد فالمراد به انه وعد ذلك وعدا مؤكدا وهو منجزه لا محالة وذكر النفس للاختصاص ورفع الوسائط ثم أوعدهم على اغفالهم النظر واشراكهم به من لا يقدر على خلق شئ بقوله (ليجمعنكم الى يوم القيامة) فيجازيكم على اشراككم (لا ريب فيه) فى اليوم أو فى الجمع (الذين خسروا أنفسهم) نصب على الذم أى أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر (فهم لا يؤمنون) وقال الاخفش الذين بدل من كم فى ليجمعنكم أى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم والوجه هو الاول لان سيبويه قال لا يجوز مررت بى المسكين ولا بك المسكين فتجعل المسكين بدلا من الياء أو الكاف لانهما فى غاية الوضوح فلا يحتاجان الى البدل والتفسير (وله) عطف على لله (ما سكن فى الليل والنهار) من السكنى حتى يتناول الساكن والمتحرك أو من السكون ومعناه ما سكن وتحرك فيهما فاكتفى باحد الضدين عن الآخر كقوله تقيكم الحر أى الحر والبرد وذكر السكون لانه أكثر من الحركة وهو احتجاج على المشركين لانهم لم ينكروا انه خالق الكل ومدبره (وهو السميع العليم) يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شئ مما يشتمل عليه الملوان (قل أغير الله أتخذ وليا) ناصرا ومعبودا وهو مفعول ثان لاتخذ والاول غير وانما أدخل همزة الاستفهام على مفعول اتخذ لا على الفعل لان الانكار فى اتخاذ غير الله وليا لا فى اتخاذ الولى فكان أحق بالتقديم (فاطر السموات والارض)

والارض ومبدعهما ومبتدئهما (وهو يُطعِم ولا يُطعَم) يعني وهو يرزق ولا يرزق وصف الله عز وجل نفسه بالغنى عن الخلق و باحتياج الخلق اليه لان من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم اليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الاطعام فهو غني عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا ومعبودا (قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم) يعني من هذه الامة والاسلام بمعنى الاستسلام يعني أمرت أن أستسلم لامر الله وأنقاد الى طاعته (ولا تكونن من المشركين) يعني وقيل لي يا محمد لا تكونن من المشركين (قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى عبادة غيري ان ربي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني عن عبادة شيء سواه واني أخاف ان عصيت ربي فعبدت شيأ سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعني العذاب (يومئذ) يعني يوم القيامة (فقد رحمه) يعني بان أنجاه من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لا محالة وانما ذكر الرحمة مع صرف العذاب لئلا يتوهم انه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة مع صرف العذاب عنه (وذلك الفوز المبين) يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين ۞ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعني بشدة و بلية والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه (فلا كاشف له الا هو) يعني فلا يدفع ذلك الضر الا الله عز وجل (وان يمسسك بخير) يعني بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك (فهو على كل شيء قدير) يعني من دفع الضر وجلب الخير وهذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى لا تتخذ وليا سوى الله لانه هو القادر على أن يمسسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على ايصال الخير اليك وانه لا يقدر على ذلك الا هو فاتخذه وليا وناصرا ومعينا وهذا الخطاب وان كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو عام لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شيء قدير من دفع الضر وايصال الخير عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال لي يا غلام اني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف أخرجه الترمذي زاد فيه رزين تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وفيه وان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان الصبر على ما تكره خير كثير واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين قال ابن الاثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في مسند أحمد بن حنبل ۞ قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم و يثقل و يغم و يحزن و يفقر و يميت و يذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لانه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة وقال ابن جرير الطبري معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وانما قال فوق عباده لانه تعالى وصف نفسه بقهره اياهم ومن صفة كل قاهر شيأ أن يكون مستعليا عليه فمعنى الكلام اذا والله الغالب عباده المذلل لهم العالي عليهم بتذليله اياهم فهو فوقهم بقهره اياهم وهم دونه وقيل فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله

أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها (وهو يطعم ولا يطعم وهو يرزق ولا يرزق أي المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع (قل اني أمرت أن أكون أول من أسلم) لان النبي سابق أمته في الاسلام كقوله وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (ولا تكونن من المشركين) وقيل لي لا تكونن من المشركين ولو عطف على ما قبله لفظا لقيل وأن لا أكون والمعنى أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك (قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أي اني أخاف عذاب يوم عظيم وهو القيامة ان عصيت ربي فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به محذوف الجواب (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ فقد رحمه) الله الرحمة العظمى وهي النجاة من يصرف حمزة وعلي وأبو بكر أي من يصرف الله عنه العذاب (وذلك الفوز المبين) النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياء (فلا كاشف له الا هو) فلا قادر على كشفه الا هو (وان يمسسك بخير) من غنى أو صحة (فهو على كل شيء قدير) فهو قادر على ادامته وازالته (وهو القاهر) مبتدأ وخبر أي الغالب المقتدر (فوق عباده) خبر بعد خبر أي عال عليهم بالقدرة والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه

عز وجل (وهو الحكيم) يعني في أمره وتدبيره عباده (الخبير) يعني بأعمالهم وما يصلحهم ۞ قوله عز وجل (قل أي شيء أكبر شهادة) قال الكلبي أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فانا لا نرى أحدا يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا ان ليس لك عندهم ذكر فانزل الله عز وجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فان هم أجابوك والا (قل) أنت يا محمد (الله شهيد بيني وبينكم) قال مجاهد أمر محمد صلى الله عليه وسلم ان يسأل قريشا أي شيء أكبر شهادة ثم أمر أن يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل انهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد له بالنبوة فبين الله تعالى بهذه الآية ان أكبر الاشياء شهادة هو الله تعالى ثم بين انه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله (وأوحي الى هذا القرآن لأنذركم به) يعني ان الله عز وجل يشهد لي بالنبوة لانه أوحى الى هذا القرآن وهو معجزة لانكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته وكان معجزا واذا كان معجزا كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لأنذركم به يعني أوحي الى هذا القرآن لاخوفكم به واحذركم مخالفة أمر الله عز وجل (ومن بلغ) يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي الى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الامم فكل من بلغ اليه القرآن وسمعه فالنبي صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد ابن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال انس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار * شرح ما يتعلق بهذا الحديث فيه الامر بابلاغ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم الى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والاثم ومعنى الحديث انه مهما قلتم عن بني اسرائيل فانهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه اباحة الكذب والاخبار عن بني اسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وان لم يتحقق ذلك بنقل لانه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه عن ابن عباس قال تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم أخرجه أبو داود موقوفا وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري انكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الاصنام التي كانوا يعبدونها وانما قال أخرى لان الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فما بال القرون الاولى ولم يقل الاول ولا الاولين (قل لا أشهد) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) يعني قل لهم انما الله اله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد (وانني بريء مما تشركون) يعني وأنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على اثبات التوحيد لله عز وجل وابطال كل معبود سواه لان كلمة انما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح في التوحيد ونفي الشريك فثبت بذلك ايجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبري من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ من كل دين خالف الاسلام لقوله تعالى وانني بريء مما تشركون ۞ قوله عز وجل (الذين

تمييز وأي كلمة يراد بها بعض ما تضاف اليه فاذا كانت استفهاما كان جوابها مسمى باسم ما أضيفت اليه وقوله (قل الله) جواب أي الله أكبر شهادة فالله مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلا على انه يجوز اطلاق اسم الشيء على الله تعالى وهذا لان الشيء اسم للموجود ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيأ ولذا نقول الله تعالى شيء لا كالاشياء ثم ابتدأ (شهيد بيني وبينكم) أي هو شهيد بيني وبينكم ويجوز أن يكون الجواب الله شهيد بيني وبينكم لانه اذا كان الله شهيدا بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة شهيد له (وأوحي الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي ومن بلغه القرآن الى قيام الساعة في الحديث من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم ومن في محل النصب بالعطف على كم والمراد به أهل مكة والعائد اليه محذوف أي ومن بلغه وفاعل بلغ ضمير القرآن (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) استفهام انكار وتبكيت (قل لا أشهد) بما تشهدون وكرر (قل) توكيدا (انما هو اله واحد) ما كافة لان عن العمل وهو مبتدأ واله خبره وواحد صفة أو بمعنى الذي في محل النصب بان وهو مبتدأ واله خبره والجملة صلة الذي وواحد خبر ان وهذا الوجه أوقع (وانني بريء مما تشركون) به (الذين

آتيناهم

(الذين آتيناهم الكتاب) يعني اليهود والنصارى والكتاب التوراة والانجيل (يعرفونه) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين (كما يعرفون أبناءهم) بحلاهم ونعوتهم وهذا استشهاد لاهل مكة بمعرفة أهل الكتاب و بصحة نبوته ثم قال (الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين (فهم لا يؤمنون) به (ومن أظلم) استفهام يتضمن

معنى النفي أي لا أحد أظلم لنفسه والظلم وضع الشيء في غير موضعه وأشنعه اتخاذ المخلوق معبودا (ممن افترى) اختلق (على الله كذبا) فيصفه بما لا يليق به (أو كذب بآياته) بالقرآن والمعجزات (انه) ان الامر والشأن (لا يفلح الظالمون) جمعوا بين أمرين باطلين فكذبوا على الله ما لا حجة عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا الملائكة بنات الله وسموا القرآن والمعجزات سحرا (ويوم نحشرهم) هو مفعول به والتقدير واذكر يوم نحشرهم (جميعا) حال من ضمير المفعول (ثم نقول للذين أشركوا) مع الله غيره توبيخا وبالياء فيهما يعقوب (أين شركاؤكم) آلهتكم التي جعلتموها شركاء الله (الذين كنتم تزعمون) أي تزعمونهم شركاء فحذف المفعولان (ثم لم تكن) وبالياء حمزة وعلي (فتنتهم) كفرهم (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) يعني ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه الا الجحود والتبرؤ منه والحلف على الانتفاء من التدين به أو ثم لم يكن جوابهم الا أن قالوا فسمي فتنة لانه كذب و برفع الفتنة مكي وشامي وحفص فمن قرأ تكن بالتاء ورفع الفتنة فقد جعل الفتنة اسم تكن وأن قالوا الخبر أي لم تكن فتنتهم الا قولهم ومن قرأ بالياء ونصب الفتنة جعل أن قالوا الاسم يكن أي لم يكن فتنتهم الا قولهم ومن قرأ بالتاء ونصب الفتنة حمل على المقالة ربنا حمزة وعلي على النداء أي يا ربنا وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله (انظر) يا محمد (كيف كذبوا على أنفسهم)

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان كفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا انه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل ان شهادته له كافية على صحة نبوته و بين في هذه الآية انهم يعرفونه وأنهم كذبوا في قولهم انهم لا يعرفونه وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب ان الله عز وجل أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمكة الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم مني بابني فقال عمر وكيف ذاك قال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدري ما يصنع النساء ۞ وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) يعني أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الذين خسروا أنفسهم قولان أحدهما انه صفة للذين الاولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين (فهم لا يؤمنون) يعني به والقول الثاني أنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالاول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في معنى الخسار وجهين أحدهما انه الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب كفرهم وانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والوجه الثاني انه جعل لكل واحد من بني آدم منزلا في الجنة ومنزلا في النار فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار فذلك هو الخسران ۞ قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أشد عنادا وأخطأ فعلا وأعظم كفرا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان له شريكا من خلقه والها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الاصنام أو ادعى ان له صاحبة وولدا كما قالت النصارى (أو كذب بآياته) يعني كذب بحججه وأعلام أدلته التي أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الانبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (انه لا يفلح الظالمون) يعني انه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل (ويوم نحشرهم جميعا) أي اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) يعني انها تشفع لكم عند ربكم ۞ قوله عز وجل (ثم لم تكن فتنتهم) يعني قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة فلما كان سؤالهم تجربة لاظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج في قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك ان الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته الا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الاصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤا منها يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للاصنام الا أن تبرؤا منها ۞ وهو قوله تعالى (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وذلك اذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لاهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ۞ قال الله تعالى (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) يعني انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل الى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا

بقولهم ما كنا مشركين قال مجاهد اذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين قال بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فاذا قال لهم الله أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم (وضل عنهم) وغاب عنهم (ما كانوا يفترون) (١٠)

على أنفسهم يعنى اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله (وضل عنهم) يعنى زال عنهم وذهب (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم ۞ قوله تعالى (ومنهم من يستمع اليك) الآية قال الكلبى اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبى ابنا خلف والحرث بن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر يا أبا قتيلة ما يقول محمد قال ما أدرى ما يقول الا أنى أراه يحرك لسانه و يقول أساطير الاولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا لا تقر بشئ من هذا وفى رواية للموت أهون علينا من هذا فأنزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك يعنى الى كلامك وقراءتك يا محمد (وجعلنا على قلوبهم أكنة) يعنى أغطية جمع كنان (أن يفقهوه) يعنى لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) يعنى وجعلنا فى آذانهم صمما وثقلا وفى هذا دليل على ان الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والايمان فتقبله و يجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) يعنى كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لا يؤمنوا بها يعنى لا يصدقوا بها ولا يقروا أنها دالة على صدقك (حتى اذا جاؤك يجادلونك) يعنى انهم اذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن ثم جاؤا ليجادلوك و يخاصموك لا يؤمنوا بها (يقول الذين كفروا ان هذا) أى ما هذا القرآن (الا أساطير الاولين) يعنى أحاديث الاولين من الامم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم وما سطروا يعنى وما كتبوا والاساطير جمع اسطورة واسطارة وقيل واحدها سطر وأسطار جمع وأساطير جمع الجمع فعلى هذا لو قال قائل لم عابوا القرآن وجعلوه أساطير الاولين وقد سطر الاولون فى كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لا يعاب قائله أجيب عنه بأنهم انما نسبوا القرآن الى أساطير الاولين بمعنى أنه ليس بوحى من الله تعالى وانما هو أخبار مجردة كما نروى أخبار الاولين وقيل فى معنى أساطير الاولين انها الترهات وهى عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة يقول قائلهم أخذنا فى الترهات بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح الى الطريق المشكل الذى لا يعرف فجعلت الترهات مثلا لما لا يعرف ولا يتضح من الامور المشكلة الغامضة التى لا أصل لها ۞ قوله عز وجل (وهم ينهون عنه) يعنى ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وينأون عنه) يعنى و يتباعدون عنه بأنفسهم نزلت فى كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن الاجتماع به و ينهونهم عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك وقال ابن عباس نزلت فى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى المشركين عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم و يمنعه منهم و ينأى هو بنفسه عن الايمان به بمعنى يبعد حتى روى أنه اجتمع اليه رؤس المشركين وقالوا له خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع الينا محمدا فقال ما أنصفتمونى أدفع اليكم ابنى لتقتلوه وأربى لكم ابنكم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا أبا طالب الى الايمان فقال لولا تعيرنى قريش لاقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وقال فى ذلك أبياتا

الهيته وشفاعته (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر واضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال والله ما أدرى ما يقول محمد الا انه يحرك لسانه و يقول أساطير الاولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية فقال أبو سفيان انى لاراه حقا فقال أبو جهل كلا فنزلت (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو الغطاء مثل عنان وأعنة (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) ثقلا يمنع من السمع ووحد الوقر لانه مصدر وهو عطف على أكنة وهو حجة لنا فى الاصلح على المعتزلة (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا) حتى هى التى تقع بعدها الجمل والجملة قوله اذا جاؤك يقول الذين كفروا ويجادلونك فى موضع الحال و يجوز أن تكون جارة و يكون اذا جاؤك فى موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم و يجادلونك حال و يقول الذين والله كفروا تفسير له والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات الى أنهم يجادلونك و يناكرونك وفسر مجادلتهم بانهم يقولون (ان هذا) ما القرآن (الا أساطير الاولين) فيجعلون كلام الله أكاذيب وواحد الاساطير اسطورة (وهم) أى المشركون (ينهون عنه) ينهون الناس عن القرآن أو عن الرسول واتباعه والايمان به (وينأون عنه) و يبعدون عنه بأنفسهم فيضلون و يضلون

(وان يهلكون) بذلك (الا أنفسهم ومايشعرون) أي لايتعداهم الضرر الى غيرهم وان كانوا يظنون انهم يضرون رسول الله وقيل عنى به أبو طالب لانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم و ينأى عنه فلا يؤمن به والاول أشبه (ولوترى) حذف جوابه أي ولوترى لشاهدت أمرا عظيما (اذ وقفوا على النار) أروها حتى يعاينوها أو حبسوا على الصراط فوق النار (فقالوا ياليتنا نرد) الى الدنيا تمنوا الرد الى الدنيا ليؤمنوا وتم تمنيهم ثم ابتدؤا بقوله (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدين الايمان كانهم قالوا ونحن لانكذب ونؤمن ولا نكذب ونكون حمزة وعلي وحفص على جواب التمني بالواو وباضمار أن ومعناه ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وافقهما في ونكون شامي (بل) للاضراب عن الوفاء بما تمنوا (بدا لهم) ظهر لهم (ما كانوا يخفون) من الناس (من قبل) في الدنيا من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وقيل هو في المنافقين وانه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه أو أهل الكتاب وانه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولو ردوا) الى الدنيا بعد وقوفهم على النار (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر (وانهم لكاذبون) فيما وعدوا من أنفسهم لايوفون به (وقالوا) عطف على لعادوا أي ولو ردوا لكفروا ولقالوا (ان هي الا حياتنا الدنيا) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة او على قوله وانهم لكاذبون أي وانهم لقوم كاذبون في كل شيء وهم الذين قالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وهي كناية عن الحياة أو هو ضمير القصة (وما نحن بمبعوثين ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه أو وقفوا على جزاء ربهم (قال) جواب لسؤال مقدر كانه قيل ماذا قال لهم ربهم اذ وقفوا عليه فقيل قال (أليس هذا) أي البعث (بالحق) بالكائن الموجود وهذا تعيير لهم على التكذيب للبعث وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث ما هو بحق (قالوا بلى وربنا) أقروا وأكدوا الاقرار باليمين (قال) الله تعالى (فذوقوا العذاب بما

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بامرك ما عليك غضاضة * وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتني وعرفت انك ناصحي * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بانه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذاك مبينا

۞ وقوله تعالى (وان يهلكون الا أنفسهم) يعني لايرجع وبال كفرهم وفعلهم الا عليهم (ومايشعرون) يعني بذلك قوله تعالى (ولوترى اذ وقفوا على النار) يعني في النار فوضع على موضع في كقوله على ملك سليمان أي في ملك سليمان وقيل معناه اذ عرضوا على النار وجواب لو محذوف والمعنى ولوترى الكفار الذين ينهون عنك و ينأون عنك يا محمد في تلك الحالة لرأيت أمرا عجيبا وموقفا فظيعا (فقالوا) يعني الكفار (ياليتنا نرد) يعني الى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا أن يردوا الى الدنيا مرة أخرى حتى يؤمنوا ولا يكذبوا بآيات ربهم فرد الله عليهم ذلك فقال تعالى (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) يعني ليس الامر كما قالوا لو ردوا الى الدنيا لآمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون في الدنيا من الكفر والمعاصي وقيل ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أخفوا شركهم وكتموه فاظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما أخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية في المنافقين (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) يعني في قولهم لو رددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وهذا خبر عن حال منكري البعث وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله في الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا يعني الكفار ان هي أي ما هي الا حياتنا الدنيا أي ليس لنا غير هذه الدنيا التي نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعني بعد الموت وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار انهم لو ردوا الى الدنيا لقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ۞ قوله عز وجل (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم) يعني على حكم ربهم وقضائه ومسئلته وقال مقاتل عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أي يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به وتقولون لابعث ولانشور حقا (قالوا بلى وربنا) يعني انهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فاجابوا وقالوا بلى والله انه لحق وقيل تقول لهم خزنة النار بامر الله أليس هذا بالحق يعني البعث حقا فاجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس للقيامة مواقف ففي موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفي موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا (قال فذوقوا العذاب) أي يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بامر الله تعالى وانما خص لفظ الذوق لانهم في كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الاحساس (بما

كنتم تكفرون) يعني هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت ۞ قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعني خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير الى الله تعالى و بالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الاليم في دركات الجحيم (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) يعني جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة لانها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد الا الله تبارك وتعالى وقيل سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لان حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك (قالوا) يعني منكري البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد (ياحسرتنا) يعني ياندامتنا والحسرة التلهف على الشئ الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة (على ما فرطنا) يعني قصرنا (فيها) يعني في الدنيا لانها موضع التفريط في الاعمال الصالحة والمعنى ياحسرتنا على الاعمال الصالحة التي فرطنا فيها في دار الدنيا وقال محمد بن جرير الطبري الهاء والالف في قوله فيها تعود الى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها اذ كان معلوما أن الخسران لا يكون الا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الايمان الذي يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذي يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة فاذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ياحسرتنا قال يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون ياحسرتنا وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) يعني أثقالهم (على ظهورهم) والاوزار الخطايا والذنوب وأصل الوزر الثقل والحمل يقال وزرته اذا حملته وانما قيل للذنوب أوزار لانها تثقل ظهر من يحملها قال قتادة والسدي ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شئ صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفني فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا يعني ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شئ صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفني فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فانا اليوم أركبك فذلك معنى قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال عمر بن هانئ يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح كلما رأى هول صورته وقبحه زاده خوفا فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتني فلاركبنك اليوم حتى أخزيك على رؤس الخلائق فيركبه و يتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه تعالى فذلك قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال الزجاج الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة يقال ثقل علي كلام فلان بمعنى كرهته فالمعنى انهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مجازا عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل في معنى الآية ان أوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عيني أي ذكره ملازم لي (ألا ساء ما يزرون) يعني بئس الشئ شيأ يحملونه وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا قوله عز وجل (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) أي باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكري البعث في قولهم ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين فقال الله رادا عليهم ومكذبا لهم وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان أحدهما أن المراد بها حياة الكافر لان المؤمن لا يزداد بحياته في الدنيا الا خيرا لانه يحصل في أيام حياته من الاعمال الصالحة والطاعة ما يكون سببا لحصول السعادة في الآخرة وأما الكافر فان كل حياته في الدنيا وبال عليه وقال ابن

تأبد ما بعدها كساعة واحدة (بغتة) فجأة وانتصابها على الحال يعني باغتة أو على المصدر كانه قيل بغتتهم الساعة بغتة وهي ورود الشئ على صاحبه من غير علمه بوقته (قالوا ياحسرتنا) نداء تفجيع معناه ياحسرة احضري فهذا أوانك (على ما فرطنا) قصرنا (فيها) في الحياة الدنيا أو في الساعة أي قصرنا في شأنها و في الايمان بها (وهم يحملون أوزارهم) آثامهم (على ظهورهم) خص الظهر لان المعهود حمل الاثقال على الظهور كما عهد الكسب بالايدي وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم وقيل ان الكافر اذا خرج من قبره استقبله أقبح شئ صورة وأخبثه ريحا فيقول أنا عملك السيء فطالما ركبتني في الدنيا وأنا أركبك اليوم (ألا ساء ما يزرون) بئس شيأ يحملونه وأفاد ألا تعظيم ما يذكر بعده (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هي الا حياتنا الدنيا واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل عن الجد الى الهزل قيل ما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو وقيل ما أعمال الحياة لدنيا الا لعب ولهو لانها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة

(والدار) مبتدأ (الآخرة) صفتها ولدار الآخرة بالاضافة شامى أى ولدار الساعة الآخرة لان الشئ لايضاف الى صفته وخبر المبتدأ على القراءتين (خير للذين يتقون) وفيه دليل على ان ماسوى أعمال المتقين لعب ولهو (أفلا يعقلون) بالتاء مدنى وحفص ولما قال أبو جهل مانكذبك يامحمد وانك عندنا لمصدق وانما نكذب ماجئتنا به نزل (قد نعلم انه) الهاء ضمير الشان (ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك) لاينسبونك الى الكذب وبالتخفيف نافع وعلى من أكذبه اذا وجده كاذبا (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) من اقامة الظاهر مقام المضمر وفيه دلالة على انهم ظلموا فى جحودهم والباء يتعلق بيجحدون أو بالظالمين كقوله فظلموا بها والمعنى ان تكذيبك أمر راجع الى الله لانك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لايكذبونك فى الحقيقة وانما يكذبون الله لان تكذيب الرسل تكذيب المرسل (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل على ان قوله فانهم لايكذبونك ليس بنفى لتكذيبه وانما هو من قولك لغلامك اذا أهانه بعض الناس انهم لم يهينوك وانما أهانونى (فصبروا) الصبر حبس النفس على المكروه (على ما كذبوا وأوذوا) على تكذيبهم وايذائهم (حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) لمواعيده من قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون انا لننصر رسلنا (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين وأجاز الاخفش أن تكون من زائدة افاعل نبأ المرسلين وسيبويه لايجيز زيادتها فى الواجب كان يكبر على النبى صلى الله عليه وسلم كفر قومه واعراضهم ويحب مجىء الآيات

ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق والقول الثانى ان هذا عام فى حياة المؤمن والكافر لان الانسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لان الذى كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لابقاء له فبان بهذا التقدير ان المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وانه عام فيهما وانما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشئ الذى يلعب به وقيل معناه ان أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فاما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وان كان وقوعه فى الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو لانه لايجدى شيأ ولاشتغالهم عما أمروا به نسبوا الى اللعب واللهو وقوله تعالى (وللدار الآخرة) يعنى الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله للدار الآخرة (خير) يعنى من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) يعنى الشرك وقيل يتقون اللعب واللهو (أفلا يعقلون) ان الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها ۞ قوله تعالى (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون) يعنى قد نعلم يامحمد انه ليحزنك الذى يقوله المشركون لك قال السدى التقى الاخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الاخنس لابى جهل ياأبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيرى فقال أبو جهل والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فانزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذى جئت به فانزل الله هذه الآية عن على بن أبى طالب أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به فانزل الله فيهم فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون أخرجه الترمذى من طريقين وقال فى أحدهما وهذا أصح ففى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهه به قومه لانهم كانوا يعتقدون صدقه وانه ليس بكذاب وانما حملهم على تكذيبه فى الظاهر الحسد والظلم (فانهم لايكذبونك) يعنى أنهم لايكذبونك فى السر لانهم قد عرفوا أنك صادق (ولكن الظالمين) يعنى الكافرين (بآيات الله يجحدون) يعنى فى العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفة صدق الذى أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال تعالى فى حق غيرهم وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقيل ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وانما جحدوا آيات الله وهى القرآن الدال على صدقه فعلى هذا يكون المعنى فانهم لايكذبونك لانهم قد عرفوا صدقك وانما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك ۞ قوله عز وجل (ولقد كذبت رسل من قبلك) يعنى ولقد كذبت الامم الخالية رسلهم كما كذبك قومك (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) يعنى أن الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم اياهم وصبروا على أذاهم فاصبر أنت يامحمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر من كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وازالة حزنه على تكذيب قومه له وأذاهم اياه (حتى أتاهم نصرنا) يعنى باهلاك من كذبهم (ولا مبدل لكلمات الله) يعنى ولا ناقض لما حكم الله به من اهلاك المكذبين ونصر المرسلين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال الله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ولا خلف فيما وعد الله به وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) يعنى ولقد أنزلت عليك فى القرآن من أخبار المرسلين ما فيه تسلية لك وتسكين لقلبك وقال الاخفش من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هى للتبعيض لان الواصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصص بعض الانبياء وأخبارهم كما قال تعالى

ليسلموا فنزل (وان كان كبر عليك) عظم وشق (اعراضهم) عن الاسلام (فان استطعت أن تبتغي نفقا) منفذا تنفذ فيه الى ماتحت الارض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها (في الارض) صفة لنفقا (أو سلما في السماء فتأتيهم) منها (بآية) فافعل وهو جواب فان استطعت وان استطعت وجوابها جواب وان كان كبر والمعنى انك لا تستطيع ذلك والمراد بيان حرصه على اسلام قومه وانه لو استطاع أن

يأتيهم بآية من تحت الارض أو من فوق السماء لاتى بها رجاء ايمانهم (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) لجعلهم بحيث يختارون الهدى ولكن لما علم انهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك كذا قاله الشيخ أبو منصور رحمه الله (فلا تكونن من الجاهلين) من الذين يجهلون ذلك ثم أخبرانه حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله (انما يستجيب الذين يسمعون) أي انما يجيب دعاءك الذين يسمعون دعاءك بقلوبهم (والموتى) مبتدأ أي الكفار (يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا (وقالوا لولا نزل عليه) هلا أنزل عليه (آية من ربه) كما نقترح من جعل الصفا ذهبا وتوسيع أرض مكة وتفجير الانهار خلالها (قل ان الله قادر على أن ينزل آية) كما اقترحوا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله قادر على أن ينزل تلك الآية أو لا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزل

منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴿قوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم) ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية ان الحرث بن عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش وقال ائتنا بآية كما كانت الانبياء تأتي قومها بالآيات فان فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس ومعنى الآية وان كان عظم عليك يا محمد اعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والايمان بك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على ايمان قومه أشد الحرص وكان اذا سألوه آية أحب ان يريهم الله ذلك طمعا في ايمانهم فقال الله عز وجل (فان استطعت أن تبتغي) يعني تطلب وتتخذ (نفقا في الارض) يعني سربا في الارض والنفق سرب في الارض تخلص منه الى مكان آخر (أو سلما في السماء) يعني أو تتخذ مصعدا الى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) يعني بالآية التي سألوا عنها ومعنى الآية وان كان كبر وعظم عليك اعراض قومك عن الايمان بك فان قدرت ان تذهب في الارض أو تصعد الى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك فافعل وانما حسن حذف جواب الشرط لانه معلوم عند السامع والمقصود من هذا ان يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعه عن ايمانهم ولا يتأذى بسبب اعراضهم عنه وعن الايمان به ويدل عليه قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم انما تركوا الايمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وانه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكونن من الجاهلين) يعني بان لو شاء الله لجمعهم على الهدى وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم اياك ولا تجزع من اعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وانما نهاه عن هذه الحال وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة ﴿قوله عز وجل (انما يستجيب الذين يسمعون) يعني المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) يعني الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون (يبعثهم الله) يعني يوم القيامة (ثم اليه يرجعون) فيجزيهم باعمالهم (وقالوا) يعني رؤساء كفار قريش (لولا) يعني هلا (نزل عليه آية من ربه) يعني الملك ليشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الانبياء (قل) يعني قل لهم يا محمد (ان الله قادر على أن ينزل آية) يعني أنه تعالى قادر على ايجاد ما طلبوه وانزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعني ماذا عليهم في انزالها من العذاب ان لم يؤمنوا بها وقيل معناه انهم لا يعلمون أن الله قادر على انزال الآيات وقيل انهم لا يعلمون وجه المصلحة في انزالها ﴿قوله تعالى (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) قال العلماء جميع ما خلق الله عز وجل لا يخرج عن هاتين الحالتين اما أن يدب على الارض أو يطير في الهواء حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير لان الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء وانما خص ما في الارض بالذكر دون ما في السماء وان كان ما في السماء مخلوقا له لان الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد وانما ذكر الجناح في قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدي ونظرت بعيني الا أمم أمثالكم قال مجاهد أي أصناف مصنفة تعرف باسمائهم يريد أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة تعرف باسمائها مثل بني آدم يعرفون باسمائهم كما يقال الانس والناس ويدل على ان كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل

(وما من دابة) هي اسم لما يدب وتقع على المذكر والمؤنث (في الارض) في موضع جر صفة لدابة (ولا طائر يطير بجناحيه) قيد الطيران بالجناحين لنفي المجاز لان غير الطائر قد يقال فيه طار اذا أسرع (الا أمم أمثالكم) في الخلق والموت والبعث والاحتياج الى مدبر يدبر أمرها

(مافرطنا) ماتركنا (فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (من شئ) من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ماوجب أن يثبت أو الكتاب القرآن وقوله من شئ أى من شئ يحتاجون اليه فهو مشتمل على ماتعبدنا به عبارة واشارة ودلالة واقتضاء (ثم الى ربهم يحشرون) يعنى الامم كلها من الدواب والطيور فينصف بعضها من بعض كما روى انه يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا وانما قال الا أمم مع افراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال (والذين كذبوا بآياتنا صم) لا يسمعون كلام المنبه (وبكم) لا ينطقون بالحق خابطون (فى الظلمات) أى ظلمة الجهل والحيرة والكفر غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه صم وبكم خبر الذين ودخول الواو لا يمنع من ذلك وفى الظلمات خبر آخر ثم قال ايذانا بانه فعال لما يريد (من يشأ الله يضلله) أى من يشا الله ضلاله يضلله (ومن يشا يجعله على صراط مستقيم) وفيه دلالة خلق الافعال وارادة المعاصى ونفى الاصلح (قل أرأيتكم) و بتليين الهمزة مدنى و بتركه على ومعناه هل علمتم ان الامر كما يقال لكم فاخبرونى بما عندكم الضمير الثانى لا محل له من الاعراب والتاء ضمير الفاعل ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره أرأيتكم (ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) من تدعون ثم بكتهم بقوله (أغير الله تدعون) أى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم اذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها (ان كنتم صادقين) فى ان الاصنام آلهة فادعوها لتخلصكم (بل اياه تدعون) بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة (فيكشف ماتدعون اليه) أى ماتدعونه الى كشفه (ان شاء) ان أراد أن يتفضل عليكم (وتنسون ماتشركون) وتتركون آلهتكم أولا تذكرون آلهتكم فى ذلك الوقت لان أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده اذ هو القادر على كشف الضر دون غيره و يجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون كانه قيل أرأيتكم أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله

مغفل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الكلاب أمة من الامم لامرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى فان قلت ثبت بالآية والحديث ان الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة قلت اختلف العلماء فى وجه هذه المماثلة فقيل ان هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلى له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له وقيل انها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل انها يفهم بعضها عن بعض و يألف بعضها بعضا كما ان جنس الانس يألف بعضهم بعضا و يفهم بعضهم عن بعض وقيل أمثالكم فى طلب الرزق وتوقى المهالك ومعرفة الذكر والانثى وقيل أمثالكم فى الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى (مافرطنا فى الكتاب من شئ) يعنى فى اللوح المحفوظ لانه يشتمل جميع أحوال المخلوقات وقيل ان المراد بالكتاب القرآن يعنى ان القرآن مشتمل على جميع الاحوال (ثم الى ربهم يحشرون) يعنى الدواب والطير قال ابن عباس حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شئ فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا (م) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ۞ قوله عز وجل (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى بالقرآن و بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده (صم) يعنى عن سماع الحق (وبكم) يعنى عن النطق به والمعنى انهم فى حال كفرهم وتكذيبهم كمن لا يسمع ولا يتكلم ولهذا شبه الكفار بالموتى لان الميت لا يسمع ولا يتكلم (فى الظلمات) يعنى فى ظلمات الكفر حائرين مترددين فيها لا يهتدون سبيلا (من يشأ الله يضلله) يعنى عن الايمان (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يعنى ومن يشأ يجعله الله على دين الاسلام وفى هذا دليل على ان الهادى والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله واحسانه للايمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لانه تعالى هو الفاعل المختار لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ۞ قوله تعالى (قل أرأيتكم) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الاصنام أخبرونى تقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك وأصله أرأيتم والكاف فيه للتأكيد (ان أتاكم عذاب الله) يعنى قبل الموت مثل ما نزل بالامم الماضية الكافرة من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) يعنى القيامة (أغير الله تدعون) يعنى فى كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) يعنى فى دعواكم ومعنى الآية ان الكفار كانوا اذا نزل بهم شدة و بلاء رجعوا الى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الاصنام فقيل لهم أترجعون الى الله فى حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه فى حال اليسر والرخاء (بل اياه تدعون) يعنى بل تدعون الله ولا تدعون غيره فى كشف ما نزل بكم (فيكشف ماتدعون اليه ان شاء) يعنى فيكشف الضر الذى من أجله دعوتموه وانما قيد الاجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وان كانت الامور كلها بمشيئة الله تعالى (وتنسون ماتشركون) يعنى وتتركون دعاء الاصنام التى تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم انها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه انكم فى ترككم دعاء الاصنام بمنزلة من قد نسيها وهذا معنى

(ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) رسلا فالمفعول محذوف فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء والضراء) بالبؤس والضر والاول القحط والجوع والثانى المرض ونقصان الانفس والاموال (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتخشعون لربهم

ويتوبون عن ذنوبهم فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى هلا تضرعوا بالتوبة ومعناه نفى التضرع كأنه قيل فلم يتضرعوا اذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد انه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع الا عنادا (ولكن قست قلوبهم) فلم ينزجروا بما ابتلوا به وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وصاروا معجبين بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم (فلما نسوا ما ذكروا به) من الباساء والضراء أى تركوا الاتعاظ به ولم يزجرهم (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) من الصحة والسعة وصنوف النعمة فتحنا شامى (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) من الخير والنعمة (أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون) آيسون متحسرون وأصله الاطراق حزنا لما أصابه أو ندما على مافاته واذا للمفاجاة (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى اهلكوا عن آخرهم ولم يترك منهم أحد (والحمد لله رب العالمين) ايذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وانه من أجل النعم وأجزل القسم أو احمدوا الله على اهلاك من لم يحمد الله ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم) بأن أصمكم وأعماكم

قول الحسن لانه قال وتعرضون عنها اعراض الناسى لها ۞ قوله تعالى (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) فى الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك يا محمد رسلا فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع (فأخذناهم بالبأساء) يعنى بالفقر الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل البأساء شدة الجوع (والضراء) يعنى الامراض والاوجاع والزمانة (لعلهم يتضرعون) يعنى يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد وأصله من الضراعة وهى الذلة ومقصود الآية ان الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم انه قد أرسل من قبله رسلا الى أقوام بلغوا فى القسوة الى ان أخذوا بالبأساء والضراء وهى الشدة فى النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فلولا) يعنى فهلا (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفى التضرع فلم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم) يعنى ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) يعنى من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان اغواؤه بما فى المعصية من اللذة قال ابن عباس يريد زين الشيطان الضلالة التى كانوا عليها فاصروا على معاصى الله عز وجل ۞ قوله عز وجل (فلما نسوا ما ذكروا به) أى تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسى (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) يعنى بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة فى الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة فى الابدان والاجسام وذلك استدراج منه لهم وقيل فتحنا عليهم أبواب كل شئ من الخير كان مغلقا عنهم (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) يعنى فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة فى الابدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فانهم لما فتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتى من الدنيا (أخذناهم بغتة) يعنى جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة وقال اهل المعانى انما أخذوا فى حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف فى ضروب اللذة فاخذناهم فى آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا اليهم (فاذاهم مبلسون) أى آيسون من كل خير وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم الحزين والابلاس هو الاطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به الآية ذكره البغوى بغير سند واسنده الطبرى ۞ وقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم الذى يدبرهم يقال دبر فلان القوم اذا كان آخرهم والمعنى انهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية (والحمد لله رب العالمين) قال الزجاج حمد الله نفسه على ان قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا ان قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا اليهم فكذبوهم فذكر الحمد تعليما للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايته اياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم اذ أهلك المشركين المكذبين وقيل معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على انعامه على رسله وأهل طاعته باظهار حجتهم على من خالفهم واهلاك أعدائهم واستئصالهم بالعذاب ۞ قوله تعالى (قل أرأيتم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (ان أخذ الله سمعكم) يعنى الذى تسمعون به فاصمكم حتى لا تسمعوا شيأ (وأبصاركم) يعنى وأخذ أبصاركم التى تبصرون بها فاعماكم حتى لا تبصروا

(وختم على قلوبكم) فسلب العقول والتمييز (من اله غير الله يأتيكم به) بما أخذ وختم عليه من رفع بالابتداء واله خبره وغير صفة لاله وكذا يأتيكم والجملة في موضع مفعولي أرأيتم وجواب الشرط محذوف (انظر كيف نصرف) لهم (الآيات) نكررها (ثم هم يصدفون) يعرضون عن الآيات بعد ظهورها والصدوف الاعراض عن الشيء (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة)

بان لم تظهر أماراته (أو جهرة) بان ظهرت أماراته وعن الحسن ليلا أو نهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) ما يهلك هلاك تعذيب وسخط الا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار وان نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والادلة الساطعة (فمن آمن وأصلح) أي دوام على ايمانه (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) جعل العذاب ماسا كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) أي قسمه بين الخلق وأرزاقه ومحل (ولا أعلم الغيب) النصب عطفا على محل عندي خزائن الله لانه من جملة المقول كأنه قال لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول (ولا أقول لكم اني ملك) أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى الملكية وانما أدعي ما كان لكثير من البشر وهو النبوة (ان أتبع الا ما يوحى الي) أي ما أخبركم الا بما أنزل الله علي (قل هل يستوي الاعمى والبصير) مثل للضال والمهتدي أو لمن اتبع ما يوحى اليه ومن لم يتبع أو لمن يدعي المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الالهية

شيئا أصلا (وختم على قلوبكم) يعني حتى لا تفقهوا شيئا أصلا ولا تعرفوا شيئا مما تعرفون من أمور الدنيا وانما ذكر هذه الاعضاء الثلاثة لانها أشرف أعضاء الانسان فاذا تعطلت هذه الاعضاء اختل نظام الانسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره ان القادر على ايجاد هذه الاعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الاصنام التي تعبدونها وهو قوله تعالى (من اله غير الله يأتيكم به) يعني يأتيكم بما أخذ الله منكم لان الضمير في به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذي ذكر أولا ويندرج تحته غيره (انظر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره أي انظر يا محمد (كيف نصرف الآيات) يعني كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعني يعرضون عنها مكذبين لها (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة) يعني فجأة (أو جهرة) يعني معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس ليلا أو نهارا (هل يهلك الا القوم الظالمون) يعني المشركين لانهم ظلموا أنفسهم بالشرك ۞ قوله عز وجل (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) يعني لمن آمن بالثواب (ومنذرين) يعني لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس في ارسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات انما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن وأصلح) يعني آمن بهم وأصلح العمل لله (فلا خوف عليهم) يعني حين يخاف أهل النار (ولا هم يحزنون) أي اذا حزن غيرهم (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) يعني يصيبهم العذاب (بما كانوا يفسقون) يعني بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة ۞ قوله تعالى (قل لا أقول لكم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم (عندي خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم انما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء احرازه بحيث لا تناله الايدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لانهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي (ولا أعلم الغيب) يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون (ولا أقول لكم اني ملك) وذلك انهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ويتزوج النساء فأجابهم بقوله ولا أقول لكم اني ملك لان الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيئا من ذلك ولا أدعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري وانما نفى عن نفسه الشريفة هذه الاشياء تواضعا لله تعالى واعترافا له بالعبودية وان لا يقترحوا عليه الآيات العظام (ان أتبع الا ما يوحى الي) يعني ما أخبركم الا بوحي من الله أنزله علي ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم انه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وانه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وانه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر انما يتبع ما يوحى اليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب بوحي الله اليه وظاهر الآية يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد في شيء من الاحكام بل جميع أوامره ونواهيه انما كانت بوحي من الله اليه (قل هل يستوي الاعمى والبصير) يعني المؤمن والكافر

والضال والمهتدى والعالم والجاهل (أفلا تتفكرون) يعنى أنهما لا يستويان ۞ قوله عز وجل (وأنذر به) يعنى وخوف بالقرآن والانذار اعلام مع تخويف (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) قال ابن عباس يريد المؤمنين لانهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الاهوال وقيل معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابى وانما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وان كان انذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الخلائق لان الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر وقيل المراد بهم الكفار لانهم لا يعتقدون صحته ولذلك قال يخافون أن يحشروا الى ربهم وقيل المراد بالانذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لانه ليس أحد الا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشك فيه ولان دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وانذاره لجميع الخلق (ليس لهم من دونه) يعنى من دون الله (ولى) أى قريب ينفعهم (ولا شفيع) يعنى يشفع لهم ثم ان فسرنا الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم أن المراد بهم الكفار فلا اشكال فيه لقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وان فسرنا الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم أن المراد بهم المؤمنون ففيه اشكال لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الاشكال أن الشفاعة لا تكون الا باذن الله لقوله عز وجل من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع يعنى حتى يأذن الله لهم فى الشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولى وشفيع (لعلهم يتقون) يعنى ما نهيتهم عنه ۞ قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال سلمان وخباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قاعدا مع صهيب وبلال وعمار وخباب فى نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا يا رسول الله لو جلست فى صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعدهم ان شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فأتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قال ونحن قعود فى ناحية اذ نزل جبريل عليه السلام بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات وروى عن سعد بن أبى وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه أخرجه مسلم وقال الكلبى قالوا له يعنى أشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل المجلس واحدا وأقبل علينا وول ظهرك اليهم فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعنى

(أفلا تتفكرون) فلا تكونوا ضالين أشباه العميان أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى الى مما لابد لى منه (وأنذر به) بما يوحى (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) هم المسلمون المقرون بالبعث الا أنهم مفرطون فى العمل فينذرهم بما أوحى اليه أو أهل الكتاب لانهم مقرون بالبعث (ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) فى موضع الحال من يحشروا أى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم (لعلهم يتقون) يدخلون فى زمرة أهل التقوى ولما أمر النبى عليه السلام بانذار غير المتقين ليتقوا أمر بعد ذلك بتقريب المتقين ونهى عن طردهم بقوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها والمراد بذكر الغداة والعشى الدوام أو معناه يصلون صلاة الصبح والعصر أو الصلوات الخمس بالغدوة شامى ووسمهم بالاخلاص فى عبادتهم بقوله (يريدون وجهه) فالوجه يعبر به عن ذات الشئ وحقيقته نزلت فى الفقراء بلال وصهيب وعمار وأضرابهم حين قال رؤساء المشركين لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك فقال عليه السلام ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا اجعل لنا يوما ولهم يوما وطلبوا بذلك ابن
كتابا فدعا عليا رضى الله عنه ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية فنزلت فرمى عليه الصلاة والسلام بالصحيفة وأتى الفقراء فعانقهم

ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود مر ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعا لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية وقال عكرمة جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر الى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون والى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين فجاء عمر فاعتذر من مقالته قلت بين هذه الروايات والرواية الاولى التي عن سلمان وخباب بن الارت فرق كثير وبعد عظيم وهو ان اسلام سلمان كان بالمدينة وكان اسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الانعام مكية والصحيح ما روي عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك ويعضده حديث سعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء يعني ضعفاء المسلمين والله أعلم وأما معنى الآية فقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولا تبعدهم عن مجلسك لاجل ضعفهم وفقرهم ثم وصفهم فقال تعالى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي قال ابن عباس يعني يعبدون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه ان المراد منه الصلوات الخمس وانما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ولانهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ولان الصلاة تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى قال مجاهد صليت الصبح مع سعيد ابن المسيب فلما سلم الامام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب ما أسرع الناس الى هذا المجلس فقال مجاهد يتاولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشي قال أوفي هذا انما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس ان ناسا من الفقراء كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك واذا صلينا فأخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا وقيل المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفي النهار يريدون وجهه يعني يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين في عبادتهم له وقال ابن عباس يطلبون ثواب الله تعالى (ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) يعني لا تكاف أمرهم ولا يكلفون أمرك وقيل ما عليك حساب رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم انما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك (فتطردهم فتكون من الظالمين) يعني بطردهم عنك وعن مجلسك فقوله فتطردهم جواب النفي وهو قوله ما عليك من حسابهم من شئ وقوله فتكون من الظالمين جواب النهي وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لاجل الاشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح في العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج ان النبي صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم بطردهم لاجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهو التلطف بهؤلاء الاشراف في ادخالهم في الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فاعلمه الله تعالى أن ادناء هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فان الظلم في اللغة وضع الشئ في غير موضعه فيكون المعنى ان أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم

(ما عليك من حسابهم من شئ) كقوله ان حسابهم الا على ربي (وما من حسابك عليهم من شئ) وذلك أنهم طعنوا في دينهم واخلاصهم فقال حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم اليك كما ان حسابك عليك لا يتعداك اليهم (فتطردهم) جواب النفي وهو ما عليك من حسابهم (فتكون من الظالمين) جواب النهي وهو ولا تطردو يجوز أن يكون عطفا على فتطردهم على وجه التسبب لان كونه ظالما مسبب عن طردهم

(وكذلك فتنا بعضهم ببعض) ومثل ذلك الفتن العظيم ابتلينا الاغنيا بالفقراء (ليقولوا) أي الاغنياء (أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) أي أنعم الله عليهم بالايمان ونحن المقدمون والرؤساء وهم الفقراء انكار الان يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير ونحوه لو كان خيرا ماسبقونا اليه (أليس الله بأعلم بالشاكرين) بمن يشكر نعمته (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) اما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله اليهم واما أن يكون أمرا بان يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم وكذا قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) من جملة مايقول لهم ليبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم ومعناه وعدكم بالرحمة وعدا مؤكدا (انه) الضمير للشأن (من عمل منكم سوأ) ذنبا (بجهالة) في موضع الحال أي عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة أو جعل جاهلا لايثاره المعصية على الطاعة (ثم تاب من بعده) من بعد السوء أو العمل (وأصلح) وأخلص توبته (فانه غفور رحيم) أنه فانه شامي وعاصم الاول بدل الرحمة والثاني خبر مبتدا محذوف أي فشأنه أنه غفور رحيم أنه فانه مدني الاول بدل الرحمة والثاني مبتدأ أنه فانه غيرهم على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل انه من عمل منكم (وكذلك نفصل الآيات) ومعناه ولتستبين) و بالياء حمزة وعلي وأبو بكر (سبيل المجرمين) بالنصب مدني غيره بالرفع فرفع السبيل مع التاء والياء لانها تذكر وتؤنث ونصب

عنك فتضع الشئ في غير موضعه فهو من باب ترك الافضل والاولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم ﴿ قوله عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير والفقير بالغني والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الاغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم الى الاسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الاسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالاغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم (ليقولوا) يعني الاغنياء والشرفاء والرؤساء (أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) يعني من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فاجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعني انه تعالى أعلم بخلقه وباحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين ﴿ قوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن أبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والارقم بن أبي الارقم وأبي سلمة بن عبد الاسد وقيل ان الآية على اطلاقها في كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال ما أردت الا الخير نزلت واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (كتب ربكم) يعني فرض ربكم وقضى ربكم (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا انه تعالى يتصرف في عباده كيف شاء وأراد فاوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لانه أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين (أنه من عمل منكم سوأ بجهالة) قال مجاهد كل من عمل ذنبا أو خطيئة فهو بها جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لانه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب وقيل انه وان علم ان عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة الا انه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل انه لما فعل فعل الجهال نسب الى الجهل وان لم يكن جاهلا (ثم تاب من بعده) يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه (وأصلح) يعني أصلح العمل في المستقبل وقيل أخلص توبته وندم على فعله (فانه غفور) يعني لمن تاب من ذنوبه (رحيم) بعباده قال خالد بن دينار كنا اذا دخلنا على أبي العالية قال واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية عن أبي سعيد الخدري قال جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ علينا اذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان قارئ لنا يقرأ علينا وكنا نستمع الى كتاب الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم قال فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف منهم أحدا غيري ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود ﴿ وقوله عز وجل (وكذلك نفصل الآيات) يعني وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وابطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهيننا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك (سبيل المجرمين) يعني طريق هؤلاء المجرمين وقرئ بالياء على الغيبة

السبيل مع التاء على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقال استبان الامر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه ومن يرجى اسلامه وليستوضح سبيلهم فنعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل (قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أي صرفت (٢١) وزجرت بأدلة العقل والسمع

عن عبادة ما تعبدون من دون الله (قل لا أتبع أهواءكم) أي لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال (قد ضللت اذا) أي ان اتبعت أهواءكم فانا ضال (وما أنا من المهتدين) وما أنا من المهتدين في شئ يعني انكم كذلك ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله (قل اني على بينة من ربي) أي اني من معرفة ربي وانه لا معبود سواه على حجة واضحة (وكذبتم به) حيث أشركتم به غيره وقيل على بينة من ربي على حجة من جهة ربي وهو القرآن وكذبتم به بالبينة وذكر الضمير على تأويل البرهان أو البيان أو القرآن ثم عقبه بما دل على انهم أحقاء بان يعاقبوا بالعذاب فقال (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم فامطر علينا حجارة من السماء (ان الحكم الا لله) في تأخير عذابكم (يقص الحق) حجازي وعاصم أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره الباقون يقض الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل فالحق أي القضاء الحق صفة لمصدر يقضي وقوله (وهو خير الفاصلين) أي القاضين بالقضاء الحق اذ الفصل هو القضاء وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين (قل لو أن عندي) أي في قدرتي وامكاني (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضي الامر بيني وبينكم) لاهلكتكم عاجلا غضبا لربي (والله أعلم بالظالمين) فهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع (وعنده مفاتح الغيب

ومعناه وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار ۞ قوله تعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعني نهيت أن أعبد الاصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لان الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وانما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) يعني في عبادة الاصنام وطرد الفقراء (قد ضللت اذا) يعني اذ عبدتها (وما أنا من المهتدين) يعني لو عبدتها (قل) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين (اني على بينة من ربي) قال ابن عباس يعني على يقين من ربي وقيل البينة الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل والمعنى اني على بيان وبصيرة في عبادة ربي (وكذبتم به) يعني وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاء وكانوا يقولون يا محمد ائتنا بما تعدنا يعني من نزول العذاب فامر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ما عندي ما تستعجلون به لان انزال العذاب لا يقدر عليه الا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التي طلبوها واقترحوها فاعلم الله ان ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها (ان الحكم الا لله) يعني الحكم الذي يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصي أي ما الحكم المطلق الا لله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضي بانزال العذاب اذا شاء (يقص الحق) قرئ بالصاد المهملة ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق وقرئ يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعني انه تعالى يقضي القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) يعني وهو خير من بين وفصل وميز بين المحق والمبطل لانه لا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه (قل لو أن عندي ما تستعجلون به) يعني من انزال العذاب والاستعجال المطالبة بالشئ قبل وقته فلذلك كانت العجلة مذمومة والاسراع تقديم الشئ في وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة وقوله تعالى (لقضي الامر بيني وبينكم) يعني لانفصل ما بيني وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب (والله أعلم بالظالمين) يعني انه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحقونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم وقال والله أعلم بالظالمين وباحوالهم ۞ قوله عز وجل (وعنده مفاتح الغيب) المفتاح الذي يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه مفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهي مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التي يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن فعلى التفسير الاول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح هي التي يتوصل بها الى ما في الخزائن المستوثق منها بالاغلاق فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل الى ما فيها فهو عالم وكذلك ههنا لان الله تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة وعلى التفسير الثاني يكون المعنى وعنده

لايعلمها الاهو) المفاتح جمع مفتح وهو المفتاح وهي خزائن العذاب والرزق أو ماغاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والاحوال جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لان المفاتح يتوصل بها الى مافى الخزائن المستوثق منها بالاغلاق والاقفال ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل اليها فاراد أنه هو المتوصل الى المغيبات وحده لايتوصل اليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل الى مافى المخازن قيل عنده مفاتح الغيب وعندك مفاتح العيب فمن آمن بغيبه أسبل الله الستر على عيبه (ويعلم مافى البر) من النبات والدواب (والبحر) من الحيوان والجواهر وغيرهما (وماتسقط من ورقة الايعلمها) ماللنفي ومن للاستغراق أي يعلم عددها وأحوالها قبل السقوط وبعده (ولاحبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولايابس) عطف على ورقة وداخل فى حكمها وقوله (الافى كتاب مبين) كالتكرير لقوله الا يعلمها لان معنى الا يعلمها ومعنى الافى كتاب مبين واحد وهو علم الله أو اللوح ثم خاطب الكفرة بقوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أي يقبض أنفسكم عن التصرف بالتمام فى المنام (ويعلم ماجرحتم بالنهار) كسبتم فيه من الآثام (ثم يبعثكم فيه) ثم يوقظكم فى النهار أو التقدير ثم يبعثكم فى النهار ويعلم ماجرحتم فيه فقدم الكسب لانه أهم وليس فيه أنه لايعلم ماجرحنا بالليل ولا أنه لايتوفانا بالنهار فدل أن تخصيص الشئ بالذكر لايدل على نفي ماعداه (ليقضى أجل مسمى) لتوفى الآجال على الاستكمال (ثم اليه مرجعكم) رجوعكم بالبعث بعد الموت (ثم ينبئكم بما كنتم

خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين فى قوله وعنده مفاتح الغيب (لايعلمها الاهو) فقيل مفاتح الغيب خمس وهي ماروى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمها الا الله تعالى لايعلم أحد ما يكون فى غد الا الله ولا يعلم أحد ما يكون فى الارحام الا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يدرى أحد متى يجئ المطر وفى رواية أخرى لايعلم أحد ماتغيض الارحام الا الله ولا يعلم مافى غد الا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد الا الله ولا تدرى نفس باى أرض تموت الا الله ولا يعلم متى الساعة الا الله أخرجه البخارى وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الارض وعلم نزول العذاب وقال عطاء هو ماغاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هو علم مالم يكن بعد أن يكون اذ يكون كيف يكون ومالا يكون ان لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شئ الا مفاتح الغيب وقال ابن عباس انها خزائن غيب السموات والارض من الاقدار والارزاق (ويعلم مافى البر والبحر) قال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار لايحدث فيها شئ الا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر المعروفان لان جميع الارض اما بر واما بحر وفى كل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته مايدل على عظيم قدرته وسعة علمه (وماتسقط من ورقة الايعلمها) يريد ساقطة وثابتة والمعنى انه يعلم عدد مايسقط من الورق ومابقى على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهر البطن الى أن تسقط على الارض (ولاحبة فى ظلمات الارض) قيل هو الحب المعروف يكون فى بطن الارض قبل أن ينبت وقيل هي الحبة التى فى الصخرة التى فى أسفل الارضين (ولارطب ولايابس) قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ماينبت ومالاينبت وقيل المراد بالرطب الحى واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شئ لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة فان قلت ان جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر وما فائدة ذلك قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الاجمال ذكر من بعد ذلك الاجمال مايدل على التفصيل فذكر هذه الاشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة مافيهما من المعادن والحيوان وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن ادراكها ثم ذكر بعد ذلك ماهو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لان الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد لكن لايعلم عددها وكيفية خلقها الا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ماهو أصغر من الورقة وهي الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الاشياء وانه لايخرج شئ منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الامثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير ۞ قوله تعالى (الافى كتاب مبين) فيه قولان أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذى لايغير ولا يبدل والثانى أن المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ لان الله كتب فيه علم ما يكون وماقد كان قبل أن يخلق السموات والارض وفائدة احصاء الاشياء كلها فى هذا الكتاب لتقف الملائكة على انفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لايفوته شئ مما يصنعون لانه من أثبت مالا ثواب فيه ولاعقاب فى كتاب فهو الى اثبات مافيه ثواب وعقاب أسرع ۞ قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) يعنى يقبض أرواحكم اذا نمتم بالليل (ويعلم ماجرحتم) ما كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) أي يوقظكم فيه أي فى النهار (ليقضى أجل مسمى) يعنى أجل الحياة الى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم اليه مرجعكم) فى الآخرة (ثم ينبئكم) أي يخبركم (بما كنتم تعملون

تعملون) ۞ قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) يعنى وهو العالى عليهم بقدرته لان كل من قهر شيأ وغلبه فهو مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان يعنى أقدر منه وأغلب هذا مذهب أهل التأويل فى معنى لفظة فوق فى قوله وهو القاهر فوق عباده وأما مذهب السلف فيها فامرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا اطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شئ بضده فقهر الحياة بالموت والايجاد بالاعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة ۞ وقوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) يعنى أن من جملة قهره لعباده ارسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الاقوال والافعال قيل ان مع كل انسان ملكين ملكا عن يمينه وملكا عن شماله فاذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فان لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة جعل الملائكة موكلين بالانسان أنه اذا علم أن له حافظا من الملائكة موكلا به يحفظ عليه أقواله وأفعاله فى صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤس الاشهاد كان ذلك زاجرا له عن فعل القبيح وترك المعاصى وقيل المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بنى آدم ويحفظون أجسادهم قال قتادة حفظة يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) يعنى أعوان ملك الموت الموكلين بقبض أرواح البشر فان قلت قال الله تعالى فى آية الله يتوفى الانفس حين موتها وقال فى آية اخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفى فى الحقيقة هو الله تعالى فاذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فاذا وصلت الى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وانما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له وقال مجاهد جعلت الارض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له أعوان ينزعون الانفس ثم يقبضها منهم وقال أيضا ما من أهل بيت شعر ولا مدر الا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين وقيل ان الارواح اذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له ۞ وقوله (وهم لا يفرطون) يعنى الرسل لا يقصرون فيما أمروا به ولا يضيعونه ۞ قوله عز وجل (ثم ردوا الى الله مولاهم الحق) يعنى ثم رد العباد بالموت الى الله فى الآخرة وانما قال مولاهم الحق لانهم كانوا فى الدنيا تحت أيدى موال بالباطل والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق (ألا له الحكم) يعنى لا حكم الا له (وهو أسرع الحاسبين) يعنى أنه تعالى أسرع من حسب لانه لا يحتاج الى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض ۞ قوله تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يعنى يا محمد قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام من دون الله من ذا الذى ينجيكم من ظلمات البر اذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذى ينجيكم من ظلمات البحر اذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والاهوال وقيل الحمل على الحقيقة أولى فظلمات البر هى ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء الى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والامواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضا الخوف الشديد من الوقوع فى الهلاك فالمقصود ان عند اجتماع هذه الاسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الانسان فيها الا الى الله سبحانه وتعالى لانه هو القادر على كشف الكروب وازالة

بالحواس ويكون بها السمع والبصر والاخذ والمشى والشم ومعنى ثم يبعثكم فيه أى يوقظكم ويرد اليكم أرواح الحواس فيستدل به على منكرى البعث لانه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس ثم يردها اليها فكذا يحيى الانفس بعد موتها (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ملائكة حافظين لاعمالكم وهم الكرام الكاتبون ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد اذا تفكروا أن صحائفهم تقرأ على رؤس الاشهاد (حتى اذا جاء أحدكم الموت) حتى لغاية حفظ الاعمال أى وذلك دأب الملائكة مع المكلف مدة الحياة الى أن يأتيه الممات (توفته رسلنا) أى استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه توفيه واستوفيه بالاماله حمزة رسُلْنا أبو عمرو (وهم لا يفرطون) لا يتوانون ولا يؤخرون (ثم ردوا الى الله) الى حكمه وجزائه أى رد المتوفون برد الملائكة (مولاهم) مالكهم الذى يلى عليهم أمورهم (الحق) العدل الذى لا يحكم الا بالحق وهما صفتان لله (ألا له الحكم) يومئذ لا حكم فيه لغيره (وهو أسرع الحاسبين) لا يشغله حساب عن حساب يحاسب جميع الخلق فى مقدار حلب شاة وقيل الرد الى من رباك خير من البقاء مع من آذاك (قل من ينجيكم) ينجيكم عباس (من ظلمات البر والبحر)

الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا وخفية) يعنى فاذا اشتد بكم الامر تخاصون له الدعاء تضرعا منكم اليه واستكانة جهرا وخفية يعنى سرا حالا وحالا (لئن أنجيتنا من هذه) يعنى قائلين فى حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها (قل الله ينجيكم منها) يعنى من الظلمات والشدائد التى أنتم فيها (ومن كل كرب) يعنى وهو الذى ينجيكم من كل كرب أيضا والكرب هو الغم الشديد الذى يأخذ بالنفس (ثم أنتم تشركون) يريد أنهم يقرون بأن الذى أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم انهم بعد ذلك الاقرار يشركون معه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ۞ قوله عز وجل (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) أى قل يا محمد لقومك ان الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم يعنى الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط (أو من تحت أرجلكم) يعنى الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وقال ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعنى أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعنى عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعنى من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعنى السفلة (أو يلبسكم شيعا) الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وقيل الشيعة هم الذين يتقوى بهم الانسان قال الزجاج فى قوله أو يلبسكم شيعا يعنى يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس قوله أو يلبسكم شيعا يعنى الاهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعنى أنه يقتل بعضكم بيد بعض وقال مجاهد يعنى أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف وقال ابن زيد هو الذى فيه الناس اليوم من الاختلاف والاهواء وسفك بعضهم دماء بعض ثم اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية فقال قوم عنى بها المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية قال أبو العالية فى قوله قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية قال هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فالبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لابد واقعتان يعنى الخسف والمسخ وعن أبى ابن كعب نحوه هن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم وقال مجاهد فى قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لامة محمد فاعفاهم منه أو يلبسكم شيعا ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعنى ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر (م) عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى اذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها وسألت ربى أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها عن خباب ابن الارت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل انها صلاة رغبة ورهبة انى سألت الله فيها ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته أن لا يهلك أمتى بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته ان لا يذيق بعضهم بأس بعض

فمنعنيها

مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق والبحر الامواج وكلاهما فى الغيم والليل (تدعونه) حال من ضمير المفعول فى ينجيكم (تضرعا) معلنين الضراعة وهو مصدر فى موضع الحال وكذا (وخفية) أى مسرين فى أنفسهم خفية حيث كان أبو بكر وهما لغتان (لئن أنجانا) عاصم وبالامالة حمزة وعلى الباقون أنجيتنا والمعنى يقولون لئن خلصنا (من هذه) الظلمات (لنكونن من الشاكرين) لله تعالى (قل الله ينجيكم) بالتشديد كوفى (منها) من الظلمات (ومن كل كرب) وغم وحزن (ثم أنتم تشركون) ولا تشكرون (قل هو القادر) هو الذى عرفتموه قادرا أو هو الكامل القدرة فاللام يحتمل العهد والجنس (على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة (أو من تحت أرجلكم) كما أغرق فرعون وخسف بقارون أو من قبل سلاطينكم وسفلتكم أو هو حبس المطر والنبات أو يلبسكم شيعا أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى كل فرقة منكم مشايعة لامام ومعنى خلطهم أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا فى ملاحم القتال (ويذيق بعضكم بأس بعض) يقتل بعضكم بعضا والبأس السيف وعنه عليه الصلاة والسلام سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى وأخبرنى

فنعمنيها أخرجه الترمذي ۞ وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين (لعلهم يفقهون) يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ۞ قوله تعالى (وكذب به قومك) يعني بالقرآن (وهو الحق) يعني في كونه كتابا منزلا من عند الله وقيل الضمير في به يرجع الى العذاب وهو الحق يعني انه نازل بهم ان أقاموا على كفرهم وتكذيبهم وقيل الضمير يرجع الى تصريف الآيات وهو الحق لانهم كذبوا كونها من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الحق بل انما أنا منذر والله هو المجازي لكم على أعمالكم وقيل معناه اني انما أدعوكم الى الله والى الايمان به ولم أومر بحربكم فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وقيل في معنى الآية قل لست عليكم بوكيل يعني حفيظا انما أطالبكم بالظاهر من الاقرار والعمل لا بما تحويه الضمائر والاسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة (لكل نبأ مستقر) أي لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهي اليه اما في الدنيا واما في الآخرة وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر (وسوف تعلمون) يعني صحة هذا الخبر اما في الدنيا واما في الآخرة ۞ قوله تعالى (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) الخطاب في واذا رأيت للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى واذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آياتنا يعني القرآن الذي انزلناه اليك والخوض في اللغة هو الشروع في الماء والعبور فيه ويستعار للاخذ في الحديث والشروع فيه يقال تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله وكنا نخوض مع الخائضين وقيل الخطاب في واذا رأيت لكل فرد من الناس والمعنى واذا رأيت أيها الانسان الذين يخوضون في آياتنا وذلك أن المشركين كانوا اذا جالسوا المؤمنين وقعوا في الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه فنهاهم الله أن يقعدوا معهم في وقت الاستهزاء بقوله (فاعرض عنهم) يعني فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) يعني حتى يكون خوضهم في غير القرآن والاستهزاء به (واما ينسينك الشيطان) يعني فقعدت معهم (فلا تقعد بعد الذكرى) يعني اذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد (مع القوم الظالمين) يعني المشركين ۞ قوله تعالى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم قال المسلمون كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا وفي رواية قال المسلمون انا نخاف الاثم حين نتركهم ولا ننهاهم فانزل الله هذه الآية وما على الذين يتقون يعني يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شئ يعني ليس عليهم شئ من حسابهم ولا آثامهم (ولكن ذكرى) يعني ولكن ذكروهم ذكرى وقيل معناه ولكن عليكم أن تذكروهم (لعلهم يتقون) يعني لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء

﴿فصل﴾ قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها وذهب الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ لانها انما دلت على ان كل انسان انما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره وقيل انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة ۞ قوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وذر يا محمد هؤلاء

جبريل أن فناء أمتي بالسيف (انظر كيف نصرف الآيات) بالوعد والوعيد (لعلهم يفقهون وكذب به) بالقرآن أو بالعذاب (قومك) قريش (وهو الحق) أي الصدق أو لابد أن ينزل بهم (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل

الى أمركم انما أنا منذر (لكل نبأ) لكل شئ ينبأ به يعني انباءهم بانهم يعذبون وايعادهم به (مستقر) وقت استقرار وحصول لابد منه (وسوف تعلمون) تهديد (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) أي القرآن يعني يخوضون في الاستهزاء بها والطعن فيها وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك (فاعرض عنهم) ولا تجالسهم وقم عنهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) غير القرآن مما يحل فحينئذ يجوز أن تجالسهم (واما ينسينك الشيطان) ما نهيت عنه بسينك شامي نسي وأنسي واحد (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكر (مع القوم الظالمين وما على الذين يتقون من حسابهم) من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكذيبا واستهزاء (من شئ) أي وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شئ مما يحاسبون عليه من ذنوبهم (ولكن) عليهم أن يذكروهم (ذكرى) اذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم واظهار الكراهة لهم وموعظتهم ومحل ذكرى نصب أي ولكن يذكرونهم ذكرى أي تذكيرا أو رفع والتقدير ولكن عليهم ذكرى فذكرى مبتدأ والخبر محذوف (لعلهم يتقون) لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم (وذر الذين اتخذوا دينهم) الذي كلفوه ودعوا اليه وهو دين الاسلام (لعبا ولهوا) سخروا به واستهزؤا ومعنى ذرهم أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم

واستهزائهم واللهو مايشغل الانسان من هوى أوطرب (وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به) وعظ القرآن (أن تبسل نفس بما كسبت) مخافة أن تسلم الى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الابسال المنع (ليس لها من دون الله ولى) ينصرها بالقوة (ولا شفيع) يدفع عنها بالمسئلة ولا وقف على كسبت فى الصحيح لان قوله ليس لها صفة لنفس والمعنى وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس عادمة وليا وشفيعا بكسبها (وان تعدل كل عدل) (٢٦) نصب على الصدر وان تفد كل فداء والعدل الفدية لان الفادى يعدل المفدى بمثله وفاعل (لايؤخذ منها) لاضمير العدل لان العدل هنا مصدر فلا يسند اليه الاخذ وأما فى قوله ولا يؤخذ منها عدل فبمعنى المفدى به فصح اسناده اليه (أولئك) اشارة الى المتخذين دينهم لعبا ولهوا وهو مبتدأ والخبر (الذين أبسلوا بما كسبوا) وقوله (لهم شراب من حميم) اى ماء سخين حار خبر ثان لاولئك والتقدير أولئك المبسلون ثابت لهم شراب من حميم أومستأنف (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) بكفرهم (قل) لابى بكر يقل لابنه عبد الرحمن وكان يدعو أباه الى عبادة الاوثان (أندعوا) أنعبد (من دون الله) الضار النافع (مالا ينفعنا) مالا يقدر على نفعنا ان دعوناه (ولا يضرنا) ان تركناه (ونرد) وأنرد (على أعقابنا) راجعين الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) للاسلام وأنقذنا من عبادة لاصنام (كالذى استهوته الشياطين) كالذى ذهبت به الغيلان ومردة الجن والكاف وجعل في محل النصب على الحال من الضمير فى نرد على أعقابنا أى أننكص مشبهين من استهوته الشياطين وهو استفعال من هوى فى الارض اذا ذهب فيها كان معناه طلبت هويه (فى الارض) فى المهمه (حيران) حال من مفعول استهوته أى تائها ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع (له) لهذا المستهوى (أصحاب) رفقة (يدعونه الى الهدى) الى أن يهدوه الطريق سمى الطريق المستقيم بالهدى يقولون له (ائتنا) وقد اعتسف المهمه تابعا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم وهذا مبنى على مايقال ان الجن تستهوى الانسان والغيلان تستولى عليه فشبه به

المشركين الذين اتخذوا دينهم الذى أمروا به ودعوا اليه وهو دين الاسلام لعبا ولهوا وذلك حيث سخروا به واستهزؤا به وقيل انهم اتخذوا عبادة الاصنام لعبا ولهوا وقيل ان الكفار كانوا اذا أسمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه وقيل ان الله جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم يعنى عيدهم لعبا ولهوا يلعبون ويلهون فيه الا المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيرا وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا الاجل انهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فاعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ومعنى الآية وذر يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا واتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضى الاعراض عنهم ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدى وقيل انه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ذرنى ومن خلقت وحيدا وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة وقيل المراد بالاعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لاترك الانذار والتخويف ويدل عليه قوله (وذكر به) يعنى وذكر بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين (أن تبسل نفس بما كسبت) أى لئلا تبسل نفس وأصل البسل فى اللغة التحريم وضم الشئ ومنعه وهذا عليك بسل أى حرام ممنوع فمعنى تبسل نفس بما كسبت ترتهن وتحبس فى جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام وقال ابن عباس تبسل تهلك وقال قتادة تحبس يعنى فى جهنم وقال الضحاك تحرق بالنار وقال ابن زيد تؤخذ يعنى بما كسبت وقيل تفضح والمعنى وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكى لاتهلك نفس وترتهن فى جهنم بسبب الجنايات التى اكتسبت فى الدنيا وتحرم الثواب فى الآخرة (ليس لها) يعنى لتلك النفس التى هلكت (من دون الله ولى) أى لتقريب الى أمرها (ولا شفيع) يعنى يشفع لها فى الآخرة (وان تعدل كل عدل) يعنى وان تفتد بكل فداء والعدل الفداء (لايؤخذ منها) يعنى ذلك العدل وتلك الفدية (أولئك الذين) اشارة الى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا (أبسلوا بما كسبوا) يعنى أسلموا الى الهلاك بسبب ما اكتسبوا (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ذلك لهم بسبب كفرهم ۞ قوله تعالى (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائك أندعو يعنى أنعبد من دون الله يعنى الاصنام التى لاتنفع من عبدها ولا تضر من ترك عبادتها (ونرد على أعقابنا) يعنى ونرد الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) يعنى الى دين الاسلام والتوحيد (كالذى استهوته الشياطين فى الارض) يعنى كالذى ذهبت به الشياطين فالقته فى هوية من الارض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى الى أسفل (حيران) يقال حار فلان فى الامر اذا تردد فيه فلم يهتد الى الصواب ولا المخرج منه (له أصحاب يدعونه الى الهدى) يعنى لهذا المتحير الذى استهوته الشياطين أصحاب على الطريق المستقيم (ائتنا) يعنى يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو الى عبادة الاصنام التى لاتضر ولا تنفع ولمن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذى يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل فى رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه ورفقته يدعونه اليهم يقولون هلم الى الطريق المستقيم

وجعل الغيلان يدعونه اليهم فبقى حيران لا يدرى أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك وان أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل ان هدى الله هو الهدى) يعنى ان طريق الله الذى أوضحه لعباده ودينه الذى شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الاصنام ففيه زجر عن عبادتها كانه يقول لا تفعل ذلك فان هدى الله هو الهدى لا هدى غيره (وأمرنا لنسلم) أى وأمرنا أن نسلم ونخلص العبادة (لرب العالمين) لانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره (وان أقيموا الصلاة واتقوه) يعنى وأمرنا باقامة الصلاة والتقوى لان فيهما ما يقرب اليه (وهو الذى اليه تحشرون) يعنى فى يوم القيامة فيجزيكم باعمالكم ۞ قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) يعنى اظهارا للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لانه جعل صنعه دليلا على وحدانيته وقيل خلقها بكمال قدرته وشمول علمه واتقان صنعه وكل ذلك حق وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قوله كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لا يخلق مخلوق بمخلوق (ويوم يقول كن فيكون) وقيل انه راجع الى خلق السموات والارض والمعنى اذكر يوم قال للسموات والارض كن فيكون وقيل يرجع الى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كانه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء (قوله الحق) يعنى أن قول الله تبارك وتعالى للشئ اذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) انما أخبر عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى خالصا فى كل وقت فى الدنيا والآخرة لانه لا منازع له يومئذ يدعى الملك وانه المنفرد بالملك يومئذ وان من كان يدعى الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا فى الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بان الملك لله الواحد القهار وانه لا منازع له فيه وعلموا أن الذى كانوا يدعونه من الملك فى الدنيا باطل وغرور واختلف العلماء فى الصور المذكور فى الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن قال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور فقال قرن ينفخ فيه أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه فقالوا كيف نفعل يارسول الله وكيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وربما قال توكلنا على الله أخرجه الترمذى وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها بنفخ الروح فيها وهذا قول الحسن ومقاتل والقول الاول أصح لما تقدم فى الحديث ولقوله تعالى فى آية أخرى ثم نفخ فيه أخرى ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعنى انه تعالى يعلم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم) يعنى فى جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) يعنى بكل ما يفعلونه من خير أو شر ۞ قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) اختلف العلماء فى لفظ آزر فقال محمد بن اسحق والكلبى والضحاك آزر اسم أبى ابراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لابى ابراهيم اسمان آزر وتارح مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الاصلى آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى وهى قرية من سواد الكوفة وقال سليمان التيمى آزر سب وعيب ومعناه فى كلامهم المعوج وقيل الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن فى القرآن ألفاظا قليلة فارسية وقيل هو المخطئ فكان ابراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيئا أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود

(قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وحده وما وراءه ضلال (وأمرنا) محله النصب بالعطف على محل ان هدى الله هو الهدى على أنهما مقولان كانه قيل قل هذا القول وقل أمرنا (لنسلم لرب العالمين وان أقيموا الصلاة) والتقدير وأمرنا لان نسلم ولان أقيموا أى للاسلام ولاقامة الصلاة (واتقوه وهو الذى اليه تحشرون) يوم القيامة (وهو الذى خلق السموات والارض بالحق) بالحكمة أو محقا (ويوم يقول كن فيكون) على الخبر دون الجواب (قوله الحق) مبتدأ ويوم يقول خبره مقدما عليه كما تقول يوم الجمعة قولك الصدق أى قولك الصدق كائن يوم الجمعة واليوم بمعنى الحين والمعنى انه خلق السموات والارض بالحق والحكمة وحين يقول لشئ من الاشياء كن فيكون ذلك الشئ قوله الحق والحكمة أى لا يكون شئ من السموات والارض وسائر المكونات الا عن حكمة وصواب (وله الملك) مبتدأ وخبر (يوم ينفخ) ظرف لقوله وله الملك (فى الصور) هو القرن بلغة اليمن أو جمع صورة (عالم الغيب) هو عالم الغيب (والشهادة) أى السر والعلانية (وهو الحكيم) فى الافناء والاحياء (الخبير) بالحساب والجزاء (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) هو اسم أبيه أو لقبه لانه

أو المحبوب اسمائه فهو كقوله يوم ندعو كل أناس بامامهم وقيل معناه واذ قال ابراهيم لابيه يا عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه والصحيح هو الاول ان آزر اسم لابي ابراهيم لان الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين ان اسمه تارخ ففيه نظر لانهم انما نقلوه عن أصحاب الاخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم وقد أخرج البخارى فى افراده من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة الحديث فسماه النبى صلى الله عليه وسلم آزرا أيضا ولم يقل أباه تارخ فثبت بهذا ان اسمه الاصلى آزر لا تارخ والله أعلم ۞ وقوله تعالى (أتتخذ أصناما آلهة) معناه اذكر لقومك يا محمد قول ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذى خلقك ورزقك والاصنام جمع صنم وهو التمثال الذى يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الانسان وهو الوثن أيضا (انى أراك وقومك فى ضلال مبين) يعنى يقول ابراهيم لابيه آزر انى أراك وقومك الذين يعبدون الاصنام معك و يتخذونها آلهة فى ضلال يعنى عن طريق الحق مبين يعنى بين لمن أبصر ذلك فانه لا يشك ان هذه الاصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركى العرب باحوال ابراهيم ومحاجته لابيه وقومه لانهم كانوا يعظمون ابراهيم صلى الله عليه وسلم و يعترفون بفضله فلا جرم ذكر الله قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه فى معرض الاحتجاج على المشركين ۞ قوله عز وجل (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض) معناه وكما أرينا ابراهيم البصيرة فى دينه والحق فى خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال فى عبادة الاصنام نريه ملكوت السموات والارض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل فى قوله وكذلك نرى ابراهيم لانه تعالى كان أراه بعين البصيرة ان أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بان أراه بعد ذلك ملكوت السموات والارض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة وقال ابن عباس يعنى خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسى وما فى السموات من العجائب وحتى رأى مكانه فى الجنة فذلك قوله وآتيناه أجره فى الدنيا يعنى أريناه مكانه فى الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر الى أسفل الارضين ورأى ما فيهما من العجائب قال البغوى وروى عن سلمان ورفعه بعضهم عن على قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى يا ابراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانما أنا من عبدى على ثلاث خلال اما أن يتوب الى فاتوب عليه واما أن أخرج منه نسمة تعبدنى واما أن يبعث الى فان شئت عفوت وان شئت عاقبت وفى رواية وان تولى فان جهنم من ورائه قال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار واختلف فى هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين أحدهما انها كانت بعين البصر الظاهر فشق لابراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الارض حتى رأى ما فى بطنها والقول الثانى ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ملكوت السموات والارض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف الا بالعقل فبان بهذا ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة الا أن يقال المراد بملكوت السموات والارض نفس السموات والارض وقوله تعالى (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ليستدل به وليكون من الموقنين واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لان الانسان فى أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة فى القلب وزالت

خلاف بين النسابين ان اسم أبيه تارخ وهو عطف بيان لابيه وزنه فاعل (أتتخذ أصناما آلهة) استفهام توبيخ أى أتتخذها آلهة وهى لا تستحق الالهية (انى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك) أى وكما أريناه قبح الشرك (نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض) أى نرى بصيرته لطائف خلق السموات والارض ونرى حكاية حال ماضية والملكوت أبلغ من الملك لان الواو والتاء تزادان للمبالغة قال مجاهد فرجت له السموات السبع فنظر الى ما فيهن حتى انتهى نظره الى العرش وفرجت له الارضون السبع حتى نظر الى ما فيهن (وليكون من الموقنين) فعلنا ذلك أو ليستدل وليكون من الموقنين عيانا كما أيقن بيانا

الشبهة عنده ذلك قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلاله الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شئ من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لا تستطيع هذا فرده الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك أريناه ملكوت السموات والارض ليكون ممن يوقن علم كل شئ حساوخبرا ۞ قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) يقال جن الليل وأجن اذا أظلم وغطى كل شئ وأجنه الليل وجن عليه اذا ستره بسواده (رأى كوكبا قال هذا ربي)

﴿ذكر القصة في ذلك﴾

قال أهل التفسير وأصحاب الاخبار والسير ولد ابراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك في كتب الانبياء وقال السدي رأى نمرود في منامه كأن كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه فامر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم فاذا حاضت المرأة خلي بينها وبين زوجها لانهم كانوا لا يجامعون في المحيض فاذا طهرت من المحيض حالوا بينهما قالوا فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بابراهيم وقال محمد بن اسحق بعث نمرود الى كل امرأة حبلى بقرية فحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها وقال السدي فخرج نمرود بالرجال الى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود فمكث بذلك ماشاء الله ثم بدت له حاجة الى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه الا آزر فبعث اليه فاحضره عنده وقال له ان لي اليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها الا لثقتي بك فاقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فاوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت اليهم فلما دخل على أم ابراهيم ونظر اليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم قال الكهان لنمرود ان الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة فامر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم ابراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها قالوا فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فاخبرت زوجها بانها ولدت وان الولد في موضع كذا فانطلق اليه أبوه فاخذه من ذلك المكان وحفر له سربا في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف اليه فترضعه وقال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة كانت قريبا منها فولدت فيها ابراهيم وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه لتنظر ما فعل فتجده حيا وهو يمص ابهامه قال أبو روق قالت أم ابراهيم لانظرن الى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع سمنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها وكان ابراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال اخرجيني فاخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والارض وقال ان الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي مالي اله غيره ونظر في السماء فرأى كوكبا قال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي وأتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا الى آخره ثم رجعت به الى أبيه آزر وقد استقامت وجهته

(فلما جن عليه الليل) أي أظلم وهو عطف على قال ابراهيم لابيه وقوله وكذلك نري ابراهيم جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه (رأى كوكبا) أي الزهرة أو المشتري وكان أبوه وقومه يعبدون الاصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم الى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد الى أن شيأ منها ليس باله لقيام دليل الحدوث فيها ولان لها محدثا أحدثها ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه (قال هذا ربي) أي قال لهم هذا ربي في زعمكم أو المراد أهذا استهزاء بهم وانكارا عليهم والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت والصحيح ان هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لانه أدعى الى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة

وعرف ربه وبرئ من دين قومه الا أنه لم ينادهم بذلك فلما رجعت به أمه أخبرته انه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحا شديدا وقيل انه مكث فى السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة قالوا فلما شب ابراهيم وهو فى السرب قال لامه من ربى قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال فمن رب أبى قالت اسكت ثم رجعت الى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى كنا نحدث انه يغير دين أهل الارض فانه ابنك ثم أخبرته بما قال فاتاه أبوه آزر فقال ابراهيم يا أبتاه من ربى قال أمك قال فمن رب أمى قال أنا قال فمن ربك قال نمرود قال فمن رب نمرود فلطمه لطمة وقال اسكت فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر فى خلال الصخرة فابصر كوكبا قال هذا ربى ويقال انه قال لابويه أخرجانى فاخرجاه من السرب حين غابت الشمس فنظر ابراهيم الى الابل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه قال ابل وخيل وغنم فقال ابراهيم ما لهذه بد من أن يكون لها اله وهو ربها وخالقها ثم نظر فاذا المشترى قد طلع ويقال انها الزهرة وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل فلما جن عليه الليل يعنى ستره بظلامه رأى كوكبا قال هذا ربى ثم اختلف العلماء فى وقت هذه الرؤية وفى وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين أحدهما انه كان قبل البلوغ فى حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذى صدر من ابراهيم فى هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لان الاحكام انما تثبت بعد البلوغ وقيل ان ابراهيم لما خرج من السرب فى حال صغره ونظر الى السماء وما فيها من العجائب ونظر الى الارض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر فى نفسه وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو اله الخلق ثم نظر فى حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر فقال هذا ربى على ما سبق الى وهمه وذلك فى حال طفوليته وقبل استحكام النظر فى معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لا يكون الا فى حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مرضى لان الانبياء معصومون فى كل حال من الاحوال وانه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتى عليه وقت من الاوقات الا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه برىء وكيف يتوهم هذا على ابراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والارض أفبرؤية الكوكب يقول معتقدا هذا ربى حاشا ابراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لان منصبه أعلى وأشرف من ذلك صلى الله عليه وسلم والقول الثانى الذى عليه جمهور المحققين ان هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ ابراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول فى تاويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوها الوجه الاول أن ابراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم فى تعظيم النجوم وعبادتها لانهم كانوا يرون ان كل الامور اليها فاراهم ابراهيم انه معظم ما عظموه فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والافول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الالوهية ومثل هذا كمثل الحوارى الذى ورد على قوم كانوا يعبدون صنما فاظهر تعظيمه فاكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه فى كثير من أمورهم الى أن دهمهم عدو لا قبل لهم به فشاوروه فى أمر هذا العدو فقال الرأى عندى أن ندعوا هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون اليه فلم يغن شيأ فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يدفع دعاهم الحوارى وأمرهم أن يدعوا الله عز وجل ويسألوه أن يكشف عنهم ما نزل بهم فدعوا الله مخلصين فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فاسلموا جميعا الوجه الثانى ان ابراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام انكار وتوبيخ لقومه تقديره أهذا ربى الذى تزعمون واسقاط

حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى أفإن مت فهم الخالدون يعني أفهم الخالدون والمعنى أيكون هذا ربا ودلائل النقص فيه ظاهرة الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان الها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم يعني عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى انظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا يريد الهك بزعمك الوجه الرابع ان في هذه الآية اضمارا تقديره يقولون هذا ربي واضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا أي يقولان ربنا تقبل منا الوجه الخامس ان الله تعالى قال في حقه وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال بعده فلما جن عليه الليل والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا ان هذه الواقعة كانت بعد ان أراه الله ملكوت السموات والارض وبعد الايقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله ان يعبد الكواكب ويتخذها ربا فاما الجواب عن قوله لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فان الانبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبت ومنه قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام وأما قوله تعالى (فلما أفل) يعني غاب والافول غيبة النيرات (قال) يعني ابراهيم (لا أحب الآفلين) يعني لا أحب ربا يغيب ويطلع لان أمارات الحدوث فيه ظاهرة ۞ قوله تعالى (فلما رأى القمر بازغا) يعني طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربي) معناه ما تقدم من الكلام في الكوكب (فلما أفل) يعني غاب (قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) يعني ان لم يثبتني ربي على الهدى وليس المراد انه لم يكن مهتديا لان الانبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لان ابراهيم أضاف الهداية لله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) يعني طالعة (قال هذا ربي) يعني هذا الطالع أو انه أشار الى الضياء والنور لانه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل انما قال هذا ولم يقل هذه لان تانيث الشمس غير حقيقي فلهذا أتى بلفظ التذكير (هذا أكبر) يعني من الكوكب والقمر (فلما أفلت) يعني فلما غابت الشمس (قال ياقوم اني بريء مما تشركون) يعني انه لما أثبت ابراهيم عليه السلام بالدليل القطعي ان هذه النجوم ليست بآلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه انه بريء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال (اني وجهت وجهي) يعني اني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي (للذي فطر السموات والارض) يعني للذي خلقهما وابتدعهما (حنيفا) يعني مائلا عن عبادة كل شئ سوى الله تعالى وأصل الحنف الميل وهو ميل عن طريق الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة في صلاته (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه ۞ قوله عز وجل (وحاجه قومه) يعني وخاصمه قومه وذلك لما أظهر ابراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال أتحاجوني في الله يعني أتجادلونني في توحيدي لله وقد هداني وقد تبين لي طريق الهداية الى توحيده ومعرفته وقال البغوي لما رجع ابراهيم الى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذابحين وضمه آزر الى نفسه جعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها فيذهب ابراهيم وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر فصوب فيه رؤسها وقال اشربي استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته فحاجه قومه يعني خاصمه وجادله قومه في دينه (قال) يعني ابراهيم (أتحاجوني في الله وقد هدان) يعني الى توحيده ومعرفته (ولا

على ان من اتخذ القمر الها فهو ضال وانما احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال لان الاحتجاج به أظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) وانما ذكره لانه أراد الطالع أو لانه جعل المبتدأ مثل الخبر لانهما شئ واحد معنى وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث ولهذا قالوا في صفات الله تعالى علام ولم يقولوا علامة وان كان الثاني أبلغ تفاديا من علامة التأنيث (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة أيضا مع خصومه (فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون) من الاجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها وقيل هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاه الله تعالى والاول أظهر لقوله ياقوم اني بريء مما تشركون (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) أي للذي دلت هذه المحدثات على انه منشئها (حنيفا) حال أي مائلا عن الاديان كلها الا الاسلام (وما أنا من المشركين) بالله شيأ من خلقه (وحاجه قومه) في توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه (قال أتحاجوني في الله) في توحيده أتحاجوني مدني وابن ذكوان (وقد هدان) الى التوحيد وبالياء في الوصل أبو عمرو ولما خوفوه أن معبودتهم تصيبه بسوء قال (ولا

أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيأ) أي لا أخاف معبوداتكم في وقت قط لانها لا تقدر على منفعة ولا مضرة الا اذا شاء ربي أن
يصيبني منها بضر فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعا وفيما شاء ضرا الا الاصنام (وسع ربي كل شئ علما)

أخاف ما تشركون به) وذلك انهم قالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون لعيبك اياها فاجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فانها جمادات لا تضر ولا تنفع وانما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله (الا أن يشاء ربي شيأ) يعني لكن ان يشاء ربي شيأ كان ما يشاء لانه قادر على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال ان الانسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بقوله الا أن يشاء ربي شيأ وهذا استثناء منقطع وليس هو من الاول في شئ والمعنى ولكن ان شاء ربي شيأ كان (وسع ربي كل شئ علما) يعني أحاط علمه بكل شئ فلا يخرج شئ عن علمه (أفلا تتذكرون) يعني أفلا تعتبرون أن هذه الاصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وان النافع الضار هو الذي خلق السموات والارض ومن فيهما (وكيف أخاف ما أشركتم) يعني وكيف أخاف الاصنام التي أشركتم بها لانها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) يعني وأنتم لا تخافون وقد أشركتم بالله وهو من أعظم الذنوب (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) يعني ما ليس لكم فيه حجة وبرهان (فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون) يعني يقول من أولى بالامن من العذاب في يوم القيامة الموحد أو المشرك (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وهذا فصل قضاه الله بين ابراهيم وبين قومه يعني ان الذين يستحقون الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وقيل هو من تمام كلام ابراهيم في المحاجة لقومه والمعنى ان الذين يحصل لهم الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعني آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيأ ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا ايمانهم بشرك (ق) عن ابن مسعود قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وفي رواية ليس هو كما تظنون انما هو كما قال لقمان لابنه وذكره وقيل في معنى قوله ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا ايمانهم بشئ من معاني الظلم وذلك بان يفعل بعض ما نهى الله عنه أو يترك ما أمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لان الله لم يخص به معنى من معاني الظلم دون غيره والصحيح أن الظلم المذكور في هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم هنا بالشرك وفي الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيأ كانت عاقبته الامن من النار لقوله (أولئك) يعني الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم (لهم الامن) يوم القيامة من عذاب النار (وهم مهتدون) يعني الى سبيل الرشاد ۞ وقوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) يعني ما جرى بين ابراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالافول وقيل لما قالوا لابراهيم انا نخاف عليك من آلهتنا لسبك اياها قال أفلا تخافون أنتم منها اذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة أن يغضب الكبير عليكم وقيل انه خاصم قومه المشركين فقال أي الفريقين أحق بالامن من يعبد الها واحدا مخلصا له الدين والعبادة أم من يعبد أربابا كثيرة فقالوا من يعبد الها واحدا فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة ابراهيم عليهم (نرفع درجات من نشاء) يعني بالعلم والفهم والعقل والفضيلة كما رفعنا درجات ابراهيم حتى اهتدى الى محاجة قومه وقيل نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفي الآخرة بالثواب على الاعمال الصالحة (ان ربك حكيم عليم) يعني أنه تعالى حكيم في جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيأ الا بحكمة وعلم ۞ قوله عز وجل (ووهبنا له اسحق ويعقوب) لما أظهر ابراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التي فهمه الله تعالى اياها وهداه اليها عدد الله

فلا يصيب عبدا شئ من ضر أو نفع الا بعلمه (أفلا تتذكرون) فتميزوا بين القادر والعاجز (وكيف أخاف ما أشركتم) معبوداتكم وهي مأمونة الخوف (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به) باشراكه (عليكم سلطانا) حجة اذ الاشراك لا يصح أن يكون عليه حجة والمعنى وما لكم تنكرون على الامن في موضع الامن ولا تنكرون على أنفسكم الامن في موضع الخوف (فأي الفريقين) أي فريقي الموحدين والمشركين (أحق بالامن) من العذاب (ان كنتم تعلمون) ولم يقل فأينا احترازا من تزكية نفسه ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) بشرك عن الصديق رضي الله عنه (أولئك لهم الامن وهم مهتدون) تم كلام ابراهيم عليه السلام (وتلك حجتنا) اشارة الى جميع ما احتج به ابراهيم عليه السلام على قومه من قوله فلما جن عليه الليل الى وهم مهتدون (آتيناها ابراهيم على قومه) وهو خبر بعد خبر (نرفع درجات من نشاء) في العلم والحكمة وبالتنوين كوفي وفيه نقض قول المعتزلة في الاصلح (ان ربك حكيم) بالرفع (عليم) بالاهل (ووهبنا له) لابراهيم (اسحق ويعقوب

نعمه عليه واحسانه اليه بان رفع درجته فى عليين وأبقى النبوة فى ذريته الى يوم الدين فقال تعالى ووهبنا له يعنى لابراهيم اسحق يعنى ابنا لصلبه و يعقوب يعنى ابن اسحق وهو ولد الولد (كلا هدينا) يعنى هدينا جميعهم الى سبيل الرشاد ووفقناهم الى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا من قبل) يعنى من قبل ابراهيم أرشدنا نوحا ووفقناه للحق والصواب ومننا عليه بالهداية (ومن ذريته) اختلفوا فى هذا الضمير الى من يرجع فقيل يرجع الى ابراهيم يعنى ومن ذرية ابراهيم (داود وسليمان) وقيل يرجع الى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين لان الضمير يرجع الى أقرب مذكور ولان الله ذكر فى جملة هذه الذرية لوطا وهو ابن أخى ابراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا ان هاء الكناية ترجع الى نوح وقال الزجاج كلا القولين جائز لان ذكرهما جميعا قد جرى وداود هو ابن يشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود (وأيوب) هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة (وكذلك نجزى المحسنين) يعنى وكما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزى المحسنين على احسانهم (وزكريا) هو ابن آذن بن بركيا (ويحيى) هو ابن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل وقال محمد بن اسحق هو الياس بن سنا بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران وهذا هو الصحيح لان أصحاب الانساب يقولون ان ادريس جد نوح لان نوحا ابن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس ولان الله تعالى نسب الياس فى هذه الآية الى نوح وجعله من ذريته (كل من الصالحين) يعنى أن كل من ذكرنا وسمينا من الصالحين (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن أخى ابراهيم (وكلا فضلنا على العالمين) يعنى على عالمى زمانهم و يستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة لان العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضى أن الانبياء أفضل من الملائكة واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبيا من الانبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لان الواو لا تقتضى الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهى أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الانبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولا نوحا وابراهيم واسحق و يعقوب لانهم أصول الانبياء واليهم ترجع أنسابهم جميعا ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظا وافرا ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فانه صبر على البلاء والشدة الى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة فى تفضيل الانبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا والاعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بانهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الانبياء من لم يبق له اتباع ولا شريعة وهم اسمعيل واليسع و يونس ولوط فاذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شئ يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

۞ قوله تعالى (ومن آبائهم) يعنى ومن آباء الذين سميناهم ومن هنا للتبعيض لان من آباء بعضهم من لم يكن مسلما (وذرياتهم) يعنى ومن ذرياتهم أى بعضهم لان عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان فى ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح (واخوانهم) يعنى ومن اخوانهم والمعنى ان الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن

كلا هديناه) أى كلهم وانتصب كلا بهدينا (ونوحا هدينا) أى وهدينا ونوحا (من قبل) من قبل ابراهيم (ومن ذريته) الضمير لنوح أو لابراهيم والاول أظهر لان يونس ولوطا لم يكونا من ذرية ابراهيم (داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون) والتقدير وهدينا من ذريته هؤلاء (وكذلك نجزى المحسنين) ونجزى المحسنين جزاء مثل ذلك فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف (وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل) أى كلهم (من الصالحين) وذكر عيسى معهم دليل على ان النسب يثبت من قبل الام أيضا لانه جعله من ذرية نوح عليه السلام وهو لا يتصل به الا بالام وبذا أجيب الحجاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبى عليه السلام (واسمعيل واليسع) والليسع حيث كان بلامين حمزة وعلى (ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) بالنبوة والرسالة (ومن آبائهم) فى موضع النصب عطفا على كلا أى وفضلنا بعض آبائهم (وذرياتهم واخوانهم

اخوانهم وذرياتهم للهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى (واجتبيناهم) يعني اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) يعني وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) أي الى دين الحق (ذلك هدى الله) قال ابن عباس ذلك دين الله الذي كان عليه هؤلاء الانبياء وقيل المراد بهدى الله معرفة الله وتنزيهه عن الشركاء والاضداد والانداد (يهدي به من يشاء من عباده) يعني يوفق من يشاء من عباده ويرشده الى دينه وطاعته وخلع الاضداد والشركاء (ولو أشركوا) يعني هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) يعني لبطل وذهب (عنهم ما كانوا يعملون) من الطاعات قبل ذلك لان الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الاعمال شيأ ۞ قوله عز وجل (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) يعني أولئك الذين سميناهم من الانبياء أعطيناهم الكتب التي أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وانما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وان كانت النبوة هي الاصل لان منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكر أولا الكتاب والحكم لانهما يدلان على النبوة (فان يكفر بها هؤلاء) يعني فان يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقيل هم المهاجرون والانصار وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال رجاء العطاردي هم الملائكة وفيه بعد لان اسم القوم لا ينطلق الا على بني آدم وقيل هم الفرس قال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أو نبيا أو من الصحابة أو التابعين وفي الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوي دينه ويجعله عاليا على الاديان كلها وقد جعل ذلك فهو اخبار عن الغيب ۞ قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله) يعني النبيين الذين تقدم ذكرهم لانهم هم المخصوصون بالهداية (فبهداهم اقتده) اشارة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للاول في فعله وقيل أمره أن يقتدي بهم في أمر الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الاسماء والصفات والافعال وقيل أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الاخلاق الحميدة والافعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم وقيل أمره أن يقتدي بشرائعهم الا ما خصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا

﴿فصل﴾ احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة قال الله فيهم اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء قال الله فيه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين يعني الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزة الباهرة وكان زكرياء ويحيى وعيسى والياس من أصحاب الزهد في الدنيا وكان اسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واخبات ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم كان أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم ۞ وقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا) يعني قل يا محمد

واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك) أي ما دانوا به هؤلاء المذكورون (هدى الله) دين الله (يهدي به من يشاء من عباده) فيه نقض قول المعتزلة لانهم يقولون ان الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا (ولو أشركوا) مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات العلى (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لبطلت أعمالهم كما قال لئن أشركت ليحبطن عملك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) يريد الجنس (والحكم) والحكمة أو فهم الكتاب (والنبوة) وهي أعلى مراتب البشر (فان يكفر بها) بالكتاب والحكم والنبوة أو بآيات القرآن (هؤلاء) أي أهل مكة (فقد وكلنا بها قوما) هم الانبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده أو أصحاب النبي عليه السلام أو كل من آمن به أو العجم ومعنى توكيلهم بها انهم وفقوا للايمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه والباء في (ليسوا بها) صلة كافرين وفي (بكافرين) لتأكيد النفي (أولئك الذين هدى الله) أي الانبياء الذين مر ذكرهم (فبهداهم اقتده) فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد الا بهم وهذا معنى تقديم المفعول والمراد بهداهم طريقتهم في الايمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فهي مختلفة لا

والهاء في اقتده للوقف تسقط في الوصل واستحسن ايثار الوقف لثبات الهاء في المصحف ويحذفها حمزة وعلي في الوصل ويختلسها شامي (قل لا أسألكم عليه) على الوحي أو على تبليغ الرسالة والدعاء الى التوحيد (أجرا) جعلا وفيه دليل على أن أخذ الاجر على تعليم القرآن

لأطلب على تبليغ الرسالة جعلا قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الاجر على ايصال الدين وابلاغ الشريعة لاجرم اقتدى بهم فقال لاأسألكم عليه أجرا (ان هو) يعنى ماهو يعنى القرآن (الاذكرى للعالمين) يعنى أن القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والانس وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى جميع الخلق من الجن والانس وان دعوته عمت جميع الخلائق ﴿قوله عز وجل (وماقدروا الله حق قدره) قال ابن عباس معناه ماعظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على كل شئ قدير وقال أبو العالية ماوصفوا الله حق صفته وقال الاخفش ماعرفوا الله حق معرفته يقال قدر الشئ اذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدرا ثم يقال لمن عرف شيأ هو يقدر قدره واذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه انه لايقدر قدره فقوله وماقدروا الله حق قدره يصح فيه جميع الوجوه المذكورة فى معناه (اذقالوا ماأنزل الله على بشر من شئ) يعنى الذين قالوا ماأنزل الله على بشر من شئ ماقدروا الله حق قدره ولاعرفوه حق معرفته اذلو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين أحدهما أنها نزلت فى كفار قريش وعلى هذا قول من يقول ان جميع هذه السورة مكية وهو قول السدى ويروى ذلك عن مجاهد وصححه الطبرى قال لان من أول السورة الى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الاصنام وكان قوله وماقدروا الله حق قدره موصولا بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله اذقالوا ماأنزل الله على بشر من شئ خبرا عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازى على هذا القول اشكالا وهو أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الانبياء فكيف يمكن الزامهم بنبوة موسى وأيضا فابعد هذه الآية لايليق بكفار قريش انما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بان كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وانما أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن الزامهم بقوله قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى وأجاب عن كون سياق الآية لايليق الابحال اليهود بان كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يبعد ان بعض الآية يكون خطابا لكفار قريش وبعضها خطابا لليهود والقول الثانى فى سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت فى اليهود وهذا على قول من يقول ان هذه الآية نزلت بالمدينة وانها من الآيات المدنيات التى فى السور المكية قال ابن عباس نزلت سورة الانعام بمكة الاست آيات منها قوله وماقدروا الله حق قدره فانها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول فى اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد ابن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أماتجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب وقال والله ماأنزل الله على بشر من شئ فقال أصحابه الذين معه ويحك ولاعلى موسى فقال والله ماأنزل الله على بشر من شئ فانزل الله وماقدروا الله حق قدره اذقالوا ماأنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس الآية قال البغوى وفى القصة أن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ماأنزل الله على بشر من شئ فقال مالك بن الصيف أغضبنى محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت اذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدى نزلت هذه الآية فى فنحاص بن عازوراء اليهودى وهو القائل هذه المقالة وقال ابن عباس قالت اليهود يامحمد أنزل الله عليك كتابا قال نعم فقالوا والله ماأنزل الله من السماء كتابا فانزل الله وماقدروا الله حق قدره اذقالوا ماأنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى الآية وقال محمد بن كعب القرظى جاء ناس من يهود الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو محتب فقالوا ياأبا القاسم ألاتأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا يحملها من عند الله فانزل

ورواية الحديث لايجوز (ان هو الاذكرى للعالمين) ماالقرآن الاعظة للجن والانس (وماقدروا الله حق قدره اذقالوا ماأنزل الله على بشر من شئ) أى ما عرفوه حق معرفته فى الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل والوحى اليهم وذلك من أعظم رحمته وماأرسلناك الارحمة للعالمين روى أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف كانوا يجادلون النبى عليه السلام فقال النبى عليه السلام له أليس فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين قال نعم قال فانت الحبر السمين فغضب وقال ماأنزل الله على بشر من شئ وحق قدره منصوب نصب المصدر

قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) مما فيه نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى بعضوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات فرقة ليتمكنوا مما راموا من الابداء والاخفاء وبالياء فى الثلاثة مكى وأبو عمرو (وعلمتم) يا أهل الكتاب بالكتاب (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من أمور دينكم ودنياكم (قل الله) جواب أى أنزله الله فانهم لا يقدرون أن يناكروك (ثم ذرهم فى خوضهم) فى باطلهم الذى يخوضون فيه (يلعبون) حال من ذرهم أو من خوضهم (وهذا كتاب أنزلناه) على نبينا عليه السلام (مبارك) كثير المنافع والفوائد (مصدق الذى بين يديه) من الكتب (ولتنذر) وبالياء أبو بكر أى الكتاب وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب والانذار (أم القرى) مكة وسميت أم القرى لانها سرة الارض وقبلة أهل القرى وأعظمها شأنا ولان الناس يؤمنونها (ومن حولها) أهل الشرق والغرب

الله يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء الآية التى فى سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيأ فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ وأورد الرازى على هذا القول اشكالا أيضا وهو أنه قال ان اليهود مقرون بانزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شئ مع اعترافهم بانزال التوراة ولم يجب عن هذا الاشكال بشئ وأجيب عنه بان مراد اليهود انكار انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقط ولهذا الزموا بما لابد لهم من الاقرار به من انزال التوراة على موسى فقال تعالى (قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى) أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا انزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شئ من أنزل التوراة على موسى وفى هذا الالزام توبيخ لليهود بسوء جهلهم واقدامهم على انكار الحق الذى لا ينكر (نورا وهدى للناس) يعنى التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبيانا يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير (يجعلونه قراطيس) يكتبونه فى قراطيس مقطعة (يبدونها) يعنى القراطيس المكتوبة (ويخفون كثيرا) يعنى ويخفون كثيرا مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى التوراة ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه انكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل قال الحسن جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل الله) هذا راجع الى قوله قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى فان أجابوك يا محمد والا فقل أنت الله الذى أنزله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) يعنى دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله ومعنى يلعبون يستهزؤن ويسخرون وقيل معناه يا محمد انك اذا أقمت الحجة عليهم وبلغت فى الاعذار والانذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شئ فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لانه مذكور لاجل التهديد والوعيد ۞ قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) يعنى من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء يعنى انه موافق لما فى التوراة والانجيل وسائر الكتب لانها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصة وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة (ولتنذر) قرئ بالتاء يعنى ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب (أم القرى) يعنى مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل أم القرى وسميت مكة أم القرى لان الارض دحيت من تحتها قاله ابن عباس وقيل لانها أقدم القرى وأعظمها بركة وقيل لانها قبلة أهل الارض (ومن حولها) يعنى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) يعنى والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بهذا الكتاب وانه منزل من عند الله عز وجل وقيل يصدقون ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك ان الذى يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فانه يرغب فى تحصيل الثواب ودرء العقاب عنه وذلك لا يحصل الا بالنظر التام فاذا نظر وتفكر علم بالضرورة ان دين محمد أشرف الاديان وشريعته أعظم الشرائع (وهم على صلاتهم يحافظون) يعنى يداومون عليها فى أوقاتها والمعنى ان الايمان بالآخرة يحمل على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك

(والذين يؤمنون بالآخرة) يصدقون بالعاقبة ويخافونها (يؤمنون به) بهذا الكتاب فاصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن (وهم على صلاتهم يحافظون) خصت الصلاة بالذكر لانها علم الايمان وعماد الدين فمن حافظ عليها

يحمل

يحمل على المحافظة على الصلاة وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الايمان بالله تعالى فاذا حافظ العبد عليها يكون محافظا على جميع العبادات والطاعات ﴿قوله عزوجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان الله بعثه نبيا وهو في زعمه كذاب مبطل (أوقال أوحي الى ولم يوح اليه شئ) قال قتادة نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب ابن ثمامة وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم ان الله أوحى اليه وكان قد أرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم رسولين فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبي قالا نعم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا علي وأهماني فاوحي الي أن انفخهما فنفختهما فطارا فاولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وفي لفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت في المنام كان في يدي سوارين فاولتهما كذابين يخرجان من بعدي يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء قوله فاوحي الي ان انفخهما يروى بالحاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها اذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ ويريد انه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الاول فاما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قومه من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك وقتل مسيلمة الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الاسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل والنبي صلى الله عليه وسلم حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعني بقتله الاسود العنسي فمن قال ان هذه الآية يعني قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شئ أنزلت في مسيلمة الكذاب والاسود العنسي يقول ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال ان هذه الآية مكية وقال انها نزلت في شأنهما يقول انها اخبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم ﴿وقوله تعالى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) اليك قال السدي نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحي الي مثل ما أوحي اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك الى الاسلام فاسلم قبل فتح مكة والنبي صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا في ذلك الزمان وبعده لانه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم (ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت) يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين اذا نزل بهم الموت لرأيت أمرا عظيما وغمراته شدائده وسكراته وغمرة كل شئ معظمه وأصلها الشئ الذي يغمر الاشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا أيديهم) يعني بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم (أخرجوا أنفسكم) يعني يقولون لهم أخرجوا أنفسكم فان قلت

يحافظ على اخواتها ظاهرا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) هو مالك بن الصيف (أوقال أوحي الى ولم يوح اليه شئ) هو مسيلمة الكذاب ومن قال في موضع جر عطف على من افترى أي وممن قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) أي سأقول وأملي هو عبد الله بن سعد ابن أبي سرح كاتب الوحي وقد أملى النبي عليه السلام عليه ولقد خلقنا الانسان الى خلقا آخر فجرى على لسانه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال عليه السلام اكتبها فكذلك نزلت فشك وقال ان كان محمد صادقا فقد أوحي الى كما أوحي اليه وان كان كاذبا فقد قلت كما قال فارتد ولحق بمكة أو النضر ابن الحارث كان يقول والطاحنات طحنا فالعاجنات عجنا فالخابزات خبزا كانه يعارض (ولو ترى) جوابه محذوف أي لرأيت أمرا عظيما (اذ الظالمون) يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فيكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله (في غمرات الموت) شدائده وسكراته (والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) أي يبسطون

انه لاقدرة لاحد على اخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام قلت معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرها لان المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب ان قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخا لهم لانهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) يعني الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) يعني ذلك العذاب الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الايمان بالقرآن ولا تصدقونه ﴿قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) يعني وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون اليه وماذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لانهم صرفوا همهم في الدنيا الى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم في عبادة الاصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيأ في يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) يعني جئتمونا حفاة عراة غرلا يعني قلفا كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شئ عليهم ولا معهم (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر أشد من أن يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة انها قرأت قول الله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فقالت يا رسول الله واسوأتاه ان الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم الى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال الى النساء ولا النساء الى الرجال شغل بعضهم عن بعض ﴿وقوله تعالى (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) يعني وتركتم الذي أعطيناكم وملكناكم من الاموال والاولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعني في الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يعني ان المشركين زعموا انهم انما عبدوا هذه الاصنام لانها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لانها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فاذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرئ بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون معناه لقد تقطع الامر بينكم وقرئ بينكم برفع النون ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الاضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يعني وذهب وبطل ما كنتم تكذبون في الدنيا ﴿قوله عز وجل (ان الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة أردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيها بذلك على أن المقصود الاعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وانه مبدع الاشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التي كانوا يعبدونها وتعريفا منه خطأ ما كانوا عليه من الاشراك الذي كانوا عليه والمعنى ان الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة وفي معنى فلق قولان أحدهما انه بمعنى خالق ومعنى الآية على هذا القول ان الله خالق الحب والنوى وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه قال الضحاك ومقاتل قال الواحدي ذهبوا بفالق مذهب فاطر وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فالق الله الشئ بمعنى خالق ونقل الازهري عن الزجاج جوازه فقال وقيل الفالق الخالق واذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام ان جميع الاشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أوجدها الله تعالى وأخرجها من العدم الى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها والقول الثاني وهو قول الاكثرين ان

اليهم أيديهم يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها الينا من أجسادكم وهذه عبارة عن التشديد في الازهاق من غير تنفيس وامهال (اليوم تجزون عذاب الهون) أرادوا وقت الامانة وما يعذبون به من شدة النزع والهون الهوان الشديد واضافة العذاب اليه كقولك رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) من أن له شريكا وصاحبة وولدا وغير الحق مفعول تقولون أو وصف لمصدر محذوف أي قولا غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب والجزاء (فرادى) منفردين بلا مال ولا معين وهو جمع فريد كاسير وأسارى (كما خلقناكم) في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي مجيئا مثل ما خلقناكم (أول مرة) على الهيآت التي ولدتم عليها في الانفراد (وتركتم ما خولناكم) ملكناكم (وراء ظهوركم) ولم تحتملوا منه نقيرا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) في استعبادكم (لقد تقطع بينكم) وصلكم عن الزجاج والبين الوصل والهجر قال فوالله لولا البين لم يكن الهوى * ولولا الهوى ما حن للبين آلف بينكم مدني وعلي وحفص أي وقع التقطع بينكم (وصل عنكم) وضاع وبطل (ما كنتم تزعمون) انها شفعاؤكم عند الله (ان الله فالق الحب والنوى)

الفالق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين أحدهما وهو مروي عن ابن عباس قال فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد قال الزجاج يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقا أخضر والقول الثاني وهو قول مجاهد انه الشقان اللذان في الحب والنوى والحب هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهي ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله فالق الحب والنوى أنه اذا وقعت الحبة أو النواة في الارض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقا أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقا ضاربة في الارض فسبحان من أوجد جميع الاشياء بقدرته وابداعه وخلقه ۞ وقوله تعالى (يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) قال ابن عباس في رواية يخرج من النطفة بشرا احياء ويخرج النطفة الميتة من الحي وهذا قول الكلبي ومقاتل قال الكلبي يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحي وقال ابن عباس في رواية أخرى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الايمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن وقيل معناه يخرج الطائع من العاصي والعاصي من الطائع وقال السدي يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبري لانه قال عقب قوله ان الله فالق الحب والنوى فان قلت كيف قال ومخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحي من الميت وما السبب في عطف الاسم على الفعل قلت قوله ومخرج الميت من الحي عطف على قوله فالق الحب والنوى وقوله يخرج الحي من الميت كالبيان والتفسير لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى اليابس واخراج النبات والشجر منه من جنس اخراج الحي من الميت لان النامي من النبات في حكم الحيوان وقوله (ذلكم الله) يعني ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الاشياء المحيي المميت لها (فأنى تؤفكون) يعني فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الاشياء كلها وفيه دليل أيضا على صحة البعث بعد الموت لان القادر على اخراج البدن من النطفة قادر على اخراجه من التراب للحساب ۞ قوله تعالى (فالق الاصباح) أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والاصباح مصدر سمي به الصبح وقال الزجاج الاصباح والصبح واحد وهما أول النهار فان قلت ظاهر الآية يدل على انه تعالى فلق الصبح والظلمة هي التي تنفلق بالصبح فما معنى ذلك قلت ذكر العلماء فيه وجوها الاول أن يكون المراد فالق ظلمة الصباح وذلك لان الصبح صبحان فالصبح الاول هو البياض المستطيل الصاعد في الافق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لانه يبدو في الافق الشرقي ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثاني وهو الضوء المستطير في جميع الافق الشرقي ويسمى الفجر الصادق لانه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى فالق ظلمة الصبح الاول بنور الصبح الثاني الوجه الثاني انه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله فالق الاصباح أي فالق الصباح بنور النهار الوجه الثالث ان يراد فالق ظلمة الاصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح الوجه الرابع أن يكون المعنى فالق الاصباح الذي هو عمود الفجر اذا انصدع الفجر وانفلق وسمي الفجر فلقا بمعنى مفلوق الوجه الخامس الفالق بمعنى الخلق يعني خالق الاصباح وعلى هذا القول يزول الاشكال والصبح هو الضوء الذي يبدو أول النهار والمعنى انه تعالى مبدي ضوء الصبح وخالقه ومنوره ۞ وقوله تعالى (وجاعل الليل سكنا) السكن ما سكنت اليه واسترحت به يريد ان الناس يسكنون في الليل سكون راحة لان الله جعل الليل لهم كذلك قال ابن عباس ان كل ذي روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه في النهار فاحتاج الى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة

بالنبات والشجر أي فلق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة والفلق الشق وعن مجاهد أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة (يخرج الحي من الميت) النبات الغض النامي من الحب اليابس (ومخرج الميت من الحي) الحب اليابس من النبات النامي أو الانسان من النطفة والنطفة من الانسان أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه لانهم أنكروا البعث فاعلمهم أنه الذي خلق هذه الاشياء فهو يقدر على بعثهم وانما قال ومخرج الميت بلفظ اسم الفاعل لانه معطوف على فالق الحب لا على الفعل ويخرج الحي من الميت موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس اخراج الحي من الميت لان النامي في حكم الحيوان دليله قوله ويحيي الارض بعد موتها (ذلكم الله) ذلكم المحيي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية لا الاصنام (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عنه وعن توليه الى غيره بعد وضوح الامر بما ذكرنا (فالق الاصباح) هو مصدر سمي به الصبح أي شاق عمود الصبح عن سواد الليل أو خالق نور النهار (وجاعل الليل) وجعل الليل كوفي لان اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي ولما كان فالق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى (سكنا)

وذلك هو الليل (والشمس والقمر حسبانا) يعني انه تعالى قدر حركة الشمس والقمر في الفلك بحسبان معين قال ابن عباس يجريان الى أجل جعل لهما يعني عدد الايام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا الى أقصى منازلهما (ذلك) اشارة الى ماتقدم ذكره في هذه الآية من الاشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه ❁ قوله عز وجل (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) جعل هنا بمعنى خلق يعني والله الذي خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها اذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه فامتن الله على عباده بان جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق في البر والبحر الى حيث يريدون و يستدلون بالنجوم أيضا على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضا أنه تعالى خلقها زينة للسماء ورجوما للشياطين كما قال ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا الآيات) يعني قد بينا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا (لقوم يعلمون) ان ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته ❁ قوله تعالى (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) يعني والله الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا لان ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت ان جميع الخلق من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها يقال قر في مكانه واستقر فمن كسر القاف قال المستقر بمعنى القار والمعنى منكم مستقر يعني في الارحام ومن فتح القاف جعله مكانا فالمستقر نفس المقر فيكون المعنى لكم مقر وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسما للانسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكانا والمعنى فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع ان المستقر أقرب الى الثبات من المستودع لان المستقر من القرار والمستودع معرض لان يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروي عن ابن عباس أنه قال المستقر في أرحام الامهات والمستودع في أصلاب الآباء ثم قرأ ونقر في الارحام مانشاء ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى في صلب الاب زمانا طويلا والجنين يبقى في بطن الام زمانا طويلا ولما كان المكث في بطن الام أكثر من صلب الاب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وروي عنه أنه قال بالعكس يعني أن المستقر صلب الاب والمستودع رحم الام ووجه هذا القول أن النطفة حصلت في صلب الاب قبل رحم الام فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم وقال ابن مسعود المستقر في الرحم الى أن يولد والمستودع في القبر الى أن يبعث وقال مجاهد المستقر على ظهر الارض في الدنيا لقوله ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين والمستودع عند الله في الآخرة وقال الحسن المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك الى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر اما في الجنة أو النار لان المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد (قد فصلنا الآيات) قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة (لقوم يفقهون) يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لان الفقه هو الفهم ❁ قوله عز وجل (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يعني المطر وقيل ان الله ينزل المطر من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض (فاخرجنا به)

مسكونا فيه من قوله لتسكنوا فيه أي ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة الى نوم الغفلة وعن وحشة الخلق الى الانس بالحق (والشمس والقمر) انتصبا باضمار فعل يدل عليه جاعل الليل أي وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أي جعلهما على حسبان

لان حساب الاوقات يعلم بدورهما وسيرهما والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب (ذلك) اشارة الى جعلهما حسبانا أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) الذي قهرهما وسخرهما (العليم) بتدبيرهما وتدويرهما (وهو الذي جعل لكم النجوم) خلقها (لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي في ظلمات الليل بالبر وبالبحر وأضافها اليهما لملابستها لهما أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) هي آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) فمستقر بالكسر مكي وبصري فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول يعني فلكم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب أو مستقر فوق الارض ومستودع تحتها أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) وانما قيل يعلمون ثم يفقهون هنا لان الدلالة ثم أظهر وهنا أدق لان انشاء الانس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق (وهو الذي أنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فاخرجنا به) بالماء يعني

يعنى بالماء الذى أنزلناه من السماء (نبات كل شئ) يعنى كل شئ ينبت و ينمو من جميع أصناف النبات وقيل معناه أخرجنا بالماء الذى أنزلناه من السماء غذاء كل شئ من الانعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بنى آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه و ينمون (فأخرجنا منه خضرا) يريد أخضر مثل عور وأعور والاخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعنى نخرج من ذلك الاخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل سنبل القمح والشعير والارز والذرة وسائر الحبوب وفى تقديم الزرع على النخل دليل على الافضلية ولان حاجة الناس اليه أكثر لانه القوت المألوف (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعنى من ثمرها يقال أطلعت النخلة اذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الاغريض والاغريض يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون فى قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان دانية أى قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتصقة بالارض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هى بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولانها أسهل تناولا من البعيدة لان البعيدة تحتاج الى كلفة (وجنات من أعناب) يعنى وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب (والزيتون والرمان) يعنى وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها) قال قتادة مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه فى الورق والطعم واعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وانما قدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وانما قدم النخلة على غيرها لان ثمرتها تجرى مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها من الاشجار وانما ذكر العنب عقب النخلة لانها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة فى الاكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من المنافع أيضا لانه فاكهة ودواء ثم قال تعالى (أنظروا الى ثمره اذا أثمر و ينعه) يعنى ونضجه وادراكه والمعنى أنظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة ۞ وهو قوله (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون ان الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى و يبعثهم وانما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال الى حال وهو ما يعلمونه قطعا ويشاهدونه من احياء الارض بعد موتها واخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وانه لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم و يبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الاشياء لانهم كانوا ينكرون البعث ۞ قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) قال الحسن معناه أطاعوا الجن فى عبادة الاوثان وهو اختيار الزجاج قال معناه انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله وقال الكلبى نزلت فى الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين فى الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزى عن ابن السائب ونقله الرازى عن ابن عباس قال الامام فخر الدين الرازى وهذا مذهب المجوس وانما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لان المجوس يلقبون

(نبات كل شئ) نبت كل صنف من أصناف النامى أى السبب وهو الماء واحد والمسببات صنوف مختلفة (فأخرجنا منه) من النبات (خضرا) أى شيأ غضا أخضر يقال أخضر وخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا) وهو السنبل الذى تراكب حبه (ومن النخل من طلعها قنوان) هو رفع بالابتداء ومن النخل خبره ومن طلعها بدل منه كأنه قيل وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنو وهو العذق نظيره صنو وصنوان (دانية) من المجتنى لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها وفيه اكتفاء أى وغير دانية لطولها كقوله سرابيل تقيكم الحر (وجنات) بالنصب عطفا على نبات كل شئ أى وأخرجنا به جنات (من أعناب) أى مع النخل وكذا (والزيتون والرمان) وجنات بالرفع الاعشى أى وثم جنات من أعناب أى مع النخل (مشتبها وغير متشابه) يقال اشتبه الشيآن وتشابها نحو استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا وتقديره والزيتون متشابها وغير متشابه والرمان كذلك يعنى بعضه متشابه و بعضه غير متشابه فى القدر واللون والطعم (أنظروا الى ثمره اذا أثمر) اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفا لا ينتفع به (و ينعه) ونضجه أى انظروا الى حال نضجه كيف يعود شيأ جامعا للمنافع نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره وناقله من حال الى حال (ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ثمره وكذا ما بعده حمزة وعلى جمع ثمار فهو جمع الجمع يقال ثمرة وثمر وثمر وثمر (وجعلوا لله شركاء الجن) ان جعلت لله شركاء مفعولى جعلوا كان الجن بدلا من شركاء والا كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على

الاول وفائدة التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنيا أو غير ذلك والمعنى انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله (وخلقهم) أي وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكا لخالقه والجملة حال أي وخلق الجاعلين لله شركاء فكيف يعبدون غيره (وخرقوا له) (٤٢) أي اختلقوا يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى أو هو من خرق الثوب اذا شقه أي اشتقوا له (بنين) كقول أهل الكتابين في المسيح وعزير (وبنات) كقول بعض العرب في الملائكة وخرقوا بالتشديد للتكثير مدني لقوله بنين وبنات (بغير علم) من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب ولكن رميا بقول عن جهالة وهو حال من فاعل خرقوا أي جاهلين بما قالوا (سبحانه وتعالى عما يصفون) من الشريك والولد (بديع السموات والارض) يقال بدع الشئ فهو بديع وهو من اضافة الصفة المشبهة الى فاعلها يعني بديع سمواته وأرضه أو هو بمعنى المبدع أي مبدعها وهو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره (أنى يكون له ولد) أو هو فاعل تعالى (ولم تكن له صاحبة) أي من أين يكون له ولد والولد لا يكون الا من صاحبة ولا صاحبة له ولان الولادة من صفات الاجسام ومخترع الاجسام لا يكون جسما حتى يكون له ولد (وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) أي ما من شئ الا وهو خالقه وعالمه ومن كان كذلك كان (فاعبدوه) غنيا عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما تقدم من الصفات وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) وقوله

بالزندقة لان الكتاب الذي زعم زردشت أنه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب اليه زندي ثم عرب فقيل زنديق فاذا جمع قيل زنادقة ثم ان المجوس قالوا كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعني النور وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني ابليس ثم اختلف المجوس فالاكثرون منهم على أن ابليس محدث ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة والاقلون منهم قالوا انه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا فان قلت فعلى هذا القول انما أثبتوا لله شريكا واحدا وهو ابليس فكيف حكى الله انهم جعلوا له شركاء قلت ان ابليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من انهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاء لله واختلفوا في معنى هذه الشركة فمن قال ان الآية في كفار العرب قال انهم لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الاصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال انها في المجوس قال انهم أثبتوا الهين اثنين النور والظلمة وقيل ان كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لانهم مستورون عن الاعين وقوله (وخلقهم) في معنى الكناية قولان أحدهما انها تعود الى الجن فيكون المعنى والله خالق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق والقول الثاني أن الكناية تعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع بان المخلوق لا يكون شريكا لله وكل ما في الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما في الكون فامتنع أن يكون لله شريك في ملكه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أي اختلقوا وكذبوا يقال اختلق واخترق على فلان اذا كذب عليه وذلك ان النصارى وطائفة من اليهود ادعوا ان لله ابنا وكفار العرب ادعوا ان الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعا فيما ادعوه وقوله بغير علم كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لان الولد جزء من الاب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعي ان لله ولدا ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الاقاويل الفاسدة فقال تعالى (سبحانه وتعالى عما يصفون) فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعني هو المتعالي عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد أو يكون المعنى المتعالي عن اتخاذ الولد والشريك وقوله عما يصفون يعني عما يصفونه به من الكذب ۞ قوله عز وجل (بديع السموات والارض) الابداع عبارة عن تكوين الشئ على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والارض على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) يعني من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) لان الولد لا يكون الا من صاحبة أنثى ولا ينبغي أن تكون لله صاحبة لانه ليس كمثله شئ (وخلق كل شئ) يعني أن الصاحبة والولد في جملة من خلق لانه خالق كل شئ وليس كمثله شئ فكيف يكون الولد لمن لا مثل له واذا نسب الولد والصاحبة اليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى (وهو بكل شئ عليم) يعني أنه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شئ وعلمه محيط بكل شئ * قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعني ذلكم الله الذي من صفته انه خالق السموات والارض وأبدعها على غير مثال سبق وانه بكل شئ عليم هو ربكم الذي يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الاصنام لانها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع (لا اله الا هو خالق كل شئ

فاعبدوه) يعني انه هو الذي يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه (وهو على كل شيء وكيل) يعني أنه هو تعالى على كل شيء خالق ورقيب حفيظ يقوم بأرزاق جميع خلقه ﴿ قوله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار) قال جمهور المفسرين معنى الادراك الاحاطة بكنه الشيء وحقيقته فالابصار ترى الباري جل جلاله ولا تحيط به كما ان القلوب تعرفه ولا تحيط به وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله لا تدركه الابصار لا تحيط به الابصار وقال ابن عباس كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به

﴿فصل﴾ تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة و بعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وان رؤيته مستحيلة عقلا لان الله أخبر ان الأبصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك ان قوله لا تدركه الابصار بمعنى لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وان رؤيته غير مستحيلة عقلا واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على اثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففي هذه الآية دليل على ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعي رحمه الله حجب قوما بالمعصية وهي الكفر فثبت ان قوما يرونه بالطاعة وهي الايمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وفسروا هذه الزيادة بالنظر الى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ان ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون في القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله ان ناسا سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فانه أعظم انما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية فقد احتج أهل السنة أيضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وتقريره أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الابصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لان المعدوم لا يصح التمدح به فثبت ان قوله لا تدركه الابصار يفيد المدح وهذا يدل على أنه تعالى جائز الرؤية وتحقيق هذا ان الشيء اذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم أما اذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم انه قدر على حجب الابصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت ان هذه الآية دالة على انه تعالى جائز الرؤية واذا ثبت هذا أوجب القطع بان المؤمنين يرونه يوم القيامة لان موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله أرني أنظر اليك وذلك يدل على جواز الرؤية اذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فان استقر مكانه فسوف تراني واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية فاعلم ان الادراك غير الرؤية لان الادراك هو الاحاطة بكنه الشيء وحقيقته والرؤية المعاينة للشيء من غير احاطة وقد تكون الرؤية بغير ادراك كما قال تعالى في قصة موسى قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا

(فاعبدوه) مسبب عن مضمون الجملة أي من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه (وهو على كل شيء وكيل) أي هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال (لا تدركه الابصار) لا تحيط به ٣ أو أبصار من سبق ذكرهم وتشبث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب لان المنفي هو الادراك لا الرؤية والادراك هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل ادراكه لا رؤيته فنزل الادراك من الرؤية منزلة الاحاطة من العلم ونفي الاحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به فكذا هذا على أن مورد الآية وهو التمدح يوجب ثبوت الرؤية اذ نفي ادراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه لان كل ما لا يرى لا يدرك وانما التمدح بنفي الادراك مع تحقق الرؤية اذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود على الذات فكانت الآية حجة لنا عليهم ولو أمعنوا النظر فيها لاغتنموا التفصي عن عهدتها ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي أنه معلوم موجود

٣ لعل هناك سقطا وأصله (وهو يدرك الابصار) أي كل الابصار أو الخ فليحرر اهـ

وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قاربوا ادراكهم اياهم فنفى موسى الادراك مع
اثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير ادراك ولا احاطة لان الادراك هو
الاحاطة بالمرئي وهو ما كان محدودا وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لانه القديم الذي لا نهاية
لوجوده فعلى هذا انه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم ان الآية مخصوصة بالدنيا قال ابن عباس في معنى الآية
لا تدركه الابصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الادراك والرؤية قالوا ويدل على
هذا التخصيص قوله وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله يومئذ ناضرة مقيد بيوم القيامة وعلى هذا
يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي البصر بصران بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله لا تدركه الابصار
لا يدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علما وهذا وجه حسن أيضا والله أعلم وقوله تعالى وهو يدرك
الابصار يعني انه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها
ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو يدركها (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس
اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الزهري معنى اللطيف الرفيق بعباده وقيل هو الموصل الشيء اليك برفق ولين
وقيل هو الذي ينسي عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر في الاشياء وقال أبو سليمان الخطابي
اللطيف هو البر بعباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل اليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقال
الازهري اللطيف في أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده وقيل هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق
طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم
بره واحسانه عند المعصية وقيل هو الذي لطف عن ان تدركه الابصار وهو يدركها ۞ قوله تعالى (قد جاءكم
بصائر من ربكم) البصائر جمع البصيرة وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به والمعنى قد جاءكم القرآن
الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل وقيل ان الآيات والبراهين
ليست في أنفسها بصائر الا انها لقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات
والحجج والبراهين أسبابا لحصول البصائر سميت بصائر (فمن أبصر) يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها الى
الحق (فلنفسه) يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لانه يعود نفع ذلك عليه (ومن عمي) يعني ومن جهل ولم يعرف
الآيات ولم يستدل بها الى الطريق (فعليها) يعني فعلى نفسه عمي ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لان
الله تعالى غني عن خلقه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم
انما أنا رسول من ربكم اليكم أبلغكم ما أرسلت به اليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم
وأحوالكم وقيل معناه لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريد الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالايمان أخذ
الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الامر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات
السيف وعلى القول الاول ليست منسوخة والله أعلم ۞ قوله عز وجل (وكذلك نصرف الآيات) يعني
وكذلك نبين الآيات ونفصلها في كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل (وليقولوا درست) يعني وكذلك
نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست وقيل معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه
عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك يقال درس الكتاب يدرسه دراسة اذا أكثر قراءته
وذلله للحفظ قال ابن عباس وليقولوا يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعني تعلمت من يسار وخبر
وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء معناه تعلمت من اليهود وقرئ
دارست بالالف يعني قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل
الكتاب وقرؤا عليك وقرئ درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه ان هذه الاخبار التي

تتلوها

والا فكما يعلم موجودا بلا
كيفية وجهة بخلاف
كل موجود فلم يجز أن
يرى بلا كيفية وجهة
بخلاف كل مرئي وهذا لان
الرؤية تحقق الشيء بالبصر
كما هو فان كان المرئي في
الجهة يرى فيها وان كان
لا في الجهة يرى لا فيها
(وهو اللطيف) أي العالم
بدقائق الامور ومشكلاتها
(الخبير) العليم بظواهر
الاشياء وخفياتها وهو من
قبيل اللف والنشر (قد
جاءكم بصائر من ربكم)
البصيرة نور القلب الذي به
يستبصر القلب كما ان
البصر نور العين الذي به
تبصر أي جاءكم من الوحي
والتنبيه ما هو للقلوب
كالبصائر (فمن أبصر)
الحق وآمن (فلنفسه)
أبصر واياها نفع (ومن
عمي) عنه وضل (فعليها)
فعلى نفسه عمي واياها
ضر بالعمى (وما أنا عليكم
بحفيظ) أحفظ أعمالكم
وأجازيكم عليها انما أنا
منذر والله هو الحفيظ
عليكم الكاف في
(وكذلك نصرف الآيات)
في موضع نصب صفة المصدر
المحذوف أي نصرف الآيات
تصريفا مثل ما تلونا عليك
(وليقولوا) جوابه محذوف
أي وليقولوا (درست)

نصرفها ومعنى درست قرأت كتب أهل الكتاب دارست مكي وأبو عمرو أي دارست أهل الكتاب درست شامي أي قدمت هذه الآية ومضت كما قالوا أساطير الاولين (ولنبينه) أي القرآن وان لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الآيات لانها في معنى القرآن قيل اللام الثانية حقيقة والاولى لام العاقبة والصيرورة أي لتصير عاقبة أمرهم الى أن يقولوا درست وهو كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم لم يلتقطوه للعداوة وانما التقطوه ليصير لهم قرة عين ولكن صارت عاقبة أمرهم الى العداوة فكذلك الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين فشبه به وقيل ليقولوا كما قيل لنبينه وعندنا ليس كذلك لما عرف (لقوم يعلمون) الحق من الباطل (اتبع ما أوحي اليك من ربك) ولا تتبع أهواءهم (لا اله الا هو) اعتراض أكد به ايجاب اتباع الوحي لا محل له من الاعراب أو حال من ربك مؤكدة (وأعرض عن المشركين) في الحال الى ان يرد الامر بالقتال (ولو شاء الله) أي ايمانهم فالمفعول محذوف (ما أشركوا) بين انهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الايمان لهداهم اليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فاشركوا بمشيئته (وما جعلناك عليهم حفيظا) مراعيا لاعمالهم مأخوذا باجرامهم (وما أنت عليهم بوكيل) بمسلط وكان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله بقوله (ولا تسبوا) آلهة (الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله) منصوب على جواب النهي (عدوا) ظلما وعدوانا (بغير علم) على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به

تتلوها علينا قديمة فدرست وامحت من قولهم درس الاثر اذا امحى وذهب أثره (ولنبينه لقوم يعلمون) يعني القرآن وقيل معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد أولياءه الذين هداهم الى سبيل الرشاد وقيل معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال للنبي صلى الله عليه وسلم درست أو دارست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو اسحق ان السبب الذي أداهم الى أن قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها أهل اللغة لام الصيرورة يعني صار عاقبة أمرهم أن قالوا دارست فصار ذلك سببا لشقاوتهم وفي هذا دليل على أن الله تعالى جعل تصريف الآيات سببا لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم ۞ وقوله تعالى (اتبع ما أوحي اليك من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه اليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه الى عبادي ولا تلتفت الى قول من يقول دارست أو درست وفي قوله اتبع ما أوحي اليك من ربك تعزية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبهه بقوله تعالى (لا اله الا هو) انه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له واذا كان كذلك فانه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى (وأعرض عن المشركين) قيل المراد منه في الحال لا الدوام واذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل المراد ترك مقاتلتهم فعلى هذا يكون الامر بالاعراض منسوخا بآية القتال ۞ قوله عز وجل (ولو شاء الله ما أشركوا) قال الزجاج معناه لو شاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) يعني وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبا ولا حافظا تحفظ عليهم أعمالهم وقال ابن عباس في رواية عطاء وما جعلناك عليهم حفيظا تمنعهم منا ومعناه أنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وانما بعثت مبلغا فلا تهتم بشركهم فان ذلك بمشيئة الله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) يعني وما أنت عليهم بقيم تقوم بأرزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر فعلى التفسير الاول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس لا تكون منسوخة ۞ قوله عز وجل (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الآية قال ابن عباس لما نزلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال قتادة كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لانهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل وقال السدي لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والاسود ابن أبي البختري الى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب ان هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريدون قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك والهك فقال له أبو طالب قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا

فهل أنتم معطى كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي قال قولوا لا اله الا الله فابوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فقال يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها ارادة أن يؤيسهم فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك أو لنشتمن من يأمرك فانزلت ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الاصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم يعني فيسبوا الله ظلما بغير علم لانهم جهلة بالله عز وجل قال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الاصنام التي كانت تعبدها المشركون وقال ابن الانباري هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه باصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقيل انما نهوا عن سب الاصنام وان كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الاصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا آلهتهم فيسبوا ربكم فامسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وان كان نهيا عن سب الاصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لانه سبب لذلك ۞ وقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم) يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الاصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه ۞ وقوله تعالى (ثم الى ربهم مرجعهم) يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي (فينبئهم بما كانوا يعملون) يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك ۞ قوله عز وجل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال محمد بن كعب القرظي والكلبي قالت قريش يا محمد انك تخبرنا أن موسى كانت له عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فاتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شئ تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ما تقولون أتصدقونني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل فقال ما شئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوك لنعذبنهم وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فانزل الله عز وجل وأقسموا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما قدروا عليه من الايمان وأشدها قال الكلبي ومقاتل اذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) يعني كما جاءت من قبلهم من الامم (ليؤمنن بها) يعني ليصدقن بها (قل) يعني قل يا محمد (انما الآيات عند الله) يعني أن الله تعالى قادر على انزالها (وما يشعركم) يعني وما يدريكم ثم اختلف العلماء في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله (أنها اذا جاءت لا يؤمنون) فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم انها بكسر الالف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعركم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون انها يعني الآيات اذا جاءت آمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون انها اذا جاءت آمنوا لان المؤمنين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله ان يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله وما يشعركم ثم ابتدأ فقال تعالى انها اذا جاءت لا يؤمنون وهذا في

حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو حجة لنا في الاصلاح (ثم الى ربهم مرجعهم) مصيرهم (فينبئهم بما كانوا يعملون) فيخبرهم بما عملوا ويجزيهم عليه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) جهد مصدر وقع موقع الحال أي جاهدين في الايمان بأوكدها (لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم (ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله) وهو قادر عليها لا عندي فكيف آتيكم بها (وما يشعركم) وما يدريكم (انها) أن الآية المقترحة (اذا جاءت لا يؤمنون) بها يعني أنا أعلم انها اذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تعلمون ذلك وكان المؤمنون يطمعون في ايمانهم اذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها فقال الله تعالى وما يدريكم انهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون انها بالكسر مكي وبصري وأبو بكر على ان الكلام تم قبله أي وما يشعركم ما يكون منهم ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون البتة ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح كقوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون لا تؤمنون شامي حمزة

قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لا يؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الالف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين لان المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها اذا رأوها لان المشركين كانوا حلفوا أنهم اذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الآيات لذلك فقال الله تعالى وما يشعركم أيها المؤمنون ان الآيات اذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم انها اذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم انها اذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل ان بمعنى لعل في قوله انها اذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبي بن كعب لعلها اذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيأ بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد

أعاذل ما يدريك أن منيتي * الى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي ۞ قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال ابن عباس يعني ونحول بينهم وبين الايمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها والتقليب هو تحويل الشئ وتحريكه عن وجهه الى وجه آخر لان الله تعالى اذا صرف القلوب والابصار عن الايمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات وقيل أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الانبياء وقال ابن عباس المرة الاولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة الى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الايمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على ان الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وان القلوب والابصار بيده وفي تصريفه فيقيمها ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فمعنى قوله نقلب أفئدتهم نزيغها عن الايمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وان جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الايمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها ۞ وقوله تعالى (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق في علم الله انهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون الى الحق ۞ قوله عز وجل (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) قال ابن جريج نزلت في المستهزئين وذلك انهم أتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقالوا يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك انك رسول الله أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت هذه الآية جوابا لهم والمعنى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة (وكلمهم الموتى) يعني كما سألوا (وحشرنا عليهم كل شئ قبلا) يعني وجمعنا عليهم كل شئ قبلا قبيلا قبيلا وقيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله (ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) يعني الا أن يشاء الله الايمان منهم وفيه دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله تعالى حتى الايمان والكفر وموضع المعجزة ان الاشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فاذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الاعجاز وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة والمعنى وحشرنا عليهم كل شئ مواجهة ومعاينة ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله أخبر الله ان الايمان بمشيئة الله لا كما ظنوا انهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا لم يؤمنوا وقال ابن عباس ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء الا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه انهم يدخلون في الايمان وصحح الطبري قول ابن عباس قال لان الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن

(ونقلب أفئدتهم) عن قبول الحق (وأبصارهم) عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها فلا يؤمنون بها قيل هو عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم أي ما يشعركم انهم لا يؤمنون وما يشعركم بانقلاب أفئدتهم وأبصارهم يفقهون ولا يبصرون الحق (كما لم يؤمنوا به أول مرة) كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) قيل وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم يعمهون يتحيرون (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) كما قالوا لولا أنزل علينا الملائكة (وكلمهم الموتى) كما قالوا فأتوا بآبائنا (وحشرنا عليهم) جمعنا (كل شئ قبلا) كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا جمع قبيل وهو الكفيل قبلا مدني وشامي أي عيانا وكلاهما نصب على الحال (ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) ايمانهم فيؤمنوا وهذا جواب لقول المؤمنين لعلهم يؤمنون بنزول الآية

بهائم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الايمان ۞ قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) يعنى يجهلون ان ذلك كذلك و يحسبون ان الايمان اليهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا كفروا وليس الامر كذلك بل الايمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفى هذا دليل لمذهب أهل السنة ان الاشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة فى قولهم ان الله أراد الايمان من جميع الكفار ۞ قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا) قيل هو منسوق على قوله تعالى وكذلك زينا لكل أمة عملهم أى كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبى عدوا وقيل معناه كما جعلنا لمن قبلك من الانبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قبلك عدوا ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعنى جعلنا لكل نبى أعداء (شياطين الانس والجن) اختلف العلماء فى معنى شياطين الانس والجن على قولين أحدهما ان المراد شياطين من الانس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والانس وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء وهو قول مجاهد وقتادة قالوا وشياطين الانس أشد تمردا من شياطين الجن لان شيطان الجن اذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على اغوائه بشيطان الانس ليفتنه ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى ذر قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شيطان الجن والانس قلت يا رسول الله وهل للانس من شيطان قال نعم هم شر من شياطين الجن ذكره البغوى بغير سند وأسنده الطبرى وقال مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد علىّ من شيطان الجن وذلك أنى اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الانس يجيئنى فيجرنى الى المعاصى القول الثانى ان الجميع من ولد ابليس وأضيف الشياطين الى الانس على معنى انهم يغوونهم وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبى والسدى ورواية عن ابن عباس قالوا والمراد بشياطين الانس التى مع الانس وبشياطين الجن التى مع الجن وذلك ان ابليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم الى الجن وفريقا منهم الى الانس فالفريقان شياطين الجن والانس بمعنى انهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ولأوليائه من المؤمنين والصالحين ومن ذهب الى هذا القول قال يدل على صحته ان لفظ الآية يقتضى اضافة الشياطين الى الانس والجن والاضافة تقتضى المغايرة فعلى هذا يكون فى الشياطين نوع مغاير للانس والجن وهم أولاد ابليس ۞ وقوله تعالى (يوحى بعضهم الى بعض) يعنى يلقى ويسر بعضهم الى بعض ويناجى بعضهم بعضا وهو الوسوسة التى يلقيها لمن يريد اغواءه فعلى القول الاول ان شياطين الانس والجن يسر بعضهم الى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين وعلى القول الثانى ان أولاد ابليس يلقى بعضهم بعضا فى كل حين فيقول شيطان الانس لشيطان الجن أضللت صاحبى بكذا وكذا فاضل أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الانس كذلك فذلك وحى بعضهم الى بعض ۞ وقوله (زخرف القول) يعنى باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذى قد زين ووشى بالكذب وكل شئ حسن مموه فهو زخرف (غرورا) يعنى ان الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك ان الشياطين يزينون الاعمال القبيحة لبنى آدم ويغرونهم بها غرورا (ولو شاء ربك ما فعلوه) يعنى ما فعلوا الوسوسة التى يلقيها الشياطين فى قلوب بنى آدم والمعنى ان الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من القاء الوسوسة الى الانس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم انه الاجزل له فى الثواب اذا صبر على المحنة (فذرهم وما يفترون) يعنى فخلهم يا محمد وما زين لهم ابليس وغرهم به من الكفر والمعاصى فانى من ورائهم ۞ قوله تعالى (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) قال ابن عباس ولتميل اليه وأصل الصغو فى اللغة الميل يقال أصغى الى كذا مال اليه ويقال صغوت أصغو وصغيت أصغى لغتان قال ابن الانبارى اللام فى ولتصغى متعلقة

بفعل

ان هؤلاء يؤمنون اذا جاءتهم الآية المقترحة (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا) وكما جعلنا لك أعداء من المشركين جعلنا لمن تقدمك من الانبياء أعداء لما فيه من الابتلاء الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والاجر وانتصب (شياطين الانس والجن) على البدل من عدوا أو على انه المفعول الاول وعدوا مفعول ثان (يوحى بعضهم الى بعض) يوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس وكذلك بعض الجن الى بعض وبعض الانس الى بعض وعن مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد علىّ من شيطان الجن لانى اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى وشيطان الانس يجيئنى فيجرنى الى المعاصى عيانا وقال عليه السلام قرناء السوء شر من شياطين الجن (زخرف القول) ما زينوه من القول والوسوسة والاغراء على المعاصى (غرورا) خدعا وأخذا على غرة وهو مفعول له (ولو شاء ربك ما فعلوه) أى الايحاء يعنى ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة ولكنه امتحن بما يعلم انه أجزل فى الثواب (فذرهم وما يفترون) عليك وعلى الله فان الله يجزيهم وينصرك ويجزيهم (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة)

بفعل مضمر معناه وفعلناه بهم ذلك لكي تصغى الى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحي تقديره يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في اليه يرجع الى زخرف القول والمعنى ان قلوب الكفار تميل الى زخرف القول وباطله وتحبه وترضى به وهو قوله (وليرضوه) يعني يرضون ذلك القول المزخرف الباطل (وليقترفوا ما هم مقترفون) يعني وليكتسبوا من الاعمال الخبيثة ما هم مكتسبون ۞ قوله عز وجل (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكما قاضيا يقضي بيني وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة غير أن بعض أهل المعاني قال الحكم أكمل من الحاكم لان الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم اليه وهو الذي لا يحكم الا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم الا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا) يعني مبينا فيه أمره ونهيه ووعده ووعيده وفيه الحكم بيني وبينكم (والذين آتيناهم الكتاب) يعني علماء اليهود والنصارى (يعلمون انه منزل من ربك بالحق) يعني يشهدون ان هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون ان هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه (فلا تكونن من الممترين) يعني فلا تكونن يا محمد من الشاكين ان علماء أهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق وانه منزل من عند الله وقيل معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك انه حق وصدق فهو من باب التهييج لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به غيره والمعنى فلا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن في شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذي لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى ۞ قوله تعالى (وتمت كلمت ربك) وقرئ كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة اذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته وكذلك القرآن كلمة واحدة لانه شيء واحد في اعجاز النظم وكونه حقا وصدقا ومعجزا ومن قرأ بالجمع قال لان الله قال في سياق الآية لا مبدل لكلماته فوجب الجمع في اللفظ الاول اتباعا للثاني (صدقا وعدلا) يعني صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم وقيل ان القرآن مشتمل على الاخبار والاحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والامم الخالية وعما هو كائن الى قيام الساعة وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الامر والنهي والحلال والحرام وسائر الاحكام (لا مبدل لكلماته) يعني لا مغير لقضائه ولا راد لحكمه ولا خلف لمواعيده وقيل لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمت ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل قال الله تعالى لا مبدل لكلماته لانها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية الى يوم القيامة وفي قوله لا مبدل لكلماته دليل على ان السعيد لا ينقلب شقيا ولا الشقي ينقلب سعيدا فالسعيد من سعد في الازل والشقي من شقي في الازل وأورد على هذا ان الكافر يكون شقيا بكفره فيسلم فينقلب سعيدا باسلامه وأجيب عنه بان الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيدا في الازل ومن ختم له بالشقاوة كان شقيا في الازل والله أعلم ۞ وقوله تعالى (وهو السميع) يعني لما يقوله العباد (العليم) يعني باحوالهم قوله عز وجل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) قال المفسرون ان المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أكل الميتة وذلك أنهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم فقال الله تعالى لنبيه

(وليقترفوا ما هم مقترفون) من الآثام (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكما يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب) المعجز (مفصلا) حال من الكتاب أي مبينا فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ثم عضد الدلالة على ان القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له بقوله (والذين آتيناهم الكتاب) أي عبد الله بن سلام وأصحابه (يعلمون أنه منزل) شامي وحفص (من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) الشاكين فيه أيها السامع أو فلا تكونن من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به (وتمت كلمت ربك) أي ما تكلم به كلمات ربك حجازي وشامي وأبو عمرو أي تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد (صدقا) في وعده ووعيده (وعدلا) في أمره ونهيه وانتصبا على التمييز وعلى الحال (لا مبدل لكلماته) لا أحد يبدل شيئا من ذلك (وهو السميع) لاقرار من أقر (العليم) باصرار من أصر أو السميع لما يقولون العليم بما يضمرون (وان تطع أكثر من في الارض) أي الكفار لانهم الاكثرون (يضلوك عن سبيل الله) دينه

(ان يتبعون الا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم (وان هم الا يخرصون) يكذبون فى أن الله حرم عليهم كذا
وأحل لهم كذا (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى هو يعلم الكفار والمؤمنين

محمد صلى الله عليه وسلم وان تطع أكثر من فى الارض فى أكل الميتة وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الارض يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن دين الله الذى شرعه لك و بعثك به وقيل معناه لا تطعهم فى معتقداتهم الباطلة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى (ان يتبعون الا الظن) يعنى ان هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون فى دينهم الذى هم عليه الا الظن وليسوا على بصيرة وحق فى دينهم وليسوا بقاطعين انهم على حق لانهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل (وان هم الا يخرصون) يعنى يكذبون وأصل الخرص الحزر والتخمين ومنه خرص النخلة اذا حزر كمية ثمرتها على الظن من غير يقين و يسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل ان كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لان قائله لم يقله عن علم و يقين (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد ان ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أى الناس يضل عن سبيله (وهو أعلم بالمهتدين) يعنى وهو أعلم أيضا بمن كان على هدى واستقامة وسداد لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه فاخبر تعالى انه أعلم بالفريقين الضال والمهتدى وانه يجازى كلا بما يستحق ۞ قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح (ان كنتم بآياته مؤمنين) وقيل كانوا يحرمون أصنافا من النعم و يحلون الميتة فقيل أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله فعلى هذا القول تكون الآية خطابا للمشركين وعلى القول الاول تكون الآية خطابا للمسلمين وهو الاصح لقوله فى آخر الآية ان كنتم بآياته مؤمنين (ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعنى وأى شئ لكم فى أن لا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد فى اباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) يعنى وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون وقال جمهور المفسرين المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات المذكورة فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وأورد الامام فخر الدين الرازى ههنا اشكالا فقال فى سورة الانعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة وقوله وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدما على هذا المحل والمدنى متأخر عن المكى فيمتنع كونه متقدما ثم قال بل الاولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير وهذه الآية وان كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل الا أن هذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو ان الله لما علم ان سورة المائدة متقدمة على سورة الانعام فى الترتيب لا فى النزول حسن عود الضمير فى قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم الى ما هو متقدم فى الترتيب وهو قوله حرمت عليكم الميتة الآية والله أعلم بمراده ۞ وقوله تعالى (الا ما اضطررتم اليه) يعنى الا ان تدعوكم الضرورة الى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار (وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم) يعنى وان كثيرا من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة و يحتجون عليكم فى ذلك بقولهم أتأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله وانما قالوا هذه المقالة جهلا منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك وقيل المراد به عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين ابراهيم عليه السلام (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) يعنى ان ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فاحل ما حرم الله

من رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام والخبر يضل وموضع الجملة نصب بيعلم المقدر لا بأعلم لان أفعل لا يعمل فى الاسم الظاهر النصب و يعمل الجر وقيل تقديره أعلم بمن يضل بدليل ظهور الباء بعده فى بالمهتدين (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) هو مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام و يحرمون الحلال وذلك انهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين ان كنتم متحققين بالايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه خاصة أى على ذبحه دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه (ومالكم ألا تأكلوا) ما استفهام فى موضع رفع بالابتداء ولكم الخبر أى وأى غرض لكم فى أن لا تأكلوا (مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم) بين لكم (ما حرم عليكم) مما لم يحرم بقوله حرمت عليكم الميتة فصّل وحرّم كوفى غير حفص و بفتحهما مدنى وحفص و بضمهما غيرهم (الا ما اضطررتم اليه)

مما حرم عليكم فانه حلال لكم فى حال الضرورة أى شدة المجاعة الى أكله (وان كثيرا ليضلون) ليضلون كوفى وحرم
(باهوائهم بغير علم) أى يضلون فيحرمون و يحللون باهوائهم وشهواتهم من غير تعلق بشريعة (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) بالمتجاوزين

وحرم ما أحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم ۞ قوله عز وجل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) يعنى وذروا أيها الناس ما يوجب الاثم وهى الذنوب والمعاصى كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها قال الربيع بن أنس نهى الله عن ظاهر الاثم وباطنه ان يعمل به سرا وعلانية وقال سعيد بن جبير فى هذه الآية الظاهر منه قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ونكاح المحارم من الامهات والبنات والاخوات والباطن الزنا وقال السدى أما الظاهر فالزوانى فى الحوانيت وهن أصحاب الرايات وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا وقال الضحاك كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ان ذلك حلال ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية وقال ابن زيد ظاهر الاثم التجرد عن الثياب والتعرى فى الطواف والباطن الزنا وقال الكلبى ظاهر الاثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك الى ان جاء الاسلام فنهى الله عن ذلك كله وقيل ان هذا النهى عام فى جميع المحرمات التى نهى الله عنها وهو الاصح لان تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها قال ابن الانبارى وذروا الاثم من جميع جهاته وقيل المراد بظاهر الاثم الاقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا لخوف الناس وقيل المراد بظاهر الاثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل فى ذلك الحسد والكبر والعجب وارادة السوء للمسلمين ونحو ذلك ۞ وقوله تعالى (ان الذين يكسبون الاثم) يعنى ان الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصى وغيرها (سيجزون) يعنى فى الآخرة (بما كانوا يقترفون) يعنى بما كانوا يكسبون فى الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب وانه مخصوص بمن لم يتب لان المسلمين أجمعوا على انه اذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة فى ذلك فقالوا المذنب اذا لم يتب فهو فى خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله وكرمه ۞ قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية فى تحريم الميتات وما فى معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية فى تحريم الذبائح التى كانوا يذبحونها على اسم الاصنام انتهى

﴿فصل﴾ اختلف العلماء فى ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء تركها عامدا أو ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبى ونقله الامام فخر الدين الرازى عن مالك ونقل عن عطاء أنه قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام احتجوا فى ذلك بظاهر هذه الآية وقال الثورى وأبو حنيفة ان ترك التسمية عامدا لا تحل وان تركها ناسيا تحل وقال الشافعى تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا ونقله البغوى عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزى عن أحمد روايتين فيما اذا ترك التسمية عامدا وان تركها ناسيا حلت فمن أباح أكل الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الاصنام بدليل أنه قال تعالى فى سياق الآية (وانه لفسق) وأجمع العلماء على أن آكل ذبيحة المسلم التى ترك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا أيضا فى اباحتها بما روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قلت يارسول الله ان هنا أقواما حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فلا ندرى يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا قالوا لو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك فى وجودها مانعا من أكلها كالشك فى أصل الذبح وقول الشافعى فى أول الآية وان كان عاما بحسب الصيغة الا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهى قوله وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون علمنا ان المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله فى الذبح كما قال فى آخر السورة قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار هذا الفسق الذى أهل لغير الله به مفسرا لقوله وانه لفسق واذا كان كذلك كان

من الحق الى الباطل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) علانيته وسره أو الزنا فى الحوانيت والصديقة فى السر أو الشرك الجلى والخفى (ان الذين يكسبون الاثم سيجزون) يوم القيامة (بما كانوا يقترفون) يكتسبون فى الدنيا (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) عند الذبح (وانه) وان أكله (لفسق

وان الشياطين ليوحون) ليوسوسون (الى أوليائهم) من المشركين (ليجادلوكم) بقولهم لا تأكلون مما قتله الله وتأكلون مما تذبحون بايديكم والآية تحرم متروك التسمية وخصت حالة النسيان بالحديث أو يجعل الناسي ذاكرا تقديرا (وان أطعتموهم) في استحلال ما حرم الله (انكم لمشركون) لان من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به ومن حق المتدين أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لما في الآية من التشديد العظيم ومن أول الآية بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه لقوله أو فسقا أهل لغير الله به وقال ان الواو في وانه لفسق للحال لان عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن فيكون التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه فسقا والفسق مجمل فبين بقوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه مهلا لغير الله به فيكون ما سواه حلالا بالعمومات المحلة منها قوله قل لا أجد الآية فقد عدل عن ظاهر اللفظ (أو من كان ميتا فأحييناه) أي كافرا فهديناه لان الايمان حياة القلوب ميتا مدني (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) مستضيئا به والمراد به اليقين (كمن مثله) أي صفته (في الظلمات) أي خابط فيها (ليس بخارج منها) لا يفارقها ولا يتخلص منها وهو حال قيل المراد بهما حمزة وأبو جهل والاصح ان الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله فبين ان مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس بنور الحكمة والايمان ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها (كذلك) أي كما زين للمؤمن ايمانه (زين للكافرين) بتزيين الله تعالى كقوله زينا لهم أعمالهم (ما كانوا يعملون) قوله

قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق مخصوص بما أهل لغير الله به والله أعلم ۞ وقوله تعالى (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم) يعني ان الشياطين يوسوسون الى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك ان المشركين قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة اذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا فتزعم ان ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية في تحريم الميتة كتبت فارس وهم المجوس الى مشركي قريش أن خاصموا محمدا وقولوا له ان ما ذبحت فهو حلال وما ذبحه الله فهو حرام فأنزل الله وان الشياطين يعني مردة الانس وهم المجوس ليوحون الى أوليائهم يعني مشركي قريش وكان بين فارس والعرب موالاة ومكاتبة على الروم فعلى هذا يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية (وان أطعتموهم) يعني في أكل الميتة وما حرم الله عليكم (انكم لمشركون) يعني انكم اذا مثلهم في الشرك قال الزجاج فيه دليل على أن كل من أحل شيأ مما حرم الله أو حرم شيأ مما أحل الله فهو مشرك وانما سمي مشركا لانه أثبت حاكما غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك ۞ قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه) يعني أو من كان ميتا بالكفر فأحييناه بالايمان وانما جعل الكفر موتا لانه جعل الايمان حياة لان الحي صاحب بصر يهتدي به الى رشده ولما كان الايمان يهدي الى الفوز العظيم والحياة الابدية شبهه بالحياة (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) يعني وجعلنا له نورا يستضيء به في الناس ويهتدي به الى قصد السبيل قيل النور هو الاسلام لانه يخلص من ظلمات الكفر لقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وقال قتادة هو كتاب الله القرآن لانه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله (كمن مثله في الظلمات) يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة (ليس بخارج منها) يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدي به في مصالحه وان الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على الدوام ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بانسانين معينين أو هما عامان في كل مؤمن وكافر فذكروا في ذلك قولين أحدهما ان الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس في قوله وجعلنا له نورا يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم كمن مثله في الظلمات يريد بذلك أبا جهل بن هشام وذلك ان أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس وجعل أبو جهل يتضرع الى حمزة ويقول يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم عقولا تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل وقال عكرمة والكلبي نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل وقال مقاتل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية والقول الثاني وهو قول الحسن في آخرين ان هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لان المعنى اذا كان حاصلا في الكل دخل فيه كل أحد ۞ وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه

أي أعمالهم (وكذلك) أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها (جعلنا) صيرنا (في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي واللام على ظاهرها عند أهل السنة وليست بلام العاقبة وخص الأكابر وهم الرؤساء لان مافيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم الى المكر والكفر من غيرهم دليله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ثم سلى رسوله عليه السلام ووعد له النصرة بقوله (وما يمكرون الا بانفسهم) لان مكرهم يحيق بهم (وما يشعرون) انه يحيق بهم أكابر مفعول أول والثاني في كل قرية ومجرميها بدل من أكابر أو الاول مجرميها والثاني أكابر والتقدير مجرميها أكابر ولما قال أبو جهل زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نرضى به الا ان يأتينا وحي كما يأتيه نزل (واذا جاءتهم) أي الاكابر (آية) معجزة أو آية من القرآن تامرهم بالايمان (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) أي نعطى من الآيات مثل ما أعطى الانبياء فاعلم الله تعالى أنه أعلم بمن يصلح للنبوة فقال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) مكي وحفص رسالاته غيرهما حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته (سيصيب الذين أجرموا) من أكابرها (صغار) ذل وهوان (عند الله) في القيامة (وعذاب شديد) في الدارين من القتل والاسر وعذاب

قوله زينا لهم أعمالهم ولان حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي وحصوله لا يكون الا بخلق الله تعالى فدل ذلك على ان المزين هو الله تعالى وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم ۞ وقوله تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) يعني وكما جعلنا في مكة أكابر وعظماء جعلنا في كل قرية أكابر وعظماء وقيل هو معطوف على ما قبله ومعناه كما زين للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافا لانه لا يتم المعنى بل في الآية تقديم وتأخير تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر وانما جعل المجرمين أكابر لانهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم وانما حصل ذلك لاجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة المكر الخديعة والحيلة والغدر والفجور زاد بعضهم والغيبة والنميمة والايمان الكاذبة وترويج الباطل قال ابن عباس معناه ليقولوا فيها الكذب وقال مجاهد جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم (وما يمكرون الا بأنفسهم) يعني ما يحيق هذا المكر الا بهم لان وبال مكرهم يعود عليهم (وما يشعرون) يعني ان وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم ۞ قوله عز وجل (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) يعني النبوة وذلك ان الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لاني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت في أبي جهل وذلك انه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى اذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى اليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا الا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية واذا جاءتهم آية يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل ابن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني النبوة وانما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسدا منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله قولان أحدهما وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين القول الثاني وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس أن المعنى واذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل بصدقك انك رسول الله فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وانما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وانه رسول من الله تعالى وعلى القول الاول انهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعني انه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها وأنتم لستم لها بأهل وان النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقال أهل المعاني الابلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين في قومهم لان الطعن كان يتوجه عليهم فيقال انما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لاجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها لليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها ۞ وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار) أي ذلة وهوان وقيل الصغار هو الذل الذي يصغر الى المرء نفسه فيه (عند الله) يعني هذا من عند الله وقيل ان هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول انما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم في الدنيا (وعذاب شديد) يعني في الآخرة (بما

كانوا يمكرون) يعني انما حصل لهم هذا الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم مالا يستحقون ۞ قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) أي للايمان يقال شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الايمان والخير فتوسع وذلك أن الانسان اذا اعتقد في عمل من الاعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه اليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر وقيل الشرح الفتح والبيان يقال شرح فلان أمره اذا أوضحه وأظهره وشرح المسئلة اذا كانت مشكلة فاوضحها وبينها فقد ثبت أن للشرح معنيين أحدهما الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدرا أي فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا وقوله أفمن شرح الله صدره للاسلام يعني فتحه ووسعه لقبوله والثاني ان الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية فمن يرد الله أن يهديه للايمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به واحسانه اليه فعند ذلك يستنير الاسلام في قلبه فيضيء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت وأسنده الطبري عن ابن مسعود قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام قال اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت ۞ وقوله تعالى (ومن يرد) أي الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) يعني يجعل صدره ضيقا حتى لا يدخله الايمان وقال الكلبي ليس للخير فيه منفذ وقال ابن عباس اذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه واذا سمع ذكر الاصنام ارتاح الى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده اعرابي من كنانة فقال له ما الحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الاشجار التي لا تصل اليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر كذلك قلب المنافق لا يصل اليه شيء من الخير وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الاشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل اليها شيء وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال هل هنا أحد من بني بكر قال رجل نعم قال ما الحرجة فيكم قال الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لا طريق فيه فقال ابن عباس كذلك قلب الكافر قال أهل المعاني لما كان القلب محلا للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فقبل ما أودعه من الايمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على ان الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعي علما ولا استدلالا على توحيد الله تعالى والايمان به وفي الآية دليل على أن جميع الاشياء بمشيئة الله وارادته حتى ايمان المؤمن وكفر الكافر ۞ وقوله تعالى (كأنما يصعد في السماء) يعني أن الكافر اذا دعي الى الاسلام كأنه قد كلف أن يصعد الى السماء ولا يقدر على ذلك وقيل يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد الى السماء نبوا عن الاسلام وتكبرا وقيل ضاق عليه المذهب فلم يجد الا أن يصعد الى السماء وليس يقدر على ذلك وقيل هو من المشقة وصعوبة الامر فيكون المعنى ان الكافر اذا دعي الى الاسلام فانه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف الصعود الى السماء وليس يقدر على ذلك (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان الاول معناه أن جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم الوجه الثاني قال الزجاج أي مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس قال ابن عباس الرجس الشيطان أي فيسلطه الله عليهم وقال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وفي رواية عن ابن عباس ان الرجس العذاب وقال الزجاج الرجس في

النار (بما كانوا يمكرون) في الدنيا (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) يوسعه وينور قلبه قال عليه السلام اذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح قيل وما علامة ذلك قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت (ومن يرد) أي الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا) ضيقا مكي (حرجا) صفة لضيقا مدني وأبو بكر بالغا في الضيق حرجا غيرهما وصفا بالمصدر (كأنما يصعد في السماء) كأنه كلف أن يصعد الى السماء اذا دعي الى الاسلام من ضيق صدره عنه اذا ضاقت عليه الارض فطلب مصعدا في السماء أو كعازب الرأي طائر القلب في الهواء يصعد مكي يصاعد أبو بكر وأصله يتصاعد الباقون يصعد وأصله يتصعد (كذلك يجعل الله الرجس) العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا (على الذين لا يؤمنون) والآية حجة لنا على المعتزلة في ارادة

و جعله ضيقا لمن أراد ضلاله (مستقيما) عادلا مطردا أو هو حال مؤكدة (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) يتعظون (لهم) أي لقوم يذكرون (دار السلام) دار الله يعني الجنة أضافها الى نفسه تعظيما لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر أو السلام التحية سميت دار السلام لقوله تحيتهم فيها سلام الا قيلا سلاما سلاما (عند ربهم) في ضمانه (وهو وليهم) محبهم أو ناصرهم على أعدائهم (بما كانوا يعملون) بأعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون أو هو ولينا في الدنيا بتوفيق الاعمال وفي العقبى بتحقيق الآمال (ويوم نحشرهم جميعا) وبالياء حفص أي واذكر يوم نحشرهم أو ويوم نحشرهم قلنا (يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس) أضللتم منهم كثيرا وجعلتموهم أتباعكم كما تقول استكثر الامير من الجنود (وقال أولياؤهم من الانس) الذين أطاعوهم واستمعوا الى وسوستهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أي انتفع الانس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات

الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب ۞ قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) يعني وهذا الذي بيناه لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه قال ابن عباس في قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعني الاسلام وقال ابن مسعود يعني القرآن لانه يؤدي من تبعه وعمل به الى طريق الاستقامة والسداد (قد فصلنا الآيات) يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والامر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن (لقوم يذكرون) يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر قال عطاء يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان (لهم دار السلام عند ربهم) يعني الجنة في قول جميع المفسرين قال الحسن والسدي السلام هو الله تعالى وداره الجنة ومعنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لانه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار الى السلام الذي هو اسم الله تعالى اضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي صلى الله عليه وسلم عبد الله في قوله وانه لما قام عبد الله يدعوه واحتج لصحة هذا ابان في اضافة الدار الى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الاضافة مبالغة في تعظيم أمرها وقيل ان السلام صفة للدار لانها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كانه قال لهم دار السلامة التي لا يلقون فيها شيأ يكرهونه وقيل سميت بذلك لان جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تحيتهم فيها سلام وقال سلام قولا من رب رحيم لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما وقوله عند ربهم يعني ان الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم اليها (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعني انه تعالى يتولى أمرهم وايصال المنافع اليهم ويدفع المضار عنهم وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة وقيل الولي هو الناصر والقريب يعني انه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها اليه في الدنيا ۞ قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا) أي اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الاصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة (يامعشر الجن) فيه حذف تقديره يقول لهم يامعشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) يعني من اضلالهم واغوائهم وقال ابن عباس معناه أضللتم كثيرا من الانس وهذا التفسير لا بد له من تأويل آخر لان الجن لا يقدرون على اضلال الانس واغوائهم بانفسهم لانه لا يقدر على الاجبار أحد الا الله لانه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعنى قد استكثرتم من الدعاء الى الاضلال مع مصادفة القبول من الانس (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني استمتع الجن بالانس والانس بالجن فاما استمتاع الانس بالجن فقال الكلبي كان الرجل في الجاهلية اذا سافر فنزل بأرض قفراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم وأما استمتاع الجن بالانس فهو انهم قالوا سدنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا في قومهم وعظما في أنفسهم وقيل استمتاع الانس بالجن هو ما كانوا يلقون اليهم من الاراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الامور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالانس طاعة الانس للجن فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي وقيل استمتاع الانس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالانس هي طاعة الانس للجن فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للانس والانس كالاتباع وقيل ان قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الانس خاصة لان استمتاع الجن بالانس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر أما استمتاع الانس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه

وعلى أسباب التوصل اليها وانتفع الجن بالانس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في اغوائهم

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعني ان ذلك الاستمتاع كان الى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن والسدي الاجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة (قال) يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) يعني ان النار مقامكم ومقركم فيها ومصيركم اليها (خالدين فيها) يعني مقيمين في نار جهنم أبدا (الا ما شاء الله) اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل معناه خالدين فيها الا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب الى حين دخولهم الى النار فان هذا الوقت لم يسموا خالدين فيه في النار وقيل المراد من هذا الاستثناء هو أوقات نقلهم من عذاب الى عذاب آخر وذلك أنهم يستغيثون من النار فينقلون الى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون الى النار فكانت مدة نقلتهم هي المراد من هذا الاستثناء ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس انه قال ان هذا الاستثناء يرجع الى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما في قوله الا ما شاء الله بمعنى من يعني الا من شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس انه كان يتأول هذا الاستثناء بان الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم الى مشيئته وقال في هذه الآية انه لا ينبغي لاحد أن يحكم على الله في خلقه ان لا ينزلهم جنة ولا نارا قال الزجاج والقول الاول أولى لان معنى الاستثناء انما هو من يوم القيامة لان قوله ويوم يحشرهم جميعا هو يوم القيامة ثم قال خالدين فيها منذ يبعثون الا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم (ان ربك حكيم) يعني في تدبير خلقه وتصريفه اياهم في مشيئته من حال الى حال وغير ذلك من أفعاله وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي وفي سائر وجوه المجازاة (عليم) يعني بعواقب أمور خلقه وما هم اليه صائرون كانه قال انما حكمت لهؤلاء الكفار بالخلود في النار لعلمي بانهم يستحقون ذلك ۞ قوله عز وجل (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا) الكاف في كذلك كاف التشبيه تقتضي شيأ تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والانس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولي بعض الظالمين بعضا أي نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء في الاثر من أعان ظالما سلطه الله عليه وقال قتادة نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان وفي رواية أخرى عن قتادة قال يتبع بعضهم بعضا في النار من الموالاة وقيل معناه نولي ظلمة الانس ظلمة الجن وظلمة الجن ظلمة الانس يعني نكل بعضهم الى بعض وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية هو ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى عليهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول ان الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالما مثلهم فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم ۞ وقوله تعالى (بما كانوا يكسبون) يعني يسلط بعضهم على بعض من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها ۞ قوله تعالى (يا معشر الجن والانس) المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر (ألم يأتكم رسل منكم) اختلف العلماء في معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء الى انه لم يكن من الجن رسول وانما كانت الرسل من الانس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعني من أحدكم وهم الانس فحذف المضاف فهو كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وانما جاز ذلك لان ذكرهما قد جمع في قوله مرج البحرين وهو جائز في كل ما اتفق في أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الانس جاز مخاطبتهما بما ينصرف الى أحد الفريقين وهم الانس وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم قال الواحدي وعليه دل كلام ابن عباس لانه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم الى أنه أرسل الى الجن رسلا منهم كما أرسل الى الانس رسلا منهم قال الضحاك من الجن رسل كما من الانس رسل وظاهر الآية يدل على

واتباع الهوى والتكذيب بالبعث وتحسر على حالهم (قال النار مثواكم) منزلكم (خالدين فيها) حال والعامل معنى الاضافة كقوله تعالى أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فمصبحين حال من هؤلاء والعامل في الحال معنى الاضافة اذ معناها الممازجة والمضامة والمثوى ليس بعامل لان المكان لا يعمل في شئ (الا ما شاء الله) أي يخلدون في عذاب النار الابد كله الا ما شاء الله الا الاوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير الى عذاب الزمهرير (ان ربك حكيم) فيما يفعل باوليائه وأعدائه (عليم) باعمالهم فيجزي كلا على وفق عمله (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا) نتبع بعضهم بعضا في النار أو نسلط بعضهم على بعض أو نجعل بعضهم أولياء بعض (بما كانوا يكسبون) بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) عن الضحاك بعث الى الجن رسلا منهم كما بعث الى الانس رسلا منهم لانه به آنس وعليه ظاهر النص وقال آخرون الرسل من الانس خاصة وانما قيل رسل منكم لانه لما جمع الثقلين في الخطاب صح ذلك وان كان من أحدهما كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أو رسلهم رسل نبينا كقوله ولوا الى قومهم منذرين

على ذلك لانه قال تعالى ألم يأتكم رسل منكم فخاطب الفريقين جميعا وأجيب عن ذلك بأن الله تعالى قال يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وهذا يقتضي كون الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع واذا كان الرسل من الانس كان الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الانس لا من الجن ويحتمل أيضا أن يقال ان كافة الرسل كانوا من الانس لكن الله تعالى يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الانس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسل وينذروهم به كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومهم وهذا مذهب مجاهد فانه قال الرسل من الانس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة وقيل كانت الرسل يبعثون الى الجن من الجن ولكن بواسطة رسل الانس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتي) يعني يخبرونكم بما أوحي اليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعني ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك ان الله تعالى يقول يوم القيامة لكفار الجن والانس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر في كتابه وهو قوله تعالى يامعشر الجن والانس الآية فيجيبون بما أخبر عنهم في قوله تعالى (قالوا) يعني كفار الجن والانس (شهدنا على أنفسنا) اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) يعني انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) في الدنيا فان قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر في قوله والله ربنا ما كنا مشركين قلت يوم القيامة يوم طويل والاحوال فيه مختلفة فاذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الانكار ينفعهم وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين فان قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم قلت شهادتهم الاولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله وشهدوا على أنفسهم ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لانفسهم وانهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وزجرهم عن الكفر والمعاصي ﴿ قوله عز وجل (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل اليهم وانذارهم سوء العاقبة وقال الزجاج معناه ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم (أن لم يكن ربك) يعني لانه لم يكن ربك (مهلك القرى بظلم) قال الكلبي معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن تأتيهم الرسل فتنهاهم فان رجعوا والا أتاهم العذاب وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه (وأهلها غافلون) أي وهم غافلون فعلى قول الجمهور يكون الظلم فعلا للكفار وهو شركهم وذنوبهم التي عملوها وعلى قول الفراء انه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالما والله عز وجل يتعالى عن الظلم والقول الاول أصح لانه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بلا اعتراض لاحد عليه في شيء من أفعاله غير انه أخبر انه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلما منه ﴿ قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) يعني ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات يعني منازل يبلغها بعمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا انما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو أعظم ثوابا ومنهم من هو أشد عقابا وهو قول جمهور

(يقصون عليكم آياتي) يقرؤن كتبي (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعني يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل الينا (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) بالرسل (ذلك) اشارة الى ما تقدم من بعثة الرسل اليهم وهو خبر مبتدأ محذوف أي الامر ذلك (ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) تعليل أي الامر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة والمعنى لان الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم بسبب ظلم أقدموا عليه أو ظالما على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظالما وهو متعال عنه (ولكل) من المكلفين (درجات) منازل (مما عملوا) من جزاء أعمالهم وبه استدل أبو يوسف ومحمد رحمهما الله على أن للجن الثواب بالطاعة لانه ذكر عقيب ذكر الثقلين

(وما ربك بغافل عما يعملون) بـاه عنـه و بالتاء شامى (وربك الغنى) عن عباده وعن عباداتهم (ذو الرحمة) عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة (ان يشأ يذهبكم) أيها الظالمة (و يستخلف من بعدكم مايشاء) من الخلق المطيع (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سـفينة نوح عليـه السـلام (ان ما) ما بمعـنى الذى (توعدون) من البعث والحساب والثواب والعقاب (لآت) خبر ان أى لكائن (وما أنتم بمعجزين) بفائتين رداة وهـم من مات فقـد فات المكانة تـكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن و بمعـنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانكم واعمـلوا على جهتكم وحالـكم التى أنتم عليها و يقال للرجل اذا أمر أن يثبت على حاله عـلى مكانتك يافلان أى اثبت على ما أنت عليـه (انى عامل) على مكانتى التى انا

المفسرين وقيـل ان قوله تعالى ولـكل درجات مما عملوا مختص باهل الطاعة لان لفظ الدرجة لا يليق الا بهم وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما يعملون) مختص باهل الـكفر والمعاصى ففيه وعيد وتهديد لهم والقول الاول أصح لان علمه تعالى شامل لـكل المعلومات فيدخـل فيه المؤمن والـكافر والطائع والعاصى وانه عالم باعمالهم على التفصيل التام فيجزى كل عامل على قدر عمله ومايليق به من ثواب أوعقاب ۞ قوله عزوجل (وربك الغنى) يعنى عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بين ان لـكل عامل بطاعة أومعصية درجة على قدر عمله بين ان تخصيص المطيعين بالثواب والعاصـين بالعـقاب ليس لانه محتاج الى طاعـة المطيع أومنتقص بمعـصية العاصى بل هو الغنى على الاطلاق وان جميع الخلق فقراء اليه (ذو الرحمة) قال ابن عباس باوليائه وأهـل طاعته وقال الـكلبى بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يعنى يهلـكم الخطاب لاهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعنى وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعنى من بعد اهلا كـكم (مايشاء) يعنى خلقا غيركم أمثل وأطوع منـكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) اختلفت عبارات المفسرين فى هـذه اللفظة فقال البغوى يعنى آباءهـم الماضـين قرنا بعد قرن ونحوه قال الواحدى وصاحب الـكشاف يعنى من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سـفينة نوح عليه السـلام وقال الامام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى و يستخلف من بعدكم يعنى من بعد اذهابكم لان الاستخلاف لايكون الا على طريق البدل من فائت وأما قوله مايشاء فالمراد منه خلق ثالث أورابع واختلفوا فيـه فقال بعضـهم خلقا آخر من أمثال الجن والانس قال القاضى وهو الوجـه الاقرب لان القوم يعلمون بالعادة انه تعالى قادر على انشاء أمثال هـذا الخلق فتى كل خلق ثالث ورابع يكون أقوى فى دلالة لقدرة فـكانه تعالى نبه على ان قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمتـه العظيمة التى هى الثواب فبـين بهـذا الطريق انه تعالى لرحمتـه هؤلاء الاقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولوشاء لاماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بين الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لان المرء اذا تفـكر عـلم انه تعالى خلق الانسان من نطفـة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحـكمة واذا كان كذلك فـكما قدر على تصويرهـذه الاجسام بهذه الخاصـة فـكذلك يقدر على تصويرهم خلقا آخر مخالفا لهـذا آخر كلامه وقال الطبرى فى قوله كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين يقول كما أحـدثـكم وابتدعكم من بعـد خلق آخرين كانوا قبلـكم ومعنى من فى هـذا الموضع التعقيب كما يقال فى الـكلام أعطيتك من دينارك ثوبا يعنى مكان الدينار ثوبا لا أن الثوب من الدينار بعض كذلك الذين خوطبوا بقوله كما أنشأكم لم يرد باخبارهم هـذا الخبر أنهـم أنشؤا من أصـلاب قوم آخرين ولـكن معنى ذلك ماذ كرنا انهـم أنشؤا مكان قوم آخرين قد أهلـكوا قبلهم ۞ قوله تعالى (ان ما توعدون) به من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة (لآت) يعنى انه كائن قريب (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت (قل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يامحمد (ياقوم) أى قل لقومك من كفار قريش (اعملوا على مكانتكم) وقرئ مكاناتكم على الجمع والمـكانة تـكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المـكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتـكم يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنـكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانكم و يحتمل أن يكون معناه اعملوا على حالتـكم التى أنتم عليها كما يقال للرجل اذا أمر أن يثبت على حاله مكانتك يافلان أى اثبت على ما أنت عليه لاتتغير عنه وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتـكم (انى عامل) يعنى انى عامل على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فانى ثابت على الاسلام والمصابرة فان قلت ظاهر الآية يدل

على

على أمر الكفار بالاقامة على ماهم عليه من الكفر وذلك لا يجوز قلت معنى هذا الامر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفران رضيتم لانفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى اعملوا ما شئتم ففيه تفويض أمر العمل اليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه اطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصي ﴿ وقوله تعالى (فسوف تعلمون) يعني لمن تكون العاقبة المحمودة لنا أو لكم وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق في عمله نحن أم أنتم (من تكون له عاقبة الدار) يعني فسوف تعلمون غدا في القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهي الجنة (انه لا يفلح الظالمون) قال ابن عباس معناه انه لا يسعد من كفر بي وأشرك ثم في هذه الآية قولان أحدهما انها محكمة وهذا على قول من يقول ان المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد والتهديد والقول الثاني انها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول ان المراد بها ترك القتال ﴿ قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقة الكفار وما كانوا عليه من انكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه في الجاهلية فقال تعالى وجعلوا لله مما ذرأ يعني مما خلق من الحرث يعني الزرع والثمر والانعام يعني ومن الانعام وهي الابل والبقر والغنم نصيبا يعني قسما وجزأ قال المفسرون كان المشركون في الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللاصنام نصيبا فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فان سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الاوثان تركوه وقالوا ان الله غني عن هذا وان سقط شيء من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة اليه وكانوا اذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا انتقص شيء مما جعلوه للاوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وللاصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) يعني قولهم الذي هو بغير حقيقة لان معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجيء الا في موضع ذم لقائليه وانما نسبوا الى الكذب في قولهم هذا لله بزعمهم وان كانت الاشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله وهو قولهم (وهذا لشركائنا) يعني الاصنام وانما سموا الاصنام شركاء لانهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعني ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) يعني فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى انهم كانوا يقرون ما جعلوه للاصنام مما جعلوه لله ولا يقرون ما جعلوه لله مما جعلوه للاصنام وقال قتادة كانوا اذا أصابتهم سنة أي قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيأ وقال الحسن والسدي كانوا اذا هلك ما جعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال (ساء ما يحكمون) يعني بئس ما يحكمون ويقضون وذلك انهم رجحوا جانب الاصنام على جانب الله تعالى في الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم وقيل ان الاشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للاصنام جزأ من المال وهي لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا الى الاساءة في الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه في الجاهلية من هذه الاحكام الفاسدة التي لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل ﴿ قوله عز وجل (وكذلك) عطف على قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا يعني كما فعلوا ذلك

عليها أي اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فاني ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم وهو أمر تهديد ووعيد دليله قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة وهذا طريق لطيف في الانذار (انه لا يفلح الظالمون) أي الكافرون مكاناتكم حيث كان أبو بكر يكون حمزة وعلي وموضع من رفع اذا كان بمعنى أي وعلق عنه فعل العلم أو نصب اذا كان بمعنى الذي (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) أي وللاصنام نصيبا فاكتفى بدلالة قوله تعالى (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم علي وكذا ما بعده أي زعموا انه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة (فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله) أي لا يصل الى الوجوه التي كانوا يصرفونه اليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) من انفاقهم عليها والاجراء على سدنتها روي انهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ما جعلوا لله زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للاصنام واذا زكا ما جعلوه للاصنام تركوه لها وقالوا ان الله غني وانما ذاك لحبهم آلهتهم وايثارهم لها وفي قوله مما ذرأ اشارة الى ان الله كان أولى بان يجعل له الزاكي لانه هو الذي ذرأه ثم ذم صنيعهم بقوله (ساء ما يحكمون) في ايثار آلهتهم على الله وعملهم على ما لم يشرع لهم وموضع ما رفع أي ساء الحكم حكمهم أو نصب أي ساء حكما حكمهم (وكذلك

زين لكثير من المشركين) أي كما زين لهم تجزئة المال زين وأد البنات (قتل) مفعول زين (أولادهم شركاؤهم) هو فاعل زين زين بالضم قتل بالرفع أولادهم بالنصب شركائهم بالجر شامي على اضافة القتل الى الشركاء أي الشياطين والفصل بينهما بغير الظرف وهو المفعول وتقديره زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم (ليردوهم) ليهلكوهم بالاغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ويشوبوه ودينهم كانوا عليه من دين اسمعيل حتى زلوا عنه الى الشرك (ولو شاء الله ما فعلوه) وفيه

دليل على ان الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى (فذرهم وما يفترون) وما يفترونه من الافك أو وافتراءهم لان ضرر ذلك الافتراء عليهم لا عليك ولا علينا (وقالوا هذه أنعام وحرث) للاوثان (حجر) حرام فعل بمعنى المفعول كالذبح والطحن ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع لان حكمه حكم الاسماء غير الصفات وكانوا اذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الاوثان والرجال دون النساء والزعم قول بالظن يشوبه الكذب (وأنعام حرمت ظهورها) هي البحائر والسوائب والحوامي (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) حالة الذبح وانما يذكرون عليها أسماء الاصنام (افتراء عليه) هو مفعول له أو حال أي قسموا أنعامهم قسم حجر وقسم لا يركب وقسم لا يذكر اسم الله عليها ونسبوا ذلك الى الله افتراء عليه (سيجزيهم بما كانوا يفترون) وعيد ودخلت

(وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا يأكل منه الاناث وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والاناث وأنث خالصة وهو خبر ما للحمل على المعنى لان ما في معنى الاجنة وذكر ومحرم حملا على اللفظ أو التاء للمبالغة كنسابة (وان يكن ميتة) أي وان يكن ما في بطونها ميتة وان تكن ميتة أبو بكر أي وان تكن الاجنة ميتة وان تكن ميتة شامي على كان التامة يكن ميتة مكي لتقدم الفعل وتذكير الضمير في (فهم فيه شركاء)

جهلا منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم والمعنى أن جعلهم لله نصيبا من أموالهم ولشركائهم نصيبا في غاية الجهل بمعرفة الخالق المنعم لانهم جعلوا الاصنام مثله في استحقاق النصيب وكذلك اقدامهم على قتل أولادهم في نهاية الجهالة أيضا فكأنه قال ومثل ذلك الذي فعلوه في القسم جهلا وخطأ وضلالا كذلك (زين) يعني حسن (لكثير من المشركين قتل أولادهم) يعني به وأد البنات أحياء مخافة الفقر والعيلة (شركاؤهم) يعني شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر وسميت الشياطين شركاء لانهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الاولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم وأضيف الشركاء الى المشركين لانهم أطاعوهم واتخذوهم أربابا وقال الكلبي شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الاولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول الشركاء هم السدنة وخدام الاصنام سموا شركاء لانهم أشركوهم في الطاعة (ليردوهم) يعني ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به والارداء في اللغة الاهلاك قال ابن عباس ليردوهم في النار (وليلبسوا عليهم دينهم) يعني وليخلطوا عليهم دينهم قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين اسمعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين وانما فعلوا ذلك ليزيلوهم عن الدين الحق الذي كان عليه اسمعيل وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الاوضاع الفاسدة وزينوها لهم (ولو شاء الله ما فعلوه) يعني ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذي زين لهم من تحريم الحرث والانعام وقتل الاولاد وأخبر الله عز وجل أن جميع الاشياء بمشيئته وارادته اذ لو لم يشأ ما فعلوا ذلك (فذرهم) يعني فاتركهم يا محمد (وما يفترون) يعني وما يختلقون من الكذب على الله فان الله لهم بالمرصاد ﴿قوله تعالى﴾ (وقالوا) يعني المشركين (هذه أنعام وحرث حجر) أي حرام وأصله المنع لانه منع من الانتفاع منه بتحريمه وقيل هو من التضييق والحبس لانهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم قال مجاهد يعني بالانعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي (لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم) يعني أنها كانت لخدام الاصنام والرجال دون النساء (وأنعام حرمت ظهورها) يعني الحوامي وهي الانعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وانما كانوا يذكرون عليها أسماء الاصنام وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لانه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير (افتراء عليه) يعني أنهم كانوا يفعلون هذه الافعال ويزعمون ان الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل (سيجزيهم بما كانوا يفترون) فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب ﴿قوله عز وجل﴾ (وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) يعني نساءنا قال ابن عباس وقتادة والشعبي أراد أجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وما ولد منها ميتا أكله الرجال والنساء جميعا وهو قوله تعالى (وان يكن ميتة فهم فيه شركاء)

ردخلت الهاء فى خالصة لتأكيد والمبالغة كقولهم رجل علامة ونسابة وقال الفراء دخلت الهاء لتأنيث الانعام لان مافى بطونها مثلها فانث بتأنيثها وقال الكسائى خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل اذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما فى هذه الآية فانه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ (سيجزيهم وصفهم) يعنى سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب (انه حكيم عليم) فيه وعيد وتهديد يعنى انه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم ۞ قوله تعالى (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) قال عكرمة نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضى الرجل على أن يستحيي جارية و يئد أخرى فاذا كانت الجارية التى تو أد غدا الرجل أوراح من عند امرأته وقال لها انت على كظهر أمى ان رجعت اليك ولم تئديها فتخد لها فى الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها بينهن حتى اذا أبصرنه راجعا دستها فى حفرتها ثم سوّت عليها التراب وقال قتادة هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبي والفاقة و يغذو كلبه أما سبب الخسران المذكور فى قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم ان الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فاذا تسبب الرجل فى ازالة هذه النعمة عنه وابطالها فقد استوجب الذم وخسر فى الدنيا والآخرة اما خسارته فى الدنيا فقد سعى فى نقص عدده وازالة ما أنعم الله به عليه واما خسارته فى الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم وقوله سفها بغير علم يعنى فعلوا ذلك للسفاهة وهى الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لان الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية ۞ وقوله تعالى (وحرموا ما رزقهم الله) يعنى البحائر والسوائب والحامى وبعض الحروث و بعض مافى بطون الانعام وهذا أيضا من أعظم الجهالة (افتراء على الله) يعنى أنهم فعلوا هذه الافعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) يعنى فى فعلهم عن طريق الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) يعنى الى طريق الحق والصواب فى فعلهم (خ) عن ابن عباس قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم الى قوله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ۞ قوله عز وجل (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) يعنى والله الذى ابتدع وخلق جنات يعنى بساتين معروشات (وغير معروشات) يعنى مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش فى اللغة شئ مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرشته تعريشا اذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش اذا علاه وركبه واختلفوا فى معنى قوله معروشات وغير معروشات فقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الارض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر وقال الضحاك كلاهما فى الكرم خاصة لان منه ما يعرش ومنه مالم يعرش بل يبقى على وجه الارض منبسطا وقيل المعروشات ما غرسه الناس فى البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم أو شجر (والنخل والزرع) يعنى وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التى تقتات وتدخر (مختلفا أكله) يعنى به اختلاف الطعوم فى الثمار كالحلو والحامض والجيد والردىء ونحو ذلك (والزيتون والرمان متشابها) يعنى فى المنظر (وغير متشابه) يعنى فى المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل ان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرهما مختلفة فى الجنس والطعم (كلوا من ثمره اذا أثمر) لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلى وهو الانتفاع بها فقال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وهذا أمر اباحة وتمسك بهذا بعضهم فقال الامر قد يرد

شركاء (سيجزيهم وصفهم) جزاء وصفهم الكذب على الله فى التحليل والتحريم (انه حكيم) فى جزائهم (عليم) باعتقادهم (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر قتلوا مكى وشامى (سفها بغير علم) لخفة أحلامهم وجهلهم بان الله هو رازق أولادهم لاهم (وحرموا ما رزقهم الله) من البحائر والسوائب وغيرها (افتراء على الله) مفعول له (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) الى الصواب (وهو الذى أنشأ) خلق (جنات) من الكروم (معروشات) مسموكات مرفوعات (وغير معروشات) متروكات على وجه الارض لم تعرش يقال عرشت الكرم اذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان (والنخل والزرع مختلفا) فى اللون والطعم والحجم والرائحة وهو حال مقدرة لان النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله فادخلوها خالدين (أكله) أكله مجازى وهو ثمره الذى يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل فى حكمه لانه معطوف عليه أو لكل واحد (والزيتون والرمان متشابها) فى اللون (وغير متشابه) فى الطعم (كلوا من ثمره) من ثمر كل واحد وفائدة (اذا أثمر) أن يعلم أن أول وقت الاباحة وقت

الى غير الوجوب لان هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقال بعضهم المقصود اباحة الاكل قبل اخراج الحق لانه تعالى لما أوجب الزكاة فى الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيأ قبل اخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فاباح الله أن يأكل قبل اخراجه لان رعاية حق النفس متقدمة على رعاية حق الغير وقيل انما قال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر بصيغة الامر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الاشياء التى أنعم الله بها على عباده هو الاكل (وآتوا حقه يوم حصاده) يعنى يوم جذاذه وقطعه واختلفوا فى هذا الحق المأمور باخراجه فقال ابن عباس وأنس بن مالك هو الزكاة المفروضة وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة قال قتادة فى قوله وآتوا حقه يوم حصاده أى من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبى الله محمدا صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والندى أو كان بعلا العشر كاملا وان سقى بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع و بلغ خمسة أوسق وذلك ثلثمائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفى رواية عن ابن عباس فى قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده قال هو العشر ونصف العشر فان قلت على هذا التفسير اشكال وهو ان فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا حقه يوم حصاده على الزكاة المفروضة قلت ذكر ابن الجوزى فى تفسيره عن ابن عباس وقتادة أن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت فى حكم الزكاة وان قلنا ان هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة لانه قد روى عن ابن عباس أنه قال نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن وقيل فى قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده انه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو اطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر وهذا قول على بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد قال ابراهيم هو الضغث وقال الربيع هو لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يجيؤن بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وقال يزيد بن الاصم كان أهل المدينة اذا صرموا النخل يجيؤن بالعذق فيعلقونه فى جانب المسجد فيجىء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الامر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان أحدهما انه أمر وجوب فيكون منسوخا بآية الزكاة و بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الاعرابى هل على غيرها قال لا الا أن تطوع والقول الثانى أنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باخراجه فى ابتداء الاسلام ثم صار منسوخا بايجاب العشر ولقول ابن عباس نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن واختار هذا القول الطبرى وصححه واختار الواحدى والرازى القول الاول وصححاه فان قلت فعلى القول الاول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب فى السنبل وانما يجب الاخراج بعد التصفية والجفاف قلت معناه قدروا أداء اخراج الواجب منه يوم الحصاد فانه قريب من زمان التنقية والجفاف ولان النخل يجب اخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه الا أنه لا يمكن اخراج الحق منه الا بعد التصفية وقيل معناه وآتوا حقه الذى وجب يوم حصاده بعد التصفية وقيل ان فائدة ذكر الحصاد ان الحق لا يجب بنفس الزرع و بلوغه انما يجب يوم حصاده وحصوله فى يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله فى يد مالكه ۞ وقوله تعالى (ولا تسرفوا) الاسراف تجاوز الحد فيما يفعله الانسان وان كان فى الانفاق أشهر وقيل السرف تجاوز ما حد لك وسرف المال انفاقه فى غير منفعة ولهذا قال سفيان ما أنفقت فى غير طاعة الله فهو سرف وان كان قليلا قال ابن عباس فى رواية عنه عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها فى يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فانزل الله هذه الآية ولا تسرفوا قال السدى معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الانسان كل ماله ولم يوصل الى عياله شيأ فقد أسرف لانه قد صح فى الحديث ابدأ بمن تعول وقال سعيد بن المسيب معناه لا تمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا

اطلاع الشجر الثمر ولا يتوهم انه لا يباح الا اذا أدرك (وآتوا حقه) عشره وهو حجة أبى حنيفة رحمه الله فى تعميم العشر (يوم حصاده) بصرى وشامى وعاصم و بكسر الحاء غيرهم وهما لغتان (ولا تسرفوا) باعطاء الكل وتضييع العيال وقوله كلوا الى

(انه لايحب المسرفين) اعتراض (ومن الانعام حمولة وفرشا) عطف على جنات أى وأنشأ من الانعام ما يحمل الاثقال، وما يفرش للذبح أو الحمولة الكبار التى تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لانها دانية من الارض مثل الفرش المفروش عليها (كلوا مما رزقكم الله) أى ما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما فى الجاهلية (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) طرقه فى التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية (انه لكم عدو مبين) فاتهموه على دينكم (ثمانية أزواج) بدل من حمولة وفرشا (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) زوجين اثنين يريد الذكر والانثى والواحد اذا كان وحده فهو فرد واذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منهما زوجا وهما زوجان بدليل قوله خلق الزوجين الذكر والانثى و يدل عليه قوله ثمانية أزواج ثم فسرها بقوله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر وفتح عين المعز مكى وشامى وأبو عمرو وهما لغتان والهمزة فى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) للانكار والمراد بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز و بالانثيين الانثى من الضأن والانثى من المعز والمعنى انكار أن يحرم الله من جنسى الغنم ضأنها ومعزها شيأ من نوعى ذكورها واناثها ولا مما تحمل الاناث وذلك انهم كانوا يحرمون ذكورة الانعام تارة واناثها طورا وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة وكانوا يقولون قد حرمها الله فانكر ذلك عليهم وانتصب آلذكرين بحرم وكذا أم الانثيين أى أم حرم الانثيين وكذا ما فى أم ما اشتملت (نبئونى بعلم) أخبرونى بامر معلوم من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) فى أن الله حرمه (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين) منهما (حرم أم الانثيين) منهما (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم

الحد فى البخل والامساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان فى أن المراد من الاسراف مجاوزة الحد الا أن الاولى فى البذل والاعطاء والثانى فى الامساك والبخل وقال مقاتل معناه لا تشركوا الاصنام فى الحرث والانعام وهذا القول أيضا يرجع الى مجاوزة الحد لان من شرك الاصنام فى الحرث والانعام فقد جاوز ما حد له وقال الزهرى معناه لا تنفقوا فى معصية الله عز وجل وقال مجاهد الاسراف ما قصرت به فى حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهبا فانفقته فى طاعة الله لم تكن مسرفا ولو أنفقت درهما أو مدا فى معصية الله كنت مسرفا وقال ابن زيد انما خوطب بهذا السلطان نهى أن يأخذ من رب المال فوق الذى ألزم الله ماله يقول الله عز وجل للسلاطين لا تسرفوا أى لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان و بين الناس ۞ وقوله تعالى (انه لايحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الاسراف فى كل شئ لان من لايحبه الله فهو من أهل النار ۞ قوله تعالى (ومن الانعام) يعنى وأنشأ من الانعام (حمولة) وهى كل ما يحمل عليها من الابل (وفرشا) يعنى صغار الابل التى لا تحمل قال ابن عباس الحمولة هى الكبار من الابل والفرش هى الصغار من الابل وقال فى رواية أخرى عنه ذكرها الطبرى أما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شئ يحمل عليه وأما الفرش فالغنم وقال الربيع بن أنس الحمولة الابل والبقر والفرش المعز والضأن فالحمولة كل ما يحمل عليها من الانعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمى فرشا لانه يفرش للذبح ولانه قريب من الارض لصغره (كلوا مما رزقكم الله) يعنى كلوا مما أحله الله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى لا تسلكوا طريقه وآثاره فى تحريم الحرث والانعام كما فعله أهل الجاهلية (انه) يعنى الشيطان (لكم عدو مبين) يعنى انه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل (ثمانية أزواج) يعنى وأنشأ من الانعام ثمانية أزواج يعنى ثمانية أصناف والزوج فى اللغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللانثى زوج (من الضأن اثنين) يعنى الذكر والانثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) يعنى الذكر والانثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين) استفهام انكار أى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة آلذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الانثيين منهما فان كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وان كان حرم الانثيين منهما فكل اناثها حرام (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) يعنى أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضأن والمعز فانها لا تشتمل الا على ذكر أو أنثى (نبئونى) أى اخبرونى وفسروا لى ما حرمتم (بعلم ان كنتم صادقين) يعنى أن الله حرم ذلك عليكم (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين) وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفى هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لاهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك انهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء و بعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم فى كتابه فلما جاء الاسلام وثبتت الاحكام جادلوا النبى

ما تحمل أناثها (أم كنتم شهداء) أم منقطعة أي بل كنتم شهداء (اذ وصاكم الله بهذا) يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم
ولما كانوا لا يؤمنون برسول الله وهم يقولون الله حرم هذا الذي يحرمه تهكم بهم في قوله أم كنتم شهداء على

معنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لانكم لا تؤمنون بالرسل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب اليه تحريم ما لم يحرم (ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) أي الذين في علمه أنهم يختمون على الكفر ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضا غير أجنبي من المعدود وذلك أن الله تعالى من على عباده بانشاء الانعام لمنافعهم وباباحتها لهم فالاعتراض بالاحتجاج على من حرمها يكون تأكيدا للتحليل والاعتراضات في الكلام لا تساق الا للتوكيد (قل لا أجد فيما أوحي الي) أي في ذلك الوقت أو في وحي القرآن لان وحي السنة قد حرم غيره أو من الانعام لان الآية في رد البحيرة وأخواتها وأما الموقوذة والمتردية والنطيحة فمن الميتة وفيه تنبيه على أن التحريم انما يثبت بوحي الله وشرعه لا بهوى الانفس (محرما) حيوانا حرم أكله (على طاعم يطعمه) على آكل يأكله (الا أن يكون ميتة) الا أن يكون الشئ المحرم ميتة أن تكون مكي وشامي وحمزة ميتة شامي (أو دما مسفوحا) مصبوبا سائلا التحريم
فلا يحرم الدم الذي في اللحم والكبد والطحال (أو لحم خنزير فانه رجس) نجس (أو فسقا) عطف على المنصوب قبله وقوله فانه رجس
اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه (أهل لغير الله به) منصوب المحل صفة لفسقا أي رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله وسمي بالفسق

صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمتم أصنافا من النعم على غير أصل وانما خلق الله هذه الازواج الثمانية للاكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الانثى فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمالك مالك لا تتكلم فقال بل أنت تكلم وأسمع منك قال المفسرون فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الانوثة وجب أن يحرم جميع الاناث وان كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لان الرحم لا يشتمل الا على ذكر أو انثى وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه الى الله فهو كذب على الله وانه لم يحرم شيأ من ذلك وانهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم وذكر الامام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما الى نفسه فقال ان هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الانكار يعني أنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بان هذا يحل وهذا يحرم والوجه الثاني أنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوصا بالابل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الانواع الاربعة وهي الضأن والمعز والبقر والابل فلم تحكموا بهذه الاحكام في هذه الانواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الابل بهذا الحكم دون هذه الانواع الثلاثة ۞ قوله تعالى (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الانعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فانكم لا تقرون بنبوة أحد من الانبياء فكيف تثبتون هذه الاحكام وتنسبونها الى الله عز وجل ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) يعني فمن أشد ظلما وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله الى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلا منه اذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه الى الله ويقول ان الله أمرنا بهذا قيل أراد به عمرو بن لحي لانه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيأ لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعالى لان اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) يعني ان الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله وأضاف اليه ما لم يشرعه لعباده

۞ قوله عز وجل (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه) اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات اتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبين أن التحريم والتحليل لا يكون الا بوحي سماوي وشرع نبوي فقال تعالى قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لا أجد فيما أوحي الي وقيل انهم قالوا فما المحرم اذا فنزل قل لا أجد فيما أوحي الي محرما يعني شيأ محرما على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله (الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا) يعني سائلا مصبوبا (أو لحم خنزير فانه رجس) أي نجس (أو فسقا أهل لغير الله به) يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية أن

التحريم والتحليل لا يكون الا بوحي منه وان المحرمات محصورة في الاربعة الاشياء المذكورة في هذه الآية وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وماذبح على غير اسم الله وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الاربعة وذلك أنه ثبت أنه لا طريق الى معرفة المحرمات الا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الاربعة الاشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم الى ظاهرها وانه لا يحرم شئ من سائر المطعومات والحيوان الا ماذكر في هذه الآية يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بان هذه الآية محكمة لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بان هذه الآية وان كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وكلمة انما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم وذهب جمهور العلماء الى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الاشياء المنصوص عليها في هذه الآية فان المحرم بنص الكتاب هو ماذكر في هذه الآية وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها منها تحريم الحمر الاهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ولابي داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الاهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (م) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الاهلية (ق) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله والاصل في ذلك عند الشافعي أن كل مالم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفارة والحدأة والكلب العقور وروى عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ أخرجه البخاري ومسلم وسماه فويسقا وعن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وماسوى ذلك فالمرجع فيه الى الاغلب من عادة العرب فما يستطيبه الاغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الاغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لان الله خاطبهم بقوله أحل لكم الطيبات فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه أحدها ان يكون المعنى لا أجد محرما مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها الا ما أوحي الي في هذه الآية الوجه الثاني أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما غير ماذكر ونص عليه في هذه الآية ثم

حرم بعد نزولها أشياء أخر الوجه الثالث يحتمل ان هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر وهو ما ورد في السنة الوجه الرابع ان ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم ﴿بقي في الآية أحكام﴾ في قوله تعالى أودما مسفوحا وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فان ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فانهما حلال لانهما دمان جامدان وقد ورد الحديث باباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لانه غير سائل قال عمران بن جدير سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك انما نهى عن الدم المسفوح وقال ابراهيم النخعي لا بأس بالدم في عرق أو مخ الا المسفوح وقال عكرمة لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق كما تتبع اليهود ﴿ وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباحها كلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان ﴿ وفي قوله (فان ربك غفور رحيم) دليل على الرخصة والاباحة عند الاضطرار ﴿ قوله تعالى (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا كل ذي ظفر) قال ابن عباس هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب وقيل كل ما لم يكن مشقوق الاصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والاوز والبط قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفرا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين (الا ما حملت ظهورهما) يعني الا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فانه غير محرم عليهم وقال السدي وأبو صالح الالية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لان البقر ليس لها الية (أو الحوايا) وهي المباعر في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية وقيل الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بطن الشاة والمعنى أن الشحم الملتصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود (أو ما اختلط بعظم) يعني من شحم الالية لانه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذي حرم عليهم شحم الثروب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم (ق) عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه قوله جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته اذا أذبته وجملته أكثر وأفصح ﴿ وقوله تعالى (ذلك جزيناهم) أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة لهم (ببغيهم) يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الانبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل (وانا لصادقون) يعني في الاخبار عن بغيهم وفي الاخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم (فان كذبوك) يعني فان كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك انا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيناه في هذه الآية المتقدمة (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يعني بتأخير العقوبة عنكم فان رحمته تسع المسيء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه (ولا يرد بأسه) يعني ولا يرد عذابه ونقمته اذا جاء وقتهما (عن القوم المجرمين) يعني الذين كذبوا الانبياء وهم الكفار واليهود ﴿ وقوله عز وجل (سيقول الذين أشركوا) لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى سيقول الذين أشركوا يعني مشركي قريش والعرب (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) يعني من قبل قال المفسرون جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على اقامتهم على الكفر والشرك وقالوا ان الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا انه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك (ولا حرمنا من شيء) يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك فقال الله

لتوغله في باب الفسق (فمن اضطر) فمن دعته الضرورة الى أكل شيء من هذه المحرمات (غير باغ) على مضطر مثله تارك لمواساته (ولا عاد) متجاوز قدر حاجته من تناوله (فان ربك غفور رحيم) لا يؤاخذه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) أي ماله أصبع من دابة أو طائر ويدخل فيه الابل والنعام (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) أي حرمنا عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه ولم يحرم من البقر والغنم الا الشحوم وهي الثروب وشحوم الكلى (الا ما حملت ظهورهما) الا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة (أو الحوايا) أو ما اشتمل على الامعاء واحدها حاويا أو حوية (أو ما اختلط بعظم) وهو الالية أو المخ (ذلك) مفعول ثان لقوله (جزيناهم) والتقدير جزيناهم ذلك (ببغيهم) بسبب ظلمهم (وانا لصادقون) فيما أخبرنا به وكيف انشكر من سبب معصيتهم لتحريم الحلال ومعصية سالفنا لتحليل الحرام حيث قال وعفا عنكم فالآن باشروهن (فان كذبوك) فيما أوحيت اليك من هذا (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) بامهال المكذبين ولا يعاجلهم بالعقوبة (ولا يرد بأسه) عذابه مع سعة رحمته (عن القوم المجرمين) اذا جاء فلا تغتر بسعة رحمته عن خوف نقمته (سيقول الذين أشركوا) اخبار بما سوف يقولونه (لو شاء الله) ان لا نشرك (ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء)

عزوجل ردا وتكذيبا لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني من كفار الامم الخالية الذين كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء (حتى ذاقوا بأسنا) يعني عذابنا

﴿فصل﴾ استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا ان القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله كذلك كذب الذين من قبلهم وأيضا فان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت انه مريد له واذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار انهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبه كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم ان الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فرد الله تعالى عليهم بقوله قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل ان التكذيب في قولهم ان الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله كذلك كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان خبرا من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا فقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسين بن الفضل لو قالوا هذه المقالة تعظيما لله واجلالا له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيبا وجدلا من غير معرفة بالله وبما يقولون وقيل في معنى الآية انهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله لو شاء الله ما أشركنا الا أنهم كانوا يعدونه عذرا لانفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الايمان والرد عليهم في ذلك ان أمر الله بمعزل عن مشيئته وارادته فان الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذرا لاحد عليه في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل الى العبد ويأمره بالايمان وورود الامر على خلاف الارادة غير ممتنع فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم فاخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فانه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الامور دفع دعوة الانبياء عليهم السلام والله أعلم ۞ وقوله تعالى (قل هل عندكم من علم) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضي ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعني بدعواكم ما تدعون من علم يعني من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم (فتخرجوه لنا) يعني فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته في العقول (ان تتبعون الا الظن) يعني فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وانما هو باطل (وان أنتم الا تخرصون) يعني وما أنتم في ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله الباطل ۞ وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن اظهار علم الله أو حجة لهم فلله الحجة البالغة يعني التامة على خلقه بانزال الكتاب وارسال الرسل قال الربيع بن أنس لا حجة لاحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء لهداكم أجمعين) يعني فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ ايمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون) يعني هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة الى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والانثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللانثى هلمي واللغة الاولى أفصح (أن الله حرم هذا) وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا ان الله أمرنا به ليظهر ان لا شاهد لهم على

ولكن شاء فهذا عذرنا يعنون ان شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي كتكذيبهم اياك كان تكذيب المتقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك اذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ولانهم جعلوا مشيئته حجة لهم على انهم معذورون به وهذا مردود لان الاقرار بالمشيئة ٢ أو معنى المشيئة هنا الرضا كما قال الحسن أي ما رضي الله منا ومن آبائنا الشرك والشرك مراد لكنه غير مرضي ألا ترى أنه قال فلو شاء لهداكم أجمعين أخبر أنه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الايمان بل شاء من البعض الايمان ومن البعض الكفر فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرناه دفعا للتناقض (حتى ذاقوا بأسنا) حتى أنزلنا عليهم العذاب (قل هل عندكم من علم) من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم (فتخرجوه لنا) فتظهروه (ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) تكذبون (قل فلله الحجة البالغة) عليكم بأوامره ونواهيه ولا حجة لكم على الله بمشيئته (فلو شاء لهداكم أجمعين) أي فلو شاء هدايتكم وبه تبطل صولة المعتزلة (قل هلم شهداءكم) هاتوا شهداءكم وقربوهم ويستوي في هذه الكلمة الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وبنو تميم تؤنث وتجمع (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أي زعموه محرما

ذلك وانما اختلقوه من عند أنفسهم (فان شهدوا فلا تشهد معهم) وهذا تنبيه أيضا على كونهم كاذبين فى شهادتهم ولا تشهد أنت يا محمد معهم لانهم فى شهادتهم كاذبون (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) يعنى ان وقع منهم شهادة فانما هى باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحى اليك من كتابى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (والذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم بربهم يعدلون) يعنى يشركون ۞ قوله عز وجل (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا ان الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكانهم سألوا وقالوا أى شئ حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا وتعال من الخاص الذى صار عاما وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل أصله أن تدعو الانسان الى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكانه دعاه الى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر فى الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعنى أقرأ ما حرم ربكم عليكم يعنى الذى حرم ربكم عليكم حقا يقينا لا شك فيه ولا ظنا ولا كذبا كما تزعمون أنتم بل هو وحى أوحاه الله الى (أن لا تشركوا به شيأ) فان قلت ترك الاشراك واجب فما معنى قوله أن لا تشركوا به شيأ لانه كالتفصيل لما أجمله فى قوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز قلت الجواب عنه من وجوه الوجه الاول أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا الوجه الثانى أن يكون محله النصب واختلفوا فى وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة وقيل ان حرف لا على أصلها ويكون المعنى أتل عليكم تحريم الشرك أى لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لان قوله وبالوالدين احسانا محمول على أوصيكم بالوالدين احسانا الوجه الثالث أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم أن لا تشركوا على الاغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيأ ومعنى هذا الاشراك الذى حرمه الله ونهى عنه هو ان يجعل لله شريكا من خلقه أو يطيع مخلوقا فى معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ۞ وقوله عز وجل (وبالوالدين احسانا) أى وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين احسانا وانما ثنى بالوصية بالاحسان الى الوالدين لان أعظم النعم على الانسان نعمة الله لانه هو الذى أخرجه من العدم الى الوجود وخلقه وأوجده بعد ان لم يكن شيأ ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لانهما السبب فى وجود الانسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك فى حال صغره (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) يعنى من خوف الفقر والاملاق الاقتار والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك فى الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم (نحن نرزقكم واياهم) يعنى لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فانى رازقكم واياهم لان الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال فى أمر الرزق على الله عز وجل (ولا تقربوا الفواحش) يعنى الزنا (ما ظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا فى العلانية ولا يرون به باسا فى السر فحرم الله تعالى الزنا فى السر والعلانية وقيل ان الاولى حمل لفظ الفواحش على العموم فى جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لان المعنى الموجب لهذا النهى هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وأيضا فان السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفى قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهى ان الانسان اذا احترز عن المعاصى فى الظاهر ولم يحترز منها فى الباطن دل ذلك على ان احترازه عنها ليس لاجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ولكن لاجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق

العقاب

(فان شهدوا فلا تشهد معهم) فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم لانه اذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم فكان واحدا منهم (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على ان من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى اذ لو تبع الدليل لم يكن الا مصدقا بالآيات موحدا لله (والذين لا يؤمنون بالآخرة) هم المشركون (وهم بربهم يعدلون) يسوون الاصنام (قل) للذين حرموا الحرث والانعام (تعالوا) هو من الخاص الذى صار عاما فاصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر حتى عم (أتل ما حرم ربكم) الذى حرمه ربكم (عليكم)٢ ما من صلة حرم (أن لا تشركوا به شيأ) أن مفسرة افعل التلاوة ولا للنهى وبالوالدين احسانا) واحسنوا بالوالدين احسانا ولما كان ايجاب الاحسان تحريما لترك الاحسان ذكر فى المحرمات وكذا حكم ما بعده من الاوامر (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله خشية املاق (نحن نرزقكم واياهم) لان رزق العبيد على مولاهم (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها) ما بينك وبين الخلق (وما بطن) ما بينك وبين الله ما ظهر بدل من الفواحش

٢ قوله فى الهامش ما من صلة حرم هكذا بالاصل الذى بايدينا ولعله سقط منه لفظة أو قبل ما فانه اشارة الى وجه ثان وهو ان ما استفهامية تدل عليه عبارة الكشاف وليراجع

(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) كالقصاص والقتل على الردة والرجم (ذلكم وصاكم به) أي المذكور مفصلا أمركم بحفظه
(لعلكم تعقلون) لتعقلوا عظمها عند الله (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) الا بالخصلة التي هي أحسن وهي

العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا او باطنا لاجل خوف الله وتعظيما لامره استوجب رضوان الله وثوابه (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) حرم الله تعالى قتل النفس الا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المقدم ذكرها في قوله تعالى ولا تقربوا الفواحش وانما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما لامر القتل وانه من أعظم الفواحش والكبائر وقيل انما أفرده بالذكر لانه تعالى أراد أن يستثني منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش الا بالافراد فلذلك قال ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق وهي التي أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذي يوجب الرجم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ۞ وقوله تعالى (ذلكم) يعني ما ذكر من الاوامر والنواهي المحرمات (وصاكم به) يعني أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) يعني لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها ۞ قوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) يعني ولا تقربوا مال اليتيم الا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه وقال الضحاك هو ان يسعى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيأ هذا اذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصي فقيرا فله أن يأكل بالمعروف (حتى يبلغ أشده) يعني احفظوا مال اليتيم الى أن يبلغ أشده فاذا بلغ أشده فادفعوا اليه ماله فاما الاشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى في الشباب الى حد الرجال قال الشعبي ومالك الاشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيآت وقال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبي الاشد هو ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين سنة وقال الضحاك الاشد عشرون سنة وقال السدي الاشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الاشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الاقوال التي نقلت عن المفسرين في هذه الآية انما هي نهاية الاشد لا ابتداؤه والمراد بالاشد في هذه الآية هو ابتداء بلوغ الحلم مع ايناس الرشد وهذا هو المختار في تفسير هذه الآية ۞ وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يعني بالعدل من غير زيادة ولا نقصان (لا نكلف نفسا الا وسعها) يعني طاقتها وما يسعها في ايفاء الكيل والميزان وانما لم يكلف المعطي أن يعطي أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه (واذا قلتم فاعدلوا) يعني في الحكم والشهادة (ولو كان ذا قربى) يعني المحكوم عليه وكذا المشهود عليه وقيل ان الامر بالعدل في القول هو أعم من الحكم والشهادة بل يدخل فيه كل قول حتى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الامانة وغير ذلك من جميع الاقوال التي يعتمد فيها العدل والصدق (وبعهد الله أوفوا) يعني ما عهد الى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الانسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به (ذلكم) يعني الذي ذكر في هذه الآيات (وصاكم به) يعني بالعمل به (لعلكم تذكرون) يعني لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به ۞ قوله عز وجل (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) يعني وان هذا الذي وصيتكم به وأمرتكم به في هاتين الآيتين هو صراطي يعني طريقي وديني الذي ارتضيته لعبادي مستقيما يعني قويما لا اعوجاج فيه فاتبعوه يعني فاعملوا به وقيل ان الله تعالى لما بين في الآيتين المتقدمتين ما وصى به مفصلا أجمله في هذه الآية اجمالا يقتضي دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضا جميع احكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الاسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين

حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) أشده مبلغ حلمه فادفعوه اليه وواحده شد كفلس وأفلس (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالسوية والعدل (لا نكلف نفسا الا وسعها) الا ما يسعها ولا تعجز عنه وانما اتبع الامر بايفاء الكيل والميزان ذلك لان مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما فيه حرج فأمر ببلوغ الوسع وان ما وراءه معفو عنه (واذا قلتم فاعدلوا) فاصدقوا (ولو كان ذا قربى) ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل كقوله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين (وبعهد الله) يوم الميثاق أو في الامر والنهي والوعد والوعيد والنذر واليمين (أوفوا ذلكم) أي ما مر (وصاكم به لعلكم تذكرون) بالتخفيف حيث كان حمزة وعلي وحفص على حذف احدى التاءين غيرهم بالتشديد أصله تتذكرون فادغم التاء الثانية في الذال أي أمركم به لتتعظوا (وأن هذا صراطي) ولان هذا صراطي فهو علة للاتباع بتقدير اللام وان بالتخفيف شامي وأصله وانه على أن الهاء ضمير الشان والحديث وان على الابتداء حمزة وعلي (مستقيما) حال (فاتبعوه)

ولا تتبعوا السبل) الطرق المختلفة فى الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات (فتفرق بكم عن سبيله) فتفرقكم أيادي سبا عن صراط الله المستقيم وهو دين الاسلام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطا مستويا ثم قال هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه ثم خط على كل جانب ستة خطوط ممالة ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان

وأمرهم باتباع جملته وتفصيله (ولا تتبعوا السبل) يعنى الطرق المختلفة والاهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل والاديان المخالفة لدين الاسلام (فتفرق بكم عن سبيله) يعنى فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذى ارتضاه لعباده روى البغوى بسنده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية (ذلكم وصاكم به) يعنى باتباع دينه وصراطه الذى لا اعوجاج فيه (لعلكم تتقون) يعنى الطرق المختلفة والسبل المضلة قال ابن عباس هذه الايات محكمات فى جميع الكتب لم ينسخهن شئ وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن ابن مسعود قال من سره أن ينظر الى الصحيفة التى عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيات الى قوله لعلكم تتقون أخرجه الترمذى قال حديث حسن غريب ﴿قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة فان قلت اتيان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك قلت دخلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم وهو كذا وكذا الى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم انا آتينا موسى الكتاب وقيل ان المحرمات المذكورة فى قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم محرمات على جميع الامم وجميع الشرائع فتقدير الكلام ذلكم وصاكم به يا بنى آدم قديما وحديثا ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعنى بعد ايجاب هذه المحرمات وقيل معناه قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم قال بعد ذلك يا محمد انا آتينا موسى الكتاب فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها ﴿وقوله تعالى (تماما على الذى أحسن) اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماما على المحسنين من قومه فيكون الذى بمعنى من أى تماما على من أحسن من قومه لانه كان منهم محسن ومسىء وعلى قراءة ابن مسعود تماما على الذين أحسنوا وقيل معناه تماما على كل من أحسن أى أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الانبياء والمؤمنون أى أتممنا فضله عليهم بالكتاب وقيل الذى أحسن هو موسى فيكون الذى بمعنى ما أى على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب اتماما للنعمة عليه لاحسانه فى الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الامر وقيل الاحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماما منى على احسانى الى موسى (وتفصيلا لكل شئ) يعنى وفيه بيان لكل شئ يحتاج اليه من شرائع الدين وأحكامه (وهدى) يعنى وفيه هدى من الضلالة (ورحمة) يعنى انزاله عليهم رحمة منى عليهم (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس لكى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب ﴿قوله عز وجل (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى القرآن لانه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق اليه نسخ (فاتبعوه) يعنى فاعملوا بما فيه من الاوامر والنواهى والاحكام (واتقوا) يعنى مخالفته (لعلكم ترحمون) يعنى ليكن الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكى ترجوا على جزاء التقوى (أن تقولوا) يعنى لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعنى أنزلنا اليك الكتاب كراهية أن

يدعو اليه فاجتنبوها وتلا هذه الآية ثم يصير كل واحد من الاثنى عشر طريقا ستة طرق فتكون اثنين وسبعين وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شئ من جميع الكتب وعن كعب ان هذه الآيات لاول شئ فى التوراة (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) لتكونوا على رجاء اصابة التقوى ذكر أولا تعقلون ثم تذكرون ثم تتقون لانهم اذا عقلوا تفكروا ثم تذكروا أى اتعظوا فاتقوا المحارم (ثم آتينا موسى الكتاب تماما) أى ثم أخبركم انا آتينا أو هو عطف على ثم قل أى قل آتينا أو ثم مع الجملة تأتى بمعنى الواو كقوله ثم الله شهيد (على الذى احسن) على من كان محسنا صالحا يريد جنس المحسنين دليله قراءة عبد الله على الذين أحسنوا أو أراد به موسى عليه السلام أى تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ فى كل ما أمر به (وتفصيلا لكل شئ) وبيانا مفصلا لكل ما يحتاجون اليه فى دينهم (وهدى ورحمة لعلهم) أى بنى اسرائيل (بلقاء ربهم يؤمنون) يصدقون أى بالبعث والحساب وبالرؤية (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) كثير الخير (فاتبعوه واتقوا) مخالفته (لعلكم ترحمون) لترحموا (أن تقولوا) كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا

تقولوا

تقولوا (انما أنزل الكتاب) وقيل يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لاهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا انما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لان المراد به التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) يعنى اليهود والنصارى (وان كنا) أى وقد كنا وقيل وانه كنا (عن دراستهم) يعنى قراءتهم (لغافلين) يعنى لاعلم لنا بما فيها لانها ليست بلغتنا والمراد بهذه الآية اثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم والمعنى وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف مافيهما فقطع الله عذرهم بانزال القرآن عليهم بلغتهم (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وذلك ان جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزل على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم وأهدى وانما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فطنتهم وذهنهم ﴿قال الله عز وجل (فقد جاءكم بينة من ربكم) يعنى هذا القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها (وهدى) يعنى من الضلالة (ورحمة) يعنى وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم (فمن أظلم) أى لا أحد أظلم وأكفر (ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) يعنى وأعرض عنها (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) يعنى أسوأ العذاب وأشده (بما كانوا يصدفون) أى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب اعراضهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿قوله تعالى (هل ينظرون) يعنى هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وانكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفى وتقدير الآية انهم لا يؤمنون بك الا اذا جاءتهم احدى هذه الامور الثلاث فاذا جاءتهم احداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم ايمانهم (الا أن تأتيهم الملائكة) يعنى لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب (أو يأتى ربك) يعنى للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة وقد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقرة عند قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام بما فيه كفاية وان المجىء والذهاب على الله محال فيجب امرارها بلا تكييف (أو يأتى بعض آيات ربك) قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها و يدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض أخرجه مسلم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله أو يأتى بعض آيات ربك قال طلوع الشمس من مغربها أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (م) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه عن صفوان بن عسال المرادى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والارض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها وفى رواية فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا (م) عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قلنا الساعة فقال انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس الى

وانه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن والخطاب لاهل مكة والمراد اثبات الحجة عليهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كيلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما (أو تقولوا) كراهة ان تقولوا (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا الايام العرب (فقد جاءكم بينة من ربكم) أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع والبرهان القاطع فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف (وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله) بعد ما عرف صحتها وصدقها (وصدف عنها) أى أعرض (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) وهو النهاية فى النكاية (بما كانوا يصدفون) باعراضهم (هل ينظرون) أى أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة فما ينتظرون فى ترك الايمان بعدها (الا أن تأتيهم الملائكة) أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم يأتيهم حمزة وعلى (أو يأتى ربك) أى أمر ربك وهو العذاب أو القيامة وهذا لان الاتيان متشابه واتيان أمره منصوص عليه محكم فيرد اليه (أو يأتى بعض آيات ربك) أى اشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك

محشرهم (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال تصبحون والشمس والقمر من ههنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين زاد في رواية عنه فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وبسنده عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال انها تذهب الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيا حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وبسنده عن أبي ذر قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار فنظر الى الشمس حين غربت فقال انها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فاذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يارب ان مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل وروى بسنده عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال لهم عباد الله توبوا الى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فانكم توشكون ان تروا الشمس من قبل المغرب فاذا فعلت حبست التوبة وطوى العمل فقال الناس هل لذلك من آية يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون له ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى اذا استيقظوا والليل مكانه فاذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فاذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها اذ طلعت عليهم من قبل المغرب فاذا فعلت ذلك لم ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل قال ابن عباس لانه لا ينفع مشركا ايمانه عند الآيات وينفع أهل الايمان عند الآيات ان كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك وقال ابن الجوزي قيل ان الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ان الملحدة والمنجمين زعموا ان ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاث الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها روى عن ابن مسعود انه قال التوبة معروضة على ابن آدم ان قبلها مالم تخرج احدى ثلاث الدابة أو طلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج وروى عن عائشة قالت اذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال وروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض آيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض ورواه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض وأصح الاقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الاحاديث الصحيحة وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) يعني لا ينفع من كان مشركا

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها) لانه ليس بايمان اختياري بل هو ايمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم (لم تكن آمنت من قبل) صفة نفسا

إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم الى الايمان والتوبة (أو كسبت في إيمانها خيرا) يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق قال الضحاك من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فاما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لانها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فانهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الاهوال والشدائد التي تضطرهم الى الايمان والتوبة وقوله (قل انتظروا) يعني ما وعدتم به من مجيء الآية ففيه وعيد وتهديد (انا منتظرون) يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا قال بعض المفسرين وهذا انما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم الى ذلك الوقت والمراد بهذا ان المشركين انما يمهلون قدر مدة الدنيا فاذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الايمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبدا وقيل ان قوله قل انتظروا انا منتظرون المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الاول تكون الآية محكمة قوله عز وجل (ان الذين فرقوا) وقرئ فارقوا (دينهم وكانوا شيعا) يعني أحزابا متفرقة في الضلالة ومعنى فرقوا دينهم انهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ فرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين ابراهيم الحنيفية السهلة أديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الاصنام ونحو ذلك من الاديان المختلفة ومن قرأ فارقوا دينهم قال معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء وقيل ان معنى القراءتين يرجع الى شيء واحد في الحقيقة وهو ان من فرق دينه فآمن ببعض وأنكر بعضا فقد فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية فقال الحسن هم جميع المشركين لان بعضهم عبدوا الاصنام وقالوا هذه شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا انهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم وقال مجاهد هم اليهود وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك هم اليهود والنصارى لانهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة وقال أبو هريرة في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الامة أسنده الطبري فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على ان تكون كلمة المسلمين واحدة وان لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة وروى عن عمر بن الخطاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والاهواء من هذه الأمة ذكره البغوي بغير سند عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يارسول الله كان هذه موعظة مودع فما تعهد الينا فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد حبشي فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة أخرجه أبو داود والترمذي * عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وان هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة زاد في رواية وانه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله أخرجه أبو داود * عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بني اسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار الا ملة واحدة قالوا من هي يارسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي أخرجه الترمذي قال الخطابي في هذا الحديث دلالة على ان هذه الفرق غير خارجة من

(أو كسبت في إيمانها خيرا) أي اخلاصا كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل اخلاص المنافق أيضا أو توبته وتقديره لا ينفع إيمان من لم يؤمن ولا توبة من لم يتب قبل (قل انتظروا) احدى الآيات الثلاث (انا منتظرون) بكم احداها (ان الذين فرقوا دينهم) اختلفوا فيه وصاروا فرقا كما اختلفت اليهود والنصارى وفي الحديث افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا الواحدة وهي الناجية وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا واحدة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية الا الواحدة وهي السواد الاعظم وفي رواية وهي ما أنا عليه وأصحابي وقيل فرقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض فارقوا دينهم حمزة وعلي أي تركوا (وكانوا شيعا) فرقا كل فرقة تشيع اماما

الملة والدين اذ جعلهم من أمته وقوله تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه التجارى تفاعل من الجرى وهو الوقوع فى الاهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيها بجرى الفرس والكلب قال ابن مسعود ان أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الامور محدثاتها ورواه جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا ﴿ وقوله تعالى (لست منهم فى شئ) يعنى فى قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول ان المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ومن قال المراد من الآية أهل الاهواء والبدع من هذه الامة قال معناه لست منهم فى شئ أى أنت منهم برىء وهم منك برآء تقول العرب ان فعلت كذا فلست منك ولست منى أى كل واحد منا برىء من صاحبه (انما أمرهم الى الله) يعنى فى الجزاء والمكافأة (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) يعنى اذا وردوا القيامة ﴿ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) يعنى عشر حسنات أمثالها (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) يعنى مثلها فى مقابلتها واختلفوا فى هذه الحسنة والسيئة على قولين أحدهما ان الحسنة قول لا اله الا الله والسيئة هى الشرك بالله وأورد على هذا القول ان كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب عنه بان جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهو يجازى على قدر ايمان المؤمن بما شاء من الجزاء وانما قال عشر أمثالها للترغيب فى الايمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها والقول الثانى أن اللفظ عام فى كل حسنة يعملها العبد أو سيئة وهذا أولى لان حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم التقدير بالعشرة ليس للتحديد لان الله يضاعف لمن يشاء فى حسناته الى سبعمائة ويعطى من يشاء بغير حساب واعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عذاب العاصى (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أحسن أحدكم اسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى (م) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الارض خطيئة بعد ان لا يشرك بى شيأ لقيته بمثلها مغفرة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى واذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة واذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها الى سبعمائة لفظ البخارى وفى لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى اذا تحدث عبدى بان يعمل حسنة فانا أكتبها له حسنة مالم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بعشر أمثالها واذا تحدث عبدى بان يعمل سيئة فانا أغفرها له مالم يعملها فاذا عملها فانا أكتبها له بمثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة فانما تركها من جرّاى زاد الترمذى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴿ قوله عز وجل (قل) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم) يعنى قل لهم اننى أرشدنى ربى الى الطريق القويم وهو دين الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين (دينا قيما) يعنى هدانى صراطا مستقيما دينا قيما وقيل يحتمل أن يكون محمولا على المعنى تقديره وعرفنى دينا قيما يعنى ديناه مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ وقيل قيما ثابتا مقوما لامور معاشى ومعادى وقيما هو من قام وهو أبلغ من القائم (ملة ابراهيم) والملة بالكسر الدين والشريعة يعنى هدانى وعرفنى دين

لها (لست منهم فى شئ) أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم أو من عقابهم (انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم على ذلك (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) تقديره عشر حسنات أمثالها الا أنه أقيم صفة الجنس المميز مقام الموصوف (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل اننى هدانى ربى) ربى أبو عمرو ومدنى (الى صراط مستقيم دينا) نصب على البدل من محل الى صراط مستقيم لان معناه هدانى صراطا بدليل قوله ويهديكم صراطا مستقيما (قيما) فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم قيما كوفى وشامى وهو مصدر بمعنى القيام وصف به (ملة ابراهيم) عطف بيان

ابراهيم وشريعته (حنيفا) الاصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أوحج حنيفا تنبيها على أنه على دين ابراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعني ابراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه رد على كفار قريش لانهم يزعمون أنهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الاصنام (قل ان صلاتي) أي قل يامحمد ان صلاتي (ونسكي) قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي أراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة وقيل النسك العبادة والناسك العابد وقيل المناسك أعمال الحج وقيل النسك كل ما يتقرب به الى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة ونقل الواحدي عن ابن الاعرابي قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لانه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة الخالصة من الخبث وفي قوله ان صلاتي ونسكي دليل على ان جميع العبادات يؤديها العبد على الاخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لاشريك له وفيه دليل على ان جميع العبادات لا تؤدى الا على وجه التمام والكمال لان ما كان لله لا ينبغي أن يكون الا كاملا تاما مع اخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولا (ومحياي ومماتي) أي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره أي هو يحييني ويميتني وقيل معناه ان محياي بالعمل الصالح ومماتي اذا مت على الايمان لله وقيل معناه ان طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام ان الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين ان صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره والمراد بقوله (لله رب العالمين لاشريك له) يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه (وبذلك أمرت) يعني قل يامحمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) قال قتادة يعني من هذه الامة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره ۞ قوله عز وجل (قل أغير الله أبغي ربا) أي قل يامحمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيدا أوالها (وهو رب كل شئ) يعني وهو سيد كل شئ ومالكه لا يشاركه فيه أحد وذلك ان الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع الى ديننا قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل ردا عليه (ولا تكسب كل نفس الا عليها) يعني ان اثم الجاني عليه لا على غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يعني لا تؤاخذ نفس آثمة باثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر (ثم الى ربكم مرجعكم) يعني يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا من الاديان والملل ۞ قوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) يعني والله الذي جعلكم ياأمة محمد خلائف في الارض فان الله أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الارض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وهو آخرهم وأمته آخر الامم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) يعني انه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوي والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لاجل العجز أو الجهل أو البخل فان الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وانما هو لاجل الابتلاء والامتحان ۞ وهو قوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم باحوال عباده والمعنى يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لان العبد اما أن يكون مقصرا فيما كلف به واما أن يكون موفيا ما أمر به فان كان مقصرا كان

(حنيفا) حال من ابراهيم (وما كان من المشركين) بالله يامعشر قريش (قل ان صلاتي ونسكي) أي عبادتي والناسك العابد أوذبحي أوحجي (ومحياي ومماتي) وما آتيه في حياتي وأموت عليه من الايمان والعمل الصالح (لله رب العالمين) خالصة لوجهه محياي ومماتي بسكون الياء الاول وفتح الثاني مدني وبعكسه غيره (لاشريك له) في شئ من ذلك (وبذلك) الاخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) لان اسلام كل نبي متقدم على اسلام أمته (قل أغير الله أبغي ربا) جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار أي منكر أن أطلب ربا غيره وتقديم المفعول للاشعار بأنه أهم (وهو رب كل شئ) وكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره (ولا تكسب كل نفس الا عليها) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تؤخذ نفس آثمة بذنب نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) من الاديان التي فرقتموها (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فأمته قد خلفت سائر الامم أولان بعضهم يخلف بعضا أوهم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض) في الشرف والرزق وغير ذلك (درجات) مفعول ثان أولتقدير الى درجات أوهي واقعة موقع المصدر كأنه قيل رفعة بعد رفعة (ليبلوكم فيما آتاكم) فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة وكيف يصنع الشريف بالوضيع والغني بالفقير والمالك

بالمملوك (ان ربك سريع العقاب) لمن كفر نعمته (وانه لغفور رحيم) لمن قام بشكرها ووصف العقاب بالسرعة لان ما هو آت قريب وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ ثلاث آيات من أول الانعام حين يصبح وكل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه وكتب له مثل أعمالهم الى يوم القيامة

﴿سورة الاعراف مكية وهي مائتان وخمس آيات بصري وست كوفي ومدني﴾

نصيبه التخويف والترغيب ۞ وهو قوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) يعني لاعدائه باهلاكهم في الدنيا وانما وصف العقاب بالسرعة لان كل ما هو آت فهو قريب وان كان العبد موفيا حقوق الله تعالى فيما أمر به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم ۞ وهو قوله تعالى (وانه لغفور) يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته (رحيم) يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الاعراف﴾

نزلت بمكة روي ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس أيضا انها مكية الا خمس آيات أولها واسألهم عن القرية التي كانت وبه قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات في سورة الاعراف مدنية أولها واسألهم عن القرية الى قوله واذ أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشر ألف حرف وعشرة أحرف

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

۞ قوله عز وجل (المص) قال ابن عباس معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه ان المص قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى وقال قتادة المص اسم من أسماء القرآن وقال الحسن هو اسم للسورة وقال السدي هو بعض اسمه تعالى المصور وقال أبو العالية الالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور وقيل هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز وقيل هي حروف اسمه الاعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة ۞ وقوله تعالى (كتاب أنزل اليك) يعني هذا كتاب أنزله الله اليك يا محمد وهو القرآن (فلا يكن في صدرك حرج منه) يعني ولا يضق صدرك بالابلاغ وتادية ما أرسلت به الى الناس (لتنذر به) يعني أنزلت اليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بانذاره (وذكرى للمؤمنين) يعني ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه قال ابن عباس فلا تكن في شك منه لان الشك لا يكون الا من ضيق الصدر وقلة الاتساع لتوجيه ما حصل له ۞ قوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أي قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل اليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان قال الحسن يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية الا ويجب أن تعلم فيم أنزلت وما معناها وبنحو هذا قال الزجاج أي اتبعوا القرآن وما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فانه مما أنزل لقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ومعنى الآية ان الله تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر القوم وقل لهم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك وقيل معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وقيل هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل اليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم الى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ المص ﴿ قال الزجاج المختار في تفسيره ما قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا الله أعلم وأفصل (كتاب) خبر مبتدا محذوف أي هو كتاب (أنزل اليك) صفته والمراد بالكتاب السور (فلا يكن في صدرك حرج) شك فيه وسمي الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر حرجه كما ان المتيقن منشرح الصدر منفسحه أي لا شك في انه منزل من الله أو حرج منه بتبليغه لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه وأذاهم فكان يضيق صدره من الاذى ولا ينشط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم والنهي متوجه الى الحرج وفيه من المبالغة ما فيه والفاء للعطف أي هذا الكتاب أنزلته اليك فلا يكن بعد انزاله حرج في صدرك واللام في (لتنذر به) متعلق بانزل أي أنزل اليك لانذارك به أو بالنهي لانه اذا لم يخفهم أنذرهم وكذا اذا أيقن انه من عند الله شجعه اليقين على الانذار به لان صاحب اليقين جسور متوكل على ربه (وذكرى للمؤمنين) والمعنى في محل النصب باضمار فعلها أي لتنذر به وتذكر تذكيرا فالذكرى اسم بمعنى التذكير أو الرفع بالعطف على كتاب أي هو كتاب وذكرى للمؤمنين أو بانه خبر مبتدا محذوف أو الجر بالعطف على محل لتنذر أي للانذار وللذكرى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أي القرآن والسنة (ولا تتبعوا من دونه) من دون الله (أولياء) أي ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والانس فيحملوكم على عبادة

الاوثان والاهواء والبدع (قليلاما تذكرون) حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره وقليلا نصب بتذكرون أى تذكرون تذكرا قليلا وما مزيدة لتوكيد القلة تتذكرون شامى (وكم) مبتدأ (من قرية) تبيين والخبر (أهلكناها) أى أردنا اهلاكها كقوله اذا قمتم الى الصلاة (فجاءها) جاء أهلها (بأسنا) عذابنا (بياتا) مصدر وقع موقع الحال بمعنى بائتين يقال بات بياتا حسنا (أوهم

والمعنى ولاتتولوا من دونه شياطين الانس والجن فيأمروكم بعبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة (قليلا ما تذكرون) يعنى ما تتعظون الا قليلا ﴿قوله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار والابلاغ وأمر أمته باتباع ما أنزله اليهم حذرهم نقمته وبأسه ان لم يتبعوا ما أمروا به فذكر فى هذه الآية ما فى ترك المتابعة والاعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى وكم من قرية أهلكناها قيل فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لان المقصود بالاهلاك أهل القرية لا القرية وقيل ليس فيه حذف لان اهلاك القرية اهلاك لاهلها (فجاءها بأسنا) يعنى عذابنا فان قلت مجئ البأس وهو العذاب انما يكون قبل الاهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا فما معناه وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا وقال الفراء الهلاك والبأس قد يقعان معا كما يقال أعطيتنى فأحسنت الى فلم يكن الاحسان قبل الاعطاء ولا بعده وانما وقعا معا وقال غيره لا فرق بين قولك أعطيتنى فأحسنت الى أو أحسنت الى فأعطيتنى فيكون أحدهما بدلا من الآخر (بياتا) يعنى فجاءها عذابنا ليلا قبل أن يصبحوا (أوهم قائلون) من القيلولة وهى نوم نصف النهار أو استراحة نصف النهار وان لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون أونهارا وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة ومقصود الآية انه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لا تغتروا بأسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) يعنى فما كان دعاء أهل القرية التى جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب اللهم أشركنا فى صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم (اذ جاءهم بأسنا) يعنى عذابنا (الا أن قالوا انا كنا ظالمين) يعنى انهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لا ينفع الاعتراف (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) يعنى نسأل الامم الذين أرسلت اليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل (ولنسألن المرسلين) يعنى ولنسألن الرسل الذين أرسلناهم الى الامم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم الى الامم ما أمرتم بتأديته اليهم أم قصرتم فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى هذه الآية يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه انه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وقال السدى يسأل الامم ما عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به فان قلت قد أخبر عنهم فى الآية الاولى بانهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم فى قوله انا كنا ظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك قلت لما اعترفوا بانهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار فان قلت فما الفائدة فى سؤال الرسل مع العلم بانهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليهم من الامم * قلت اذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسئلة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا اليهم من الامم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليه من الامم فتكون هذه المسئلة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لانهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم ﴿وقوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم) يعنى فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا اليهم بعلم ويقين بما عملوا فى الدنيا (وما كنا غائبين) يعنى عنهم وعن أفعالهم

قائلون) حال معطوفة على بياتا كأنه قيل فجاءهم باسنا بائتين أوقائلين وانما قيل هم قائلون بلا واو ولا يقال جاءنى زيد هو فارس بغير واو لانه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالا لاجتماع حرفى عطف لان واو الحال هى واو العطف استعيرت للوصل وخص هذان الوقتان لانهما وقت الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع وقوم لوط عليه السلام أهلكوا بالليل وقت السحر وقوم شعيب عليه السلام وقت القيلولة وقيل بياتا ليلا أى ليلا وهم نائمون أونهارا وهم قائلون (فما كان دعواهم) دعاؤهم وتضرعهم (اذجاءهم بأسنا) لماجاءهم أوائل العذاب (الا أن قالوا انا كنا ظالمين) اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك ودعواهم اسم كان وأن قالوا الخبر ويجوز العكس (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) أرسل مسند الى اليهم أى فلنسألن المرسل اليهم وهم الامم عما أجابوا به رسلهم (ولنسألن المرسلين) عما أجيبوا به (فلنقصن عليهم) على الرسل والمرسل اليهم ما كان منهم (بعلم) عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأعمالهم (وما كنا غائبين) عنهم وعما وجد منهم ومعنى السؤال التوبيخ والتقريع والتقرير اذا فاهوا بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم

وعن الرسل فيما بلغوا وعن الامم فيما أجابوا فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسئلن المرسلين و بين قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين واذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال قلت فائدة سؤال الامم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التقريع والتوبيخ للكفار لانهم اذا أقروا على أنفسهم كان أبلغ فى المقصود فاما سؤال الاسترشاد والاستثبات فهو منفى عن الله عز وجل لانه عالم بجميع الاشياء قبل كونها وفى حال كونها او بعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات وعلمه بظاهر الاشياء كعلمه بباطنها ﴿قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعنى والوزن يوم سؤال الامم والرسل وهو يوم القيامة العدل وقال مجاهد المراد بالوزن هنا القضاء ومعنى الحق العدل وذهب جمهور المفسرين الى أن المراد بالوزن وزن الاعمال بالميزان وذلك ان الله عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة قدر ما بين المشرق و المغرب قال ابن الجوزى جاء فى الحديث ان داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فاراه اياه فقال الهى من يقدر ان يملأ كفته حسنات فقال ياداود اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة وقال حذيفة جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فان لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل فان قلت أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فالحكمة فى وزنها قلت فيه حكم منها اظهار العدل وان الله عز وجل لا يظلم عباده ومنها امتحان الخلق بالايمان بذلك فى الدنيا واقامة الحجة عليهم فى العقبى ومنها تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها اظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ثم اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الاعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيأ أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول الله تبارك وتعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذى وأحمد بن حنبل وقال ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة و بالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع فى الميزان فعلى قول ابن عباس ان الاعمال تتصور صورا و توضع تلك الصور فى الميزان و يخلق الله تعالى فى تلك الصور ثقلا وخفة ونقل البغوى عن بعضهم انها توزن الاشخاص واستدل لذلك بما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة أخرجاه فى الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ماذكر من وزن الاشخاص فى الميزان لان المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده ولحمه والصحيح قول من قال ان صحائف الاعمال توزن أو نفس الاعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك ﴿وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان وأورد على هذا انه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بان العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعنى من رجحت أعماله بالحسنة الموزونة التى لها وزن وقدر (فاولئك

(والوزن) أى وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وهو مبتدأ وخبره (يومئذ) أى يوم يسأل الله الامم ورسلهم فحذفت الجملة وعوض عنها التنوين (الحق) أى العدل صفته ثم قيل توزن صحف الاعمال بميزان له لسان وكفتان اظهارا للنصفة وقطعا للمعذرة وقيل هو عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل والله أعلم بكيفيته (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان أو موزون أى فمن رجحت أعماله الموزونة التى لها وزن وقدر وهى الحسنات أو ما توزن به حسناتهم (فاولئك

هم المفلحون) يعني هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله تعالى وكرامته (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يعني بسبب ذلك الخسران انهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه انه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا ۞ قوله عز وجل (ولقد مكناكم في الارض) يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الارض والمراد من التمكين التمليك وقيل معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة يعني به جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين أحدهما ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب والثاني ما يحصل من المكاسب والارباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا القسمين في الحقيقة انما يحصل بفضل الله وانعامه واقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك ان جميع معايش العالم انعام من الله تعالى على عباده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عباده وانعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) يعني على ما صنعت اليكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها وبضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ۞ قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعني ولقد خلقناكم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم في أرحام النساء صورا مخلوقة فان قلت على هذا التفسير يكون قوله ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم يقتضي ان الامر بالسجود لآدم كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لان كلمة ثم للتراخي ومعلوم ان الامر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته قلت يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم انا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر وقيل في معنى الآية ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني ذريته وهذا قول ابن عباس وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين انما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أولانه أبو البشر فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه وقيل ان الخلق والتصوير يرجع الى آدم عليه الصلاة والسلام وحده والمعنى ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يعني بعد اكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وانه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود وقيل بل كان حقيقة السجود وان المسجود له هو الله تعالى وانما كان آدم كالقبلة للساجدين وقيل بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الامر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة وقوله تعالى (فسجدوا) يعني الملائكة (الا ابليس) يعني فسجد الملائكة لآدم الا ابليس (لم يكن من الساجدين) يعني له وظاهر الآية يدل على ان ابليس كان من الملائكة لان الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول ان ابليس لم يكن من الملائكة لانه خلق من نار والملائكة من نور وانما استثناه من الملائكة لانه كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه انه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم ۞ قوله تعالى (قال ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك) يعني قال الله

في ميزانهم خير فتخف موازينهم (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) يجحدون فالآيات الحجج والظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الانقياد لها (ولقد مكناكم في الارض) جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو مكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهي ما يعاش من المطاعم والمشارب وغيرها والوجه تصريح الياء لانها أصلية بخلاف صحائف فالياء فيها زائدة وعن نافع انه همز تشبيها بصحائف (قليلا ما تشكرون) مثل قليلا ما تذكرون (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أي خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينا غير مصور ثم صورناه بعد ذلك دليله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين) ممن سجد لآدم عليه السلام (قال ما منعك أن لا تسجد) ما رفع أي أي شيء منعك من السجود ولا زائدة بدليل ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ومثلها لئلا يعلم أهل الكتاب أي ليعلم (اذ أمرتك) فيه دليل على ان الامر للوجوب والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله

عز وجل لابليس أى شئ منعك من السجود لآدم اذ أمرتك به فعلى هذا التأويل تكون كلمة لا فى قوله أن لا تسجد صلة زائدة وانما دخلت للتوكيد والتقدير مامنعك أن تسجد فهو كقوله لا أقسم أى أقسم وقوله وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون أى يرجعون وقوله لئلا يعلم أهل الكتاب أى ليعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائى والفراء والزجاج والاكثرين وقيل ان كلمة لا هنا على أصلها مفيدة وليست بزائدة لانه لا يجوز أن يقال ان كلمة من كتاب الله زائدة أو لا معنى لها وعلى هذا القول حكى الواحدى عن أحمد بن يحيى ان لا فى هذه الآية ليست زائدة ولا توكيدا الا ان معنى قوله مامنعك أن لا تسجد من قال لك لا تسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء وقال الطبرى الصواب فى ذلك أن يقال ان فى الكلام محذوفا وتقديره مامنعك من السجود فأحوجك أن لا تسجد فترك ذكر أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الامام فخر الدين الرازى عن القاضى قال ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعى فكأنه قال مادعاك الى أن لا تسجد لان مخالفة الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسئل عن الداعى اليها فان قلت لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به قلت انما سأله للتوبيخ والتقريع له ولاظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه (قال) يعنى قال ابليس مجيبا لله تعالى عما سأله عنه (أنا خير منه) فان قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه فى قوله تعالى مامنعك أن لا تسجد فلم يجب بما منعه من السجود فانه كان ينبغى له أن يقول منعنى كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه قلت استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) والنار خير من الطين وأنور وانما قال أنا خير منه لما رأى انه أشد منه قوة وأفضل منه أصلا وذلك افضل الجنس الذى خلق منه وهو النار على الطين الذى خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام فجهل عدو الله ابليس وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لان من المعلوم ان من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب وهذا الذى حمل الخبيث ابليس مع الشقاء الذى سبق له من الله تعالى فى الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بامر ربه فاورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن فى جوهر الطين الرزانة والاناة والصبر والحلم والحياء والتثبت وهذا كان الداعى لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التى سبقت له من الله تعالى فى الكتاب السابق الى التوبة من خطيئته ومسئلته ربه العفو عنه والمغفرة ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان أول من قاس ابليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضا ماعبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذى قاسه ابليس لعنه الله تعالى لما رأى ان النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلا وان الافضلية والخيرية لا تحصل بسبب فضيلة الاصل والجوهر وأيضا الفضيلة انما تحصل بسبب الطاعة وقبول الامر فالمؤمن الحبشى خير من الكافر القرشى فالله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام باشياء لم يخص بها غيره وهو انه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية الى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التى سبقت له فى القدم وأورث ابليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التى سبقت له فى القدم ﴿ وقوله تعالى (قال فاهبط منها) يعنى قال الله تعالى لابليس لعنه الله اهبط من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون لك أن تتكبر فيها) يعنى فليس لك أن تستكبر فى الجنة عن أمرى وطاعتى لانه لا ينبغى أن يسكن فى الجنة أو فى السماء متكبر مخالف لامر الله عز وجل فاما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبر عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون فى الارض (فاخرج انك

وتحقيره أصل آدم عليه السلام (قال أنا خير منه خلقتنى من نار) وهى جوهر نورانى (وخلقته من طين) وهو ظلمانى وقد أخطأ الخبيث بل الطين أفضل لرزانته ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر وذلك دعاه الى التوبة والاستغفار وفى النار الطيش والحدة والترفع وذلك دعاه الى الاستكبار والتراب عدة الممالك والنار عدة المهالك والنار مظنة الخيانة والافناء والتراب مئنة الامانة والانماء والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لا تتلفه وهذه فضائل غفل عنها ابليس حتى زل بفاسد من المقاييس وقولنا فى القياس أول من قاس ابليس قياس على ان القياس عند مثبته مردود عند وجود النص وقياس ابليس عناد للامر المنصوص فكان الجواب لما منعك أن يقول منعنى كذا وانما قال أنا خير منه لانه لما استأنف قصة وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم عليه السلام وعلة فضله عليه فعلم منها الجواب كأنه قال منعنى من السجود فضلى عليه وزيادة عليه وهى انكار الامر واستبعاد أن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله اذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب (قال فاهبط منها) من الجنة أو من السماء لانه كان فيها وهى مكان المطيعين والمتواضعين والفاء فى فاهبط جواب لقوله أنا خير منه أى ان كنت تتكبر فاهبط (فما يكون لك) فما يصح لك (أن تتكبر فيها) وتعصى (فاخرج انك من

من الصاغرين) من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه يذمك كل انسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم ان الصغار لازم للاستكبار (قال أنظرنى الى يوم يبعثون) أمهلنى الى يوم البعث وهو وقت النفخة الاخيرة (قال انك من المنظرين) الى النفخة الاولى وانما أجيب الى ذلك لما فيه من الابتلاء وفيه تقريب لقلوب الاحباب أى هذا برى بمن يسيئنى فكيف بمن يحبنى وانما جسره على السؤال مع وجود الزلل منه فى الحال علمه بحلم ذى الجلال (قال فبما أغويتنى) أضللتنى أى فبسبب اغوائك اياى والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف تقديره فبسبب اغوائك أقسم أو تكون الباء للقسم أى فاقسم باغوائك (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) لاعترضن لهم على طريق الاسلام مترصدا للرد متعرضا للصد كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف كقولك ضرب زيد الظهر أى على الظهر وعن طاوس انه كان فى المسجد الحرام فجاء رجل قدرى فقال له طاوس تقوم أو تقام فقام الرجل فقيل له أتقول هذا الرجل فقيه فقال ابليس أفقه منه قال رب بما أغويتنى وهو يقول أنا أغوى نفسى (ثم لآتينهم من بين أيديهم) أشككهم فى الآخرة (ومن خلفهم) أرغبهم فى الدنيا (وعن أيمانهم) من قبل الحسنات (وعن شمائلهم) من قبل السيئات وهو جمع شمال يعنى ثم لآتينهم من الجهات الاربع التى يأتى منها العدو فى الاغلب وعن شقيق ما من صباح الاقعد لى الشيطان على أربعة مراصد من بين يدى فيقول لا تخف فان الله غفور رحيم فاقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ومن خلفى فيخوفنى الضيعة على مخلفى فاقرأ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها وعن يمينى فيأتينى من قبل الثناء فاقرأ والعاقبة للمتقين وعن شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة وقال فى الاولين من لابتداء الغاية وفى الاخيرين عن لان عن تدل على الانحراف

من الصاغرين) يعنى انك من الاذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فاخرجه الله تعالى منها الى جزائر البحر الاخضر وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها (قال) يعنى قال ابليس عند ذلك (انظرنى) يعنى أخرنى وأمهلنى فلا تمتنى (الى يوم يبعثون) يعنى من قبورهم وهى النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة الخبيث ابليس لعنه الله لانه سأل ربه لامهال وقد علم انه لا سبيل لاحد من خلق الله تعالى الى البقاء فى الدنيا ولكنه كره أن يكون ذائقا الموت فطلب البقاء والخلود فلم يجب الى ما سأل بل (قال) الله تعالى له (انك من المنظرين) يعنى من المؤخرين المهلين وقد بين الله تعالى مدة النظرة والمهلة فى سورة الحجر فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى حين يموت الخلق كلهم فان قلت ما وجه قوله انك من المنظرين وليس أحد ينظر سواه قلت معناه ان الذين تقوم عليهم الساعة منظرون الى ذلك الوقت بآجالهم فهو منهم (قال) يعنى ابليس (فبما أغويتنى) يعنى فبأى شئ أضللتنى فعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتنى ثم ابتدأ فقال (لاقعدن لهم صراطك المستقيم) وقيل هى باء القسم تقديره فباغوائك اياى وقيل معناه فبما أوقعت فى قلبى الغى الذى كان سبب هبوطى الى الارض من السماء وأضللتنى عن الهدى لاقعدن لهم صراطك المستقيم يعنى لاجلسن على طريقك القويم وهو طريق الاسلام وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذى يسلكونه الى الجنة وذلك بان أوسوس اليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم وقيل المراد بالصراط المستقيم هنا طريق مكة يعنى يمنعهم من الهجرة وقيل المراد به الحج والقول الاول أولى لانه يعم الجميع ومعنى الآية لاردن بنى آدم عن عبادتك وطاعتك ولاغوينهم ولاضلنهم كما أضللتنى عن سبرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قعد لابن آدم باطرقه فقعد له فى طريق الاسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وانما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة وان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة أخرجه النسائى وقوله تعالى اخبارا عن ابليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) قال ابن عباس من بين أيديهم يعنى من قبل الآخرة فاشككهم فيها ومن خلفهم يعنى من قبل الدنيا فارغبهم فيها وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهى لهم المعاصى وانما جعل الآخرة من بين أيديهم فى هذا القول لانهم منقلبون اليها وصائرون اليها فعلى هذا الاعتبار فالدنيا خلفهم لانهم يخلفونها وراء ظهورهم وقال ابن عباس فى رواية عنه من بين أيديهم من قبل دنياهم يعنى أزينها فى قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فاقول لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار وعن أيمانهم من قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيآتهم وانما جعل الدنيا من بين أيديهم فى هذا القول لان الانسان يسعى فيها ويشاهدها فهى حاضرة

بين يديه والآخرة غائبة عنه فهى خلفه وقال الحكم بن عتيبة من بين أيديهم يعنى من قبل الدنيا فازينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأثبطهم عنها وعن أيمانهم يعنى من قبل الحق فاصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فازينه لهم وقال قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم انه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم اليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم اليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير انه لم يأتك من فوقك فلم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى وقال مجاهد يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون ومعنى هذا من حيث يخطئون ويعلمون انهم يخطئون ومن حيث لا يبصرون انهم يخطئون ولا يعلمون انهم يخطئون وقيل من بين أيديهم يعنى فيما بقى من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعنى مامضى من أعمارهم فلا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية وعن أيمانهم يعنى من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشكرون ومن خلفهم يعنى من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور نالوه وقال شقيق البلخى مامن صباح الا ويأتينى الشيطان من الجهات الاربع من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى أما من بين يدى فيقول لا تخف فان الله غفور رحيم فاقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى من وقوع أولادى فى الفقر فاقرأ ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها وأما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء فاقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين مايشتهون وقيل ان ذكر هذه الجهات الاربع انما أريد بها التأكيد والمبالغة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم وانه لا يقصر فى ذلك ومعنى الآية على هذا القول ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة لجميع الاعتبارات وقوله (ولا تجد أكثرهم شاكرين) يعنى ولا تجد يارب أكثر بنى آدم شاكرين لك على نعمك التى أنعمت بها عليهم وقال ابن عباس معناه ولا تجد أكثرهم موحدين فان قلت كيف علم الخبيث ابليس ذلك حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين قلت قاله ظنا فاصاب ومنه قوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه وقيل انه كان عازما على المبالغة فى تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بنى آدم الى ذلك فقال هذه المقالة وقيل انه رآه مكتوبا فى اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده ۞ قوله عز وجل (قال اخرج منها) أى قال الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب مخالفته وعصيانه أخرج منها يعنى من الجنة فانه لا ينبغى أن يسكن فيها العصاة (مذؤما) يعنى معيبا والذأم أشد العيب (مدحورا) يعنى مطرودا مبعودا وقال ابن عباس صغيرا ممقوتا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال الكلبى ملوما مقصيا من الجنة ومن كل خير (لمن تبعك منهم) يعنى من بنى آدم (لأملأن جهنم منكم أجمعين) اللام لام القسم أقسم الله تعالى ان من تبع ابليس من بنى آدم وأطاعه منهم ان يملأ جهنم منه وممن كفر من بنى آدم وابليس وذريته ومن تبعه منهم ۞ قوله تعالى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد ان أهبط منها ابليس وأخرجه وطرده من الجنة (فكلا من حيث شئتما) يعنى فكلا من ثمار الجنة من أى مكان شئتما فان قلت قال فى سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق قلت قال الامام فخر الدين الرازى ان الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففى سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) تقدم فى سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى ۞ قوله تعالى (فوسوس لهما الشيطان) يعنى فوسوس اليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان فى قلب الانسان يقال وسوس اذا تكلم كلاما خفيا مكررا وأصله من صوت الحلى ومعنى وسوس لهما فعل الوسوسة

(ولا تجد أكثرهم شاكرين) مؤمنين قاله ظنا فاصاب لقوله ولقد صدق عليهم ابليس ظنه أوسمعه من الملائكة باخبار الله تعالى اياهم (قال اخرج منها) من الجنة أو من السماء (مذؤما) معيبا من ذأمه اذا ذمه ولذأم والذم العيب (مدحورا) مطرودا مبعدا من رحمة الله واللام فى (لمن تبعك منهم) موطئة للقسم وجوابه (لأملأن جهنم) وهو ساد مسد جواب الشرط (منكم) منك ومنهم فغلب ضمير المخاطب (أجمعين) (ويا آدم) وقلنا يا آدم بعد اخراج ابليس من الجنة (اسكن أنت وزوجك الجنة) اتخذها مسكنا (فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا) فتصيرا (من الظالمين فوسوس لهما الشيطان) وسوس اذا تكلم كلاما خفيا يكرره وهو غير متعد ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس اليه وهو الذى يلقى اليه الوسوسة ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لاجله ووسوس اليه ألقاها اليه

وألقاها

واقفها اليهما فان قلت كيف وسوس اليهما وآدم وحواء في الجنة وابليس قد أخرج منها قلت ذكر الامام فخر الدين الرازي في الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال كان يوسوس في الارض الى السماء الى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له وقال أبو مسلم الاصبهاني بل كان آدم وابليس في الجنة لان هذه الجنة كانت بعض جنات الارض والذي يقوله بعض الناس من أن ابليس دخل في جوف الحية فدخلت به الحية الى الجنة فقصة مشهورة ركيكة وقال آخرون ان آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان ابليس واقفا من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك * فان قلت ان آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله * قلت يحتمل أن يقال ان ابليس لقي آدم مرارا كثيرة ورغبه في أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها رجاء نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام ابليس في آدم حتى أكل من الشجرة (ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) يعني ليظهر لهما ما غطي وستر من عوراتهما وقوله ما ووري مأخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لان ظهوره يسوء الانسان وفي الآية دليل على ان كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدي لهما لام العاقبة وذلك لان ابليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وانما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما ان بدت عوراتهما (وقال) يعني وقال ابليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) يعني عن الاكل من هذه الشجرة (الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يعني انما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وانما أطمع ابليس آدم بهذه الآية لانه علم ان الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة أطول أعمارهم أو يكون مع الخالدين الذين لا يموتون أبدا * فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الملك أفضل من الانبياء لان آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه * قلت ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لان آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقدير أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد ان شرف بها آدم انما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لانهم أفضل منه حتى يلتحق بهم في الفضل لانه طلب اما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون أبدا وقوله تعالى (وقاسمهما) أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد (اني لكما لمن الناصحين) قال قتادة حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال اني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له (فدلاهما بغرور) يعني فخدعهما بغرور يقال ما زال فلان يدلي فلانا بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل قال الازهري وأصله ان الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش وهو ان ابليس حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية لان التدلي لا يكون الا من علو الى أسفل ومعنى الآية ان ابليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام لا يظن ان أحدا يحلف بالله كاذبا وابليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف ابليس ظن آدم انه صادق فاغتر به (فلما ذاقا الشجرة) يعني طعما من ثمرة الشجرة

(ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الامور وانه لم يزل مستقبحا في الطباع والعقول فان قلت ما للواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة كما في أويصل تصغير واصل وأصله وويصل فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع واوين قلت لان الثانية مدة كألف وارى فكما لم يجب همزها في واعد لم يجب في ووري وهذا لان الواوين اذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما اذا كانت الثانية ساكنة وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا ابدالها في موضع الثقل لا في غيره وقرأ عبد الله أوري بالقلب (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين) الا كراهة ان تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء وقرئ ملكين لقوله وملك لا يبلى (أو تكونا من الخالدين) من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين (وقاسمهما) وأقسم لهما (اني لكما لمن الناصحين) وأخرج قسم ابليس على زنة المفاعلة لانه لما كان منه القسم ومنهما التصديق فكأنها من اثنين (فدلاهما) فنزلهما الى الاكل من الشجرة (بغرور) بما غرهما به من القسم بالله وانما يخدع المؤمن بالله وعن ابن عمر رضي الله عنهما من خدعنا بالله انخدعنا له (فلما ذاقا الشجرة) وجدا طعمها آخذين في الاكل منها وهي السنبلة أو الكرم

وفيه دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك وقصدا الى معرفة طعمه لان الذوق يدل على الاكل اليسير (بدت لهما سوآتهما) يعني ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما قبل ان ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت و بدت لهما سوآتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك وقال وهب كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة كان لباس آدم في الجنة ظفرا كله فلما وقع في الذنب قشط عنه و بدت سوأته (وطفقا) يعني وأقبلا وجعلا (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يعني انهما لما بدت لهما سوآتهما جعلا يرقعان و يلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب وقال الزجاج جعلا ورقة على ورقة ليستترا سوآتهما وفي الآية دليل على ان كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا الى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبيح كشفها روى أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم صلى الله عليه وسلم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها في الجنة فانطلق فارا فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها أرسليني قالت است بمرسلتك فناداه ربه يا آدم أمني تفر قال لا يارب ولكني استحييتك ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري من طريقين موقوفا ومرفوعا ۞ قوله تعالى (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) يعني ان الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما فقال ألم أنهكما عن أكل ثمرة هذه الشجرة (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) يعني ألم أعلمكما أن الشيطان قد بانت عداوته لكما بترك السجود حسدا وبغيا قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قال حواء أمرتني قال فاني أعقبتها ان لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها قال فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتني الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرني ابليس قال الله تعالى أما أنت ياحواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر وأما أنت ياحية فاقطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت ياابليس فلعون مطرود مدحور يعني عن الرحمة وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك جنتي في جواري ۞ قوله عز وجل (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) وهذا خبر من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى قالا يا ربنا انا فعلنا بانفسنا من الاساءة اليها بمخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك مالم يكن لنا ان نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها (وان لم تغفر لنا) يعني وأنت ياربنا ان لم تستر علينا ذنبنا (وترحمنا) يعني وتتفضل علينا برحمتك (لنكونن من الخاسرين) يعني من الهالكين قال قتادة قال آدم يارب أرأيت ان تبت اليك واستغفرتك قال اذا أدخلك الجنة وأما ابليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد منهما ما سأل وقال الضحاك في قوله ربنا ظلمنا أنفسنا قال هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل

❁ (فصل) ❁ وقد استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بان درجة الانبياء عليهم الصلاة والسلام في الرفعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والاشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بامور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهي ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم وسيآت بالنسبة الى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل ذنوبا

(بدت لهما سوآتهما) ظهرت لهما عوراتهما انهافت اللباس عنهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وقيل كان لباسهما من جنس الاظفار أي كالظفر بياضا في غاية اللطف واللين فبقي عند الاظفار تذكيرا للنعم وتجديدا للندم (وطفقا) وجعلا يقال طفق يفعل كذا أي جعل (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يجعلان على عورتهما من ورق التين أو الموز ورقة فوق ورقة ليستترا بها كما تخصف النعل (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطا وروى أنه قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى ولكن ما ظننت ان أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتي لاهبطنك الى الارض ثم لاتنال العيش الا كدا يمين وعرق جبين فاهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وطحن وخبز (وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فيه دليل لنا

وهى حسنات بالنسبة الى غيرهم كما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين يعنى انهم يرونها بالنسبة الى أحوالهم كالسيآت وهى حسنات لغيرهم وقد تقدم فى سورة البقرة ان أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها والخلاف فيه فاغنى عن الاعادة والله أعلم ۞ قوله تعالى (قال اهبطوا) قال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله ان الذى تقدم ذكره هو آدم وحوّاء وابليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة وقال الطبرى قال الله تعالى لآدم وحوّاء وابليس والحية اهبطوا يعنى من السماء الى الارض قال السدى رحمه الله قوله تعالى اهبطوا يعنى الى الارض آدم وحوّاء وابليس والحية (بعضكم لبعض عدو) يعنى ان العداوة ثابتة بين آدم وابليس والحية وذرية كل واحد من آدم وابليس (ولكم فى الارض مستقر) يعنى موضع قرار تستقرون فيه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ولكم فى الارض مستقر يعنى القبور (ومتاع الى حين) يعنى ولكم فيها متاع تستمتعون به الى انقطاع الدنيا أو الى انقضاء آجالكم ومعنى الآية ان الله عز وجل أخبر آدم وحوّاء وابليس والحية انه اذا أهبطهم الى الارض فان بعضهم لبعض عدو وان لهم فى الارض موضع قرار يستقرون فيه الى انقضاء آجالهم ثم يستقرون فى قبورهم الى انقطاع الدنيا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى ومتاع الى حين يعنى الى يوم القيامة والى انقطاع الدنيا (قال فيها تحيون) يعنى قال الله عز وجل لآدم وذريته وابليس وأولاده فيها تحيون يعنى فى الارض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعنى وفى الارض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعنى ومن الارض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم) اعلم ان الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط الى الارض وجعلها مستقرا لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون اليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما نزل عليهم اللباس الذى يحتاج اليه فى الدين والدنيا فاما منفعته فى الدين فانه يستر العورة وسترها شرط فى صحة الصلاة وأما منفعته فى الدنيا فانه يمنع الحر والبرد فامتن الله على عباده بان أنزل عليهم لباسا يوارى سوآتهم فقال تعالى يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم يعنى لباسا تسترون به عوراتكم فان قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباسا قلت ذكر العلماء فيه وجوها أحدها أنه بمعنى خلق أى خلقنا لكم لباسا أو بمعنى رزقناكم لباسا الوجه الثانى ان الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكانه أنزله عليهم الوجه الثالث ان جميع بركات الارض تنسب الى السماء والى الانزال كما قال تعالى وأنزلنا الحديد (وريشا) الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للانسان فاستعير للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا لزينتكم لان التزيين غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال واختلفوا فى معنى الريش المذكور فى الآية فقال ابن عباس رضى الله عنهما وريشا يعنى مالا وهو قول مجاهد والضحاك والسدى لان المال مما يتزين به ويقال تريش الرجل اذا تمول وقال ابن زيد الريش الجمال وهو يرجع الى الزينة أيضا وقيل ان الرياش فى كلام العرب الاثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضا المتاع والاموال عندهم وربما استعملوه فى الثياب والكسوة دون سائر المال يقال انه لحسن الريش أى لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضا فى الخصب ورفاهية العيش (ولباس التقوى) اختلف العلماء فى معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته ومنهم من حمله على المجاز اما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضا فى معناه فقال ابن الانبارى لباس التقوى هو اللباس الاول وانما أعاده اخبارا أن ستر العورة من التقوى وذلك خير وقيل انما أعاده لاجل ان يخبر عنه بانه خير لان العرب فى الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعرى وخلع الثياب فى الطواف بالبيت فاخبر ان ستر العورة فى الطواف هو لباس التقوى وذلك

على المعتزلة لان الصغائر عندهم مغفورة (قال اهبطوا) الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع لان ابليس هبط من قبل ويحتمل انه هبط الى السماء ثم هبطوا جميعا الى الارض (بعضكم لبعض عدو) فى موضع الحال أى متعادين يعاديهما ابليس ويعاديانه (ولكم فى الارض مستقر) استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) وانتفاع بعيش (الى حين) الى انقضاء آجالكم وعن ثابت البنانى لما أهبط آدم عليه السلام وحضرته الوفاة وأحاطت به الملائكة فجعلت حوّاء تدور حولهم فقال لها خلى ملائكة ربى فانما أصابنى ما أصابنى فيك فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب وحفروا له قبرا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم بعده (قال فيها تحيون) فى الارض (وفيها تموتون ومنها تخرجون) للثواب والعقاب تخرجون حمزة وعلى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) جعل ما فى الارض منزلا من السماء لان أصله من الماء وهو منها (يوارى سوآتكم) يستر عوراتكم (وريشا) لباس الزينة استعير من ريش الطير لانه لباسه وزينته أى أنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا يزينكم (ولباس التقوى) ولباس الورع الذى يقى العقاب وهو مبتدأ وخبره الجملة وهى

(ذلك خير) كأنه قيل ولباس التقوى هو خير لأن أسماء الاشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع الى عود الذكر أو ذلك صفة للمبتدأ وخير خبر المبتدأ كأنه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير أو لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي وهو لباس التقوى أي ستر العورة لباس المتقين ثم قال ذلك خير وقيل ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن ولباس التقوى مدني وشامي وعلى عطفا على لباسا أي وأنزلنا عليكم لباس التقوى (ذلك من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني انزال اللباس (لعلهم يذكرون) فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليهما اظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري من الفضيحة واشعارا بان التستر من التقوى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) لا يخدعنكم ولا يضلنكم بان لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها (ينزع عنهما لباسهما) حال أي أخرجهما نازعا لباسهما بان كان سببا في ان نزع عنهما والنهي في الظاهر للشيطان وفي المعنى لبني آدم أي لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم (ليريهما سوآتهما) عوراتهما (انه) الضمير للشأن والحديث (يراكم هو) تعليل للنهي وتحذير من فتنته بانه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم من حيث لا تشعرون (وقبيله) وذريته أو وجنوده من الشياطين وهو عطف على الضمير في يراكم المؤكد بهو ولم يعطف عليه لان معمول الفعل هو المستكن دون هذا البارز وانما يعطف على ما هو معمول الفعل (من حيث لا ترونهم) قال ذو النون ان كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بمن يراه من حيث لا يراك وهو الله الكريم الستار الرحيم الغفار

لا يرون

خير وقال زيد بن علي رحمه الله تعالى لباس التقوى آلات الحرب التي يتقى بها في الحروب كالدروع والمغفر ونحو ذلك وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع وقيل هو ستر العورة في الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا في معناه فقال قتادة والسدي لباس التقوى هو الايمان لان صاحبه يتقي به من النار وقال ابن عباس رضي الله عنهما لباس التقوى هو العمل الصالح وقال الحسن رضي الله عنه هو الحياء لانه يحث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لباس التقوى هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه لباس التقوى خشية الله وقال الكلبي هو العفاف فعلى هذه الاقوال ان لباس التقوى خير لصاحبه اذا أخذ به مما خلق الله له من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى (ذلك خير) يعني ان لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا في المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى * عريت وان وارى القميص قميص

۞ وقوله تعالى (ذلك من آيات الله) يعني انزال اللباس عليكم يا بني آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكروها ۞ قوله تعالى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وانما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة ابليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى ان من قدر على اخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الاولى فحذر الله عز وجل بني آدم وأمرهم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الافعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها ۞ وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) انما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى كان لباس آدم وحواء نورا وقال مجاهد كان لباسهما التقى وفي رواية عنه التقوى وقيل ان لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس (ليريهما سوآتهما) يعني ليري آدم عورة حواء وترى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوأة بعض (انه يراكم هو وقبيله) يعني ان ابليس يراكم يا بني آدم هو وقبيله انما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن أو انس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي من هو من نسله وحكى أبو عبيد عن أبي زيد القبيل ثلاثة فصاعدا من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد وقال الطبري قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيله نسله وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو ولده ۞ وقوله (من حيث لا ترونهم) يعني أنتم يا بني آدم قال العلماء رحمهم الله ان الله تعالى خلق في عيون الجن ادراكا يرون بذلك الادراك الانس ولم يخلق في عيون الانس هذا الادراك فلم يروا الجن وقالت المعتزلة الوجه في ان الانس

لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها والوجه فى رؤية الجن للانس كثافة أجسام الانس والوجه فى
رؤية الجن بعضهم بعضا ان الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضا ولو جعل فى
أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها الله وحكى الواحدى وابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله
عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بنى آدم
مساكن لهم الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذى يوسوس فى صدور الناس فهم يرون بنى آدم و بنو آدم
لا يرونهم وقال مجاهد قال ابليس جعل لنا أربعة نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وقال
مالك بن دينار رحمه الله تعالى ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصمه الله تعالى (انا جعلنا الشياطين
أولياء) يعنى أعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) قال الزجاج يعنى سلطناهم عليهم يزيدون فى غيهم ۞ قوله
عزوجل (واذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد هى طوافهم بالبيت عراة الرجال
والنساء وقال عطاء هى الشرك والفاحشة اسم لكل فعل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصى والكبائر فيمكن
حملها على الاطلاق وان كان السبب مخصوصا بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الافعال التى كان
أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهى فى نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها
فاحتجوا عن هذه الافعال بما أخبر الله عنهم وهو ۞ قوله تعالى (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها)
فذكروا لانفسهم عذرين أحدهما محض التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد
باطل لانه أصل له والعذر الثانى قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضا باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله
(قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) والمعنى ان هذه الافعال التى كان أهل الجاهلية يفعلونها هى فى أنفسها قبيحة
منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها والله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى ردا عليهم
(أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعنى أنكم ما سمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا أخذتموه عن
الانبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى و بين عباده فى تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لانكم تنكرون نبوة
الانبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون ۞ قوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين
يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربى بالقسط يعنى بالعدل وهذا قول مجاهد والسدى وقال ابن عباس رضى
الله عنهما بلا اله الا الله فالامر بالقسط فى هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وانه
واحد لا شريك له (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فان قلت قل أمر ربى بالقسط خبر وقوله وأقيموا
وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الامر على الخبر لا يجوز فما معناه قلت فيه اضمار وحذف تقديره قل أمر
ربى بالقسط وقال وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد فحذف قال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية فى قول مجاهد
والسدى وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة الى الكعبة وقال الضحاك معناه اذا حضرت الصلاة وأنتم
عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلى فى مسجدى أو فى مسجد قومى وقيل معناه اجعلوا سجودكم
لله خالصا (وادعوه مخلصين له الدين) أى واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عزوجل لا لغيره
(كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله عزوجل بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا
كما قال تعالى هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا
وحجة هذا القول قوله فى سياق الآية فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة فانه كالتفسير له و يدل على صحة
ذلك ما روى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات
عليه أخرجه مسلم زاد البغوى فى روايته المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقال محمد بن كعب من ابتدأ
الله خلقه على الشقاوة صار الى ما ابتدئ عليه خلقه وان عمل بأعمال أهل السعادة كما ان ابليس كان يعمل
بعمل أهل السعادة ثم صار الى الشقاوة ومن ابتدئ خلقه على السعادة صار اليها وان عمل بعمل أهل

(انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) فيه دلالة خلق الافعال (واذا فعلوا فاحشة) ما يبالغ فى قبحه من الذنوب وهو طوافهم بالبيت عراة وشركهم (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أى اذا فعلوها اعتذروا بان آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم و بان الله أمرهم بان يفعلوها حيث أقرنا عليها اذ لو كرهها لنقلنا عنها وهما باطلان لان أحدهما تقليد للجهال والثانى افتراء على ذى الجلال (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) اذ المأمور به لا بد أن يكون حسنا وان كان فيه على مراتب على ما عرف فى أصول الفقه (أتقولون على الله ما لا تعلمون) استفهام انكار وتوبيخ (قل أمر ربى بالقسط) بالعدل و بما هو أحسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وقيل أقيموا وجوهكم أى اقصدوا عبادته مستقيمين اليها غير عادلين الى غيرها فى كل وقت سجود أو فى كل مكان سجود (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تعودون) كما أنشأكم

الشقاوة كما ان السحرة كانوا يعملون بعمل أهل الشقاوة ثم صاروا الى السعادة و يصحح هذا القول ماروى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد فى معنى الآية كما بدأكم خلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيأ فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة و يشهد لصحة هذا القول ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين أخرجه البخارى ومسلم ﴿ وقوله تعالى (فريقا هدى) يعنى هداهم الله الى الايمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته (وفريقا حق عليهم الضلالة) يعنى وخذل فريقا حتى وجبت عليهم الضلالة لسابقة التى سبقت لهم فى الازل بانهم أشقياء وفيه دليل على ان الهدى والضلالة من الله عز وجل ولما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق خلقه فى ظلمة فالقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل أخرجه الترمذى ﴿ وقوله تعالى (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) يعنى ان الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعوانا أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى والمعنى ان الداعى الذى دعاهم الى الكفر والمعاصى هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لان الشياطين لا يقدرون على اضلال أحد وقوله (ويحسبون انهم مهتدون) يعنى أنهم مع ضلالتهم يظنون و يحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على ان الكافر الذى يظن انه فى دينه على الحق والجاحد والمعاند فى الكفر سواء ﴿ قوله عز وجل (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة فتقول من يعيرنى تطوافا تجعله على فرجها وهى تقول

اليوم يبدو بعضه أوكله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية خذوا زينتكم عند كل مسجد أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وذكر الحديث زاد فى رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى ان يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا وقال مجاهد كان حى من أهل اليمن كان أحدهم اذا قدم حاجا أو معتمرا يقول لا ينبغى لى ان أطوف فى ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرنى مئزرا فان قدر عليه والا طاف عريانا فأنزل الله تعالى فيه ماتسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد وقال الزهرى ان العرب كانت تطوف بالبيت عراة الا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف فى ثوب أحمسى و يرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فان لم يجد من يعيره من الحمس فانه يلقى ثيابه و يطوف عريانا وان طاف فى ثياب نفسه ألقاها اذا قضى طوافه وحرمها أى جعلها حراما عليه فلذلك قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد والمراد من الزينة لبس الثياب التى تستر العورة قال مجاهد مايوارى عوراتكم ولو عباءة وقال الكلبى الزينة مايوارى العورة عند كل مسجد كطواف وصلاة وقوله تعالى خذوا زينتكم أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على ان ستر العورة واجب فى الصلاة والطواف وفى كل حال ﴿ وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) قال الكلبى كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم الاقوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعنى الدسم واللحم (ولا تسرفوا) يعنى بتحريم مالم يحرمه الله من أكل اللحم والدسم قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله فى

ابتداء يعيدكم احتج عليهم فى انكارهم الاعادة بابتداء الخلق والمعنى انه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فاخلصوا له العبادة (فريقا هدى) وهم المسلمون (وفريقا) أى أضل فريقا (حق عليهم الضلالة) وهم الكافرون (انهم) ان الفريق الذين حق عليهم الضلالة (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) أى أنصارا (ويحسبون انهم مهتدون) والآية حجة لنا على أهل الاعتزال فى الهداية والاضلال (يابنى آدم خذوا زينتكم) لباس زينتكم (عند كل مسجد) كلما صليتم وقيل الزينة المشط والطيب والسنة ان يأخذ الرجل أحسن هيآته للصلاة لان الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر (وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا ولا تسرفوا) بالشروع فى الحرام أوفى مجاوزة الشبع

(انه لا يحب المسرفين) وعن ابن عباس رضى الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وكان للرشيد طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد ليس فى كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان علم الابدان وعلم الاديان فقال له على قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه وهو قوله وكلوا واشربوا (٨٩) ولا تسرفوا فقال النصرانى ولم يرو

فى نصف آية فقال وكلوا واشربوا ولا تسرفوا وفى الآية دليل على ان جميع المطعومات والمشروبات حلال الا ما خصه الشرع بدليل فى التحريم لان الاصل فى جميع الاشياء الاباحة الا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل (انه لا يحب المسرفين) يعنى ان الله تعالى لا يحب من أسرف فى المأكول والمشروب والملبوس وفى هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الاشياء لان محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وايصال الثواب اليه واذا لم يحبه علم انه تعالى ليس هو راض عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد فى الاسراف ﴿ قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التى خلقها لعباده ان تتزينوا بها وتلبسوها فى الطواف وغيره ثم فى تفسير الزينة قولان أحدهما وهو قول جمهور المفسرين ان المراد من الزينة هنا اللباس الذى يستر العورة والقول الثانى ذكره الامام فخر الدين الرازى انه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلى ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا فى هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء (والطيبات من الرزق) يعنى ومن حرم الطيبات من الرزق التى أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا فى معنى الطيبات فى هذه الآية أقوالا أحدها ان المراد بالطيبات اللحم والدسم الذى كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج يعظمون بذلك حجهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثانى وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقتادة ان المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب قال ابن عباس رضى الله عنهما ان أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الرزق وغيرها وهو قول الله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثالث ان الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات الا ما نهى عنه وورد نص بتحريمه (قل هى للذين آمنوا) يعنى قل يا محمد ان الطيبات التى أخرج الله من رزقه للذين آمنوا (فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لانه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) يعنى لا يشركهم فيها أحد لانه لا حظ للمشركين يوم القيامة فى الطيبات من الرزق وقيل معناه خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لانه قد يقع لهم فى الحياة الدنيا فى تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم أنها خالصة لهم فى الآخرة من ذلك كله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا انى أنا الله وحدى لا شريك لى فأحلوا حلالى وحرموا حرامى ﴿ قوله عز وجل (قل انما حرم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ما قبح وفحش من قول أو فعل والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم ان الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وانما حرم ربى الفواحش من الافعال والاقوال (ما ظهر منها وما بطن) يعنى علانيته وسره (ق) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه المدح من الله من اجل ذلك مدح نفسه أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الانسان ومنه غيرة أحد الزوجين

عن رسولكم شئ فى الطب فقال قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة وهى قوله عليه السلام المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته فقال النصرانى ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا ثم استفهم انكارا على محرم الحلال بقوله (قل من حرم زينة الله) من الثياب وكل ما يتجمل به (التى أخرج لعباده) أى أصلها يعنى القطن من الارض والقز من الدود (والطيبات من الرزق) والمستلذات من المآكل والمشارب وقيل كانوا اذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لان المشركين شركاؤهم فيها (خالصة يوم القيامة) لا يشركهم فيها أحد ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم لينبه على انها خلقت للذين آمنوا على طريق الاصالة والكفار تبع لهم خالصة بالرفع نافع فهى مبتدأ خبره للذين آمنوا وفى الحياة الدنيا ظرف للخبر أو خالصة خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أى هى خالصة وغيره نصبها على الحال من الضمير الذى فى الظرف الذى هو الخبر أى هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها يوم القيامة (كذلك نفصل الآيات) نميز الحلال من الحرام (لقوم يعلمون) أنه لا شريك له (قل انما حرم ربى الفواحش) ربى حمزة الفواحش ما تفاحش قبحه أى تزايد (ما ظهر منها وما بطن)

على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بصاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه فلذلك يذب عنه ويمنعه من غيره وأما الغيرة في وصف الله تعالى فهو منعه من ذلك وتحريمه له ويدل على ذلك قوله ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم ۞ وقوله تعالى (والاثم) يعني وحرم الاثم واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والاثم فقيل الفواحش الكبائر لانه قد تفاحش قبحها وتزايد والاثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية قل انما حرم ربي الكبائر والصغائر وقيل الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والاثم اسم لما لا يجب فيه الحد وهذا القول قريب من الاول واعترض على هذين القولين بان الاثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل ان الفاحشة اسم للكبيرة والاثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أو صغيرا والفائدة فيه أن يقال لما حرم الله الكبيرة بقوله قل انما حرم ربي الفواحش أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل ان الفاحشة وان كانت بحسب اللغة اسما لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه قد صار في العرف مخصوصا بالزنا لانه اذا أطلق لفظ الفاحشة لم يفهم منه الا ذاك فوجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الاثم فقد قيل انه اسم من أسماء الخمر وهو قول الحسن وعطاء قال الجوهري قد تسمى الخمر اثما واستدل عليه بقول الشاعر

شربت الاثم حتى ضل عقلي * كذاك الاثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم وعندي أن تسمية الخمر بالاثم صحيح لان شربها اثم وبهذا المعنى يظهر الفرق بين اللفظين وأنكر أبو بكر بن الانباري تسمية الخمر بالاثم قال لان العرب ما سمته اثما قط في جاهلية ولا في اسلام ولكن قد يكون الخمر داخلا تحت الاثم لقوله قل فيهما اثم كبير ۞ وقوله تعالى (والبغي) أي وحرم البغي (بغير الحق) والبغي هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد في ذلك كله ومعنى البغي بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له بحق فاذا طلب ماله بحق خرج من أن يكون بغيا (وأن تشركوا) أي وحرم أن تشركوا (بالله ما لم ينزل به سلطانا) هذا فيه تهكم بالمشركين والكفار لانه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهانا بان يشرك به غيره لان الاقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهان ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلا على الاطلاق * فان قلت البغي والاشراك داخلان تحت الفاحشة والاثم لان الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الاثم وكذا البغي أيضا من الفواحش والاثم * قلت انما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما كأنه قال من الفواحش المحرمة البغي والشرك فكأنه بين جملته ثم تفصيله ۞ وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) تقدم تفسيره ۞ قوله تعالى (ولكل أمة أجل) الاجل الوقت المؤقت لانقضاء وقت المهلة ثم في هذا الاجل المذكور في الآية قولان أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى ان لكل أمة كذبت رسلها وقتا معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله الى ذلك الوقت (فاذا جاء أجلهم) يعني فاذا حل وقت عذابهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعني فلا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وانما ذكرت الساعة لانها أقل أسماء الاوقات في العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتا اذا جاء ذلك الوقت وهو وقت اهلاكهم واستئصالهم فلا يؤخرون عنه ساعة ولا يستقدمون والقول الثاني أن المراد بهذا الاجل هو أجل الحياة والعمر فاذا انقضى ذلك الاجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يتقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وانما قال تعالى لكل أمة لتقارب أعمار أهل كل عصر فكأنهم كالواحد في مقدار العمر وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول ميتا بأجله خلافا لمن يقول القاتل قطع عليه أجله ۞ قوله عز وجل (يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم) هي ان الشرطية ضمت اليها ما مؤكدة لمعنى الشرط

سرها وعلانيتها (والاثم) أي شرب الخمر أو كل ذنب (والبغي) والظلم والكبر (بغير الحق) متعلق بالبغي ومحل (وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) حجة النصب كأنه قال حرم الفواحش وحرم الشرك ينزل بالتخفيف مكي وبصري وفيه تهكم اذ لا يجوز أن ينزل برهانا على أن يشرك به غيره (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وأن تتقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره (ولكل أمة أجل) وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال ان لم يؤمنوا وهو وعيد لاهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالامم (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) قيد بساعة لانها أقل ما يستعمل في الامهال (يا بني آدم اما يأتينكم) هي ان الشرطية ضمت اليها ما مؤكدة لمعنى الشرط لان ما للشرط ولذا لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة (رسل منكم

وجزاء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعنى منكم وانما قال رسل بلفظ الجمع وان كان المراد به واحدا وهو النبى صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء وهو مرسل الى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله يابنى آدم لاهل مكة ومن يلحق بهم وقيل أراد جميع الرسل وعلى هذا فالخطاب فى قوله يابنى آدم عام فى كل بنى آدم وانما قال منكم يعنى من جنسكم ومثلكم من بنى آدم لان الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لانهم يعرفونه و يعرفون أحواله فاذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له وحجة على من خالفه (يقصون عليكم آياتى) يعنى يقرؤن عليكم كتابى وأدلة أحكامى وشرائعى التى شرعت لعبادى (فمن اتقى) يعنى فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلى (وأصلح) يعنى العمل الذى أمرته به رسلى فعمل بطاعتى وتجنب معصيتى وما نهيته عنه (فلا خوف عليهم) يعنى حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) يعنى على ما فاتهم من دنياهم التى تركوها (والذين كذبوا بآياتنا) يعنى ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا (واستكبروا عنها) يعنى واستكبروا عن الايمان بها وما جاءت به رسلنا (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى لا يخرجون منها أبدا ﴿ قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعنى فمن أعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكا من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد (أو كذب بآياته) يعنى أو كذب بالقرآن الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعنى ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب فى اللوح المحفوظ واختلفوا فى ذلك النصيب على قولين أحدهما أن المراد به هو العذاب المعين لهم فى الكتاب ثم اختلفوا فيه فقال الحسن والسدى ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون وقال ابن عباس فى رواية عنه كتب لمن يفترى على الله كذبا ان وجهه أسود وقال الزجاج هو المذكور فى قوله فأنذرتكم نارا تلظى وفى قوله اذ الاغلال فى أعناقهم فهذه الاشياء هى نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم فى كفرهم والقول الثانى أن المراد بالنصيب المذكور فى الكتاب هو شئ سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية فى قوله ينالهم نصيبهم من الكتاب قالوا هو السعادة والشقاوة وقال ابن عباس ما كتب عليهم من الاعمال وقال فى رواية أخرى عنه من عمل خيرا جوزى به ومن عمل شرا جوزى به وقال قتادة جزاء أعمالهم التى عملوها وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا فى الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا وقال الربيع بن أنس ينالهم ما كتب لهم فى الكتاب من الرزق وقال محمد بن كعب القرظى عمله ورزقه وعمره وقال ابن زيد ينالهم نصيبهم من الكتاب من الاعمال والارزاق والاعمار فاذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم وصحح الطبرى هذا القول الآخر وقال لان الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فابان ان الذى ينالهم هو ما قدر لهم فى الدنيا فاذا فرغ توفتهم رسل ربهم قال الامام فخر الدين رحمه الله تعالى وانما حصل الاختلاف لان لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه وقال بعض المحققين حمله على العمر والرزق أولى لانه تعالى بين أنهم وان بلغوا فى الكفر ذلك المبلغ العظيم فانه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلا من الله سبحانه وتعالى لكى يصطلحوا أو يتوبوا ﴿ قوله تعالى (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) يعنى حتى اذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعنى ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لان لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى (قالوا) يعنى قال الرسل وهم الملائكة للكفار (أينما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون فى الآخرة والمعنى حتى

يقصون عليكم آياتى) يقرؤن عليكم كتبى وهو فى موضع رفع صفة لرسل وجواب الشرط (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أصلا فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا) منكم (بآياتنا واستكبروا عنها) تعظموا عن الايمان بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فمن أظلم) فمن أشنع ظلما (ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) ما كتب لهم من الارزاق والاعمار (حتى اذا جاءتهم رسلنا) ملك الموت وأعوانه وحتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له وهى حتى التى يبتدأ بعدها الكلام والكلام هنا الجملة الشرطية وهى اذا جاءتهم رسلنا (يتوفونهم) يقبضون أرواحهم وهو حال من الرسل أى متوفيهم وما فى (قالوا أينما كنتم تدعون) فى خط المصحف موصولة بأين وحقها أن تكتب مفصولة لانها موصولة والمعنى أين الآلهة الذين تعبدون (من دون الله) ليذبوا عنكم

(قالوا ضلوا عنا) غابوا عنا فلا نراهم (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق
الخبر (قال ادخلوا) أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار ادخلوا (في أمم) في موضع الحال أي

اذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله (قالوا) يعني الكفار مجيبين للرسل (ضلوا عنا) يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك ۞ قوله عز وجل (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس) يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكا من خلقه ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد خلت يعني قد مضت وسلفت وانما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لانه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم من الجن والانس (في النار) أي ادخلوا جميعا في النار التي هي مستقركم ومأواكم وانما عنى بالامم الجماعات والاحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والانس (كلما دخلت أمة) يعني كلما دخلت جماعة النار (لعنت أختها) يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب قال السدي كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الاولى (حتى اذا اداركوا) يعني تداركوا وتلاحقوا (فيها جميعا) يعني تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعا وأدرك بعضهم بعضا واستقروا في النار (قالت أخراهم لأولاهم) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني قال آخر كل أمة لاولها وقال السدي قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقال مقاتل يعني قال آخرهم دخولا النار وهم الاتباع لاولهم دخولا وهم القادة لان القادة يدخلون النار أولا (ربنا هؤلاء أضلونا) يعني تقول الاتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزين لنا طاعة الشيطان وقيل انما قال المتأخرون ذلك لانهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من أسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لانا اتبعنا سبيلهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) أي أضعف عليهم العذاب قال أبو عبيدة الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة قال الازهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره الى موضوع كلام العرب الضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لان الضعف في الاصل زيادة غير محصورة وأولى الاشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية فآتهم عذابا ضعفا أي مضاعفا لان الضعف في كلام العرب على ضربين * أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته (قال) يعني قال الله تعالى (لكل ضعف) يعني لاولاكم ضعف ولاخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لانهم قد دخلوا في الكفر جميعا (ولكن لا تعلمون) يعني ما أعد الله لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر (وقالت أولاهم) يعني في الكفر وهم القادة (لاخراهم) يعني الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لاخراها الذين جاؤا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا اياه وجاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم (فذوقوا العذاب)

كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم (قد خلت) مضت (من قبلكم من الجن والانس) من كفار الجن والانس (في النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) النار (لعنت أختها) شكلها في الدين أي التي ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا فيها) أصله تداركوا أي تلاحقوا واجتمعوا في النار فابدلت التاء دالا وسكنت للادغام ثم أدخلت همزة الوصل (جميعا) حال (قالت أخراهم) منزلة وهي الاتباع والسفلة (لاولاهم) منزلة وهي القادة والرؤس ومعنى لاولاهم لاجل أولاهم لان خطابهم مع الله لا معهم (ربنا) يا ربنا (هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا) مضاعفا (من النار قال لكل ضعف) للقادة بالغواية والاغواء وللاتباع بالكفر والاقتداء (ولكن لا تعلمون) ما لكل فريق منكم من العذاب لا يعلمون أبو بكر أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق (وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة لكل ضعف أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب

وهذا

وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والامة الاولى للاخرى التى بعدها و يحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعنى يقول الله للجميع فذوقوا العذاب (بما كنتم تكسبون) يعنى بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والاعمال الخبيثة ﴿ قوله عزوجل (ان الذين كذبوا بآياتنا) يعنى كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا (واستكبروا عنها) أى وتكبروا عن الايمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبرا (لاتفتح لهم أبواب السماء) يعنى لاتفتح لارواحهم اذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم الى الله عزوجل فى وقت حياتهم قول ولا عمل لان أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وانما يصعد الى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفتح أبواب السماء لارواح الكفار وتفتح لارواح المؤمنين وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا قال لا يصعد لهم قول ولا عمل وقال ابن جريج لاتفتح أبواب السماء لاعمالهم ولا لارواحهم وروى الطبرى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وانه يصعد بها الى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان باقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها الى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقيل فى معنى الآية لاتنزل عليهم البركة والخير لان ذلك لا ينزل الا من السماء فاذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شئ ﴿ وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) الولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الابل وسم الخياط ثقب الابرة قال الفراء الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الابرة فى هذه الآية وانما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لانه أكبر من سائر الحيوانات جسما عند العرب قال الشاعر * جسم الجمال وأحلام العصافير * وصف من هجاه بهذا بعظم الجسم مع صغر العقل فجسم الجمل من أعظم الاجسام وثقب الابرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الابرة الضيق محالا فكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالا ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار ان دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعا وقال بعض أهل المعانى لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل فى سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لان العرب اذا علقت ما يجوز كونه بما لا يجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب و يبيض القار ومنه قول الشاعر

اذا شاب الغراب أتيت أهلى * وصار القار كاللبن الحليب

﴿ قوله تعالى (وكذلك نجزى المجرمين) أى ومثل الذى وصفنا نجزى المجرمين يعنى الكافرين لانه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين الله عزوجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا بين انهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) يعنى لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد المتمهد الذى يقعد عليه و يضطجع عليه كالفراش والبساط (ومن فوقهم غواش) جمع غاشية وهى الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية ان النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم قال محمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى المهاد الفراش والغواشى اللحف (وكذلك نجزى الظالمين) يعنى وكذلك نكافئ ونجازى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها ﴿ قوله عزوجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها) لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم فى الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فى الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله اليه وتنزيله عليه

(بما كنتم تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة ولا وقف على فضل أو من قول الله لهم جميعا والوقف على فضل (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء) أى لا يؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة اذ هى فى السماء أولا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة أولا تصعد أرواحهم اذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين الى السماء وبالتاء مع التخفيف أبو عمرو وبالياء معه حمزة وعلى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) حتى يدخل البعير فى ثقب الابرة أى لا يدخلون الجنة أبدا لانه علقه بما لا يكون والخياط والمخيط ما يخاط به وهو الابرة (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذى وصفنا (نجزى المجرمين) أى الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها (لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم غواش) أغطية جمع غاشية (وكذلك نجزى الظالمين) أنفسهم بالكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها) طاقتها والتكليف الزام ما فيه كلفة

أى مشقة (أولئك) مبتدأ والخبر (أصحاب الجنة) والجملة خبر الذين ولا نكلف نفسا الا وسعها اعتراض بين المبتدأ والخبر (هم فيها خالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل) حقد كان بينهم فى الدنيا فلم يبق بينهم الا التواد والتعاطف وعن على رضى الله عنه انى لارجوان أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (تجرى من تحتهم الانهار) حال من هم فى صدورهم والعامل فيها معنى الاضافة (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) لما هو وسيلة الى هذا الفوز العظيم وهو الايمان (وما كنا) ما كنا بغير واو شامى على أنها جملة موضحة للاولى (لنهتدى لولا أن هدانا الله) اللام لتوكيد النفى أى وما كان يصح ان نكون مهتدين لولا هداية الله وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فكان لطفا لنا وتنبيها على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك مسرورا بما نالوا واظهارا لما اعتقدوا (ونودوا أن تلكم

من شرائع دينه وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه فى ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفسا الا وسعها يعنى لا نكلف نفسا الا ما يسعها من الاعمال وما يسهل عليها ويدخل فى طوقها وقدرتها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق قال الزجاج الوسع ما يقدر عليه وقال مجاهد معناه الا ما افترض عليها يعنى الذى افترض عليها من وسعها الذى تقدر عليه ولا تعجز عنه وقد غلط من قال ان الوسع بذل المجهود وقال أكثر أصحاب المعانى ان قوله تعالى لا نكلف نفسا الا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا نكلف نفسا الا وسعها وانما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لانه من جنس هذا الكلام لانه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكران ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على ان الجنة مع عظم قدرها ومحلها يتوصل اليها بالعمل الصالح السهل من غير تحمل كلفة ولا مشقة صعبة وقال قوم من أصحاب المعانى هو من تمام الخبر وموضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفسا منهم الا وسعها فحذف العائد للعلم به ۞ قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) يعنى وقلعنا وأخرجنا ما فى صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الاحقاد التى كانت لبعضهم على بعض فى الدنيا فجعلناهم اخوانا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضا على شئ خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع واسقاط الوساوس ودفعها عن ان ترد على القلب روى عن على رضى الله عنه قال فينا والله أهل بدر نزلت ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين وروى عنه أيضا انه قال انى لارجو ان أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ونزعنا ما فى صدورهم من غل وقيل ان الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن الله لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لاحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا وقال السدى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا سيقوا الى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من احداهما فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الاخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يشحنوا بعدها أبدا وقيل ان درجات أهل الجنة متفاوتة فى العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض وأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الانسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محبوس عنها لا يصل اليها ولا يميل بطبعه اليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها وان كان فى لذة ونعيم وأجيب عن هذا بان الله تعالى قد وعد بازالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة حتى تكمل لهم اللذة والسرور حتى ان أحدهم لا يرى نفسه الا فى كمال وزيادة فى النعيم الذى هو فيه فيرضى بما هو فيه ولا يحسد أحدا أبدا وبهذا تم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته ۞ وقوله تعالى (تجرى من تحتهم الانهار) لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من ازالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبر بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) يعنى ان المؤمنين اذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذى وفقنا وأرشدنا للعمل الذى هذا ثوابه وتفضل علينا به رحمة منه واحسانا وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) يعنى وما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله اليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفى الآية دليل على ان المهتدى من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) يعنى ان أهل النعيم اذا دخلوها ورأوا ما أعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعنى انهم رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا (ونودوا أن تلكم

الجنة) ان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف والجملة بعدها خبرها تقديره ونودوا بانه تلكم الجنة والهاء ضمير الشأن أو بمعنى أى كانه قيل وقيل لهم تلكم الجنة (أورثتموها) أعطيتموها وهو حال من الجنة والعامل فيها ما فى تلك من معنى الاشارة (بما كنتم تعملون) سماها ميراثا لانها لا تستحق بالعمل بل هى محض فضل الله ووعده على الطاعات كالميراث من الميت

ليس بعوض عن شئ بل هو صلة خاصة وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله ان المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحا عليه السلام وأهل الجنة والنار وابليس لانه قال الله تعالى يضل من يشاء ويهدى من يشاء وقال نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وقال أهل الجنة وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وقال أهل النار لو هدانا الله لهديناكم وقال ابليس فبما أغويتنى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا) أن مخففة من الثقيلة أو مفسرة وكذلك أن لعنة الله على الظالمين (ما وعدنا ربنا) من الثواب (حقا) حال (فهل وجدتم ما وعد ربكم) من العذاب (حقا) وتقديره وعدكم ربكم فحذف كم لدلالة وعدنا ربنا عليه وانما قالوا لهم ذلك شماتة باصحاب النار واعترافا بنعم الله تعالى (قالوا نعم) وبكسر العين حيث كان على (فأذن مؤذن بينهم) نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة

الجنة) يعنى ونادى مناد يا أهل الجنة ان هذه الجنة التى كانت الرسل وعدتكم بها فى الدنيا واختلفوا فى المنادى فقيل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بامر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون فى الجنة (م) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون وقوله تعالى (أورثتموها بما كنتم تعملون) روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد الا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار فاما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة زاد فى رواية فذلك قوله تعالى أورثتموها بما كنتم تعملون قال بعضهم لما سمى الله الكافر ميتا بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حيا بقوله لينذر من كان حيا وفى الشرع ان الاحياء يرثون الاموات فقال أورثتموها يعنى ان المؤمن حى وهو يرث الكافر منزله من الجنة لانه فى حكم الميت وقيل معناه ان أمرهم يؤل الى الجنة كما ان الميراث يؤل الى الوارث وقيل أورثتموها عن الاعمال الصالحة التى عملتموها لان الجنة جعلت لهم جزاء وثوابا على الاعمال ولا يعارض هذا القول ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة أحد بعمله وانما يدخلها برحمة الله فان دخول الجنة برحمة الله وانقسام المنازل والدرجات بالاعمال وقيل ان العمل الصالح لن يناله المؤمن وان يبلغه الا برحمة الله تعالى وتوفيقه واذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة فى الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التى عملوها فى دار الدنيا والله أعلم ۞ قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) يعنى ونادى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار تقول أهل الجنة يا أهل النار (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) يعنى ما وعدنا فى الدنيا على ألسنة رسله من الثواب على الايمان به وبرسله وطاعته حقا (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) يعنى من العذاب على الكفر (قالوا نعم) يعنى قال أهل النار مجيبين لاهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا فان قلت هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض قلت ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع اذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا فان قلت اذا كانت الجنة فى السماء والنار فى الارض فكيف يمكن ان يبلغ هذا النداء أو كيف يصح ان يقع قلت ان الله تعالى قادر على أن يقوى الاصوات والاسماع فيصير البعيد كالقريب ۞ وقوله تعالى (فاذن مؤذن بينهم) يعنى نادى مناد وأعلم لان أصل الاذان فى اللغة الاعلام والمعنى نادى مناد أسمع الفريقين وهذا المنادى من الملائكة وقيل انه اسرافيل صاحب الصور ذكره الواحدى (أن لعنة الله على الظالمين) يعنى يقول المؤذن ان لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) يعنى الذين يمنعون الناس عن الدخول فى دين الاسلام (ويبغونها عوجا) يعنى ويحاولون ان يغيروا دين الله وطريقته التى شرع لعباده ويبدلونها وقيل معناه انهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك انهم طلبوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فاخطؤا الطريق وضلوا عن السبيل (وهم بالآخرة كافرون) يعنى وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها ۞ قوله عز وجل (وبينهما حجاب) يعنى بين

والنار (أن لعنة الله على الظالمين) أن لعنة مكى وشامى وحمزة وعلى (الذين يصدون) يمنعون (عن سبيل الله) دينه (ويبغونها عوجا) مفعول ثان ليبغون أى ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالدار الآخرة (كافرون وبينهما) وبين الجنة والنار أو بين الفريقين (حجاب) وهو السور المذكور فى قوله فضرب بينهم بسور

الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب قال مجاهد الاعراف حجاب بين الجنة والنار وقال السدي وبينهما حجاب هو السور وهو الاعراف وقوله (وعلى الاعراف رجال) الاعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ماسواه من الجسد سمي بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض وقال السدي انما سمي الاعراف لان أصحابه يعرفون الناس وقال ابن عباس رضي الله عنهما الاعراف الشيء المشرف وعنه قال الاعراف سور كعرف الديك وعنه ان الاعراف جبل بين الجنة والنار يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله عنهم انهم على الاعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروي عن حذيفة انه سئل عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله تعالى فيهم قال بعضهم انما جعلوا على الاعراف لانها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لانه ليس في الآخرة دار الا الجنة أو النار وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر بواحدة دخل النار وان الميزان يخفف ويثقل بمثقال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الاعراف فاذا نظروا الى أهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا نظروا الى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه اذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر واذا عمل سيئة لم تكتب له الا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته وقال ابن عباس رضي الله عنهما الاعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الاعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فهم بذلك المكان حتى اذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم الى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فالقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى اذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ماشئتم فيتمنون حتى اذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير في تفسيره وقال شرحبيل بن سعد أصحاب الاعراف قوم خرجوا في الغزو من غير اذن آبائهم ورواه الطبري بسنده الى يحيى بن غبل مولى لبني هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة زاد في رواية فهم آخر من يدخل الجنة وذكر ابن الجوزي أنهم قوم رضي آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم ورواه عن ابراهيم وذكر عن أبي صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم أولاد الزنا وقيل انهم الذين ماتوا في الفترة وفيه بعد لان آخر أمر أصحاب الاعراف الى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا في الفترة الله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل انهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالا وهذا القول يرجع معناه الى القول الذي قبله لانه داخل في حكمه فهذه الاقوال تدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة في الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وقال مجاهد أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل انهم أنبياء حكاه ابن الانباري وانما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزا لهم على سائر أهل القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار وقال أبو مجلز أصحاب الاعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعني

(وعلى الاعراف) على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك (رجال) من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولا في الجنة لاستواء حسناتهم وسيآتهم أومن لم يرض عنه أحد أبويه أو أطفال المشركين

يعرفون أهل الجنة وأهل النار وقيل لابى مجلز ان الله تعالى يقول وعلى الاعراف رجال وأنت تقول انهم ملائكة فقال ان الملائكة ذكور ليسوا باناث وضعف الطبرى قول أبى مجلز قال لان لفظ الرجال فى لسان العرب لا يطلق الا على الذكور من بنى آدم دون اناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الاقوال ان أصحاب الاعراف أفضل من أهل الجنة لانهم أعلى منهم منزلة وأفضل وقيل انما أجلسهم الله فى ذلك المكان العالى ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ۞ قوله عز وجل (يعرفون كلا بسيماهم) يعنى أن أصحاب الاعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على شئ وأصله من السمة قال ابن عباس رضى الله عنهما أصحاب الاعراف اذا رأوا أصحاب الجنة عرفوهم ببياض الوجوه واذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه فان قلنا ان أصحاب الاعراف من استوت حسناتهم وسيآتهم وهم دون أهل الجنة فى الدرجة كان وقوفهم على الاعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فاذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) يعنى نادى أصحاب الاعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم سلمتم من الآفات وحصل لكم الامن والسلامة واذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وان قلنا ان أصحاب الاعراف هم الاشراف والافاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الاعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم ينقلهم الله عز وجل الى الدرجات العلية فى الجنة ۞ وقوله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) يعنى فى دخول الجنة قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع فى قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم ۞ قوله تعالى (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) يعنى واذا صرفت أبصار أصحاب الاعراف تلقاء أصحاب النار يعنى وجاههم وحيالهم فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وما فيه من العذاب تضرعوا الى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم ۞ قوله تعالى (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) يعنى ونادى أصحاب الاعراف رجالا كانوا عظماء فى الدنيا وهم من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم) يعنى بسيما أهل النار (قالوا) يعنى أصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم فى النار (ما أغنى عنكم جمعكم) يعنى ما كنتم تجمعون من الاموال والعدد فى الدنيا (وما كنتم تستكبرون) يعنى وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبى ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لاولئك الكفار (أهؤلاء) لفظ استفهام يعنى أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) بالله (لا ينالهم الله برحمة) يعنى انكم حلفتم انهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) بفضلى ورحمتى (لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل ان أصحاب الاعراف اذا قالوا لاصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم أهل النار ان أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لاهل النار أهؤلاء يعنى أصحاب الاعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ۞ قوله عز وجل (ونادى

تهنئة منهم لاهل الجنة (لم يدخلوها) أى أصحاب الاعراف ولا محل له لانه استئناف كأن سائلا سأل عن أصحاب الاعراف فقيل لم يدخلوها (وهم يطمعون) فى دخولها أوله محل وهو صفة لرجال (واذا صرفت أبصارهم) أبصار أصحاب الاعراف وفيه ان صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا (تلقاء) ظرف أى ناحية (أصحاب النار) ورأوا ما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فاستعاذوا بالله وفزعوا الى رحمته أن لا يجعلهم معهم (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) من رؤس الكفرة (يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) المال أو كثرتكم واجتماعكم وما افية (وما كنتم تستكبرون) واستكباركم على الحق وعلى الناس ثم يقولون لهم (أهؤلاء) مبتدأ (الذين) خبر مبتدا مضمر تقديره هؤلاء هم الذين (أقسمتم) حلفتم فى الدنيا والمشار اليهم فقراء المؤمنين كصهيب وسلمان ونحوهما (لا ينالهم الله برحمة) جواب أقسمتم وهو داخل فى صلة الذين تقديره أقسمتم عليهم بان لا ينالهم الله برحمة أى لا يدخلهم الجنة يحتقرونهم لفقرهم فيقال لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) وذلك بعد ان نظروا الى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا (لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ونادى

أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما صار أصحاب الاعراف الى الجنة طمع أهل النار في الفرج فقالوا يا رب ان لنا قرابات من أهل الجنة فاذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون الى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة الى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم. فينادون أي أصحاب النار أصحاب الجنة باسمائهم فينادي الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفض علي من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون ان الله حرمهما على الكافرين ومعنى الآية ان أهل النار يستغيثون باهل الجنة اذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء باهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم في الدنيا من الكفر والمعاصي يقول أهل النار لاهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعني صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعني وأطعمونا مما رزقكم الله وسعوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم (ان الله حرمهما على الكافرين) وهذا الجواب يفيد الحرمان قال بعضهم لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الاكل والشرب عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا من طلب الاكل والشرب فاجيبوا بان الله حرمهما على الكافرين يعني طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه وأصل اللهو ما يشغل الانسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي اشتغلت عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما هم المستهزؤن وذلك انهم كانوا اذا دعوا الى الايمان سخروا ممن دعاهم اليه وهزؤا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه (وغرتهم الحياة الدنيا) يعني وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الايمان بالله ورسله وعن الاخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الانسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فاذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لانه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) يعني يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) يعني فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعا عطاشا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي قال ابن عباس رضي الله عنهما نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الايمان اعراض الناسي سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لان الله تعالى لا ينسى شيأ فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فيكون المراد من هذا النسيان ان الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلهم بل يتركهم في النار كما تركوا الايمان والعمل (وما كانوا بآياتنا يجحدون) يعني ونتركهم في النار كما كانوا بدلائل وحدانيتنا يكذبون ۞ قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب) يعني ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه على علم) أي بيناه على علم منا بتفصيله وتبيينه (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة لقوم يؤمنون (هل ينظرون) يعني هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها (الا تأويله) يعني هل ينظرون ويتوقعون الا ما وعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وان مصيرهم الى النار والتأويل ما يؤول اليه الشئ (يوم يأتي تأويله) يعني يوم القيامة لانه يوم الجزاء وما تؤول اليه أمورهم (يقول الذين نسوه من قبل) يعني يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب (قد جاءت رسل ربنا بالحق)

أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) ان مفسرة وفيه دليل على ان الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) من غيره من الاشربة لدخوله في حكم الافاضة أو أريد وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله

۞ علفتها تبنا وماء باردا ۞

أي وسقيتها وانما سألوا ذلك مع يأسهم عن الاجابة لان المتحير ينطق بما يفيد وبما لا يفيد (قالوا ان الله حرمهما على الكافرين) هو تحريم منع كما في وحرمنا عليه المراضع وتقف هنا ان رفعت أو نصبت ما بعده ذما وان جررته وصفا للكافرين فلا (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فحرموا وأحلوا ما شاؤا أو دينهم عيدهم (وغرتهم الحياة الدنيا) اغتروا بطول البقاء (فاليوم ننساهم) نتركهم في العذاب (كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) أي كنسيانهم وجحودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه (على علم) عالمين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من منصوب فصلناه كما ان على علم حال من مرفوعه (لقوم يؤمنون هل ينظرون) ينتظرون (الا تأويله) الا عاقبة أمره وما يؤول اليه من تبيين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل) تركوه وأعرضوا عنه (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي تبين وصح أنهم جاؤا بالحق فاقروا حين لا ينفعهم

أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والاقرار والمعنى ان الكفار أقروا بان الذى جاءت به الرسل من الايمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وانما أقروا بهذه الاشياء لانهم شاهدوها معاينة وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم فى العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) يعنى أنه ليس لنا طريق الى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيقبل شفاعته فينا فيخلصنا من هذا العذاب أو نرد الى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والايمان والمعاصى بالطاعة والانابة (قد خسروا أنفسهم) يعنى ان الذى طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم واهلاكهم أنفسهم لانهم كانوا فى الدنيا أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون فى الدنيا من ان الاصنام تشفع لهم فلما أفضوا الى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا أنهم كانوا فى دعواهم كاذبين

۞ قوله عزوجل (ان ربكم الله) يعنى ان سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات اليكم والذى يدفع عنكم المكاره هو الله (الذى خلق السموات والارض) أصل الخلق فى اللغة التقدير ويستعمل فى ابداع الشئ من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم فقوله خلق السموات والارض يعنى أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما (فى ستة أيام) فان قلت اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس الى غروبها فكيف قال فى ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه فى مقدار ستة أيام فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا يعنى على مقدار البكر والعشى فى الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار واختلف العلماء فى اليوم الذى ابتدأ الله عزوجل بخلق الاشياء فيه فقيل فى يوم السبت وهو قول محمد بن اسحق وغيره ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم فى افراده من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر الى الليل وهذا الحديث وان كان فى صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لان الله تعالى يقول خلق السموات والارض فى ستة أيام وقال فى آية أخرى ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام فدل بهذين النصين على ان جميع الخلق تم وكمل فى ستة أيام والذى فى الحديث ان بعض الخلق وقع فى سبعة أيام وذلك مجموع أيام الاسبوع فلهذا السبب أنكره من أنكره من العلماء وقد ذكر الازهرى فى كتابه تهذيب اللغة ما يقوى الحديث فقال وقال ابن الانبارى السبت القطع وسمى يوم السبت لان الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والارض وقيل ان ابتداء الخلق كان يوم الاحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الاحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبرى قال الطبرى خلق الله السموات والارض فى ستة أيام وذلك يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وروى بسنده عن مجاهد قال بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الارض من الماء وبدأ الخلق يوم الاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وجمع الخلق فى يوم الجمعة وتهودت اليهود فى يوم السبت ويوم من الستة الايام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال وسمى سابع الاسبوع سبتا لان ابتداء الخلق كان من يوم الاحد الى يوم الجمعة ولم يكن فى السبت خلق قال أصحاب الاخبار والسير والتواريخ ان الله تعالى خلق التربة التى هى الارض بلا دحو ولا بسط فى يوم الاحد والاثنين ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات فى يومين وهما الثلاثاء والاربعاء ثم دحا الارض وبسطها

(فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) جواب الاستفهام (أو نرد) جملة معطوفة على جملة قبلها داخلة معها فى حكم الاستفهام كأنه قيل فهل لنا من شفعاء أو هل نرد ورافعه وقوعه موقعا يصلح للاسم كقولك ابتداء هل يضرب زيد أو عطف على تقدير هل يشفع لنا شافع أو هل نرد (فنعمل) جواب الاستفهام أيضا (غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ما كانوا يعبدونه من الاصنام (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) أراد السموات والارض وما بينهما وقد فصلها فى حم السجدة أى من الاحد الى الجمعة لاعتبار الملائكة شيأ فشيأ وللاعلام بالتأنى فى الامور ولان لكل عمل يوما ولان انشاء شئ بعد شئ أدل على عالم مدبر مريد يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته

وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع مافيهافى يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم فى يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة وقيل خلق الله عزوجل التربة يوم الاحد ثم استوى الى السماء خلقها وجميع مافيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الارض ودحاها يوم الاربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما الى الارض فى آخر ساعة من يوم الجمعة وقيل أول ماخلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وماسيكون وماخلق وماهو خالق الى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات ومافيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الارض وبسطها من التربة التى خلقها أولا ثم خلق جميع مافيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط الى الارض فتكامل جميع الخلق فى ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل فى ستة أيام من أيام الدنيا فان قلت ان الله عزوجل قادر على أن يخلق جميع الخلق فى لحظة واحدة ومنه قوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر فما الفائدة فى خلق السموات والارض فى ستة أيام وما الحكمة فى ذلك قلت ان الله سبحانه وتعالى وان كان قادرا على خلق جميع الاشياء فى لحظة واحدة الا أنه تعالى جعل لكل شئ حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل فى الوجود الا فى ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأنى فى الامور وقال سعيد بن جبير كان الله عزوجل قادرا على خلق السموات والارض فى لمحة ولحظة فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الامور كما فى الحديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان وقيل ان الشئ اذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشئ انما وقع على سبيل الاتفاق فاذا أحدث شيأ بعد شئ على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ فى القدرة وأقوى فى الدلالة وقيل ان الله تعالى أراد أن يوقع فى كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده وقيل ان التعجيل فى الخلق أبلغ فى القدرة وأقوى فى الدلالة والتثبت أبلغ فى الحكمة فاراد الله تعالى اظهار حكمته فى خلق الاشياء بالتثبت كما أظهر قدرته فى خلق الاشياء بكن فيكون ۞ وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) العرش فى اللغة السرير وقيل هو ما علا فأظل وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه قال الراغب فى كتابه مفردات القرآن وعرش الله عزوجل مما لا يعلمه البشر الا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسى فلك الكواكب وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقى فى كتابه الاسماء والصفات روايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وقال أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم فى أمثال ذلك وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال ياأبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه قال فاطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فاخرج الرجل وفى رواية يحيى بن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال ياأبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه فاطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك الا مبتدعا فامر به أن يخرج وروى البيهقى بسنده عن ابن عيينة قال كل ماوصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه قال البيهقى والآثار عن السلف فى مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه واليه ذهب أحمد بن حنبل والحسن بن الفضل البجلى ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابى قال

(ثم استوى) استولى (على العرش) أضاف الاستيلاء الى العرش وان كان سبحانه وتعالى مستوليا على جميع المخلوقات لان العرش أعظمها وأعلاها وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل لانه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان لان التغيير من صفات الاكوان والمنقول عن الصادق والحسن وأبى حنيفة ومالك رضى الله عنهم ان الاستواء معلوم والتكييف فيه مجهول والايمان به واجب والجحود له كفر والسؤال عنه بدعة

البغوى أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم به الى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذى سأله عن الاستواء وقد تقدم وروى عن سفيان الثورى والاوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة اقرؤها كما جاءت بلا كيف وقال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية انه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الاول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى وهو الذى قررناه فى تفسير قوله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وهذا المذهب هو الذى نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثانى انا نخوض فى تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان الاول ماذكره القفال فقال العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه أى انتقض ملكه واذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذى قاله القفال حق وصواب ثم قال والله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم تنبيها على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفى التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة قال ويدل على صحة هذا قوله فى سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر الامر فقوله يدبر الامر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستويا على الملك قبل خلق السموات والارض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بان الله تعالى كان قبل خلق السموات والارض مالكها لكن لا يصح أن يقال شبع زيد الا بعد أكله الطعام فاذا فسر العرش بالملك صح أن يقال انه تعالى انما استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض والقول الثانى أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا القول انما خص العرش بالاخبار عنه بالاستيلاء عليه لانه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بان العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وانما يقال استولى فلان على كذا اذا لم يكن فى ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها ومستوليا عليها فاى تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ونقل البيهقى عن أبى الحسن الاشعرى أن الله تعالى فعل فى العرش فعلا سماه استواء كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقا ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء الا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى ثم استوى على العرش وثم للتراخى والتراخى انما يكون فى الافعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه اياها ولا حركة وحكى الاستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون فى المكان متمكنا فيه ولكن يريد معنى نفى التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقه الخبر ولا يتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقى رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوى عليه لا بالاستواء قال وقد أشار أبو الحسن الاشعرى الى هذه الطريقة حكاية فقال قال بعض أصحابنا انه صفة ذات قال وجوابى هو الاول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الاشياء بائن منها بمعنى أنه لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا وقد قال بعض أصحابنا أن الاستواء صفة لله تعالى تنفى الاعوجاج عنه وروى أن ابن الاعرابى جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله

تعالى الرحمن على العرش استوى قال انه مستوعلى عرشه كما أخبر فقال الرجل انما معنى قوله استوى أى استولى فقال له ابن الاعرابى مايدريك أن العرب لاتقول استولى فلان على الشئ حتى يكون له فيه مضاد فايهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لامضادله فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (يغشى الليل النهار) يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشى النهار الليل وانما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه (يطلبه حثيثا) يعنى سريعا وذلك أنه اذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه حكى الامام فخر الدين الرازى عن القفال انه قال ان الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان الى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات قال الامام واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لان تعاقب الليل والنهار انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان فى أشد عدوه بمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الاعظم ثلاثة آلاف ميل وهى ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثا لسرعة حركته (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الاشياء جارية فى مجاريها بأمره وقال المفسرون يعنى بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس هى قادرات بانفسهن وانما هن يتصرفن فى متصرفاتهن على ارادة المدبر لهن الحكيم فى تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالامر فى قوله بامره نفاذ ارادته لان الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الامر على الامر الذى هو الكلام وقال انه تعالى أمر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة الى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم فان قلت ان الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم قلت انما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الاشراق والنور وسيرهما فى المنازل لتعرف الاوقات فهو كقوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وان كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة ﴿ وقوله تعالى (ألا له الخلق والامر) يعنى له الخلق لانه خلقهم وله أن يامر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الامر هنا الذى هو نقيض النهى واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى ان كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر يعنى من جعل الامر الذى هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لان المخلوق لايقوم بمخلوق مثله وقيل معناه ان جميع ما فى العالم لله عز وجل والخلق له لانه خلقهم وجميع الامور تجرى بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشيها فلا يبقى بعد هذا لاحد شئ وقيل المراد بالامر هنا الارادة لان الغرض من الآية تعظيم القدرة وفى الآية دليل على انه لاخالق الا الله عز وجل ففيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب تاثيرات فى هذا العالم فاخبر الله انه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره والآمر والناهى الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لااعتراض لاحد من خلقه عليه (تبارك الله) يعنى تمجد وتعظم وارتفع وقال الزجاج تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله (رب العالمين) يعنى انه هو الذى يستحق التعظيم وذلك ان الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وذكر أشياء من تعظيم خلقه وان له الخلق والامر والنهى والقدرة عليهم ختم الاية بالثناء عليه لانه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه جاء بكل بركة وقيل تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة وقيل معناه باسمه يتبرك فى كل شئ وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت

(يغشى الليل النهار) يغشى حمزة وعلى وأبو بكر أى يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل (يطلبه حثيثا) حال من الليل أى سريعا والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار (والشمس والقمر والنجوم) أى وخلق الشمس والقمر والنجوم (مسخرات) حال أى مذللات والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى والشمس مبتدأ والبقية معطوف عليها والخبر مسخرات (بأمره) هو أمر تكوين ولما ذكر انه خلقهن مسخرات بأمره قال (ألا له الخلق والامر) أى هو الذى خلق الاشياء وله الامر (تبارك الله) كثر خيره أو دام بره من البركة النماء أو من البروك الثبات ومنه البركة (رب العالمين)

ودام كالم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لانه لم يرد به التوقيف ۞ قوله عز وجل (ادعوا ربكم) قيل معناه اعبدوا ربكم لان معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى وهذه صفة العبادة ولانه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه وقيل المراد به حقيقة الدعاء وهو الصحيح لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع العبادة لان الداعى لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعى فعند ذلك يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) يعنى ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل الذى فى النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع وقال الزجاج تضرعا يعنى تملقا وحقيقته ان ندعوه خاضعين خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى (وخفية) يعنى سرا فى أنفسكم وهو ضد العلانية والادب فى الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وان الله تعالى ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال تعالى اذ نادى ربه نداء خفيا (ق) عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم والذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته قال أبو موسى رضى الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فى نفسى فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم قوله صلى الله عليه وسلم اربعوا على أنفسكم يعنى ارفقوا بها واقصروا عن الصياح فى الدعاء ۞ وقوله تعالى (انه لا يحب المعتدين) يعنى فى الدعاء وقال أبو مجلز هم الذين يسألون منازل الانبياء عن عبد الله بن مغفل انه سمع ابنه يقول اللهم انى أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها قال أى بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون فى هذه الامة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء أخرجه أبو داود وقال ابن جريج الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء وقيل الاعتداء مجاوزة الحد فى كل شئ فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى انه لا يحب المعتدين وفرع بعض أرباب الطريقة على قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية هل الافضل اظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم الى ان اخفاء الطاعات والعبادات أفضل من اظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم الى ان اظهارها أفضل ليقتدى به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن على الحكيم الترمذى فقال ان كان خائفا على نفسه من الرياء فالاولى اخفاء العبادات صونا لعمله عن البطلان وان كان قد بلغ فى الصفاء وقوة اليقين الى التمكين بحيث صار مباينا لشائبة الرياء كان الاولى فى حقه الاظهار لتحصل فائدة الاقتداء به وذهب بعضهم الى أن اظهار العبادات المفروضات أفضل من اخفائها فالصلاة المكتوبة فى المسجد أفضل من صلاته فى بيته وصلاة النفل فى البيت أفضل من صلاته فى المسجد وكذا اظهار الزكاة أفضل من اخفائها واخفاء صدقة التطوع أفضل من اظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات ۞ قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) يعنى ولا تفسدوا أيها الناس فى الارض بالمعاصى والكفر والدعاء الى غير طاعة الله بعد اصلاح الله اياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء الى طاعة الله تعالى وهذا معنى قول الحسن والسدى والضحاك والكلبى وقال ابن عطية لا تعصوا فى الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون معنى قوله بعد اصلاحها يعنى بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وقيل معنى الآية ولا تفسدوا فى الارض شيأ

ادعوا ربكم تضرعا وخفية) نصب على الحال أى ذوى تضرع وخفية والتضرع تفعل من الضراعة وهى الذل أى تذللا وتملقا قال عليه السلام انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا انه معكم أينما كنتم عن الحسن بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفا (انه لا يحب المعتدين) المجاوزين ما أمروا به فى كل شئ من الدعاء وغيره وعن ابن جريج الرافعين أصواتهم بالدعاء وعنه الصياح فى الدعاء مكروه وبدعة وقيل هو الاسهاب فى الدعاء وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) أى بالمعصية بعد الطاعة أو بالشرك بعد التوحيد أو

بعد ان أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من اتلاف النفس بالقتل أو افسادها بقطع بعض الاعضاء وافساد الاموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بوجوه الحيل وافساد الاديان بالكفر واعتقاد البدع والاهواء المضلة وافساد الانساب بالاقدام على الزنا وافساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لان المصالح المعتبرة فى الدنيا هى هذه الخمسة فمنع الله من ادخال الفساد فى ماهيتها ۞ وقوله تعالى (وادعوه خوفا وطمعا) أصل الخوف انزعاج فى الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل له والمعنى وادعوه خوفا منه ومن عقابه وطمعا فيما عنده من جزيل ثوابه وقال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل معناه ادعوه خوفا من الرياء فى الذكر والدعاء وطمعا فى الاجابة فان قلت قال فى أول الآية ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشئ على نفسه فما فائدة ذلك قلت الفائدة فيه ان المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أى ليكن الدعاء مقرونا بالتضرع والاخبات وقوله وادعوه خوفا وطمعا ان فائدة الدعاء أحد هذين الامرين فكانت الآية الاولى فى بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم كلها ولا تطمعوا انكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وان اجتهدتم فيهما (ان رحمت الله) أصل الرحمة رقة تقتضى الاحسان الى المرحوم وتستعمل تارة فى الرقة المجردة عن الاحسان وتارة فى الاحسان المجرد عن الرقة واذا وصف بها البارى جل وعز فليس يراد بها الا الاحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الافضال والانعام على عباده وايصال الخير اليهم وقيل هى ارادة ايصال الخير والنعمة الى عباده فعلى القول الاول تكون الرحمة من صفات الافعال وعلى القول الثانى تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل ان تانيث الرحمة ليس بحقيقى وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لان الانسان فى كل ساعة من الساعات فى ادبار عن الدنيا واقبال على الآخرة واذا كان كذلك كان الموت أقرب اليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التى هى الثواب فى الآخرة الا الموت وهو قريب من الانسان قوله عز وجل (وهو الذى يرسل الرياح) هذا عطف على ماقبله والمعنى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض وهو الذى يرسل الرياح (بشرا) قرئ نشرا بالنون أراد جمع نشور وهى الريح الطيبة الهبوب التى تهب من كل ناحية وقيل هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها وقال الفراء النشر الريح الطيبة اللينة التى تنشئ السحاب وقال ابن الانبارى النشر المنتشرة الواسعة الهبوب وقيل النشر خلاف الطى فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت وقرئ بشرا بالباء جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهى الشرقية والدبور وهى الغربية والشمال وهى التى تهب من تحت القطب الشمالى والجنوب وهى القبلية وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان الرياح ثمان أربع منها عذاب وهى القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهى الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات (بين يدى رحمته) يعنى أمام المطر الذى هو رحمة وانما سماه رحمة لانه سبب لحياة الارض الميتة قال أبو بكر بن الانبارى رحمه الله تعالى اليدان تستعملهما العرب فى المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون فى الفتن بين يدى الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيها وتمثيلا بما اذا كانت يدا الانسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به ۞ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم فى الريح فلم يرجعوا اليه شيأ وبلغنى الذى سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتى حتى أدركت عمر وكنت فى مؤخر الناس فقلت يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالظلم بعد العدل (وادعوه خوفا وطمعا) حالان أى خائفين من الرد طامعين فى الاجابة أومن النيران وفى الجنان أومن الفراق وفى التلاق أومن غيب العاقبة وفى ظاهر الهداية أومن العدل وفى الفضل (ان رحمت الله قريب من المحسنين) ذكر قريب على تاويل الرحمة بالرحم أوالترحم أو لانه صفة موصوف محذوف أى شئ قريب أوعلى تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أولان تانيث الرحمة غير حقيقى أوللاضافة الى المذكر (وهو الذى يرسل الرياح) الريح مكى وحمزة وعلى (نشرا) حمزة وعلى مصدر نشر وانتصابه اما لان أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرا واما على الحال أى منشورات بشرا عاصم تخفيف بشرا جمع بشير لان الرياح تبشر بالمطر نشرا شامى تخفيف نشر كرسل ورسل وهو قراءة الباقين جمع نشور أى ناشرة للمطر (بين يدى رحمته) أى نعمته وهو الغيث الذى هو من

يقول الريح من روح الله تعالى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه الشافعى رضى الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود فى المسند عنه وقال كعب الاحبار لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لانتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) يقال أقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمى سحابا لانسحابه فى الهواء والمعنى حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا ثقالا بما فيه من الماء قال السدى ان الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتى بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم ثم تنشره فتبسطه فى السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك وقيل ان الله تعالى دبر بحكمته ان الرياح تتحرك تحريكا شديدا فتثير السحاب ثم ينضم بعضه الى بعض فيتراكم وينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه الى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى (سقناه لبلد ميت) يعنى الى بلد فتكون اللام بمعنى الى وقيل معناه لاجل حياة بلد ميت وانما قال سقناه لان لفظ السحاب مذكر وان كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزا نظرا الى اللفظ قال الازهرى رحمه الله تعالى قال الليث البلد كل موضع من الارض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد زاد غيره والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن قال الاعشى

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة * للجن بالليل فى حافاتها زجل

ومعنى الآية انا سقنا السحاب الى بلد ميت محتاج لانزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة (فانزلنا به الماء) اختلفوا فى الضمير فى قوله تعالى به الى ماذا يعود فقال الزجاج رحمه الله وابن الانبارى جائز أن يكون المعنى فانزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لان السحاب آلة لنزول الماء (فاخرجنا به) يعنى بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات وقيل يحتمل أن يكون المعنى فاخرجنا بذلك الميت (من كل الثمرات) يعنى وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجدبه من أصناف الثمار والزروع (كذلك نخرج الموتى) يعنى كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا فى وجه التشبيه فقيل ان الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة انزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة انزال المطر أيضا قال أبو هريرة وابن عباس رضى الله عنهما ان الناس اذا ماتوا فى النفخة الاولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء وفى رواية أربعين يوما فينبتون فى قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون فى قبورهم فاذا نفخ فى الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم فى رؤسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادى هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون قال مجاهد اذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الارض ثم يرسل الارواح فتعود كل روح الى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كاحيائه الارض به وقيل انما وقع التشبيه باصل الاحياء والمعنى انه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فانبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد ان كانوا أمواتا ورمما بالية لان من قدر على اخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم الى حشرهم ونشرهم (لعلكم تذكرون) الخطاب لمنكرى البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهى مزهرة مورقة مثمرة فى أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الازهار والاوراق والثمار ثم ان الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على

أجل النعم (حتى اذا أقلت) حملت ورفعت واشتقاق الاقلال من القلة لان الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلا (سحابا ثقالا) بالماء جمع سحابة (سقناه) الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلا (لبلد ميت) لاجل بلد ليس فيه مطر ولسقيه ميت مدنى وحمزة وعلى وحفص (فانزلنا به الماء) بالسحاب أو بالسوق وكذلك (فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك) مثل ذلك الاخراج وهو اخراج الثمرات (نخرج الموتى لعلكم تذكرون) فيؤديكم التذكر الى الايمان بالبعث اذ لا فرق بين الاخراجين لان كل واحد منهما اعادة الشئ بعد انشائه

احيائها بعد موتها قادر على احياء الاجساد بعد موتها والمعنى انما وصفت ماوصفت من التشبيه والتمثيل لكى تعتبر وا وتتذكر وا وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذى يعيد ويحيى ۞ قوله تعالى (والبلد الطيب) يعنى والارض الطيبة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) يعنى اذا أصابه المطر أخرج نباته باذن الله عز وجل (والذى خبث لايخرج) يعنى والبلد الذى خبث أرضه فهى سبخة لايخرج يعنى لايخرج نباته (الانكدا) يعنى عسرا بمشقة وكلفة قال الشاعر فى المعنى يذم انسانا

لا تنجز الوعدان وعدت وان ۞ أعطيت أعطيت تافها نكدا

يعنى بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه انك ان أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة قال المفسرون هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الازهار والثمار وكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الرديئة الغليظة السبخة التى لاينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لاينتفع به ولا يصدقه ولايزيده الاعتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة فى الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولاينتفع بها فى الآخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما ان البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التى خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل مابعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله عز وجل ونفعه مابعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ومن لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به خرجاه فى الصحيحين ۞ وقوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) يعنى كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على انعامه عليهم بالهداية وحيث جنبهم سبيل الضلالة وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن ۞ قوله عز وجل (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) اعلم ان الله تبارك وتعالى لما ذكر فى الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعته الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وماجرى لهم مع أممهم وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت الى الخسار والهلاك فى الدنيا وفى الآخرة الى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الامم المكذبة وفى ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لايقرأ ولايكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك انه انما أتى به من عند الله عز وجل وانه أوحى اليه ذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى لقد أرسلنا نوحا الى قومه لقد أرسلنا نوحا جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحا وهو نوح ابن ملك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه الصلاة والسلام ومعنى أرسلنا بعثنا وهو أول نبى بعثه الله

(والبلد الطيب) الارض الطيبة التراب (يخرج نباته باذن ربه) بتيسيره وهو موضع الحال كأنه قيل يخرج نباته حسنا وافيا لانه واقع فى مقابلة نكدا (والذى خبث) صفة للبلد أى والبلد الخبيث (لايخرج) أى نباته فحذف للاكتفاء (الانكدا) هو الذى لاخير فيه وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لايؤثر فيه شئ من ذلك وهو الكافر وهذا التمثيل واقع على أثر مثل ذلك المطر وانزاله بالبلد الميت واخراج الثمرات به على طريق الاستطراد (كذلك) مثل ذلك التصرف (نصرف الآيات) نرددها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها (لقد أرسلنا) جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا (نوحا الى قومه) أرسل وهو ابن خمسين سنة وكان نجارا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو اسم ادريس عليه السلام

(فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) غيره على فالرفع على المحل كأنه قيل مالكم اله غيره فلا تعبدوا معه غيره والجر على اللفظ
(انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان (قال الملأ) أى الأشراف والسادة (من قومه انا
لنراك فى ضلال مبين) أى بين فى ذهاب عن طريق الصواب والرؤية رؤية القلب (قال ياقوم ليس بى ضلالة) ولم يقل

ضلال كما قالوا لان الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بى شئ من الضلال ثم استدرك لتأكيد نفى الضلالة فقال (ولكنى رسول من رب العالمين) لان كونه رسولا من الله مبلغا لرسالاته فى معنى كونه على الصراط المستقيم فكان فى الغاية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربى) ما أوحى الى فى الأوقات المتطاولة أو فى المعانى المختلفة من الاوامر والنواهى والمواعظ والبشائر والنظائر أبلغكم أبو عمرو وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين (وأنصح لكم) وأقصد صلاحكم باخلاص يقال نصحته ونصحت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وحقيقة النصح ارادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك أو النهاية فى صدق العناية (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى من صفاته يعنى قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه

تعالى بعد ادريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجارا وقيل معنى الارسال ان الله تعالى حمله رسالة ليؤديها
الى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضا ويكون البعث كالتابع لانه أصل قال ابن
عباس رضى الله عنهما بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين
وخمسين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه
واختلفوا فى سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لانه
مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعيبتنى أم عبت الكلب (فقال) يعنى نوحا لقومه
(ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى اعبدوا الله تعالى فانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره فانه ليس
لكم اله معبود سواه فانه هو الذى يستوجب أن يعبد (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يعنى ان لم تقبلوا
ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذى خافه عليهم هو اما يوم الطوفان واهلاكهم
فيه أو يوم القيامة انما قال أخاف على الشك وان كان على يقين من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم
يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة (قال الملأ) وهم الجماعة الاشراف
(من قومه انا لنراك) يعنى يا نوح (فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ وزوال عن الحق بين (قال) يعنى نوحا (ياقوم
ليس بى ضلالة) يعنى ما بى ما تظنون من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى هو أرسلنى اليكم
لانذركم وأخوفكم ان لم تؤمنوا به وهو قوله (أبلغكم رسالات ربى) يعنى بتحذيرى اياكم عقابه على كفركم
ان لم تؤمنوا به (وأنصح لكم) يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح ارادة الخير
لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحرى قول أو فعل فيه صلاح للغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه
المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى انه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم
الى الوجه الاصلح والاصوب لكم وأدعوكم الى ما دعانى اليه وأحب لكم ما أحب لنفسى قال بعضهم والفرق بين
ابلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع
التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهو أن يرغبهم فى قبول تلك الاوامر والنواهى
والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى وأعلم انكم ان عصيتم أمره عاقبكم
بالطوفان والغرق فى الدنيا ويعذبكم فى الآخرة عذابا عظيما وقيل أعلم ان مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته
لمن أصر على الكفر وقيل لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله مالا تعلمون (أو عجبتم)
الالف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام انكار معناه
أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر من ربكم) يعنى وحيا من ربكم (على رجل منكم) تعرفونه وتعرفون
نسبه وذلك لان كونه منهم يزيل التعجب وقيل المراد بالذكر الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نوح عليه
الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمى القرآن ذكرا وقيل المراد بالذكر المعجزة التى جاء بها نوح عليه السلام
فعلى هذا تكون على بمعنى مع أى مع رجل منكم قال الفراء على هنا بمعنى مع (لينذركم) يعنى جاءكم لاجل
أن ينذركم (ولتتقوا) أى ولاجل أن تتقوا (ولعلكم ترحمون) لان المقصود من ارسال الرسل الانذار
والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة (فكذبوه)

وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين (أو عجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل أكذبتم وعجبتم (أن
جاءكم) من ان جاءكم (ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم) على لسان رجل منكم أى من جنسكم وذلك لانهم كانوا يتعجبون من
نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) ليحذركم عاقبة
الكفر (ولتتقوا) ولتوجد منكم التقوى وهى الخشية بسبب الانذار (ولعلكم ترحمون) ولترحموا بالتقوى ان وجدت منكم (فكذبوه)

فنسبوه الى الكذب (فأنجيناه والذين معه) وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به (في الفلك) يتعلق بمعه كأنه قيل والذين صحبوه في الفلك (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) عن الحق يقال أعمى في البصر وعم في البصيرة (والى عاد) وأرسلنا

الى عاد وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم من قولك يا أخا العرب للواحد منهم وانما جعل واحدا منهم لانهم عن رجل منهم أفهم فكانت الحجة عليهم ألزم (هودا) عطف بيان لأخاهم وهو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) وانما لم يقل فقال كما في قصة نوح عليه السلام لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل قال ياقوم اعبدوا الله وكذلك (قال الملأ الذين كفروا من قومه) وانما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملا من قوم نوح لان في أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد فاريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح عليه السلام مؤمن (انا لنراك في سفاهة) في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك الى دين آخر وجعلت السفاهة ظرفا مجازا يعني انه متمكن فيها غير منفك عنها (وانا لنظنك من الكاذبين) في ادعائك الرسالة (قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح) فيما أدعوكم اليه (أمين) (أمين) على ما أقول لكم وانما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم وانا لنظنك من الكاذبين أي ليقابل الاسم الاسم وفي اجابة الانبياء عليهم السلام من ينسبهم الى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بان خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم واخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم

يعني فكذبوا نوحا (فأنجيناه) يعني من الطوفان والغرق (والذين معه) يعني من آمن من قومه معه (في الفلك) يعني في السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) قال ابن عباس رضي الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى وقال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر وأنشدوا قول زهير

وأعلم ما في اليوم والامس قبله * ولكنني عن علم ما في غد عم

قال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق ۞ قوله تعالى (والى عاد أخاهم هودا) أي وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهي عاد الاولى أخاهم هودا يعني أخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وقال ابن اسحق هو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على ان هودا عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم في الدين ثم اختلفوا في سبب الاخوة من أين حصلت فقيل انه كان واحدا من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لانه واحد منهم وقيل انه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا في تفسير هذه الاخوة وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفي هذا القدر في تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك أو الجن والثاني أنه أخاهم يعني صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه الها آخر فانه ليس لكم اله غيره والفرق بين قوله في قصة نوح فقال وهنا قال ان نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره (أفلا تتقون) يعني أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون يعني أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة) يعني انا لنراك يا هود في حمق وجهالة وضلالة عن الحق والصواب أخبر الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا له انا لنراك في ضلال مبين وأخبر عن قوم هود انهم قالوا له انا لنراك في سفاهة والفرق بينهما ان نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة قال له قومه عند ذلك انا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في اصلاح سفينة في أرض ليس فيها من الماء شيء وأما هود عليه السلام فانه لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك في سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) يعني في ادعائك انك رسول من عند الله (قال) يعني قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه الى السفه (ياقوم ليس بي سفاهة) يعني ليس الامر كما تدعون ان بي سفاهة (ولكني رسول من رب العالمين) يعني اليكم (أبلغكم رسالات ربي) يعني أؤدي اليكم ما أرسلني به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) يعني فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه

ويسبلون أذيالهم على مايكون منهم (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم فى الارض أو فى مساكنهم واذ مفعول به وليس بظرف أى اذكروا وقت استخلافكم (وزادكم فى الخلق بسطة) طولا وامتدادا فكان أقصرهم ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع بصطة حجازى وعاصم وعلى (فاذكروا آلاء الله) فى استخلافكم و بسطة أجرامكم وماسواهما من عطاياه وواحد الآلاء الى نحو انى والآناء (لعلكم تفلحون) ومعنى المجىء فى (قالوا أجئتنا) أن

(أمين) يعنى على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام انه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام انه قال وأنا لكم ناصح فالاول بصيغة الفعل والثانى بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما ان صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله عنه بقوله قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وانما فعل هود ذلك وقال هذا القول لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم فى قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين فى تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه فى موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) يعنى أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم و يخوفكم عقابه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) يعنى واذكروا نعمة الله عليكم اذ أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم فى الارض (وزادكم فى الخلق بسطة) يعنى طولا وقوة قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقيل سبعين ذراعا وعن ابن عباس رضى الله عنهما ثمانين ذراعا وقال مقاتل اثنى عشر ذراعا وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة (فاذكروا آلاء الله) يعنى نعم الله وفيه اضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) يعنى لكى تفوزوا بالفلاح وهو البقاء فى الآخرة (قالوا) يعنى قال قوم هود مجيبين له (أجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يعنى من الاصنام (فأتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعنى فى قولك انك رسول الله (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (قد وقع) يعنى نزل ووجب (عليكم من ربكم رجس وغضب) أى عذاب وسخط (أتجادلونني) يعنى أتخاصمونني (فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعنى وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها (ما نزل الله بها من سلطان) يعنى من حجة و برهان على هذه التسمية وانما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل (فانتظروا) يعنى العذاب (انى معكم من المنتظرين) يعنى نزول العذاب بكم (فأنجيناه) يعنى فأنجينا هودا عند نزول العذاب بقومه (والذين معه برحمة منا) يعنى وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لانهم كانوا مستحقين للرحمة (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) يعنى وأهلكنا الذين كذبوا هودا من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا اهلاك استئصال فهلكوا جميعا ولم يبق منهم واحد (وما كانوا مؤمنين) يعنى لانهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام

﴿ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن اسحق وأصحاب السير والاخبار﴾

قالوا جميعا كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الاحقاف

يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث فلما أوحى اليه جاء قومه يدعوهم (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء فى اتخاذ الاصنام شركاء معهم حبا لما نشؤا عليه (فأتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) ان العذاب نازل بنا (قال قد وقع) أى قد نزل (عليكم) جعل المتوقع الذى لابد من نزوله بمنزلة الواقع كقولك لمن طلب اليك بعض المطالب قد كان (من ربكم رجس) عذاب (وغضب) سخط (أتجادلونني فى أسماء سميتموها) فى أشياء ماهى الا أسماء ليس تحتها مسميات لانكم تسمون الاصنام آلهة وهى خالية عن معنى الالوهية (أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حجة (فانتظروا) نزول العذاب (انى معكم من المنتظرين) ذلك (فأنجيناه والذين معه) أى من آمن به (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الاصل أو الكائن خلف الشئ وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) فائدة نفى الايمان عنهم مع اثبات التكذيب بآيات الله الاشعار بان الهلاك خص المكذبين وقصتهم ان عادا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله اليهم هودا فكذبوه فامسك القطر عنهم ثلاث سنين وكانوا اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند

والاحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الارض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه الها غيره وان يكفوا عن ظلم الناس ولم يامرهم بغير ذلك فيما ذكر فابوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون ايمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم ايمانه فلما عتوا على الله وكذبوا نبيهم وأكثروا في الارض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية واتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان اذا نزل بهم بلاء وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس كثير مختلفة أديانهم وكل معظم مكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل وكان البيت معروفا مكانه من الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وانما سموا العماليق لان أباهم كان عمليق بن لاوز بن سام بن نوح وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري وهو رجل من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقل عنهم المطر قالوا جهزوا منكم وفدا الى مكة ليستسقوا لكم فانكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هذيل وعقيل بن صند بن عاد الاكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم اسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فانزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فاقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون علي والله ما أدري كيف أصنع فاني أستحي ان آمرهم بالخروج لما بعثوا اليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا قال وشكى ذلك من أمرهم الى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية

ألا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد ان عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم أيامى
وان الوحش تاتيهم جهارا * ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض يا قوم انما بعثكم قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد بن عفير انكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى ربكم سقيتم وأظهر اسلامه عند ذلك وقال في ذلك

عصت عاد رسولهم فامسوا * عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود * يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد * فابصرنا الهدى وجلى العماء

وان

بيته الحرام فاوفدوا اليه قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد وكان يكتم ايمانه بهود عليه السلام وأهل مكة اذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه بظاهر مكة فقال لهم مرثد لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخالفوا مرثدا وخرجوا فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فانشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء على ظن انها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا

وان اله هود هو الهي * على الله التوكل والرجاء

زاد في رواية

لقد حكم الاله وليس جورا * وحكم الله ان غلب الهواء

على عاد وعاد شر قوم * فقد هلكوا وليس لهم بقاء

واني لن أفارق دين هود * طوال الدهر أو يأتي الفناء

فقال جلهمة بن الخيبري مجيبا المرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف انه اتبع دين هود وآمن به

ألا يا سعد انك من قبيل * ذوي كرم وأمك من ثمود

فانا لا نطيعك ما بقينا * ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين وفد * ورمل والصداء مع الصمود

ونترك دين آباء كرام * ذوي رأي ونتبع دين هود

لايخفى ما في قافية البيت الثاني

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبساعنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا الى مكة يستسقون بها العاد فلما ولوا الى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا اليه فلما انتهى اليهم قام يدعو الله و بها وفد عاد يدعونه فقال مرثد اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني فيما يدعوك به وفد عاد وقام قيل بن عنز رأس وفد عاد يدعو فقال اللهم أعط قيلا ما سألك وقال الوفد معه واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى اذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان فقال اللهم اني جئتك وحدي في حاجتي فاعطني سؤلي وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عنز حين دعا يا الهنا ان كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا فانشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لقومك ولنفسك من هذه السحائب فقال قيل قد اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا لا يبقى من آل عاد أحدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة الى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء أي كل شيء مرت به بامر ربها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف انها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما ان أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من آل عاد أحدا الا أهلكته واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح الا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الانفس وانها فى قوتها لتمر بالظعن من عاد فتحملهم بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية ابن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده اذ أقبل اليهم رجل على ناقة في ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فاخبرهم الخبر فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه فقال فارقتهم بساحل البحر وكانهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر صدق ورب الكعبة وقال السدي بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا الى الابل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والارض فلما رأوها تبادروا الى البيوت فدخلوها وأغلقوا الابواب فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فاهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فلما أهلكتهم أرسل الله عليهم طيرا أسود فنقلهم الى البحر فالقاهم فيه وقيل ان الله تعالى أمر الريح فامالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر ولم تخرج ريح قط الا بمكيال الا يومئذ فانها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفي الحديث انها خرجت على مثل خرق الخاتم وقيل ان مرثد بن سعد ولقمان بن

عاد وقيل ابن عنز حين دعوا بمكة قيل لهم قد أعطيتم مناكم فاختاروا لانفسكم غير أنه لا سبيل الى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد اللهم اعطني برا وصدقا فاعطي ذلك وقال لقمان اللهم أعطني عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فاذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه وأما قيل فانه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له انه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فاصابه الذي أصاب عادا فهلك ومن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فاتت الريح لما خرجوا من الحرم فاهلكتهم جميعا فلما أهلك الله عادا ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه الى موضع يقال له الشحر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بارض حضرموت يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن شبابة بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم الصلاة والسلام في تلك البقعة ويروى ان كل نبي من الانبياء اذا هلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه الى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها ۞ قوله عز وجل (والى ثمود أخاهم صالحا) يعني وأرسلنا الى ثمود وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام والى بني ثمود أخاهم صالحا لان ثمود قبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمود باسم أبيهم الذي ينسبون اليه أخاهم صالحا يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) يعني قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى اليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيأ فما لكم من اله يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو اليه من عبادة الله تعالى وأن لا تشركوا به شيأ وعلى تصديقي باني رسول الله اليكم ثم فسر تلك البينة فقال (هذه ناقة الله لكم آية) يعني علامة على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لانها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لانه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضا لان ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها في يوم شربها قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا أيضا معجزة وقيل ان سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة وهذا أيضا معجزة وانما أضافها الى الله تعالى في قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما يقال بيت الله وقيل لان الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لانه لم يملكها أحد الا الله تعالى وقيل لانها كانت حجة الله على قوم صالح (فذروها تأكل في أرض الله) يعني فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فان الارض لله والناقة أيضا لله وليس لكم في أرض الله شيء لانه هو الذي أنبت العشب فيها (ولا تمسوها بسوء) يعني ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الاذى ولا تعقروها (فيأخذكم عذاب أليم) يعني بسبب عقرها وأذاها (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) يعني ان الله أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم في الارض وتعمرونها (وبوأكم) يعني وأسكنكم وأنزلكم (في الارض تتخذون من سهولها قصورا) يعني تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين (وتنحتون الجبال بيوتا) يعني وتشقون بيوتا من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبل في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين (فاذكروا آلاء الله) أي فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها

بتأويل القبيلة وقيل سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام (أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتي فكانه قيل ما هذه البينة فقال (هذه ناقة الله) وهذه اضافة تخصيص وتعظيم لانها بتكوينه تعالى بلا صلب ولا رحم (لكم آية) حال من الناقة والعامل معنى الاشارة في هذه كانه قيل أشير اليها آية ولكم بيان لمن هي له آية وهي ثمود لانهم عاينوها (فذروها تأكل في أرض الله) أي الارض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) ولا تضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها اكراما لآية الله (فيأخذكم) جواب النهي (عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم) ونزلكم والمباءة المنزل (في الارض) في أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتخذون من سهولها قصورا) غرفا للصيف (وتنحتون الجبال بيوتا) للشتاء وبيوتا حال مقدرة نحو خط هذا الثوب قميصا اذ الجبل لا يكون بيتا في حال النحت ولا الثوب قميصا في حال الخياطة (فاذكروا آلاء الله ولا

ولا تعثوا فى الارض مفسدين) روى ان عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها فى الارض وعمروا أعمارا طوالا فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات وكانوا فى سعة من العيش فعتوا على الله وأفسدوا فى الارض وعبدوا الاوثان فبعث الله اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فانذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عشراء فصلى ودعا ربه فتمخضت تمخض النتوج بولدها فخرجت منها ناقة كما شاؤا فآمن به جندع ورهط من قومه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقال شامى (للذين استضعفوا) للذين استضعفهم رؤساء الكفار (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا باعادة الجار وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان فى تقدير اعادة العامل والضمير فى منهم راجع الى قومه وهو يدل على أن استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين أو الى الذين استضعفوا وهو يدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوه على سبيل السخرية (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) وانما صار هذا جوابا لهم لانهم سألوهم عن العلم بارساله فجعلوا ارساله أمرا معلوما مسلما كأنهم قالوا العلم بارساله وبما أرسل به لاشبهة فيه وانما الكلام فى وجوب الايمان به فنخبركم انا به مؤمنون (قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون) فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردا لما جعله المؤمنون معلوما مسلما (فعقروا الناقة) أسند العقر الى جميعهم وان كان العاقر قدار بن سالف لانه كان برضاهم وكان قدار أحمر أزرق قصيرا كما كان فرعون كذلك وقال عليه السلام ياعلى أشقى الاولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك (وعتوا عن أمر ربهم) وتولوا عنه واستكبروا وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله فذروها تأكل فى أرض الله أو شأن ربهم وهو دينه (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة) الصيحة التى زلزلت لها الارض واضطربوا لها (فأصبحوا فى دارهم) أى مساكنهم (جاثمين) ميتين قعودا قال الناس جثم قعود لاحراك بهم فى بلادهم لا يتكلمون (فتولى عنهم) لما عقروا الناقة (وقال ياقوم) عند فراقه اياهم (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) الآمرين بالهدى لاستحلاء الهوى والنصيحة

(ولا تعثوا فى الارض مفسدين) قال قتادة معناه ولا تسيروا فى الارض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهى عن جميع أنواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الاشراف الذين تعظموا عن الايمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى المساكين (لمن آمن منهم) يعنى قال الاشراف المتعظمون فى أنفسهم لاتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) يعنى أن الله أرسله الينا واليكم (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) يعنى قال الضعفاء انا بما أرسل الله به صالحا من الدين والهدى والحق مصدقون (قال الذين استكبروا) يعنى عن أمر الله والايمان به وبرسوله صالح (انا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون منكرون (فعقروا الناقة) يعنى فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلو فى الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره فى الناقة وكذبوا نبيهم صالحا عليه الصلاة والسلام (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من المرسلين) يعنى ان كنت كما تزعم انك رسول الله فان الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة وقال مجاهد والسدى هى الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) يعنى فأصبحوا فى أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب اى بلد الحرب ودار بنى فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع فى آية أخرى فقال فى ديارهم لانه أراد ما لكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعنى باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالارض فى حال نومه وسكونه بالليل والمعنى انهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم صالح وفى وقت هذا التولى قولان أحدهما أنه تولى عنهم بعد ان ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على أنه جعل هذا التولى بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثانى أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الاول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيح

وفيه فقال عمر يارسول الله كيف تكلم أقواما قد جيفوا فقال ما أنتم باسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون
وقيل انما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتي من بعدهم فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها

﴿ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن اسحق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والاخبار﴾

قالوا جميعا ان عادا لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الارض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى ان أحدهم ليبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من العيش والرخاء فعتوا وأفسدوا في الارض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى اليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى اليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم الى الله تعالى والى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم الا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول فقال صالح أي آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم وذلك في يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا باصنامهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت من الابل فان فعلت آمنا بك وصدقناك فاخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبيها الا الله عز وجل عظما وهم ينظرون اليها ثم نتجت سقبا مثلها في العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبي أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فاذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى اذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربون ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤا ليوم الناقة فهم على ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة تصيف اذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم الابل والبقر والغنم فتهبط الى بطن الوادي فتكون في حره وجدبه واذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي فتهرب المواشي الى ظهره فتكون في البرد والجدب فاضر ذلك بمواشيهم للامر الذي يريده الله بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فاجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لاحداهما عنيزة بنت غانم بن مخلد وتكنى بام غنم وكانت عجوزا مسنة وهي امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من ابل وبقر وغنم والمرأة الاخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا في عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس

منيحة تدرأ الفضيحة ولكنها وخيمة تورث السخيمة روى ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء فقال صالح تعيشون بعده ثلاثة أيام تصفر وجوهكم أول يوم وتحمر في الثاني وتسود في الثالث ويصيبكم العذاب في الرابع وكان كذلك روى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فلما علم انهم هلكوا رجع بمن معه فسكنوا ديارهم

وجها

وجهاوأكثرهم مالافاجابها الى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا و يزعمون انه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أى بناتى شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه (ق عن عبدالله بن زمعة رضى الله تعالى عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمعة قوله انبعث أى قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع ممن أراده قال أصحاب الاخبار فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستنفرا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع فى أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم فى عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من أحسن الناس وجها ليراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته به فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فتحدر سقبها من الجبل ثم طعن قدار فى لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فاقبل نحوها وخرج أهل البلدة يتلقونه و يعتذرون اليه و يقولون يانبى الله انما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا فى طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فاوحى الله تعالى الى الجبل ان تطاول فتطاول حتى ماناله الطير وجاء صالح عليه الصلاة والسلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن اسحق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فاصاب قلبه ثم جذبه فانزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام انتهكتم حرمة الله فابشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤن به ومتى ذلك ياصالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الايام فى ذلك الوقت الاحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والاربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وكانوا عقروا الناقة يوم الاربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك تصبحون غدا يوم مؤنس و وجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فاتوه ليلا ليقتلوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبدا فانه قد وعدكم العذاب انه نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم الا غضبا عليكم وان كان كاذبا فانتم من وراء ماتريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فاصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كانما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فايقنوا بالعذاب وعرفوا ان صالحا قد صدقهم فيما قال فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحى من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بابى هدب وهو مشرك فمنع صالحا فلم يقدروا عليه وكانوا عمدوا الى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يانبى الله انهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك قال نعم فدلوهم عليه فاتوا أباهدب فكلموه فى أمر صالح فقال هو عندى وليس لكم اليه سبيل فاعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا

باجمعهم الاقد مضى يوم من الاجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني اذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا باجمعهم ألا قد مضى يومان من الاجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث اذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الاحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم الى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بانفسهم الى الارض يقلبون أبصارهم الى السماء مرة والى الارض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الاحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ له صوت في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعا الا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فاطلق الله تعالى رجليها بعد ما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فاخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال وذكر السدي في عقر الناقة فقال أوحى الله عز وجل الى صالح عليه الصلاة والسلام ان قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح انه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد الا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فابى أن يذبحه لانه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتا سريعا فكان اذا مر بالتسعة فرأوه قالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لانه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فنرى الناس انا قد خرجنا الى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى اذا كان الليل وخرج صالح الى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع الى الغار فنكون فيه حتى ننصرف الى رحالنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون فيصدقوننا فيظنون انا قد خرجنا الى سفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فاذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فاذا أمسى خرج الى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة الى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلوا فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا الى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة وقال ابن اسحق كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة وقال السدي وغيره لما ولد للعاشر ولد سماه بقدار فكان يشب سريعا فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فارادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لانعامنا وزروعنا كان خيرا لنا وقال ابن العاشر هل لكم ان أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم الا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع المسير حتى جاوز الوادي وفي رواية لمسلم لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ثم ذكر مثله ولهما عنه ان الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فامرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يهريقوا ما استقوه ويعلفوا الابل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة وللبخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فامرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء وفي بعض الاحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية

(ولوطا اذ قال لقومه) أى واذكر لوطا واذ بدل منه (أتأتون الفاحشة) أتفعلون السيئة المتمادية فى القبح (ما سبقكم بها) ما عملها قبلكم والباء للتعدية ومنه قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة (من أحد) من زائدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق

فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم وروده اوأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فاهلك الله من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الارض ومغاربها الا رجلا واحدا يقال له ابو رغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبى رغال فنزل القوم وابتدروه باسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمى حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء وقال قوم من أهل العلم توفى صالح عليه الصلاة والسلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام فى قومه عشرين سنة ۞ قوله تعالى (ولوطا) يعنى وأرسلنا لوطا وقيل معناه واذكر يا محمد لوطا وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخى ابراهيم وابراهيم عمه (اذ قال لقومه) يعنى أهل سدوم واليهم كان قد أرسل وذلك ان لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الى الشام فنزل ابراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الاردن أرسله الله تعالى الى أهل سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) يعنى أتفعلون الفعلة الخسيسة التى هى غاية فى القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران فى أدبارهم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) من الاولى زائدة لتوكيد النفى وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والمعنى ما سبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفى هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا الا كان من قوم لوط (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى فى أدبارهم (شهوة من دون النساء) يعنى ان أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء (بل أنتم) يعنى أيها القوم (قوم مسرفون) أى مجاوزون الحلال الى الحرام وانما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تبارك وتعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلا للشهوة وموضع النسل فاذا تركهن الانسان وعدل عنهن الى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لانه وضع الشئ فى غير محله وموضعه الذى خلق له لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة المركبة فى الانسان وكانت قصة قوم لوط على ما ذكره محمد بن اسحق وغيره من أهل الاخبار والسير انه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن فى الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ وقال لهم اذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فابوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فاصابوا غلمانا حسانا صباحا فاخبثوا واستحكم ذلك فيهم قال الحسن كانوا لا ينكحون الا الغرباء وقيل استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضا وقال الكلبى ان أول من عمل به عمل قوم لوط ابليس وذلك لان بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس فى صورة شاب أمرد فدعا الى نفسه فكان أول من نكح فى دبره فامر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم ۞ قوله عز وجل (وما كان جواب قومه) يعنى وما كان جواب قوم لوط للوط اذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) يعنى قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) يعنى اخرجوا لوطا وأتباعه وأهل دينه من بلدكم (انهم أناس يتطهرون) يعنى انهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لانها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر وقيل ان البعد عن المعاصى والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنهما فقد تطهر فلهذا قال انهم أناس يتطهرون أى من فعل المعاصى والآثام (فأنجيناه وأهله)

(من العالمين) من للتبعيض وهذه جملة مستأنفة أنكر عليهم أولا بقوله أتأتون الفاحشة ثم وبخهم عليها فقال أنتم أول من عملها وقوله تعالى (أئنكم لتأتون الرجال) بيان لقوله أتأتون الفاحشة والهمزة مثلها فى أتأتون للانكار انكم على الاخبار مدنى وحفص يقال أتى المرأة اذا غشيها (شهوة) مفعول له أى للاشتهاء لا حامل لكم عليه الا مجرد الشهوة ولا ذم أعظم منه لانه وصف لهم بالبهيمية (من دون النساء) أى لا من النساء (بل أنتم قوم مسرفون) أضرب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح وهو انهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحد وفى كل شئ فمن ثم اسرفوا فى باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد الى غير المعتاد (وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) أى لوطا ومن آمن معه يعنى ما أجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط من انكار الفاحشة ووصفهم بصفة الاسراف الذى هو أصل الشر ولكنهم جاؤا بشئ آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم (انهم أناس يتطهرون) يدعون الطهارة ويدعون فعلنا الخبيث عن ابن عباس رضى الله عنهما عابوهم بما يتمدح به (فأنجيناه وأهله) ومن يختص به من دونه من المؤمنين

يعنى فانجينا لوطا ومن آمن به واتبعه على دينه وقيل المراد باهله المتصلون به بسبب النسب أو المراد باهله ابنتاه (الا امرأته) يعنى زوجته (كانت من الغابرين) يعنى كانت من الباقين فى العذاب لانها كانت كافرة وقيل معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وانما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب ذكر الرجال فقال من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال فى العذاب أمطرت وفى الرحمة مطرت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يعنى انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم قال مجاهد نزل جبريل عليه السلام فادخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وان كان هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الافعال القبيحة والفواحش الخبيثة ۞ قوله عز وجل (والى مدين أخاهم شعيبا) يعنى وأرسلنا الى مدين أكثر المفسرين على ان مدين اسم رجل وهو مدين بن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا الى ولد مدين ومدين اسم للقبيلة كما يقال بنو تميم وبنو عدى وبنو أسد وقيل مدين اسم للماء الذى كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى وأرسلنا الى أهل مدين والصحيح هو الاول لقوله أخاهم شعيبا يعنى فى النسب لا فى الدين وشعيب هو ابن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن اسحق هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام وقيل هو شعيب بن يثرون بن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان (قال) يعنى شعيب (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يعنى قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقيقة ما أقول وصدق ما أدعى من النبوة والرسالة اليكم لانه لابد لكل نبى من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير ان تلك المعجزة التى كانت لشعيب لم تذكر فى القرآن وليست كل آيات الانبياء مذكورة فى القرآن وقيل أراد بالبينة مجىء شعيب بالرسالة اليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهى قوله (فاوفوا الكيل والميزان) يعنى فاتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم ۞ وهو قوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يعنى لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم اياها فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان فى الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) يعنى بعد ان أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل واقامة العدل وكل نبى يبعث الى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) يعنى الذى ذكرت لكم وأمرتكم به من الايمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعنى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) يعنى ان كنتم مصدقين بما أقول (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) يعنى ان شعيبا قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الايمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) يعنى وتمنعون من يريد الايمان بالله وتقولون ان شعيبا كذاب

وتخوفونه

(الا امرأته كانت من الغابرين) من الباقين فى العذاب والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكانت كافرة موالية لاهل سدوم وروى انها التفتت فاصابها حجر فماتت (وأمطرنا عليهم مطرا) وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا قالوا أمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وقال أبو عبيدة أمطر فى العذاب ومطر فى الرحمة (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) الكافرين (والى مدين) أرسلنا الى مدين وهو اسم قبيلة (أخاهم شعيبا) يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) أى معجزة وان لم تذكر فى القرآن (فاوفوا الكيل والميزان) أتموهما والمراد فاوفوا الكيل ووزن الميزان أو يكون الميزان كالميعاد بمعنى المصدر (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن وكانوا يبخسون الناس كل شئ فى مبايعتهم وبخس يتعدى الى مفعولين وهما الناس وأشياءهم تقول بخست زيدا حقه أى نقصته اياه (ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها) بعد الاصلاح فيها أى لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الانبياء والاولياء واضافته كاضافة بل مكر الليل والنهار أى بل مكركم فى الليل والنهار (ذلكم) اشارة الى ماذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والافساد فى الارض (خير لكم) فى الانسانية وحسن الاحدوثة (ان كنتم مؤمنين) مصدقين لى فى قولى (ولا تقعدوا بكل صراط) بكل طريق (توعدون) من آمن بشعيب بالعذاب (وتصدون عن سبيل الله) عن العبادة (من آمن به) بالله وقيل كانوا يقطعون الطرق وقيل كانوا عشارين

وتخوفونه بالقتل قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذى تريدونه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم (وتبغونها عوجا) يعنى وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد وقيل معناه وتلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد (واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم) يعنى ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم قال الزجاج يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك انهم اذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى انه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) يعنى وانظروا اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الامم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) يعنى وان اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين فرقة آمنت بى وصدقت برسالتى وفرقة كذبت وجحدت رسالتى (فاصبروا) فيه وعيد وتهديد (حتى يحكم الله بيننا) يعنى حتى يقضى الله ويفصل بيننا فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم (وهو خير الحاكمين) يعنى انه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف فى حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم فى الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الايمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) يعنى أن قوم شعيب أجابوه بان قالوا لابد من أحد أمرين اما اخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن الى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه اشكال وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن فى ملتنا وأجيب عن هذا الاشكال بان اتباع شعيب كانوا قبل الايمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا فدخل هو فى الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط وقيل معناه لتصيرن الى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد على من فلان مكروه بمعنى قد لحقنى منه ذلك وان لم يكن قد سبق منه مكروه فهو كما قال الشاعر

فان تكن الأيام أحسن مدة * الى فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد ان ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان ۞ وقوله تعالى (قال أولو كنا كارهين) أى لا نعود فى ملتكم وان أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) يعنى ان شعيبا أجاب قومه اذ دعوه ومن آمن به الى العود الى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعنى قد اختلقنا على الله كذبا وتخرصنا عليه من القول باطلا ان نحن رجعنا الى ملتكم وقد علمنا افساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضا فيه من الاشكال مثل ما فى الاول وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ما كان فى ملتهم قط حتى يقول ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الاشكال الاول وهو أن نقول ان الله

(وتبغونها) وتطلبون لسبيل الله (عوجا) أى تصفونها للناس بانها سبيل معوجة غير مستقيمة لتمنعوهم عن سلوكها ومحل توعدون وما عطف عليه النصب على الحال أى لا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغين عوجا (واذكروا اذ كنتم قليلا) اذ مفعول به غير ظرف أى واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم (فكثركم) الله ووفر عددكم وقيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها بالبركة والنماء فكثروا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) آخر أمر من أفسد قبلكم من الامم كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا) فانتظروا (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين بان ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم أو هو حث للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين الى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم أو هو خطاب للفريقين أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار والكافرون على ما يسوءهم من ايمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب (وهو خير الحاكمين) لان حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) أى ليكونن أحد الأمرين اما اخراجكم واما عودكم فى الكفر (قال) شعيب (أولو كنا كارهين) الهمزة للاستفهام والواو للحال تقديره أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا ومع كوننا كارهين قالوا نعم ثم قال شعيب (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم) وهو قسم على تقدير حذف اللام أى والله لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم (بعد اذ نجانا الله منها) خلصنا الله فان قلت كيف قال شعيب ان عدنا فى ملتكم والكفر على الانبياء عليهم السلام محال قلت أراد عود قومه الا انه نظم نفسه

نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة لأن شعيبا لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب وقيل معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه خلصنا منها ﴿وقوله تعالى اخبارا عنه (وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا) يعني وما يكون لنا أن نرجع الى ملتكم ونترك الحق الذي نحن عليه الا أن يشاء الله ربنا يعني الا أن يكون قد سبق لنا في علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي معنى العود هنا الابتداء والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية ان شعيبا وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع الى ملتكم بعد ان وقفنا على انها ضلالة تكسب دخول النار الا ان يريد الله اهلاكنا فأمورنا راجعة الى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الانبياء والاكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى الى قول الخليل عليه الصلاة والسلام واجنبني وبني أن نعبد الاصنام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته ان نعود فيها وتصديق ذلك قوله (وسع ربنا كل شيء علما) يعني انه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وانه تعالى كان عالما في الازل بجميع الاشياء فالسعيد من سعد في علم الله تعالى والشقي من شقي في علم الله تعالى (على الله توكلنا) أي على الله نعتمد واليه نستند في أمورنا كلها فانه الكافي لمن توكل عليه والمعنى على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الاسباب ونظر الى مسبب الاسباب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) لما أيس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي لاجور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) يعني خير الحاكمين قال الفراء ان أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد وأنشد لبعضهم في ذلك

ألا أبلغ بني عصم رسولا ※ فاني عن فتى حكم غني ٧

أراد انه غني عن حاكمهم وقاضيهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعال أفاتحك يعني أقاضيك وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين ان الفاتح هو القاضي والحاكم سمي بذلك لانه يفتح أغلاق الاشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذابا يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) يعني وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه (انكم اذا لخاسرون) يعني انكم لمغبونون في فعلكم (فأخذتهم الرجفة) يعني الزلزلة الشديدة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) قال ابن عباس وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا من جهنم فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الاسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الارض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلى وصاروا رمادا وروى أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا بها وقال قتادة بعث الله شعيبا الى أصحاب الايكة والى أهل مدين فأما أصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فاخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعا قال أبو عبد الله البجلي كان أبو جاد وهو زوحطي وكلمن وسعفص وقرشت

في جلتهم وان كان بريئا من ذلك اجراء الكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا) وما ينبغي لنا وما يصح (أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا) الا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها اذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها (وسع ربنا كل شيء علما) تمييز أي هو عالم بكل شيء فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تنقلب (على الله توكلنا) في أن يثبتنا على الايمان ويوفقنا لازدياد الايقان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أي احكم والفتاحة الحكومة والقضاء بالحق بفتح الامر المغلق فلذا سمي فتحا ويسمي أهل عمان القاضي فتاحا (وأنت خير الفاتحين) كقوله وهو خير الحاكمين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون) مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه لانه ينهاكم عنهما ويأمركم على الايفاء والتسوية وجواب القسم الذي وطأته اللام في لئن اتبعتم وجواب الشرط انكم اذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فأخذتهم الرجفة) الزلزلة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) ميتين

---

٧ هكذا بالاصل ولعله عن فتى فتح حتى يتم الاستشهاد اه مصححه

ملوك

(الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها أغنى بالمكان أقام (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) لا من قالوا لهم انكم اذا لخاسرون وفى هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بان أهلكوا كأن لم يقيموا فى دارهم لان الذين اتبعوا شعيبا قد أنجاهم الله الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون وفى التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم (فتولى عنهم) بعد ان نزل بهم العذاب (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزنى على قوم ليسوا باهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم أو أراد لقد أعذرت لكم فى الابلاغ والتحذير مما حل بكم فلم تصدقونى فكيف آسى عليكم (وما أرسلنا فى قرية من نبى) يقال لكل مدينة قرية وفيه حذف أى فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) الضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم أو هما نقصان النفس والمال (لعلهم يضرعون) ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة والصحة (حتى عفوا) كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات اذا كثر ومنه قوله عليه السلام واعفوا اللحى (وقالوا قد مس آباءنا

ملوك مدين وكان ملكهم فى زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به

كلمن هدم ركنى * هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه * هلك نار تحت ظله * جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

﴿ وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أى أقمت به والمغانى المنازل التى بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل فى معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذى هو ضد الفقر (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يعنى خسروا أنفسهم بهلاكهم (فتولى عنهم) يعنى فاعرض عنهم شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) يعنى انه قال لهم ذلك لما تيقن نزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا فى قصة صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ وقوله (فكيف آسى) يعنى أحزن (على قوم كافرين) والاسى أشد الحزن وانما اشتد حزنه على قومه لانهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال كيف أحزن على قوم كافرين لانهم هم الذين أهلكوا أنفسهم باصرارهم على الكفر وقيل فى معنى الآية ان شعيبا قال لقد أعذرت اليكم فى الابلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولى ولم تقبلوا نصحى فكيف أحزن عليكم يعنى انكم لستم مستحقين لان يحزن عليكم فعلى القول الاول انه حصل لشعيب حزن على قومه وعلى القول الثانى لم يحزن عليهم والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نبى) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وهو معنى قول الزجاج فانه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة فى أموالهم والضراء كل ما نالهم من الامراض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال (لعلهم يضرعون) يعنى انما فعلنا بهم ذلك لكى يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لامر الله عز وجل والمراد من هذه الآية ان الله عز وجل لما عرف نبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الانبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته فى الامم الذين خلوا من قبله وما صاروا اليه من الهلاك والعذاب عرفه فى هذه الآية انه قد أرسل رسلا الى أمم أخر فكذبوا رسلهم فاخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب رسله وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى انه لا يجرى تدبيره فى أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة انما يدبرهم بما يكون الى الايمان أقرب وهو قوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) لان ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعى الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر قال أهل اللغة السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء والمعنى انه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة فى الابدان فاخبر الله تعالى فى هذه الآية انه يأخذ أهل المعاصى والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله (حتى عفوا) يعنى انه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال قال مجاهد حتى كثرت أموالهم وأولادهم (وقالوا) يعنى من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا الى الرخاء والسعة (قد مس آباءنا

الضراء والسراء) أي قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا نحو ذلك وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه (فأخذناهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بنزول العذاب واللام في (ولو أن أهل القرى) اشارة الى أهل القرى التي دل عليها وما أرسلنا في قرية من نبي كأنه قال ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا (آمنوا) بدل كفرهم (واتقوا) الشرك مكان ارتكابه (لفتحنا عليهم) لفتحنا شامي (بركات من السماء والارض) أراد المطر والنبات أو لآتيناهم بالخير من كل وجه (ولكن كذبوا) الانبياء (فأخذناهم بما كانوا يكسبون) بكفرهم وسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام للجنس (أفأمن أهل القرى)

يريد الكفار منهم (أن يأتيهم بأسنا) عذابنا (بياتا) ليلا أي وقت بيات يقال بات بياتا (وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) نهارا والضحى في الاصل ضوء الشمس اذا أشرقت والفاء والواو في أفأمن وأو أمن حرفا عطف دخل عليهما همزة الانكار والمعطوف عليه فأخذناهم بغتة وقوله ولو ان أهل القرى الى يكسبون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وانما عطفت بالفاء لان المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة بعد ذلك أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى أو أمن شامي وحجازي على العطف بأو والمعنى انكار الامن من أحد هذين الوجهين من اتيان العذاب ليلا أو ضحى فان قلت كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف وهو ينافي الاستفهام قلت التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة لانه على استئناف جملة بعد جملة (وهم يلعبون) يشتغلون بما لا يجدي لهم (أفأمنوا) تكرير لقوله أفأمن أهل القرى (مكر الله) أخذه العبد من حيث لا يشعر وعن الشبلي قدس الله روحه العزيز مكره بهم تركه اياهم على ما هم عليه وقالت ابنة الربيع بن خيثم لابيها مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال يا بنتاه ان أباك يخاف البيات أراد قوله أن يأتيهم بأسنا بياتا (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) الا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا الى النار (أولم يهد) يبين (للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أن لو نشاء مرفوع بأنه فاعل يهد وان مخففة من الثقيلة أي أولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثونهم أرضهم هذا الشأن وهو انا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين وانما عدى فعل الهداية باللام لانه بمعنى التبيين (ونطبع)

الضراء والسراء) يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب ۞ قوله عز وجل (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) لما بين الله تعالى في هذه الآية الاولى ان الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه بين في هذه الآية انهم لو آمنوا يعني بالله وبرسله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) فبركات السماء المطر وبركات الارض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والانعام والارزاق والامن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى واحسانه على عباده وأصل البركة ثبوت الخير الالهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نبات الارض لانه نشأ عن بركات السماء وهي المطر وقال البغوي أصل البركة المواظبة على الشيء أي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الارض ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا) يعني فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل (فأخذناهم) يعني بأنواع العذاب (بما كانوا يكسبون) يعني أخذناهم بسبب كسبهم الاعمال الخبيثة ۞ قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الانكار وفيه وعيد وتهديد وزجر والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا (ان يأتيهم بأسنا) يعني عذابنا (بياتا) يعني ليلا (وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) يعني نهارا لان الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) يعني وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم والمقصود من الآية ان الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لانه الوقت الذي يغلب على الانسان التشاغل فيه بأمور الدنيا وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم في كفرهم وذلك لعب أيضا لانه يضر ولا ينفع (أفأمنوا مكر الله) يعني استدراجه اياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمي هذا العذاب مكرا لنزوله وهم في غفلة عنه لا يشعرون به (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) يعني انه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا الامن خسر في أخراه وهلك مع الهالكين (أولم يهد) يعني أولم يبين (للذين يرثون الارض من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يعني لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم (ونطبع)

قوم نوح الى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فما كانوا ليؤمنوا) عند مجيء الرسل بالبينات (بما كذبوا من قبل) بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا الى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل اليهم الى أن ماتوا مصرين مع تتابع الآيات واللام لتأكيد النفي (كذلك) مثل ذلك الطبع الشديد (يطبع الله على قلوب الكافرين) لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الضمير للناس على الاطلاق يعني ان أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الايمان والآية اعتراض أو للأمم المذكورين فانهم كانوا اذا عاهدوا الله في ضر ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن ثم أنجاهم نكثوا (وان) الشان والحديث (وجدنا أكثرهم لفاسقين) لخارجين عن الطاعة والوجود بمعنى العلم بدليل

أي ونختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) يعني لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الايمان وطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفاً على الماضي ولفظه لفظ المستقبل والمعنى ولو شئنا طبعنا على قلوبهم (تلك القرى) يعني هذه القرى التي ذكرنا لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك من أنبائها) يعني نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا اليهم لتعلم يا محمد انا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) يعني لأهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) يعني جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) اختلف أهل التفسير في معنى ذلك فقيل معناه فما كان هؤلاء المشركون الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند ارسالنا اليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فاقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدي قال السدي آمنوا كرهاً يوم أخذ الميثاق وقال مجاهد فما كانوا لو أحييناهم بعد اهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق لهم في علم الله انهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال أبي بن كعب كان سبق لهم في علمه يوم أقروا له بالميثاق انهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم وان لا يتأولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فان علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفي ذلك قال تعالى ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين قال نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال الطبري وأولى الاقوال بالصواب قول أبي بن كعب والربيع بن أنس وذلك ان من سبق في علم الله انه لا يؤمن به فلا يؤمن أبداً وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الامم الذين قص خبرهم في هذه السورة انهم لا يؤمنون أبداً فأخبر عنهم انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم اليهم (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) يعني كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم انهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) يعني وما وجدنا لأكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم ووصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس انما أهلك الله أهل القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) أي وما وجدنا أكثرهم الا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا ۞ قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعني ثم بعثنا بعد الانبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام (موسى بآياتنا) يعني بحجتنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام (الى فرعون وملئه) قيل ان كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل اليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ أشراف قومه وانما خصوا بالذكر لانه اذا آمن الأشراف آمن الاتباع (فظلموا بها) يعني فجحدوا بها لان الظلم وضع الشيء في غير موضعه وكانت هذه

دخول أن المخففة واللام الفارقة ولا يجوز ذلك الا في المبتدأ والخبر والافعال الداخلة عليهما (ثم بعثنا من بعدهم) الضمير للرسل في قوله ولقد جاءتهم رسلهم أو للامم (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (الى فرعون وملئه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى

الكفر لانهما من واد واحد ان الشرك لظلم عظيم أو فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن أو لانه اذا وجب الايمان بها فكفروا بدل الايمان كان كفرهم بها ظلما حيث وضعوا الكفر غير موضعه وهو موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) حيث صاروا مغرقين (وقال موسى يافرعون) يقال لملوك مصر الفراعنة كما يقال لملوك فارس الاكاسرة وكأنه قال ياملك مصر واسمه قابوس أو الوليد بن مصعب بن الريان (انى رسول من رب العالمين) اليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) أى أنا حقيق على قول الحق أى واجب على قول الحق أن أكون قائله والقائم به حقيق على نافع أى واجب على ترك القول على

الله الا الحق أى الصدق وعلى هذه القراءة تقف على العالمين وعلى الاول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول وعلى بمعنى الباء كقراءة أبى أى انى رسول خليق بان لا أقول أو يعلق على بمعنى الفعل فى الرسول اى انى رسول حقيق جدير بالرسالة أرسلت على أن لا أقول على الله الا الحق (قد جئتكم ببينة من ربكم) بما يبين رسالتى (فارسل معى بنى اسرائيل) فخلهم يذهبوا معى راجعين الى الارض المقدسة التى هى وطنهم وذلك ان يوسف عليه السلام لما توفى غلب فرعون على نسل الاسباط واستعبدهم فانقذهم الله بموسى عليه السلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذى دخله موسى أربعمائة عام معى حفص (قال ان كنت جئت بآية) من عند من أرسلك (فأت بها ان كنت من الصادقين) فاتنى بها لتصح دعواك و يثبت صدقك فيها (فالقى موسى) عليه السلام (عصاه) من يده (فاذاهى) اذا هذه للمفاجأة وهى من ظروف المكان بمنزلة ثمة وهناك (ثعبان) حية عظيمة (مبين) ظاهر أمره روى انه كان ذكرا فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل فى الارض والاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك وحمل على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا فصاح فرعون ياموسى خذه وأنا أومن بك فاخذه موسى فعاد عصا (ونزع يده) من جيبه (فاذاهى بيضاء للناظرين) أى فاذاهى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضا عجيبا خارجا عن العادة

الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يا محمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين) يعنى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه الى الله تعالى والى الايمان به وقال له انى رسول أى مرسل اليك والى قومك من رب العالمين يعنى ان الله الذى خالق السموات والأرض وخالق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذى أرسلنى اليك (حقيق) أى واجب (على أن لا أقول على الله الا الحق) يعنى أنى رسول والرسول لا يقول على الله الا الحق فى وصفه وتنزيهه وتوحيده وانه لا اله غيره (قد جئتكم ببينة من ربكم) يعنى ببرهان على صدقى فيما أدعى من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهى العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال موسى (فارسل معى بنى اسرائيل) يعنى خل عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بنى اسرائيل واستعملهم فى الاعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الاعمال الشاقة (قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) يعنى ان فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة ان كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك فاتنى بها وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت (فالقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين) أى بين والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه فى آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين أنها كانت فى عظم الجثة كالثعبان العظيم وفى خفة الحركة كالحية الصغيرة وهى الجان قال ابن عباس والسدى ان موسى لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث وقيل انه أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقيل انها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضا فمات منهم فى ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى أنشدك بالذى أرسلك أن تأخذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فعادت فى يده عصا كما كانت وفى كون الثعبان مبينا وجوه الاول انه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن تمويه السحرة وتخييلهم الوجه الثانى انهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فلذلك قال ثعبان مبين أى بين الوجه الثالث ان ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التى أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام فى أنه رسول من رب العالمين ۞ وقوله تعالى (ونزع يده) النزع فى اللغة عبارة عن اخراج الشئ عن مكانه والمعنى انه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه (فاذاهى بيضاء للناظرين) قال ابن عباس

عباس وغيره أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص وقيل ان موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت ابطه فاذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها الى جيبه فاخرجها فاذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى بيضاء من غير سوء يعني من غير برص والمعنى فاذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب منه

﴿فصل في بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل﴾ اعلم ان الله تبارك وتعالى كان قادرا على خلق المعرفة والايمان في قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل اليهم رسلا تعرفهم معالم دينه وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجائز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة مع الانبياء وجائز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالانبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل واذا جاز هذا في دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دالة على صدقهم فوجب تصديقهم في جميع ما أتوا به لان المعجزة مع التحدي من النبي قائمة مقام قول الله عز وجل صدق عبدي فاطيعوه واتبعوه ولان معجز النبي شاهد على صدقه فيما يقوله وسميت المعجزة معجزة لان الخلق عجزوا عن الاتيان بمثلها وهي على ضربين فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فعجزهم عنه دل على انه من فعل الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم كتمني الموت في قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم انه من عند الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم الضرب الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى وقلب العصا حية واخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن مثلها فاذا أتى النبي بشئ من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم ان ذلك من عند الله وان الله عز وجل هو الذي أظهر ذلك المعجز على يد نبيه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع ان الله تعالى قادر على خلق الاشياء وابداعها من غير أصل سبق لها واخراجها من العدم الى الوجود وانه قادر على قلب الاعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم ﴿قوله عز وجل﴾ (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا) يعني موسى (لساحر عليم) يعني انه ليأخذ باعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا صارت حية ويرى الشئ بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا ان هذا لساحر عليم فان قلت قد أخبر الله تعالى في هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء وقال فرعون للملأ حوله ان هذا الساحر عليم فكيف الجمع بينهما قلت لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء وقيل يحتمل ان فرعون قال هذا القول ثم ان الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فاخبر الله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون ﴿وقوله﴾ (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعني يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر (فماذا تأمرون) يعني فاي شئ تشيرون أن نفعل به وقيل ان قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لان كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن تفعل به والقول الاول أصح لسياق الآية التي بعدها وهو قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) يعني أخر أمرهما ولا تعجل فيه فتصير عجلتك عليك لا لك والارجاء التأخير في اللغة وقيل معنى أرجئه احبسه وأخاه وهذا القول ضعيف لان الارجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ولان

يجمع الناس للنظر اليه روى أنه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها في جيبه ونزعها فاذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس وكان موسى عليه السلام آدم شديد الادمة (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل الى الناس العصا حية والآدم أبيض وهذا الكلام قد عزي الى فرعون في سورة الشعراء وانه قاله للملأ وهنا عزي اليهم فيحتمل انه قد قاله هو وقالوا هم فحكي قوله ثمة وقولهم هنا أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ فقالوه لاعقابهم (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعني مصر (فماذا تامرون) تشيرون من آمرته فامرني بكذا اذا شاورته فاشار عليك برأي وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم (قالوا أرجه) بسكون الهاء عاصم وحمزة أي أخر واحبس أي أخر أمره ولا تعجل أو كانه هم بقتله فقالوا أخر قتله واحبسه ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق (وأخاه) هرون

فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى (وأرسل في المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر (حاشرين) يعني رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل الى هذه المدائن رجالا من أعوانك وهم الشرط يحشرون اليك من فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا أنه ساحر فذلك قوله (يأتوك) يعني الشرط (بكل ساحر) وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدي في صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو الماهر الذي يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره وقتا دون وقت والسحار الذي يدوم سحره و يعمل في كل وقت (عليم) يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن اسحق والسدي ان فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا قال انا لا نقاتل موسى الا بمن هو أشد منه سحرا فاتخذ غلمانا من بني اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها الغوصاء يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كبيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة فجاؤا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لا يطيقه سحر أهل الارض الا أن يكون أمرا من السماء فانه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحرا الا أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني اسرائيل وقال الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثني عشر ألفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال السدي كانوا بضعا وثمانين ألفا ويقال رئيس القوم شمعون وقيل يوحنا ۞ قوله عز وجل (وجاء السحرة فرعون) يعني لما اجتمعوا وجاؤا الى فرعون (قالوا ان لنا لأجرا) يعني جعلا وعطاء تنكير منا به (ان كنا نحن الغالبين) يعني لموسى قال الامام فخر الدين الرازي ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا اذ جاؤا فاجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين يعني لموسى (قال نعم) يعني قال لهم فرعون لكم الاجر والعطاء (وانكم لمن المقربين) يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندي مع الاجر والمعنى ان فرعون قال للسحرة اني لا أقتصر معكم على الاجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة اني أجعلكم من المقربين عندي قال الكلبي تكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج من عندي (قالوا) يعني السحرة (ياموسى اما أن تلقي) يعني عصاك (واما أن نكون نحن الملقين) يعني عصينا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي ان السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الالقاء لاجرم ان الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم أن من عليهم بالايمان والهداية لما راعوا الادب أولا وأظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك (قال) يعني قال لهم موسى (ألقوا) يعني أنتم فقدمهم على نفسه في الالقاء فان قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالالقاء وقد علم انه سحر وفعل السحر غير جائز قلت ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فيه أجوبة أحدها ان معناه ان كنتم محقين في فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الجواب الثاني انما أمرهم بالالقاء لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا حبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه الجواب الثالث ان موسى علم انهم لابد أن يلقوا تلك الحبال والعصي وانما وقع التخيير في التقديم والتأخير فاذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضا بغلبهم لانه لو ألقى أولا لم يكن له غلب وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) يعني حبالهم وعصيهم (سحروا أعين الناس) يعني صرفوا أعين الناس عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لان السحر

(وأرسل في المدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر عليم) سحار حمزة وعلي أي يأتوك بكل ساحر عليم مثله في المهارة أو بخير منه (وجاء السحرة فرعون) يريد فارسل اليهم فحضروا (قالوا ان لنا لاجرا) على الخبر واثبات الاجر العظيم حجازي وحفص ولم يقل فقالوا لانه على تقدير سؤال سائل ما قالوا اذ جاؤا فاجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا جعلا على الغلبة والتنكير للتعظيم كأنهم قالوا لابد لنا من أجر عظيم (ان كنا نحن الغالبين قال نعم) ان لكم لاجرا (وانكم لمن المقربين) عندي فتكونون أول من يدخل وآخر من يخرج وكانوا ثمانين ألفا أو سبعين ألفا أو بضعة وثلاثين ألفا (قالوا ياموسى اما أن تلقي) عصاك (واما أن نكون نحن الملقين) لما معنا وفيه دلالة على ان رغبتهم في أن يلقوا قبله حيث أكد ضميرهم المتصل بالمنفصل وعرف الخبر (قال) لهم موسى عليه السلام (ألقوا) تخييرهم اياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل المناظرون قبل ان يتحاوروا في الجدال وقد سوغ لهم موسى ما رغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم واعتمادا على ان المعجزة لن يغلبها سحر أبدا (فلما ألقوا سحروا أعين الناس)

قلب الاعين وصرفها عن ادراك ذلك الشئ والمعجزة قلب نفس الشئ عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى (واسترهبوهم) يعنى أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى (وجاؤا) يعنى السحرة (بسحر عظيم) وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذاهى حيات كامثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات ويقال ان الارض كانت سخنها ميلا فى ميل فصارت كانها حيات وأفاعى ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لاجل سحرهم لانه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بان كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات فخاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى ۞ قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) يعنى فألقاها (فاذاهى تلقف) يعنى تبتلع (ما يأفكون) يعنى ما يكذب فيه السحرة لان أصل الافك قلب الشئ عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفاك لانه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل قال المفسرون أوحى الله عز وجل الى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فالقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هى تلقف يعنى تبتلع كل شئ أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا انه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) يعنى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) يعنى من السحر وذلك ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما نفدت وتلاشت فى عصا موسى علموا ان ذلك من أمر الله وقدرته (فغلبوا هنالك) يعنى فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجوعه (وانقلبوا صاغرين) يعنى ورجعوا ذليلين مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) يعنى ان السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس فى قدرتهم مقابلته وعلموا انه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك ان الله عز وجل ألهمهم معرفته والايمان به (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون اياى تعنون فقالوا بل (رب موسى وهرون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك وقيل ان الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو الا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه فان قلت كان يجب أن يأتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على هدايتهم اليه وعلى ما ألهمهم من الايمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك ايمانهم وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى أمر العصا وانه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر زالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا الى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم انهم أظهروا الايمان باللسان قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر

ملأت الارض وركب بعضها بعضا (واسترهبوهم) وأرهبوهم ارهابا شديدا كأنهم استدعوا ارهبتهم بالحيلة (وجاؤا بسحر عظيم) فى باب السحر أو فى عين من رآه (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف) تبتلع تلقف حفص (ما يأفكون) ما موصولة أو مصدرية يعنى ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق الى الباطل ويزورونه أو افكهم تسمية للمأفوك بالافك روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الاجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فحصل وثبت (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر (فغلبوا هنالك) أى فرعون وجنوده والسحرة (وانقلبوا صاغرين) وصاروا أذلاء مبهوتين (وألقى السحرة ساجدين) وخروا سجدا لله كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم أولم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا فكانوا أول النهار كفارا سحرة وفى آخره شهداء بررة (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) هو بدل مما قبله

(قال فرعون آمنتم به) على الخبر حفص وهذا تو بيخ منهم و بهمزتين كوفي غير حفص فالاولى همزة الاستفهام ومعناه الانكار الاستبعاد (قبل أن آذن لكم) قبل اذني لكم (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) ان صنعكم هذا الحيلة احتلتموها وأنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا الى الصحراء لغرض لكم وهو ان تخرجوا من مصر القبط وتسكنوا بني

اسرائيل (فسوف تعلمون) وعيد أجله ثم فصله بقوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لاصلبنكم أجمعين) هو أول من قطع من خلاف وصلب (قالوا انا الى ربنا منقلبون) فلا نبالي بالموت لانقلابنا الى لقاء ربنا ورحمته أوانا جميعا يمنون أنفسهم وفرعون ننقلب الى الله فيحكم بيننا (وماتنقم منا الا أن آمنا با يات ربنا لما جاءتنا) وما تعيب منا الا الايمان با آيات الله أرادوا وما تعيب منا الا ما هو أصل المناقب والمفاخر وهو الايمان ومنه قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصبب صبا ذريعا والمعنى هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء افراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الاسلام (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض) أرض مصر بالاستعلاء

خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ۞ قوله عز وجل (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) يعني قال فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة) يعني ان هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله (لتخرجوا منها أهلها) وتستولوا عليها أنتم (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد يعني فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو ان تقطع احدى اليدين واحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع (ثم لأصلبنكم أجمعين) يعني على شاطئ نيل مصر قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من صلب وأول من قطع الايدي والارجل فرعون (قالوا) يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل (انا الى ربنا منقلبون) يعني انا الى ربنا راجعون واليه صائرون في الآخرة (وماتنقم منا) وماتكره منا وماتطعن علينا وقال عطاء معناه ومالنا عندك من ذنب تعذبنا عليه (الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم فزعوا الى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون اياهم فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبرا وأي صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) يعني واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قال الكلبي ان فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى لايصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ۞ قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى) يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى (وقومه) من بني اسرائيل (ليفسدوا في الارض) يعني أرض مصر وأراد بالافساد فيها انهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله (ويذرك وآلهتك) يعني ونذره ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدُها قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلا وقال السدي كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى والاولى أن يقال ان فرعون كان دهريا منكرا لوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه هو المطاع والمخدوم في الأرض فلهذا قال أنا ربكم الاعلى وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك والهتك بكسر الالف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لان فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالالاهة الشمس والكواكب لانه كان يعبدها قال الشاعر

تروحنا من اللعباء قصرا ۞ وأعجلنا الالاهة أن تؤوبا

أراد بالالاهة الشمس (قال) يعني فرعون مجيبا لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) يعني نتركهن أحياء وذلك ان قوم فرعون لما أرادوا اغراء فرعون على قتل موسى وقومه أوجس موسى انزال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيئا مما أرادوا به لقوة موسى عليه السلام بما معه من المعجزة فعدل الى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وقال ابن عباس

فيها وتغيير دين أهلها لانه وافق السحرة على الايمان ستمائة ألف نفر (ويذرك وآلهتك) عطف على ليفسدوا قيل صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا اليه كما يعبد عبدة الاصنام الاصنام ويقولون ليقربونا الى الله زلفى ولذلك قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملأ (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم

وانا فوقهم قاهرون) سنقتل تجازي أي سنعيد عليهم قتل الابناء ليعلموا انا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وانهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ولئلا يتوهم العامة انه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم الى اتباعه (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون سنقتل أبناءهم تسلية لهم ووعدا بالنصر عليهم (ان الارض) اللام للعهد أي أرض مصر أو للجنس فيتناول أرض مصر تناولا أوليا (لله يورثها من يشاء من عباده) فيه تمنيتهم اياهم أرض مصر (والعاقبة للمتقين) اشارة بان الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط

وأخليت هذه الجملة عن الواو لانها جملة مستأنفة بخلاف قوله وقال الملأ لانها معطوفة على ما سبقها من قوله قال الملأ من قوم فرعون (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى الى أن استنبئ واعادته عليهم بعد ذلك وذلك اشتكاء من فرعون واستبطاء لوعد النصر (قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض) تصريح بما رمز اليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو اهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر (فينظر كيف تعملون) فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم وعن عمرو بن عبيد انه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم توجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي فينظر كيف تعملون (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) سني القحط وهن سبع سنين والسنة من الاسماء الغالبة كالدابة والنجم (ونقص من الثمرات) قيل السنون لاهل البوادي ونقص الثمرات للامصار (لعلهم يذكرون) ليتعظوا فينتهوا على أن ذلك لاصرارهم على الكفر ولان الناس في حال الشدة أضرع خدودا وأرق أفئدة وقيل عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروها في ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية

عباس رضي الله عنهما كان قد ترك القتل في بني اسرائيل بعد ما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون أعيدوا عليهم القتل فاعادوا القتل على بني اسرائيل والمعنى ان فرعون قال انما يتقوى موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقل شوكته ثم بين فرعون انه قادر على ذلك بقوله (وانا فوقهم قاهرون) يعني بالغلبة والقدرة عليهم ولما نزل ببني اسرائيل ما نزل شكوا الى موسى ما نزل بهم (قال موسى لقومه) يعني لما شكوا اليه (استعينوا بالله واصبروا) يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فان الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم (ان الارض لله) يعني أرض مصر وان كانت الارض كلها لله تعالى (يورثها من يشاء من عباده) وهذا اطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني اسرائيل ان يهلك فرعون وقومه ويملك بنو اسرائيل أرضهم وبلادهم بعد اهلاكهم وهو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) يعني ان النصر والظفر للمتقين على عدوهم وقيل أراد الجنة يعني ان عاقبة المتقين الصابرين الجنة (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما آمنت السحرة تبع موسى ستمائة ألف من بني اسرائيل والمعنى أن بني اسرائيل لما سمعوا مقالة فرعون ووعده بهم من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعني بالرسالة وذلك ان بني اسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الاعمال الشاقة الى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر والجواب عن هذا الايهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما رأوا انه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى مجيبا لهم (عسى ربكم ان يهلك عدوكم) يعني فرعون وقومه (ويستخلفكم في الارض) يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم (فينظر كيف تعملون) يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم قال الزجاج فيرى وقوع ذلك منكم لان الله تعالى لا يجازيهم بما يعلمه منهم وانما يجازيهم على ما يقع منهم ۞ قوله عز وجل (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) يعني بالقحط والجدب تقول العرب مستهم السنة بمعنى أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كما يقال أجدبوا قال الشاعر * ورجال مكة مسنتون عجاف * ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ومعنى الآية ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) يعني واتلاف الغلات بالآفات قال قتادة أما السنون فلاهل البوادي وأما نقص الثمرات فلاهل الامصار (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لان الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير ثم بين الله تعالى

انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا فقال تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) يعني الغيث والخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) أي نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) يعني القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون في أنفسهم (يطيروا) يعني يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم في قول جميع المفسرين (بموسى ومن معه) يعني انهم قالوا ما أصابنا بلاء الا حين رأيناهم وما ذلك الا بشؤم موسى وقومه قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروها قط ولو كان حصل له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط (ألا انما طائرهم عند الله) يعني ان نصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضي الله عنهما طائرهم ما قضى لهم وقدر عليهم من عند الله وفي رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه انه انما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعني ان ما أصابهم من الله تعالى وانما قال أكثرهم لا يعلمون لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب ولا يضيفونها الى القضاء والقدر ۞ قوله تعالى (وقالوا) يعني قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية) يعني من عند ربك فهي عندنا سحر وهو قولهم (لتسحرنا بها) يعني لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) يعني بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى (فارسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق دخل كلام بعضهم في بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا في الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بني اسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء في بيوت بني اسرائيل شيء وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على التحرك ولم يعملوا شيأ ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وقال مجاهد وعطاء الطوفان الموت وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن وقال أبو قلابة الطوفان الجدري وهم أول من عذبوا به ثم بقي في الارض وقال مقاتل الطوفان الماء طفا فوق حروثهم وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما ان الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيأ لم ينبته قبل ذلك من الكلا والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا ما كان هذا الماء الا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا في عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الابواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والامتعة وأكل مسامير الحديد في الابواب وغيرها وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بني اسرائيل من ذلك شيء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك

(فاذا جاءتهم الحسنة) الصحة والخصب (قالوا لنا هذه) أي هذه التي نستحقها (وان تصبهم سيئة) جدب ومرض (يطيروا) أصله يتطيروا فادغمت التاء في الطاء لانها من طرف اللسان وأصول الثنايا (بموسى ومن معه) تشاءموا بهم وقالوا هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا وانما دخل اذا في الحسنة وعرفت الحسنة وان في السيئة ونكرت السيئة لان جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته وأما السيئة فلا تقع الا في الندرة ولا يقع الا شيء منها (ألا انما طائرهم) سبب خيرهم وشرهم (عند الله) في حكمه ومشيئته والله هو الذي يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة قل كل من عند الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أصل مهما ماما فما الاولى للجزاء ضمت اليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء في قولك متى ما تخرج أخرج أينما تكونوا فأما نذهبن بك الا ان الالف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصري وهو في موضع النصب بتأتنا أي أيما شيء ومن آية تبيين لمهما والضمير في به وبها راجع الى مهما الا ان الاول ذكر على اللفظ والثاني أنث على المعنى لانها في معنى الآية وانما سموها آية اعتبارا لتسمية موسى أو قصدوا بذلك الاستهزاء (فارسلنا عليهم الطوفان) ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل قيل طفا الماء فوق حروثهم وذلك انهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر أحد أن يخرج من داره وقيل دخل الماء في بيوت القبط

فدعا موسى ربه عزوجل فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام خرج الى الفضاء فاشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا ماهو كافينا فما نحن بتاركي ديننا فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فاقاموا شهرا في عافية ثم بعث الله عزوجل عليهم القمّل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ان القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي القمل الدبى وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد وقال عطاء الخراساني هو القمل نفسه وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم قال اصحاب الاخبار أمر الله عزوجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يمشي الى كثيب رمل أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين الشمس فمشى الى ذلك الكثيب فضربه بعصاه فانهال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه فاذا أكل أحدهم طعاما امتلأ قملا قال سعيد بن المسيب القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة الى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبشارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا بموسى انا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا الى أخبث ما كانوا عليه من الاعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق ان نستيقن انه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دواب فدعا موسى عليهم بعد ما قاموا اشهرا في عافية فارسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وافنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد اناء ولا طعاما الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ الى حلقه فاذا أراد ان يتكلم يثب الضفدع فيدخل في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم وكان أحدهم اذا اضطجع ركبته الضفادع حتى تكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب الى شقه الآخر واذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع الى فيه ولا يعجن أحدهم عجينا الا امتلأ ضفادع ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديدا وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عزوجل على آل فرعون سمعت وأطاعت وجعلت تقذف بانفسها في القدور وهي تغلي على النار وفي التنانير وهي تفور فاثابها الله عزوجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا الى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقونه من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فاخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله عزوجل فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقامت عليهم سبعا من السبت الى السبت فاقاموا اشهرا في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا الى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فارسل الله عزوجل عليهم الدم فسال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والانهار يجدونه دما عبيطا فشكوا ذلك الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب الا الدم فقال سحركم فقالوا من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيأ من الماء الا دما عبيطا فكان فرعون يجمع بين القبطي والاسرائيلي على اناء واحد فيكون مايلي الاسرائيلي ماء ومايلي القبطي دما ويغرفان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دما وللاسرائيلي ماء حتى ان المرأة من آل فرعون تأتي الى المرأة من بني اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقني من مائك فتصب لها في قربتها فيصير في الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فتفعل ذلك فيصير دما ثم ان فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك

حتى قاموا في الماء الى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من الماء قطرة أو هو الجدري أو الطاعون

(والجراد) فأكلت زرعهم وثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بنى اسرائيل منها شئ (والقمل) وهى الدبى وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها والبراغيث أو كبار القردان (والضفادع) وكانت تقع فى طعامهم وشرابهم حتى

سبعة أيام لا يشربون الا الدم وقال زيد بن أسلم ان الدم الذى سلط الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا اليه ما يلقون وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان (والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يعنى يتبع بعضها بعضا وتفصيلها ان كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعا وبين كل عذابين مدة شهر (فاستكبروا) يعنى عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا قوما مجرمين) يعنى آل فرعون ۞ قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز) يعنى ولما نزل بهم العذاب الذى ذكره فى الآية المتقدمة من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التى تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم فى يوم واحد سبعون ألفا فأمسوا وهم لا يتدافنون (ق) عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى اسرائيل أو على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ۞ وقوله تعالى (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) يعنى بما أوصاك وقيل بما أنبأك وقيل بما عهد عندك من اجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) يعنى العذاب الذى وقع بنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل) يعنى لنصدقن بما جئت به ولنخلين بنى اسرائيل حتى يذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) يعنى بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام (الى أجل هم بالغوه) يعنى الى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت اهلاكهم بالغرق فى اليم (اذا هم ينكثون) يعنى اذا هم ينقضون العهد الذى التزموه فلم يفوا به واعلم أن ما ذكره الله تعالى فى هذه الآيات هى معجزات فى الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك أن العذاب كان مختصا بآل فرعون دون بنى اسرائيل فاختصاصه بالقبطى دون الاسرائيلى معجز وكون بنى اسرائيل فى أمان منه وعافية وقوم فرعون فى شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المسكن معجز أيضا فان اعترض معترض وقال ان الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة فى توالها عليهم واظهار الكثير منها فالجواب على مذهب أهل السنة ان الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وأما على قول المعتزلة فى رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون ان بعضهم كان يؤمن بتوالى تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده ۞ قوله عز وجل (فانتقمنا منهم) يعنى كافأناهم عقوبة لهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب (فأغرقناهم فى اليم) والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الاجل الذى أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم فى اليم يعنى فى البحر واليم الذى لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه قال الازهرى اليم معروف لفظة سريانية عربتها العرب ويقع اسم اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه فى اليم والمراد به نيل مصر وهو عذب (بأنهم كذبوا بآياتنا) يعنى أهلكناهم وأغرقناهم بسبب أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا (وكانوا عنها) يعنى عن آياتنا (غافلين) يعنى معرضين وقيل كانوا عن حلول النقمة بهم غافلين ولما كان الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزا لان الغفلة ليست من فعل الانسان ۞ قوله عز وجل (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) يعنى ومكنا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بنى اسرائيل

اذا تكلم الرجل تقع فى فيه (والدم) أى الرعاف وقيل مياههم انقلبت دما حتى ان القبطى والاسرائيلى اذا اجتمعا على اناء فيكون ما يلى الاسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما وقيل سال عليهم النيل دما (آيات) حال من الاشياء المذكورة (مفصلات) مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله أو مفرقات بين كل آيتين شهر (فاستكبروا) عن الايمان بموسى (وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز) العذاب الاخير وهو الدم أو العذاب المذكور واحدا بعد واحد (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) ما مصدرية أى بعهده عندك وهو النبوة والباء تتعلق بادع أى ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل) الى حد من الزمان (هم بالغوه) لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله (اذا هم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث ولم يؤخروه (فانتقمنا منهم) هو ضد الانعام كما أن العقاب هو ضد الثواب (فأغرقناهم فى اليم) هو البحر الذى لا يدرك قعره أو هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المنتفعين به يقصدونه (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) هم بنو

فقتلوا أبناءهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم (مشارق الارض ومغاربها) يعني أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها وقيل أراد بمشارق الارض ومغاربها لارض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وقيل أراد جميع جهات الارض وهو اختيار الزجاج قال لان داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بني اسرائيل وقد ملكا لارض ۞ وقوله عزوجل (التي باركنا فيها) يدل على أنها الارض المقدسة يعني باركنا فيها بالثمار والاشجار ولزروع والخصب والسعة (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل) يعني وتمت كلمة الله وهي وعدهم بالنصر على عدوهم والتمكين في لارض من بعدهم وقيل كلمة الله هي قوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الاحسن وتمامها انجاز ما وعدهم به من تمكنه في الارض واهلاك عدوهم (بما صبروا) يعني انما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من انجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم (ودمرنا) يعني وأهلكنا والدمار الهلاك باستئصال (ما كان يصنع فرعون وقومه) في أرض مصر من العمارات والبنيان (وما كانوا يعرشون) يعني يسقمون من ذلك البنيان وقال مجاهد ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن وما كانوا يعرشون من الثمار والاعناب ۞ قوله عز وجل (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هي وقطعنا ببني اسرائيل البحر بعد اهلاك فرعون وقومه واغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه اذا قطعه وخلفه وراء ظهره وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكر الله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) يعني فمر بنو اسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله قال ابن جريج كانت تلك الاصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل وقال قتادة كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك الاقوام من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم (قالوا) يعني قال بنو اسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال (ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة) يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أنت الها نعبده ونعظمه قال البغوي رحمه الله ولم يكن ذلك شكا من بني اسرائيل في وحدانية الله تعالى وانما معناه اجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه الى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني اسرائيل وذلك انهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (قال انكم قوم تجهلون) يعني تجهلون عظمة الله تعالى وانه لا يستحق أن يعبد سواه لانه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه فاغرقهم في البحر وأنجاكم منه عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان

اسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الارض ومغاربها) يعني أرض مصر والشام (التي باركنا فيها) بالخصب وسعة لارزاق وكثرة الانهار والاشجار (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل) هو قوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض أو ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض الى ما كانوا يحذرون والحسنى تانيث الاحسن صفة للكلمة وعلى صلة تمت أي مضت عليهم واستمرت من قولك تم على الامر اذا مضى عليه (بما صبروا) بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على ان من قابل البلاء بالجزع وكله الله اليه ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج (ودمرنا) أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات وبناء القصور (وما كانوا يعرشون) من الجنات أو ما كانوا يرفعون من الابنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وبضم الراء شامي وأبو بكر وهذا آخر قصة فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله ثم أتبعه قصة بني اسرائيل وما أحدثوه بعد انقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وغير ذلك ليتسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رآه من بني اسرائيل بالمدينة (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) روي أنهم عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله فرعون وقومه فصاموه شكر الله (فأتوا على قوم) فمروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) يواظبون على عبادتها وكانت تماثيل بقر وبكسر الكاف حمزة وعلي (قالوا ياموسى اجعل لنا الها) صنما نعكف عليه (كما لهم آلهة) أصنام يعكفون عليها وما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها قال يهودي لعلي رضي الله عنه اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال قلتم اجعل لنا الها ولم تجف أقدامكم (قال انكم قوم تجهلون) تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده

(ان هؤلاء) يعنى عبدة تلك التماثيل (متبر) مهلك من التبار (ماهم فيه) أى يتبر الله و يهدم دينهم الذى هم عليه على يدى وفى ايقاع هؤلاء اسما لان وتقديم خبر المبتدا من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الاصنام بانهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة (وباطل ما كانوا يعملون) أى ماعملوا من عبادة الاصنام باطل مضمحل (قال أغير الله أبغيكم الها) أى أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودا

(وهو فضلكم على العالمين) حال أى على عالمى زمانكم (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أنجاكم شامى (يسومونكم سوء العذاب) يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة اذا طلبها وهو استئناف لا محل له أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يقتلون نافع (وفى ذلكم) أى فى الانجاء أو فى العذاب (بلاء) نعمة أو محنة (من ربكم عظيم وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) لاعطاء التوراة (وأتممناها بعشر) روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهى شهر ذى القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فأوحى الله اليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك (فتم ميقات ربه) ما وقت له من الوقت وضربه له (أربعين ليلة) نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد ولقد أجمل ذكر الاربعين فى البقرة وفصلها هنا (وقال موسى لأخيه هرون) هو عطف بيان لأخيه (اخلفنى فى قومى) كن خليفتى فيهم (وأصلح) ما يجب أن يصلح من أمور بنى اسرائيل (ولا تتبع سبيل المفسدين) ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه

الله هذا كم قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم أخرجه الترمذى ۞ وقوله تعالى (ان هؤلاء متبر ماهم فيه) أى مهلك والتتبير الاهلاك (وباطل ما كانوا يعملون) البطلان عبارة عن عدم الشئ اما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضرا لانه عمل لغير الله تعالى فكان باطلا لا نفع فيه (قال أغير الله أبغيكم الها) لما قال بنو اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيبا لهم على سبيل التعجب والانكار عليهم أغير الله أبغيكم الها يعنى أطلب لكم وأبغى لكم الها (وهو فضلكم على العالمين) والمعنى أن الاله ليس هو شيأ يطلب ويلتمس ويتخير بل الاله هو الذى فضلكم على العالمين لانه القادر على الانعام والافضال فهذا هو الذى يستحق أن يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعنى على عالمى زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التى لم تحصل لغيرهم وان كان غيرهم أفضل منهم ۞ قوله عز وجل (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) هذه الآية تقدم تفسيرها فى سورة البقرة والفائدة فى ذكرها فى هذا الموضع أنه تعالى هو الذى أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ۞ قوله عز وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يعنى وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهى ذو القعدة (وأتممناها بعشر) يعنى عشر ذى الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد قال المفسرون ان موسى عليه الصلاة والسلام وعد بنى اسرائيل اذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل أن ينزل عليه الكتاب الذى وعد به بنى اسرائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوما فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذى الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فكانت فتنة بنى اسرائيل فى تلك العشر التى زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل ان الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام ان يصوم ثلاثين يوما ويعمل فيها ما يتقرب به الى الله ثم كلمه وأعطاه الالواح فى العشر التى زادها فلهذا قال وأتممناها بعشر وهذا التفصيل الذى ذكره هنا هو تفصيل ما أجمله فى سورة البقرة وهو قوله تعالى واذ واعدنا موسى أربعين ليلة فذكره هناك على الاجمال وذكره هنا على التفصيل ۞ وقوله تعالى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) يعنى فتم الوقت الذى قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لان الميقات هو الوقت الذى قدر أن يعمل فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج (وقال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى) يعنى كن أنت خليفتى فيهم من بعدى حتى أرجع اليك (وأصلح) يعنى وأصلح أمور بنى اسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الرفق بهم والاحسان اليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) يعنى ولا تسلك طريق المفسدين فى الارض ولا تطعهم والمقصود من هذا الامر التأكيد لان هرون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبى

وكقولك

وكقولك للقاعد اقعد بمعنى دم على ما أنت عليه من القعود ﴿قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) يعنى للوقت الذى وقتناه ان يأتى فيه لمناجاتنا وهو قوله (وكلمه ربه) وفى هذه الآية دليل على ان الله عزوجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس فى كلام الله تعالى فقال الزمخشرى كلمه ربه عزوجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه ان يخلق الكلام منطوقا به فى بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا فى الالواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولاشك فى بطلانه وفساده لان الشجرة أو ذلك الجرم لا يقول اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم الى ان كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم وذهب جمهور المتكلمين الى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا ان موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الازلية الحقيقية وقالوا كما انه لا يبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف ان الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض فى تأويله وحقيقته قال أهل التفسير والاخبار لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفى القصة ان الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهوام الارض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما فى الهواء ورأى العرش بارزا وأدناه ربه حتى سمع صريف الاقلام على الالواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عزوجل واشتاق الى رؤيته (قال رب أرنى أنظر اليك) قال الزجاج فيه اختصار تقديره أرنى نفسك أنظر اليك وقال ابن عباس معناه اعطنى أنظر اليك وانما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بان الله تعالى لا يرى فى الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنواع الجلال حتى استغرق فى بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل انما سأل الرؤية ظنا منه بانه تعالى يرى فى الدنيا فتعالى الله عن ذلك (قال لن ترانى) يعنى ليس لبشر ان يرانى فى الدنيا ولا يطيق النظر الى فى الدنيا ومن نظر الى فى الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام الهى سمعت كلامك فاشتقت الى النظر اليك ولأن أنظر اليك ثم أموت أحب الى من أن أعيش ولا أراك وقال السدى لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله ابليس الخبيث فى الأرض حتى خرج من بين قدمى موسى فوسوس اليه ان مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال رب أرنى أنظر اليك قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام لن ترانى

﴿فصل﴾ وقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى لن ترانى قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم فى ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم فى ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه فى أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى فى صفة اليهود ولن يتمنوه أبدا مع انهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى ونادوا يامالك ليقض علينا ربك وقوله ياليتها كانت القاضية فان قالوا ان لن معناها تأكيد النفى كلا التى تنفى فى المستقبل قلنا ان صح هذا التأويل فيكون معنى لن ترانى محمولا على الدنيا أى لن ترانى فى الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فانه قد ثبت فى الحديث الصحيح ان المؤمنين يرون ربهم عزوجل يوم القيامة فى الدار الآخرة وأيضا فان موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفا بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عزوجل وفى الآية دليل على انه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا ان الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضا فان الله عزوجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من

(ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذى وقتناه وحددنا ومعنى اللام الاختصاص أى اختص مجيئه لميقاتنا (وكلمه ربه) بلا واسطة ولا كيفية وروى انه كان يسمع الكلام من كل جهة وذكر الشيخ فى التأويلات أن موسى عليه السلام سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتا تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسبا لاحد من الخلق وغيره يسمع صوتا مكتسبا للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى فلما سمع كلامه طمع فى رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله (قال رب أرنى أنظر اليك) ثانى مفعولى أرنى محذوف أى أرنى ذاتك أنظر اليك يعنى مكنى من رؤيتك بان تتجلى لى حتى أراك أرنى مكى وبكسر الراء مختلسة أبو عمرو وبكسر الراء مشبعة غيرهما وهو دليل لاهل السنة على جواز الرؤية فان موسى عليه السلام اعتقد ان الله تعالى يرى حتى سأله واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر (قال لن ترانى)

ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وانما قلنا ذلك لانه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) وهو أمر جائز الوجود في نفسه واذا كان كذلك ثبت ان رؤيته جائزة الوجود لان استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلي اذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالا والله أعلم بمراده قال وهب ومحمد بن اسحق لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربع فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات ان يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس باصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى رب اني كنت عن هذا غنيا ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وبدنه ثم قال لقد ندمت على مسئلتي فهل ينجيني مما أنا فيه شئ فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة ان اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم حلب كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم مكانك يا ابن عمران حتى ترى مالا صبر لك عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شئ من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شئ من أصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى ان يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران مكانك حتى ترى مالا تصبر عليه ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوأ من الشمس ولباسهم كلهب النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا ان خرجت احترقت وان أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لا يموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقا على وجهه ليس معه روحه فارسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الارباب ومالك الملوك والاله العظيم لا يعدلك شئ ولا يقوم لك شئ رب تبت اليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلك يارب العالمين فذلك ۞ قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل

بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية وهو دليل لنا أيضا لانه لم يقل لن أرى ليكون نفيا للجواز ولو لم يكن مرئيا لاخبر بانه ليس بمرئي اذ الحالة حالة الحاجة الى البيان (ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه) بقي على حاله (فسوف تراني) وهو دليل لنا أيضا لانه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن وتعليق الشئ بما هو ممكن يدل على امكانه كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه والدليل على انه ممكن قوله جعله دكا لم يقل اندك وما أوجده تعالى كان جائزا أن لا يوجد لو لم يوجده لانه مختار في فعله ولانه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالا لعاتبه كما عاتب نوحا عليه السلام بقوله اني أعظك أن تكون من الجاهلين حيث سأل انجاء ابنه من الغرق (فلما تجلى ربه

للجبل) أي ظهر و بان ظهورا بلا كيف قال الشيخ أبو منصور رحمه الله معنى التجلي للجبل ماقاله الاشعري انه تعالى خلق فى الجبل حياة وعلما ورؤية حتى رأى ربه وهذا نص فى اثبات كونه مرئيا وبهذه الوجوه يتبين جهل منكري الرؤية وقولهم بان موسى عليه السلام كان عالما بانه لا يرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فطلب الرؤية ليبين الله تعالى انه ليس بمرئي باطل اذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا اليك ثم يقول له لن يروني

ولانها لو لم تكن جائزة لما أخر موسى عليه السلام الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلام سمعه لما فيه من التقرير على الكفر وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره ألا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله انكم قوم تجهلون (جعله دكا) مدكوكا مصدر بمعنى المفعول كضرب الامير والدق والدك اخوان دكاء جزرة وعلى أي مستوية بالارض لا أكمة فيها وناقة دكاء لاسنام لها (وخر موسى صعقا) حال أي سقط مغشيا عليه (فلما أفاق) من صعقته (قال سبحانك تبت اليك) من السؤال فى الدنيا (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك وبأنك لا تعطى الرؤية فى الدنيا مع جوازها وقال الكعبي والاصم معنى قوله أرني أنظر اليك أرني آية أعلمك بها بطريق الضرورة كاني أنظر اليك لن تراني لن تطيق معرفتي بهذه الصفة ولكن انظر الى الجبل فاني أظهر له آية فان ثبت الجبل لتجليها واستقر مكانه فسوف تثبت لها وتطيق وهذا فاسد لانه قال أرني أنظر اليك ولم يقل أرني اليها وقال لن تراني ولم يقل لن ترى آيتي وكيف يكون معناه لن ترى آيتي وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكا (قال ياموسى اني اصطفيتك على الناس) اخترتك على أهل زمانك (برسالاتي) هي أسفار التوراة برسالاتي حجازي (وبكلامي) وبتكليمي اياك

للجبل جعله دكا) قال ابن عباس ظهر نور ربه للجبل فصار ترابا واسم الجبل زبير وقال الضحاك أظهر الله عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ما تجلى للجبل من عظمة الله تعالى الا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدي ما تجلى الا قدر الخنصر يدل عليه ماروى ثابت عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الابهام على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال حماد هكذا وأمسك بطرف ابهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساخ الجبل وخر موسى عليه السلام صعقا وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من حديث حماد بن سلمة ويروى عن سهل بن سعد الساعدي ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا يعني مستويا بالارض وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملا هائلا وقال الكلبي جعله دكا يعني كسرا جبالا صغارا وقيل انه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهي أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهي ثور وثبير وحراء ۞ وقال تعالى (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن يعني مغشيا عليه وقال قتادة يعني ميتا والاول أصح لقوله (فلما أفاق) والميت لا افاقة له انما يقال أفاق من غشيته قال الكلبي صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر وقال الواقدي لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات مالابن عمران وسؤال الرؤية وفى بعض الكتب ان ملائكة السموات أتوا موسى وهو فى غشيته فجعلوا يركلونه و يقولون ياابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة فلما أفاق يعني من غشيته ورجع عقله اليه وعرف انه سأل أمرا عظيما لا ينبغي له (قال سبحانك) يعني تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) يعني من مسئلتي الرؤية بغير اذنك وقيل من سؤال الرؤية فى الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك يعني من سؤالي ماليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك يعني من هذا السؤال وحسنات الابرار سيآت المقربين (وأنا أول المؤمنين) يعني بانك لا ترى فى الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعني من بني اسرائيل بقي فى الآية سؤالات الاول ان الرؤية عين النظر فكيف قال أرني أنظر اليك وعلى هذا يكون التقدير أرني حتى أراك والجواب عنه ان معنى قوله أرني اجعلني متمكنا من رؤيتك حتى أنظر اليك وأراك السؤال الثاني كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر الي حتى يكون مطابقا لقوله أنظر اليك والجواب ان النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه السؤال الثالث كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله ولكن انظر الى الجبل بما قبله والجواب ان المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وان أحدا لا يقوى على رؤيته تعالى الا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى انه لما ظهر أثر التجلي للجبل اندك وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لانه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده ۞ قوله عز وجل (قال ياموسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) يعني قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ياموسى اني

اخترتك واتخذتك صفوة والاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى انى فضلتك واجتبيتك على الناس وفى هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لان الله تعالى عدد عليه نعمه التى أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كانه قال له ان كنت منعت من الرؤية التى طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها وهى الاصطفاء على الناس برسالاتى و بكلامى يعنى من غير واسطة لان غيره من الرسل منع كلام الله تعالى الا بواسطة الملك فان قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتى مع ان كثيرا من الانبياء قد ساواه فى الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين أحدهما ذكره البغوى فقال لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله اصطفيتك على الناس وان شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتى وان كان قد شاور غيره اذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيما وفى هذا الجواب نظر لان من جملة من اصطفاه الله برسالته محمدا صلى الله عليه وسلم وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثانى ذكره الامام فخر الدين الرازى فقال ان الله تعالى بين انه خصه بمجموع أمرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت انه انما حصل التخصيص ههنا لانه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وانما كان الكلام بغير واسطة سببا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لان من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضا لان محمدا صلى الله عليه وسلم اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه يا محمد يدل عليه قوله فأوحى الى عبده ما أوحى ورفعه الى حيث سمع صريف الاقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الانبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضا والذى يعتمد فى الجواب عن هذا السؤال ان الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته و بكلامه على الناس الذين كانوا فى زمانه وذلك انه لم يكن فى ذلك الوقت أعلى منصبا ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك على انه اصطفاه على ناس زمانه كما اصطفى قومه على عالمى زمانهم وهو قوله تعالى يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين قال المفسرون يعنى على عالمى زمانهم ۞ وقوله تعالى (فخذ ما آتيتك) يعنى ما فضلتك وأكرمتك به (وكن من الشاكرين) يعنى على انعامى عليك وفى القصة ان موسى عليه الصلاة والسلام كان بعدما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذلك لك ان لم تتزوجى بعدى فان المرأة لآخر أزواجها ۞ قوله تعالى (وكتبنا له فى الالواح) قال ابن عباس يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى فى ألواح التوراة قال البغوى وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الالواح من خشب وقال الكلبى من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال الربيع بن أنس كانت الالواح من زبرجد وقال وهب أمره الله بقطع ألواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شققها باصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صريف الاقلام بالكلمات العشرة وكان ذلك فى أول يوم من ذى الحجة وكان طول الالواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة فاعطاه الله التوراة يوم النحر وهذا أقرب الى الصحيح واختلفوا فى عدد الالواح فروى عن ابن عباس

(فخذ ما آتيتك) أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على النعمة فى ذلك فهى من أجل النعم قيل خر موسى صعقا يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر ولما كان هرون وزيرا وتابعا لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه

انها كانت سبعة ألواح وروى عنه انها لوحان واختاره الفراء قال وانما جمعت على عادة العرب فى اطلاق
الجمع على الاثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح وقال مقاتل كانت تسعة وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة
وهى وقر سبعين بعيرا يقرأ الجزء منه فى سنة ولم يقرأها الا الأربعة نفر موسى و يوشع بن نون وعزير وعيسى
عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعنى لم يحفظها و يقرأها عن ظهر قلبه الا هؤلاء الاربعة وقال
الحسن هذه الآية فى التوراة بالف آية يعنى قوله (وكتبنا له فى الالواح من كل شئ) يعنى يحتاج اليه
من أمر ونهى (موعظة) يعنى نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير عما يخاف عاقبته
(وتفصيلا لكل شئ) يعنى وتبيينا لكل شئ من الامر والنهى والحلال والحرام والحدود والاحكام مما
يحتاج اليه فى أمور الدين وروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه قال كتب له يعنى فى التوراة لا تشرك
بى شيأ من أهل السماء ولا من أهل الارض فان كل ذلك خلقى ولا تحلف باسمى كاذبا فان من حلف باسمى
كاذبا فلا أزكيه ووقر والديك وروى البغوى باسناد الثعلبى عن كعب الاحبار ان موسى عليه الصلاة
والسلام نظر فى التوراة فقال انى أجد أمة خير الامم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلون الاعور الدجال
رب اجعلهم أمتى قال هى أمة محمد يا موسى فقال رب انى لاجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون
اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال رب انى أجد فى التوراة أمة يأكلون
كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون
المشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يارب انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله
واذا هبط واديا حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم
بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال هى أمة
محمد قال يارب انى أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة بمثلها وان عملها كتبت
بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال يارب انى أجد أمة مرحومة
ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد
أحدا منهم الا مرحوما فاجعلهم أمتى قال هى أمة محمد قال رب انى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون
ألوان ثياب أهل الجنة يصفون فى صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل
لا يدخل النار أحد منهم أبدا الا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء البحر فاجعلهم أمتى قال هى
أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذى اعطاه الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته قال ياليتنى من
أصحاب محمد فاوحى الله اليه ثلاث آيات يرضيه بهن ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى
الى قوله سأريكم دار الفاسقين ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضى موسى كل
الرضا ۞ وقوله تعالى (فخذها بقوة) يعنى وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام اذ كتبنا له فى الالواح من كل
شئ خذها بجد واجتهاد وقيل معناه خذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لان من أخذ شيأ بضعف
نية أداه الى الفتور (وأمر قومك يأخذوا باحسنها) قال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا
أمثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من
قومه فامر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله وأمر قومك يأخذوا باحسنها يدل على ان بين التكاليف فرقا
ليكون فى هذا الفصل فائدة وهى ان التكليف كان على موسى أشد لانه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره من
قومه فان قلت ظاهر قوله تعالى يأخذوا باحسنها يدل على ان فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى
قوله يأخذوا باحسنها قلت ان التكاليف كلها حسن و بعضها أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن

السلام (وكتبنا له فى الالواح) الالواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح وقيل سبعة وكانت من زمرد وقيل من خشب نزلت من السماء فيها التوراة (من كل شئ) فى محل النصب على انه مفعول كتبنا (موعظة وتفصيلا لكل شئ) بدل منه والمعنى كتبنا له كل شئ كان بنو اسرائيل محتاجين اليه فى دينهم من المواعظ وتفصيل الاحكام وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها الا الأربعة نفر موسى و يوشع وعزير وعيسى (فخذها) فقلنا له خذها عطفا على كتبنا والضمير للالواح أو لكل شئ لانه فى معنى الاشياء (بقوة) بجد وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل (وأمر قومك يأخذوا باحسنها) أى فيها ماهو حسن وأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل فى الحسن وأكثر للثواب كقوله واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم

(سأريكم دار الفاسقين) دار فرعون وقومه وهي مصر ومنازل عاد وثمود والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم أو جهنم (سأصرف عن آياتي) عن فهمها قال ذو النون قدس الله روحه أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن (الذين يتكبرون) (١٤٠) يتطاولون عن قبول الحق وحقيقته التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري عزت قدرته (في الارض بغير الحق) هو حال أي يتكبرون غير محقين لان التكبر بالحق لله وحده (وان يروا كل آية) من الآيات المنزلة عليهم (لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) طريق صلاح الامر أو طريق الهدى الرشد حمزة وعلى وهما كالسقم والسقم (لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي) الضلال (يتخذوه سبيلا) ومحل (ذلك) الرفع أي ذلك الصرف (بأنهم كذبوا بآياتنا) بسبب تكذيبهم (وكانوا عنها غافلين) غفلة عناد واعراض لا غفلة سهو وجهل (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) هو من اضافة المصدر الى المفعول به أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها (حبطت أعمالهم) خبر والذين (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) وهو تكذيب الاحوال بتكذيب الارسال (واتخذ قوم موسى من بعده) من بعد ذهابه الى الطور (من حليهم) وانما نسب اليهم مع انها كانت عواري في أيديهم لان الاضافة تكون لادنى ملابسة وفيه دليل على ان من حلف أن لا يدخل دار فلان فبقى فدخل دارا استعارها يحنث على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم وفيه دليل على ان الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها ثم المتخذ هو السامري ولكنهم رضوا به فاسند الفعل اليهم والحلي جمع حلي وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة حليهم حمزة وعلى بالاتباع

وكالانتصار حسن والصبر أحسن منه فامروا أن يأخذوا بالاشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم في الثواب فهو كقوله اتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقيل ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والاحسن الاخذ بالاشد والاشق على النفس وقيل معناه بأحسنها بحسنها وكلها حسن ۞ وقوله تعالى (سأريكم دار الفاسقين) قال مجاهد يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا أمثالهم وقال قتادة سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر وقال السدي يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها اذا سافروا ۞ قوله عز وجل (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لايؤمنوا بي عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم الحق وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكر في خلق السموات والارض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لاهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والاكثرون على ان الآية عامة وفيه دليل لمذهب أهل السنة على ان الله تعالى يهدي من يشاء و يضل من يشاء و يصرف عن آياته وقبول الحق من يشاء و يوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لانه القادر على ما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وان لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون الا لله عز وجل لانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لاحد سواه فالتكبر في حق الله عز وجل صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لانه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لا من التكبر أي يفتعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الارض بغير الحق بل بالباطل (وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب (لا يتخذوه سبيلا) يعني لا يختاروه لانفسهم طريقا يسلكونه الى الهداية (وان يروا سبيل الغي) يعني طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) يعني ذلك الذي اختاروه لانفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب انهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده (وكانوا عنها غافلين) يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب (حبطت أعمالهم) يعني بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى انه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والاحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية ان ذلك ليس ينفعهم مع كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وانكارهم الدار الآخرة والبعث (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) يعني هل يجزون في العقبى الا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا ۞ قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) يعني من بعد انطلاق موسى الى الجبل لمناجاة ربه عز وجل (من حليهم) يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك ان بني اسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم الى أن أهلك الله فرعون وقومه

(عجلا) مفعول اتخذ (جسدا) بدل منه أي بدنا ذا لحم ودم كسائر الاجساد (له خوار) هو صوت البقر والمفعول الثاني محذوف أي الها ثم عجب من عقولهم السخيفة فقال (ألم يروا) حين اتخذوه الها (انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى يختاروه على من لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته وهو الذي هدى الخلق

فبقي الحلي لبني اسرائيل ملكا لهم فلذلك قال الله تعالى من حليهم فلما أبطأ موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلا مطاعا في بني اسرائيل فلذلك قال تعالى واتخذ قوم موسى والمتخذ هو واحد فنسب الفعل الى الكل لانه كان برضاهم فكانهم أجمعوا عليه وكان السامري رجلا صائغا فصاغ لهم (عجلا جسدا) يعني من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة وألقى في ذلك العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلا جسدا لحما ودما (له خوار) هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل ان ذلك الصوت كان خفيق الريح وذلك انه جعله مجوفا ووضع في جوفه أنابيب على وضع مخصوص فاذا هبت الريح دخلت في تلك الانابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر والقول الاول أصح لانه كان يخور وقيل انه خار مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا وكلما خار سجدوا له واذا سكت رفعوا رؤسهم قال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدي كان يخور ويمشي (ألم يروا) يعني الذين عبدوا العجل وقيل ان بني اسرائيل كلهم عبدوا العجل الا هرون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى واتخذ قوم موسى من بعده وهذا يفيد العموم وقيل ان بعضهم عبدوا العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى انه خرج على الاغلب وكذا قوله ألم يروا (انه) يعني العجل الذي عبدوه (لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) يعني ان هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي الى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح لان يعبد (اتخذوه وكانوا ظالمين) يعني لانفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذي يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذي لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم الى رشد وصواب قوله عز وجل (ولما سقط في أيديهم) يعني ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر سقط في يده وذلك لان من شأن من اشتد ندمه على أمر ان يعض على يده ثم يضرب على فخذه فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن النزول من أعلى الى أسفل (ورأوا أنهم قد ضلوا) يعني وتيقنوا انهم على الضلالة في عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) يعني يتب علينا ويتجاوز عنا (لنكونن من الخاسرين) يعني الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه من الذنب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى في اقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران ان لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على ما فرط منه وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم وهو قوله تعالى (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا) يعني ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه الى قومه في بني اسرائيل رجع غضبان أسفا لان الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وان السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الاسف أشد الغضب وقال ابن عباس والسدي الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدي والقولان متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب فاذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت واذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والاخرى غضبا فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان على قومه لاجل عبادتهم العجل أسفا حزينا لان الله تعالى فتنهم وان الله تعالى قد أعلمه بذلك فحزن لاجل ذلك (قال) يعني موسى عليه الصلاة والسلام لقومه (بئسما خلفتموني من بعدي)

الى سبيل الحق بما أركز في العقول من الادلة وبما أنزل في الكتب ثم ابتدأ فقال (اتخذوه) الها فاقدموا على هذا الامر المنكر (وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم) ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل وأصله أن من اشتد ندمه أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لان فاه وقع فيها وسقط مسند الى في أيديهم وهو من باب الكناية وقال الزجاج معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وان استحال أن يكون في اليد تشبيها لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين (ورأوا انهم قد ضلوا) وتبينوا ضلالهم تبينا كأنهم أبصروه بعيونهم (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا حمزة وعلي وانتصاب ربنا على النداء (لنكونن من الخاسرين) المغبونين في الدنيا والآخرة (ولما رجع موسى) من الطور (الى قومه) بني اسرائيل (غضبان) حال من موسى (أسفا) حال أيضا أي حزينا (قال بئسما خلفتموني) قمتم مقامي وكنتم خلفائي (من بعدي) والخطاب لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لهرون ومن معه من المؤمنين ويدل عليه قوله اخلفني في قومي والمعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله أو حيث لم تكفوا عن عبادة غير الله وفاعل بئس مضمر يفسره ما خلفتموني

والمخصوص بالذى محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ومعنى من بعدى بعد قوله خلفتمونى من بعد ما رأيتم منى
من توحيد الله ونفى الشركاء عنه ومن بعد ما كنت أحمل بنى اسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة البقر حين قالوا اجعل لنا الها كما
لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف (أعجلتم) أسبقتم بعبادة العجل (أمر ربكم) وهو اتيانى لكم

بالتوراة بعد أربعين ليلة وأصل العجلة طلب الشئ قبل حينه وقيل عجلتم بمعنى تركتم (وألقى الالواح) ضجرا عند استماعه حديث العجل غضبا لله وكان فى نفسه شديد الغضب وكان هرون ألين منه جانبا ولذلك كان أحب الى بنى اسرائيل من موسى فتكسرت فرفعت ستة أسباعها وبقى سبع واحد وكان فيما رفع تفصيل كل شئ وفيما بقى هدى ورحمة (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه غضبا عليه حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل (يجره اليه) عتابا عليه لا هوانا به وهو حال من موسى (قال ابن أم) بنى الابن مع الام على الفتح كخمسة عشر وبكسر الميم حمزة وعلى وشامى لان أصله أمى فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة وكان ابن أمه وأبيه وانما ذكر الام لانها كانت مؤمنة ولان ذكرها أدعى الى العطف (ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) أى انى لم آل جهدا فى كفهم بالوعظ والانذار ولكنهم
استضعفونى وهموا بقتلى (فلا تشمت بى الاعداء) الذين عبدوا العجل أى لا تفعل بى ما هو أمنيتهم من
من الاستهانة بى والاساءة الى (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى قرينا لهم بغضبك على فلما اتضح له عذر أخيه (قال رب اغفرلى ولاخى)
ليرضى أخاه وينفى الشماتة عنه باشراكه معه فى الدعاء والمعنى اغفرلى ما فرط منى فى حق أخى ولاخى ان كان فرط فى حسن الخلافة (وأدخلنا
فى رحمتك) عصمتك فى الدنيا وجنتك فى الآخرة (وأنت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل) الها (سينالهم غضب

أى بئس الفعل فعلتم بعد فراقى اياكم وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامرى وأتباعه أو لهرون والمؤمنين من بنى اسرائيل فعلى الاحتمال الاول فى انه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله وعلى الاحتمال الثانى وهو أن يكون الخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم منى الامر بتوحيد الله تعالى واخلاص العبادة له ونفى الشركاء عنه وحمل بنى اسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة مستخلفهم ۞ وقوله (أعجلتم أمر ربكم) معنى العجلة التقدم بالشئ قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشئ فى أول وقته وللقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام وعجلت اليك رب لترضى ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له وقال الحسن أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الاربعين وذلك انهم قدروا انه ان لم يات على رأس الثلاثين فقد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل وقال الكلبى معناه اعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم * ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع الى قومه غضبان أسفا ذكر بعده ما أوجبه الغضب فقال تعالى (وألقى الالواح) يعنى التى فيها التوراة وكان حاملا لها فالقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الاخبار كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الالواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقى سبع واحد فرفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال والحرام وروى أن الله تعالى أخبر موسى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام ان ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع الى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة (وأخذ برأس أخيه يجره اليه) قيل انه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الانبارى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فاقبل على أخيه هرون يلومه ومد يده الى رأسه لشدة موجدته عليه اذ لم يلحق به فيعرفه خبر بنى اسرائيل فيرجع ويتلافاهم فاعلمه هرون عليه السلام انه انما أقام بين أظهرهم خوفا على نفسه من القتل وهو قوله تعالى (قال) يعنى هرون (ابن أم) انما قال هرون لموسى ابن أم وان كانا لاب وأم ليرققه ويستعطفه عليه (ان القوم) يعنى الذين عبدوا العجل (استضعفونى) أى استذلونى وقهرونى (وكادوا يقتلوننى) أى وقاربوا أو هموا أن يقتلونى (فلا تشمت بى الاعداء) أصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما نال منى من مكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يعنى الذين عبدوا العجل (قال رب اغفرلى) يعنى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هرون قال رب اغفرلى ما صنعت الى أخى هرون يريد ما أظهر من الموجدة عليه فى وقت الغضب (ولاخى) يعنى واغفر لاخى هرون ان كان وقع منه تقصير فى الانكار على عبدة العجل (وأدخلنا) يعنى جميعا (فى رحمتك) يعنى فى سعة رحمتك (وأنت أرحم الراحمين) وهذا فيه دليل على الترغيب فى الدعاء لان من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبته (ان الذين اتخذوا العجل) يعنى الها عبدوه من دون الله (سينالهم غضب

من ربهم وذلة في الحياة الدنيا) يعني سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك في عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين في هذه الآية قولان أحدهما ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادته وعلى هذا القول ففي الآية سؤال وهو أن أولئك الاقوام الذين اتخذوا العجل تابوا الى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمر الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة والجواب أن ذلك الغضب انما حصل لهم في الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على نفسهم بالضلال والخطأ فان قلت السين في قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضي قلت هذا الكلام انما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله في ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقوعه وهو القتل الذي أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج في هذه الآية ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل ولمن فر من القتل وهذا الذي قاله ابن جريج وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلافه القول الثاني ان المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة في الدنيا الجزية وقال عطية العوفي سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وبني قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول ففي تقرير الآية وجهان الاول ان العرب تعير الابناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك في المناقب فتقول للابناء فعلتم كذا وفعلتم كذا وانما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك ههنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم اتخذوا العجل وان كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا في زمنه بانهم سينالهم غضب من ربهم في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا الوجه الثاني ان تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى ان الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه ۞ وقوله تعالى (وكذلك نجزي المفترين) يعني وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل الها نجزي كل من افترى على الله كذبا أو عبد غيره وقال أبو قلابة هي والله جزاء كل مفتر الى يوم القيامة ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا في كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن أنس ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر في دين الله (والذين عملوا السيآت) يعني عملوا الاعمال السيئة ويدخل في ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه (ثم تابوا من بعدها) يعني ثم رجعوا الى الله من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) يعني وصدقوا بالله تعالى وانه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب (ان ربك) يا محمد أو يا أيها الانسان التائب (من بعدها) يعني من بعد توبتهم (لغفور رحيم) يعني انه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفي الآية دليل على ان السيآت بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة في التوبة وان الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وتقدير الآية ان من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين ۞ قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) يعني سكن لان السكوت أصله الامساك عن الشيء ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير في سكون الغضب لان الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بقوته دالا على ما في نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلما به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة في رأسي والمعنى أدخلت رأسي في القلنسوة والقول الاول أصح لانه قول أهل اللغة والتفسير (أخذ الالواح) يعني التي ألقاها قال الامام فخر الدين وظاهر هذا يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة

من ربهم) هو ما أمروا به من قتل أنفسهم توبة (وذلة في الحياة الدنيا) خروجهم من ديارهم فالغربة تذل الاعناق أو ضرب الجزية عليهم (وكذلك نجزي المفترين) الكاذبين على الله ولا فرية أعظم من قول السامري هذا الهكم واله موسى (والذين عملوا السيآت) من الكفر والمعاصي (ثم تابوا) رجعوا الى الله (من بعدها وآمنوا) وأخلصوا الايمان (ان ربك من بعدها) أي السيآت أو التوبة (لغفور) لستور عليهم محاء لما كان منهم (رحيم) منعم عليهم بالجنة وان مع اسمها وخبرها خبر والذين وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم عظم جنايتهم أولا ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وان عظمت فعفوه أعظم ولما كان الغضب لشدته كانه هو الآمر لموسى بما فعل قيل (ولما سكت عن موسى الغضب) وقال الزجاج معناه سكن وقرئ به (أخذ الالواح)

شئ (وفى نسختها) النسخ عبارة عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نقلت ما فى
الأصل الى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الالواح لانها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل أراد بها النسخة
المكتتبة من الالواح التى أخذها موسى بعد ما تكسرت وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما ألقى موسى
الالواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه فى لوحين وفيهما ما فى الاولى بعينها فيكون نسخها نقلها
وعلى قول من قال ان الالواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفى نسختها المكتوب
فيها (هدى ورحمة) قال ابن عباس يعنى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) يعنى
للخائفين من ربهم ۞ قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الاختيار افتعال من لفظ
الخيار يقال اختار الشئ اذا أخذ خيره وخياره والمعنى واختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ
فى العربية لدلالة الكلام عليه قال أصحاب الاخبار ان موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من
قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال لمن قعد منكم مثل أجر من
خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وقيل انه لم يجد الا ستين شيخا فاوحى الله اليه أن يختار من الشباب
عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم الى ميقات
ربه واختلف أهل التفسير فى ذلك الميقات فقيل انه الميقات الذى كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك انه لما
خرج الى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط
بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا وسمعوا الله تعالى
وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا لا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن
نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهى المراد من الرجفة المذكورة فى هذه الآية وقال السدى
ان الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار
موسى من قومه سبعين رجلا ثم ذهب بهم الى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك
ياموسى حتى نرى الله جهرة فانك قد كلمته فارناه فاخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول
رب ماذا أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى وقال محمد
ابن اسحق اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما
صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم
الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لى حين فعلوا
ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع
عليه عمود الغمام حتى غشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى اذا كلمه ربه وقع
على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى
الغمام ووقعوا سجدا فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره انكشف
عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهى الرجفة فماتوا
جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى وقال ابن
عباس كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم فكان
فيما دعوا الله ان قالوا اللهم اعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فاخذتهم
الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى وقيل انما أخذتهم الرجفة من أجل انهم ادعوا على موسى انه
قتل هرون قال على بن أبى طالب انطلق موسى وهرون الى سفح جبل فنام هرون على سرير فتوفاه الله فلما
رجع موسى الى بنى اسرائيل قالوا له أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه وكان هرون حسن الخلق محببا فى

التى ألقاها (وفى نسختها)
وفيما نسخ منها أى كتب
فعلة بمعنى مفعول كالخطبة
(هدى ورحمة للذين هم
لربهم يرهبون) دخلت
اللام لتقدم المفعول
وضعف عمل الفعل فيه
باعتباره (واختار موسى
قومه) أى من قومه
فحذف الجار وأوصل الفعل
(سبعين رجلا) قيل اختار
من اثنى عشر سبطا من كل
سبط ستة فبلغوا اثنين
وسبعين رجلا فقال
ليتخلف منكم رجلان
فقعد كالب ويوشع
(لميقاتنا) لاعتذارهم عن
عبادة العجل

بني اسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلا فلما انتهوا اليه قالوا ياهرون من قتلك قال ماقتلني أحد ولكن الله توفاني فاخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يمينا وشمالا و يقول رب لوشئت أهلكتهم من قبل واياي الآية قال فاحياهم الله عز وجل وقيل انما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لالانهم كانوا من عبدته قال ابن عباس انما تناولتهم الرجفة لانهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم. وقال مجاهد واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد ان خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله و يسألونه ان يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم وقال محمد بن كعب القرظي لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فاخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله ۞ وقوله تعالى (فلما أخذتهم الرجفة) أصل الرجف الاضطراب الشديد الذي يحصل معه التغيير والهلاك ولهذا اختلفوا في تلك الرجفة التي حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فعظم الروايات التي تقدمت انهم ماتوا بسبب تلك الرجفة وقال وهب بن منبه لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين فعند ذلك دعا موسى و بكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى فلما أخذتهم الرجفة (قال) يعني موسى (رب) أي يارب (لوشئت أهلكتهم من قبل) يعني من قبل عبادتهم العجل (واياي) وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو اسرائيل على السبعين اذا رجع اليهم وماهم معه ولم يصدقوه بانهم ماتوا فقال رب لوشئت أهلكتهم من قبل يعني قبل خروجهم الى الميقات واياي معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) قال الفراء ظن موسى انهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعني عبدة العجل وانما أهلكوا بسبب مسئلتهم الرؤية وهي قولهم أرنا الله جهرة وهذا قول الكلبي وجماعة وقال جماعة من أهل العلم لايجوز أن يظن موسى ان الله تعالى يهلك قوما بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أي لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الانباري وقال المبرد هذا استفهام استعطاف أي لاتهلكنا (إن هي الا فتنتك) قال الواحدي الكناية في هي تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك أي اختبارك وابتلاءك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لاتهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) قال الواحدي وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لايبقى لهم معها عذر (أنت ولينا) يعني أنت يارب ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أي لاولي لنا ولاناصر ولاحافظ الا أنت (فاغفر لنا) سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله ان هي الا فتنتك وهذا فيه اقدام على الحضرة المقدسة وأما قومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفي هذا اقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه (وارحمنا) أي واشملنا برحمتك التي وسعت كل شئ (وأنت خير الغافرين) يعني ان كل من سواك انما يغفر الذنب طلبا للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يارب فتغفر ذنوب عبادك لالطلب عوض ولاغرض بل لمحض الفضل والكرم فانت خير الغافرين ۞ قوله تعالى (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) يعني قال موسى في دعائه واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة أي واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهي ثواب الاعمال الصالحة وفي الآخرة أي واكتب لنا في الآخرة مغفرة لذنوبنا (انا هدنا اليك) قال ابن عباس معناه انا تبنا

(فلما أخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة (قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل) بما كان منهم من عبادة العجل (واياي) لقتلي القبطي (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهال منا وهم أصحاب العجل (ان هي الا فتنتك) ابتلاؤك وهو راجع الى قوله انا قد فتنا قومك من بعدك فقال موسى هي تلك الفتنة التي أخبرتني بها وهي ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء ونبلوكم بالشر والخير فتنة (تضل بها) بالفتنة (من تشاء) من علمت منهم اختيار الضلالة (وتهدي) بها (من تشاء) من علمت منهم اختيار الهدى (أنت ولينا) مولانا القائم بامورنا (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا) وأثبت لنا وأقسم (في هذه الدنيا حسنة) عافية وحياة طيبة أو توفيقا في الطاعة (وفي الآخرة) الجنة (انا هدنا اليك) تبنا اليك وهاد اليك يهود اذا رجع وتاب والهود جمع هائد وهو التائب

اليك وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع برفق قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح
قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم (قال) يعني قال الله عز وجل لموسى عليه
الصلاة والسلام (عذابي أصيب به من أشاء) يعني من خلقي وليس لاحد على اعتراض لان الكل ملكي
وعبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لاحد عليه اعتراض (ورحمتي وسعت كل شئ) يعني ان رحمته
سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في
الدنيا وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق
ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين
لما نزلت ورحمتي وسعت كل شئ تطاول ابليس اليها وقال أنا من ذلك الشئ فنزعها الله تعالى من ابليس فقال
تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فأيس ابليس منها وقالت
اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فانتزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الامة فقال تعالى الذين
يتبعون الرسول النبي الامي الآية وقال نوف البكالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى
لموسى أجعل لك الارض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة الا عند مرحاض أو حمام أو قبر
واجعل السكينة في قلوبكم واجعلكم تقرؤن التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد
والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي الا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة
في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها الا نظرا قال الله تعالى فسأكتبها
للذين يتقون الى قوله المفلحون فجعلها الله تعالى لهذه الامة فقال موسى رب اجعلني نبيهم قال نبيهم منهم قال
اجعلني منهم قال انك لن تدركهم قال موسى يارب أتيتك بوفد بني اسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله
تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون فرضي موسى أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني
الشرك وسائر مانهوا عنه لان جميع التكاليف محصورة في نوعين الاول الترك وهي الاشياء التي يجب على
الانسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها واليه الاشارة بقوله تعالى للذين يتقون والثاني الافعال المأمور
بها وتلك الاعمال بدنية وقلبية أما البدنية فاليها الاشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وان كانت في حق
المال لكن يختص البدن باخراجها والاعمال القلبية كالايمان والمعرفة واليها الاشارة بقوله تعالى والذين
هم بآياتنا يؤمنون ۞ وقوله عز وجل (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في
التوراة والانجيل) ذكر الامام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين أحدهما أن المراد بذلك ان
يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة اذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث الى
الخلق وفي قوله والانجيل أن المراد وسيجدونه مكتوبا في الانجيل لان من المحال أن يجدوه فيه قبل ما أنزل الله
الانجيل الوجه الثاني أن المراد من الحق من بني اسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى ان
هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة الا اذا اتبعوه قال وهذا القول أقرب لان اتباعه قبل أن يبعث
لا يمكن فبين بهذه الآية ان هذه الرحمة لا يفوز بها من بني اسرائيل الا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات
الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع
ذلك متبعا للنبي صلى الله عليه وسلم في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول
من بني اسرائيل خاصة وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فانهم قالوا المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به
واتبعوه سواء كانوا من بني اسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على ان المراد بالرسول محمد صلى الله عليه
وسلم وصفه بكونه رسولا لانه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ثم
وصفه بكونه نبيا وهذا أيضا من أعلى المراتب وأشرفها وذلك يدل على انه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم

(قال عذابي) من صفته اني (أصيب به من أشاء) أي لا أعفو عنه (ورحمتي وسعت كل شئ) أي من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شئ مامن مسلم ولا كافر الا وعليه أثر رحمتي في الدنيا (فسأكتبها) أي هذه الرحمة (للذين يتقون) الشرك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ويؤتون الزكاة) المفروضة (والذين هم بآياتنا) بجميع كتبنا (يؤمنون) لا يكفرون بشئ منها (الذين يتبعون الرسول) الذي نوحي اليه كتابا مختصا به وهو القرآن (النبي) صاحب المعجزات (الامي الذي يجدونه) أي يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني اسرائيل (مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

وصفه بالامى قال ابن عباس هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج فى معنى الامى هو الذى على صفة أمة العرب لان العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب فالنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أميا وصح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب قال أهل التحقيق وكونه صلى الله عليه وسلم كان أميا من أكبر معجزاته وأعظمها و بيانه أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الكتاب العظيم الذى أعجزت الخلائق فصاحته و بلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى وقيل انه لو كان يحسن الكتابة ثم انه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهما فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أميا وأتى بهذا القرآن العظيم الذى فيه علم الاولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وأيضا فان الكتابة تعين الانسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم انه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل فى معنى الامى الذى هو منسوب الى أمة كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمى أميا لانه منسوب الى أم القرى وهى مكة وقوله تعالى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يعنى يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبة عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك و بدلوه وغيروه حسدا منهم له وخوفا على زوال رياستهم وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا فى الذل والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال أجل انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله و يفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا

﴿ شرح غريب ألفاظ الحديث ﴾

الفظ السيئ الخلق والغليظ الجافى القاسى وقوله سخاب بالسين والصاد وهو كثير الصياح فى الاسواق والاعوجاج ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذى لا يصل اليه شئ ينفعه شبهه بالاغلف كأنه فى غلاف وروى البغوى بسنده عن كعب الاحبار قال انى أجد فى التوراة مكتوبا محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب فى الاسواق ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح أمته الحامدون يحمدون الله فى كل منزلة و يكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم و يغضون أطرافهم صفهم فى الصلاة وصفهم فى القتال سواء مناديهم ينادى فى جو السماء لهم فى جوف الليل دوى كدوى النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ﴿ وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) يعنى بالايمان وتوحيد الله (وينهاهم عن المنكر) يعنى عن الشرك بالله وقيل المعروف ما عرف فى الشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد و بمكارم الاخلاق وصلة الارحام و ينهاهم عن المنكر عن عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) يعنى بذلك ما كان محرما عليهم فى التوراة من الطيبات وهو لحوم الابل وشحم الغنم والمعز والبقر وقيل هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم فى الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامى وقيل هى المستلذات التى تستطيبها الانفس (ويحرم عليهم الخبائث) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس فان الاصل فى المضار الحرمة الا ماله دليل متصل بالحل (ويضع عنهم اصرهم) يعنى ثقلهم وأصل الاصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله والمراد بالاصر هنا العهد والميثاق الذى أخذ على بنى اسرائيل

(يأمرهم بالمعروف) بخلع الانداد وانصاف العباد (وينهاهم عن المنكر) عبادة الاصنام وقطيعة الارحام (ويحل لهم الطيبات) ما حرم عليهم من الاشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أوما طاب فى الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه من السحت (ويحرم عليهم الخبائث) ما يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أوما خبث فى الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من المكاسب الخبيثة (ويضع عنهم اصرهم) هو الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحراك لثقله والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس فى توبتهم وقطع الاعضاء الخاطئة آصارهم

أن يعملوا بما في التوراة من الاحكام فكانت تلك الشدائد (والاغلال التي كانت عليهم) يعني ويضع الاثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وان صلاتهم لا تجوز الا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني اسرائيل شبهت بالاغلال مجازا لان التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع من الفعل وقيل شبهت بالاغلال التي تجمع اليد الى العنق كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الاثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) يعني بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعزروه) يعني وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه وهو قوله (ونصروه) يعني على أعدائه (واتبعوا النور الذي أنزل معه) يعني القرآن سمي القرآن نورا لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم (أولئك هم المفلحون) يعني هم الناجون الفائزون بالهداية ﴿ قوله تعالى (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد للناس اني رسول الله اليكم جميعا لا الى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته الى كافة الخلق لان قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بان يقول اني رسول الله اليكم جميعا وهذا يقتضي كونه مبعوثا الى جميع الناس (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ومسجدا فايما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وفي رواية أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقوله في الرواية الاولى وبعثت الى كل أحمر وأسود قيل أراد بالاحمر العجم وبالاسود العرب وقيل أراد بالاحمر الانس وبالاسود الجن فعلى هذا تكون رسالته صلى الله عليه وسلم عامة الى كافة الخلق من الانس والجن (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت على الانبياء بستة اعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيون ﴿ وقوله تعالى (الذي له ملك السموات والارض) لما أمر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا أردفه بما يدل على صحة دعواه يعني أن الذي له ملك السموات والارض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني اليكم وأمرني بان أقول لكم اني رسول الله اليكم جميعا (لا اله الا هو يحيي ويميت) وصف الله نفسه بالالهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على احياء خلقه وامانتهم ومن كان كذلك فهو القادر على ارسال الرسل الى خلقه (فآمنوا بالله ورسوله) لما أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول للناس اني رسول الله اليكم جميعا أمر الله جميع خلقه بالايمان به وبرسوله وذلك لان الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عنه فلهذا بدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه فقال تعالى (النبي الامي) تقدم معناهما (الذي يؤمن بالله وكلماته) قال قتادة يعني آياته وهو القرآن وقال مجاهد والسدي أراد بكلماته عيسى بن مريم لانه خلق

شامي على الجمع (والاغلال التي كانت عليهم) هي الاحكام الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت وشبهت بالغل للزومها لزوم الغل (فالذين آمنوا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) وعظموه أو منعوه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو وأصل العزر المنع ومنه التعزير لانه منع عن معاودة القبيح كالحد فهو المنع (ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي القرآن ومع متعلق باتبعوا أي واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته (أولئك هم المفلحون) الفائزون بكل خير والناجون من كل شر (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم) بعث كل رسول الى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم الى كافة الانس وكافة الجن (جميعا) حال من اليكم (الذي له ملك السموات والارض) في محل النصب باضمار أعني وهو نصب على المدح (لا اله الا هو) بدل من الصلة وهي له ملك السموات والارض وكذلك (يحيي ويميت) وفي لا اله الا هو بيان للجملة قبلها لان من ملك العالم كان هو الاله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالالهية اذ لا يقدر على الاحياء والاماتة غيره (فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته) أي الكتب المنزلة

بقوله

بقوله كن فكان وقيل هو على العموم يعنى يؤمن بجميع كلمات الله تعالى (واتبعوه) يعنى واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل المتابعة على قسمين متابعة فى الاقوال ومتابعة فى الافعال أما المتابعة فى الاقوال فبأن يمتثل التابع جميع أما أمره المتبوع على طريق الامر والنهى والترغيب والترهيب وأما المتابعة فى الافعال فبأن يقتدى به فى جميع أفعاله وآدابه الاما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت بالدليل انه من خصائصه فلا متابعة فيه ۞ وقوله تعالى (لعلكم تهتدون) يعنى لكى تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب فى متابعتكم اياه ۞ قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعنى من بنى اسرائيل (أمة) أى جماعة (يهدون بالحق) يعنى يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون اليه (وبه يعدلون) يعنى وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وينصفون واختلفوا فى هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بنى اسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فانهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واعترض على هذا بانهم كانوا قليلين ولفظ الامة يقتضى الكثرة وأجيب عنه بانهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما فى قوله ان ابراهيم كان أمة وقيل هم قوم بقوا على الدين الحق الذى جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس اليه وقال السدى وابن جريج وجماعة من المفسرين ان بنى اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وان يبعدهم عنهم ففتح الله لهم نفقا فى الارض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا فى السرب سنة ونصفا رواه الطبرى وحكى البغوى عن الكلبى والضحاك والربيع قالوا هم قوم خلف الصين باقصى الشرق على نهر يسمى نهر الاردن ليس لاحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل اليهم أحد منا وهم على الحق وذكر لنا أن جبريل ذهب بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبى الامى فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم موسى واقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه الاول قولهم ان أحدا منا لا يصل اليهم واذا كان كذلك فمن ذا الذى أوصل خبرهم الينا الوجه الثانى قولهم ان جبريل ذهب بالنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت الى قول الاخباريين والقصاص فى ذلك الوجه الثالث قولهم انهم بلغوا النبى صلى الله عليه وسلم سلام موسى وقد صح فى حديث المعراج أنه سلم عليه فى السماء السادسة وأيضا قولهم واقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضيتها فاذا ثبت بما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار فى تفسير هذه الآية أنها اما أن تكون نزلت فى قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده ۞ قوله تعالى (وقطعناهم) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل (اثنتى عشرة أسباطا) يعنى من أولاد يعقوب لان يعقوب هو اسرائيل وأولاده الاسباط وكانوا اثنى عشر ولدا (أمما) يعنى جماعات وقبائل (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) يعنى فى التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست) يعنى فانفجرت وقيل عرقت وهو الانبجاس (منه) أى من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل أناس مشربهم)

عليه ولما فى الالتفات من مزية البلاغة وليعلم ان الذى وجب الايمان به هو هذا الشخص الموصوف بانه النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أوغيرى اظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) أى يهدون الناس محقين أو بسبب الحق الذى هم عليه (وبه يعدلون) وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم لا يجورون قيل هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج أوهم عبد الله بن سلام واضرابه (وقطعناهم) وصيرناهم قطعا أى فرقا وميزنا بعضهم من بعض (اثنتى عشرة أسباطا) كقولك اثنتى عشرة قبيلة والاسباط أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام نعم مميز ما عدا العشرة مفرد فكان ينبغى أن يقال اثنى عشر سبطا لكن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط لا سبط فوضع أسباط موضع قبيلة (أمما) بدل من اثنتى عشرة أى وقطعناهم أمما لان كل أسباط كانت أمة عظيمة وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الاخرى (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر) فضرب (فانبجست) فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم) هو اسم جمع غير تكسير

(وظللنا عليهم الغمام) وجعلناه ظليلا عليهم فى التيه (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقلنا لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا) أى وما رجع الينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم اليهم (واذ قيل لهم) واذكر اذ قيل لهم (اسكنوا هذه القرية) بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم) تغفر لكم مدنى وشامى خطيئاتكم مدنى خطاياكم أبو عمرو وخطيئتكم شامى (سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) ولا تناقض بين قوله اسكنوا هذه القرية وكلوا منها فى هذه السورة وبين قوله فى سورة البقرة ادخلوا هذه القرية فكلوا لوجود الدخول والسكنى وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض اثباته وقوله نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين موعد بشيئين بالغفران و بالزيادة وطرح الواو لا يخل بذلك لانه استئناف مرتب على قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين وكذلك زيادة منهم زيادة بيان وأرسلنا وأنزلنا ويظلمون ويفسقون من واد واحد (واسألهم) واسأل اليهود (عن القرية) بهذه أيلة أو مدين وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم (التى كانت حاضرة البحر) قريبة منه

يعنى لا يدخل سبط على سبط فى مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) يعنى فى التيه يقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) هو الترنجبين (والسلوى) جنس من الطير جعل الله ذلك طعاما لهم فى التيه (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا كلوا (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فى الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فاجوا ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوا غيره لان المكلف اذا أمر بشئ فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا بفعله ذلك فلهذا قال وما ظلمونا يعنى وما أدخلوا علينا فى ما كنا وسلطاننا نقصا بمسئلتهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعنى بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية فى سورة البقرة ۞ وقوله تعالى (واذ قيل لهم) يعنى واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لهم يعنى لبنى اسرائيل (اسكنوا هذه القرية) يعنى بيت المقدس وقال فى سورة البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لان كل ساكن فى موضع لابد له من الدخول اليه (وكلوا منها حيث شئتم) يعنى وكلوا من ثمار القرية و زروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم وأين شئتم وقال فى البقرة فكلوا بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للاكل عقبه فحسن دخول الفاء التى هى للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاؤوا انما قال فى سورة البقرة رغدا ولم يقله هنا لان الاكل عقب الدخول ألذ وأكمل فاما الاكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغدا هناك بخلافه هنا (وقولوا حطة) أى حط عنا ذنوبنا (وادخلوا الباب سجدا) وقال فى البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة فى ذلك لان المقصود من ذلك تعظيم أمر الله واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير (نغفر لكم خطيئاتكم) يعنى نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وانما قال هنا خطيئاتكم وفى البقرة خطاياكم لان المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة اذا أتوا بالدعاء والتضرع (سنزيد المحسنين) وقال فى سورة البقرة وسنزيد بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران و بالزيادة للمحسنين من الثواب واسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لانه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم) يعنى فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بنى اسرائيل فقالوا قولا غير الذى قيل لهم وأمروا به وذلك انهم أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة فى شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم (فارسلنا عليهم رجزا من السماء) يعنى بعثنا عليهم عذابا من السماء أهلكهم ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا و بين قوله فى سورة البقرة أنزلنا لانهما لا يكونان الا من أعلى الى أسفل وقيل بينهما فرق وهو أن الانزال لا يشعر بالكثرة والارسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بانزال العذاب قليلا ثم أرسله عليهم كثيرا (بما كانوا يظلمون) يعنى أن ارسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله وقال فى البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا و بدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضا فى تفسير سورة البقرة ۞ قوله عز وجل (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام لانه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحى الله عز وجل اليه واخباره اياهم بحالهم وانما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على اقدامهم على الكفر والمعاصى قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وانكار نبوته ومعجزاته ليس شيأ قد حدث منهم فى زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا لاسلافهم فى قديم الزمان وفى الاخبار

بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لايقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم فى قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم أمر الله عزوجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا فى هذه القرية فقال ابن عباس ٢ هى قرية بين مصر والمدينة والمغرب وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهرى هى طبرية الشام وفى رواية عن ابن عباس قال هى مدين وقال وهب هى مابين مدين وعيونى يعنى القرية التى كانت على ساحل البحر وقريبة منه (اذيعدون فى السبت) يعنى يتجاوزون حد الله فيه وماأمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك (اذتأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) يعنى ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تاتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان (ويوم لايسبتون لاتاتيهم) يعنى الحيتان (كذلك نبلوهم) يعنى مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم (بما كانوا يفسقون) يعنى ان ذلك الابتلاء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وماأمروا به قال أهل التفسير ان اليهود أمروا بيوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد فلما أراد الله أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم فى يوم السبت ينظرون اليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر الى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس اليهم الشيطان وقال ان الله لم ينهكم عن الاصطياد وانما نهاكم عن الاكل فاصطادوا وقيل انه وسوس اليهم انكم انما نهيتم عن الاخذ فاتخذوا حياضا على ساحل البحر وسوقوا اليها الحيتان يوم السبت فاذا كان يوم الاحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم انهم تجرؤا على السبت وقالوا مانرى السبت الاقد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أحزابا ثلاثة وكانوا نحوا من سبعين ألفا فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لانسا كنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا فى زمنه فاصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذى بينهم فاذاهم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا اليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتى أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أهلوهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى (واذقالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم) واختلفوا فى القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين ان أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يعنى انهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولامنزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم معذرة الى ربكم يعنى ان موعظتنا اياهم معذرة الى ربكم لان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب علينا فوعظتنا لهؤلاء عذر لنا عند الله (ولعلهم يتقون) أى وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ماهم فيه من الصيد وقال بعضهم ان أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك ان الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية اتهوا قبل أن ينزل بكم عذاب شديد ان لم تنتهوا عما أنتم فيه

أو بدل بعد بدل (حيتانهم) جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ماقبلها (يوم سبتهم شرعا) ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد والمعنى اذيعدون فى تعظيم هذا اليوم وكذا قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) ويوم ظرف للاتاتيهم (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم (واذ قالت) معطوف على اذ يعدون وحكمه كحكمه فى الاعراب (أمة منهم) جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ماركبوا الصعب والذلول فى موعظتهم لآخرين لايقلعون عن وعظهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) وانما قالوا ذلك لعلمهم ان الوعظ لاينفع فيهم (قالوا معذرة الى ربكم) أى موعظتنا ابلاء عذر الى الله لئلا ننسب فى النهى عن المنكر الى التفريط معذرة حفص على انه مفعول له أى وعظناهم للمعذرة (ولعلهم يتقون) ولطمعنا فى أن يتقوا

٢ (قوله هى قرية بين مصر والمدينة والمغرب) فى نسخة هى ايلة بين مصر والمدينة والعرب تسمى المدينة قرية وقال الزهرى الخ اه

فقالت لهم الفرقة المعتدية لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا والمعنى لم تعظونا وقد علمتم ان الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه والقول الاول أصح لانهم لو كانوا افرقتين لكان قولهم معذرة الى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية ۞ وقوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به) أى فلما تركوا ما وعظوا به (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الناهية (وأخذنا الذين ظلموا) يعنى الفرقة المعتدية العاصية (بعذاب بئيس) أى شديد وجيع من البأس وهو الشدة (بما كانوا يفسقون) يعنى أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا روى عكرمة عن ابن عباس قال أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدرى ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكى قال عكرمة فقلت له جعلنى الله فداءك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولى ورضى به وأمر لى ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة وقال يمان بن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية فى ترك النهى عن المنكر ۞ وقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعنى عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا فى العصيان من اعتدائهم فى السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يعنى صاغرين مبعدين من كل خير قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالا ونساء وقال ابن عباس جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شبان القوم صاروا قردة وان المشيخة صاروا خنازير وقيل انهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا ۞ وقوله تعالى (واذ تأذن ربك) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ومعنى تأذن أذن والايذان الاعلام يعنى أعلم ربك وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم ربك (ليبعثن عليهم) اللام فى قوله ليبعثن جواب القسم لان قوله واذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه جزما وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا فى الضمير فى عليهم الى من يرجع فقيل يقتضى أن يكون راجعا الى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم ان الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فالحق الذل بهم وقيل بان المراد سائر اليهود من بعدهم لان الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذى بعثه الله على اليهود وهو بختنصر وسنجاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب وقيل المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى بعثه الله عليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته فالزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود الى يوم القيامة وأورد على هذا ان فى آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لان اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بان ذلك العز الذى يحصل لهم هو فى نفسه غاية الذلة لانهم يدعون الهية الدجال فيزدادون كفرا على كفرهم فاذا أهلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعا فذلك هو الذلة والصغار المشار اليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وهذا نص فى أن العذاب انما يحصل لهم فى الدنيا مستمرا عليهم الى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالاهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فاذا أفضوا الى الآخرة كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى (ان ربك لسريع العقاب) يعنى لمن أقام على الكفر ففيه دليل على انه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وانه لغفور رحيم) يعنى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الاسلام

(فلما نسوا) أى أهل القرية لما تركوا (ما ذكروا به) ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسى لما ينساه (أنجينا الذين ينهون عن السوء) عن العذاب الشديد (وأخذنا الذين ظلموا) الراكبين للمنكر والذين قالوا لم تعظون من الناجين فعن الحسن نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان (بعذاب بئيس) شديد يقال بؤس يبؤس باسا اذا اشتد فهو بئيس بئس شامى بيس مدنى بيئس على وزن فيعل أبو بكر غير حماد (بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى جعلناهم قردة أذلاء مبعدين وقيل فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا والعذاب البئيس هو المسخ قيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون والجمهور على انها ماتت بعد ثلاث وقيل بقيت وتناسلت (واذ تأذن ربك) أى أعلم وأجرى مجرى فعل القسم ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله (ليبعثن عليهم) أى كتب على نفسه ليسلطن على اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم) من يوليهم (سوء العذاب) فكانوا يؤدون الجزية الى المجوس الى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر (ان ربك لسريع العقاب) للكفار (وانه لغفور رحيم) للمؤمنين

(قوله

قوله تعالى (وقطعناهم فى الارض أمما) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل فى الارض جماعات متفرقة فلا تجد بلدا الا وفيه من اليهود طائفة وجماعة قال ابن عباس كل أرض بها خلها قوم من اليهود (منهم الصالحون) يعنى من هؤلاء الذين وصفهم الله من بنى اسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وانما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبرى ولم يذكر غيره وروى البغوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد ان المراد بالصالحين الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وآمنوا به والصحيح ماذكره الطبرى يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف انما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بنى اسرائيل ۞ وقوله تعالى (ومنهم دون ذلك) يعنى الذين كفروا من بنى اسرائيل وبدلوا وغيروا (وبلوناهم) يعنى جميعا الصالح وغيره وهى بلوى اختبار وامتحان (بالحسنات) يعنى الخصب والعافية (والسيئات) يعنى الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) يعنى لكى يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعانى كل واحدة من الحسنات والسيآت اذا فسرت بالنعم والشدة تدعو الى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكرا فيرغب فى الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها ۞ قوله تعالى (فخلف من بعدهم) يعنى من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) يعنى خلف سوء يعنى حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها فاكثر ما يقال فى المدح بفتح اللام وفى الذم بسكونها وقد تحرك فى الذم وتسكن فى المدح قال حسان بن ثابت فى المدح

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا ۞ لاولنا فى طاعة الله تابع

فسكن اللام فى قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد فى الذم

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ۞ وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

ففتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد يقال خلف اللبن اذا فسد وتغير فى السقاء ويقال للردئ من القول خلف وخلف الشئ تغير ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذى يجيء بعد قرن كان قبله (ورثوا الكتاب) يعنى انتقل اليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة (يأخذون عرض هذا الادنى) العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا فى الاحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذى يأخذونه من حطام الدنيا هو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا بأسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا فى الاحكام ويعلمون أنها حرام ثم انهم مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه (ويقولون سيغفر لنا) يعنى ذنوبنا فيتمنون على الله الامانى الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى أخرجه الترمذى وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام دان نفسه يعنى حاسبها فى الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية قوله وتمنى على الله الامانى لان اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه ۞ وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) وهذا اخبار عن حرصهم على الدنيا واصرارهم على الذنوب والمعنى أنهم اذا أتاهم شئ من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون على الله المغفرة وان وجدوا من الغد مثله أخذوه قال السدى كانت بنو اسرائيل لا يستقضون قاضيا الا ارتشى فى الحكم فيقال له ما بالك ترتشى فيقول

وراء الصين (ومنهم دون ذلك) ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الفسقة ومحل دون ذلك الرفع وهو صفة لموصوف محذوف أى ومنهم ناس منحطون عن الصلاح (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالنعم والنقم والخصب والجدب (لعلهم يرجعون) ينتهون فينيبون (فخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف) وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلف بدل السوء بخلاف الخلف فهو الصالح (ورثوا الكتاب) التوراة ووقفوا على ما فيها من الاوامر والنواهى والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الادنى) هو حال من الضمير فى ورثوا والعرض المتاع أى حطام هذا الشئ الادنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الاحكام وعلى تحريف الكلام وفى قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير (ويقولون سيغفر لنا) لا يؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند الى الاخذ أو الى الجار والمجرور أى لنا (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق المذكور فى الكتاب (أن لا يقولوا على الله الا الحق) أى أخذ عليهم الميثاق فى كتابهم أن لا يقولوا على الله الا الصدق وهو عطف بيان لميثاق الكتاب (ودرسوا ما فيه) وقرؤا ما فى الكتاب وهو عطف على ألم يؤخذ عليهم لانه تقرير فكأنه قيل أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا والمحارم (أفلا يعقلون) انه كذلك وبالتاء مدنى وحفص (١٥٤) (والذين يمسكون بالكتاب) يمسكون أبو بكر والامساك والتمسيك والتمسك الاعتصام والتعلق بشئ (وأقاموا الصلاة) خص الصلاة مع ان التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة لانها عماد الدين والذين مبتدأ والخبر (انا لا نضيع أجر المصلحين) انا لا نضيع أجرهم وجاز أن يكون مجرورا عطفا على للذين يتقون وانا لا نضيع اعتراض (واذ نتقنا الجبل فوقهم) واذكر اذ قلعناه ورفعناه كقوله ورفعنا فوقكم الطور (كأنه ظلة) هى كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب (وظنوا أنه واقع بهم) وعلموا انه ساقط عليهم وذلك انهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخا فى فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الايسر وهو ينظر بعينه اليمنى الى الجبل فرقا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هى السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة وقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه (واذكروا ما فيه) من الاوامر والنواهى ولا تنسوه (لعلكم تتقون) ما أنتم عليه (واذ أخذ ربك من بنى آدم) أى واذكر اذ أخذ (من ظهورهم) بدل من بنى آدم والتقدير واذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم (ذريتهم) ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم اخراجهم من أصلاب آبائهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى

سيغفر لى فيطعن عليه الآخرون فاذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضا يقول الله عز وجل وان يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) يعنى ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين فى أحكامهم العهود والمواثيق فى الكتاب وهو التوراة (أن لا يقولوا على الله الا الحق) يعنى انا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود فى ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها (ودرسوا ما فيه) يعنى ما فى الكتاب والمعنى انهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق فى الكتاب لانهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به (والدار الآخرة) يعنى وما فى الدار الآخرة مما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا فى الاحكام (خير للذين يتقون) يعنى يتقون الله ويخافون عقابه (أفلا يعقلون) يعنى أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما فى الآخرة خير وأبقى انها دار المتقين (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من احلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك بأحكامه نزلت هذه الآية فى الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لانهم تمسكوا بالكتاب الاول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك الى الايمان بالكتاب الثانى وهو القرآن (وأقاموا الصلاة) يعنى وداوموا على اقامتها فى مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله وبرسوله (انا لا نضيع أجر المصلحين) ۞ قوله عز وجل (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) يعنى واذكر يا محمد اذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بنى اسرائيل كأنه ظلة يعنى جعلناه فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الانسان كالسقف ونحوه (وظنوا) أى وعلموا وأيقنوا (انه واقع بهم) يعنى الجبل (خذوا) يعنى وقلنا لهم خذوا واضمار القول كثير فى القرآن وكلام العرب (ما آتيناكم) يعنى التوراة (بقوة) يعنى بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) يعنى واعملوا بما فيه من الاحكام (لعلكم تتقون) قال أصحاب الاخبار ان بنى اسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلا عظيما حتى صار على رؤسهم كالظلة فلما نظروا الى الجبل فوق رؤسهم خروا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الايسر وجعل ينظر بعينه اليمنى الى الجبل خوفا أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود الا على شق وجوههم الايسر ۞ قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر ابن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم الآية قال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان

الله سبحانه وتعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار أخرجه مالك فى الموطأ وأبو داود والترمذى وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا وقال ذكر الطبرى فى بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن يعمر بن ربيعة عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عينى كل انسان وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فاعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا قال داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يارب زده من عمرى أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نقضى عمر آدم الا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمرى أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحد ذريته ونسى آدم فاكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى واذ أخذ ربك يعنى واذكر يا محمد اذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم يعنى من ظهور بنى آدم وانما لم يذكر ظهر آدم وان كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لان الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الابناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بنى آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم انهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء ثم للعلماء فى تفسير هذه الآية مذهبان أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والاثر وظاهر ما جاءت به الروايات عن السلف فيما روى عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبرى باسانيد فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعنى عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وعن ابن عباس فى هذه الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة بنعمان هذا الذى وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضا قال ان أول ما أهبط الله آدم الى الارض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فاخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم اخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين زاد فى رواية عنه جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وفى رواية عنه قال لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم وفى رواية عنه قال ان الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فاخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وتكفل لهم بالارزاق ثم أعادهم فى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من اعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الاول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الاول ومن مات صغيرا ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة وروى الطبرى بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وقال ابن عباس أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها فى صلبه فليس أحد من الخلق الا وقد تكلم فقال ربى الله وان القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه وقال السدى أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم انه مسح صفحة ظهره اليمنى فاخرج منه

كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فأطاعه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التبعية زاد في رواية وذلك حيث يقول وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها وقال محمد بن كعب القرظي أقر له بالايمان والمعرفة الارواح قبل خلق أجسادها وقال مقاتل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعا في صلب آدم فاهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعا وروي ان الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعا اعلموا أنه لا اله لكم غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا بي شيأ فاني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي واني مرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل عليكم كتبا فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فاخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم فنظر اليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال رب هلا سويت بينهم فقال اني أحب أن أشكر فلما اقرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم الى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل لامثال الذر عقلا وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النملة قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وكما قال وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وقال ابن الانباري مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال أوبي معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه وسلم وكذلك الشجرة سمعت لامره وانقادت ومعنى قوله ألست بربكم على هذا التفسير قال الله سبحانه وتعالى للذرية ألست بربكم فهو ايجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب منهم له واقرار له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية (شهدنا) فيه قولان أحدهما أنهم لما أقروا له بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا على اقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله سبحانه وتعالى بلى بأن كلام الذرية تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف والقول الثاني أن قوله سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الاقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على بلى لتعلقه بما بعده ۞ وقوله سبحانه وتعالى (أن يقولوا) وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا أيها الذرية (يوم القيامة انا كنا عن هذا) يعني الميثاق (غافلين) وقرئ أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه لئلا يقولوا أي الذرية انا كنا عن هذا غافلين والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام والنظر انه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشاهم بعد ان كانوا نطفا في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم فاخرج الذرية الى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الاشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم الى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك الى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على أنفسنا انك أنت ربنا والهنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما

(شهدنا) هذا من باب التمثيل ومعنى ذلك انه نصب لهم الادلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم ألست بربكم وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك (ان يقولوا) مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الادلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن يقولوا (يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) لم ننبه عليه

جعل فيه من السبب الذى يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية واذ أخذ ربك من بنى آدم و يشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذى يكون به الفهم والتكليف الذى به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة فان قلت فما المختار من هذين المذهبين فى تفسير هذه الآية قلت المذهب الاول هو المختار لانه مذهب جمهور المفسرين من السلف ورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فان قلت اذا كان المختار فى تفسير هذه الآية هو مذهب السلف فى ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لاخذ الميثاق عليهم كما ورد فى الحديث أيضا فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول قلت قد صح الحديث بان الله مسح ظهر آدم فاخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم فى تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما فى الخارج وكلهم باجمعهم من ظهر آدم الذى هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث اذ ليس فى معنى ألفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير اليه والاخذ به جمعا بين الآية والحديث وحكى الواحدى عن صاحب النظم أنه قال ليس بين قوله عليه الصلاة والسلام ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته و بين الآية اختلاف بحمد الله لانه تعالى اذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لان ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصل الفائدة بهذا الفصل بانه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها بالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين و بالمواعظ وقال غيره فائدة أخذ الميثاق عليهم فى القدم أن من مات منهم صغيرا أدخل الجنة باقراره بالميثاق الاول وهذا على قول من يقول ان أطفال المشركين يدخلون الجنة اذا ماتوا صغارا فامامن لا يحكم لهم بالجنة فانه يقول هم ممن كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وانما أقروا بالمعرفة كرها فلم يغن عنهم ذلك شيأ ومن بلغ وعقل لم يغن عنه اقراره بالميثاق الاول شيأ حتى يؤمن و يصدق عند بلوغه وعقله بان الله ربه وخالقه و يصدق رسله فيما جاؤا به من عنده وانما فعل ذلك لئلا يقول الكفار انا كنا عن هذا الميثاق أو الايمان بان الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم انما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظنا منهم أن الحق ما كانوا عليه فان قلت ان ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به قلت لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا الى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الالهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام التذكار اذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء والتكليف فقامت الحجة عليهم لامدادهم بالرسل واعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم و بذلك قامت الحجة عليهم أيضا يوم القيامة لاخبار الرسل اياهم بذلك الميثاق فى الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد اخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات ۞ وقوله تعالى (أو يقولوا) يعنى الذرية (انما أشرك آباؤنا من قبل) يعنى انما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون انما أشرك آباؤنا من قبل (وكنا ذرية من بعدهم) يعنى وكنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم فى الشرك (أفتهلكنا) يعنى أفتعذبنا (بما فعل المبطلون) قال المفسرون هذا اقطع لاعذار الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة انما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا فى غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعا الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب

(أو يقولوا) أو كراهة ان يقولوا (انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فاقتدينا بهم لان نصب الادلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم فى الاعراض عنه والاقتداء بالآباء كما لا عذر لآبائهم فى الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى كانوا السبب فى شركنا لتأسيسهم الشرك وتركه

أهل النظر قالوا معناه ان الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا انما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا الا ان نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الاعراض عنه والاقبال على تقليد الآباء في الشرك ۞ وقوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات) يعني ليتدبرها العباد فيرجعوا الى الحق والايمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله (ولعلهم يرجعون) يعني عن الشرك الى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه ۞ قوله عز وجل (واتل عليهم) يعني واقرأ على قومك يا محمد (نبأ) يعني خبر (الذي آتيناه آياتنا) اختلفوا فيه فقال ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وقال مجاهد بلعام بن باعر وقال ابن مسعود هو بلعم بن ابر وقال عطية قال ابن عباس انه كان من بني اسرائيل وفي رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ما ذكره ابن عباس ومحمد بن اسحق والسدي وغيرهم من أصحاب الاخبار والسير قالوا ان موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام اليه وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد وان معه جنودا كثيرة وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا و يقتلنا ويحلها بني اسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا فقال ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم واني ان فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربي وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه في المنام فأتي في المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه اني قد آمرت ربي فنهاني أن أدعو عليهم فاهدوا له هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربي فآمر فلم يوح اليه شئ فقال قد آمرت ربي فلم يوح الي شئ فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى أذلقها فاذن الله عز وجل لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهي هذا ويحك أتذهب الى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الاتان فانطلقت به حتى اذا أشرفت به على جبل حسان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشئ الا صرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله به لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شئ قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي الا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ثم قال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم ارسلوهن الى عسكر بني اسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور على رجل من عظماء بني اسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام وقال اني لاظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله اني لا أطيعك في هذا ثم قام ودخل بها الى قبته فوقع عليها فارسل الله عز وجل الطاعون على بني اسرائيل في ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هرون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا فظا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني اسرائيل فاخبر الخبر فاخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فطعنهما بحربته فانتظمهما ثم خرج بهما وهو رافعهما الى السماء وقد

اخذ

سنة لنا (وكذلك) ومثل ذلك التفصيل البليغ (نفصل الآيات) لهم (ولعلهم يرجعون) عن شركهم نفصلها الى هذا ذهب المحققون من أهل التفسير منهم الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشري وذهب جمهور المفسرين الى ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله ألست بربكم فاجابوه ببلى قالوا وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقال ابن عباس رضي الله عنهما أخرج الله من ظهر آدم ذريته وأراه اياهم كهيئة الذر وأعطاهم العقل وقال هؤلاء ولدك آخذ عليهم الميثاق ان يعبدوني قيل كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف وقيل بعد النزول من الجنة وقيل في الجنة والحجة للاولين انه قال من بني آدم من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم ولانا لا نتذكر ذلك فاني يصير حجة ذرياتهم مدني و بصري وشامي أن تقولوا أو تقولوا أبو عمرو (واتل عليهم) على اليهود (نبأ الذي آتيناه آياتنا) هو عالم من علماء بني اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله

أخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة الى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن عصاك ورفع الطاعون من بني اسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين ان أصاب ذلك الرجل المرأة الى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك سبعون ألفا في ساعة واحدة من النهار فمن هنالك يعطي بنو اسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها القشة والذراع واللحي لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه اياها بذراعه واسناده اياها الى لحيته ويعطوهم البكر من كل أموالهم لانه كان بكر العيزار وفي بلعام أنزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الآية وقال مقاتل ان ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى فقال بلعام انه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الاتان فضربها فقالت لم تضربني واني مأمورة وهذه نار امامي قد منعتني أن أمشي فرجع الى الملك فاخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لاصلبنك فدعا على موسى بالاسم الاعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني اسرائيل في التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يارب باي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فان قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها ان موسى عليه السلام دعا على بلعام بان ينزع عنه الاسم الاعظم والايمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على انسان بالكفر بعد الايمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه أحدها منع صحة هذه القصة لانها من الاسرائيليات ولا يلتفت الى ما يسطره أهل الاخبار اذا خالف الاصول الوجه الثاني ان سبب وقوع بني اسرائيل في التيه هو عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا الها فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لا دعاء بلعام عليهم الوجه الثالث على تقدير صحة هذه القصة وان موسى عليه السلام دعا على بلعام وان موسى عليه السلام لم يدع عليه الا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الايمان بدعائه على موسى وايثاره الحياة الدنيا ودعا عليه مقابلة لدعائه عليه والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة عما ينقله أصحاب الاخبار في كتبهم من غير نظر فيه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم وشرفه الله بالنبوة حسده وكذبه وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ما قتل أقرباءه فلما مات أمية أتت أخته فارعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وفاة أخيها فقالت بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه أوعى قال وعى قال أذكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال خير أريد بي فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعرا

كل عيش وان تطاول دهرا ✲ صائر مرة الى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ✲ في قلال الجبال أرعى الوعولا

ان يوم الحساب يوم عظيم ✲ شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشديني من شعر أخيك فانشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فانزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية

(فانسلخ منها) فخرج من الآيات بان كفر بها ونبذها وراء ظهره (فاتبعه الشيطان) فلحقه الشيطان

وفي رواية عن ابن عباس انها نزلت في البسوس وهو رجل من بني اسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها أولاد فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة كما تريدين قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس في نساء بني اسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها الى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الامر قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها الى حالها الاول فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعا والقولان الاولان أشهر وقال الحسن وابن كيسان نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى آتيناه آياتنا قال ابن عباس كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئاً الا أعطاه وقال السدي كان يعلم اسم الله الأعظم وفي رواية أخرى عن ابن عباس انه أوتي كتابا وقيل ان الله آتاه حجة وأدلة وهي الآيات التي أوتيها (فانسلخ منها) يعني نخرج من الآيات التي كان الله آتاه اياها كما تنسلخ الحية من جلدها وقال ابن عباس نزع منه العلم (فاتبعه الشيطان) يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه ۞ قوله تعالى (فكان من الغاوين) يعني من الهالكين الضالين بما خالف ربه وأطاع هواه وشيطانه ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها وقال ابن عباس لرفعناه بعمله بها وقال مجاهد وعطاء معناه ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه أخلد الى الارض) يعني ولكنه سكن الى الدنيا ومال اليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والارض هنا عبارة عن الدنيا لان الارض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الارض (واتبع هواه) يعني انه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى نخسر دنياه وآخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لان الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الاعظم وجعل دعاءه مستجابا ثم انه لما اتبع هواه وركن الى الدنيا ورضي بها عوضا عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين نخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل الى الدنيا واتباع الهوى الا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم وبصره بعيوب نفسه عن كعب بن مالك الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه أخرجه الترمذي ۞ ثم ضرب الله عز وجل مثلا لهذا الرجل الذي آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث اذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الاعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه باخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لان الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لان التمثيل به على انه يلهث على كل حال ان حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائما فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم انه مال اليها وطلبها كانت حالته كحال الكلب اللاهث وقيل ان العالم اذا توصل بعلمه الى طلب الدنيا فانه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لاجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة

العطش

وادركه وصار قرينا له (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين روى ان قومه طلبوا منه ان يدعو على موسى ومن معه فأبى فلم يزالوا به حتى فعل وكان عنده اسم الله الاعظم (ولو شئنا لرفعناه) الى منازل الابرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه أخلد الى الارض) مال الى الدنيا ورغب فيها (واتبع هواه) في ايثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه) أي تزجره وتطرده (يلهث أو تتركه) غير مطرود (يلهث) والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك ان سائر الحيوان لا يكون منه اللهث الا اذا حرك أما الكلب فيلهث في الحالين فكان مقتضى الكلام ان يقال ولكنه أخلد الى الارض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حط ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا في الحالين وقيل لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب وقيل معناه هو ضال وعظ أو ترك وعن عطاء من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح ان طرد أو ترك

العطاش الى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذى أدلع لسانه من اللهث فى غير
حاجة ولا ضرورة ومعنى ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى ان شددت عليه وأهجته لهث وان تركته
على حاله لهث لان اللهث طبيعة أصلية فيه فكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل
الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة
كما ان اللهث طبيعة لازمة للكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى ان المثل الذى ضربناه للذى
آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها
فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وان تركوا لم يهتدوا
أيضا بل هم ضلال فى كل حال ثم قال سبحانه وتعالى (فاقصص القصص) وهذا خطاب للنبى صلى الله عليه
وسلم يعنى فاقصص القصص يا محمد على قومك أى أخبار من كفر بآيات الله (لعلهم يتفكرون) يعنى
فيتعظون وقيل هذا المثل لكفار مكة وذلك انهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم الى طاعة الله عز وجل
فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الله والى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم
يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا
بآياتنا (وأنفسهم كانوا يظلمون) يعنى بتكذيبهم بآياتنا ۞ قوله عز وجل (من يهد الله فهو المهتدى) يعنى من
يرشده الله الى دينه فهو المهتدى وقيل معناه من يتول الله هدايته وارشاده فهو المهتدى (ومن يضلل) يعنى
ومن يتولى ضلاله (فأولئك هم الخاسرون) يعنى فى الآخرة وفى الآية دليل على ان الله سبحانه وتعالى هو
الهادى المضل ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولقد ذرأنا) يعنى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله
سبحانه وتعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن
خلقه الله للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها واستدل البغوى على صحة هذا التأويل بما رواه عن عائشة قالت دعى
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير
الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك يا عائشة ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب
آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح
مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين ان من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لانه ليس مكلفا
وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا وأجاب العلماء عنه بانه لعله صلى الله عليه وسلم نهاها عن
المسارعة الى القطع من غير ان يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبى وقاص لفظة انى لأراه
مؤمنا فقال أو مسلما الحديث ويحتمل انه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل ان يعلم ان أطفال المسلمين فى الجنة
فلما علم ذلك قال به وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف
طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة ويستدل له باشياء منها خبر
ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا
يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق
عليه والله أعلم وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى ان الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها
وشرها لان الله سبحانه وتعالى بين بصريح اللفظ انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله
عز وجل لان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم ان له من يضطره الى
ذلك العمل الموجب الى دخول النار وهو الله عز وجل وقيل اللام فى جهنم للعاقبة أى عاقبتهم جهنم ثم وصفهم

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة وذكر
القرآن المعجز وما فيه
و بشروا الناس باقتراب
مبعثه (فاقصص القصص)
أى قصص بلعم الذى هو نحو
قصصهم (لعلهم يتفكرون)
فيحذرون مثل عاقبته
اذا ساروا نحو سيرته (ساء
مثلا القوم الذين كذبوا
بآياتنا) أى مثلا القوم
فحذف المضاف وفاعل ساء
مضمر أى ساء المثل مثلا
وانتصاب مثلا على التمييز
(وأنفسهم كانوا يظلمون)
معطوف على كذبوا
فيدخل فى حيز الصلة أى
الذين جمعوا بين التكذيب
بآيات الله وظلم أنفسهم أو
منقطع عن الصلة أى وما ظلموا
الا أنفسهم بالتكذيب وتقديم
المفعول به للاختصاص
أى وخصوا أنفسهم بالظلم
لم يتعد الى غيرها (من يهد
الله فهو المهتدى) حمل على
اللفظ (ومن يضلل) أى
ومن يضلله (فأولئك هم
الخاسرون) حمل على المعنى
ولو كان الهدى من الله
البيان كما قالت المعتزلة
لاستوى الكافر والمؤمن
اذ البيان ثابت فى حق
الفريقين فدل انه من الله
تعالى التوفيق والعصمة
والمعونة ولو كان ذلك
للكافر لاهتدى كما اهتدى
المؤمن (ولقد ذرأنا لجهنم
كثيرا من الجن والانس) هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبر آيات الله
والله تعالى علم منهم اختيار الكفر فشاء منهم الكفر وخلق فيهم ذلك وجعل مصيرهم جهنم لذلك ولا تنافى بين هذا وبين قوله وما خلقت الجن

فقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) يعنى لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه فى اللغة الفهم والعلم بالشئ ثم صار علما على اسم العلم فى الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال فقه الرجل يفقه فهو فقيه اذا فهم ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون بها فى آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لاعراضهم عن الحق وتركهم قبوله (ولهم أعين لا يبصرون بها) يعنى لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها فى آيات الله وادلة توحيده (ولهم آذان لا يسمعون بها) يعنى لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها قال أهل المعانى ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه ولما وصفهم الله عز وجل بانهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الداركة علم بذلك ان المراد بذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم فى الآخرة وحاصل هذا الكلام انهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم فى أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها ❁ وانى ان أشاء بها سميع

فانه أثبت له صمما مع وجود السمع قال مجاهد لهم قلوب لا يفقهون بها شيأ من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق ۞ ثم ضرب لهم مثلا فقال سبحانه وتعالى (أولئك كالانعام) يعنى ان الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية كالانعام وهى البهائم التى لا تفهم ولا تعقل وذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركون فى هذه الحواس الثلاثة التى هى القلب والبصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدى الى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الانعام التى لا تدرك شيأ ۞ ثم قال تعالى (بل هم أضل) يعنى بل ان الكفار أضل من الانعام لان الانعام تعرف ما يضرها وما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الانعام ولان الانعام لم تعط القوة العقلية والانسان قد أعطيها فاذا لم يستعمل العقل فيما ينفعه صار أخس حالا من الانعام وقيل ان الانعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل فصارت الانعام أفضل منه ۞ ثم قال الله تعالى (أولئك هم الغافلون) يعنى عن ضرب هذه الامثال لهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولله الاسماء الحسنى) قال مقاتل ان رجلا دعا الله فى صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركى مكة قال ابن الجوزى هو أبو جهل ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية ولله الاسماء الحسنى والحسنى تأنيث الاحسن ومعنى الآية ان أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد ان فيها ما ليس بحسن والمعنى ان الاسماء الحسنى ليست الا لله لان هذا اللفظ يفيد الحصر وقيل ان الاسماء ألفاظ دالة على معان فهى انما تحسن بمعانيها ولا معنى للحسن فى حق الله تبارك وتعالى الا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهى محصورة فى نوعين أحدهما عدم افتقاره الى غيره الثانى افتقار غيره اليه وانه هو المسمى بالاسماء الحسنى (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر وفى رواية من أحصاها وفى رواية أخرى لله تسعة وتسعون اسما مائة الا واحدا لا يحفظها أحد الا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر قال البخارى أحصاها حفظها وفى رواية الترمذى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هو الله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت

الحسيب

والانس الا ليعبدون لانه انما خلق منهم للعبادة من علم انه يعبده وأما من علم انه يكفر به فانما خلقه لما علم انه يكون منه فالحاصل ان من علم منه فى الازل انه يكون منه العبادة خلقه للعبادة ومن علم منه أنه يكون منه الكفر خلقه لذلك وكم من عام يراد به الخصوص وقول المعتزلة بان هذه لام العاقبة أى لما كان عاقبتهم جهنم جعل كانهم خلقوا لها فرارا عن ارادة المعاصى عدول عن الظاهر (لهم قلوب لا يفقهون بها) الحق ولا يتفكرون فيه (ولهم أعين لا يبصرون بها) الرشد (ولهم آذان لا يسمعون بها) الوعظ (أولئك كالانعام) فى عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر (بل هم أضل) من الانعام لانهم كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول فالانعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارها وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار وكيف يستوى المكلف المأمور والمخلى المعذور فالآدمى روحانى شهوانى سماوى أرضى فان غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات وان غلب هواه روحه فاقته بهائم الارض (أولئك هم الغافلون) الكاملون فى الغفلة (ولله الاسماء الحسنى) التى هى أحسن الاسماء لانها تدل على

الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاوّل الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذوالجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور قال الترمذى حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه الا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء التى فى هذا الحديث قال ابن الاثير وفى رواية ذكرها رزين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال ان لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما الحديث قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه انه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود من الحديث ان هذه التسعة والتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها الا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء فى الحديث الآخر أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربى المالكى عن بعضهم ان لله ألف اسم قال ابن العربى وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخارى ان معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل المراد من الاحصاء العدد أى عدها فى الدعاء بها وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر فى مدلولها معتبرا متدبرا ذاكرا راغبا راهبا معظما لها ولمسماها ومقدسا للذات الله سبحانه وتعالى وأن يخطر بباله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه وقوله والله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه فى وصف الله تعالى أنه الواحد الذى لا شريك له ولا نظير وفيه تفضيل الوتر فى الاعمال لان أكثر الطاعات وتر وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لاضافة الاسماء اليه فيقال الرؤف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الرؤف والكريم واللطيف الله وقد قيل ان لفظة الله هو الاسم الاعظم قال أبو القاسم القشيرى فيه دليل على ان الاسم هو المسمى اذ لو كان غيره لكانت الاسماء لغيره وقد قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الامام فخر الدين الرازى دلت الآية على ان الاسم غير المسمى لانها تدل على ان أسماء الله كثيرة لان لفظ الاسماء لفظ الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت ان أسماء الله كثيرة ولا شك ان الله واحد فلزم القطع بان الاسم غير المسمى وأيضا قوله سبحانه وتعالى ولله الاسماء الحسنى يقتضى اضافة الاسماء الى الله واضافة الشئ الى نفسه محال وقال غيره الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشئ المسمى به فهو غيره وقال أهل اللغة انما جعل الاسم تنويها على المعنى لان المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لان التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشئ والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر قال العلماء وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضا ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فادعوه بها) يعنى ادعوا الله باسمائه التى سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ففيه دليل على ان أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده انه يجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخى ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو

معان حسنة فمنها ما يستحقه بحقائقه كالقديم قبل كل شئ والباقى بعد كل شئ والقادر على كل شئ والعالم بكل شئ والواحد الذى ليس كمثله شئ ومنها ما تستحسنه الانفس لآثارها كالغفور والرحيم والشكور والحليم ومنها ما يوجب التخلق به كالفضل والعفو ومنها ما يوجب مراقبة الاحوال كالسميع والبصير والمقتدر ومنها ما يوجب الاجلال كالعظيم والجبار والمتكبر (فادعوه بها) فسموه بتلك الاسماء

سبحانه وتعالى ويخلص النية فى دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس لله ويعزم المسئلة مع رجاء الاجابة ويعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية فاذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تأثير عظيم (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) معنى الالحاد فى اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة وقال ابن السكيت الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ماليس منه يقال ألحد فى الدين الحادا اذا عدل عنه ومال الى غيره قال المحققون الالحاد يقع فى أسماء الله تعالى على وجوه أحدها اطلاق أسماء الله عزوجل على غيره وذلك ان المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الاله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد الوجه الثانى وهو قول أهل المعانى ان الالحاد فى أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد فى الشرع بل ندعو الله بأسمائه التى وردت فى الكتاب والسنة على وجه التعظيم الوجه الثالث مراعاة حسن الادب فى الدعاء فلا يجوز أن يقال ياضار يامانع ياخالق القردة على الانفراد بل يقال ياضار يانافع يامعطى ياخالق الخلق الوجه الرابع أن يسمى الله العبد باسم لا يعرف معناه فانه ره باسم لا يليق اطلاقه على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسمى به لما فيه من الغرابة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) يعنى فى الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد فى أسماء الله عزوجل ۞ قوله عزوجل (وممن خلقنا أمة) يعنى جماعة وعصابة (يهدون بالحق وبه يعدلون) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قال قتادة بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (ق) عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك وفى الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدى اليه (والذين كذبوا بآياتنا) يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والاول أولى لان صيغة العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه منه (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) قال الازهرى سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم الى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادون بذلك تماديا فى الغى والضلال ويتدرجون فى الذنوب والمعاصى فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه وقال الضحاك معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة وقال الكلبى نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها وقال سفيان الثورى نسبغ عليهم النعم ثم ننسيهم الشكر روى أن عمر بن الخطاب لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال أهل المعانى الاستدراج ان يندرج الشئ الى الشئ فى خفية قليلا قليلا ومنه درج الصبى اذا قارب بين خطاه فى المشى ومنه درج الكتاب اذا طواه شيأ بعد شئ (وأملى لهم) يعنى وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم والاملاء فى اللغة الامهال واطالة المدة والمعنى انى أطيل مدة أعمارهم ليتمادوا فى الكفر والمعاصى ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا افتح لهم باب التوبة (ان كيدى متين) يعنى ان أخذى شديد والمتين من كل شئ هو القوى الشديد وقال ابن عباس معناه ان مكرى شديد قال المفسرون نزلت هذه الآية فى المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم فى ليلة واحدة وفى هذه الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وأن الله

(وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الاسماء الحسنى وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه نحو أن يقولوا ياسخى يارفيق لانه لم يسم نفسه بذلك ومن الالحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلة يلحدون حمزة لحد وألحد مال (سيجزون ما كانوا يعملون وممن خلقنا) للجنة لانه فى مقابلة ولقد ذرأنا لجهنم (أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فى أحكامهم قيل هم العلماء والدعاة الى الدين وفيه دلالة على ان اجماع كل عصر حجة (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم) سنستدنيهم قليلا قليلا الى ما يهلكهم (من حيث لا يعلمون) ما يراد بهم وذلك ان يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغى فكلما جدد الله عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية فيتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم ظانين أن ترادف النعم أثرة من الله تعالى وتقريب وانما هو خذلان منه وتبعيد وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد والاستنزال درجة بعد درجة (وأملى لهم) عطف على سنستدرجهم وهو داخل فى حكم السين أى أمهلهم (ان كيدى متين) أخذى شديد سماه كيدا لانه شبيه بالكيد من حيث انه فى الظاهر احسان وفى الحقيقة خذلان ولما نسبوا النبى صلى الله عليه وسلم الى الجنون نزل

(أولم يتفكروا مابصاحبهم) محمد عليه السلام ومانافيه بعد وقف أى أولم يتفكروا فى قولهم ثم نفى عنه الجنون بقوله مابصاحبهم (من جنة) جنون (ان هو الا نذير مبين) منذر من الله موضح انذاره (أولم ينظروا) نظر استدلال (فى ملكوت السموات والارض) الملكوت الملك العظيم (وماخلق الله من شئ) وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشئ من أجناس لايحصرها العدد (وأن عسى) ان مخففة من الثقيلة وأصله وأنه عسى والضمير ضمير الشأن وهو فى موضع الجر بالعطف على ملكوت والمعنى أولم ينظروا فى ان الشأن والحديث عسى (أن يكون قد اقترب أجلهم) ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا الى النظر وطلب الحق وماينجيهم قبل مفاجاة الاجل وحلول العقاب (فبأى حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به وهو متعلق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم كانه قيل لعل أجلهم قد اقترب فمالهم لايبادرون لايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به (من يضلل الله فلا هادى له) أى يضلله الله (ويذرهم) بالياء عراقى وبالجزم حمزة وعلى عطفا على محل فلا هادى له كانه قيل من يضلل الله لايهده أحد ويذرهم والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم الباقون بالنون (فى طغيانهم) كفرهم (يعمهون) يتحيرون ولما سألت اليهود أو قريش عن الساعة متى تكون نزل (يسألونك عن الساعة) وهى من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لانها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (أيان) متى واشتقاقه من أى فعلان منه لان معناه أى وقت (مرساها) ارساؤها مصدر كالمدخل بمعنى الادخال أو وقت ارسائها أى اثباتها والمعنى متى يرسيها الله (قل انما علمها عند ربى) أى علم وقت ارسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدا من ملك مقرب ولا نبى مرسل ليكون ذلك ادعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الاجل الخاص وهو وقت الموت لذلك

سبحانه وتعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ۞ قوله سبحانه وتعالى (أولم يتفكروا مابصاحبهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعنى من جنون قال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يابنى فلان يابنى فلان انى لكم نذير مبين وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم ان صاحبكم هذا المجنون بات يصوت الى الصباح فانزل الله عز وجل أولم يتفكروا والتفكر التأمل واعمال الخاطر فى عاقبة الامر والمعنى أولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة والجنة حالة من الجنون وادخال لفظة من فى قوله من جنة يوجب أن لايكون به نوع من أنواع الجنون وانما نسبوه الى الجنون وهو برىء منه لانهم رأوا انه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله عز وجل وانذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى (ان هو) يعنى ماهو (الا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى الى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى (أولم ينظروا) يعنى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شئ) والمقصود التنبيه على ان الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والارض بل كل شئ خلقه الله سبحانه وتعالى وبرأه فيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر
وفى كل شئ له آية ۞ تدل على انه واحد
(وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل ان يؤمنوا فيصيروا الى النار واذا كان الامر كذلك وجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز بالنعيم المقيم (فبأى حديث بعده) يعنى بعد القرآن (يؤمنون) يعنى يصدقون والمعنى فبأى كتاب بعد الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يصدقون وليس بعد محمد نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ۞ ثم ذكر علة اعراضهم عن الايمان فقال سبحانه وتعالى (من يضلل الله فلا هادى له) يعنى ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم فلو هداهم لآمنوا (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ويتركهم فى ضلالتهم وتماديهم فى الكفر يترددون متحيرين لايهتدون سبيلا ۞ قوله عز وجل (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاسر الينا متى الساعة فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس قال جبل بن أبى قشير وشمول بن زيد وهما من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى الساعة فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الساعة يعنى عن خبر القيامة سميت ساعة لانها تقوم فى ساعة غفلة وبغتة أو لان حساب الخلائق ينقضى فيها فى ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها قال ابن عباس يعنى منتهاها أى متى وقوعها قال والساعة الوقت الذى تموت فيه الخلائق وأصل الارساء الثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت (قل) أى قل لهم يامحمد (انما علمها عند ربى) أى لايعلم الوقت الذى تقوم فيه الا الله استأثر الله بعلمها

فلم يطلع عليه أحدا ومر حديث الايمان والاسلام والاحسان وسؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم قال فاخبرني عن الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون وسبب اخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لانهم اذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف واشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم الى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية (لا يجليها لوقتها الا هو) قال مجاهد لا يأتي بها الا هو وقال السدي لا يرسلها لوقتها الا هو والتجلية اظهار الشئ بعد خفائه والمعنى لا يظهرها لوقتها المعين الا الله ولا يقدر على ذلك غيره (ثقلت في السموات والارض) يعني ثقل أمرها وخفي علمها على أهل السموات والارض فكل شئ خفي فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب (لا تأتيكم الا بغتة) يعني فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها

* اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج قوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه يعني يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوطه اذا طينه وأصله من اللصوق والاكلة بضم الهمزة اللقمة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (يسئلونك كأنك حفي عنها) يعني يسألك قومك عن الساعة كأنك حفي بهم بمعنى بار بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسئلونك عنها كأنك حفي بهم قال ابن عباس يقول كان بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس محمدا صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون ان محمدا صلى الله عليه وسلم حفي بهم فأوحى الله عز وجل اليه انما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكا ولا رسولا وقيل معناه يسئلونك عنها كأنك حفي بها أي عالم بها من قولهم أحفيت في المسئلة اذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها (قل) يعني قل يا محمد (انما علمها عند الله) يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا الله عز وجل فان قلت قوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانيا يسئلونك كأنك حفي عنها فيه تكرار قلت ليس فيه تكرار لان السؤال الاول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثاني سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار فان قلت عبر عن الجواب في السؤال الاول بقوله تعالى علمها عند ربي وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين قلت فيه فرق لطيف وهو انه لما كان السؤال الاول واقعا عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي ولما كان السؤال الثاني واقعا عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لانه أعظم الاسماء (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يعلمون أن علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وقيل ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق ۞ قوله سبحانه وتعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) قال ابن عباس ان أهل مكة قالوا يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل ان يغلو فنشتري به فنربح فيه وعند الغلاء وبالارض التي يريد ان تجدب فنرحل عنها الى ما قد أخصبت فأنزل الله عز وجل قل لا أملك أي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعا أي اجتلاب نفع بان أربح فيما أشتريه ولا ضرا يعني ولا أقدر ان أدفع عن نفسي ضرا نزل بها بان ارتحل الى الارض الخصبة وأترك الجدبة (الا ما شاء الله) يعني ان أملكه وأقدر عليه (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرت من المال (وما مسني السوء)

كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها لان أهلها يخافون شدائدها وأهوالها (لا تأتيكم الا بغتة) فجأة على غفلة منكم (يسئلونك كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وحقيقته كأنك بليغ في السؤال عنها لان من بالغ في المسئلة عن الشئ والتنقير عنه استحكم علمه فيها وأصل هذا التركيب المبالغة ومنه احفاء الشارب أو عنها متعلق بيسئلونك أي يسئلونك عنها كأنك حفي أي عالم بها (قل انما علمها عند الله) وكرر يسئلونك وانما علمها عند الله لتأكيد ولزيادة كأنك حفي عنها وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة منهم محمد بن الحسن رحمه الله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) انه المختص بالعلم بها (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) هو اظهار للعبودية وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك الا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه يعني من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شئ منها ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب وقيل الغيب الاجل والخير

يعنى الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج معناه لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب ير بدوقت الموت لاستكثرت من الخير يعنى من العمل الصالح وقيل ان أهل مكة لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الاولى وهذه الآية ومعناه أنا لا أدعى علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالاخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب فان قلت قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت أحاديث فى الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم فكيف الجمع بينه و بين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير قلت يحتمل أن يكون قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع والادب والمعنى لا أعلم الغيب الا أن يطلعنى الله عليه و يقدره لى و يحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى على أشياء من المغيبات فاخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله وما مسنى السوء يعنى الجنون وذلك أنهم نسبوه الى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسنى السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسنى السوء يعنى قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم الساعة (ان أنا الا نذير) يعنى ما أنا الا رسول أرسلنى الله اليكم أنذركم وأخوفكم عقابه ان لم تؤمنوا (وبشير) يعنى وأبشر بثوابه (لقوم يؤمنون) يعنى يصدقون

﴿ قوله عز وجل (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) يعنى وخلق منها زوجها حواء وقد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم فى أول سورة النساء (ليسكن اليها) يعنى ليأنس بها و يأوى (فلما تغشاها) يعنى واقعها وجامعها كنى به عن الجماع أحسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها وتجللها (حملت حملا خفيفا) يعنى النطفة والمنى لان أول ما تحمل النطفة وهى خفيفة عليها (فمرت به) يعنى انها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها (فلما أثقلت) أى صارت الى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها (دعوا الله ربهما) يعنى ان آدم وحواء دعوا الله ربهما (لئن آتيتنا صالحا) يعنى لئن أعطيتنا بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) يعنى لك على انعامك علينا قال المفسرون لما أهبط آدم وحواء الى الارض ألقيت الشهوة فى نفس آدم فاصاب حواء فحملت من ساعتها فلما أثقل الحمل وكبر الولد أتاها ابليس فقال لها ما الذى فى بطنك قالت ما أدرى قال انى أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا أو نحو ذلك من الارض الا بهيمة أو نحوها قالت انى أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك أو من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا فى غم من ذلك ثم عاد اليها ابليس فقال لها انى من الله بمنزلة فان دعوت الله أن يجعله خلقا سويا مثلك و يسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس فى الملائكة الحرث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذى قد علمت فعاودها ابليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحرث وقال ابن عباس كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فاتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فولدت فسمياه عبد الحرث فعاش عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فسمته فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم عن قتادة وقال قد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك

ان أنا الا عبد أرسلت نذيرا و بشيرا وما من شأنى أن أعلم الغيب واللام فى (لقوم يؤمنون) يتعلق بالنذير والبشير لان النذارة والبشارة انما ينفعان فيهم أو بالبشير وحده والمتعلق بالنذير محذوف أى الا نذير للكافرين و بشير لقوم يؤمنون (هو الذى خلقكم من نفس واحدة) هى نفس آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه (ليسكن اليها) ليطمئن و يميل لان الجنس الى الجنس أميل خصوصا اذا كان بعضا منه كما يسكن الانسان الى ولده و يحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه وذكر ليسكن بعد ما أنث فى قوله واحدة وخلق منها زوجها ذهابا الى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم (فلما تغشاها) جامعها (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والاذى ولم تستثقله كما يستثقلنه (فمرت به) فمضت به الى وقت ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق أو حملت حملا خفيفا يعنى النطفة فمرت به فقامت به وقعدت

(فلما أثقلت) حان وقت ثقل حملها (دعوا الله ربهما) دعاء آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيق بان يدعى و يلجأ اليه فقالا (لئن آتيتنا صالحا) لئن وهبت لنا ولدا سويا قد صلح بدنه أو ولدا ذكرا لان الذكورة من الصلاح (لنكونن من الشاكرين) لك والضمير فى

من وحى الشيطان يعنى من وسوسته وحديثه كما جاء انه خدعهما مرتين مرة فى الجنة ومرة فى الارض قال ابن عباس لما ولدله أول ولد أتاه ابليس فقال انى سأنصح لك فى شأن ولدك هذا تسميه عبد الحرث وكان اسمه فى السماء الحرث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك انى أطعتك فى أكل الشجرة فاخرجتنى من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولدله بعد ذلك ولد آخر فقال أطعنى والامات كما مات الاول فعصاه فمات ولده فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحرث فلم يزل به حتى سماه عبد الحرث فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلاله شركاء فيما آتاهما) قال ابن عباس اشركاه فى طاعته فى غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه وقال قتادة أشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة وقال عكرمة ماأشرك آدم ولا حواء وكان لايعيش لهما ولد فاتاهما الشيطان فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فهو قوله تعالى جعلاله شركاء فيما آتاهما قرئ شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة وقال أبو عبيدة معناه حظا ونصيبا وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعنى ابليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعنى جعلاله شريكا اذ سميا ولدهما عبد الحرث قال العلماء ولم يكن ذلك شركا فى العبادة ولا أن الحرث رب لهما لان آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصدا بتسميتهما الولد بعبد الحرث ان الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال الشاعر

* وانى لعبد الضيف مادام ثاويا * أخبر عن نفسه انه عبد الضيف ماأقام عنده مع بقاء الحرية عليه وانما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده وقد يطلق اسم الرب بغير الالف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام لعزيز مصر انه ربى أحسن مثواى أراد به التربية ولم يرد به انه ربه ومعبوده فكذلك هنا وانما أخبر عن آدم عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه وتعالى جعلاله شركاء فيما آتاهما لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولان منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لانه نظر الى السبب ولم تنظر الى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه قال العلماء وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ۞ ثم ابتدأ فى الخبر عن الكفار بقوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) نزه نفسه سبحانه وتعالى عن اشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعانى ولو أراد به ماسبق فى معنى الآية فستقيم أيضا من حيث انه كان الاولى بهما ان لا يفعلا ماأتيابه من الاشراك فى التسمية فكان الاولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحرث وفى معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع الى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الاولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء الى الابناء بقوله ثم اتخذتم العجل واذ قتلتم نفسا فعيربه عن اليهود الذين كانوا موجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق بقوله هو الذى خلقكم من نفس واحدة أى خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها أى وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن الا أن القول الاول أصح لانه قول السلف مثل ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم من المفسرين وورد الحديث بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك ۞ وقوله سبحانه وتعالى (أيشركون) قرئ بالتاء على خطاب الكفار وقرئ بالياء على الغيبة (مالا يخلق شيأ) يعنى ابليس والاصنام (وهم يخلقون) أى وهم مخلوقون فان قلت كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون قلت ان لفظة ما تقع على الواحد والاثنين والجمع فهى من صيغ الوحدان بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله

آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما (فلما آتاهما صالحا) أعطاهما ماطلباه من الولد الصالح السوى (جعلاله شركاء) أى جعل أولادهما شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وكذلك (فيما آتاهما) أى آتى أولادهما دليله (فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى اشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم آل قصى أى هو الذى خلقكم من نفس واحدة قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن اليها فلما آتاهما ماطلبا من الولد الصالح السوى جعلاله شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الاربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الدار والضمير فى أيشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك شركا مدنى وأبو بكر أى ذوى شرك وهم الشركاء (أيشركون مالا يخلق شيأ) يعنى الاصنام (وهم يخلقون) أجريت الاصنام مجرى أولى العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم اياها آلهة والمعنى أيشركون مالا يقدر

ما

مالايخلق رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى فان قلت كيف جمع بالواو
و بالنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس قلت لما اعتقد عابدوا الاصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا
الجمع بناء على مايعتقدونه و يتصورنه ۞ وقوله تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) يعنى أن الاصنام لاتقدر
على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها والنصر المعونة على الاعداء والمعنى أن المعبود الذى تجب
عبادته يكون قادرا على ايصال النفع ودفع الضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن
يعبدها ۞ ثم قال تعالى (ولا أنفسهم ينصرون) يعنى ولا يقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروها فان
من أراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها ۞ ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وان
تدعوهم الى الهدى) يعنى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى (لايتبعوكم) لان الله سبحانه
وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم أدعوتموهم) الى الدين والهداية (أم أنتم
صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالين لا يؤمنون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما بين فى
الآية المتقدمة عجز الاصنام بين فى هذه أنه لاعلم لها بشئ البتة والمعنى أن هذه الاصنام التى يعبدها المشركون
معلوم من حالها انها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها الى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه
وتعالى سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون وذلك أن المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدة و بلاء تضرعوا
لاصنامهم فاذا لم تكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للاصنام أو
سكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم)
يعنى ان الاصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون انما هى مملوكة لله أمثالهم وقيل انها مسخرة مذللة مثل
ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل فى قوله سبحانه وتعالى عباد أمثالكم انها الملائكة والخطاب مع قوم
كانوا يعبدون الملائكة والقول الاول أصح وفيه سؤال وهو أنه وصفها بانها عباد مع أنها جماد والجواب أن
المشركين لما ادعوا أن الاصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ
على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال عزوجل (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم
صادقين) فى كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى
أن قصارى هذه الاصنام التى تعبدونها أنها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم
فلم عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيدا ۞ ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى (ألهم أرجل
يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) يعنى ان قدرة
الانسان المخلوق انما تكون بهذه الجوارح الاربعة فانها آلات يستعين بها الانسان فى جميع أموره
والاصنام ليس لها من هذه الاعضاء والجوارح شئ فهم مفضلون عليها بهذه الاعضاء لان الرجل الماشية
أفضل من الرجل العاجزة عن المشى وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين
الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الادراك والاذن السامعة أفضل من الاذن العاجزة عن السمع فظهر
بهذا البيان أن الانسان أفضل من هذه الاصنام العاجزة بكثير بل لا فضل لها ألبتة لانها حجارة وجماد
لا تضر ولا تنفع واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالانسان العاقل الافضل أن يشتغل بعبادة الاخس
الادون الارذل الذى لا فضل له البتة ولا يضر ولا ينفع فامتنع بهذه الحجة كون الاصنام آلهة ۞ ثم قال
تعالى (قل ادعوا شركاءكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الاصنام التى تعبدونها
حتى يتبين عجزها (ثم كيدون) يعنى أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله فى استكمال الحجة عليهم لانهم لما
قرعوا بعبادة من لا يملك ضرا ولا نفعا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل ان معبودى يملك الضر والنفع فلو

على خالق شئ وهم يخلقون لان الله خالقهم أو الضمير فى وهم يخلقون للعابدين أى أيشركون مالايخلق شيأ وهم مخلوقوا الله فليعبدوا خالقهم أو للعابدين والمعبودين وجمعهم كأولى العلم تغليبا للعابدين (ولا يستطيعون لهم) لعبدتهم (نصرا ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها مايعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم (وان تدعوهم) وان تدعوا هذه الاصنام (الى الهدى) الى ماهو هدى ورشاد والى أن يهدوكم أى وان تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى (لايتبعوكم) الى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله لايتبعوكم نافع (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) عن دعائهم فى أنه لافلاح معهم ولا يجيبونكم والعدول عن الجملة الفعلية الى الاسمية لرؤس الآى (ان الذين تدعون من دون الله) أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أى مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوهم) لجلب نفع أو دفع ضر (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (ان كنتم صادقين) فى انهم آلهة ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها) مشيكم (أم لهم أيد يبطشون بها) يتناولون بها (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) أى فلم تعبدون ما هو دونكم (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون)

اجتهدتم في كيدي لم تصلوا الى ضري لان الله يدفع عني وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون (فلا تنظرون) أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي أنتم وشركاؤكم (ان وليي الله) يعني ان الذي يتولى حفظي و ينصرني عليكم هو الله (الذي نزل الكتاب) يعني القرآن والمعنى كما أيدني بانزال القرآن علي كذلك يتولى حفظي و ينصرني (وهو يتولى الصالحين) يعني يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيأ ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لان من تولاه الله بحفظه فلا يضره شئ ﴿قوله عز وجل (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) هذه الآية قد تقدم تفسيرها والفائدة في تكريرها أن الآية الاولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذي يتولى الصالحين بنصره وحفظه و بين هذه الاصنام وهي ليست كذلك فلا تكون معبودة ﴿وقوله سبحانه وتعالى (وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) قال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون يعني ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين الى أن هذه الآية أيضا واردة في صفات الاصنام لانها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ﴿قوله تعالى (خذ العفو) العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم فيستعصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء وقال مجاهد يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الاشياء والعفو التساهل في كل شئ (خ) عن عبد الله بن الزبير قال ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف الا في أخلاق الناس وفي رواية قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس وكذا في جامع الاصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال وقال ابن عباس يعني خذ ما عفا لك من أموالهم فما أتوك به من شئ فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفضيلها وما انتهت اليه وقال السدي خذ العفو أي الفضل من المال نسختها آية الزكاة وقال الضحاك خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة (وأمر بالعرف) يعني وأمر بكل ما أمرك الله به وهو كل ما عرفته بالوحي من الله عز وجل وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الامر بالاعراض عنهم منسوخا بآية القتال قال بعضهم أول هذه الآية وآخرها منسوخ ووسطها محكم يريد بنسخ أولها أخذ الفضل من الاموال فنسخ بفرض الزكاة والامر بالمعروف محكم والاعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روى انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسأل ثم رجع فقال ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوي بغير سند وقال جعفر الصادق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه عن عائشة قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا سخابا في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو و يصفح أخرجه الترمذي وروى البغوي باسناده عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال ﴿قوله عز وجل (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) قال ابن زيد لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله

آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك و بالياء يعقوب (ان وليي) ناصري عليكم (الله الذي نزل الكتاب) أوحى الي وأعزني برسالته (وهو يتولى الصالحين) ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم (والذين تدعون من دونه) من دون الله (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك) يشبهون الناظرين اليك لانهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته الى الشئ ينظر اليه (وهم لا يبصرون) المرئي (خذ العفو) هو ضد الجهد أي ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام يسروا ولا تعسروا (وأمر بالعرف) بالمعروف والجميل من الافعال أو هو كل خصلة يرتضيها العقل و يقبلها الشرع (وأعرض عن الجاهلين) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم وفسرها جبريل عليه السلام بقوله صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك وعن الصادق أمر الله نبيه عليه السلام بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها (واما ينزغنك من الشيطان نزغ)

الله عليه وسلم فكيف بالغضب يارب فانزل الله عز وجل واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه فى القلب وقيل النزغ الانزعاج وأكثرما يكون عند الغضب وأصله الازعاج بالحركة الى الشر والافساد يقال نزغت بين القوم اذا أفسدت بينهم وقال الزجاج النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى واما يصيبنك يامحمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أونخسة (فاستعذ بالله) يعنى فاستجر بالله والجأ اليه فى دفعه عنك (انه سميع) يعنى لدعائك (عليم) بحالك وقيل ان الشيطان يجد مجالا فى حمل الانسان على مالا ينبغى فى حالة الغضب والغيظ فامر الله بالالتجاء اليه والتعوذ به فى تلك الحالة فهى تجرى مجرى العلاج لذلك المرض

❊(فصل واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية)❊ فقالوا لوكان النبى معصوما لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ فى قلبه ويحتاج الى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه الاول ان معنى الكلام ان حصل فى قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وانه لم يحصل ذلك له ألبتة فهو كقوله لئن أشركت وهو برئ من الشرك البتة والوجه الثانى على تقدير انه لوحصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن قبولها وثبوتها فى قلبه (م) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يارسول الله قال واياى الا أن الله أعانى عليه فأسلم فلا يامرنى الا بخير قال الشيخ محيى الدين النووى ويروى فاسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فاسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه ان القرين أسلم من الاسلام يعنى صار مؤمنا لا يامرنى الا بخير قال الخطابى الصحيح المختار الرفع ورجح القاضى عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يامرنى الا بخير قال القاضى عياض واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه وفى هذا الحديث اشارة الى التحذير من فتنة القرين ووسوسته واغوائه أعلمنا انه معنا لنحترز عنه بحسب الامكان والله أعلم الوجه الثالث يحتمل أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ومعناه واما ينزغنك أيها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله

۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف) وقرئ طيف (من الشيطان) وهما لغتان ومعناه الشئ يلم بالانسان وقيل بينهما فرق فالطائف مايطوف حول الانسان والطيف الوسوسة وقيل الطائف ماطاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس وقال الازهرى الطيف فى كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لان الغضبان يشبه المجنون وقيل سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا لانه لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال فذكر فى الآية الاولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور فى هذه الآية لان حالة الشيطان مع الانبياء أضعف من حاله مع غيرهم (تذكروا) يعنى عرفوا ماحصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه (فاذاهم مبصرون) يعنى انهم يبصرون مواقع الخطا بالتذكر والتفكر وقال السدى اذا زلوا تابوا وقال مقاتل هو الرجل اذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف انه معصية فابصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل (واخوانهم) يعنى واخوان الشياطين من المشركين (يمدونهم) أى يمدهم الشياطين (فى الغى) قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أى يطيلون لهم فى الاغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة (ثم لا يقصرون) يعنى لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستمر فى ضلالته لا يتذكر ولا يرعوى وقال ابن عباس الانس لا يقصرون عما يعملون من السيآت ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون عن فعل الانس والشياطين جميعا

واما ينزغنك منه نخس أى بان يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به (فاستعذ بالله) ولا تطعه والنزغ النخس كانه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب كقول أبى بكر رضى الله عنه ان لى شيطانا يعترينى (انه سميع) لنزغه (عليم) بدفعه (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان) طيف مكى وبصرى وعلى أى لمة منه مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفا وعن أبى عمرو هما واحد وهى الوسوسة وهذا تاكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان وان عادة المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان والمام بوسوسته (تذكروا) ماأمر الله به ونهى عنه (فاذاهم مبصرون) فابصروا السداد ودفعوا وسوسته وحقيقته أن يفروا منه الى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله (واخوانهم) وأما اخوان الشياطين من شياطين الانس فان الشياطين (يمدونهم فى الغى) أى يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم ويمدونهم من الامداد مدنى (ثم لا يقصرون) ثم لا يمسكون عن اغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا وجاز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به الى الجاهلين والاول أوجه لان اخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا

﴿قوله عز وجل (واذا لم تأتهم بآية) يعني واذا لم تات المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة (قالوا) يعني قال المشركون (لولا اجتبيتها) يعني افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام اذا اختلقته وافتعلته وقال الكلبي كان أهل مكة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذا تاخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعني هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (انما أتبع ما يوحى الي من ربي) يعني القرآن الذي أنزل علي وليس لي أن أقترح الآيات والمعجزات (هذا بصائر من ربكم) يعني هذا القرآن حجج وبرهان وأصل البصائر من الابصار وهو ظهور الشئ حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب (وهدى) يعني وهو هدى (ورحمة) يعني وهو رحمة من الله (لقوم يؤمنون) وهنا لطيفة وهي الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك ان الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق الاولين وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة ﴿قوله تعالى (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى واذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعني أصغوا اليه باسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعني عند قراءته والانصات السكوت للاستماع يقال نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد واختلف العلماء في الحال التي أمر الله عز وجل بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له اذا قرأ لان قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر وظاهر الامر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال القول الاول وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجرى هذه الآيات على العموم ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت والقول الثاني انها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روى عن أبي هريرة انهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فامروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن وقال عبد الله كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا القول الثالث انها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الامام روى عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود انه سمع ناسا يقرؤن مع الامام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وقال الكلبي كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار القول الرابع انها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد الانصات للامام يوم الجمعة وقال عطاء وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الامام وهو يخطب وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لان الآية مكية والخطبة انما وجبت بالمدينة واتفقوا على أنه يجب الانصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قلت لصاحبك أنصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت أخرجاه في الصحيحين واختلف العلماء في القراءة خلف الامام فذهب جماعة الى ايجابها سواء جهر الامام بالقراءة أو أسر يروى ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الاوزاعي واليه ذهب الشافعي وذهب قوم الى أنه يقرأ فيما أسر الامام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الامام فيه يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد واسحق وذهب قوم الى انه

وانما جمع الضمير في اخوانهم والشيطان مفرد لان المراد به الجنس (واذا لم تأتهم بآية) مقترحة (قالوا لولا اجتبيتها) هلا اخترعتها أي اختلقتها كما اختلقت ما قبلها (قل انما أتبع ما يوحى الي من ربي) ولست بمقترح لها (هذا بصائر من ربكم) هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا

لا يقرأ سواء أسر الامام أو جهر يروى ذلك عن جابر واليه ذهب أصحاب الرأي حجة من لا يرى القراءة خلف الامام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال ان الآية تدل على الامر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الامام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعا بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الامام في صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة في غير الفاتحة لان دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الامام ولم يفرق بين السرية والجهرية قالوا واذا قرأ الفاتحة خلف الامام تتبع سكتاته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روي عن عبادة بن الصامت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله أي والله قال لا تفعلوا الا بأم القرآن فانه لا صلاة لمن لم يقرأ بها أخرجه الترمذي بطوله وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثا غير تمام فقيل لابي هريرة انا نكون وراء الامام قال اقرأ بها في نفسك وذكر الحديث ۞ وقوله سبحانه وتعالى (لعلكم ترحمون) يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه ۞ قوله عز وجل (واذكر ربك في نفسك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لانه عام لسائر المكلفين قال ابن عباس يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سرا في نفسك والفائدة فيه ان انتفاع الانسان بالذكر انما يكمل اذا وقع الذكر بهذه الصفة لان ذكر النفس أقرب الى الاخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس ان يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله واذا كان الذكر باللسان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واستشعاره عظمة المذكور عز وجل (تضرعا) يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة اذا خضع وذل واستكان لغيره (وخيفة ودون الجهر من القول) يعني وخوفا والمعنى تضرع اليّ وخف عذابي وقال مجاهد وابن جريج أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وههنا لطيفة وهي ان قوله سبحانه وتعالى واذكر ربك في نفسك فيه اشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لان لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والاحسان فاذا تذكر العبد انعام الله عليه واحسانه اليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم اتبعه بقوله تضرعا وخيفة وهذا مقام الخوف فاذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي ايمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فاذا قارب الموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاءه على خوفه عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله واني أخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو منه وآمنه مما يخاف أخرجه الترمذي ۞ وقوله سبحانه وتعالى (بالغدو) جمع غدوة (والآصال) جمع أصل وهي ما بين صلاة العصر الى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (ولا تكن من الغافلين) يعني عما يقربك الى الله عز وجل وقيل ان أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين

لعلكم ترحمون) ظاهره وجوب الاستماع والانصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضي الله عنهم على انه في استماع المؤتم وقيل في استماع الخطبة وقيل فيهما وهو الاصح (واذكر ربك في نفسك) هو عام في الاذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك (تضرعا وخيفة) متضرعا وخائفا (ودون الجهر من القول) ومتكلما كلاما دون الجهر لان الاخفاء أدخل في الاخلاص وأقرب الى حسن التفكر (بالغدو والآصال) لفضل هذين الوقتين وقيل المراد ادامة الذكر باستقامة الفكر ومعنى بالغدو بأوقات الغدو وهي الغدوات والآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشي (ولا تكن من الغافلين) من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه

ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد ان يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله عز وجل من صلاة أو ذكر ۞ قوله عز وجل (ان الذين عند ربك) يعني الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف أخبران الملائكة الذين عنده مع علو مرتبتهم وشرفهم وعصمتهم (لا يستكبرون عن عبادته) وطاعته لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل (ويسبحونه) يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا (وله يسجدون) لا لغيره فان قلت التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لانهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر قلت أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة انهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم انهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول ياويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار (م) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الانفال﴾

مدنية كلها الا سبع آيات منها نزلت بمكة وهي من قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخر سبع آيات والاصح انها نزلت بالمدينة وان كانت الواقعة مكية وهي خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

۞ قوله سبحانه وتعالى (يسئلونك عن الانفال) (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الانفال قال نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا به علينا فانا كنا ردأ لكم ولو انكشفتم الينا فتنازعوا فانزل الله عز وجل يسئلونك عن الانفال الآية قال أهل التفسير قام أبو اليسر بن عمرو الانصاري أخو بني سلمة فقال يا رسول الله انك وعدت ان من قتل قتيلا فله كذا وكذا وانا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله ما منعنا ان نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولكن كرهنا ان تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك فاعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا رسول الله ان الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لاصحابك كبير شيء فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الانفال وقال محمد بن اسحق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله

(ان الذين عند ربك) مكانة ومنزلة لا مكانا ومنزلا يعني الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) لا يتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لا يليق به (وله يسجدون) ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره والله أعلم

﴿سورة الانفال مدنية وهي خمس أوست أوسبع وسبعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسئلونك عن الانفال

صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين
يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم باحق منا فنزلت هذه الآية وروى مكحول عن أبي امامة الباهلي قال
سألت عبادة بن الصامت عن الانفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه
أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيننا عن بواء يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين
وعن سعد بن أبي وقاص قال لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله ان الله قد شفى صدري من
المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي
فجاءني الرسول فقال انك سألتني وليس لي وانه قد صار لي وهو لك فنزلت يسئلونك عن الانفال الآية أخرجه
أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد
ولفظ مسلم فيه قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة واذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به
حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت اليه فقلت أعطنيه قال فشد لي صوته رده من حيث
أخذته فأنزل الله عز وجل يسئلونك عن الانفال وقال ابن عباس كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم
خاصة ليس لاحد فيها شئ وما أصاب سرايا المسلمين من شئ أتوه به فمن حبس منه ابرة أو سلكا فهو غلول وأما
التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الانفال استفتاء يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الانفال
وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال الطلب وقوله عن الانفال أي من
الانفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة أي يسئلونك الانفال والانفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة
ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالا لانها زيادة من الله عز وجل لهذه الامة على الخصوص
وأكثر المفسرين على انها نزلت في غنائم بدر وقال عطاء هي ما شذ عن المشركين الى المسلمين بغير قتال من
عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء (قل الانفال لله والرسول) أي قل لهم يا محمد
ان الانفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاآ واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة
والسدي هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله واعلموا أن ما غنمتم من شئ فان لله
خمسه وللرسول الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها
الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم
الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فاباحها الله لهذه الامة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت
بآية الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد انها محكمة وهي احدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا
القول قل الانفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله واعلموا أن ما غنمتم من
شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية
فغنمنا ابلا فأصاب كل واحد منا اثني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية
محكمة وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس (فاتقوا الله) يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا
مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أي اصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة
والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (ان
كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر
الله وجلت قلوبهم) لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك ان كنتم

(قل الانفال لله والرسول) النفل الغنيمة لانها من فضل الله وعطائه والانفال الغنائم ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف تقسم ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا فقيل له قل لهم هي لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ليس لاحد غيره فيها حكم ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها وليس الامر في قسمتها مفوضا الى رأي أحد (فاتقوا الله) في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله (وأصلحوا ذات بينكم) أحوال بينكم يعني ما بينكم من الاحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق وقال الزجاج معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل أي فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها (ان كنتم مؤمنين) كاملي الايمان (انما المؤمنون) انما الكاملون الايمان (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فزعت لذكره

مؤمنين لان الايمان يستلزم الطاعة بين فى هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله انما المؤمنون الصادقون فى ايمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل اذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال أهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لانهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه أشد خوف وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته فى ذكر الله فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال فى آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما قلت لامنافاة بين هاتين الحالتين لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا فى آية واحدة وهى قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل فى قلب المؤمنين ۞ ثم قال تعالى (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) يعنى واذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى انه كلما جاءهم شئ من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك ايمانا وتصديقا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذى عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدى ان كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان ايمانه أزيد لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد ايمانه الوجه الثانى هو انهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكاليف صدقوا به فيزدادون بذلك الاقرار تصديقا وايمانا ومن المعلوم ان من صدق انسانا فى شيئين كان أكبر ممن يصدقه فى شئ واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة فى ايمانهم واختلف الناس فى ان الايمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبى قالوا لا يقبل الزيادة لاجماع أهل اللغة على أن الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال ان الايمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهى التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح والاركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين أحدهما ان قوله زادتهم ايمانا صريح فى أن الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثانى انه ذكر فى هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة فى مسمى الايمان وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه فى الصحيحين ففى هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكان له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى ان للايمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع أمورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه واعلم أن المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهى درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان

استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه وسلطانه (واذا تليت عليهم آياته) أى القرآن (زادتهم ايمانا) ازدادوا بها يقينا وطمأنينة لان تظاهر الادلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه أو زادتهم ايمانا بتلك الآيات لانهم لم يؤمنوا باحكامها قبل (وعلى ربهم يتوكلون) يعتمدون ولا يفوضون أمورهم الى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون الا اياه

للجملة التى هى أولئك هم المؤمنون كقولك هو عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وعن الحسن رحمه الله ان رجلا سأله أمؤمن أنت قال ان كنت تسألنى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا مؤمن وان كنت تسألنى عن قوله انما المؤمنون الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وعن الثورى من زعم انه مؤمن بالله حقا ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية أى كما لا يقطع بانه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بانه مؤمن حقا و بهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن ان شاء الله وكان أبو حنيفة لا يقول ذلك وقال لقتادة لم تستثنى فى ايمانك قال اتباعا لابراهيم فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وقال له هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى وعن ابراهيم التيمى قل أنا مؤمن حقا فان صدقت أثبت عليه وان كذبت فكفرك أشد من كذبك وعن ابن عباس رضى

يصير بحيث لا يبقى له اعتماد فى شئ من أموره الا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها و ينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه و يدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البر والقربات ۞ ثم قال تعالى (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لا شك فى ايمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر وقال قتادة استحقوا الايمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى انما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الاوصاف فيه وهذا يتعلق بمسئلة أصولية وهى أن العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا فى أنه يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقا أم لا فقال أصحاب الامام أبى حنيفة الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين ۞ الاول أن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمنا حقا ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله ۞ الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه ۞ الاول أن الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك فى أحد أجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية فيجب أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله وان كان اعتقاده واقراره صحيحا وعند أصحاب أبى حنيفة أن الايمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الايمان فلم يلزم حصول الشك ۞ الوجه الثانى أن قولنا أنا مؤمن ان شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن اذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه باعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار روى ان أبا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت فى ايمانك فقال قتادة اتباعا لابراهيم عليه السلام فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول ان ابراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبى فطلب مزيد الطمأنينة ۞ الوجه الثالث ان الله سبحانه وتعالى ذكر فى أول الآية انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر يعنى انما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافا خمسة وهى الخوف من الله والاخلاص لله والتوكل على الله والاتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وايتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال أولئك هم المؤمنون حقا يعنى أن من أتى بجميع هذه الاوصاف كان مؤمنا حقا ولا يمكن لاحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الاولى له أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله وقال ابن أبى نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت فقال الحسن ان كنت سائلى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا بها مؤمن وان كنت سائلى عن قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وقال علقمة كنا فى سفر فلقينا قوما فقلنا من القوم فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى

 الله عنهما من لم يكن منافقا فهو مؤمن حقا وقد احتج عبد الله على أحمد وقال ايش اسمك فقال أحمد فقال أتقول أنا أحمد حقا أو أنا أحمد ان شاء الله فقال أنا أحمد حقا فقال حيث سماك والداك لا تستثنى وقد سماك الله فى القرآن مؤمنا تستثنى

لقيناعبد الله بن مسعود فاخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيأ قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم ان المؤمنين هم أهل الجنة وقال سفيان الثورى من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد انه فى الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر ❁ الوجه الرابع ان قولنا أنامؤمن ان شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعى انه لاحق باهل القبور ❁ الوجه الخامس ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنامؤمن ان شاء الله فالمراد صرف الاستثناء الى الخاتمة وأجاب أصحاب هذا القول وهم أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنهم عن استدلال أصحاب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنهم بقولهم ان المتحرك لا يجوز أن يقول أنامتحرك ان شاء الله بان الفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا و بين وصفه بكونه متحركا ان الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقينى فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثانى وهو قولهم انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة فى الآية بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الحسنة ولا يقدر أحد أن يأتى بتلك الاوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضا ان من أتى بتلك الاوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ❁ وقوله تعالى (لهم درجات عند ربهم) يعنى لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم فى الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم فى الجنة لان درجات الجنة على قدر الاعمال قال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها باعمالهم وقال الربيع بن أنس درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة لو ان العالمين اجتمعوا فى احداهن لوسعتهم (ومغفرة) يعنى ولهم مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى ما أعد لهم فى الجنة ووصفه بكونه كريما لان منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالاكرام والتعظيم قوله سبحانه وتعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) اختلفوا فى الجالب لهذه الكاف ما هو فقال المبرد تقديره قل الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان كرهوا وقيل معناه امض لامر ربك فى الانفال وان كرهوا كما مضيت لامر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما ان اخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق هو خير لكم وان كرهه فريق منكم وقيل هو راجع الى قوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هى متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على أى امض على الذى أخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذى أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك فى الحق وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر يا محمد اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الاخراج اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الاخراج هو خروجه من المدينة الى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعنى بالوحى لطلب المشركين (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) يعنى للقتال وانما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم

(لهم درجات) مراتب بعضها فوق بعض على قدر الاعمال (عند ربهم ومغفرة) وتجاوز لسيآتهم (ورزق كريم) صاف عن كد الاكتساب وخوف الحساب الكاف فى (كما أخرجك ربك) فى محل النصب على انه صفة لمصدر الفعل المقدر والتقدير قل الانفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك وهم كارهون (من بيتك) يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لانها مهاجره ومسكنه فهى فى اختصاصها كاختصاص البيت لساكنه (بالحق) اخراجا ملتبسا بالحكمة والصواب (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) فى موضع الحال أى أخرجك فى حال كراهتهم وذلك ان عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان فاخبر جبريل النبى عليه السلام فاخبر أصحابه فاعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهو النفير فى المثل السائر لا فى العير ولا فى النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فابى وسار بمن معه الى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال العير أحب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا وسلاحهم

وسلاحهم (يجادلونك في الحق) وذلك ان المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم (بعد ما تبين) يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيئا الا بأمر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد (كأنما يساقون الى الموت) يعني لشدة كراهتهم القتال (وهم ينظرون) يعني الى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر الى القتل و يساق الى الموت وهو ينظر اليه و يعلم أنه آتيه ۞ قوله عز وجل (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير (أنها لكم) يعني احدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحق والسدي أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام في عير قريش في أربعين راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ومعهم تجارة كبيرة وهي اللطيمة يريد باللطيمة الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة حتى اذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فندب أصحابه اليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه الى مكة وأمره أن يأتي قريشا يستنفرهم و يخبرهم أن محمدا في أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت الى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها الا دخلها منها فلقة فقال العباس والله ان هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقا للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه اياها فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة قال العباس فعمدت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رآني أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل الينا قال العباس فلما فرغت من طوافي أقبلت اليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وما ذاك قال الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني اليه من كبير شيء الا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئا ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب الا أتتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن

أبو جهل قد أقبل فقالوا عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد ابن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو امض لما أمرك الله فانا معك حيث أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سعد بن معاذ امض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله أبشروا فان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم وكانت الكراهة من بعضهم لقوله وان فريقا من المؤمنين لكارهون قال الشيخ أبو منصور رحمه الله يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادا ويحتمل أن يكونوا مخلصين وأن يكون ذلك كراهة طبع لانهم غير متأهبين له (يجادلونك في الحق) الحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقي النفير لايثارهم عليه تلقي العير (بعد ما تبين) بعد اعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون وجدالهم قولهم ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت لنا لنستعد وذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم الى الظفر والغنيمة بحال من يعتل الى القتل و يساق على الصغار الى الموت وهو مشاهد لاسبابه ناظر اليها لا يشك فيها وقيل كان خوفهم لقلة العدد وانهم كانوا رجالة وما كان فيهم الا فارسان (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) اذ منصوب باذكر واحدى مفعول ثان (أنها لكم) بدل من احدى الطائفتين وهما العير

يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غدة لشيء مما سمعت قال قلت قد والله فعلت
ما كان مني اليه من شيء وايم الله لا تعرض له فان عاد لا كفيكنه قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة
وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله اني لأمشي
نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فاقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد
النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقا مني أن أشاتمه
قال فاذا هو قد سمع مالم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد
جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان
وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من
الامر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من أشراف قريش أحد الا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه
العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن
كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة
ابن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه
فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ
واديا يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا
كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا
للانصار يدعى أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام
وقال ان الله وعدكم احدى الطائفتين انها لكم اما العير واما قريش وكانت العير أحب اليهم فاستشار رسول
الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن
ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو اسرائيل
لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون
فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس
وانما يريد الانصار وذلك لانهم عدد الناس وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله انا برآء من ذمامك حتى
تصل الى دارنا فاذا وصلت الينا فانت في ذمامنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس
عليهم أن يسيروا معه الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ والله
لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك
على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو
استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك انا لصبر
عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عز وجل قد
وعدني احدى الطائفتين والله لكأني أنظر الى مصارع القوم (م) عن أنس ابن مالك أن عمر بن الخطاب
حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا
مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء
الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤا الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في

والنفير والتقدير واذ يعدكم الله أن احدى الطائفتين لكم

بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى اليهم فقال يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فاني قد وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم باسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون ان يردوا على شيئا فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم يعني طائفة أبي سفيان مع العير وطائفة أبي جهل مع النفير (وتودون) أي وتريدون وتتمنون (ان غير ذات الشوكة تكون لكم) والمعنى وتتمنون أن العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح (ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهر الحق ويعليه (بكلماته) يعني بامره اياكم بالقتال وقيل بعداته التي سبقت لكم من اظهار الدين واعزازه (ويقطع دابر الكافرين) أي ويستاصلهم حتى لا يبقى منهم أحد (ليحق الحق) يعني ليثبت الاسلام (ويبطل الباطل) يعني وينفي الكفر (ولو كره المجرمون) يعني المشركون وفي الآية سؤالان * الاول ان قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه والجواب أنه ليس فيه تكرير لان المراد بالاول تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالاعداء والمراد بالثاني تقوية القرآن والدين واظهار منار الشريعة لان الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لاعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك * السؤال الثاني الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وابطال الباطل والجواب ان المراد من تحقيق الحق اظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من ابطال ذلك الباطل اظهار كون ذلك الباطل باطلا وذلك باظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم

۞ قوله عز وجل (اذ تستغيثون ربكم) أي واذكر يا محمد اذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي المستغيثين قولان أحدهما انه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهري والقول الثاني انه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الارض فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه أبو بكر فاخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك فانزل الله عز وجل اذ تستغيثون ربكم (فاستجاب لكم أني ممدكم بالف من الملائكة مردفين) فامده الله بالملائكة قال سماك فحدثني ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول اقدم حيزوم اذ نظر الى المشرك امامه خر مستلقيا فنظر اليه فاذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فاخضر ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعني فاجاب دعاءكم أني ممدكم أصله باني ممدكم أي مرسل اليكم مددا وردأ لكم بالف من الملائكة مردفين يعني يردف بعضهم بعضا بمعنى يتبع بعضهم بعضا وروي انه نزل جبريل عليه السلام في

(وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) أي العير وذات الشوكة ذات السلاح والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم أي تتمنون أن تكون لكم العير لانها الطائفة التي لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الاخرى (ويريد الله أن يحق الحق) أي يثبته ويعليه (بكلماته) بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من

قتلهم وطرحهم في قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) والدابر الآخر فاعل من دبر اذا أدبر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني انكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الامور والله تعالى يريد معالي الامور ونصرة الحق وعلو الكلمة وشتان ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم (ليحق الحق) متعلق بيقطع أو بمحذوف تقديره ليحق الحق (ويبطل الباطل) فعل ذلك والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص أي ما فعله الا لهما وهو اثبات الاسلام واظهاره وابطال الكفر ومحقه وليس هذا بتكرار لان الاول تمييز بين الارادتين وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها (ولو كره المجرمون) المشركون ذلك (اذ تستغيثون ربكم) بدل من اذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل واستغاثتهم انهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أي ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا وهي طلب الغوث وهو التخليص من المكروه (فاستجاب لكم) فاجاب وأصل (أني ممدكم) باني ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله (بالف من الملائكة مردفين) مدني غيره بكسر الدال وفتحها فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر يقال ردفه اذا تبعه وأردفته اياه اذا اتبعته

عند الله) أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة فان الناصر هو الله لكم وللملائكة أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الاسباب الامن عند الله والمنصور من نصره الله واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص قال من قبل الملائكة قال فهم غلبونا لا أنتم وقيل لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين والافلاك واحد كاف في اهلاك أهل الدنيا (ان الله عزيز) بنصر أوليائه (حكيم) بقهر أعدائه (اذ يغشاكم) بدل ثان من اذ يعدكم أو منصوب بالنصر أو باضمار اذكر يغشيكم مدني (النعاس) النوم والفاعل

خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه وقال أبو بكر ان الله ينجز لك ما وعدك خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب يعني آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الايام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروى عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا انه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لاريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح انهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذي ضربه بالسوط فحطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا وقيل انهم لم يقاتلوا وانما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما جعله الله الابشرى) يعني وما جعل الله الارداف بالملائكة الا بشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وهذا يحقق انهم انما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الاول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الايام ۞ وقوله تعالى (وما النصر الامن عند الله) يعني ان الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على ان الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل الا على الله تعالى في جميع أحواله ولا يثق بغيره فان الله تعالى بيده النصر والاعانة (ان الله عزيز) يعني انه تعالى قوي منيع لا يقهره شئ ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شئ ويغلبه (حكيم) يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده ۞ قوله سبحانه وتعالى (اذ يغشاكم النعاس أمنة منه) أي واذكروا اذ يلقي عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الامن وازالة الخوف وقيل انهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقي عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله انه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل ان ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لانه أمر خارق للعادة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وينزل عليكم من السماء ماء) يعني المطر (ليطهركم به) وذلك ان المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم الى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وملؤا الاسقية وأطفأ الغبار ولبد الارض حتى ثبتت عليها الاقدام وزالت

هو الله على القراءتين يغشاكم النعاس مكي وأبو عمرو (أمنة) مفعول له أي اذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا أي لامنكم أو مصدر أي فأمنتم أمنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس (منه) صفة لها أي أمنة حاصلة لكم من الله (وينزل) بالتخفيف مكي وبصري وبالتشديد غيرهم (عليكم من السماء ماء) مطرا (ليطهركم به) بالماء من الحدث والجنابة
عنهم

عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعنى من الاحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) يعنى وسوسته التى ألقاها فى قلوبكم (وليربط على قلوبكم) يعنى بالنصر واليقين والربط فى اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدى ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل ان لفظة على ليست بصلة لانها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كانه علا عليها وارتفع فوقها (ويثبت به الاقدام) يعنى ان ذلك المطر لبد الارض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الاقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبيت الاقدام بالصبر وقوة القلب لان من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء ۞ وقوله سبحانه وتعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم) يعنى ان الله سبحانه وتعالى أوحى الى الملائكة الذين أمد بهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه انى معكم بالنصر والمعونة (فثبتوا الذين آمنوا) أى قووا قلوبهم واختلفوا فى كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن للشيطان قوة فى القاء الوسوسة فى قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة فى القاء الالهام فى قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقى الشيطان وسوسة وما يلقى الملك لمة والهاما فهذا هو التثبيت وقيل ان ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أى ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله ناصركم عليهم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) يعنى الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف فى قلوب الكافرين (فاضربوا فوق الاعناق) قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وقيل هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلا بما قبله قال ابن الانبارى ما كانت الملائكة تعرف تقاتل بنى آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق قال عكرمة يعنى الرؤس لانها فوق الاعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الاعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الاعناق فتكون فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) يعنى كل مفصل وقال ابن عباس يعنى الاطراف وهى جمع بنانة وهى أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لان بها صلاح الاحوال التى يمكن الانسان أن يبين ما يريد أن يعمله بيديه وانما خصت بالذكر من دون سائر الاطراف لاجل أن الانسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح فى الحرب وقيل انه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الاعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الانسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الانسان عن الحرب لان بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله روى عن أبى داود المازنى وكان شهد بدرا قال انى لاتبع رجلا من المشركين لاضربه اذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وروى عكرمة عن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قد دخل علينا أهل البيت فاسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم اسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزا قال أبو رافع وكنت رجلا ضعيفا أعمل القداح وأنحتها فى حجرة زمزم فوالله انى لجالس أنحت القداح وعندى أم الفضل جالسة اذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره الى ظهرى فبينما

(ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته اليهم وتخويفه اياهم من العطش أو الجنابة من الاحتلام لانه من الشيطان وقد وسوس اليهم ان لا نصرة مع الجنابة (وليربط على قلوبكم) بالصبر (ويثبت به الاقدام) أى بالماء اذ الاقدام كانت تسوخ فى الرمل أو بالربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم فى مواطن القتال (اذ يوحى) بدل ثالث من اذ يعدكم أو منصوب بيثبت (ربك الى الملائكة أنى معكم) بالنصر (فثبتوا الذين آمنوا) بالبشرى وكان الملك يسير امام الصف فى صورة رجل ويقول أبشروا فان الله ناصركم (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هو امتلاء القلب من الخوف والرعب شامى وعلى (فاضربوا) أمر للمؤمنين أو للملائكة وفيه دليل على أنهم قاتلوا (فوق الاعناق) أى أعالى الاعناق التى هى المذابح تطيرا للرؤس أو أراد الرؤس لانها فوق الاعناق يعنى ضرب الهام (واضربوا منهم كل بنان) هى الاصابع يريد الاطراف والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى لان الضرب اما أن يقع على مقتل أو غير مقتل فامرهم أن يجمعوا عليهم النوعين

هو جالس اذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب يا ابن أخى فعندك الخبر اليقين فجلس اليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب يا ابن أخى أخبرنى كيف كانت أحوال الناس قال لا شئ والله ان كان الا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وايم الله مالمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض والله لا يتلقاها شئ ولا يقوم لها شئ قال أبو رافع فرفعت طرف الحجرة بيدى وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فثاورته فاحتملنى فضرب بى الارض ثم برك على صدرى وكنت رجلا ضعيفا فقامت اليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه ان غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتله وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذى أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو اخو بنى سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى اليسر كيف أسرت العباس قال يا رسول الله لقد أعاننى عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة النبوية ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ذلك) يعنى الذى وقع بهم من القتل والاسر يوم بدر (بانهم شاقوا الله ورسوله) يعنى بانهم خالفوا الله ورسوله والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا فى شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) يعنى ان الذى نزل بهم فى ذلك اليوم من القتل والاسر شئ قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ﴿ ثم قال تعالى (ذلكم) اشارة الى القتل والاسر الذى نزل بهم (فذوقوه) يعنى عاجلا فى الدنيا لان ذلك يسير بالاضافة الى المؤجل الذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب وهو قوله (وأن للكافرين عذاب النار) يعنى فى الآخرة عن ابن عباس قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شئ قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال صدقت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) يعنى مجتمعين متزاحفين بعضكم الى بعض والتزاحف التدانى فى القتال وأصل الزحف مشى مع جر الرجل كانبعاث الصبى قبل أن يمشى وسمى مشى الطائفتين بعضهم الى بعض فى القتال زحفا لانها تمشى كل طائفة الى صاحبتها مشيا رويدا وذلك قبل التدانى للقتال وقال ثعلب الزحف المشى قليلا قليلا الى الشئ (فلا تولوهم الادبار) يعنى فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولى ظهره ودبره (ومن يولهم يومئذ دبره) يعنى ومن ينهزم و يولى دبره يوم الحرب والقتال (الا متحرفا لقتال) يعنى الا منقطعا الى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود اليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها ﴿ وقوله تعالى (أو متحيزا الى فئة) يعنى أو منضما وصائرا الى جماعة من المؤمنين يريدون العود الى القتال (فقد باء بغضب من الله) يعنى من انهزم من المسلمين وقت الحرب الا فى هاتين الحالتين وهى التحرف للقتال والتحيز الى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله (ومأواه جهنم و بئس المصير) ۰

(ذلك) اشارة الى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره (بانهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أى مخالفتهم وهى مشتقة من الشق لان كلا المتعاديين فى شق خلاف شق صاحبه وكذا المعاداة والمخاصمة لان هذا فى عدوة وخصم أى جانب وذا فى عدوة وخصم (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) والكاف فى ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد وفى ذلكم للكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع على ذلكم العقاب أو العقاب ذلكم (فذوقوه) والواو فى (وأن للكافرين عذاب النار) بمعنى مع أى ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذى لكم فى الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) حال من الذين كفروا والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كأنه يزحف أى يدب دبيبا من زحف الصبى اذا دب على استه قليلا قليلا سمى بالمصدر (فلا تولوهم الادبار) فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أى اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أى اذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا) مائلا (لقتال) هو الكر بعد الفر يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب (أو متحيزا) منضما (الى فئة) الى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل فى يولهم (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم و بئس المصير) ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وكان القائل منهم يقول تفاخرا قتلت وأسرت قيل لهم

﴿فصل

﴿فصل في حكم هذه الآية﴾ اختلف العلماء في ذلك فقال أبو سعيد الخدري هذا في أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون اليها دون النبي صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا انحازوا الى المشركين ولانها أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فاما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وقال عبد الله بن عمر كنا في جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال لا بل أنتم الكرارون انا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو والمحيص المهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر الى عمر بن الخطاب فقال لو انحاز الى كنت له فئة أنا فئة كل مسلم وقال بعضهم حكم الآية عام في حق كل من ولى ظهره منهزما بدليل قوله يا أيها الذين آمنوا وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وان كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث من الكبائر الفرار من الزحف وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى الآن خفف الله عنكم فليس لقوم أن يفروا من مثليهم فنسخت بذلك الا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين اذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وان كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية انهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعني بنصره اياكم وتقويتكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده اياكم بالملائكة قال الزمخشري الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعد فاخذوهما وأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى ألف ثم قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعمة ابن عدي والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء الى الوادي فقال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني فاتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك الا ودخل في عينيه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا ان

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) والفاء جواب لشرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فانتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ولما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا قيل (وما رميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) يعني ان الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها لما بلغ أثرها الا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الاثر العظيم وفي الآية بيان ان فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله تعالى خلقا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة لانه أثبت الفعل من العبد بقوله اذ رميت ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله ولكن الله رمى ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بتخفيف لكن شامي وحمزة وعلي

رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم وبحصاة فى ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله عز وجل وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى اذ ليس فى وسع أحد من البشر أن يرمى كفا من الحصى فى وجوه جيش فلا تبقى عين الا وقد دخل فيها من ذلك شئ فصورة الرمى صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفى والاثبات وقيل فى معنى الآية وما بلغت اذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل وما رميت بالرعب فى قلوبهم اذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب فى قلوبهم حتى انهزموا (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) يعنى ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والاجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة (ان الله سميع) يعنى لدعائكم (عليم) يعنى باحوالكم ﴿وقوله تعالى (ذلكم) يعنى الذى ذكرت من أمر القتل والرمى والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذى فعلنا (وان الله) يعنى واعلموا ان الله مع ذلك (موهن) أى مضعف (كيد الكافرين) يعنى مكرهم وكيدهم ﴿قوله عز وجل (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم أينا كان أفجر يعنى نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم قاطعا للرحم فاحنه اليوم وقيل انه قال اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم أنصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فاحنه اليوم فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا ومعنى الآية ان تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح يعنى جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق) عن عبد الرحمن بن عوف قال انى لواقف فى الصف يوم بدر فنظرت عن يمينى وعن شمالى فاذا أنا بغلامين من الانصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال أى عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك اليه يا ابن أخى قال أخبرت انه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الاعجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزنى الآخر فقال لى مثلها فلم أنشب أن نظرت الى أبى جهل يجول فى الناس فقلت ألا تريان هذا صاحبكما الذى تسألان عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبراه فقال أيكما قتله فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ما صنع أبو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فاخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفى كتاب البخارى أنت أبا جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفى رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلنى عن عبد الله بن مسعود قال مررت فاذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الآخر قال ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيأ حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخارى مختصرا قال انه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل أعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فانزل الله عز وجل ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعنى ان تستقضوا فقد جاءكم القضاء وقال السدى والكلبى كان المشركون لما خرجوا الى النبى صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا باستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ما سألوه فكان النصر لاهدى الفئتين

(وليبلى المؤمنين) وليعطيهم (منه بلاء حسنا) عطاء جميلا والمعنى وللاحسان الى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل الا لذلك (ان الله سميع) لدعائهم (عليم) باحوالهم (ذلكم) اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الامر ذلكم (وان الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أى المراد بلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين موهن كيد شامى وكوفى غير حفص، موهن كيد حفص موهن غيرهم (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ان تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لاهل مكة لانهم حين أرادوا ان ينفروا تعلقوا باستار الكعبة وقالوا اللهم ان كان محمد على حق فانصره وان كنا على الحق فانصرنا وقيل ان تستفتحوا خطاب للمؤمنين وان تنتهوا للكافرين أى

وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام ان يلتمس في القتلى فقال اللهم لا يعجزك فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي واني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عقير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فمر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزاك الله يا عدو الله قال وبماذا أخزاني اعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدولة قلت لله ولرسوله روي عن ابن مسعود انه قال قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذي لا اله غيره فقلت نعم والذي لا اله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال أبي بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل للمسلمين ان تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون قلت استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر لان هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا الله ببدر وسأله انجاز ما وعده من احدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه قال الله سبحانه وتعالى مجيبا له ان تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وانجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من اجابة دعائكم وانجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين هذا اذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الاعداء أما اذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع ان يراد به الكفار أما قوله سبحانه وتعالى (وان تنتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب للكفار يعني وان تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيحصل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والاسر (وان تعودوا نعد) يعني وان تعودوا القتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) يعني جماعتكم (شيأ) يعني لا تغني عنكم شيأ (ولو كثرت) يعني جماعتكم (وان الله مع المؤمنين) يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار ۞ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) يعني في أمر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس (ولا تولوا عنه) يعني عن الرسول صلى الله عليه وسلم لان التولي لا يصح الا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته في الجهاد (وأنتم تسمعون) يعني القرآن يتلى عليكم (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لا يسمعون) يعني وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) يعني ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عند الله

(وان تنتهوا) عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو) أي الانتهاء (خير لكم) وأسلم (وان تعودوا) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) جمعكم (شيأ ولو كثرت) عددا (وان الله مع المؤمنين) بالفتح مدني وشامي وحفص أي ولان الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك وبالكسر غيرهم ويؤيده قراءة عبد الله والله مع المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لان المعنى وأطيعوا الله ورسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه ولان طاعة الرسول وطاعة الله شئ واحد من يطع الرسول فقد أطاع الله فكان رجوع الضمير الى أحدهما كرجوعه اليهما كقولك الاحسان والاجمال لا ينفع في فلان أو يرجع الضمير الى الامر بالطاعة أي ولا تولوا عن هذا الامر وامتثاله وأصله ولا تتولوا فحذف احدى التاءين تخفيفا (وأنتم تسمعون) أي وأنتم تسمعونه أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أي تصدقون لانكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أي ادعوا السماع وهم المنافقون وأهل الكتاب (وهم لا يسمعون) لانهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين والمعنى انكم تصدقون بالقرآن والنبوة فاذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الامور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن ثم قال (ان شر الدواب عند الله

(الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق به فلا يقولونه (الذين لايعقلون) يعنى لايفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وانما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بنى عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم) يعنى سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الامام فخر الدين ان كان ما كان حاصلا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير لاسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم (ولو أسمعهم) يعنى بعد ان علم انه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى (لتولوا وهم معرضون) يعنى لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم احى لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى ولو أحيا لهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يعنى أجيبوهما بالطاعة والانقياد لامرهما (اذا دعاكم) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وانما وحد الضمير فى قوله تعالى اذا دعاكم لان استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لله تعالى وانما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب لان كل من أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه اليه وهذه الآية تدل على انه لابد من الاجابة فى كل ما دعا الله ورسوله اليه (خ) عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يارسول الله انى كنت أصلى فقال صلى الله عليه وسلم ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم ذكر الحديث عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبى بن كعب وهو يصلى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبى فالتفت أبى ولم يجبه وصلى أبى وخفف ثم انصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام مامنعك يا أبى أن تجيبنى اذ دعوتك فقال يارسول الله انى كنت فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم أفلم تجد فيما أوحى الله الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود ان شاء الله تعالى وذكر الحديث أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الاجابة مختصة بالنبى صلى الله عليه وسلم فعلى هذا ليس لاحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لامر مهم لا يحتمل التاخير فله أن يقطع صلاته ۞ وقوله تعالى (لما يحييكم) يعنى اذا دعاكم الى ما فيه حياتكم قال السدى هو الايمان لان الكافر ميت فيحيا بالايمان وقال قتادة هو القرآن لانه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة فى الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن اسحق هو الجهاد لان الله أعزه به بعد الذل وقيل هو الشهادة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله ويحول بين الكافر وبين الايمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع ان يؤمن أو يكفر الا باذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لان أحوال القلوب اعتقادات ودواعى وتلك الاعتقادات والدواعى لابد أن تتقدمها الارادة وتلك الارادة لابد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك ان المتصرف فى القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب ثبت

الصم البكم الذين لايعقلون) أى ان شر من يدب على وجه الارض البهائم وان شر البهائم الذين هم صم عن الحق لايعقلونه جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لانهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل (ولو علم الله فيهم) فى هؤلاء الصم البكم (خيرا) صدقا ورغبة (لاسمعهم) لجعلهم سامعين حتى يسمعوا اسماع المصدقين (ولو أسمعهم لتولوا) عنه أى ولو أسمعهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا (وهم معرضون) عن الايمان (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم) وحد الضمير أيضا كما وحده فيما قبله لان استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض (لما يحييكم) من علوم الديانات والشرائع لان العلم حياة كما أن الجهل موت قال الشاعر

لاتعجبن الجهول حلته
فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم أو للشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أى يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من اخلاص القلب فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله أو بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه

قلوبنا على طاعتك عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلنا يارسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه الترمذي وهذا الحديث من أحاديث الصفات فيجب على المرء المسلم أن يمره على ما جاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم وقيل في معنى الآية ان الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدري ما يصنع ولا يعقل شيأ وقيل ان القوم لما دعوا الى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جراءة ۞ وقوله تعالى (وأنه اليه تحشرون) يعني في الآخرة فيجزي كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصي ۞ قوله سبحانه وتعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لما أخبر الله عز وجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء في الفتن والمعنى واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة ان لم تتقوها أصابتكم جميعا الظالم وغير الظالم قال الحسن نزلت هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا ومانرى انا من أهلها فاذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منهم في يوم الجمل وقال السدي ومجاهد والضحاك وقتادة هذا في قوم مخصوصين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس أمر الله عز وجل المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي الكندي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذي ذكره ابن الاثير في جامع الاصول عن عدي بن عميرة الكندي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا عملت الخطيئة في الارض كان من شهدها فانكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها أخرجه أبو داود وعن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا الا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا أخرجه أبو داود وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به فان قلت ظاهر قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة الى من لم يذنب قلت انه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أولانه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع من أنواع المصلحة والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه وتعالى (واعلموا أن الله شديد العقاب) فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره الله منها وقوله عز وجل (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يامعشر المؤمنين المهاجرين اذ أنتم قليل يعني في العدد مستضعفون في الارض يعني في أرض مكة في ابتداء الاسلام (تخافون أن يتخطفكم الناس) يعني كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب ابن منبه يعني فارس والروم (فآواكم) يعني الى المدينة (وأيدكم بنصره) يعني وقواكم بالانصار وقال الكلبي وقواكم يوم بدر بالملائكة (ورزقكم من الطيبات) يعني الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) نعمي تشكرون

(وأنه اليه تحشرون) واعلموا أنكم اليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب واخلاص الطاعة (واتقوا فتنة) عذابا (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) هو جواب للامر أي ان أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم وجاز أن تدخل النون المؤكدة في جواب الامر لان فيه معنى النهي كما اذا قلت انزل عن الدابة لا تطرحك وجاز لا تطرحنك ومن في منكم للتبعيض (واعلموا أن الله شديد العقاب) اذا عاقب (واذكروا اذ أنتم قليل) اذ مفعول به لا ظرف أي واذكروا وقت كونكم أقلة أذلة (مستضعفون في الارض) أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش (تخافون أن يتخطفكم الناس) لان الناس كانوا لهم أعداء مضادين (فآواكم) الى المدينة (وأيدكم بنصره) بمظاهرة الانصار وبامداد الملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم ولم تحل لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) هذه النعم

الله على نعمه عليكم ﴿قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) قال الزهري والكلبي نزلت هذه الآية في أبي لبابة هرون بن عبد المنذر الانصاري من بني عوف بن مالك وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ما صالح عليه اخوانهم بني النضير على أن يسيروا الى اخوانهم الى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقالوا يا أبا لبابة ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه يعني انه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة والله مازالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال اما لو جاءني لاستغفرت له أما اذ فعل ما فعل فاني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة ان تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وان انخلع من مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تصدق به فنزل فيه يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وقال السدي كانوا يسمعون السر من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أبا سفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه ان أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول (وتخونوا أماناتكم) ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم (وأنتم تعلمون) يعني انها أمانة وقيل معناه وأنتم تعلمون ان ما فعلتم من الاشارة الى الحلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لان من خان شيأ فقد نقصه والخيانة ضد الامانة وقيل في معنى الآية لا تخونوا الله والرسول فانكم اذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم وقال ابن عباس معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والاعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب ﴿وقوله عز وجل (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) قيل هذا مما نزل في أبي لبابة وذلك لان أمواله وأولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ما قال خوفا عليهم وقيل انه عام في جميع الناس وذلك أنه لما كان الاقدام على الخيانة في الامانة هو حب المال والولد نبه الله سبحانه وتعالى بقوله واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة على انه يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لان ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بصبي فقبله وقال اما انهم مبخلة مجبنة وانهم من ريحان الله وأخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول انكم لتبخلون وتجبنون وتجهلون وانكم لمن ريحان الله قال الترمذي لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله) بان تعطلوا فرائضه (والرسول) بان لا تستنوا به (وتخونوا) جزم عطف على لا تخونوا أي ولا تخونوا (أماناتكم) فيما بينكم بان لا تحفظوها (وأنتم تعلمون) تبعة ذلك ووباله أو وأنتم تعلمون انكم تخونون يعني ان الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو أو أنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ومعنى الخون النقص كما ان معنى الايفاء التمام ومنه تخونه اذا انتقصه ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل في شئ فقد أدخلت عليه النقصان فيه (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي سبب الوقوع في الفتنة وهي الاثم والعذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده

(وأن الله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا فى الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد (يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) نصرا لانه يفرق بين الحق والباطل و بين الكفر باذلال حزبه والاسلام باعزاز أهله أو بيانا وظهورا يشهر أمركم و يثبت صيتكم وآثاركم فى أقطار الارض من قولهم سطع الفرقان أى طلع الفجر أو مخرجا من الشبهات وشرحا للصدور أو تفرقة بينكم و بين غيركم من أهل الاديان وفضلا ومزية فى الدنيا والآخرة (و يكفر عنكم سيآتكم) أى الصغائر (و يغفر لكم) ذنوبكم أى الكبائر (والله ذو الفضل العظيم) على عباده (واذ يمكر بك الذين كفروا) لما فتح الله عليه ذكر مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم والمعنى واذكر اذ يمكرون بك وذلك ان قريشا لما أسلمت الانصار فرقوا ان يتفاقم أمره فاجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره فدخل عليهم ابليس فى صورة شيخ وقال أنا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فاردت ان أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البحترى رأيى ان تحبسوه فى بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون فقال ابليس بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه و يخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ماصنع واسترحتم فقال ابليس بئس الرأى يفسد قوما غيركم و يقاتلكم بهم فقال أبو جهل لعنه الله أنا أرى ان تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا فتفرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت فى مضجعه وأذن الله له فى الهجرة فامر عليا فنام فى مضجعه وقال له اتشح

الله أى لمن رزق الله والريحان فى اللغة الرزق ۞ وقوله تعالى (وأن الله عنده أجر عظيم) يعنى لمن أدى الامانة ولم يخن وفيه تنبيه على ان سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد ۞ وقوله عز وجل (يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله) يعنى بطاعته وترك معاصيه (يجعل لكم فرقانا) يعنى يجعل لكم نورا وتوفيقا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لانه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة قال مجاهد يجعل لكم مخرجا فى الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا فى الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أى يفرق بينكم و بين ما تخافون وقال محمد بن اسحق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم و يطفئ باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم و بين الكفار بان يظهر دينكم و يعليه و يبطل الكفر و يوهنه (و يكفر عنكم سيآتكم) يعنى و يمح عنكم ماسلف من ذنوبكم (و يغفر لكم) يعنى و يستر عليكم بان لا يفضحكم فى الدنيا ولا فى الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) لانه هو الذى يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فانه اذا وعد بشئ وفى به قيل انه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات و يتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل معناه ان بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره ۞ قوله سبحانه وتعالى (واذ يمكر بك الذين كفروا) لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا اذ أنتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لان هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل ان يهاجر الى المدينة والمعنى واذكر يا محمد اذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعا ان قريشا فرقوا لما أسلمت الانصار ان يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم و يظهر فاجتمع نفر من كفار قريش فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رؤسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف فاعترضهم ابليس فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا له من أنت قال أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقالوا ادخل فدخل فقال أبو البخترى أما أنا فأرى ان تأخذوا محمدا وتحبسوه فى بيت مقيدا وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله ابليس وهو الشيخ النجدى وقال بئس الرأى رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فيقاتلوكم و يأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدى فقام هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى فقال أما أنا فأرى ان تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ماصنع وأين وقع اذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال ابليس اللعين ماهذا لكم برأى تعمدون الى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه الى غيركم فيفسدهم ألم تروا الى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب و يستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم اليكم فيخرجكم

من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدي فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره اني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسيطا فتيا ثم نعطي كل فتى سيفا صارما ثم يضربوه جميعا ضربة رجل واحد فاذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها وانهم اذا أرادوا ذلك قالوا العقل فتؤدي قريش ديته فقال ابليس اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج الى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له اتشح ببردتي فانه لن يخلص اليك منهم أمر تكرهه ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤسهم وهو يقرأ انا جعلنا في أعناقهم أغلالا الى قوله فهم لا يبصرون ومضى الى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته قالوا وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا اليه ليقتلوه فرأوه عليا فقيل له أين صاحبك قال لا أدري فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثا ثم خرج الى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وأصل المكر احتيال في خفية (ليثبتوك) أي ليحبسوك ويوثقوك لان كل من شد شيأ وأوثقه فقد أثبته لانه لا يقدر على الحركة (أو يقتلوك) يعني كما أشار اليهم أبو جهل (أو يخرجوك) يعني من مكة (ويمكرون) يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك (ويمكر الله) يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكرا لانه في مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق والمعنى أنهم احتالوا في ابطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره (والله خير الماكرين) فان قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم قلت يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على ان كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل أن يكون المراد ان مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل ان فعل الله خير مطلقا ۞ قوله عز وجل (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) نزلت في النضر بن الحرث بن علقمة من بني عبد الدار وذلك انه كان يختلف الى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي اليه وهو يقرأ ويصلي فقال النضر بن الحرث قد سمعنا يعني مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذي لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدي وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا (ان هذا الا أساطير الاولين) يعني أخبار الماضين ۞ قوله سبحانه وتعالى (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) نزلت في النضر بن الحرث أيضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال وأنا أقول الحق قال فان محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا اله الا الله قال وأنا أقول لا اله الا الله ولكن هذه بنات الله يعني الاصنام ثم قال اللهم ان

الله سعيهم واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم (ليثبتوك) ليحبسوك ويوثقوك (أو يقتلوك) بسيوفهم (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) ويخفون المكايد له (ويمكر الله) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (والله خير الماكرين) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته فقال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل (واذا تتلى عليهم آياتنا) أي القرآن (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين) وهذا صلف منهم ووقاحة لانهم دعوا الى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به (واذ قالوا اللهم ان كان هذا) أي القرآن (هو الحق من عندك) هذا اسم كان وهو فصل والحق خبر كان روي ان النضر لما قال ان هذا الا أساطير الاولين قال له النبي عليه السلام ويلك هذا كلام الله فرفع النضر رأسه الى السماء وقال ان كان هذا هو الحق من عندك (فأمطر علينا حجارة من السماء) أي ان كان القرآن هو الحق فعاقبنا على انكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل (أو ائتنا بعذاب أليم)

كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعني ان كان الذي يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم يعني مثل ما عذبت به الامم الماضية وفي النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك ان الذي قال ذلك أبو جهل (ق) عن أنس قال قال أبو جهل اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ۞ قوله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن اسحق هذه الآية متصلة بما قبلها وهي حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا ان الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على انفسهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم قال تعالى ردا عليهم وما لهم ألا يعذبهم الله وان كنت بين أظهرهم وان كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام وقال آخرون هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل اخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واختلفوا في معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون فانزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم وما لهم ألا يعذبهم الله وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع الى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك وقال زيد بن رومان قالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا اغفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدي معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لا أعاقبك وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون أي وفي أصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية ان الكفار لما بالغوا وقالوا ان كان محمد محقا في قوله فامطر علينا حجارة من السماء اخبر الله سبحانه وتعالى ان محمدا المحق في قوله وانه مع ذلك لا يمطر على أعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم وأورد على هذا انه اذا كانت اقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم فالجواب ان المراد من العذاب الاول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بايديكم هو عذاب القتل والسبي والاسر وذلك دون عذاب الاستئصال قال أهل المعاني دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول

بنوع آخر من جنس العذاب الاليم فقتل يوم بدر صبرا وعن معاوية انه قال لرجل من سبا ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال اجهل من قومي قومك قالوا للرسول الله عليه السلام حين دعاهم الى الحق ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا له (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اللام لتأكيد النفي والدلالة على ان تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم لانك بعثت رحمة للعالمين وسنته ان لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه اشعار بانهم مرصدون بالعذاب اذا هاجر عنهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) هو في موضع الحال ومعناه نفي الاستغفار عنهم أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم أو معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين

(ومالهم ألا يعذبهم الله) أي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم ومالهم ألا يعذبهم الله (وهم يصدون عن المسجد الحرام) وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم (١٩٤) يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية واخراجهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم ان الله أنزل علي أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة أخرجه الترمذي ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ومالهم ألا يعذبهم الله) يعني أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم لانه سبحانه وتعالى بين في الآية الاولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم و بين في هذه الآية أنه معذبهم ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل أراد به عذاب الآخرة وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثاني العذاب بالسيف وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا و بهذا العذاب عذاب الآخرة وقال الحسن الآية الاولى وهي قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله ومالهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لان الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لاجله يعذبهم فقال تعالى (وهم يصدون عن المسجد الحرام) يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام (ان أولياؤه الا المتقون) يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن أكثرهم) يعني المشركين (لا يعلمون) ذلك ﴿ قوله عز وجل (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) لما ذكر الله عز وجل ان الكفار ليسوا باولياء للبيت الحرام ذكر عقبه السبب في ذلك وهو أن صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء في اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو اذا صفر والمكاء اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيره والتصدية التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما أنه من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع الى شيء الثاني قال أبو عبيدة أصله تصددة فابدلت الياء من الدال قال الازهري والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت ☼ صلاتهم التصدي والمكاء ☼ قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون و يصفقون وقال مجاهد كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف و يستهزؤن به و يدخلون أصابعهم في أفواههم و يصفرون فالمكاء جعل الاصابع في الشدق والتصدية الصفير وقال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله الا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرا وقال مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بني عبد الدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس أصح لان الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة فان قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة قلت انهم يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (فذوقوا العذاب) يعني عذاب القتل والاسر في الدنيا وقيل يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب (بما كنتم تكفرون) يعني بسبب كفركم في الدنيا ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التي

الله والمؤمنين من الصد وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل (وما كانوا أولياءه) وما استحقوا مع اشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم (ان أولياؤه الا المتقون) من المسلمين وقيل الضميران راجعان الى الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند أو أراد بالاكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء صفيرا كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت وهو فعال من مكا يمكو اذا صفر (وتصدية) وتصفيقا تفعلة من الصدى وذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها و يصفقون وكانوا يفعلون نحو ذلك اذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته يخلطون عليه (فذوقوا العذاب) عذاب القتل والاسر يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بسبب كفركم ونزل في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا كلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزور

لا

(ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) اى كان غرضهم في الانفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله

لاجدوى لها فى الآخرة وقال الكلبى ومقاتل نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البخترى بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبى بن خلف وزمعة بن الاسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش فى كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حزام وقال الحكم بن عتبة نزلت فى أبى سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالا وقال ابن أبزى استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره الى مكة مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان ابن أمية فى رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا ففيهم نزلت ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أى ليصرفوا الناس عن الايمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (فسينفقونها) يعنى أموالهم فى ذلك الوجه (ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) يعنى ما أنفقوا من أموالهم يكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لان أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون (والذين كفروا) يعنى منهم لان فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعنى من المنفقين أموالهم (الى جهنم يحشرون) يعنى يساقون الى النار (ليميز الله الخبيث من الطيب) يعنى ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فانه قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازى على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به انفاق الكفار فى سبيل الشيطان وانفاق المؤمنين فى سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) يعنى بعضه فوق بعض (فيركمه جميعا) يعنى فيجمعه جميعا ويضم بعضه الى بعض حتى يتراكم (فيجعله فى جهنم) يعنى الخبيث (أولئك) اشارة الى المنفقين فى سبيل الشيطان أو الى الخبيث (هم الخاسرون) يعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة لانهم اشتروا بأموالهم عقاب الآخرة قوله سبحانه وتعالى (قل) يعنى قل يا محمد (للذين كفروا ان ينتهوا) يعنى عن الشرك (يغفر لهم ما قد سلف) يعنى ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الاسلام (وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين) يعنى فى اهلاك أعدائه ونصر أوليائه ومعنى الآية ان هؤلاء الكفار ان انتهوا عن الكفر ودخلوا فى دين الاسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وان عادوا الى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الاولين باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الاسلام يجب ما قبله واذا أسلم الكافر لم يلزمه شئ من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته أمه يعنى بذلك أنه ليس عليه ذنب قال يحيى بن معاذ الرازى التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فارجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عباس يعنى حتى لا يكون شرك وقال الحسن حتى لا يكون بلاء (ويكون الدين كله لله) يعنى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لا اله الا الله عليها قاتل نبى الله صلى الله عليه وسلم واليها دعا وقال محمد بن اسحق فى قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة (ويكون الدين كله لله) يعنى لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد

وتنقلب حسرة (ثم يغلبون) آخر الامر وهو من دلائل النبوة لانه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر (والذين كفروا) والكافرون منهم (الى جهنم يحشرون) لان منهم من أسلم وحسن اسلامه واللام فى (ليميز الله الخبيث) الفريق الخبيث من الكفار (من الطيب) أى من الفريق الطيب من المؤمنين متعلقة بيحشرون ليميز حمزة وعلى (ويجعل الخبيث) الفريق الخبيث (بعضه على بعض فيركمه جميعا) فيجمعه (فيجعله فى جهنم) أى الفريق الخبيث (اولئك) اشارة الى الفريق الخبيث (هم الخاسرون) أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) أى أبى سفيان وأصحابه (ان ينتهوا) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول فى الاسلام (يغفر لهم ما قد سلف) لهم من العداوة (وان يعودوا) لقتاله (فقد مضت سنت الاولين) بالاهلاك فى الدنيا والعذاب فى العقبى أو معناه أن الكفار اذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصى وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله فى أن المرتد اذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الى أن لا يوجد فيهم شرك قط (ويكون الدين كله لله) ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده

لله خالصا ليس فيه شرك ويخلع مادونه من الانداد والشركاء (فان انتهوا) يعني عن الشرك وافتان المؤمنين وايذائهم (فان الله بما يعملون بصير) يعني فان الله لا يخفى عليه شئ من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل اليهم ثوابهم (وان تولوا) يعني وان أعرضوا عن الايمان وأصروا على الكفر وعادوا الى قتال المؤمنين وايذائهم (فاعلموا) يعني أيها المؤمنون (ان الله مولاكم) يعني ان الله وليكم وناصركم عليهم وحافظكم (نعم المولى ونعم النصير) يعني ان الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير ❁ قوله عز وجل (واعلموا أن ماغنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول) الغنم الفوز بالشئ يقال غنم يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفئ اسمان لمسمى واحد أم يختلفان في التسمية فقال عطاء بن السائب الغنيمة ماظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فاخذوه عنوة وأما الارض فهي فئ وقال سفيان الثوري الغنيمة ماأصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة والفئ ماصولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنيمة ماأخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفئ مالم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة وقيل ان الفئ والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشئ واحد والصحيح أنهما يختلفان فالفئ ماأخذ من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ماأخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى واعلموا أن ماغنمتم من شئ يعني من أي شئ كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما أضافه لنفسه تعالى لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهما منه لله مفردا لان الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعي قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال أبو العالية يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف الى الكعبة والقول الاول أصح أي ان خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين ومافيه قوة الاسلام وهذا قول الشافعي وأحمد وروى الاعمش عن ابراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم في الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال أبو حنيفة سهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته مردود في الخمس فيقسم الخمس على الاربعة الاصناف المذكورين في الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ❁ وقوله سبحانه وتعالى (ولذي القربى) يعني ان سهما من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعي رحمه الله تعالى هم بنو هاشم و بنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شئ وان كانوا اخوة و يدل عليه ماروى عن جبير بن مطعم قال جئت أنا وعثمان بن عفان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم و بنو المطلب شئ واحد وفي رواية أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفي رواية قال جبير ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيأ أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود ان جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بني هاشم و بني المطلب فقلت يارسول الله قسمت لاخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيأ وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم

(فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله بما يعملون بصير) يثيبهم على اسلامهم (وان تولوا) أعرضوا عن الايمان ولم ينتهوا (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته (نعم المولى) لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره والمخصوص بالمدح محذوف (واعلموا أن ماغنمتم) مابمعنى الذي ولا يجوز أن يكتب الا مفصولا اذ لو كتب موصولا لوجب أن تكون ما كافة وغنمتم صلته والعائد محذوف والتقدير الذي غنمتموه (من شئ) بيانه قيل حتى الخيط والمخيط (فان لله خمسه) والفاء انما دخلت لما في الذي من معنى المجازاة وان وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ تقديره فالحكم أن لله خمسه (وللرسول ولذي القربى

و بنو المطلب شئ واحد وفى رواية النسائى قال لما كان يوم خيبر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوى القربى فى بنى هاشم و بنى المطلب وترك بنى نوفل و بنى عبد شمس فانطلقت أنا و عثمان بن عفان حتى أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذى وضعك الله به منهم فما بال اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا و بنو المطلب لا نفترق فى جاهلية ولا اسلام وانما نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم فى سهم ذوى القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم الى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وهو قول مالك والشافعى وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأى الى أنه غير ثابت قالوا سهم النبى صلى الله عليه وسلم وسهم ذوى القربى مردود فى الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف الى فقراء ذوى القربى مع هذه الاصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوى القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوى القربى ولا يفضلون فقيرا على غنى لان النبى صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعى بالميراث الذى يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال و يفضل الذكر على الانثى فيعطى الذكر سهمين والانثى سهما ﴿وقوله سبحانه وتعالى (واليتامى) جمع يتيم يعنى و يعطى من خمس الخمس لليتامى واليتيم الذى له سهم فى الخمس هو الصغير المسلم الذى لا أب له فيعطى مع الحاجة اليه (والمساكين) وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين (وابن السبيل) وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة اليه فهذا مصرف خمس الغنيمة و يقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه و يعطى الراجل سهما واحدا لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم فى النفل للفرس سهمين وللرجل سهما وفى رواية نحوه باسقاط لفظ النفل أخرجه البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم واليه ذهب الثورى والاوزاعى ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم و يرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال و يقسم العقار الذى استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبى حنيفة يتخير الامام فى العقار بين ان يقسمه بينهم و بين ان يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركا فى القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روى عن أبى قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه اخرجه الترمذى وأخرجه البخارى ومسلم فى حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذى كان راكبه و يجوز للامام ان ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء و بلاء يكون منهم فى الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة فى سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى عامة الجيش عن حبيب بن سلمة الفهرى قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع فى البدأة والثلث فى الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء فى أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعى وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر و برة من جنب بعير فقال أيها الناس انه لا يحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائى وقال قوم هو من الاربعة الاخماس بعد افراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول

واليتامى والمساكين وابن السبيل) فالخمس كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله وسهم لذوى قرابته من بنى هاشم و بنى المطلب دون بنى عبد شمس و بنى نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته وكذلك سهم ذوى القربى وانما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان على ستة لله والرسول سهما وسهم لاقاربه فاجرى أبو بكر رضى الله عنه الخمس على ثلاثة وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء رضى الله عنهم ومعنى لله وللرسول لرسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه

معطوف على بالله أى ان كنتم آمنتم بالله وبالمنزل (على عبدنا يوم الفرقان) يوم بدر (يوم التقى الجمعان) الفريقان من المسلمين والكافرين والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وهو بدل من يوم الفرقان (والله على كل شئ قدير) يقدر على أن ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر (اذ أنتم) بدل من يوم الفرقان والتقدير اذكروا اذ أنتم (بالعدوة) شط الوادى وبالكسر فيهما مكى وأبو عمرو (الدنيا) القربى الى جهة المدينة تأنيث الادنى (وهم بالعدوة القصوى) البعدى عن المدينة تأنيث الاقصى وكلتاهما فعلى من بنات الواو والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الاعلى وأما القصوى فكالقود فى مجيئه على الاصل (والركب) أى العير وهو جمع راكب فى المعنى (أسفل منكم) نصب على الظرف أى مكانا أسفل من مكانكم يعنى فى أسفل الوادى بثلاثة أميال وهو مرفوع المحل لانه خبر المبتدا (ولو تواعدتم) أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال

أحمد واسحاق وذهب قوم الى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفىء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب بان صالحهم على مال يؤدونه وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم اذا دخلوا دار الاسلام للتجارة أو يموت أحد منهم فى دار الاسلام ولا وارث له فهذا كله فىء ومال الفىء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدة حياته وقال عمر ان الله سبحانه وتعالى قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الفىء بشئ لم يخص به أحدا غيره ثم قرأ عمر وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقى يجعله مجعل مال الله فى الكراع والسلاح واختلف أهل العلم فى مصرف الفىء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للائمة بعده وللامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما انه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم فى ديوان الجهاد لانهم القائمون مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى ارهاب العدو والقول الثانى انه لمصالح المسلمين و يبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالاهم فالاهم من المصالح واختلف أهل العلم فى تخميس الفىء فذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الى أنه يخمس وخمسه لاهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الاكثرون الى أنه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا ولجميع المسلمين فيه حق * عن مالك بن أنس قال ذكر عمر يوما الفىء فقال ما أنا أحق بهذا الفىء منكم وما أحد منا أحق به من الآخر الا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوى بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول ما على وجه الارض مسلم الا له فى هذا الفىء حق الا ما ملكت أيمانكم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ان كنتم آمنتم بالله) يعنى واعلموا أيها المؤمنون ان خمس الغنيمة مصروف الى من ذكر فى هذه الآية من الاصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته (وما أنزلنا على عبدنا) يعنى وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم والذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسئلونك عن الانفال الآية (يوم الفرقان) يعنى يوم بدر قال ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل فيه بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) يعنى جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شئ قدير) يعنى على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم ۞ قوله سبحانه وتعالى (اذ أنتم) أى اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين اذ أنتم (بالعدوة الدنيا) يعنى بشفير الوادى الادنى من المدينة والدنيا ههنا تأنيث الادنى (وهم) يعنى المشركين (بالعدوة القصوى) يعنى بشفير الوادى الاقصى من المدينة مما يلى مكة والقصوى تأنيث الأقصى (والركب أسفل منكم) يعنى أبا سفيان وأصحابه وهم عير قريش التى خرجوا الاجلها وكانوا فى موضع أسفل من موضع المؤمنين الى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم) يعنى أنتم والمشركون (لاختلفتم فى الميعاد) وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) يعنى ولكن الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) يعنى من نصر أوليائه واعزاز دينه واهلاك أعدائه وأعداء

(لاختلفتم فى الميعاد) خالف بعضكم بعضا فنبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقى ما وفقه الله وسبب له (ولكن) جمع بينكم بلا ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) دينه

من اعزاز دينه واعلاء كلمته واللام تتعلق بمحذوف أي ليقضي الله أمرا كان ينبغي أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك قال الشيخ أبو منصور رحمه الله القضاء يحتمل الحكم أي ليحكم ما قد علم أنه يكون كائنا أو ليتم أمرا كان قد أراده وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة وهو عز الاسلام وأهله وذل الكفر وحزبه و يتعلق بيقضي (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) حيي نافع وأبو عمرو فالادغام لالتقاء المثلين والاظهار لان حركة الثاني غير لازمة لانك تقول في المستقبل يحيا والادغام أكثر استعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة و يصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بانه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك ان وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين وان العير كانت أسفل منهم مع أنهم قد علموا ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والاسباب بل بالله تعالى وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها الا بتعب ومشقة وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعددهم وقلة المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان (وان الله لسميع) لاقوالهم (عليم) بكفر من كفر وعقابه و بايمان من آمن وثوابه (اذ يريكهم الله) نصب باضمار اذكر أو هو متعلق بقوله لسميع عليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك (في منامك قليلا) أي في رؤياك وذلك ان الله تعالى أراه اياهم في رؤياه قليلا فاخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم وهبتم الاقدام ولتنازعتم في الامر أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار (ولكن الله سلم) عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف (انه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع (واذ يريكموهم) الضميران مفعولان أي واذ يبصركم اياهم (اذا التقيتم) وقت اللقاء (في أعينكم قليلا) هو نصب على الحال وانما قللهم في أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا قال ابن مسعود رضي الله عنه لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي أتراهم سبعين قال أراهم مائة وكانوا ألفا (ويقللكم في أعينهم) حتى قال قائل منهم انما هم أكلة جزور وقيل قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيها بعده ليجترئوا عليهم قلة مبالاة بهم ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ويجوز أن يبصروا الكثير قليلا بان يستر الله بعضهم بساتر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال مالي لا أرى هذين الديكين اربعة

دينه (ليهلك من هلك عن بينة) يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (و يحيا من حي عن بينة) يعني و يعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد بن اسحق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه و يؤمن من آمن على مثل ذلك لان الهلاك هو الكفر والحياة هي الايمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة و يهتدي من اهتدى على بينة (وان الله لسميع عليم) يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية ۞ قوله عز وجل (اذ يريكهم الله) يعني واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ يريك المشركين (في منامك) يعني في نومك (قليلا) قال مجاهد أراهم الله في منامه قليلا فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا وقال محمد بن اسحق فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم وقيل لما أرى الله النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في منامه قليلا فاخبر بذلك أصحابه قالوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت في اليقظة والمراد من المنام العين لانها موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيرا فذكرت ذلك لاصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم (ولتنازعتم في الامر) يعني اختلفتم في امر الاقدام عليهم أو الاحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الامر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد الى ناحية والمعنى لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم (ولكن الله سلم) يعني ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل (انه عليم بذات الصدور) يعني أنه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس معناه أنه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل (واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا) يعني ان الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي تراهم سبعين قال أراهم مائة فاسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا ألفا (ويقللكم في أعينهم) يعني و يقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين قال السدي قال ناس من المشركين

آمنوا اذا لقيتم فئة) اذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها لان المؤمنين ما كانوا يلقون الا الكفار واللقاء اسم غالب للقتال (فاثبتوا) لقتالهم ولا تفروا (واذكروا الله كثيرا) فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم (لعلكم تفلحون) تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه اشعار بان على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبا وأكثر ما يكون هما وان تكون نفسه مجتمعة لذلك وان كانت متوزعة عن غيره (وأطيعوا الله ورسوله) فى الامر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما (ولا تنازعوا فتفشلوا) فتجبنوا وهو منصوب باضمار ان ويدل عليه (وتذهب ريحكم) أى دولتكم يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة ونفذ أمره شبهت فى نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها وقيل لم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (واصبروا) فى القتال مع العدو وغيره

ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن اذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم انما محمد وأصحابه أكلة جزور يعنى لقلتهم فى عينيه ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم فى الحبال يقوله من القدرة التى فى نفسه والحكمة فى تقليل المشركين فى أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة فى تقليل المؤمنين فى أعين المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتاهب لقتالهم فيكون ذلك سبب الظهور المؤمنين عليهم فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل قلت ذلك ممكن فى القدرة الالهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) يعنى أمرا كائنا من اعلاء كلمة الاسلام ونصر أهله واذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فان قلت قد قال فى الآية المتقدمة ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا وقال فى هذه الآية ليقضى الله أمرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار قلت المقصود من ذكره فى الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره فى هذه الآية لانه تعالى قلل عدد الفريقين فى أعين بعضهم بعضا للحكمة التى قضاها فلذلك قال ليقضى الله أمرا كان مفعولا (والى الله ترجع الامور) يعنى فى الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن باحسانه والمسىء باساءته أو يغفر ﴿ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) يعنى جماعة كافرة (فاثبتوا) يعنى لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولى (واذكروا الله كثيرا) يعنى كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه فى أشد الاحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على أن الانسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى فامر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو وعند اللقاء ثم قال تعالى (لعلكم تفلحون) يعنى وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر فان قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة فى الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح فى حصول هذا الثبات فى المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) يعنى فى أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو (ولا تنازعوا فتفشلوا) يعنى ولا تختلفوا فان التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن ﴿ وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يعنى قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد وقال السدى جراءتكم وجدكم وقال مقاتل حدتكم وقال الاخفش وأبو عبيدة دولتكم والريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هى ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود وقوله سبحانه وتعالى (واصبروا) يعنى عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم (ان الله مع الصابرين) يعنى بالنصر والمعونة (ق) عن عبد الله بن أبى أوفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض ايامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال ايها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا

(ان الله مع الصابرين) أى معينهم وحافظهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا

عليهم (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا ۞ قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) يعني فخرا وأشرا وقيل البطر الطغيان في النعمة وذلك أن النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها في المفاخرة على الاقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعمة وان صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها (ورئاء الناس) الرياء اظهار الجميل ليراه الناس مع ابطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق ان النفاق اظهار الايمان مع ابطان الكفر والرياء اظهار الطاعة مع ابطان المعصية (ويصدون عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا الى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به قال ابن عباس ان أبا سفيان لما رأى انه قد أحرز عيره أرسل الى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا فأزاد غيره قال فلما وافوا بدرا سقوا كؤس الحمام عوضا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا امثالهم والمعنى لا يكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الناس ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم وموازرة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا الا لذلك ولا تطلبوا غيره ۞ وقوله تعالى (والله بما يعملون محيط) فيه وعيد وتهديد يعني انه تعالى عالم بجميع الاشياء لا يخفى عن علمه شئ لانه محيط باعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين ۞ قوله سبحانه وتعالى (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم) يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم اذ زين الشيطان يريد ابليس للمشركين أعمالهم الخبيثة (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم) قال بعضهم كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير أن يتحول في صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشا لما أجمعت على المسير الى بدر ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شئ تكرهونه فخرجوا سراعا وقال ابن عباس جاء ابليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك ابن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام الى ابليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع ابليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل يا سراقة أتزعم انك جار لنا فقال اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقوله اني جار لكم يعني مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أي التقى الجمعان رأى ابليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله ابليس أنه لا طاقة له بهم (نكص على عقبيه وقال اني برئ منكم) يعني رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال الكلبي لما التقى الجمعان كان ابليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله ابليس على عقبيه فقال له الحارث

فوافوها فسقوا كؤس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين باعمالهم وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله والبطر ان تشغله كثرة النعمة عن شكرها (ويصدون عن سبيل الله) دين الله (والله بما يعملون محيط) عالم وهو وعيد (واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) واذكر اذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسوس اليهم انهم لا يغلبون وغالب مبني نحو لا رجل ولكم في موضع رفع خبر لا تقديره لا غالب كائن لكم (واني جار لكم) أي مجير لكم أوهمهم ان طاعة الشيطان مما يجيرهم (فلما تراءت الفئتان) فلما تلاقى الفريقان (نكص الشيطان هاربا (على عقبيه) أي رجع القهقرى (وقال اني برئ منكم) أي رجعت عما ضمنت لكم من الامان روي ان ابليس

تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم في جند من الشياطين معه راية فلما رأى الملائكة تنزل نكص فقال له الحرث بن هشام أتخذلنا في هذه الحالة فقال

والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان (انى أخاف الله) أى عقوبته (والله شديد العقاب) اذكروا (اذ يقول المنافقون) بالمدينة (والذين فى قلوبهم مرض) هو من صفة المنافقين أو أريد والذين هم على حرف ليسوا بثابتى الاقدام فى الاسلام (غر هؤلاء دينهم) يعنون ان المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة و بضعة عشر الى زهاء ألف ثم قال جوابا لهم (ومن يتوكل على الله) يكل اليه أمره (فان الله عزيز) غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى (حكيم) لايسوى بين وليه وعدوه (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت لان لو ترد المضارع الى معنى الماضى كما ترد ان الماضى الى معنى الاستقبال (اذ) نصب على الظرف (يتوفى الذين كفروا) يقبض أرواحهم (الملائكة) فاعل (يضربون) حال منهم (وجوههم) اذا أقبلوا (وأدبارهم) ظهورهم وأستاههم اذا أدبروا أو وجوههم عند الاقدام وأدبارهم عند الانهزام

افرارا من غير قتال وجعل يمسكه فدفع فى صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى أنكم تقولون انى هزمت الناس فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا الحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطانا قال الحسن فى قوله (انى أرى مالا ترون) قال رأى ابليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ما ركب وقال قتادة قال ابليس انى أرى مالا ترون وصدق وقال انى أخاف الله وكذب مابه مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فاوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله ابليس لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل انه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه (انى أخاف الله) أعلم صدق وعده لاوليائه لانه كان على ثقة من أمره وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة (والله شديد العقاب) قيل معناه انى أخاف الله لانه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول ابليس وقيل تم كلامه عند قوله انى أخاف الله وقوله تعالى والله شديد العقاب ابتداء كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مارؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا مارأى يوم بدر فانه قد رأى جبريل يزع الملائكة أخرجه مالك فى الموطأ قوله ولا أدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور وهو الابعاد والطرد مع الاهانة وقوله يزع الملائكة أى يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض والوازع هو الذى يتقدم ويتأخر فى الصف ليصلحه فان قلت كيف يقدر ابليس على أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا قلت ان الله عز وجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة ﴿ قوله عز وجل (اذ يقول المنافقون) يعنى من أهل المدينة (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقوا الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء دينهم) يعنى ان هؤلاء نفر قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الاسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب فى الآخرة فقتلوا جميعا يوم بدر وقال مجاهد ان فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة بن الاسود بن المطلب وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله) يعنى ومن يسلم أمره الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه (فان الله) حافظه وناصره لانه (عزيز) لايغلبه شئ (حكيم) فيما قضى وحكم فيوصل الثواب الى أوليائه والعقاب الى أعدائه ﴿ قوله عز وجل (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) يعنى ولو عاينت يا محمد وشاهدت اذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا ينالهم فى ذلك الوقت (يضربون وجوههم وأدبارهم) اختلفوا فى وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار وقيل ان الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وقال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم وقال ابن جريج يريد ما أقبل من

وقيل فى يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبره والاول الوجه لان الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة دليله قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء

(وذوقوا) ويقولون لهم ذوقوا معطوف على يضربون (عذاب الحريق) أى مقدمة عذاب النار أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به أو يقال لهم يوم القيامة ذوقوا وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا (ذلك بما قدمت أيديكم) أى كسبت وهو رد على الجبرية وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره (وأن الله) عطف عليه أى ذلك العذاب بسببين بسبب كفركم ومعاصيكم وبان الله (ليس بظلام للعبيد) لان تعذيب الكفار من العدل وقيل ظلام للتكثير لاجل العبيد أو لنفى أنواع الظلم الكاف فى (كدأب آل فرعون) فى محل الرفع أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ودأبهم عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه أى داوموا عليه (والذين من قبلهم) من قبل قريش أو من قبل آل فرعون (كفروا) تفسير لدأب آل فرعون (بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد العقاب) والمعنى جروا على عادتهم فى التكذيب فاجرى عليهم مثل مافعل بهم فى التعذيب (ذلك) العذاب أو الانتقام (بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) بسبب ان الله لم يصح فى حكمته ان يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال نعم لم يكن لآل فرعون ومشركى مكة حال مرضية فيغيروها الى حال مسخوطة لكن لما تغيرت الحال المرضية الى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة الى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول اليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث اليهم بالآيات فكذبوه وسعوا فى اراقة دمه غيروا حالهم الى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب (وأن الله سميع) لما يقول مكذبو الرسل (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد ولان فى الاولى الاخذ بالذنوب بلا بيان ذلك وهنا بين ان ذلك هو الاهلاك والاستئصال (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) وفى قوله بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق (فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون) بماء البحر (وكل) وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصى

أجسادهم وأدبر يعنى يضربون جميع أجسادهم (وذوقوا عذاب الحريق) يعنى وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار فى جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق (ذلك) يعنى الذى نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما قدمت أيديكم) يعنى انما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصى فان قلت اليد ليست محلا للكفر وانما محله القلب لان الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضى ان فاعل هذا الكفر هى اليد وذلك ممتنع قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لان اليد آلة العمل والقدرة هى المؤثرة فى العمل فاليد كناية عن القدرة ۞ وقوله تعالى (وان الله ليس بظلام للعبيد) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من خلقه الا بجرم اجترمه لانه لا يظلم أحدا من خلقه وانما نفى الظلم عن نفسه مع انه يعذب الكافر على كفره والعاصى على عصيانه لانه يتصرف فى ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم اليه فلا يتوهم متوهم انه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وان الله ليس بظلام للعبيد لانهم فى ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء ۞ قوله تعالى (كدأب آل فرعون) يعنى ان عادة هؤلاء الكفار فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم فجوزى هؤلاء بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزى آل فرعون بالاغراق وأصل الدأب فى اللغة ادامة العمل يقال فلان يدأب فى كذا وكذا يداوم عليه و يتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لان الانسان يداوم على عادته و يواظب عليها قال ابن عباس معناه ان آل فرعون أيقنوا ان موسى عليه السلام نبى من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فانزل الله بهم عقوبته كما نزل بآل فرعون (والذين من قبلهم) يعنى من قبل آل فرعون (كفروا بآيات الله) يعنى ان عادة الامم السالفة هو كفرهم بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) يعنى بسبب كفرهم وذنوبهم (ان الله قوى) يعنى فى أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله (شديد العقاب) يعنى لمن كفر به وكذب رسله (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) يعنى ان الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بان أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف و بعث اليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بان تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا ما بانفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدى نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى الى الانصار (وأن الله سميع) يعنى لاقوال خلقه لا يخفى عليه شئ من كلامهم (عليم) يعنى بما فى صدورهم من خير وشر فيجازى كل واحد على عمله (كدأب آل فرعون) يعنى ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) يعنى أهلكنا بعضهم بالرجفة و بعضهم بالخسف و بعضهم بالحجارة و بعضهم بالريح و بعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين)

يعني الاولين والآخرين فان قلت ما الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية قلت فيها فوائد منها ان الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الاول لان الآية الاولى فيها ذكر أخذهم وفي الآية الثانية ذكر اغراقهم فهذا تفسير للاولى الفائدة الثانية انه ذكر في الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية انهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الاولى اشارة الى انهم انكروا آيات الله وجحدوها وفي الآية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة ان تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الاغراق بيان للاخذ بالذنوب ۞ قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله) يعني في علمه وحكمه (الذين كفروا فهم لا يؤمنون) والمعنى ان شر الدواب من الانس الكفار المصرون على الكفر نزلت في يهود بني قريظة رهط كعب بن الاشرف (الذين عاهدت منهم) قيل من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل هي للتبعيض لان المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والاشراف (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) قال المفسرون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالؤا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لا يتقون) يعني انهم لا يخافون الله في نقض العهد لان عادة من يرجع الى دين وعقل وحزم ان يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس الى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل ان من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب (فإما تثقفنهم في الحرب) يعني فاما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية انك اذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (وإما تخافن) يعني وإما تعلمن يا محمد (من قوم) يعني معاهدين (خيانة) يعني نقضا للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير (فانبذ) أي فاطرح (اليهم) يعني عهدهم وارم به اليهم (على سواء) يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك اياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون انك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) يعني في نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر فاذا هو عمرو بن عنبسة فارسل اليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الامام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الامام عن نبذ العهد واعلامهم بالحرب وان ظهرت الخيانة بامارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الامام ان ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لان قريظة كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فههنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا

(ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أي أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الايمان (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا أي الذين عاهدتهم من الذين كفروا وجعلهم شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرين الناكثون للعهود (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) في كل معاهدة (وهم لا يتقون) لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار (فاما تثقفنهم في الحرب) فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فشرد بهم من خلفهم) ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم. وقال الزجاج افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم (لعلهم يذكرون) لعل المشردين من ورائهم يتعظون (واما تخافن من قوم) معاهدين (خيانة) نكثا بامارات تلوح لك (فانبذ اليهم) فاطرح اليهم العهد (على سواء) على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ اليهم أي حاصلين على استواء في العلم (ان الله لا يحب الخائنين) الناقضين للعهود

حاجة للامام الى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة وقوله تعالى (ولا تحسبن) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يا محمد (الذين كفروا سبقوا) يعنى فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعنى خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) يعنى انهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما فى الدنيا بالقتل واما فى الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فاعلمه الله أنهم لا يعجزونه ﴿قوله عز وجل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشئ لوقت الحاجة اليه وفى المراد بالقوة أقوال أحدها أنها جميع أنواع الاسلحة والآلات التى تكون لكم قوة فى الحرب على قتال عدوكم * الثانى انها الحصون والمعاقل الثالث الرمى وقد جاءت مفسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا ان القوة الرمى ثلاثا أخرجه مسلم (خ) عن أبى أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش اذا أكثبوكم يعنى غشوكم وفى رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفى رواية اذا أكثبوكم فعليكم بالنبل (م) عن عقبة ابن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم ان يلهو باسهمه (م) عن فقيم اللخمى قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه قال قلت وماذاك قال سمعته يقول من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا أو قد عصى عن أبى نجيح السلمى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل محرر أخرجه النسائى والترمذى بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضا عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى عمله الخير والرامى به والممد به وفى رواية ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمودا الا ثلاثة تاديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أى نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذى مختصرا الى نبله (خ) عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا بنى اسمعيل فان أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بنى فلان فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما لكم لا ترمون فقالوا كيف نرمى وأنت معهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا وأنا معكم كلكم * القول الرابع ان المراد بالقوة جميع ما يتقوى به فى الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان بها فى الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة الرمى لا ينفى كون غير الرمى من القوة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفى اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا ههنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال فى الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمى بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مامور به الا انه من فروض الكفاية ﴿وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) يعنى اقتناءها وربطها للغزو فى سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمى المكان الذى يخص باقامة حفظه فيه رباطا والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به روى ان

وبالتاء وكسر السين غيرهم (الذين كفروا سبقوا) فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم (انهم لا يعجزون) انهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم أنهم شامي أى لانهم وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير ان المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح فمن قرأ بالتاء فالذين كفروا مفعول أول والثانى سبقوا ومن قرأ بالياء فالذين كفروا فاعل وسبقوا مفعول تقديره ان سبقوا فحذف ان وان مخففة من الثقيلة أى انهم سبقوا فسد مسد المفعولين أو يكون الفاعل مضمرا أى ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومن ادعى تفرد حمزة بالقراءة ففيه نظر لما بينا من عدم تفرده بها وعن الزهرى انها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين (وأعدوا) أيها المؤمنون (لهم) لناقضى العهد أو لجميع الكفار (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها وفى الحديث ألا ان القوة الرمى قالها ثلاثا على المنبر وقيل هى الحصون (ومن رباط الخيل) هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال وخص الخيل من بين ما يتقوى به كقوله جبريل

رجلا قال لابن سيرين ان فلانا أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل و يربطها فى سبيل الله وقال عكرمة القوة الحصون ومن رباط الخيل يعنى الاناث ووجه هذا ان العرب تربط الاناث من الخيل بالافنية للنسل وروى ان خالد بن الوليد كان لايركب فى القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وأناث الخيل عند الشنات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الاناث لانها أقوى على الكر والفر والعدو وكانت المحاربة عليها أولى من الاناث وقيل ان لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والاناث فاى ذلك ربط بنية الغزاة كان فى سبيل الله (ق) عن عروة ابن الجعد البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (ق) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة هى لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله زاد فى رواية لاهل الاسلام فاطال لها فى مرج أوروضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أوالروضة كان له حسنات ولو انها قطعت طيلها فاستنت شرفا أوشرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد ان يسقيها كان ذلك له حسنات فهى لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لاهل الاسلام فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل على فيها شئ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذى يشد به الفرس وقت الرعى والاستنان الجرى والشرف الشوط الذى تجرى فيه الفرس وقوله تغنيا يعنى استغناء بها عن الطلب لما فى أيدى الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعا الى أهله وأما حق رقابها فقيل أراد به الاحسان اليها وقيل أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله نواء لاهل الاسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة اذا عاديته ۞ وقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) يعنى تخوفون بتلك القوة و بذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعنى الكفار من أهل مكة وغيرهم وقال ابن عباس تخزون به عدو الله وعدوكم وذلك لان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الاسلام أو بذل الجزية للمسلمين ۞ وقوله تعالى (وآخرين من دونهم) يعنى وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد هم بنو قريظة وقال السدى هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بالسنتهم لا اله الا الله (الله يعلمهم) يعنى انهم منافقون وأورد على هذا القول ان المنافقين لا يقاتلون لاظهارهم كلمة الاسلام فكيف يخوفون باعداد القوة ورباط الخيل وأجيب عن هذا الايراد ان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان فى ذلك ارهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبرى قال لان الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك ان المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بانهم مشركون ولانهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعنى يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم و يعضد هذا القول ماروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وان الشيطان لا يخبل أحدا فى داره فرس عتيق ذكر هذا الحديث ابن الجزرى وغيره من المفسرين بغير اسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله) قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر

وميكال (ترهبون به) بما استطعتم (عدو الله وعدوكم) أى أهل مكة (وآخرين من دونهم) غيرهم وهم اليهود أو المنافقون أو أهل فارس أو كفرة الجن فى الحديث ان الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارا فيها فرس عتيق وروى ان صهيل الخيل يرهب الجن (لا تعلمونهم) لا تعرفونهم باعيانهم (الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله

عام فى كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره (يوف اليكم) يعنى أجره فى الآخرة و يجعل لكم عوضه فى الدنيا (وأنتم لا تظلمون) يعنى وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيأ ﴿قوله تبارك وتعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح ان مالوا اليه وسألوه فقال تعالى وان جنحوا للسلم يعنى مالوا الى السلم يعنى المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أى مل اليها يعنى الى المصالحة روى عن الحسن وقتادة أن هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل انها غير منسوخة لكنها تتضمن الامر بالصلح اذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الامام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وان كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم انهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة وقوله تعالى (وتوكل على الله) يعنى فوض أمرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك فى جميع أحوالك (انه هو السميع) يعنى لاقوالهم (العليم) يعنى باحوالهم ﴿قوله عز وجل (وان يريدوا أن يخدعوك) يعنى يغدروا بك قال مجاهد يعنى بنى قريظة والمعنى وان أرادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم (فان حسبك الله) يعنى فان الله كافيك بنصره ومعونته (هو الذى أيدك بنصره) يعنى هو الذى قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفى سائر أيامك (وبالمؤمنين) يعنى وأيدك بالمؤمنين يعنى الانصار فان قلت اذا كان الله قد أيده بنصره فاى حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون باسباب باطنة غير معلومة وباسباب ظاهرة معلومة فاما الذى يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذى أيدك بنصره لان أسبابه باطنة بغير وسايط معلومة وأما الذى يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان أسبابه ظاهرة بوسايط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الاسباب وهو الذى أقامهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمومنين فقال تعالى (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وذلك ان العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والانفة العظيمة والانفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شئ حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثارهم لا يكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفى الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الاوس والخزرج وكانت بينهم فى الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والالفة وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فالفكم الله بى وعالة فاغناكم الله بى وفى الآية دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد ذلك لان تلك الالفة والمحبة انما حصلت بسبب الايمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله (انه عزيز حكيم) يعنى أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف فى القلوب فيقلبها من العداوة الى المحبة ومن النفرة الى الالفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب ﴿قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المومنين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت فى اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت فى سورة مدنية بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انها نزلت بالبيداء

يوف اليكم) يوفر عليكم جزاؤه (وأنتم لا تظلمون) فى الجزاء بل تعطون على التمام (وان جنحوا) مالوا جنح له واليه مال (للسلم) للصلح وبكسر السين أبو بكر وهو مؤنث تأنيث ضدها وهو الحرب (فاجنح لها) فمل اليها (وتوكل على الله) ولا تخف من ابطانهم المكر فى جنوحهم الى السلم فان الله كافيك وعاصمك من مكرهم (انه هو السميع) لاقوالك (العليم) باحوالك (وان يريدوا أن يخدعوك) يمكروا ويغدروا (فان حسبك الله) كافيك الله (هو الذى أيدك) قواك (بنصره وبالمؤمنين) جميعا أو بالانصار (وألف بين قلوبهم) قلوب الاوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة (لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أى بلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق منفق فى اصلاح ذات بينهم ما فى الارض من الاموال لم يقدر عليه (ولكن الله ألف بينهم) بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته فاحدث بينهم التوادد والتحابب وأماط عنهم التباغض والتماقت (انه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) الواو بمعنى مع وما بعده منصوب والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرا او يجوز أن يكون فى محل الرفع

أي كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين وقيل أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) التحريض المبالغة في الحث على الامر من الحرض وهو أن ينهكه المرض

في غزوة بدر وقيل القتال على هذا القول أراد بقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين يعني الى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الانصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والانصار ومعنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين ﴿ قوله عز وجل (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) يعني حثهم على قتال عدوهم والتحريض في اللغة الحث على الشئ بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه كانه في الاصل ازالة الحرض وهو الهلاك (ان يكن منكم عشرون) يعني رجلا (صابرون) يعني عند اللقاء محتسبين أنفسهم يغلبوا مائتين يعني من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الامر فكانه تعالى قال ان يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على أن المراد بهذا الخبر الامر قوله الآن خفف الله عنكم لان النسخ لا يدخل على الاخبار انما يدخل على الامر فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى أوجب أولا على المؤمنين هذا الحكم وانما حسن هذا التكليف لان الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الاعداء (وان يكن منكم مائة) يعني صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار ذلك (بانهم قوم لا يفقهون) يعني ان المشركين لا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم في القتال فانهم لا يثبتون معكم (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) (خ) عن ابن عباس قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين وفي رواية أخرى عنه قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا ان قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم في الآية الاولى وكان هذا الامر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفا يعني في قتال الواحد للعشرة فان تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله فرد من العشرة الى الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا فايما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة قال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك ﴿ قوله تعالى (ما كان لنبي أن تكون له أسرى) روى عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم بدر وجيء بالاسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون في هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد

حتى يشفى على الموت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا هذه عدة من الله وبشارة بان الجماعة من المؤمنين ان صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده (بانهم قوم لا يفقهون) بسبب ان الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله قيل كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ضعفا عاصم وحمزة (فان يكن منكم مائة صابرة) بالياء فيهما كوفي وافقه البصري في الاولى والمراد الضعف في البدن (يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) وتكرير مقاومة الجماعة لاكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت اذا الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة من الالف وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والالف الالفين (ما كان لنبي) ما صح له ولا استقام (أن تكون له أسرى) ان تكون بصري

من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا أو مثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم الا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود الا سهيل بن بيضاء فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل عليه ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن في الارض الآية أخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي وأخرج مسلم في أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الاسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الاسارى فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم الى الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكننا فنضرب اعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من فلان نسيب لعمر فاضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان فقلت يا رسول الله اخبرني من أي شئ تبكي أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض الى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من افراد مسلم بزيادة فيه أما تفسير الآية فقوله تعالى ما كان لنبي أن تكون له أسرى يعني ما كان ينبغي ولا يجب لنبي وقال أبو عبيدة معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي أن يحبس كافرا قدر عليه وصار في يده أسيرا للفداء والمن والاسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع (حتى يثخن في الارض) الاثخان في كل شئ عبارة عن قوته وشدته يقال أثخنه المرض اذا اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فاذا حصل ذلك فله أن يقدم على الاسر فيأسر الاسارى (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعني تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين وانما سمى منافع الدنيا عرضا لانه لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فانها دائمة لا انقطاع لها ۞ وقوله سبحانه وتعالى (والله يريد الآخرة) يعني انه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لانها دائمة بلا زوال ولا انقطاع (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) يعني في تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى في الاسارى فاما منا بعد

(حتى يثخن في الارض) الاثخان كثرة القتل والمبالغة فيه من الثخانة وهي الغلظ والكثافة يعني حتى يذل الكفر باشاعة القتل في أهله ويعز الاسلام بالاستيلاء والقهر ثم الاسر بعد ذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه وعقيل فاستشار النبي عليه السلام أبا بكر فيهم فقال قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك وقال عمر رضي الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فان هؤلاء أئمة الكفر وان الله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه السلام مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم حيث قال ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا باحد فلما أخذوا الفداء نزلت الآية (تريدون عرض الدنيا) متاعها يعني الفداء سماه عرضا لقلة بقائه وسرعة فنائه (والله يريد الآخرة) أي ما هو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالاثخان في القتل (والله عزيز) بقهر الاعداء (حكيم)

في عتاب الاولياء (لولا كتاب من الله) لولا حكم من الله (سبق) أن لا يعذب أحدا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادا منهم لانهم نظروا في ان استبقاءهم ربما كان سببا في اسلامهم وان فداءهم يتقوى به على الجهاد وخفي عليهم ان قتلهم أعز للاسلام

وأهيب لمن وراءهم أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر أو كان لا يؤاخذ قبل البيان والاعذار وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكري القياس كتاب مبتدأ ومن الله صفته أي لولا كتاب ثابت من الله وسبق صفة أخرى له وخبر المبتدا محذوف أي لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود وسبق لا يجوز أن يكون خبرا لان لولا لا يظهر خبرها أبدا (لمسكم) لنالكم وأصابكم (فيما أخذتم) من فداء الاسرى (عذاب عظيم) روى أن عمر رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله اخبرني فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى انه عليه السلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ لقوله كان الاثخان في القتل أحب الي (فكلوا مما غنمتم) روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم اليها فنزلت وقيل هو اباحة للفداء لانه من جملة الغنائم والفاء للتسبيب والسبب محذوف ومعناه قد أحلت لكم الغنائم فكلوا (حلالا) مطلقا عن العتاب والعقاب من حل العقال وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلا حلالا (طيبا) لذيذا هنيئا أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع

واما فداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار ان شاؤا قتلوهم وان شاؤا استعبدوهم وان شاؤا فادوهم وان شاؤا أعتقوهم قال الامام فخر الدين ان هذا الكلام يوهم ان قوله فاما منا بعد واما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الامر كذلك لان كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الاثخان ثم بعده أخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والاوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم

(فصل) قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الانبياء وبيانه من وجوه الاول ان قوله ما كان لنبي أن تكون له أسرى صريح في النهي عن أخذ الاسارى وقد وجد ذلك يوم بدر الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم الوجه الثالث ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب الوجه الرابع ان النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان لاجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله والجواب عن الوجه الاول ان قوله سبحانه وتعالى ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن في الارض يدل على انه كان الاسر مشروعا ولكن بشرط الاثخان في الارض وقد حصل لان الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الاثخان في الارض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الاسر بعد الاثخان وقد حصل والجواب عن الوجه الثاني ان الامر بالقتل انما كان مختصا بالصحابة لاجماع المسلمين ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه واذا ثبت أن الامر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لا من النبي صلى الله عليه وسلم والجواب عن الوجه الثالث وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم حكم باخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم ان أخذ الفداء كان محرما وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الاسارى والمبادرة اليه ولا يدل على تحريم الفداء اذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا والجواب عن الوجه الرابع وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لاجل أن بعض الصحابة لما خالف الامر بالقتل واشتغل بالاسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي صلى الله عليه وسلم خوفا واشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الاسر وأخذ الفداء والله أعلم ۞ قوله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الانبياء والامم فكانوا اذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فانزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بانه يحل لكم الغنائم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق انه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق انه لا يضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وانه لا يأخذ قوما فعلوا بجهالة لمسكم يعني لاصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن اسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا الا أحب الغنائم الا عمر بن الخطاب فانه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الاسرى وسعد بن معاذ فانه قال يارسول الله كان الاثخان في القتل أحب الي من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ۞ وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) يعني فقد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم

حلالا طيبا روى انه لما نزلت الآية الاولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فاحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الامم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بان الله رأى ضعفنا وعجزنا فاحلها لنا ❁ وقوله سبحانه وتعالى (واتقوا الله ان الله غفور رحيم) يعني وخافوا الله أن تعودوا وان تفعلوا شيأ من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ❁ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم) نزلت في العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فاراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيأ وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها اني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فان حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم يعني بنيه فقال العباس وما يدريك يا ابن أخي قال أخبرني به ربي قال العباس أشهد انك لصادق وأشهد أن لا اله الا الله وأنك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد الا الله وأمر ابني أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فاسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبي قل لمن في أيديكم (من الاسرى) يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا) يعني ايمانا وتصديقا (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) يعني من الفداء (ويغفر لكم) يعني ما سلف منكم قبل الايمان (والله غفور) يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) يعني باهل طاعته قال العباس فابدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب ان لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا انتظر المغفرة من ربي عز وجل وقوله تعالى (وان يريدوا) يعني الاسارى (خيانتك) يعني أن يكفروا بك (فقد خانوا الله) يعني فقد كفروا بالله (من قبل) وقيل معناه وان نقضوا العهد ورجعوا الى الكفر فقد خانوا الله بذلك (فأمكن) يعني فأمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الامكان وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بانه يتمكن من كل احد يخونه أو ينقض عهده (والله عليم) يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد (حكيم) يعني حكم بانه يجازي كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب ❁ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله) يعني ان الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعني وهجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الاولون وجاهدوا يعني وبذلوا أنفسهم في سبيل الله يعني في طاعة الله وابتغاء رضوانه (والذين آووا ونصروا) يعني آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الانصار (أولئك) يعني المهاجرين والانصار

(ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء اما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة (ويغفر لكم والله غفور رحيم) روي أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فاخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة وكان له عشرون عبدا وان أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وكان يقول أنجز الله أحد الوعدين وأنا على ثقة من الآخر (وان يريدوا) أي الاسرى (خيانتك) نكث ما بايعوك عليه من الاسلام بالردة أو منع ما ضمنوه من الفداء (فقد خانوا الله من قبل) في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) فأمكنك منهم أي أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم ان عادوا الى الخيانة (والله عليم) بالمآل (حكيم) فيما أمر في الحال (ان الذين آمنوا وهاجروا) من مكة حبا لله ورسوله (وجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله) هم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) اى آووهم الى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الانصار (أولئك

بعضهم أولياء بعض) أى يتولى بعضهم بعضا فى الميراث وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة و بالنصرة دون ذوى القرابات حتى نسخ ذلك بقوله وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض وقيل أراد به النصرة والمعاونة (والذين آمنوا ولم يهاجروا) من مكة (مالكم من ولايتهم) من توليهم فى الميراث ولايتهم حمزة وقيل هما واحد (من شئ حتى يهاجروا) فكان لا يرث المؤمن الذى لم يهاجر ممن آمن وهاجر ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الايمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة دل أن صاحب الكبيرة

(بعضهم أولياء بعض) يعنى فى العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس فى الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون أقربائهم وذوى ارحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالارحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ۞ وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعنى آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شئ) يعنى من الميراث (حتى يهاجروا) يعنى الى المدينة (وان استنصروكم فى الدين) يعنى ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر) يعنى فعليكم نصرهم واعانتهم (الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق) أى عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) يعنى فى النصر والمعونة وذلك أن كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعنى فى الميراث وهو أن يرث الكفار بعضهم من بعض (الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) قال ابن عباس الا تأخذوا فى الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج الا تتعاونوا وتتناصروا وقال ابن اسحق جعل الله المهاجرين والانصار أهل ولاية فى الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى الا تفعلوه وهو ان يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة فى الارض وفساد كبير فالفتنة فى الارض هى قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) يعنى لا شك فى ايمانهم ولا ريب لانهم حققوا ايمانهم بالهجرة والجهاد و بذل النفس والمال فى نصر الدين (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى فى الجنة فان قلت ما معنى هذا التكرار قلت ليس فيه تكرار لانه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى حكم ولاية المهاجرين والانصار بعضهم بعضا ثم ذكر فى هذه الآية ما منّ به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل ان اعادة الشئ مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولا ثم أعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لانه تعالى ذكر فى هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة أنواع أحدها قوله أولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين فى طريق الدين وتحقيق هذا القول ان من فارق أهله وداره التى نشأ فيها و بذل النفس والمال كان مؤمنا حقا النوع الثانى قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على ان لهم مغفرة وأى مغفرة لا ينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم النوع الثالث قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شئ شرف وعظم فى بابه قيل له كريم والمعنى ان لهم فى الجنة رزقا لا يلحقهم فيه غضاضة ولا تعب وقيل ان المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولا الى المدينة وهم المهاجرون الاولون ومنهم من هاجر الى أرض الحبشة ثم هاجر الى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله فى الآية الاولى أصحاب الهجرة الاولى وذكر فى الثانية أصحاب الهجرة الثانية والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه تعالى (والذين آمنوا من بعد

لا يخرج من الايمان (وان استنصروكم) أى من أسلم ولم يهاجر (فى الدين فعليكم النصر) أى ان وقع بينهم و بين الكفار قتال وطلبوا معونة فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين (الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق) فانه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لانهم لا يبتدؤن بالقتال اذ الميثاق مانع من ذلك (والله بما تعملون بصير) تحذير عن تعدى حد الشرع (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) ظاهره اثبات الموالاة بينهم ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وايجاب مباعدتهم ومصارمتهم وان كانوا أقارب وان يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال (الا تفعلوه) أى الا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا حتى فى التوارث تفضيلا لنسبة الاسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة (تكن فتنة فى الارض وفساد كبير) تحصل فتنة فى الارض ومفسدة عظيمة لان المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) لانهم صدقوا ايمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لاجل الدين والعقبى (لهم مغفرة ورزق كريم) لا منة فيه ولا تنغيص ولا تكرار لان هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم والاولى للامر بالتواصل (والذين آمنوا من بعد)

(وهاجروا)

يريد اللاحقين بعد السابقين الى الهجرة (وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم) جعلهم منهم تفضيلا وترغيبا (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) وأولوا القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (في كتاب الله) في حكمه وقسمته أو في اللوح أو في القرآن وهو آية المواريث وهو دليل لنا على توريث ذوي الارحام (ان الله بكل شئ عليم) فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه قسم الناس أربعة أقسام قسم آمنوا وهاجروا وقسم آمنوا ونصروا وقسم آمنوا ولم يهاجروا وقسم كفروا ولم يؤمنوا

﴿سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية كوفي ومائة وثلاثون غيره﴾

لها أسماء براءة التوبة المقشقشة المبعثرة المشردة المخزية الفاضحة المثيرة الحافرة المنكلة المدمدمة لان فيها التوبة على المؤمنين وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال فعن علي وابن عباس رضي الله عنهم ان بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الامان وعن عثمان رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نزلت عليه سورة أو آية قال اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها وكانت قصتها تشبه قصة الانفال لان فيها ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابعة من الطوال وهي سبع وقيل اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم الانفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت بسم الله لقول من قال

وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلفوا في قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية وقيل من بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والاصح ان المراد به أهل الهجرة الثانية لانها بعد الهجرة الاولى لان الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لانها صارت دار اسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية أخرجاه في الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة ويجاب عن هذا بان المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة الى المدينة فاما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على اظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر الى بلد لا يخاف فيه على اظهار دينه وقوله تعالى (فاولئك منكم) يعني انهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على ان مرتبة المهاجرين الاولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لان الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الاولين أفضل وأشرف لما صح هذا الالحاق ﴿وقوله تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض أي في الميراث فبين بهذه الآية ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والاخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله في كتاب الله يعني في حكم الله وقيل أراد به في اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهي ان قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الامام أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الارحام وأجاب عنه الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه بانه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالاحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث واعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي فللعصبات ﴿وقوله سبحانه وتعالى (ان الله بكل شئ عليم) يعني انه سبحانه وتعالى عالم بكل شئ لا تخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة التوبة﴾

وهي مدنية باجماعهم قال ابن الجوزي سوى آيتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فانهما نزلتا بمكة وهي مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعمائة وثمانون حرفا ولهذه السورة أسماء عشرة سورة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهي المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لانها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وهي المبعثرة لانها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لانها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهي المخزية لان فيها خزي المنافقين وهي المدمدمة سميت بذلك لان فيها هلاك المنافقين وهي المشردة سميت بذلك لانها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة سميت بذلك لانها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هي الفاضحة مازالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد الا ذكر فيها قال قلت سورة الانفال قال نزلت في بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بني النضير أخرجاه في الصحيحين

﴿فصل في بيان سبب ترك كتابة التسمية في أول هذه السورة﴾ عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله

هماسورة واحدة (براءة) خبر مبتدأ محذوف أى هذه براءة (من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) من لابتداء الغاية متعلق
بمحذوف وليس بصلة كما فى قولك برئت من الدين أى هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم كما تقول

كتاب من فلان الى فلان أو مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر الى الذين عاهدتم كقولك رجل من بنى تميم فى الدار والمعنى ان الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وانه منبوذ اليهم (فسيحوا فى الارض أربعة أشهر) فسيروا فى الارض كيف شئتم والسيح السير على مهل روى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا الا ناسا منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد الى الناكثين وأمروا أن يسيحوا فى الارض أربعة أشهر آمنين أين شاؤا لا يتعرض لهم وهى الاشهر الحرم فى قوله فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين وذلك لصيانة الاشهر الحرم من القتل والقتال فيها وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن أسيد وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له لو بعثت بها
الى أبى بكر فقال لا يؤدّى عنى الا رجل منى فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحثهم على مناسكهم وقام
على يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس انى رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن

الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كثيرا ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شئ دعا بعض من كان
يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه
الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر
القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت انها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا انها
منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال
أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذى بينهما أن فى الانفال ذكر العهود
وفى براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد بن الحنفية قلت لابى يعنى على بن أبى طالب لم
لم تكتبوا فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بنى ان براءة نزلت بالسيف وان بسم الله الرحمن الرحيم أمان
وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لان التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت فى المنافقين وقال
المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لان التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة
وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبى بن كعب عن هذا فقال انها نزلت فى آخر القرآن
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر فى كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر فى براءة بذلك
فضمت الى الانفال لشبهها بها وقيل ان الصحابة اختلفوا فى أن سورة الانفال وسورة براءة هل هما سورة
واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لانهما نزلتا فى القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات
فكانت هى السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين
الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها
على قول من يقول هما سورة واحدة وأما التفسير فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) يعنى هذه براءة من الله
ورسوله وأصل البراءة فى اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أى انقطعت بيننا العصمة ولم
يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى واما تخافن من
قوم خيانة الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به ونبذ اليهم عهودهم قال الزجاج أى قد برئ الله
ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذ نكثوا (الى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع أصحاب
النبى صلى الله عليه وسلم وان كان النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى عاهدهم وعاقدهم الا أنه هو الذى عاقدهم
وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا وقوله سبحانه وتعالى (فسيحوا فى الارض) أى فسيروا
فى الارض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المشركين وأصل السياحة الضرب فى الارض
والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الانبارى قوله فسيحوا فيه مضمر أى قل لهم فسيحوا
وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وزوال الخوف يعنى
سيحوا فى الارض وأنتم آمنون من القتل والقتال (أربعة أشهر) يعنى مدة أربعة أشهر واختلف العلماء
فى هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله ورسوله اليهم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه الى

أربعة

أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه الى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله يقتل حيث أدرك ويؤسر الا أن يتوب ويرجع الى الايمان وقيل ان المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا الانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فامامن لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما قال الزهرى الاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لان هذه الآية نزلت فى شوال والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون وقال الكلبى انما كانت الاربعة أشهر عهدا لمن كان له عهد دون الاربعة أشهر فأتم له الاربعة أشهر فامامن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر باتمام عهده بقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسىء ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار الحديث وقال الحسن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لا يقاتل الا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لاحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الاجل لجميعهم أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الاجل وقال محمد بن سحق ومجاهد وغيرهما نزلت فى أهل مكة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

لاهم انى ناشد محمدا ❊ حلف أبينا وأبيه الاتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا ❊ ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا ❊ وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ❊ فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا ❊ ان سيم خطب وجهه تربدا
ان قريشا أخلفوك الموعدا ❊ ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا ان لست تنجى أحدا ❊ وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا ❊ وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نصرت ان لم أنصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يا رسول الله بأبى أنت وأمى أنزل فى شأنى شئ فقال لا ولكن لا ينبغى لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلى أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وانك معى على الحوض قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحاج وعلى بن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان

لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك يا على أبلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف والاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم أو عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من ربيع الآخر وكانت حرما لانهم أمنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها والجمهور على اباحة القتال فى الاشهر الحرم وان ذلك قد نسخ

قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فاقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج حتى اذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب رضي الله عنه فاذن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا بأي شئ بعثت في الحجة قال بعثت باربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه و بين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ومن لم يكن له عهد فاجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن أبي هريرة ان أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره ان يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فاذن معنا في أهل منى ببراءة أن لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية و يوم الحج الاكبر يوم النحر والحج الاكبر الحج وانما قيل الحج الاكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الاصغر قال فنبذ أبو بكر الى الناس في ذلك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر الى المشركين يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله الآية

❁(فصل)❁ قد يتوهم متوهم ان في بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الامارة وتفضيله على أبي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على ان أبا بكر لم يزل أميرا على الموسم في تلك السنة أول حديث أبي هريرة المتقدم ان أبا بكر بعثه في رهط يؤذنون في الناس الحديث وفي لفظ أبي داود والنسائي قال بعثني أبو بكر فيمن يؤذن في يوم النحر بمنى ان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثني أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الامير على الناس وهو الذي أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن في الناس ببراءة بان عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه الا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب الى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لانه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة ازاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذه الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل انما بعث عليا في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على امامة أبي بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لان النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر أميرا على الحاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الامام وعلي المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلي المستمع وكان أبو بكر المتولي أمر الموسم والامير على الناس ولم يكن ذلك لعلي فدل ذلك على تقديم أبي بكر على علي وفضله عليه والله أعلم ۞ وقوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزي الله) يعني ان هذا الامهال ليس العجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل معناه فسيحوا في الارض أربعة أشهر عالمين انكم لا تعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لانكم في ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه انما أمهلكم هذه المدة لانه لا يخاف الفوت ولا يعجزه شئ (وأن الله مخزي الكافرين) يعني بالقتل والعذاب في الآخرة ۞ قوله عز وجل (وأذان من الله ورسوله) الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة لانه اعلام بدخول وقتها والمعنى واعلام صادر من الله ورسوله واصل (الى الناس يوم الحج الاكبر) اختلفوا في يوم الحج الاكبر فروى عكرمة عن ابن عباس انه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن علي بن أبي طالب قال سألت رسول

(واعلموا أنكم غير معجزي الله) لا تفوتونه وان أمهلكم (وأن الله مخزي الكافرين) مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب (وأذان من الله ورسوله الى الناس) ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ثم الجملة معطوفة على مثلها والاذان بمعنى الايذان وهو الاعلام كما ان الامان والعطاء بمعنى الايمان والاعطاء والفرق بين الجملة الاولى والثانية أن الاولى اخبار بثبوت البراءة والثانية اخبار بوجود الاعلام بما ثبت وانما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الاذان بالناس لان البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الاذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الاكبر) يوم عرفة لان الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج أو يوم النحر لان فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر

(ان الله برىء من المشركين) أي بان الله حذفت صلة الاذان تخفيفا (ورسوله) عطف على المنوى فى برىء أو على الابتداء وحذف الخبر أي ورسوله برىء وقرئ بالنصب عطفا على اسم ان والجر على الجوار أو على القسم كقوله لعمرك وحكى ان اعرابيا سمع رجلا يقرؤها فقال ان كان الله بريئا من رسوله فانا منه برىء فلببه الرجل الى عمر فحكى الاعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية (فان تبتم) من الكفر والغدر (فهو) أي التوبة (خير لكم) من الاصرار على الكفر (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولي والاعراض عن الاسلام (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من قوله فسيحوا فى الارض والمعنى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا الا الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط العهد أي وفوا بالعهد ولم ينقضوه وقرئ لم ينقضوكم أي عهدكم وهو أليق لكن المشهورة أبلغ لانه فى مقابلة التمام (ولم يظاهروا عليكم أحدا) ولم يعاونوا عليكم عدوا (فأتموا اليهم عهدهم) فأدوه اليهم تاما كاملا (الى مدتهم) الى تمام مدتهم والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمر والى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفى كالغادر

الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر أخرجه الترمذي وقال وروى موقوفا عليه وهو أصح وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال أي يوم هذا فقالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر أخرجه أبو داود وروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي وروى ابن جريج عن مجاهد ان يوم الحج الاكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثوري يقول يوم الحج الاكبر أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحروب دامت فى تلك الايام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله بن الحرث بن نوفل يوم الحج الاكبر الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الاكبر القران لانه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهري والشعبي وعطاء الحج الاكبر الحج والحج الاصغر العمرة وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل سمي الحج الاكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر فى خطبته ان الزمان قد استدار وأبطل النسئ وجميع أحكام الجاهلية ۞ وقوله سبحانه وتعالى (أن الله برىء من المشركين ورسوله) فيه حذف والتقدير واذان من الله ورسوله بان الله برىء من المشركين وانما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفى رفع رسوله وجوه الاول انه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير ان الله برىء من المشركين ورسوله أيضا برىء الثاني تقديره برىء الله ورسوله من المشركين الثالث ان الله فى محل الرفع بالابتداء وبرىء خبره ورسوله عطف على المبتدا فان قلت لا فرق بين قوله براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين وبين قوله ان الله برىء من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الاولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التى هى نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذي يدل على صحة هذا الفرق انه قال فى أولها براءة من الله ورسوله الى يعني برىء اليهم وفى الثانية برىء منهم ۞ وقوله تعالى (فان تبتم) يعني فان رجعتم عن شرككم وكفركم (فهو خير لكم) يعني من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله فى التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) يعني أعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) فيه وعيد عظيم واعلام لهم بان الله سبحانه وتعالى قادر على انزال العذاب بهم وهو قوله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يعني فى الآخرة ولفظ البشارة هنا انما ورد على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب واكرامهم الشتم ۞ قوله سبحانه وتعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) هذا الاستثناء راجع الى قوله تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين يعني الا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) يعني من عهودهم التى عاهدتموهم عليها (ولم يظاهروا) يعني ولم يعاونوا (عليكم أحدا) يعني من عدوكم وقال صاحب الكشاف وجهه أن يكون مستثنى من قوله فسيحوا فى الارض لان الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا فى الارض الا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل لهم بعد ان أمروا فى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا

(ان الله يحب المتقين) يعني ان قضية التقوى ان لا يسوى بين الفريقين فاتقوا الله في ذلك (فاذا انسلخ) مضى أو خرج (الاشهر الحرم) التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا (فاقتلوا المشركين) الذين نقضوكم وظاهروا عليكم (حيث وجدتموهم) من حل أو حرم (وخذوهم) وأسروهم والاخذ الاسر (واحصروهم) وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد (واقعدوا لهم كل مرصد) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم) فاطلقوا عنهم بعد الاسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم (ان الله غفور) يستر الكفر والغدر بالاسلام (رحيم) برفع القتل قبل الاداء بالالتزام (وان أحد من المشركين استجارك فاجره) أحد مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أي وان استجارك أحد استجارك والمعنى وان جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الاشهر لا عهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ما تدعو اليه من التوحيد والقرآن فامنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة الامر (ثم أبلغه) بعد ذلك (مامنه) داره التي يامن فيها ان لم يسلم ثم قاتله ان شئت وفيه دليل على ان المستأمن لا يؤذى وليس له الاقامة في دارنا ويمكن من العود (ذلك) أي الامر بالاجارة في قوله فاجره (بانهم قوم لا يعلمون) بسبب انهم قوم جهلة لا يعلمون ما الاسلام وما حقيقة ما تدعو اليه فلا بد من اعطائهم الامان حتى يسمعوا ويفهموا الحق (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) كيف استفهام في معنى الاستنكار فضرب أي مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم ثم استدرك ذلك بقوله (الا الذين عاهدتم) أي ولكن الذين عاهدتم منهم (عند المسجد الحرام) ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم (فما استقاموا لكم) ولم يظهر منهم نكث أي فما أقاموا على وفاء العهد (فاستقيموا لهم) على الوفاء وما شرطية أي فان استقاموا لكم فاستقيموا لهم

تجعلوا الوفي كالغادر (ان الله يحب المتقين) يعني ان قضية التقوى تقتضي ان لا يسوى بين القبيلتين يعني الوافي بالعهد والناكث له والغادر فيه ﴿قوله سبحانه وتعالى (فاذا انسلخ الاشهر الحرم) يعني فاذا انقضت الاشهر الحرم ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن اسحق هي شهور العهد سميت حرما لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فاجله الى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوما وقيل انما قيل لها حرم لان الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم فان قلت على هذا القول هذه المدة وهي الخمسون يوما بعض الاشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فاذا انسلخ الاشهر الحرم قلت لما كان هذا القدر من الاشهر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فاذا امضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الاشهر الحرم (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يعني في الحل والحرم وهذا أمر اطلاق يعني اقتلوهم في أي وقت وأي مكان وجدتموهم (وخذوهم) يعني وأسروهم (واحصروهم) أي واحبسوهم قال ابن عباس يريد ان تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الاسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) يعني على كل طريق والمرصد الموضع الذي يقعد فيه للعدو من رصدت الشئ أرصده اذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تاخذوهم من أي وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها (فان تابوا) يعني من الشرك ورجعوا الى الايمان (وأقاموا الصلوة) يعني وأتموا أركان الصلاة المفروضة (وآتوا الزكوة) الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم (فخلوا سبيلهم) يعني الى الدخول الى مكة والتصرف في بلادهم (ان الله غفور) يعني لمن تاب ورجع من الشرك الى الايمان ومن المعصية الى الطاعة (رحيم) يعني باوليائه وأهل طاعته وقال الحسين بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على أذى الاعداء ﴿قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) يعني وان استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك وهو القرآن فاجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب ان آمن وما عليه من العقاب ان أصر على الكفر (ثم أبلغه مامنه) يعني ان لم يسلم أبلغه الى الموضع الذي يامن فيه وهو دار قومه وان قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله (ذلك بانهم قوم لا يعلمون) أي لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم يحتاجون الى سماع كلام الله عز وجل قال الحسن هذه الآية محكمة الى يوم القيامة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد أي لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى (الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدي ومحمد بن عباد ومحمد بن اسحق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بني بكر كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة (فما استقاموا لكم) يعني على العهد (فاستقيموا لهم) يعني ما أقاموا على العهد ثم انهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة

فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم اما ان يسلموا واما ان يلحقوا بأي بلاد شاؤا فأسلموا بعد الاربعة الاشهر والصواب من ذلك قول من قال انهم قبائل من بني بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد الا قريش و بنو الديل من بني بكر فأمر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وانما كان الصواب هذا القول لان هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لان بعد الفتح كيف يقول لشئ قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وانما هم الذين قال الله عز وجل فيهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ كما نقضكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ۞ وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) يعني أنه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد اذا عاهدوا ويتقون نقضه (كيف وان يظهروا عليكم) قيل هذا مردود على الآية الاولى تقديره كيف يكون لهم عهد وان يظهروا عليكم (لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة) وقال الاخفش معناه كيف لا تقتلونهم وهم ان يظهروا عليكم أي يظفروا بكم و يغلبوكم و يعلوا عليكم لا يرقبوا أي لا يحفظوا وقيل معناه لا ينتظروا وقيل معناه لا يراعوا فيكم الا قال ابن عباس يعني قرابة وقيل رحما وهذا معنى قول ابن عباس أيضا وقال قتادة الال الحلف وقال السدي هو العهد وكذلك الذمة وانما كرر للتأكيد أو لاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الال هو الله عز وجل ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب ان هذا الكلام لم يخرج من ال يعني من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه ولا يراعونه ولا ذمة يعني ولا يحفظون عهدا (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) يعني يطيعونكم بألسنتهم بخلاف ما في قلوبهم (وأكثرهم فاسقون) فان قلت ان الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم وما الفائدة في قوله وأكثرهم فاسقون مع ان الكفار كلهم فاسقون قلت قد يكون الكافر عدلا في دينه وقد يكون فاسقا خبيث الفسق في دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد و بالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ في الذم وانما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لان منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون ۞ وقوله تعالى (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعني استبدلوا بآيات القرآن والايمان بها عرضا قليلا من متاع الدنيا وذلك انهم نقضوا العهد الذي كان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أكلة أطعمهم اياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك قال مجاهد أطعم أبو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (فصدوا عن سبيله) يعني منعوا الناس عن الدخول في دين الله قال ابن عباس وذلك ان أهل الطائف أمدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (انهم ساء ما كانوا يعملون) يعني من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) يعني ان هؤلاء المشركين لا يراعون في مؤمن عهدا ولا ذمة اذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم اذا ظهروا عليكم (وأولئك هم المعتدون) يعني في نقض العهد ۞ قوله عز وجل (فان تابوا) يعني فان رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (وأقاموا الصلوة) يعني المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها وآتوا الزكاة يعني و بذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم (فاخوانكم في الدين) يعني اذا فعلوا ذلك فهم اخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) يعني ونبين حجج أدلتنا

(ان الله يحب المتقين) يعني ان التربص بهم من أعمال المتقين (كيف وان يظهروا عليكم) تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أي كيف يكون لهم عهد وحالهم انهم ان يظهروا عليكم أي يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق (لا يرقبوا فيكم الا) لا يراعوا حلفا ولا قرابة (ولا ذمة) عهدا (يرضونكم بأفواههم) بالوعد بالايمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن ومقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) الايمان والوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهد أو متمردون في الكفر لا مروءة تمنعهم عن الكذب ولا شمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما (اشتروا) استبدلوا (بآيات الله) بالقرآن (ثمنا قليلا) عرضا يسيرا وهو اتباع الاهواء والشهوات (فصدوا عن سبيله) فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم (انهم ساء ما كانوا يعملون) أي بئس الصنيع صنيعهم (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) ولا تكرار لان الاول على الخصوص حيث قال فيكم والثاني على العموم لانه قال في مؤمن (وأولئك هم المعتدون) المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم) فهم اخوانكم على حذف المبتدا (في الدين) لا في النسب (ونفصل الآيات) ونبينها (لقوم يعلمون) يفهمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض كأنه قيل وان من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريضا على تأمل ما فصل

من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها (وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم) أى نقضوا العهود المؤكدة بالايمان (وطعنوا فى دينكم) وعابوه (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم وهم رؤساء الشرك أو زعماء قريش الذين هموا باخراج الرسول وقالوا اذا طعن الذمى فى دين الاسلام طعنا ظاهرا جاز قتله لان العهد معقود معه على أن لا يطعن فاذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة أئمة بهمزتين كوفى وشامى الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة أصلها أأممة

ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه قال ابن عباس حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة الا بالزكاة وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعنى بذلك ما ذكره أبو بكر فى حق من منع الزكاة وهو قوله والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة (ق) عن أبى هريرة قال لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبى بكر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها وفى رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ما هو الا أن رأيت ان الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت انه الحق عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وان نكثوا أيمانهم) يعنى وان نقضوا عهودهم (من بعد عهدهم) يعنى من بعد ما عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا فى دينكم) يعنى وعابوا دينكم الذى أنتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه وفى هذا دليل على ان الذمى اذا طعن فى دين الاسلام وعابه ظاهرا لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى (فقاتلوا أئمة الكفر) يعنى رؤس المشركين وقادتهم قال ابن عباس نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبى جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا باخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وانما ذكر الأئمة لانهم الرؤساء والقادة ففى قتالهم قتال الاتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ما قوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فانهم أئمة الكفر فى ذلك الزمان والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه وتعالى (انهم لا أيمان لهم) جمع يمين أى لا عهد لهم وقيل معناه انهم لا وفاء لهم بالعهود وقرئ لا ايمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الامان أى اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم (لعلهم ينتهون) أى لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم ويرجعوا عن الكفر الى الايمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب فى ذلك فقال تعالى (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) يعنى نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بنى بكر على خزاعة (وهموا باخراج الرسول) يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة (وهم بدؤكم) يعنى بالقتال (أول مرة) يعنى يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وقيل أراد به انهم بدؤا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يعنى أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم (فالله أحق أن تخشوه) يعنى فى ترك القتال (ان كنتم مؤمنين) يعنى ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده

لانها جمع امام كعماد وأعمدة فنقلت حركة الميم الاولى الى الهمزة الساكنة وأدغمت فى الميم الاخرى فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الاصل ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها (انهم لا أيمان لهم) وانما أثبت لهم الايمان فى قوله وان نكثوا أيمانهم لانه أراد أيمانهم التى أظهروها ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يمينا ومعناه عند الشافعى رحمه الله انهم لا يوفون بها لان يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث لا ايمان شامى أى لا اسلام (لعلهم ينتهون) متعلق بفقاتلوا أئمة الكفر وما بينهما اعتراض أى ليكن غرضكم فى مقاتلتهم انتهاءهم عما هم عليه بعد ما وجد منهم من العظائم وهذا من غاية كرمه على المسىء ثم حرض على القتال فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) التى حلفوها فى المعاهدة (وهموا باخراج الرسول) من مكة (وهم بدؤكم أول مرة) بالقتال والبادى أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب (أتخشونهم) توبيخ على الخشية منهم (فالله أحق أن تخشوه) بان تخشوه فقاتلوا أعداءه (ان كنتم مؤمنين) فاخشوه أى ان قضية الايمان الكامل أن لا يخشى المؤمن الا ربه ولا يبالى بمن سواه ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الامر به بقوله

قوله

(قاتلوهم) ووعدهم النصر لينبت قلوبهم وتصحح نياتهم بقوله (يعذبهم الله بايديكم) قتلا (ويخزهم) أسرا (وينصركم عليهم) يغلبكم عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) طائفة منهم وهم خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويذهب غيظ قلوبهم) لما لقوا منهم من المكروه وقد حصل الله هذه المواعيد كلها فكان دليلا على صحة نبوته (ويتوب الله على من يشاء) ابتداء كلام واخبار بان بعض أهل مكة يتوب عن كفره وكان ذلك أيضا فقد أسلم ناس منهم كأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وهى ترد على المعتزلة قولهم ان الله تعالى شاء ان يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باختيارهم (والله عليم) يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان (حكيم) فى قبول التوبة (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أم منقطعة والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان أى لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله لوجه الله (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولما معناها التوقع وقد دلت على ان تبين ذلك متوقع كائن وان الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين ولم يتخذوا معطوف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كقولك ما علم الله منى ما قيل فى تريد ما وجد ذلك منى والمعنى أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين (والله خبير بما تعملون) من خير أو شر فيجازيكم عليه (ما كان للمشركين) ما صح لهم وما استقام (أن يعمروا مساجد الله) مسجد الله مكى وبصرى يعنى المسجد الحرام وانما جمع فى القراءة بالجمع لانه قبلة المساجد وامامها

۞ قوله سبحانه وتعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم) يريد بالتعذيب القتل يعنى يقتلهم الله بايديكم فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بايديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قلت المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعنى وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وأنت فيهم والمراد بقوله قاتلوهم يعنى الذين نقضوا العهد وبدؤا بالقتال فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم والفرق بين العذابين ان عذاب الاستئصال يتعدى الى المذنب وغير المذنب والى المخالف والموافق وعذاب القتل لا يتعدى الا الى المذنب المخالف ۞ وقوله تعالى (ويخزهم) يعنى ويذلهم بالقهر والاسر وينزل بهم الذل والهوان (وينصركم عليهم) يعنى بان يظفركم بهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى ويبرئ داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الاذى منهم ومن المعلوم ان من طال تاذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدى أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بنى بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بنى بكر حتى أخذوا ثارهم منهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ويذهب غيظ قلوبهم) يعنى ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بكر روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف الا خزاعة من بنى بكر الى العصر ذكره البغوى بغير سند ۞ ثم قال تعالى (ويتوب الله على من يشاء) هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالاول والمعنى ويهدى الله من يشاء الى الاسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه الى الاسلام كما فعل بابى سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا (والله عليم) يعنى بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الازلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه الى الاسلام (حكيم) يعنى فى جميع أفعاله ۞ قوله عز وجل (أم حسبتم أن تتركوا) هذا من الاستفهام المعترض فى وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدا والمعنى أظننتم أيها المؤمنون ان تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أراد بالعلم المعلوم لان وجود الشئ يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الامام فخر الدين الرازى ونقل الواحدى عن الزجاج أى العلم الذى يجازى عليه لانه انما يجازى على ما عملوا (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين تتخذونهم يفشون اليهم أسرارهم وقال قتادة وليجة يعنى خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء يعنى لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال أبو عبيدة كل شئ أدخلته فى شئ ليس منه فهو وليجة والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة فى القوم اذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهى المؤمنين عن موالاة المشركين وان يفشوا اليهم أسرارهم (والله خبير بما تعملون) يعنى من موالاة المشركين واخلاص العمل لله وحده ۞ قوله سبحانه وتعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) يعنى به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضا وانما ذكره بلفظ الجمع لانه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا

يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الاسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين أي ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك لان المساجد انما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين أحدهما أن المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني أن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمنع الكافر من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها ۞ وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يعني لا يدخلون المساجد في حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك أن كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام فلم يزدادوا بذلك من الله الا بعدا وقال الحسن انهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس في رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من أنفسهم (أولئك حبطت أعمالهم) يعني الاعمال التي عملوها في حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني لانها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر (وفي النار هم خالدون) يعني من مات منهم على كفره ۞ قوله عز وجل (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) لما بين الله عز وجل أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين في هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الايمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لان المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع أن يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعني وآمن باليوم الآخر وأنه حق كائن لان عمارة المسجد لاجل عبادة الله وجزاء أجره انما يكون في الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا فان قلت لم يذكر الايمان برسول الله مع أن الايمان به شرط في صحة الايمان قلت ان الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل في الايمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لان من جهته عرف الايمان بالله واليوم الآخر لانه هو الداعي الى ذلك وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فاخبر الله عز وجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما دعا الى الايمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انه تبارك وتعالى قال بعد الايمان بالله واليوم الآخر (وأقام الصلاة وآتى الزكوة) وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم أن الاعتبار باقامة الصلاة وايتاء الزكاة في عمارة المساجد ان الانسان اذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لان عمارة المسجد انما تلزم لاقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد الا اذا كان مؤديا للزكاة لان الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الانسان بالنافلة الا بعد اكمال الفريضة الواجبة عليه ۞ وقوله تعالى

فعامره كعامر جميع المساجد ولان كل بقعة منه مسجد أو أريد جنس المساجد واذا لم يصلحوا لان يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس وهو آكد اذ طريقه طريق الكناية كما تقول فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك (شاهدين على أنفسهم بالكفر) باعترافهم بعبادة الاصنام وهو حال من الواو في يعمروا والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته (أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) دائمون (انما يعمر مساجد الله) عمارتها رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا لانها بنيت للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم (من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الايمان بالرسول عليه السلام لما علم أن الايمان بالله قرينته الايمان بالرسول لاقترانهما في الاذان والاقامة وكلمة الشهادة وغيرها أو دل عليه بقوله (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) وفي قوله

(ولم يخش الا الله) يعنى ولم يخف فى الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب يعنى وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التى تؤدى الى الجنة عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان فان الله عز وجل يقول انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية أخرجه الترمذى وقال حديث حسن (ق) عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا فى الجنة وفى رواية بنى الله له فى الجنة مثله وعن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان أو كبيرا بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه الترمذى عن عمرو بن عنبسة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا ليذكر الله فيه بنى الله له بيتا فى الجنة أخرجه النسائى ۞ قوله سبحانه وتعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام الا أن أعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الى آخرها وقيل قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر ان عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله وان الايمان والجهاد مع نبيه خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبى ومحمد بن كعب القرظى نزلت فى على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبى شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدى مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال على ما أدرى ما تقولون لقد صليت الى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية أجعلتم سقاية الحاج والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهى سقى الحاج وكان العباس بن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأسلم العباس أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعنى بناءه وتشييده ومرمته (كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه حذف تقديره كايمان من آمن بالله واليوم الآخر (وجاهد فى سبيل الله) أى وكجهاد من جاهد فى سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقى والعامر تقديره أجعلتم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله (لا يستوون عند الله) يعنى لا يستوى حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لان الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملا الا مع الايمان به (والله لا يهدى القوم الظالمين) (خ) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس يا فضل اذهب الى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقنى فقال يا رسول الله انهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقنى فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعنى عاتقه (م) عن بكر بن عبد الله المزنى قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابى فقال مالى

(ولم يخش الا الله) تنبيه على الاخلاص والمراد الخشية فى أبواب الدين بان لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف اذ المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتمالك ان لا يخشاها وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فاريد نفى تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لاطماعهم فى الانتفاع باعمالهم لان عسى كلمة اطماع والمعنى انما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها عند الله دون من سواهم (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولابد من مضاف محذوف تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وقيل المصدر بمعنى الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى انكار ان يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة باعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر لانهم وضعوا المدح والفخر فى غير موضعهما نزلت جوابا لقول العباس حين أسر وطفق على رضى الله عنه يوبخه بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم نذكر مساوينا وتدع محاسننا فقيل أولكم محاسن فقال نعمر المسجد ونسقى الحاج ونفك العانى وقيل افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلى رضى الله عنه بالاسلام والجهاد فصدق الله تعالى عليا

أرى بنى عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل انما قدم النبى صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه باناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ تمر ينقع فى الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فان غلى وحمض حرم ﴿قوله عز وجل (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) يعنى ان من كان موصوفا بهذه الصفات يعنى الايمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وانما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الاطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله فى الآخرة (وأولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم الفائزون) يعنى بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم ربهم) يعنى يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذى يفرح الانسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ﴿ثم ذكر الخبر الذى يبشرهم به فقال تعالى (برحمة منه ورضوان) وهذا أعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده (وجنات لهم فيها نعيم مقيم) يعنى أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبدا (خالدين فيها) يعنى فى الجنان وفى النعيم (أبدا) يعنى لا انقطاع له (ان الله عنده أجر عظيم) يعنى لمن عمل بطاعته وجاهد فى سبيله ﴿ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت فى قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة الى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا عن الاسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء يعنى بطانة وأصدقاء تفشون اليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لان هذه السورة نزلت بعد الفتح وهى من آخر القرآن نزولا والاقرب أن يقال ان الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبرى من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه فى الدين واجبة فالمؤمن لا يوالى الكافر وان كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى (ان استحبوا الكفر على الايمان) يعنى ان اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الايمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) يعنى ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا ان نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فانزل الله سبحانه وتعالى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الادنون من أهل الانسان الذين يعاشرونه دون غيرهم (وأموال اقترفتموها) يعنى اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) يعنى بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) يعنى تستوطنونها راضين بسكناها (أحب اليكم من الله ورسوله) يعنى أحب اليكم من الهجرة الى الله ورسوله (وجهاد فى سبيله) فبين الله سبحانه وتعالى انه يجب تحمل جميع المضار فى الدنيا ليبقى الدين سليما وأخبر انه ان كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيل الله (فتربصوا) أى فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) يعنى بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعنى بفتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) يعنى الخارجين عن طاعته

والعمارة (وأولئك هم الفائزون) لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم (يبشرهم ربهم) يبشرهم حمزة (برحمة منه ورضوان وجنات) تنكير المبشر لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف (لهم فيها) فى الجنات (نعيم مقيم) دائم (خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم) لا ينقطع لما أمر الله النبى عليه السلام بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولاخيه ولاقرابته انا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع الى ذلك ويعجبه ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده فيقول تدعنا بلا شئ فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان) أى آثروه واختاروه (ومن يتولهم منكم) أى ومن يتول الكافرين (فأولئك هم الظالمون قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أقاربكم وعشيراتكم أبو بكر (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) فوات وقت نفاقها (ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) وهو عذاب عاجل أو عقاب آجل أو فتح مكة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) وفى الآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين اذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب له

وفى هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا ﴿قوله عز وجل (لقد نصركم الله) النصر المعونة على الاعداء باظهار المسلمين عليهم (فى مواطن كثيرة) يعنى أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماذكر فى الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة فى حديثه قاتل فى ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة (ويوم حنين) يعنى ونصركم الله فى يوم حنين أيضا فاعلم الله سبحانه وتعالى انه هو الذى يتولى نصر المؤمنين فى كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة هو الى جنب ذى المجاز وكانت قصة حنين على مانقله الرواة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج الى حنين لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبى كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الانصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وفى رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم الى أنفسهم وذكر ابن الجوزى عن سعيد بن المسيب ان القائل لذلك أبو بكر الصديق وحكى ابن جرير الطبرى ان القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد هذه الكلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لانه صلى الله عليه وسلم كان فى جميع أحواله متوكلا على الله عز وجل لا يلتفت الى كثرة عدد ولا الى غيره بل نظره الى ما يأتى من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا ان الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق) عن أبى اسحق قال جاء رجل الى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبى الله صلى الله عليه وسلم ما ولى ولكنه انطلق اخفاء من الناس حسر الى هذا الحى من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فاقبل القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحرث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب اللهم أنزل نصرك زاد أبو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله اذا احمر البأس نتقى به وان الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ولمسلم عن أبى اسحق قال قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسرا ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطؤن فأقبلوا هناك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم صفهم وروى شعبة عن أبى اسحق قال قال البراء ان هوازن كانوا قوما رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فاقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فاما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قوله ولكنه انطلق اخفاء من الناس الاخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم ما يعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذى لا درع عليه يقال اذا رمى القوم بأسرهم الى جهة واحدة رمينا رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا اذا احمر البأس يعنى اذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبى كان حول رسول الله صلى الله عليه

دينه على الآباء والابناء والاموال والحظوظ (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وقيل ان المواطن التى نصر الله فيها النبى عليه السلام والمؤمنين ثمانون موطنا ومواطن الحرب مقاماتها ومواقفها (ويوم) أى واذكروا يوم (حنين) واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله عليه الصلاة والسلام

وسلم ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وأيمن بن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أيمن أخو اسامة بن زيد لامه أمهما بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته (م) عن العباس بن عبد المطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وابو سفيان ابن الحرث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجزامى فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ارادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت باعلى صوتى أين أصحاب السمرة قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك قال فاقتتلوا والكفار والدعوة فى الانصار يقولون يامعشر الانصار يامعشر الانصار قال ثم قصرت الدعوة على بنى الحرث بن الخزرج فقالوا يابنى الحرث بن الخزرج يابنى الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمطاول عليها الى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمى الوطيس قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته فيما أرى قال فوالله ماهو الا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا قوله حمى الوطيس أى اشتد الحرب قال الخطابى هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبى صلى الله عليه وسلم من العرب وهى مما اقتضبه وأنشأه والوطيس فى اللغة التنور وقوله حدهم كليلا يعنى لا يقطع شيأ (م) عن سلمة ابن الاكوع قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الارض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم انسانا الا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير أمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وروى ان رجلا من بنى نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم الا كهيئة الشامة وما كان قتلنا الا بأيديهم فاخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا الى صاحب البغلة البيضاء فاذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت اياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنها لم تقاتل الا يوم بدر وانما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوى أن الزهرى قال بلغنى أن شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن أبى طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على مافى نفسى فالتفت الى وضرب فى صدرى وقال أعيذك بالله ياشيبة فارعدت فرائصى فنظرت اليه وهو أحب الى من سمعى وبصرى فقلت أشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطلعك الله على مافى نفسى فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الاشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار الى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصرى فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ

وقتل أبو عامر أمير المسلمين قال الزهري أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناسا منهم أبو سفيان ابن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والاقرع بن حابس فأعطاهم (ق) عن أنس بن مالك ان ناسا من الانصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال انس فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم فارسل الى الانصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الانصار أما ذو ورأينا يا رسول الله لم يقولوا شيأ وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا و يتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون ان تذهب الناس بالاموال وترجعوا الى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد في رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الانصار شيأ فكأنهم وجدوا اذلم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فالفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال فما منعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيأ قالوا الله ورسوله أمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبي الى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الانصار وشعبهم الانصار شعار والناس دثار (م) عن رافع بن خديج قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن والاقرع ابن حابس كل انسان مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس ابن مرداس

أتجعل نهبي ونهب العبيـ * ـد بين عيينة والاقرع
فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فاتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم ما لهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان معي من ترون وأحب الحديث الى أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين اما المال واما السبي وقد كنت استأنيت بكم وفي رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد عليهم الا احدى الطائفتين قالوا انا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فاثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤا تائبين واني قد رأيت ان أرد اليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله فقال لهم في ذلك انا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذي بلغنا من سبي هوازن وأنزل الله عز وجل في قصة حنين لقد نصركم الله في

(اذ) بدل من يوم (أعجبتكم كثرتكم) فادرك المسلمين كلمة الاعجاب بالكثرة وزل عنهم ان الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه ليس معه الا عمه العباس آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه آخذ بركابه فقال للعباس صح بالناس وكان صيتا فنادى يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون لبيك

مواطن كثيرة ويوم حنين (اذ أعجبتكم كثرتكم) يعني حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) يعني كثرتكم (شيأ) يعني ان الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن انما يكون بنصر الله ومعونته (وضاقت عليكم الارض بما رحبت) يعني بسعتها وفضائها (ثم وليتم مدبرين) يعني منهزمين (ثم أنزل الله سكينته) يعني بعد الهزيمة والسكينة الطمأنينة والامنة وهي فعيلة من السكون وذلك أن الانسان اذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركا واذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الامن موجبا للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الامن ﴿وقوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) انما كان انزال السكينة على المؤمنين لان الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب في هذه الواقعة ثم منّ الله عليهم بانزال السكينة عليهم حتى رجعوا الى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر (وأنزل جنودا لم تروها) يعني الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لان الملائكة لم تقاتل الا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) يعني بالاسر والقتل وسبي العيال والاموال (وذلك جزاء الكافرين) يعني في الدنيا ثم اذا أفضوا الى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) يعني فيهديه الى الاسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمنّ عليهم وأطلق سبيهم (والله غفور) لمن تاب (رحيم) بعباده ﴿قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) قيل أراد بالمشركين عبدة الاصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الاصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشئ القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشئ الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجسا على الذم لان الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم وقيل هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الاول أصح وقال قتادة سماهم نجسا لانهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤن (فلا يقربوا المسجد الحرام) المراد منعهم من دخول الحرم لانهم اذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام أراد به الحرم لانه أسرى به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ قال العلماء وجملة بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام ✽ أحدها الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذميا كان أو مستأمنا لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والامام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه بنفسه أو يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم ✽ القسم الثاني من بلاد الاسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي وقيل كلها حجازي وقال ابن الكلبي حد الحجاز ما بين جبل طيئ وطريق العراق سمي حجازا لانه حجز بين تهامة ونجد وقيل لانه حجز بين نجد والسراة وقيل لانه حجز بين نجد وتهامة والشام قال الحربي وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالاذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك

لبيك ونزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بلق فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من تراب فرماهم به ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وكان من دعائه عليه السلام يومئذ اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر (فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت) ما مصدرية والباء بمعنى مع أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أي ملتبسا بها والمعنى لم تجدوا موضعا لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم (ثم وليتم مدبرين) ثم انهزمتم (ثم أنزل الله سكينته) رحمته التي سكنوا بها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) يعني الملائكة وكانوا ثمانية آلاف أو خمسة آلاف أو ستة عشر ألفا (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر وسبي النساء والذراري (وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وهم الذين أسلموا منهم (والله غفور) يستر كفر العدو بالاسلام (رحيم) بنصر الولي بعد الانهزام (يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) أي ذو نجس وهو مصدر يقال نجس نجسا وقذر قذرا لان معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ولانهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها (فلا يقربوا المسجد الحرام) فلا

فيها الاسلام زاد في رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب أخرجه مالك في الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادي الى أقصى اليمن الى تخوم العراق الى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام عرضا * والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم ﴿وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) يعني العام الذي حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى علي ببراءة وان لا يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة (وان خفتم عيلة) يعني فقرا وفاقة وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون الى مكة الطعام و يتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وان خفتم عيلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال عكرمة فأغناهم الله بان أنزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها (ان شاء) قيل انما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الانسان دائم التضرع والابتهال الى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وان يقطع العبد أمله من كل أحد الا من الله عز وجل فانه هو القادر على كل شيء وقيل ان المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الادب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (ان الله عليم) يعني بما يصلحكم (حكيم) يعني أنه تعالى لا يفعل شيأ الا عن حكمة وصواب فمن حكمته ان منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) قال مجاهد نزلت الآية حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فان قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قلت ايمانهم بالله ليس كايمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس يؤمن بالله وقيل من اعتقد أن عزيرا ابن الله وان المسيح ابن الله فليس يؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس يؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء فليسوا بمؤمنين بالله وأما ايمانهم باليوم الآخر فليس كايمان المؤمنين وذلك انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم أنه مؤمن ﴿وقوله تعالى (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة وقيل معناه لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهما (ولا يدينون دين الحق) يعني ولا يعتقدون صحة الاسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الاسلام وهو قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم (من الذين أوتوا

يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية (بعد عامهم هذا) وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم ويكون المراد من نهي القرب بان النهي عن الحج والعمرة وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا وعند الشافعي رحمه الله يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره وقيل نهي المشركين أن يقربوه راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم منه (وان خفتم عيلة) أي فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب (فسوف يغنيكم الله من فضله) من الغنائم أو المطر والنبات أو من متاجر حجيج الاسلام (ان شاء) هو تعليم لتعليق الامور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال اليه (ان الله عليم) بأحوالكم (حكيم) في تحقيق آمالكم أو عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم وأراد ونزل في أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) لان اليهود مثنية والنصارى مثلثة (ولا باليوم الآخر) لانهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون أن لا أكل في الجنة ولا شرب (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) لانهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة أو لا يعملون بما في التوراة والانجيل (ولا يدينون دين الحق) ولا يعتقدون دين الاسلام الذي

الكتاب) يعني أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهي ما يعطى المعاهَد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم (عن يد) يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع اقرارهم بانعام المسلمين عليهم بقبولها منهم (وهم صاغرون) من الصغار وهو الذل والاهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي اذا أعطى يصفع قفاه وقيل هو ان يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أد حق الله ياعدو الله وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم

﴿فصل في بيان أحكام الآية﴾ اجتمعت الامة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اذا لم يكونوا عربا واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعي الى ان الجزية على الاديان لا على الانساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من عبدة الاوثان بحال واحتج بما روى عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فأخذه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي وهو رجل من العرب يقال انه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والاوزاعي الى ان الجزية تؤخذ من جميع الكفار الا المرتد وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمي كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الاخذ منهم ويدل عليه ما روى عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه مالك في الموطأ عن ابن شهاب قال بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين وان عمر أخذها من مجوس فارس وان عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطأ وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها منهم دليل على ان رأي الصحابة كان على انها لا تؤخذ من كل مشرك وانما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فان كانوا دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فانهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وان كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فانهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا في أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر بالجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم في أهل الكتاب كأهل البدع في المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط ويدل عليه ما روى عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه

هو الحق يقال فلان يدين بكذا اذا اتخذه دينه ومعتقده (من الذين أوتوا الكتاب) بيان للذين قبله وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب في قبول الجزية وكذا الترك والهنود وغيرهما بخلاف مشركي العرب لما روى الزهري أن النبي عليه السلام صالح عبدة الاوثان على الجزية الا من كان من العرب (حتى يعطوا الجزية) الى أن يقبلوها وسميت جزية لانه يجب على أهلها أن يجزوه أي يقضوه أو هي جزاء على الكفر على التحميل في تذليل (عن يد) أي عن يد مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا أعطى بيده اذا انقاد وقالوا نزع يده عن الطاعة أو حتى يعطوها عن يد الى يد نقدا غير نسيئة لا مبعوثا على يد أحد ولكن عن يد المعطي الى يد الآخذ (وهم صاغرون) أي تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس وان يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية ياذمي وان كان يؤديها ويزخ في قفاه وتسقط بالاسلام

وسلم لما وجهه الى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أى محتلم دينارا أو عدله من المعافرية ثياب تكون باليمن أخرجه أبو داود فالنبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وانما تؤخذ من الاحرار البالغين وذهب قوم الى أن على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير دينارا وهو قول أصحاب الرأى ويدل عليه ماروى عن أسلم ان عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهما ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك فى الموطأ قال أصحاب الشافعى أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار الا بالتراضى فاذا رضى أهل الذمة بالزيادة ضربناها على المتوسط دينارين وعلى الغنى أربعة دنانير قال العلماء انما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل وأيضا فان بأيديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فامهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب اقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وامهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا اليه بان يؤمنوا و يصدقوا اذا رأوا محاسن الاسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه ﴿قوله عز وجل (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه فى هذه الآية فاخبر عنهم انهم أثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لانه لا فرق بين من يعبد صنما و بين من يعبد المسيح فقد بان بهذا انهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وابقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التى بايديهم ولعلهم يتفكرون فيها و يعرفون الحق فيرجعون اليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله فانزل الله هذه الآية وقال عبيد بن عمير انما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وانما نسب ذلك الى اليهود فى وقالت اليهود جريا على عادة العرب فى ايقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وانما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا واحدا منهم وروى عطية العوفى عن ابن عباس أنه قال انما قالت اليهود ذلك من أجل ان عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فاضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل اليه أن يرد اليه التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه فاذن فى قومه وقال ياقوم قد آتانى الله التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على مافى التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا أنه ابن الله وقال الكلبى ان بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير اذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة سنة قال فاتى ملك باناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة فى صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فامل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى عن جدى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه

(وقالت اليهود) كلهم أو بعضهم (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر كقوله المسيح ابن الله وعزير اسم أعجمى والعجمته وتعريفه امتنع صرفه ومن نون وهم عاصم وعلى فقد جعله عربيا (وقالت النصارى المسيح ابن الله

عادرحرفافقالوا ان الله لم يقذف التوراة فى قلب عزير الا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين ان هذا القول كان فاشيا فى اليهود جميعا ثم انه انقطع واندرس فاخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من انكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه انهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم و بين اليهود حرب وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون ان دخلنا النار ودخلوا الجنة فانى سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه أتى الى النصارى فقالوا له من أنت قال أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فادخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت ان الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والاله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم فى الخلوة وقال له أنت خالصتى وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم انى رأيت عيسى فى المنام وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم انى سأذبح نفسى تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس والآخر الى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الامام فخر الدين الرازى بعد أن حكى هذه الحكاية والاقرب عندى أن يقال لعله ذكر لفظ الابن فى الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل فى حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد فى اتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال (ذلك قولهم بافواههم) يعنى انهم يقولون ذلك القول بالسنتهم من غير علم يرجعون اليه قال أهل المعانى لم يذكر الله قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك القول زورا وكذبا لا حقيقة له (يضاهئون) قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) قال قتادة والسدى معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لان المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الامم الخالية الكافرة وقال القتيبى يريد أن من كان فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قاله أولوهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أى حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله (أنى يؤفكون) يعنى أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بان الله واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شئ ولكن هذا الخطاب على عادة العرب فى مخاطباتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل ۞ قوله سبحانه وتعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يعنى اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والاحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أربابا من

ذلك قولهم بافواههم) أى قول لا يعضده برهان ولا يستند الى بيان فما هو الا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالالفاظ المهملة (يضاهون قول الذين كفروا من قبل) لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهى قولهم قولهم ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا يعنى ان الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهى قولهم قول قدمائهم يعنى أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث أو الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم يضاهؤن عاصم وأصل المضاهاة المشابهة والاكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم امرأة ضهياء وهى التى أشبهت الرجال بانها لا تحيض كذا قاله الزجاج (قاتلهم الله) أى هم أحقاء بان يقال لهم هذا (أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان (اتخذوا) أى أهل الكتاب (أحبارهم) علماءهم (ورهبانهم) نساكهم (أربابا) آلهة (من دون الله

دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك انهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالارباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الالهية عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا أحلوا لهم شيأ استحلوه واذا حرموا عليهم شيأ حرموه أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال عبد الله ابن المبارك وهل بدل الدين الا الملوك ✻ وأحبار سوء ورهبانها

(والمسيح ابن مريم) يعني اتخذوه الها وذلك لما اعتقدوا فيه البنوة والحلول اعتقدوا فيه الالهية (وما أمروا) يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم (الا ليعبدوا الها واحدا) لانه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره (لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والاحكام وأن يكون له شريك في الالهية يستحق التعظيم والاجلال (يريدون) يعني يريد رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفؤا نور الله بأفواههم) يعني يريد هؤلاء ابطال دين الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم اياه وقيل المراد من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الابد دالة على صدقه وثالثها أن دينه الذي أمر به وهو دين الاسلام ليس فيه شئ سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لامره ونهيه واتباع طاعته والامر بعبادته والتبري من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد ابطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم ان الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين بقوله (ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) يعني ويأبى الله الا أن يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولو كره ذلك الكافرون ۞ قوله عز وجل (هو الذي أرسل رسوله) يعني أن الله الذي يأبى الا أن يتم نوره هو الذي أرسل رسوله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) يعني بالقرآن الذي أنزله عليه وجعله هاديا اليه (ودين الحق) يعني دين الاسلام (ليظهره) يعني ليعليه (على الدين كله) يعني على سائر الاديان وقال ابن عباس الهاء في ليظهره عائدة الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شئ منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة الى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الاسلام على الاديان كلها وهو أن لا يعبد الله الا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أهل دين الا دخلوا الاسلام ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ويهلك في زمانه الملل كلها الا الاسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الارض بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله كلمة الاسلام اما بعز عزيز أو بذل ذليل اما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به واما أن يذلهم فيدينون له أخرجه البغوي بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله اني كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ان ذلك تام قال انه سيكون ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون الى دين آبائهم قال الشافعي وقد أظهر الله دين رسوله صلى الله عليه وسلم على الاديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الاديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الاميين فقهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاميين

حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يطاع الارباب في أوامرهم ونواهيهم (والمسيح ابن مريم) عطف على أحبارهم أي اتخذوه ربا حيث جعلوه ابن الله وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا يجوز الوقف عليه لان ما بعده يصلح ابتداء ويصلح وصفا للواحد (لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) تنزيه له عن الاشراك (يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الاشراق ليطفئه بنفخه أجري ويأبى الله مجرى لا يريد الله ولذا وقع في مقابلة يريدون والا لا يقال كرهت أو أبغضت الا زيدا (هو الذي أرسل رسوله) محمدا عليه السلام (بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الاسلام (ليظهره) ليعليه (على الدين كله) على أهل الاديان كلها أو ليظهر دين الحق على كل دين

حتى دانوا بالاسلام طوعا وكرها أوقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليه حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله (ولو كره المشركون) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان) قد تقدم معنى الاحبار والرهبان وان الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى ﴿ وفى قوله سبحانه وتعالى ان كثيرا دليل على ان الاقل من الاحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل فى قوله تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمى الشئ باسم ماهو أعظم مقاصده واختلفوا فى السبب الذى من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل انهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم فى تخفيف الشرائع والمسامحة فى الاحكام وقيل انهم كانوا يكتبون بأيديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهى المآكل التى كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبى صلى الله عليه وسلم وصفته فى كتبهم لانهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل ان التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبى صلى الله عليه وسلم وكان الاحبار والرهبان يذكرون فى تأويلها وجوها فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلبا للرياسة وأخذ الاموال ومنع الناس عن الايمان به وذلك قوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) يعنى ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول فى دين الاسلام (والذين يكنزون الذهب والفضة) أصل الكنز فى اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا فى المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب قاله معاوية بن أبى سفيان لان الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع اخراج الحقوق الواجبة منه وقال ابن عباس والسدى نزلت فى مانعى الزكاة من المسلمين وذلك انه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الاحبار والرهبان فى الحرص على أخذ الاموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المالَ ومنعَ حقوقَ الله منه وقال أبو ذر نزلت فى أهل الكتاب وفى المسلمين ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بأبى ذر فقلت ما أنزلك هذا المنزل قال كنت فى الشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فقال معاوية نزلت فى أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بينى وبينه فى ذلك كلام فكتب الى عثمان يشكونى فكتب الىّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها فكثر على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال ان شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ولو أمر على عبد حبشى لسمعت وأطعت واختلف العلماء فى معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروى عن ابن عمر أنه قال له أعرابى أخبرنى عن قول الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرا للاموال أخرجه البخارى وفى رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال سمعت عبد الله بن عمر وهو يسئل عن الكنز ما هو فقال هو المال الذى لا تؤدّى منه الزكاة ورواه الطبرى بسنده عن ابن عمر قال كل ما أديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا وكل مال لم تؤدّ زكاته فهو الكنز الذى ذكره الله فى القرآن يكوى به صاحبه وان لم يكن مدفونا وروى عن على بن أبى طالب قال أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة وقيل الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه اليه وروى الطبرى بسنده عن أبى امامة قال توفى رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى

(ولو كره المشركون يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس) استعار الاكل للاخذ (بالباطل) أى بالرشا فى الاحكام (ويصدون) سفلتهم (عن سبيل الله) دينه (والذين يكنزون الذهب والفضة) يجوز أن يكون اشارة الى الكثير من الاحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم أخذ الرشا وكنز الاموال والضن بها من الانفاق فى سبيل الخير ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وان كان باطنا وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وان كان ظاهرا ولقد كان كثير من الصحابة رضى الله عنهم كعبد الرحمن ابن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه

الله عليه وسلم كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان كان هذا في أول الاسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شئ من المال اخراجه لاحتياج غيره اليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة كبر ذلك على المسلمين فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق فقال يا نبي الله انه كبر على أصحابك هذه الآية فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب ما بقي من أموالكم وانما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم قال له الا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته واذا أمرها أطاعته واذا غاب عنها حفظته أخرجه أبو داود عن ثوبان قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة فلو علمنا أي المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على ايمانه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والصحيح من هذه الاقوال القول الاول وهو ما ذكرناه عن ابن عمر ان كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وان كثر وان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وان قل اذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله الا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يا رسول الله فالابل قال ولا صاحب ابل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه باخفافها وتعضه بافواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار قيل يا رسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها الا اذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيأ ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله اما الى الجنة واما الى النار أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو في بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفي بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الاولى هي رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكي اسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوي من الارض الواسع الاملس والعقصاء هي الشاة الملتوية القرنين وانما استثناها لانها لا تؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهي الشاة التي لا قرن لها وكذا العضباء وهي الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية الشجاع الحية والاقرع صفة له بطول العمر لان من طال عمره تمزق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الذبدتان في الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان في اللحيين تحت الاذنين

وقوله تعالى (ولا ينفقونها في سبيل الله) يعني ولا يؤدون زكاتها وانما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لانه رد الكناية الى المال المكنوز وهي أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية الى الفضة لانها أغلب أموال الناس (فبشرهم بعذاب أليم) يعني الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق) عن أبي ذر قال انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الاخسرون ورب الكعبة قال فجئت

(ولا ينفقونها في سبيل الله) الضمير راجع الى المعنى لان كل واحد منها دنانير ودراهم فهو كقوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وأريد الكنوز والاموال أو معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله فاني وقيار بها لغريب وقيار كذلك وخصا بالذكر من بين سائر الاموال لانهما قانون التمول وأثمان الاشياء وذكر كنزهما دليل على ما سواهما (فبشرهم بعذاب أليم) ومعنى قوله

حتى جاءت فلم أتقار حتى قمت فقلت يارسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الامن قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم مامن صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الاجاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس هذا لفظ مسلم وفرقه البخاري في موضعين ۞ وقوله تعالى (يوم يحمى عليها) يعني على الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة (في نار جهنم فتكوى بها جباههم) يعني بالكنوز جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) قال ابن عباس لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته قال بعض العلماء انما خص هذه الاعضاء بالكي من بين سائر الاعضاء لان الغني صاحب المال اذا أتاه السائل فطلب منه شيأ تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم ان كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم ان كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره واعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهي النهاية في الرد والغاية في المنع الدال على كراهية الاعطاء والبذل وهذا دأب مانعي البر والاحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الاعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (هذا ما كنزتم لانفسكم) أي يقال لهم ذلك يوم القيامة (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي فذوقوا عذاب ما كنزتم في الدنيا من الاموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الاحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش اذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيأ قال فادبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم فقال ان هؤلاء لا يعقلون شيأ هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها وزاد البخاري [1] قلت من هذا قالوا أبو ذر قال فقمت اليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل فقال ما قلت الا شيأ سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم ۞ قوله عز وجل (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هي المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور فاعلم الله عز وجل ان عدة شهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى ان عدة الشهور عند الله يعني في علمه وحكمه اثنا عشر شهرا (في كتاب الله) يعني في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون وقيل أراد بكتاب الله القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالاخذ به (يوم خلق السموات والارض) يعني أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والارض أن السنة اثنا عشر شهرا (منها) يعني من الشهور (أربعة حرم) وهي رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وانما سميت حرما لان العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو ان أحدهم لقي قاتل أبيه

يوم تحمى النار عليها فلما حذفت النار قيل يحمى لانتقال الاسناد عن النار الى عليها كما تقول رفعت القصة الى الامير فان لم تذكر القصة قلت رفع الى الامير (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الاعضاء لانهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا باركانهم وولوه ظهورهم أو معناه يكوون على الجهات الاربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم (هذا ما كنزتم لانفسكم) يقال لهم هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وهو توبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) من غير زيادة والمراد بيان ان أحكام الشرع تبتني على الشهور القمرية المحسوبة بالاهلة دون الشمسية (في كتاب الله) فيما أثبته وأوجبه من حكمه أو في اللوح (يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة للقعود عن القتال وذو الحجة للحج والمحرم لتحريم القتال فيه

وابنه

[1] قوله وزاد البخاري الخ هذه الزيادة لمسلم لا للبخاري اهـ مصححه

وابنه وأخيه في هذه الاربعة الاشهر لم يهجه ولما جاء الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما لان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيآت أيضا أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الاشهر الحرم (ذلك الدين القيم) يعني ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوي فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعني حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل أراد بالدين القيم الحكم الذي لا يغير ولا يبدل والقيم هنا بمعنى الدائم الذي لا يزول فالواجب على المسلمين الاخذ بهذا الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم و بياعاتهم و أجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد ۞ وقوله تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قيل الكناية في فيهن ترجع الى جميع الاشهر أي لا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات لان المقصود منع الانسان من الاقدام على المعاصي والفساد مطلقا في جميع الاوقات الى الممات وقيل ان الكناية ترجع الى الاشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا في الاشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وان كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن اسحق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسيء وقيل ان الانفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الاطلاق شاق على النفس لا جرم أن الله خص بعض الاوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الانسان في تلك الاوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها في باقي الاوقات فتصير هذه الاوقات الشريفة والاشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصي في غيرها من الاشهر فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الاشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الامكنة أيضا وقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) يعني قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء في تحريم القتال في الاشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا ثم نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة يعني في الاشهر الحرم وفي غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري قالوا لان النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم في شوال و بعض ذي القعدة وقال آخرون انه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الاشهر الحرم وما نسخت الا أن يقاتلوا فيها (واعلموا أن الله مع المتقين) يعني بالنصر والمعونة على أعدائهم قوله سبحانه وتعالى (انما النسيء زيادة في الكفر) النسيء في اللغة عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام الى شهر آخر وذلك ان العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة

وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب اياه أي لتعظيمه (ذلك الدين القيم) أي الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية يعني أن تحريم الاربعة الاشهر هو الدين المستقيم ودين ابراهيم واسمعيل وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسيء فغيروا (فلا تظلموا فيهن) في الحرم أو في الاثني عشر (أنفسكم) بارتكاب المعاصي (وقاتلوا المشركين كافة) حال من الفاعل أو المفعول (كما يقاتلونكم كافة) جميعا (واعلموا أن الله مع المتقين) أي ناصرهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لاهلها (انما النسيء) بالهمزة مصدر نسأه اذا أخره وهو تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فاذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه و يحرمون مكانه شهرا آخر حتى رفضوا تخصيص الاشهر الحرم بالتحريم فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر (زيادة في الكفر) أي هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم

الاشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب فى بعض الاشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم الى الاشهر الحلال فنسؤا يعنى أخروا تحريم شهر الى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر أخروه الى ربيع الاول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين وكذا باقى شهور السنة فوافقت حجة أبى بكر فى السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذى الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة فى اليوم التاسع وخطب الناس فى اليوم العاشر بمنى وأعلمهم ان أشهر النسىء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الامر الى ما وضع الله عليه حساب الاشهر يوم خلق السموات والارض وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل فى مستأنف الايام واختلفوا فى أول من نسأ النسىء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسىء بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكنانى وقال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس فى الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لامرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر فى هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة من الرماح وان قال حلال عقدوا أوتار القسى وركبوا الاسنة فى الرماح وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بنى كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم

* وفينا ناسىء الشهر القلمس * وكانوا يفعلون ذلك اذا اجتمعت العرب فى الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ان أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والذى صح من حديث أبى هريرة وعائشة ان عمرو بن لحى أول من سيب السوائب وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو ابن لحى يجر قصبه فى النار فهذا ما ورد فى تفسير النسىء الذى ذكره الله فى قوله انما النسىء زيادة فى الكفر يعنى زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة انهم أمروا بايقاع كل فعل فى وقته من الاشهر الحرم ثم انهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه الى وقت آخر بسبب ذلك النسىء فأوقعوه فى غير وقته من الاشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة فى كفرهم (يُضَل به الذين كفروا) قرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسىء الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه ان كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرئ يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يُضِل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بافعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين فى تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد (يُحِلونه عاما ويحرمونه عاما) يعنى يحلون ذلك الانساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا يغيرون فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما ولا يغيرون فيه (ليواطئوا) يعنى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) يعنى أنهم ما أحلوا شهرا من الحرم الا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل أن يكون عدد الاشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة فى العدد لا فى الحكم كذلك قوله سبحانه وتعالى (فيُحِلوا ما حرم الله زُين لهم سوءُ أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل

(يضل) كوفى غير أبى بكر (به الذين كفروا) بالنسىء والضمير فى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) للنسىء أى اذا أحلوا شهرا من الاشهر الحرم عاما رجعوا فحرموه فى العام القابل (ليواطئوا عدة ما حرم الله) ليوافقوا العدة التى هى الاربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين واللام تتعلق بيحلونه ويحرمونه أو بيحرمونه فحسب وهو الظاهر (فيحلوا ما حرم الله) أى فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال أو من ترك الاختصاص للاشهر بعينها (زين لهم سوء أعمالهم) زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة

(والله لا يهدي القوم الكافرين) يعني أنه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر أثيم لما سبق له في الأزل أنه من أهل النار ﴿ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم يعني قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا في سبيل الله أي اخرجوا إلى الجهاد يقال استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وإذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير اثاقلتم أي تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الغزو إلى الأرض يعني لزمتم أرضكم ومساكنكم وإنما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة إلى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت إدراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) يعني أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) يعني إن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة إلى نعيم الآخرة وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهي قوله تعالى (إلا تنفروا) يعني إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يعذبكم عذابا أليما) يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة وقيل إن المراد به احتباس المطر في الدنيا قال نجدة بن نفيع سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) يعني خيرا منكم وأطوع قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل إلا بهم وهو قوله تعالى (ولا تضروه شيئا) قيل الضمير راجع إلى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيئا لأنه غني عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله (والله على كل شيء قدير) يعني أنه تعالى قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ قوله عز وجل (إلا تنصروه فقد نصره الله) يعني إلا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون هذا خطاب لمن

تباطأتم (إلى الأرض) ضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بإلى أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه أي ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) بدل الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة) في جنب الآخرة (إلا قليل إلا تنفروا) إلى الحرب (يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا وقيل الضمير في ولا تضروه للرسول عليه السلام لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ووعده كائن لا محالة (والله على كل شيء) من التبديل والتعذيب وغيرهما (قدير إلا تنصروه فقد نصره الله) إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد فدل بقوله فقد نصره الله على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت

(اذ أخرجه الذين كفروا) أسند الاخراج الى الكفار لانهم حين هموا باخراجه اذن الله له فى الخروج فكانهم أخرجوه (ثانى اثنين) أحد اثنين كقوله ثالث ثلاثة وهما رسول الله وأبو بكر وانتصابه على الحال (اذهما) بدل من اذ أخرجه (فى الغار) هو نقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا (اذ يقول) بدل ثان (لصاحبه لاتحزن ان الله معنا) بالنصرة والحفظ قيل طلع المشركون فوق الغار فاشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه وقالوا من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر لانكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة

تثاقل عن الخروج معه الى تبوك فاعلم الله عز وجل انه هو المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم واعزاز دينه واعلاء كلمته أعانوه أو لم يعينوه وانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدد (اذ أخرجه الذين كفروا) يعنى انه تعالى نصره فى الوقت الذى أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله (ثانى اثنين) يعنى هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر (اذهما فى الغار) يعنى اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار والغار نقب عظيم يكون فى الجبل وهذا الغار فى جبل ثور وهو قريب من مكة (اذ يقول لصاحبه لاتحزن) يعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر الصديق لاتحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتحزن (ان الله معنا) يعنى بالنصر والمعونة قال الشعبى عاتب الله عز وجل أهل الارض جميعا فى هذه الآية غير أبى بكر وقال الحسن بن الفضل من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وفى سائر الصحابة اذا انكر يكون مبتدعا ولا يكون كافرا عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب (ق) عن أبى بكر الصديق قال نظرت الى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤسنا فقلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محيى الدين النووى معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل فى قوله سبحانه وتعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل النبى صلى الله عليه وسلم حتى فى هذا المقام وفيه فضيلة لابى بكر وهى من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال على ان الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته النبى صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك روى عن عمر بن الخطاب انه ذكر عنده أبو بكر فقال وددت ان عملى كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما لياته فليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار فلما انتهى اليه قال والله لاتدخله حتى أدخل قبلك فان كان فيه شئ أصابنى دونك فدخله فكنسه ووجد فى جانبه ثقبا فشق ازاره وسدها به وبقى منها ثقبان فالقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه فى حجره ونام فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك ياأبا بكر فقال لدغت فداك أبى وأمى فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب مايجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لانؤدى الزكاة فقال لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه فقلت ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لى أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام انه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى أخرجه فى جامع الاصول ولم يرقم عليه علامة لاحد قال البغوى وروى انه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار جعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك ياأبا بكر فقال أذكر الطلب فامشى خلفك واذكر الرصد فامشى بين يديك فلما انتهيا الى الغار قال مكانك يارسول الله حتى استبرئ الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يارسول الله فنزل وقال له ان أقتل فانا رجل واحد من المسلمين وان قتلت هلكت الامة

﴿ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخارى﴾

عن عائشة قالت لم أعقل أبوى قط الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشيا فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى اذا بلغ برك

الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجني قومي فاريد أن أسيح في
الارض فاعبد ربي فقال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لايخرج ولايخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم
وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل
معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم ان أبا بكر لايخرج مثله ولايخرج
أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم
تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفي رواية فانفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة
مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ماشاء ولايؤذينا بذلك ولايستعلن به فانا نخشى ان يفتن
نساءنا وابناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لابي بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه في داره ولايستعلن بصلاته
ولايقرأ في غير داره ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف
عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان أبو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه اذا
قرأ القرآن فافزع ذلك أشراف قريش من المشركين فارسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا
أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فاعلن بالصلاة
والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل
وان أبى الا أن يعلن بذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لابي بكر
الاستعلان قالت عائشة فاتى ابن الدغنة الى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاهدت لك عليه فاما أن تقتصر على
ذلك واما أن ترجع الى ذمتي فاني لاأحب أن تسمع العرب اني أخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني
أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم
للمسلمين اني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة
ورجع عامة من كان بارض الحبشة الى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بابي أنت وأمي قال نعم فحبس أبو بكر نفسه
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط أربعة
أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن جلوس يوما في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل
هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به
في هذه الساعة الا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فاذن له فدخل فقال النبي صلى الله
عليه وسلم لابي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر انما هم أهلك بابي أنت وأمي يارسول الله قال فاني قد أذن
لي في الخروج قال أبو بكر الصحبة بابي أنت وأمي يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال أبو
بكر فخذ بابي أنت وأمي يارسول الله احدى راحلتي هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة
فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به
فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور
فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما
بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به الا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط
الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من
العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث
واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا
والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فامناه

فدفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فاتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فاخذ بهم طريق السواحل وفي رواية طريق الساحل قال ابن شهاب فاخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم ان أباه أخبره انه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال ياسراقة اني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا واصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له انهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا باعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فامرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الارض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت وأهويت بيدي الى كنانتي فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الازلام تقرب بي حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الارض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لاثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالامان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم اخبار مايريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني الا أن قال اخف عنا فاستطعت فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فامر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فاخبرني عروة بن الزبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبابكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودي ان قال باعلى صوته يامعشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه قال فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبابكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو ابن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ان شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يارسول الله فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول هذا الحمال لاحمال خيبر ❁ هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول اللهم ان الاجر أجر الآخره فارحم الانصار والمهاجره فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخاري بطوله * شرح غريب ألفاظ الحديث قولها لم أعقل أبوي الا وهما يدينان الدين يعني أنهما كانا ينقادان الى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر الى المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبني ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان أحدهما انه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شئ حتى المعدوم الذي يتعذر كسبه على غيره والقول الثاني انه يملك الشئ المعدوم المتعذر ان لا يقدر عليه ففيه وصفه بالاحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الارحام والقيام بامر العيال واقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الانسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنا لك جار أي حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان والاعلان اظهار المخفي وقوله فينقذف النساء عليه يعني يزدحمن عليه والذمة العهد والامان واخفارها نقضها واللابة الجبل والحرة الارض التي تعلوها حجارة سود يقال افعل الشئ على رسلك بكسر الراء أي على هينتك والراحلة البعير القوي على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفا من أعلاه الى أسفله لئلا يصل الى الارض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة اذا صار حاذقا فطنا واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعي بالغنم اذا دعاها لتجتمع اليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه في الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا في آل فلان اذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والاسودة الاشخاص والاكمة التل المرتفع من الارض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا اذا عدا عدوا دون الاسراع والكنانة هي الجعبة التي تجعل فيها السهام والازلام القداح التي كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفال والعثان الغبار يقال ما رزأت فلانا شيأ أي ما أصبت منه شيأ والمراد أنهم لم يأخذوا منه شيأ وقوله أوفى أي أشرف والطلع والاطم البناء المرتفع كالحصن وقوله مبيضين هو بكسر الياء أي هم ذو ثياب بياض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعني هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وأبقى ذخرا وأدوم منفعة في الآخرة لاحمال خيبر يعني ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها والمعنى ان ذلك الحمل الذي نحمله من اللبن لاجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل والرواية الاولى أشهر وأكثر والله أعلم قال الزهري لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضتا في أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل أنت يمامة على فم الغار وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت في بعض التفاسير شعرا وقد نسب الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله

قال النبي ولم يجزع يوقرني * ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيأ فان الله ثالثنا * وقد تكفل لي منه باظهار
وانما كيد من تخشى بوادره * كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم طرا بما صنعوا * وجاعل المنتهى منهم الى النار

وقوله سبحانه وتعالى (فانزل الله سكينته عليه) يعني فانزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد صلى

فانزل الله سكينته) ما ألقى في قلبه من الامنة التي سكن عندها وعلم انهم لا يصلون اليه (عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم أو على أبي بكر لانه كان يخاف وكان عليه السلام ساكن القلب

الله عليه وسلم وقال ابن عباس على أبي بكر لان النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك

* (فصل) في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه منها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعا على باطن أبي بكر الصديق في سره واعلانه وانه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعلمه بحاله ومنها ان هذه الهجرة كانت باذن الله تعالى فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره ومنها ان الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الارض بقوله تعالى الا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله ومنها ان سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين اذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لابي بكر رضي الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء ان أبا بكر كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر الاحوال ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق الى الايمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر الى الايمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم جاءهم الى النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته الا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنها انه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه في الامامة فكان ثانيه ومنها انه ثانيه في تربته صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها ان الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى اذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها ان الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها انزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (وأيده بجنود لم تروها) يعني وأيد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي أعانه بالملائكة يوم بدر فاخبر الله سبحانه وتعالى انه نصره وصرف عنه كيد الاعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني كلمة الشرك فهي سفلى الى يوم القيامة (وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم) قال ابن عباس هي كلمة لا اله الا الله فهي باقية الى يوم القيامة عالية وقيل ان كلمة الذين كفروا هي ما كانوا قدروا فيما بينهم من الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هي ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعده الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا قوله سبحانه وتعالى (انفروا خفافا وثقالا) يعني انفروا على الصفة التي يخف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة يعني شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال يعني فقراء وثقالا يعني أغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذي لا ضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل اليسرة من المال وثقالا أهل العسرة وقيل خفافا يعني من السلاح مقلين منه وثقالا يعني مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعني مسرعين في الخروج الى الغزو ساعة سماع النفير وثقالا يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح ان هذا عام لان هذه الاحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعني على أي حال كنتم فيهما فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد

(وأيده بجنود لم تروها) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه أو أيده بالملائكة يوم بدر والاحزاب وحنين (وجعل كلمة الذين كفروا) أي دعوتهم الى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته الى الاسلام (هي) فصل (العليا) وكلمة الله بالنصب يعقوب بالعطف والرفع على الاستئناف أوجه اذ هي لم تزل كانت عالية (والله عزيز) يعز بنصره أهل كلمته (حكيم) بذل أهل الشرك بحكمته (انفروا خفافا) في النفور لنشاطكم له (وثقالا) عنه لمشقته عليكم أو خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا

(وسفرا قاصدا) وسطا مقاربا والقاصد والقصد المعتدل (لاتبعوك) لوافقوك في الخروج (ولكن بعدت عليهم الشقة) المسافة الشاطة الشاقة (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) من دلائل النبوة لانه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر و بالله متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد في الوجهين أي سيحلفون يعني المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم أو سيحلفون بالله يقولون لو استطعنا وقوله لخرجنا سد مسد جوابي القسم ولو جميعا ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الابدان كأنهم تمارضوا (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون أو حال منه أي مهلكين والمعنى انهم يهلكونها بالحلف الكاذب أو حال من لخرجنا أي لخرجنا معكم وان أهلكنا أنفسنا وألقيناها

حتى المريض والزمن والفقير وليس الامر كذلك فما معنى هذا الامر قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم انه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدي نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الامر على الندب قال مجاهد ان أبا أيوب الانصاري شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك فقال سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدني الا خفيفا أو ثقيلا وقال الزهري خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له انك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الاول انها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات و يدل عليه ان هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك وان النبي صلى الله عليه وسلم خلف في المدينة في تلك الغزاة النساء و بعض الرجال فدل ذلك على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان والله أعلم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فيه قولان الاول ان الجهاد انما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثاني أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بان يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه (ذلكم) يعني ذلكم الجهاد (خير لكم) يعني من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه ان الجهاد خير حاصل لكم ثوابه (ان كنتم تعلمون) يعني ان ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ۞ قوله عز وجل (لو كان عرضا قريبا) فيه اضمار تقديره لو كان ما تدعوهم اليه عرضا يعني غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (وسفرا قاصدا) يعني سهلا قريبا (لاتبعوك) يعني لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أي المسافة والشقة السفر البعيد لانه يشق على الانسان سلوكها ومعنى الآية لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا في تلك المنافع التي تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم انهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم انه اذا رجع النبي عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى (وسيحلفون بالله) يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة (لو استطعنا لخرجنا معكم) يعني الى هذه الغزوة (يهلكون أنفسهم) يعني بسبب هذه الايمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على ان الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها (والله يعلم انهم لكاذبون) يعني في ايمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لانهم كانوا مستطيعين الخروج ۞ قوله عز وجل (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال الطبري هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أي في اذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص الى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في اذنك لهؤلاء المنافقين استأذنوك في ترك الخروج معك الى تبوك قال عمرو بن ميمون الاودي اثنتان فعلهما

في التهلكة بما نحملها على المسير في تلك الشقة (والله يعلم انهم لكاذبون) فيما يقولون (عفا الله عنك) كناية عن الزلة لان العفو مرادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو في الخطاب وفيه دلالة فضله على سائر الانبياء عليهم السلام حيث لم يذكر مثله لسائر الانبياء عليهم السلام (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالاذن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشئ فيهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب

﴿فصل﴾ استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء و بيانه من وجهين أحدهما انه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعى سابقة الذنب الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الانكار ﴿والجواب عن الاول انا لا نسلم ان قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول ان ذلك يدل على المبالغة فى التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما له عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى رضى الله عنك ما جوابك عن كلامى وعافاك الله وغفر لك كل هذه الالفاظ فى ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال على بن الجهم يخاطب المتوكل

عفا الله عنك الا حرمة ﴾ تعود بفضلك ان أبعد ﴾ ألم تر عبدا عدا طوره

ومولى عفا ورشيدا هدى ﴾ أقلنى أقالك من لم يزل ﴾ يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثانى أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الانكار عليه و بيانه اما أن يكون قد صدر عنه ذنب فى هذه الواقعة أولا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو و بعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الانكار عليه وان لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الانكار عليه فثبت بهذا ان الانكار يمتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء فى الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم انه أمر لم يتقدم للنبى صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهى فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا فى أمرين قالوا وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أى لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيرى قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أى لم يلزمك ذنب قال الداودى انها تكرمة وقال مكى هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندى ان معناه عافاك الله وقيل معناه أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعنى فى التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الاولى والاكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا (حتى يتبين لك الذين صدقوا) يعنى فى اعتذارهم (وتعلم الكاذبين) يعنى فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم) أى فى ان يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره (والله عليم بالمتقين) يعنى الذين يتقون مخالفته و يسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يعنى فى التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لقوله (وارتابت قلوبهم) يعنى شكت قلوبهم فى الايمان وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان أيضا فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم فى ريبهم يترددون) يعنى أن المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى هذه الآية فقيل انها منسوخة بالآية التى فى سورة النور وهى قوله سبحانه وتعالى ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن فى التخلف فكان رسول الله

(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) يتبين لك الصادق فى العذر من الكاذب فيه وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما اذنه للمنافقين وأخذه الفدية من الاسارى فعاتبه الله وفيه دليل جواز الاجتهاد للانبياء عليهم السلام لانه عليه السلام انما فعل ذلك بالاجتهاد وانما عوتب مع ان له ذلك لتركه الافضل وهم يعاتبون على ترك الافضل (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى ان يجاهدوا (باموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) عدة لهم باجزل الثواب (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلا (وارتابت قلوبهم) شكوا فى دينهم واضطربوا فى عقيدتهم (فهم فى ريبهم يترددون) يتحيرون لان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر

(ولو أرادوا الخروج لاعدواله) للخروج أو للجهاد (عدة) أهبة لانهم كانوا مياسير ولما كان ولو أرادوا الخروج معطيا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل (ولكن كره الله انبعاثهم) نهوضهم للخروج كانه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم (فثبطهم) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الامر بالتزهيد فيه (وقيل اقعدوا) أي قال بعضهم لبعض أو قاله الرسول عليه السلام غضبا عليهم أو قاله الشيطان بالوسوسة (مع

القاعدين) هو ذم لهم والحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود في البيوت (لو خرجوا فيكم ما زادوكم) بخروجهم معكم (الا خبالا) الا فسادا وشرا والاستثناء متصل لان المعنى ما زادوكم شيأ الا خبالا والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء فكان استثناء متصلا لان الخبال بعضه (ولا وضعوا خلالكم) ولأسرعوا بينكم بالتضريب والنمائم وافساد ذات البين يقال وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا والمعنى ولا وضعوا ركائبهم بينكم والمراد الاسراع بالنمائم لان الراكب أسرع من الماشي وخط في المصحف ولا أوضعوا بزيادة الالف لان الفتحة كانت تكتب ألفا قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريبا من نزول

صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) يعني الى الغزو معكم (لاعدوا له عدة) لهيؤا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم) يعني خروجهم الى الغزو معكم (فثبطهم) يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو ان خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم في اذنه لهم بالقعود والجواب عن هذا السؤال ان خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا بقي فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم فنقول انه صلى الله عليه وسلم أذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال تعالى لم أذنت لهم وقيل انما عاتبه لاجل انه أذن لهم قبل أن يوحي اليه في أمرهم بالقعود (وقيل اقعدوا مع القاعدين) معناه انهم لما استأذنوه في القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل ان القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بان ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين الى الجهاد ۞ ثم بين سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم الى الغزو ما زادوكم الا فسادا وشرا وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالا والمراد به هنا الافساد وايقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الامر وشدة السفر وكثرة العدو وقوتهم (ولا وضعوا خلالكم) يعني ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد يعني وفيكم عيون لهم يؤدون اليهم اخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم فان قلت كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين قلت يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الاحوال (والله عليم بالظالمين) وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) يعني لقد طلبوا صد

القرآن وقد بقي من تلك الالف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفا وفتحها ألفا أخرى ونحوه أولا اذبحنه (يبغونكم) حال من الضمير في أوضعوا (الفتنة) أي يطلبون ان يفتنوكم بان يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم (وفيكم سماعون لهم) أي نمامون حديثكم فينقلونه اليهم (والله عليم بالظالمين) بالمنافقين (لقد ابتغوا الفتنة) بصد الناس أو بان يفتكوا به عليه السلام ليلة العقبة أو بالرجوع يوم أحد (من قبل) من قبل غزوة تبوك

(وقلبوا لك الامور) ودبروا لك الحيل والمكايد وزوروا الآراء فى ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك (وظهر أمر الله)
وغلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) أى على رغم منهم (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) ولا توقعنى فى الفتنة وهى الاثم بان لا تأذن لى
فانى ان تخلفت بغير اذنك أثمت أو لا تلقنى فى الهلكة فانى اذا خرجت معك هلك مالى وعيالى وقيل قال الجد بن قيس المنافق قد علمت الانصار
انى مستهتر بالنساء فلا تفتنى ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكنى أعينك بمالى فاتركنى (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى ان

أصحابك يا محمد عن الدين وردهم الى الكفر وتخذيل الناس عنكم قبل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبى بن سلول يوم أحد حين انصرف باصحابه عنكم (وقلبوا لك الامور) يعنى وأجالوا فيك وفى أمرك وفى ابطال دينك الرأى وبالغوا فى تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك (حتى جاء الحق) يعنى النصر والظفر (وظهر أمر الله وهم كارهون) يعنى ذلك ۞ قوله عز وجل (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) نزلت فى الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك فى جلاد بنى الاصفر يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومى انى رجل مغرم بحب النساء وانى أخشى ان رأيت بنات بنى الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لى فى القعود ولا تفتنى بهن وأعينك بمالى قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك فانزل الله عز وجل فيه ومنهم يعنى من المنافقين من يقول ائذن لى يعنى فى التخلف والقعود فى المدينة ولا تفتنى يعنى ببنات الاصفر وهم الروم (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى انهم وقعوا فى الفتنة العظيمة وهى النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يعنى يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان تصبك حسنة تسؤهم) يعنى ان تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وان تصبك مصيبة) يعنى من هزيمة أو شدة (يقولوا) يعنى المنافقين (قد أخذنا أمرنا) يعنى أخذنا أمرنا بالجد والحزم فى القعود عن الغزو (من قبل) يعنى من قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) يعنى مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه ان يصيبنا الا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه فى اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له (هو مولانا) يعنى ان الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعنى فى جميع أمورهم (قل هل تربصون بنا) يعنى قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين) يعنى اما النصر والغنيمة واما الشهادة والمغفرة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الغزو والجهاد فى سبيل الله اما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والاجر العظيم فى الآخرة واما أن يقتل فى سبيل الله فتحصل له الشهادة وهى الغاية القصوى ويدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله وفى رواية تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه ٢ الا جهادا فى سبيلى وايمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة أخرجاه فى الصحيحين ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ونحن نتربص بكم) يعنى ونحن ننتظر بكم احدى السوأيين (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) يعنى فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية (أو بايدينا) يعنى أو يصيبكم بايدى المؤمنين بان يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم (فتربصوا انا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان انا متربصون مواعيد الله من اظهار دينه واستئصال من خالفه (قل أنفقوا طوعا أو كرها)

الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) الآن لان أسباب الاحاطة معهم أوهى تحيط بهم يوم القيامة (ان تصبك) فى بعض الغزوات (حسنة) ظفر وغنيمة (تسؤهم وان تصبك مصيبة) نكبة وشدة فى بعضها نحو ماجرى يوم أحد (يقولوا قد أخذنا أمرنا) الذى نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم (من قبل) من قبل ماوقع (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهاليهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) (أى قضى من خير أو شر (هو مولانا) أى الذى يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون بنا) تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) وهما النصرة والشهادة (ونحن نتربص بكم) احدى السوأيين اما (أن يصيبكم الله بعذاب من
عنده) وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود (أو) بعذاب (بايدينا) وهو القتل على الكفر نزلت
(فتربصوا) بنا ما ذكرنا (انا معكم متربصون) ما هو عاقبتكم (قل أنفقوا) فى وجوه البر (طوعا أو كرها) طائعين أو مكرهين نصب
على الحال كرها حمزة وعلى وهو أمر فى معنى الخبر ومعناه

٢ هكذا هو بالنصب فيما بأيدينا من النسخ ولعله بالرفع فلتنظر الرواية اه مصححه

(ان يتقبل منكم) أنفقتم طوعا أو كرها ونحوه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وقوله   أسيئي بنا أو احسني لا ملومة ❁ لدينا ولا مقلية ان تقلت
أى لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا نلومك أسأت الينا أو أحسنت وقد جاز عكسه فى قولك رحم الله زيدا ومعنى عدم القبول
انه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبها الله وقوله طوعا أى من غير الزام من الله ورسوله وكرها أى ملزمين وسمى الالزام اكراها لانهم
منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه (انكم) تعليل لرد انفاقهم

(كنتم قوما فاسقين) متمردين

نزلت فى الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القعود عنه وقال أنا أعطيكم
مالى فانزل الله عز وجل ردا عليه قل أى قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله فى النفاق أنفقوا طوعا أو كرها يعنى
أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالانفاق بالزام الله ورسوله اياكم بالانفاق (لن يتقبل منكم) لان
هذا الانفاق انما وقع لغير الله وهذه الآية وان كانت خاصة فى انفاق المنافقين فهى عامة فى حق كل من أنفق
ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فانه لا يقبل منه ۞ ثم علل سبب منع القبول بقوله (انكم) أى لانكم
(كنتم قوما فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما منعهم أن تقبل منهم
نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله (ولا يأتون
الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان يعنى متثاقلين فى الاتيان الى الصلاة وذلك لانهم لا يرجون على فعلها
ثوابا ولا يخافون على تركها عقابا فلذلك ذمهم مع فعلها (ولا ينفقون الا وهم كارهون) لانهم كانوا يعتقدون
الانفاق فى سبيل الله مغرما ومنع ذلك الانفاق مغنما (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم ولا أولادهم) هذا
الخطاب وان كان مختصا بالنبى صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال
المنافقين وأولادهم والاعجاب السرور بالشئ مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا
يدل على استغراق النفس بذلك الشئ ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغى للانسان أن لا يعجب
بشئ من أمور الدنيا ولذاتها فان العبد اذا كان من الله عز وجل فى استدراج كثر ماله وولده فيكثر اعجابه بماله
وولده فيبطر ويكفر نعمة الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى (انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا)
فان قلت كيف يكون المال والولد عذابا فى الدنيا وفيهما اللذة والسرور فى الدنيا قلت قال مجاهد وقتادة
فى الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها فى
الآخرة وقيل ان سبب كون المال والولد عذابا فى الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق فى تحصيلهما فاذا
حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق فى حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا
القول لا حاجة الى التقديم والتأخير فى نظم الآية وأورد على هذا القول بان هذا التعذيب حاصل لكل أحد
من بنى آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب فى الدنيا وأجيب عن هذا الايراد
بان المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب
بالمصائب الحاصلة له فى الدنيا فلم يكن المال والولد فى حقه عذابا فى الدنيا وأما المنافق فانه لا يعتقد كون الآخرة
له وانه ليس فيها ثواب فبقى ما يحصل له فى الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذابا عليه
فى الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين فى الدنيا دون المؤمنين وقيل ان تعذيبهم
بها فى الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة فى سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد فى الغزو فلا يثاب
الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب فى جمعه وحفظه والكره فى انفاقه والحسرة على
تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم فى الآخرة على ملك لا يعذره (وتزهق أنفسهم) يعنى وتخرج أنفسهم (وهم
كافرون) والمعنى انهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة قوله عز وجل

عاتين (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) وبالياء حمزة وعلى (الا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه أى وما منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة الا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون الا وهم كارهون) لانهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى ووصفهم بالطوع فى قوله طوعا وسلبه عنهم ههنا لان المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير الزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم وما طوعهم ذلك الا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا) الاعجاب بالشئ أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فان الله انما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها أو بالانفاق منه فى أبواب الخير

وهم كارهون له أو بنهب أموالهم وسبى أولادهم أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها
وكل هذا عذاب وتزهق أنفسهم وهم كافرون وتخرج أرواحهم وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ودلت الآية على بطلان القول بالاصلح لانه
أخبر أن اعطاء الاموال والاولاد لهم للتعذيب والاماتة على الكفر وعلى ارادة الله تعالى المعاصى لان ارادة العذاب بارادة ما يعذب عليه
وكذا ارادة الاماتة على الكفر

(ويحلفون بالله) يعنى المنافقين (انهم لمنكم) يعنى على دينكم وملتكم (وماهم منكم) يعنى أنهم كاذبون فى أيمانهم (ولكنهم قوم يفرقون) يعنى أنهم يخافون أن تظهروا على ماهم عليه من النفاق (لويجدون ملجأ) يعنى حرزا وحصنا ومعقلا يلجؤن اليه وقيل لووجدوا مهربا لهربوا اليه وقيل لويجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم (أومغارات) يعنى غيرانا فى الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أومدخلا) يعنى موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب فى الارض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولوا اليه) والمعنى أنهم لووجدوا مكانا بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهى شر الامكنة وأضيقها لولوا اليه أى لرجعوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) يعنى وهم يسرعون الى ذلك المكان والمعنى أن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لوقدروا أن يهربوا منكم الى أحد هذه الامكنة لصاروا اليه لشدة بغضهم اياكم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فيأ أتاه ذوالخويصرة رجل من بنى تميم فقال يارسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل اذا لم أعدل وفى رواية قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لى فيه فاضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم زاد فى رواية يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين وفى رواية من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يامحمد والله لئن كان الله أمرك ان تعدل فما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله مايعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا من يهواه فانزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أى عابه (فان أعطوا منها) يعنى من الصدقات (رضوا) يعنى رضوا عنك فى قسمتها (وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون) يعنى وان لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا (ولو أنهم رضوا) يعنى ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا (ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) يعنى ما نحتاج اليه (انا الى الله راغبون) يعنى فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم وأعود عليهم قوله عزوجل (انما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية اعلم أن المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه فى قسم الصدقات بين الله عزوجل فى هذه الآية ان المستحقين للصدقات هؤلاء الاصناف الثمانية ومصرفها اليهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشئ ولم يأخذ لنفسه منها شيأ فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات عن زياد بن الحرث الصدائى قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتاه رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها

(ويحلفون بالله انهم لمنكم) ان جملة المسلمين (وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام تقية (لويجدون ملجأ) مكانا يلجؤن اليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أومغارات) أو غيرانا (أومدخلا) أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول (لولوا اليه) لاقبلوا نحوه (وهم يجمحون) يسرعون اسراعا لايردهم شئ من الفرس الجموح (ومنهم) ومن المنافقين (من يلمزك فى الصدقات) يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون) اذا للمفاجأة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط وصفهم بان رضاهم وسخطهم لانفسهم لا للدين ومافيه صلاح أهله لانه عليه السلام استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وان قل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ماقسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم انا الى الله فى أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون ثم بين مواضعها التى توضع فيها فقال (انما الصدقات للفقراء والمساكين) قصر جنس الصدقات على الاصناف المعدودة أى هى مختصة بهم لاتتجاوز الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لالغيرهم كقولك انما الخلافة لقريش تريد لاتتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف الى الاصناف كلها وان تصرف الى بعضها كما هو مذهبنا وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين

جزأها ثمانية أجزاء فان كنت من تلك الاجزاء أعطيتك حقك أخرجه أبو داود

﴿فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل﴾ المسئلة الاولى في بيان وجه الحكمة في ايجاب الزكاة على الاغنياء وصرفها الى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه الوجه الاول أن المال محبوب بالطبع وسببه ان القدرة صفة من صفات الكمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة الى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الالهية ايجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل باخراج الزكاة منه الوجه الثاني ان كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل الى شهواتها ولذاتها فاوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لان التكاليف البدنية غير شاقة على العبد واخراج المال مشق على النفس فاوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة أصحاب الاموال ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها الوجه الرابع أن المال مال الله والاغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فامر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله الى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع الى امتثال الامر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق) عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الخازن المسلم الامين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذي أمر له به أحد المتصدقين الوجه الخامس ان الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالاموال التي بايدي الاغنياء فاوجب الله عز وجل نصيبا للفقراء في ذلك المال تطييبا لقلوبهم الوجه السادس ان المال الفاضل عن حاجة الانسان الاصلية اذا أمسك بقي معطلا عن المقصود الذي لاجله خلق المال فامر بدفع الزكاة الى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية ﴿المسئلة الثانية﴾ الآية تدل على أنه لا حق لاحد في الصدقات الا هؤلاء الثمانية وذلك مجمع عليه لان كلمتي انما تفيدان الحصر وذلك لانها مركبة من ان وما فكلمة ان للاثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على ان الصدقات لا تصرف الا الى الاصناف الثمانية ﴿المسئلة الثالثة﴾ في بيان الاصناف الثمانية فالصنف الاول الفقراء والثاني المساكين وهم المحتاجون الذين لا يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم الى الدرهم والتمرة الى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على شئ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته سائلا كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير وقال أبو حنيفة وأصحاب الرأي الفقير أحسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه ان الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات الى هؤلاء الاصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وانما يبدأ بالاهم فالاهم فلولم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد

لما رأى لبد النسور تطايرت * رفع القوادم كالفقير الاعزل

قال ابن الاعرابي الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير انما سمي فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال اللهم احيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة رواه الترمذي من حديث

أس فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالا من الفقير ولان الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لان السفينة من سفن البحر تساوى دنانير كثيرة ولان الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وحجة أبى حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالا من الفقير قوله أو مسكينا ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذى لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولان الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضا بقول الراعى أما الفقير الذى كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد

واحتج أيضا بقول الاصمعى وأبى عمرو بن العلاء ان الفقير الذى له ما يأكل والمسكين الذى لا شئ له وكذا قال القتيبى الفقير الذى له البلغة من العيش والمسكين الذى لا شئ له وقيل الفقير الذى له المسكن والخادم والمسكين الذى لا ملك له وقيل ان كل محتاج الى شئ فهو مفتقر اليه وان كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى أنتم الفقراء الى الله فاثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه لانه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة والا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمساكين انه هو الفقير الذى لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعى أنه ذكر الفقير وحده فكل فقير أفرد بالاسم جاز اطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهى معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة ان الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذى كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذى ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة فى طلب القوت عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى أخرجه النسائى وأبو داود وله فى رواية أخرى ولا لذى مرة قوى عن عبيد الله بن عدى بن الخيار قال أخبرنى رجلان أنهما أتيا النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب أخرجه أبو داود والنسائى وأخرجه الشافعى ولفظه ان رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن الصدقة فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لذى قوة مكتسب واختلف العلماء فى حد الغنى الذى يمنع من أخذ الصدقة فقال الاكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعى وقال أصحاب الرأى حده أن يملك مائتى درهم وقال قوم من ملك خمسين درهما أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسئلته فى وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وهذا قول الثورى وابن المبارك وأحمد واسحق وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل أربعين درهما لما روى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة وقية فقد ألحف أخرجه أبو داود وكانت الاوقية فى ذلك الزمان أربعين درهما * الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها فى جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعى وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد الا ان الشافعى يقول هو أجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح ان الهاشمى والمطلبى لا يجوز أن يكون عاملا على الصدقات لما روى عن أبى رافع

انهم قالوا فى أى صنف منها وضعتها أجزأك وعند الشافعى رحمه الله لا بد من صرفها الى الاصناف وهو المروى عن عكرمة ثم الفقير الذى لا يسأل لان عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذى يسأل لانه لا يجد شيأ فهو أضعف حالا منه وعند الشافعى رحمه الله على العكس (والعاملين عليها) هم السعاة الذين يقبضونها

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بنى مخزوم على الصدقة فاراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل لنا الصدقة وان مولى القوم منهم أخرجه الترمذى والنسائى * الصنف الرابع قوله تعالى (والمؤلفة قلوبهم) وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فاما قسم المسلمين فقسمان القسم الاول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى رغبتهم فى الاسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية فى الاسلام وهم أشراف قومهم مثل عدى بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لامثالهم فى الاسلام فيجوز للامام أن يعطى أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفىء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضا القسم الثانى من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بازاء قوم كفار فى موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين الا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بازائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للامام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بازاء جماعة من مانعى الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها الى الامام فيعطيهم الامام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روى ان عدى بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الابل من صدقات قومه فاعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرا وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى اسلامهم فيجوز للامام أن يعطى من يخاف شره أو يرجوا اسلامه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله الى الاسلام أما اليوم فقد أعز الله الاسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن ان يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبى وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى واسحق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهرى وأبى جعفر محمد بن على وأبى ثور وقال أحمد يعطون ان احتاج المسلمون الى ذلك ۞ الصنف الخامس ۞ قوله سبحانه وتعالى (وفى الرقاب) قال الزجاج فيه حذف تقديره وفى فك الرقاب وفى تفسير الرقاب أقوال الاول ان سهم الرقاب موضوع فى المكاتبين فيدفع اليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعى رضى الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعى والزهرى والليث بن سعد ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم القول الثانى وهو مذهب مالك وأحمد واسحق ان سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روى عن ابن عباس انه قال لا باس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبى حنيفة وأصحابه انه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها فى عتق رقبة ويعان بها مكاتب لان قوله وفى الرقاب يقتضى التبعيض القول الرابع وهو قول الزهرى ان سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة قال أصحابنا الاحوط فى سهم الرقاب أن يدفع الى السيد باذن المكاتب ويدل عليه انه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للاصناف الاربعة المتقدمة بلام الملك فقال انما الصدقات للفقراء وقال فى الصنف الخامس وفى الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهى أن الاصناف الاربعة المتقدم ذكرها يدفع اليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم فى تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع اليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول فى الغارمين فيصرف نصيبهم فى قضاء ديونهم وفى الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون اليه فى الغزو وكذا ابن السبيل

(والمؤلفة قلوبهم) على الاسلام أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على ان يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريرا لهم على الاسلام (وفى الرقاب) هم المكاتبون يعانون منها

فيصرف فيه ما يحتاج اليه في سفره الى بلوغ غرضه * الصنف السادس ﴿ قوله سبحانه وتعالى (والغارمين) أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمي الدين غرماً لكونه شاقاً على الانسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان قسم ادانوا لانفسهم في غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم اذا لم يكن لهم مال يفي بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا في المعروف واصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم وان كانوا أغنياء لما روي عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغني الا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فاهدى المسكين للغني أخرجه أبو داود مرسلا لان عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم متصلا بمعناه اما من كان دينه في معصية فلا يعطى من الصدقات شيأ * الصنف السابع ﴿ قوله تعالى (وفي سبيل الله) يعني وفي النفقة في سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون اذا أرادوا الخروج الى الغزو وما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وان كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبي سعيد الخدري ولا يعطى من سهم سبيل الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سبيل الله الى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن واليه ذهب أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وقال بعضهم ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لان قوله وفي سبيل الله عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الاول هو الصحيح لاجماع الجمهور عليه * الصنف الثامن ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وابن السبيل) يعني المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر

أنا ابن الحرب ربتني وليدا * الى ان شبت واكتهلت لداتي

فكل مريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أو لم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع ﴿ وقوله تعالى (فريضة من الله) يعني ان هذه الاحكام التي ذكرها في هذه الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الاشياء فريضة (والله عليم) يعني بمصالح عباده (حكيم) يعني فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقض ولا خلل ﴿ المسألة الرابعة ﴾ في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على ان المراد بقوله انما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها الى بعض الاصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء الى أنه لا يجوز صرفها كلها الى بعض الاصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة واليه ذهب الشافعي قال يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الاصناف الستة الذين سهامهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لان سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط اذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الاصناف الستة لا يجوز أن تصرف الى أقل من ثلاثة منهم ان وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الاصناف الا واحداً دفع حصة ذلك الصنف اليه ما لم يخرج من حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شئ رده الى الباقين وذهب جماعة من العلماء الى أنه لو صرف الكل الى صنف واحد من هذه الاصناف أو الى شخص واحد منهم جاز لان الله سبحانه وتعالى انما سمى هذه الاصناف الثمانية اعلاما منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية لا ايجابا منه لقسمتها بينهم جميعاً وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء واليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل قال أحمد بن حنبل يجوز

(والغارمين) الذين ركبتهم الديون (وفي سبيل الله) فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن ماله وعدل عن اللام الى في في الاربعة الاخيرة للايذان بانهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لان في للوعاء فنبه على أنهم احقاء بان توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها وتكرير في في قوله في سبيل الله وابن السبيل فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين وانما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا بانهم بعداء عنها وعن مصارفها فما لهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها وسهم المؤلفة قلوبهم سقط باجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه لان الله أعز الاسلام وأغنى عنهم والحكم متى ثبت معقولا لمعنى خاص يرتفع وينتهي بذهاب ذلك المعنى (فريضة من الله) في معنى المصدر المؤكد لان قوله انما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) في القسمة

أن يضعها فى صنف واحد ونفريقها أولى وقال ابراهيم النخعي ان كان المال كثيرا يحتمل الاجزاء قسمه على الاصناف وان كان قليلا وضعه فى صنف واحد وقال مالك يتحرى موضع الحاجة منهم و يقدم الاولى فالاولى من أهل الخلة والحاجة فان رأى الخلة فى الفقراء فى عام قدمهم وان رآها فى صنف آخر فى عام حولها اليهم وكل من دفع اليه شيأ من الصدقة لايزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو مايحتاج اليه فان حصل أدنى اسم الغنى فلا يعطى بعده شيأ وان كان محترفا لكنه لايجد آلة حرفته فيعطى قدر مايحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الامام الشافعي رضى الله عنه مايدفع الحاجة من غير حد وقال أحمد بن حنبل لايعطى الفقير أكثر من خمسين درهما وقال أبو حنيفة أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتى درهم فان أعطيته أجزأ فان أعطى من يظنه فقيرا فبان انه غنى فهل يجزئ فيه قولان ولايجوز أن يعطى صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثورى وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعى لايعطى والدا وان علا ولا ولدا وان سفل ولازوجة و يعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوى القربى وهم بنو هاشم و بنو المطلب فلايدفع اليهم من الزكاة شئ لقوله صلى الله عليه وسلم انا آل بيت لاتحل لنا الصدقة وقال أبو حنيفة تحرم على بنى هاشم ولا تحرم على بنى المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم انا و بنو المطلب شئ واحد لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام وتحرم الصدقة على موالى بنى هاشم و بنى المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وقال مالك لاتحرم واختلفوا فى نقل الصدقة من بلد المال الى بلد آخر مع وجود المستحقين فى بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأعلمهم ان الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم الحديث بطوله فى الصحيحين واتفقوا على انه اذا نقل المال الى بلد آخر وأداه الى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض الاما حكى عن عمر بن عبد العزيز فانه رد صدقة حملت من خراسان الى الشام فردها الى مكانها من خراسان والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (ومنهم الذين يؤذون النبى و يقولون هو أذن) نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم و يعيبونه و يقولون مالاينبغى فقال بعضهم لاتفعلوا فانا نخاف أن يبلغه مانقولون فيقع بنا فقال الجلاس ابن سويد وهو من المنافقين بل نقول ماشئنا ثم نأتيه وننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فانما محمد أذن أى يسمع كل مايقال له و يقبله وقيل معنى هو أذن أى ذو أذن سامعة وقال محمد بن اسحق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث وكان ينم حديث النبى صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لاتفعل ذلك فقال انما محمد أذن فمن حدثه شيأ صدقه فنقول ماشئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فانزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن انه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل مايسمع فاجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (قل أذن خير لكم) يعنى هب انه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى انه مستمع خير وصلاح لامستمع شر وفساد وقرئ أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم و يصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين) يعنى انه يصدق المؤمنين و يقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وانما عدى الايمان بالله بالباء والايمان للمؤمنين باللام لان الايمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى الا بالباء فيقال آمنت بالله والايمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال الا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له (ورحمة) أى هو رحمة (للذين آمنوا منكم) وانما قال منكم لان المنافقين كانوا يزعمون انهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله انه رحمة للمؤمنين المخلصين لاللمنافقين وقيل فى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لانه يجرى أحكام

(ومنهم الذين يؤذون النبى و يقولون هو أذن) الاذن الرجل الذى يصدق كل مايسمع و يقبل قول كل أحد سمى بالجارحة التى هى آلة السماع كأن جملته أذن سامعة وايذاؤهم له هو قولهم فيه هو أذن قصدوا به المذمة وانه من أهل سلامة القلوب والغرة ففسره الله تعالى بما هو مدح له وثناء عليه فقال (قل أذن خير لكم) كقولك رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الاذن و يجوز أن يريد هو أذن فى الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس باذن فى غير ذلك ثم فسر كونه أذن خير بانه (يؤمن بالله) أى يصدق بالله لما قام عنده من الادلة (و يؤمن للمؤمنين) و يقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والانصار وعدى فعل الايمان بالباء الى الله لانه قصد به التصديق بالله الذى هو ضد الكفر به والى المؤمنين باللام لانه قصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم مايقولونه و يصدقه لكونهم صادقين عنده ألا ترى الى قوله وما أنت بمؤمن لنا كيف ينبئ عن الباء (ورحمة) بالعطف على أذن ورحمة حمزة عطف على خير أى هو أذن خير وأذن رحمة لايسمع غيرهما ولا يقبله (للذين آمنوا منكم) أى وهو رحمة للذين آمنوا منكم أى أظهروا

الايمان أيها المنافقون حيث يقبل ايمانكم الظاهر ولا يكشف أسراركم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر الى الايمان ويشفع لهم فى الآخرة بايمانهم فى الدنيا (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) فى الدارين (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) أى ان كنتم مؤمنين كما تزعمون فاحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا فى حكم شئ واحد كقولك احسان زيد واجماله رفعنى أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك (ألم يعلموا أنه) أن الامر والشان (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف وهى مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (فان له) على حذف الخبر أى فحق أن له (نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم يحذر المنافقون) خبر بمعنى الامر أى ليحذر المنافقون (ان تنزل عليهم سورة) تنزل بالتخفيف مكى وبصرى (تنبئهم بما فى قلوبهم) من الكفر والنفاق والضمائر للمنافقين لان السورة اذا نزلت فى معناهم فهى نازلة عليهم دليله قل استهزؤا أو الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين وصح ذلك لان المعنى يقود اليه (قل استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج ما تحذرون) مظهر ما كنتم تحذرونه أى تحذرون اظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفى استهزائهم بالاسلام وأهله حتى قال بعضهم وددت أنى قدمت فجلدت مائة وانه لا ينزل فينا شئ فضحنا

الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة ۞ قوله عز وجل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال قتادة والسدى اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله ان ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره فدعاهم فسألهم فانكروا وحلفوا ان عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبى صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبى نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون ويحلفون فانزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعنى فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ورسوله أحق أن يرضوه) اختلفوا فى معنى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لان فى رضا الله رضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله أحق أن يُرضوه بالتوبة والاخلاص وقيل يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله (إن كانوا مؤمنين) يعنى ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده فى الآخرة ۞ قوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) قال أهل المعانى ألم تعلم خطاب لمن علم شيأ ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم انه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعنى من شرائع الدين التى علمهم رسولنا (أنه من يحادد الله ورسوله) يعنى أنه من يخالف الله ورسوله وأصل المحادة فى اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اذا صار فى غير حده وخالفه فى أمره وقيل معنى يحادد الله ورسوله أى يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله (فأن له نار جهنم) أى فحق أن له نار جهنم (خالدا فيها) يعنى على الدوام (ذلك الخزى العظيم) يعنى ذلك الخلود فى نار جهنم هو الفضيحة العظيمة ۞ قوله عز وجل (يحذر المنافقون) يعنى يخشى المنافقون (أن تنزل عليهم سورة) يعنى على المؤمنين (تنبئهم) يعنى تخبر المؤمنين (بما فى قلوبهم) يعنى بما فى قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن فى شأنهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعنى انها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم وقال ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين باسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزؤا) أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم (إن الله مخرج) أى مظهر (ما تحذرون) والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يظهر الى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها وتنكروا له فى ليلة مظلمة فاخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود

ناقة

ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت اليهم من يقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عبادة قال قلت لعمار أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فان الرأى يخطئ ويصيب أم عهدا عهده اليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده الى الناس كافة وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فى أمتى قال شعبة وأحسبه قال حدثنى حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى أمتى اثنى عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك ما لقرائنا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله ابن عمر فنظرت اليه يعنى الى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة يقول انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ما يزيده قال محمد بن اسحق الذى قال هذه المقالة فيما بلغنى هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فاطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبى الله انما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون وقال الكلبى ومقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه أنزل فى أصحابنا قرآن انما هو قوله وكلامه فاطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب يعنى كنا نتحدث ونخوض فى الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث وأصل الخوض الدخول فى مائع كالماء مع الطين ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل فى كل دخول مع تلويث وأذى (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وانكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على ايقاع الاستهزاء بالله يعنى بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح فى قدرة الله وانما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء ۞ قوله عز وجل (لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) يعنى قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر اليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجانى قد كفرتم بعد ايمانكم يعنى أن الاستهزاء بالله كفر والاقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم فان قلت ان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد ايمانكم قلت معناه

(ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبى الله لا والله ما كنا فى شئ من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شئ مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر أى ولئن سألتهم وقلت لهم لم قلتم ذلك لقالوا انما كنا نخوض ونلعب (قل) يا محمد (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود فيهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلى حرف التقرير وذلك انما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء (لا تعتذروا) لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فانها لا تنفعكم بعد ظهور سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد ايمانكم) بعد اظهاركم الايمان

أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الايمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد ايمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد ان كنتم عندهم مؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين) ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخاشن بن حمير الاشجعى يقال انه هو الذى كان يضحك ولا يخوض وقيل انه كان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض مايسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع الى الاسلام وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فاصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه ۞ قوله سبحانه وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) يعنى انهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والاعمال الخبيثة كما يقول الانسان لغيره أنا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف) يعنى عن الايمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقبضون أيديَهُم) يعنى عن الانفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير (نسوا الله فنسيَهُم) هذا الكلام لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا لو حملناه على النسيان الحقيقى لم يستحقوا ذما عليه لان النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وأيضا فان النسيان فى حق الله محال فلابد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الاول معناه انهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بان صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الوجه الثانى ان النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والاحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لان من ترك شيأ لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والايمان به تركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى (ان المنافقين هم الفاسقون) يعنى هم الخارجون عن الطاعة (وعد الله المنافقين والمنافقاتِ والكفارَ) يقال وعده بالخير وعدا وأوعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر (نارَ جهنمَ خالدين فيها) فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها (هى حسبهم) يعنى هى كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الايمان والطاعة (ولعنهم الله) يعنى وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع فان قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه قلت ليس ذلك تكرارا وبيان الفرق من وجهين الاول ان معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار ولقائل أن يقول هذا التأويل مشكل لانه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شئ آخر الى عذاب النار وأجيب عن هذا الاشكال بان قوله هى حسبهم فى الايلام ولا يمتنع أن يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم الوجه الثانى أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو مايقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وماهم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم * قوله سبحانه وتعالى (كالذين من قبلكم) هذا رجوع عن الغيبة الى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كافعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الايدى عن فعل الخير والطاعة وقيل انه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لاجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بانهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا وأولادا

(ان نعف عن طائفة منكم) بتوبتهم واخلاصهم الايمان بعد النفاق (نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق غير تائبين منه ان يعف تعذب طائفة غير عاصم (المنافقون والمنافقات) الرجال المنافقون كانوا ثلثمائة والنساء المنافقات مائة وسبعين (بعضهم من بعض) أى كأنهم نفس واحدة وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى قولهم ويحلفون بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله وماهم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال (يأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المعروف) عن الطاعة والايمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمبار والصدقات والانفاق فى سبيل الله (نسوا الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله (ان المنافقين هم الفاسقون) هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف به المنافقون حين بالغ فى ذمهم (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) فيه دلالة على عظم عذابها وانه بحيث لا يزاد عليه (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين (ولهم عذاب مقيم) دائم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه وهو مايقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على أسرارهم الكاف فى (كالذين من قبلكم

وأولادا فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) يعنى بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) يعنى فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للانسان وقدر له من خير كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) وهذا خطاب للحاضرين يعنى فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) فان قلت ما الفائدة فى ذكر الاستمتاع بالخلاق فى حق الاولين مرة ثم ذكره فى حق المنافقين ثانيا ثم اعادة ذكره فى حق الاولين ثالثا قلت فائدته أنه يذم الاولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم فى الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع الى ذكر حال الاولين ثالثا وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق و يعذب بغير جرم فانت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم فى فعلهم ۞ وقوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) معطوف على ما قبله ومستند اليه يعنى وسلكتم فى فعلكم مثل ما سلكوا فى اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (أولئك حبطت أعمالهم) يعنى بطلت أعمالهم (فى الدنيا والآخرة) يعنى ان أعمالهم لا تنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة بل يعاقبون عليها (وأولئك هم الخاسرون) والمعنى انه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن ۞ وقوله تعالى (ألم يأتهم) رجع من الخطاب الى الغيبة يعنى ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أى قد أتاهم (نبأ) يعنى خبر (الذين من قبلهم) يعنى الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى (قوم نوح) يعنى أنهم أهلكوا بالطوفان (وعاد) أهلكوا بالريح العقيم (وثمود) أهلكوا بالرجفة (وقوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) يعنى المنقلبات التى جعل الله عاليها سافلها وهى مدائن قوم لوط وانما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية و بلادهم بالشأم والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم و يعرفون أخبارهم (أتتهم رسلهم بالبينات) يعنى بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم (فما كان الله ليظلمهم) يعنى بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى ان الذين استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم ۞ قوله عزوجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) لما وصف الله المنافقين بالاعمال الخبيثة والاحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد فى الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات فى الدنيا والآخرة فقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يعنى الموالاة فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة فان قلت انه سبحانه وتعالى قال فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض فما الفائدة فى ذلك قلت لما كان نفاق الاتباع وكفرهم انما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والاكابر

أى تلذذوا بملاذ الدنيا والخلاق النصيب مشتق من الخلق وهو التقدير أى ما خلق للانسان بمعنى قدر من خير (وخضتم) فى الباطل (كالذى خاضوا) كالفوج الذى خاضوا أو كالخوض الذى خاضوا والخوض الدخول فى الباطل واللهو وانما قدم فاستمتعوا بخلاقهم وقوله كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ليذم الاولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة وطلب الفلاح فى الآخرة ثم شبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم (أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) فى مقابلة قوله وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين (وأولئك هم الخاسرون) ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح) هو بدل من الذين (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين) وأهل مدين وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم) فما صح منه أن يظلمهم باهلاكهم لانه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الرسل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) فى التناصر والتراحم

وحصل بمقتضى الطبيعة أيضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بان بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (يأمرون بالمعروف) يعني بالايمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف في الشرع من خير وبر وطاعة (وينهون عن المنكر) يعني عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة ما وصف به المنافقون وضده (ويقيمون الصلاة) يعني الصلاة المفروضة ويتمون أركانها وحدودها (ويؤتون الزكاة) يعني الواجبة عليهم وهو في مقابلة ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) يعني فيما يأمرهم به وهو في مقابلة نسوا الله فنسيهم (أولئك) يعني المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات (سيرحمهم الله) لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد (ان الله عزيز حكيم) وهذا يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لان العزيز هو الذي لا يمتنع عليه شئ أراده فهو قادر على ايصال الرحمة لمن أراد وايصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذي يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والانصاف (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) لما ذكر الله في الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم في نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الانهار البساتين التي يتحير في حسنها الناظر لانه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما (ومساكن طيبة) يعني ومنازل يسكنونها طيبة (في جنات عدن) يعني في بساتين خلد واقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به وروى الطبري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة في جنات عدن قال قصر من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين وفي رواية في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع وروى بسنده عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن داره يعني دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك هكذا رواه الطبري فان صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها فقوله عدن داره يعني دار الله وهو من آب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله التي أعدها لاوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده عن أبي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الارداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن أخرجه البخاري ومسلم وقال عبد الله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعني وسطها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ان في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله الا نبي أو صديق أو شهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر في الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبي عدن أعلى درجة في الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الانبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من

(يأمرون بالمعروف) بالطاعة والايمان (وينهون عن المنكر) عن الشرك والعصيان (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في سأنتقم منك يوما (ان الله عزيز) على غالب كل شئ قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب (حكيم) واضع كلا موضعه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة) يطيب فيها العيش وعن الحسن رحمه الله قصورا من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزبرجد (في جنات عدن) هو علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن وقد عرفت ان الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمل وهي مدينة في الجنة

عليهم) فى الجهادين جميعا ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ماأمكن منها (ومأواهم جهنم وبئس المصير) جهنم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصارى للجلاس أجل والله ان محمدا صادق وأنت شر من الحمير وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله ماقال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) يعنى ان كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير أو هى استهزاؤهم فقال الجلاس يارسول الله

تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الابيض قال الامام فخر الدين الرازى حاصل هذا الكلام ان فى جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين فى الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوى هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله جنات عدن التى وعد الرحمن عباده والقول الثانى أنه صفة للجنة قال الازهرى العدن ماخوذ من قولك عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن ﴿وقوله سبحانه وتعالى (ورضوانٌ من الله أكبر) يعنى ان رضوان الله الذى ينزله عليهم أكبر من كل ماسلف ذكره من نعيم الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) اشارة الى ماتقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لانرضى ياربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأىُّ شيء أفضلُ من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط بعده عليكم أبدا ﴿قوله سبحانه وتعالى (ياأيها النبى جاهدِ الكفارَ) يعنى بالسيف والمحاربة والقتال (والمنافقين) يعنى وجاهد المنافقين واختلفوا فى صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف ان المنافق هو الذى يبطن الكفر ويظهر الاسلام ولما كان الامر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لاظهاره الاسلام فقال ابن عباس أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعنى اذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وانما قال الحسن وقتادة ذلك لان غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم المنافقون قال الطبرى وأولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس فى الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ عليهم) يعنى شدد عليهم بالجهاد والارهاب (ومأواهم جهنم وبئس المصير) يعنى أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم اليها فان قلت كيف ترك النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم قلت انما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على اظهارها فأما من تكلم بالكفر فى السر فاذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال انى مسلم فانه يحكم باسلامه فى الظاهر فى حقن دمه وماله وولده وان كان معتقدا غير ذلك فى الباطن لان الله سبحانه وتعالى أمر باجراء الاحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى لانه العالم باحوالهم وهو يجازيهم فى الآخرة بما يستحقون ﴿قوله عز وجل (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير نزلت فى الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ماجاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التى نحن عليها فقال مصعب أما والله ياعدو الله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت وخفت أن ينزل فىَّ القرآن أو أن تصيبنى قارعة أو أن أخلط بخطيئته فاتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا

والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وكفروا بعد اسلامهم) وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام وفيه دلالة على ان الايمان والاسلام واحد لانه قال وكفروا بعد اسلامهم

مخافة أن أخلط بخطيئته وتصيبني قارعة ما أخبرتك قال فدعا الجلاس فقال له يا جلاس قلت ما قال مصعب فحلف ما قال فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ما قالوا الآية وروى عن مجاهد نحوه وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل حجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمني أنت وأصحابك فانطلق الرجل فجاء باصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنهم فانزل الله عز وجل يحلفون بالله ما قالوا ثم نعتهم جميعا الى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا ان رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي ابن سلول للاوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليه فساله فحلف بالله ما قاله فانزل الله هذه الآية هذه روايات الطبري وذكر البغوي عن الكلبي قال نزلت في الجلاس بن سويد وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه عامر بن قيس فاخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يا رسول الله على فامرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا اله الا هو ما قاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا اله الا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده الى السماء فقال اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يا رسول الله أسمع الله قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب اليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم يعني أظهروا كلمة الكفر بعد اسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي صلى الله عليه وسلم فقيل هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي ابن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين ان شاء الله تعالى ۞ قوله سبحانه وتعالى (وهموا بما لم ينالوا) قال مجاهد هم الجلاس بقتل الذي سمع مقالته خشية ان يفشيها عليه وقيل هم عبد الله بن أبي ابن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا الى المدينة فلم ينله وقيل هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فاخبره وأمره ان يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فارسل حذيفة لذلك وقال السدي قال المنافقون اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي ابن سلول تاجا فلم يصلوا اليه (وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) يعني وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى ان المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وسلم أن نقموا عليه وقيل انهم بطروا النعمة فنقموا أشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه ليس ينقمون شيأ ولا يتعرفون الا الصنع وهذا كقول الشاعر

ما نقم الناس من أمية ✽ الا أنهم يحلمون ان غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وانما أراد ان الناس لا ينقمون عليهم شيأ فهو كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ✽ بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب قال الكلبي كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش فلما قدم

(وهموا بما لم ينالوا) من قتل محمد عليه السلام أو قتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا ابن أبي وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) وما أنكروا وما عابوا (الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وذلك انهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى

(فان يتوبوا) عن النفاق (يك) التوب (خيرا لهم) وهي الآية التي تاب عندها الجلاس (وان يتولوا) يصروا على النفاق

النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام عاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فامر له النبي صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن أبي دية فاخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة ان مولى لبني عدي قتل رجلا من الانصار فقضى له النبي صلى الله عليه وسلم بالدية اثني عشر ألفا وفيه نزلت وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله (فان يتوبوا يك خيرا لهم) يعني فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم في العاجل والآجل (وان يتولوا) يعني وان يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) يعني بالخزي والاذلال (والآخرة) أي ويعذبهم في الآخرة بالنار (ومالهم في الارض من ولي ولا نصير) يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة ۞ قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي امامة الباهلي قال جاء ثعلبة بن حاطب الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمالك في رسول الله اسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لاعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمى كما ينمى الدود فكان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم جمعة خرج فيتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال مافعل ثعلبة فقالوا يارسول الله اتخذ ثعلبة غنما مايسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا ماهذه عليك قال خذاها فان نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ماهذه الا جزية ماهذه الا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي قال فاقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فاخبراه بالذي صنع ثعلبة فانزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية الى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ان يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني ان أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتى أبا بكر فقال اقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا لا أقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال اقبل صدقتي

(يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) بالقتل والنار (ومالهم في الارض من ولي ولا نصير) ينجيهم من العذاب (ومنهم من عاهد الله) روى ان ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لاعطين كل ذي حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجمعة والجماعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال ياويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لاخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال ماهذه الا جزية وقال ارجعا حتى أرى رأيي فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يكلماه ياويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال ان الله منعني أن أقبل منك فجعل التراب على رأسه فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمن عثمان رضي الله عنه (لئن آتانا من فضله) أي المال (لنصدقن) انخرجن الصدقة والاصل لنتصدقن ولكن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرجهما

فقال لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر فانا لا أقبلها منك فلم يقبلها ثم ولي عثمان فاتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان وأخرجه الطبري أيضا باسناده قال بعض العلماء انما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لان الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على اخلافه ما عاهد الله عليه واهانة له على قوله انما هي جزية أو أخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه اهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى أنها واجبة عليه وانه يثاب على اخراجها ويعاقب على منعها وقال ابن عباس ان ثعلبة أتى مجلسا من مجالس الانصار فاشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فانزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت في ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به وقال ابن السائب ان حاطب ابن أبي بلتعة كان له مال بالشام فابطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله يعني ذلك المال لاصدقن منه ولاصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية حاصله ان ظاهر الآية يدل على ان بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهدا لئن رزقنا من فضله بان يوسع علينا في الرزق لنصدقن يعني لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته (ولنكونن من الصالحين) يعني ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح باموالهم من صلة الارحام والانفاق في سبيل الله وجميع وجوه البر والخير واخراج الزكاة وايصالها الى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع وقيل ان المراد بقوله لنصدقن اخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين اشارة الى كل ما يفعله أهل الصلاح على الاطلاق من جميع أعمال البر والطاعة (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) يعني فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيأ (وتولوا) يعني عما عاهدوا الله عليه (وهم معرضون) يعني عن العهد (فاعقبهم نفاقا في قلوبهم) يعني فاعقبهم الله نفاقا بان صيرهم منافقين يقال أعقبت فلانا ندامة اذا صارت عاقبة أمره الى ذلك وقيل معناه انه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم (الى يوم يلقونه) يعني انه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة الى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه (بما أخلفوا الله ما وعدوه) يعني الصدقة والانفاق في سبيله (وبما كانوا يكذبون) يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر قال الشيخ محيي الدين النووي هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث ان هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على ان من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد في النار فان اخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله اشكالا ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه ان هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في هذه الخصال ويتخلق باخلاقهم فان النفاق هو اظهار ما يبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الاسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الاسفل من النار وقوله صلى الله عليه

(ولنكونن من الصالحين) باخراج الصدقة (فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم (بخلوا به) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد (وتولوا) عن طاعة الله (وهم معرضون) مصرون على الاعراض (فاعقبهم نفاقا في قلوبهم) فاورثهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم لانه كان سببا فيه (الى يوم يلقونه) أي جزاء فعلهم وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) بسبب اخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ومنه جعل خلف الوعد ثلث النفاق

وسلم كان منافقا خالصا معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلا فيه هذا هو المختار في معنى الحديث وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فانهم حدثوا في ايمانهم فكذبوا وأتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فاخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء ابن أبي رباح ورجع اليه الحسن البصري بعد ان كان على خلافه وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وروياه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض واليه مال أكثر أئمتنا وحكى الخطابي قولا آخر ان معناه التحذير للمسلم ان يعتاد هذه الخصال وحكى أيضا عن بعضهم ان الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وانما يشير اشارة كقوله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يفعلون كذا والله أعلم وقال الامام فخر الدين الرازي ظاهر هذه الآية يدل على ان نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم ان يبالغ في الاحتراز عنه فاذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) يعني هؤلاء المنافقين (أن الله يعلم سرهم) يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق (ونجواهم) يعني ويعلم ما يفاوض به بعضهم بعضا فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى انهم يعلمون ان الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شئ منها (وأن الله علام الغيوب) وهذا مبالغة في العلم يعني ان الله عالم بجميع الاشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم ۞ قوله عز وجل (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) الآية (ق) عن أبي مسعود البدري قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشئ كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا ان الله لغني عن صاع هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الانصاري بصاع من تمر وقال يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فامسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون فقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم الارياء وان الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقة فانزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي في الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه (والذين لا يجدون الا جهدهم) يعني أبا عقيل الانصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعا عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لان الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير الذي أخرج القليل انما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج الى المال غيره رجاء ما عند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (فيسخرون منهم) يعني ان المنافقين كانوا يستهزؤن بالمؤمنين في انفاقهم المال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيا وكانوا يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون انه لفقير محتاج اليه فكيف يتصدق به وجوابهم ان كل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود ايثار

يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شئ (الذين) محله النصب أو الرفع على الذم أو الجر على البدل من الضمير في سرهم ونجواهم (يلمزون المطوعين) يعيبون المطوعين المتبرعين (من المؤمنين في الصدقات) متعلق بيلمزون روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فاقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي فقال عليه السلام بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على الثمانين ألفا وتصدق عاصم بمائة وسق من تمر (والذين) عطف على المطوعين (لا يجدون الا جهدهم) طاقتهم وعن نافع جهدهم وهما واحد وقيل الجهد الطاقة والجهد المشقة وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى

(سخر الله منهم) جازاهم على سخريتهم وهو خبر غير دعاء (ولهم عذاب أليم) مؤلم ولما سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يستغفر لابيه في مرضه نزل (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وقد مر أن هذا الامر في معنى الخبر كأنه قيل ان يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير وليس على التحديد والغاية اذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم لانهم كفار والله لا يغفر ان يكفر به والمعنى وان بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم وقد وردت الاخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية ووجه تخصيص

السبعين من بين سائر الاعداد ان العدد قليل وكثير فالقليل مادون الثلاث والكثير الثلاث فما فوقها وأدنى الكثير الثلاث وليس لاقصاه غاية والعدد أيضا نوعان شفع ووتر وأول الاشفاع اثنان وأول الاوتار ثلاثة والواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لان فيها أوتارا ثلاثة واشفاعا ثلاثة والعشرة كمال الحساب لان ما جاوز العشرة فهو اضافة الآحاد الى العشرة كقولك اثنا عشر وثلاثة عشر الى عشرين والعشرون تكرير العشرة مرتين والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك الى مائة فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لاقصاه فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى والله أعلم (ذلك) اشارة الى اليأس من المغفرة (بأنهم) بسبب انهم (كفروا بالله ورسوله) ايثار ولا غفران للكافرين (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الايمان ما داموا مختارين للكفر والطغيان (فرح المخلفون) المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان (بمقعدهم) بقعودهم عن الغزو (خلاف رسول الله) مخالفة له وهو مفعول له أو حال أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) أي لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين

ذلك الثواب الموعود به ۞ وقوله سبحانه وتعالى (سخر الله منهم) يعني انه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ۞ ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة ۞ قوله سبحانه وتعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) قال المفسرون لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذا كلام خرج مخرج الامر ومعناه الخبر تقديره استغفرت لهم يا محمد أو لم تستغفر فلن يغفر الله لهم وانما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لان العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صلى على عمه حمزة رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولان آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فان السموات سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة في اليأس من طمع المغفرة لهم قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فانزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله يعني ابن أبي ابن سلول جاء ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فاخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما خيرني الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال انه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد في رواية فترك الصلاة عليهم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله) يعني ان هذا الفعل من الله وهو ترك عفوه عنهم وترك المغفرة لهم من أجل انهم اختاروا الكفر على الايمان بالله ورسوله (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يعني والله لا يوفق للايمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ۞ قوله عز وجل (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) يعني فرح المخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعني بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعني بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لان الانسان اذا توجه الى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار الى تبوك وأقاموا بالمدينة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بالخروج الى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى (وكرهوا أن يجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله) والمعنى انهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج الى الجهاد وذلك ان الانسان يميل بطبعه الى

ايثار الراحة والقعود مع الاهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لا تنفروا فى الحر) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر فاجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) يعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد فى الحر ان نار جهنم التى هى موعدهم فى الآخرة أشد حرا من حر الدنيا لو كانوا يعلمون قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك فى الصيف فقال رجال يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا فى الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فامره الله تعالى بالخروج (فليضحكوا قليلا) يعنى فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا فى الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه (وليبكوا كثيرا) يعنى مكان ضحكهم فى الدنيا وهذا وان ورد بصيغة الامر الأن معناه الاخبار والمعنى انهم وان فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم فى الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة الى الدائم الباقى قليل (جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى أن ذلك البكاء فى الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة فى الدنيا (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وروى البغوى بسنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كانها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو ان سفنا أجريت فيها لجرت ۞ قوله سبحانه وتعالى (فان رجعك الله) يعنى فان ردك الله يا محمد من غزاتك هذه (الى طائفة منهم) يعنى الى المتخلفين عنك وانما قال منهم لانه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقا مثل أصحاب الاعذار (فاستأذنوك للخروج) يعنى فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحققت نفاقهم فى الخروج معك الى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معى أبدا) يعنى فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معى أبدا لا الى غزوة ولا الى سفر (ولن تقاتلوا معى عدوا انكم) يعنى لانكم (رضيتم بالقعود أول مرة) يعنى انكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) يعنى مع المتخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع الخالفين يقال صاحبه خالفه اذا كان مخالفا كثير الخلاف وفى الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لان الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وابعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم اذا خرجوا الى الغزوات قوله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية قال قتادة بعث عبد الله بن أبى ابن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فاتاه نبى الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه نبى الله صلى الله عليه وسلم قال أهلكك حب اليهود فقال يا نبى الله انى لم أبعث اليك لتؤنبنى ولكن بعثت اليك لتستغفر لى وسأله قميصه أن يكفن فيه فاعطاه اياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فكفنه فى قميصه صلى الله عليه وسلم ونفث فى جلده ودلاه فى قبره فانزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب قال لما مات عبد الله بن أبىّ ابن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت اليه فقلت يا رسول الله أتصلى على ابن أبىّ ابن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا أعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عنى

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) أى فيضحكون قليلا على فرحهم بتخلفهم فى الدنيا ويبكون كثيرا جزاء فى العقبى الا انه أخرج على لفظ الامر للدلالة على انه حتم واجب لا يكون غيره يروى ان أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم (جزاء بما كانوا يكسبون) من النفاق (فان رجعك الله) أى ردك من تبوك وانما قال (الى طائفة منهم) لان منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة بعد غزوة تبوك (فقل لن تخرجوا معى أبدا) وبسكون الياء حمزة وعلى وأبو بكر (ولن تقاتلوا معى عدوا) معى حفص (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) أول ما دعيتم الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) مع من تخلف بعد وسأل ابن عبد الله بن أبىّ وكان مؤمنا ان يكفن النبى صلى الله عليه وسلم أباه فى قميصه ويصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضى الله عنه فى ذلك فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه فنزل (ولا تصل على أحد منهم) من المنافقين يعنى صلاة الجنازة روى انه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى صلى الله عليه وسلم (مات) صفة لاحد (أبدا) ظرف لتصل وكان عليه السلام اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فقيل

يا عمر فلما أكثرت عليه قال انى خيرت فاخترت لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث الا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم وأخرجه الترمذى وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أبى بعد ما أدخل حفرته فامر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم قال وكان كساعباسا قميصا قال سفيان وقال أبو هرون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال له ابن عبد الله يا رسول الله ألبس عبد الله قميصك الذى يلى جلدك قال سفيان فيرون أن النبى صلى الله عليه وسلم ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفى رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر أتى بالاسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبى صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر عليه فكساه النبى صلى الله عليه وسلم اياه فلذلك نزع النبى صلى الله عليه وسلم قميصه الذى ألبسه

﴿فصل﴾ قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات ففى حديث ابن عمر المتقدم أنه لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول أتى ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلى عليه فاعطاه قميصه وصلى عليه وفى حديث عمر ابن الخطاب من افراد البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعى له ليصلى عليه وفى حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه بعد ما أدخل حفرته فامر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه قميصه فكفن فيه ثم انه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وليس فى حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولا كما فى حديث عمر وابن عمر ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ثانيا بعد ما أدخل حفرته فاخرجه منها ونزع عنه القميص الذى أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم انه صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبى تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا وأما قول قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده فى مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلى عليه فاعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث فى جلده ودلاه فى حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب الا توفيقا بين الاحاديث فيكون قوله ونفث فى جلده ودلاه فى قبره جملة منقطعة عما قبلها يعنى أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعد ما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم وقال القرطبى فى شرح صحيح مسلم له ان عبد الله بن أبى بن سلول كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم وانصرف اليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الاسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا فى المنافقين وأعظمهم نفاقا وأشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعنى ولد عبد الله بن أبى من فضلاء الصحابة وأصدقهم اسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا وكان أبر الناس بابيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله انك لتعلم أنى من أبر الناس بابى وان أمرتنى أن آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على اسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبى صلى الله عليه وسلم بشئ ولذلك لما مات أبوه سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فاعطاه وسأله أن يصلى عليه فصلى عليه كل ذلك اكراما لابنه عبد الله واسعافا له ولطلبته وقول عمر تصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع

فى خاطره ان الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الالهام والتحديث الذى شهد له به النبى صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم أولا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبى والذى يظهر لى والله أعلم أن البخارى ذكر هذا الحديث من رواية بن عباس وساقه سياقة هى أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبى بن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت اليه الحديث الى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبى وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شئ من الاشكال المتقدم فهو الاولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما فى حديث ابن عباس عن بن عمر فان فيه لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الاحاديث يفسر بعضها بعضا ويقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو أعلم أنى ان زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم أنى خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهى عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التى فيها التخيير والجواب عن هذا الاشكال أن المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك وأما استغفاره لاولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم صلى الله عليه وسلم أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وان وقع كان تطييبا لقلوب الاحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الاشكال بحمد الله والله أعلم وقال الشيخ محيى الدين النووى انما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا صالحا وقد سأل ذلك فاجابه اليه وقيل بل أعطاه مكافاة لعبد الله بن أبى المنافق الميت لانه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا وفى الحديث بيان مكارم أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الايذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال البغوى قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحب أن يكافئه بها ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبد الله بن أبى فقال صلى الله عليه وسلم وما يغنى عنه قميصى وصلاتى من الله والله انى كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبى صلى الله عليه وسلم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولا تقم على قبره) يعنى لا تقف عليه ولا تتولى دفنه من قولهم قام فلان بامر فلان اذا كفاه أمره وناب عنه فيه (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها فان قلت الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر فى تعليل هذا النهى كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة فى وصفه بكونه فاسقا بعدما وصفه بالكفر قلت ان الكافر قد يكون عدلا فى نفسه بان يؤدى الامانة ولا يضمر لاحد سوأ وقد يكون خبيثا فى نفسه كثير الكذب والمكر والخداع واضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر ۞ قوله تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الكلام على هذه الآية فى مقامين ۞ المقام الاول فى وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل أولا وتأكيده وارادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد ان العمل به مهم وانما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو ان أشد الاشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة فى التحذير

(ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل للنهى أى أنهم ليسوا باهل للصلاة عليهم لانهم كفروا بالله ورسوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) التكرير للمبالغة والتأكيد وان يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد أنه مهم ولان كل آية فى فرقة غير الفرقة الاخرى

(واذا أنزلت سورة) يجوز أن يراد سورة بتمامها وأن يراد بعضها كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه (أن آمنوا بالله) بأن آمنوا أوهى ان المفسرة (وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم) ذو والفضل والسعة (وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) مع الذين لهم عذر فى التخلف كالمرضى والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى النساء جمع خالفة (وطبع على قلوبهم) ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق (فهم لا يفقهون) مافى الجهاد من الفوز والسعادة ومافى التخلف من الهلاك والشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ان تخلف هؤلاء فقد نهض الى الغزو من هو خير منهم (وأولئك لهم الخيرات) تناول منافع الدارين لاطلاق اللفظ وقيل الحور لقوله فيهن خيرات (وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) قوله أعد دليل على أنها مخلوقة (وجاء

من ذلك الشئ الذى وقع الاهتمام به وقيل أيضا انما كرر هذا المعنى لانه أراد بالآية الاولى قوما من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الاخرى أقواما آخرين منهم ❁ المقام الثانى فى وجه بيان ما حصل من التفاوت فى الالفاظ فى هاتين الآيتين وذلك انه قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما انه عطف الآية الاولى على قوله ولا ينفقون الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للاموال والاولاد فحسن العطف عليه بالفاء فى قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه ان حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الاموال والاولاد وكان اعجابهم بأولادهم أكثر وفى اسقاط حرف لا هنا دليل على انه لا تفاوت بين الامرين قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى انما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل فى أحكام الله محال وانه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا الا أن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وقال تعالى هنا فى الدنيا والفائدة فى اسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة الى حيث انها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها فهذه جمل فى ذكر الفرق بين هذه الالفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ۞ قوله عز وجل (واذا أنزلت سورة) يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لان اطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لانها مشتملة على الامر بالايمان والامر بالجهاد (أن) أى بأن (آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله) فان قلت كيف يأمرهم بالايمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت معناه الامر بالدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل ان الامر بالايمان يتوجه على كل أحد فى كل ساعة وقيل ان هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى ان اخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير ايمان لا يفيد أصلا فكأنه قيل للمنافقين الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولا وتجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها فى الدنيا والآخرة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (استأذنك أولو الطول منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفى تخصيص أولى الطول بالذكر قولان أحدهما ان الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد والقول الثانى انما خص أولى الطول بالذكر لان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى الاستئذان (وقالوا) يعنى أولى الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) يعنى فى البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت فلا يخرجن منها والمعنى رضوا بأن يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) يعنى وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لا يفقهون مراد الله فى الامر بالجهاد ۞ قوله سبحانه وتعالى (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هم خير منهم يعنى الرسول والمؤمنين (وأولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطالب ۞ قوله سبحانه وتعالى (أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) بيان لما لهم من الخيرات الاخروية ۞ قوله سبحانه وتعالى (وجاء

المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) يعني وجاء المعتذرون من أعراب البوادي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه في التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين اليه دفاعا عن أنفسهم فقالوا يانبي الله ان نحن غزونا معك تغير أعراب طيئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم وقيل هم نفر من بني غفار رهط خفاف بن ايماء بن رحضة وقيل هم من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فاذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون أي المقصرون يعني أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى ان له عذرا ولا عذر له وقيل ان الاصل في هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار في كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد

* ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر * يعني فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذي هو التقصير يقال عذر تعذيرا اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام قال ان قوما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الاعراب الذين ما جاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وانما قال منهم لانه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في ايمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه ۞ قوله عز وجل (ليس على الضعفاء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الاعذار الحقيقية الصحيحة وَعَذَرَهُم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخليقة ضعيفا نحيفا ويدل على ان هؤلاء الاصناف هم الضعفاء ان الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى (ولا على المرضى) والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فاما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لان العاجز عن نفقة الغزو معذور (حرج) أي ليس على هؤلاء الاصناف الثلاثة حرج أي اثم في التخلف عن الغزو وقال الامام فخر الدين الرازي ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم انه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا نصحوا لله ورسوله) ومعناه أنهم اذا أقاموا في البلد احترزوا عن افشاء الاراجيف واثارة الفتن وسعوا في ايصال الخير الى أهل المجاهدين الذين خرجوا الى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم وأخلصوا الايمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الامور تجرى مجرى النصح لله ورسوله (ما على المحسنين من سبيل) أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه

المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) هو من عذر في الامر اذا قصر فيه وتوانى وحقيقته أن يوهم ان له عذرا فيما فعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء في الذال ونقل حركتها الى العين وهم الذين يعتذرون بالباطل قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فاذن لنا في التخلف (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) منافقو الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم) من الاعراب (عذاب أليم) في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار (ليس على الضعفاء) الهرمى والزمنى (ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) هم الفقراء من مزينة وجهينة وبني عذرة (حرج) اثم وضيق في التأخر (اذا نصحوا لله ورسوله) بان آمنوا في السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه (ما على المحسنين) المعذورين الناصحين (من سبيل)

أى لاجناح عليهم ولاطريق للعتاب عليهم (والله غفور) يغفر تخلفهم (رحيم) بهم (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) لتعطيهم الحمولة
(قلت) حال من الكاف فى أتوك وقد قبله مضمرة أى اذا ما أتوك قائلا (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا) هو جواب اذا

الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى انه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل ان كل مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله مخلصا من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله الا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) يعنى لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع (رحيم) يعنى انه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو وأصحابه وقال الضحاك نزلت فى عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ۞ ولما ذكر الله عز وجل هذه الاقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى (ولا على الذين اذا ما أتوك) يعنى ولا حرج ولا اثم فى التخلف عنك على الذين اذا ما أتوك (لتحملهم) يعنى يسألونك الحملان ليبلغوا الى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد قال ابن اسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف حرمى بن عمير ومن بنى مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى وقال البغوى هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الانصارى وعلبة بن زيد الانصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل المزنى قال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ان الله عز وجل قد ندبنا الى الخروج معك فاحملنا فقال لا أجد ما أحملكم عليه وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان بنو مقرن وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع) قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل (حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) يعنى على أنفسهم فى الجهاد (انما السبيل) لما قال الله سبحانه وتعالى ما على المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له انما السبيل يعنى انما تتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد معك (وهم أغنياء) يعنى قادرين على الخروج معك (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) يعنى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم (وطبع الله على قلوبهم) يعنى ختم عليها (فهم لا يعلمون) ما فى الجهاد من الخير فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع ۞ قوله سبحانه وتعالى (يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم) يعنى يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد اليك وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل أنهم اعتذروا اليه والى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون اليكم يعنى بالاعذار الباطلة الكاذبة اذا رجعتم اليهم يعنى من سفركم (قل) أى قل لهم يا محمد (لا تعتذروا) قال البغوى روى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا (لن نؤمن لكم) يعنى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به (قد نبأنا الله من أخباركم) يعنى قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم

(وأعينهم تفيض من الدمع) أى تسيل كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من تفيض دمعها لان العين جعلت كأنها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز ويجوز أن يكون قلت لا أجد استئنافا كأنه قيل اذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل ما لهم تولوا باكين فقيل قلت لا أجد ما أحملكم عليه الا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (حزنا) مفعول له (ألا يجدوا ما ينفقون) لئلا يجدوا ما ينفقون ومحله نصب على أنه مفعول له وناصبه حزنا والمستحملون أبو موسى الاشعرى وأصحابه أو البكاؤن وهم ستة نفر من الانصار (انما السبيل على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) وقوله (رضوا) استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأن يكونوا مع الخوالف) أى بالانتظام فى جملة الخوالف (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون يعتذرون اليكم) يقيمون لانفسهم عذرا باطلا (اذا رجعتم اليهم) من هذه السفرة (قل لا تعتذروا) بالباطل (لن نؤمن لكم) لن نصدقكم وهو علة للنهى عن الاعتذار لان الغرض ان المعتذر يصدق فيما يعتذر به (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء تصديقهم لانه تعالى اذا أوحى الى رسوله الاعلام بأخبارهم وما فى ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم

(وسيرى)

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أتتوبون أم تثبتون على كفركم (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) أى تردون اليه وهو عالم كل سر وعلانية (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم على حسب ذلك (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم) لتتركوهم ولا توبخوهم (فاعرضوا عنهم) فاعطوهم طلبتهم (انهم رجس) تعليل لترك معاتبتهم أى ان المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لانهم

(وسيرى الله عملكم ورسوله) يعنى فى المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل يحتمل أنهم وعدوا بان ينصروا المؤمنين فى المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم) يعنى فيخبركم (بما كنتم تعملون) لانه هو المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد ۞ قوله عز وجل (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) يعنى اذا رجعتم من سفركم اليهم يعنى الى المتخلفين بالمدينة من المنافقين (لتعرضوا عنهم) يعنى لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم (فاعرضوا عنهم) يعنى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعنى لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى ان هؤلاء المنافقين طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت ۞ ثم ذكر العلة فى سبب الاعراض عنهم فقال تعالى (انهم رجس) يعنى أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة (ومأواهم) يعنى مسكنهم فى الآخرة (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى من الاعمال الخبيثة فى الدنيا قال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فانزل الله عز وجل هذه الآية والتى بعدها (يحلفون لكم لترضوا عنهم) يعنى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم (فان ترضوا عنهم) يعنى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) يعنى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبدا ۞ وقوله سبحانه وتعالى (الاعراب أشد كفرا ونفاقا) نزلت فى سكان البادية يعنى ان أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر قال أهل اللغة يقال رجل عربى اذا كان نسبه فى العرب وجمعه العرب ورجل أعرابى اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلا ويجمع الاعرابى على الاعراب والاعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الاعراب فالاعرابى اذا قيل له يا عربى فرح بذلك والعربى اذا قيل له يا أعرابى غضب والعرب أفضل من الاعراب لان المهاجرين والانصار وعلماء الدين من العرب والسبب فى كون الاعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى (وأجدر) يعنى وأخلق وأحرى (ألا يعلموا) يعنى بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعنى الفرائض والسنن والاحكام (والله عليم) يعنى بما فى قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) يعنى لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على امساكه عقابا انما ينفق خوفا أو رياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى ان من الاعراب من يعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل الله غرامة لانه لا ينفق ذلك الا خوفا من المسلمين أو مراآة لهم ولم يرد بذلك الانفاق وجه الله وثوابه (ويتربص) يعنى وينتظر (بكم الدوائر) يعنى بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التى تأتى مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رباب يعنى تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) يعنى بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون فى

أرجاس لا سبيل الى تطهيرهم (ومأواهم جهنم) ومصيرهم النار يعنى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم (جزاء بما كانوا يكسبون) أى يجزون جزاء كسبهم (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك فى دنياهم (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فان رضاكم وحدكم لا ينفعهم اذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها وانما قيل ذلك لئلا يتوهم ان رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم (الاعراب) أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن العلم والعلماء (وأجدر ان لا يعلموا) وأحق بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعنى حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والاحكام ومنه قوله عليه السلام ان الجفاء

والقسوة فى الفدادين يعنى الاكرة لانهم يفدون أى يصيحون فى حروثهم والفديد الصياح (والله عليم) باحوالهم (حكيم) فى امهالهم (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) أى يتصدق (مغرما) غرامة وخسرانا لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء المثوبة عنده (ويتربص بكم الدوائر) أى دوائر الزمان وتبدل الاحوال بدور الايام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من اعطاء الصدقة (عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور المصائب والحروب التى يتوقعون وقوعها فى المسلمين السوء بمكى

محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودينه الا ما يسوءهم (والله سميع) يعني لأقوالهم (عليم) يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وارادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في اعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر ابن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا فقال نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة وفي رواية أن الاقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وسلم انما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت ان كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها زاد مسلم في رواية أما اني لم أقلها لكن الله قالها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش والانصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة الى الله تعالى (وصلوات الرسول) يعني ويرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى (ألا انها قربة لهم) يحتمل أن يعود الضمير في انها الى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود الى الانفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لان الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها قربة لهم (سيدخلهم الله في رحمته) وهذه النعمة هي أقصى مرادهم (ان الله غفور) للمؤمنين المنفقين في سبيله (رحيم) يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة ۞ قوله سبحانه وتعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) اختلف العلماء في السابقين الاولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لانهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وأردت الفتن فقال ان الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الاولون الى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم باحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأني لم أقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء في أول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على ان خديجة أول الخلق اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والصحيح أنه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله

وأبو عمرو وهو العذاب والسوء بالفتح ذم للدائرة كقولك رجل سوء في مقابلة قولك رجل صدق (والله سميع) لما يقولون اذا توجهت عليهم الصدقة (عليم) بما يضمرونه (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق) في الجهاد والصدقات (قربات) أسبابا للقربة (عند الله) وهو مفعول ثان ليتخذ (وصلوات الرسول) أي دعاءه لانه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى (ألا انها) أي النفقة أو صلوات الرسول (قربة لهم) قربة نافع وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الامر وتمكنه وكذلك (سيدخلهم الله في رحمته) جنته وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين وان الصدقة منه بمكان اذا خلصت النية من صاحبها (ان الله غفور) يستر عيب المخل (رحيم) يقبل جهد المقل (والسابقون) مبتدأ (الاولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم وهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو بيعة الرضوان (والانصار) عطف على المهاجرين أي ومن الانصار وهم أهل بيعة العقبة

تعالى

تعالى عنهم فهؤلاء الاربعة سباق الخلق الى الاسلام قال ابن اسحق فلما أسلم أبو بكر أظهر اسلامه ودعا الناس الى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو الى الاسلام من يثق به من قومه فاسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فاسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس الى الاسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول الى الاسلام وأما السابقون من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الاولى ٢ وكانوا ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رباب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الانصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير الى أهل المدينة يعلمهم القرآن فاسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل ان المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه ان الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقي اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين والانصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا وجب صرف اللفظ المجمل اليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضا أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث ان الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ۞ قوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) قيل هم بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والانصار في الايمان والهجرة والنصرة الى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو ان أحدا وفي رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه أراد بالقرن في الحديث الاول أصحابه والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة والمد المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والانفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة وقوله سبحانه وتعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه) يعني رضي الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة (وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) ۞ قوله سبحانه وتعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون) ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي انهم من اعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعني ومن هؤلاء الاعراب منافقون وما ذكروه مشكل لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون

الاولى وكانوا سبعة نفر وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم باحسان) من المهاجرين والانصار فكانوا سائر الصحابة وقيل هم الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة والخبر (رضي الله عنهم) باعمالهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضي (جنات تجري تحتها الانهار) من تحتها مكي (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم وممن حولكم) يعني حول بلدتكم وهي المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها

---

٢ قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب وقوله في الهامش سبعة تبع فيه الكشاف وهو مخالف لما في المواهب وما هنا اهـ

(ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدا الذى هو ومن حولكم والمبتدا منافقون و يجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) أى تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف وعلى الوجه الاول لايخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها و بينه بمعطوف على خبره ودل على مهارتهم فيه بقوله (لاتعلمهم) أى يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم فى تحامى مايشككك فى أمرهم ثم قال (نحن نعلمهم) أى لايعلمهم الا الله ولايطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر فى سويداء قلوبهم و يبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين (سنعذبهم مرتين) هما القتل وعذاب القبر أو الفضيحة وعذاب القبر أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم (ثم يردون الى عذاب عظيم) أى عذاب النار (وآخرون) أى قوم آخرون سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم) أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بانهم بئس مافعلوا نادمين وكانوا عشرة فسبعة منهم لما بلغهم مانزل فى المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر والله له أنهم أقسموا أن لايحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم فقال وأنا أقسم أن لاأحلهم حتى أومر فيهم فنزلت

على القليل لان لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم وأما الطبرى فانه أطلق القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال فى تفسير هذه الآية من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الاعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوى (ومن أهل المدينة) من الاوس والخزرج منافقون (مردوا على النفاق) فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعنى مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد فى معصيته أى مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن اسحق لجوا فيه وأبوا غيره وقال ابن زيد أقاموا عليه ولم يتوبوا منه (لاتعلمهم) يعنى أنهم بلغوا فى النفاق الى حيث أنك لاتعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الاسرار (نحن نعلمهم) يعنى لكن نحن نعلمهم لانه لايخفى علينا خافية وان دقت (سنعذبهم مرتين) اختلف المفسرون فى العذاب الاول مع اتفاقهم على أن العذاب الثانى هو عذاب القبر بدليل قوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) وهو عذاب النار فى الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة فى الدنيا ومرة فى القبر ومرة فى الآخرة أما المرة الاولى وهى التى اختلفوا فيها فقال الكلبى والسدى قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فى يوم جمعة فقال اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق فاخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لان الله سبحانه وتعالى قال لاتعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الاول هو القتل والسبى وهذا القول ضعيف لان أحكام الاسلام فى الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الاولى هى الدبيلة فى الدنيا وقد جاء تفسيرها فى الحديث بانها خراج من نار تظهر فى أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعنى تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الاولى هى المصائب فى الاموال والاولاد فى الدنيا والآخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الاولى اقامة الحدود عليهم فى الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن اسحق الاولى هى مايدخل عليهم من غيظ الاسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والاخرى عذاب القبر وقيل احداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والاخرى عذاب القبر وقيل الاولى احراق مسجدهم مسجد الضرار والاخرى احراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون الى عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم يخلدون فيه قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) فيه قولان أحدهما أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الاعراب منافقون والعطف موهم و يعضده مانقله الطبرى عن ابن عباس أنه قال هم الاعراب والقول الثانى وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت فى جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك واختلف المفسرون فى عددهم فروى عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى عنه أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة وقيل كانوا ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون من الضلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا

والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنا و يعذرنا فربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فلما رجع النبى صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر باطلاقهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فانزل الله عز وجل هذه الآية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فاطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فانزل الله خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت هذه الآية فى أبى لبابة خاصة واختلفوا فى ذنبه الذى تاب منه فقال مجاهد نزلت فى أبى لبابة حين قال لبنى قريظة ان نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار الى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا أحل نفسى ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فانزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال أبو لبابة يارسول الله ان من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة الى الله والى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث ياأبا لبابة قالوا جميعا فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لان الله سبحانه وتعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم لان لفظة من تقتضى التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتى خبرهم وأما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعانى الاعتراف عبارة عن الاقرار بالشئ ومعناه انهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهى أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم باعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على مافعلوا فان قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا قلت مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فاذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضى من الذنب والعزم على تركه فى المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) قيل أراد بالعمل الصالح اقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيئ هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سائر الغزوات والسيئ هو تخلفهم عنه فى غزوة تبوك وقيل ان العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيئ ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية فى حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وروى الطبرى عن أبى عثمان قال مافى القرآن آية أرجى عندى لهذه الامة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم فان قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيئ مخلوطا فما المخلوط به قلت ان الخلط عبارة عن الجمع المطلق فاما قولك خلطته فانما يحسن فى الموضع الذى يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الاصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئ ذكره غالب المفسرين وأنكره الامام فخر الدين الرازى وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لان العمل الصالح والعمل السيئ اذا حصلا معا بقى كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فان عندنا القول بالاحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفى القول بالمحابطة وانه بقى كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس الا الجمع المطلق وقال الواحدى العرب تقول

فاطلقهم فقالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيأ فنزل خذ من أموالهم صدقة (خلطوا عملا صالحا) خروجا الى الجهاد (وآخر سيئا) تخلفا عنه أو التوبة والاثم وهو من قولهم بعت الشاة شاة ودرهما أى شاة بدرهم قالوا بمعنى الباء لان الواو للجمع والباء للالصاق فيتناسبان أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك خلطت الماء باللبن لانك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به واذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما كانك قلت خلطت الماء باللبن واللبن بالماء

خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيداوعمرا او لوا وفي الآية أحسن من الباء لانه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط ألا ترى ان العمل الصالح لايختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) قال ابن عباس وجمهور المفسرين عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك وقال أهل المعاني لفظة عسى هنا تفيد الطمع والاشفاق لانه أبعد من الاتكال والاهمال وقيل ان الله سبحانه وتعالى لايجب عليه شئ بل كل مايفعله على سبيل التفضيل والتطول والاحسان فذكر لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين الترجي والاشفاق ولكن هو الى نيل مايرجوه منه أقرب لانه ختم الآية بقوله (ان الله غفور رحيم) وهذا يفيد انجاز الوعد ﴿ قوله سبحانه وتعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) قال ابن عباس لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحباه فأتوا باموالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا آخذ شيأ منها حتى أومر به فانزل الله عز وجل خذ من أموالهم صدقة الآية وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم هو راجع الى هؤلاء الذين تابوا وذلك انهم بذلوا أموالهم صدقة فاوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبرا في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم ان الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن اسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منهم وقال بعضهم ان الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذها من الاغنياء ودفعها الى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على ايجاب أخذ الزكاة أما حجة أصحاب القول الاول فانهم قالوا ان الآيات لابد وان تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها ولان جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها انها نزلت في شأن التائبين وأما أصحاب القول الاخير فانهم قالوا المناسبة حاصلة أيضا على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف هو حب المال أمروا باخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولايمنع من خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا ان الزكاة قدر معلوم لايبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا لايمنع هذا صحة ماقلناه لانهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلان يكونوا راضين باخراج الزكاة أولى ثم في هذه الآية أحكام الاول قوله سبحانه وتعالى خذ من أموالهم صدقة الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم أي خذ يامحمد من أموالهم صدقة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الائمة فيجوز للامام أونائبه ان يأخذ الزكاة من الاغنياء ويدفعها الى الفقراء الحكم الثاني قوله من أموالهم ولفظة من تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق الا الصدقة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها في أخذ الزكاة الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم ان الزكاة انما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لايمكن حصولها الا من البالغ دون الصبي فوجب ان تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي بانه لايلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال الاول أن معناه خذ يامحمد من أموالهم صدقة فانك تطهرهم باخذها من دنس الآثام القول الثاني أن يكون تطهرهم متعلقا بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فانها طهرة لهم وانما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء ان

(عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) ولم يذكر توبتهم لانه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة (خذ من أموالهم صدقة) كفارة لذنوبهم وقيل هي الزكاة (تطهرهم عن الذنوب وهو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو لغيبة المؤنث والتاء في (وتزكيهم) للخطاب لامحالة (بها) بالصدقة والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه أو بمعنى الانماء والبركة في المال

الصدقة من أوساخ الناس فاذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الاوساخ وكان ذلك الاندفاع جار يامجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها القول الثالث أن تجعل التاء فى قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب و يكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد باخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة القول الرابع أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعنى ترفع منازلهم عن منازل المنافقين الى منازل الابرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أى تنمى أموالهم ببركة أخذها منهم الحكم الخامس قوله سبحانه (وصل عليهم) يعنى ادع لهم واستغفر لهم لان أصل الصلاة فى اللغة الدعاء قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه السنة للامام اذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما أعطيت و بارك لك فيما أبقيت وقال بعضهم يجب على الامام أن يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب فى صدقة الفرض و يستحب فى صدقة التطوع وقيل يجب على الامام و يستحب للفقير أن يدعو للمعطى وقال بعضهم يستحب أن يقول اللهم صل على فلان و يدل عليه مار وى عن عبد الله بن أبى أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فاتاه أبى بصدقته فقال اللهم صل على آل أبى أوفى أخرجاه فى الصحيحين ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ان صلاتك) وقرئ صلواتك على الجمع (سكن لهم) يعنى أن دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقيل ان الله قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل ان السكن ماسكنت اليه النفس والمعنى أن صلواتك توجب سكون نفوسهم اليها والمعنى ان الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم (والله سميع) يعنى لاقوالهم أو لدعائك لهم (عليم) يعنى بنياتهم (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) هذه صيغة استفهام الا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا ان الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل ان المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة و بذل الصدقات وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم فانزل الله هذه الآية ترغيبا لهم فى التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لا فرق بين عن عباده ومن عباده اذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك وقيل بينهما فرق ولعل عن فى هذا الموضع أبلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها ۞ وقوله سبحانه وتعالى (و يأخذ الصدقات) يعنى يقبلها و يثيب عليها وانما ذكر لفظ الاخذ ترغيبا فى بذل الصدقة واعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها ولما كان هو المجازى عليها والمثيب بها أسند الاخذ الى نفسه وان كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفى هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وان الله سبحانه وتعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله لفظ مسلم وفى البخارى من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب وفى رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل وأخرجه الترمذى ولفظه ان الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة و يأخذها بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد وتصديق ذلك فى كتاب الله سبحانه وتعالى ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات و يمحق الله الربا و يربى الصدقات وقوله من كسب طيب أى حلال وذكر اليمين والكف فى الحديث كناية عن قبول الصدقة وان الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطى لان من عادة الفقير أو

(وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم والسنة ان يدعو المصدق لصاحب الصدقة اذا أخذها (ان صلواتك) صلاتك كوفى غير أبى بكر قيل الصلاة أكثر من الصلوات لانها للجنس (سكن لهم) يسكنون اليه وتطمئن قلوبهم بان الله قد تاب عليهم (والله سميع) لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم (عليم) بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم (ألم يعلموا) المراد المتوب عليهم أى ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم (ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) اذا صحت (ويأخذ الصدقات) و يقبلها اذا صدرت على خلوص النية وهو للتخصيص أى ان ذلك ليس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله هو الذى يقبل التوبة و يردها فاقصدوه بها

ووجوها اليه (وأن الله هو التواب) كثير قبول التوبة (الرحيم) بعفو الحوبة ۷ (وقل) لهؤلاء التائبين (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى فان عملكم لا يخفى خيرا كان أو شرا على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم أو غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة فقد روى أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت وقوله تعالى فسيرى الله وعيد لهم وتحذير من عاقبة الاصرار والذهول عن التوبة (وستردون الى عالم الغيب) ما يغيب عن الناس (والشهادة) ما يشاهدونه (فينبئكم بما كنتم تعملون) تنبئة تذكير ومجازاة عليه (وآخرون مرجون لامر الله) بغير همز مدنى وكوفى غير أبى بكر مرجؤن غيرهم من أرجيته وأرجأته اذا أخرته ومنه المرجئة أى وآخرون من المتخلفين موقوفون الى أن يظهر أمر الله فيهم (اما يعذبهم) ان أصروا ولم يتوبوا (واما يتوب عليهم) ان تابوا وهم ثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا فى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا (والله عليم) بارجائهم (حكيم) فى ارجائهم واما للشك وهو راجع الى العباد أى خافوا عليهم العذاب وارجوا لهم الرحمة وروى أنه عليه السلام أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السوارى واظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحدا لا ينظر اليهم فوضوا أمرهم الى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله (والذين اتخذوا مسجدا) تقديره ومنهم الذين اتخذوا والذين بغير واو مدنى وشامى وهو مبتدأ خبره محذوف أى جازيناهم روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل الى رسول الله يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب اذا قدم من الشام وهو الذى قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله الى يوم حنين فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلى لنا فيه فقال انى على جناح سفر واذا قدمنا ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشى قاتل حمزة ومعن بن عدى وغيرهما انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام (ضرارا) مفعول له وكذا ما بعده أى مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا) وتقوية للنفاق

السائل أخذ الصدقة بكفه اليمين فكان المتصدق قد وضع صدقته فى القبول والاثابة وقوله فتربو أى تكبر يقال ربا الشئ يربو اذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها لغتان المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة الى أن ينفصل عنها ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لقوله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده وتبشير لهم بان الله هو التواب الرحيم ۞ قوله عز وجل (وقل) أى قل يا محمد لهؤلاء التائبين (اعملوا) يعنى لله بطاعته وأداء فرائضه (فسيرى الله عملكم) فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا فى العمل فى المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (ورسوله والمؤمنون) يعنى ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعمالكم أيضا أما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على أعمالكم وأما رؤية المؤمنين فبما يقذف الله عز وجل فى قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) يعنى وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شئ من بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أى فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من خير أو شر فيجازيكم على أعمالكم ۞ قوله سبحانه وتعالى (وآخرون مرجون) أى مؤخرون والارجاء التأخير (لامر الله) يعنى لحكم الله فيهم قال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام أولهم المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه والقسم الثانى التائبون وهم الذين سارعوا الى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون الى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لامر الله والفرق بين القسم الثانى والقسم الثالث ان القسم الثانى سارعوا الى التوبة فقبل الله توبتهم والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا الى التوبة فأخر الله أمرهم نزلت هذه الآية فى الثلاثة الذين تخلفوا وهم كعب ابن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وستأتى قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك انهم لم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى (اما يعذبهم واما يتوب عليهم) يعنى أن أمرهم الى الله تعالى ان شاء عذبهم بسبب تخلفهم وان شاء غفر لهم وعفا عنهم (والله عليم) يعنى بما فى قلوبهم (حكيم) يعنى بما يقضى عليهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) نزلت فى جماعة من المنافقين

المنافقين بنوا مسجدا يضارون به مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلا من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام ابن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الاذعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا هذا المسجد ضرارا يعني مضارة للمؤمنين وكفرا يعني ليكفروا فيه بالله ورسوله (وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك فقالوا يا رسول الله انا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وانا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو بالبركة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني على جناح سفر ولو قدمنا ان شاء الله تعالى أتينا كم فصلينا فيه ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وارصادا لمن حارب الله ورسوله) يعني انهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه ارصادا يعني انتظارا واعدادا لمن حارب الله ورسوله (من قبل) يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به فقال له النبي صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية دين ابراهيم فقال أبو عامر فانا عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لست عليها قال أبو عامر بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الناس أبا عامر الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر الفاسق للنبي صلى الله عليه وسلم لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس أبو عامر وخرج هاربا الى الشام وأرسل الى المنافقين ان استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فاخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى وارصادا يعني انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه اذا رجع من الشام من قبل يعني ان أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) يعني الذين بنوا المسجد (ان أردنا) يعني ما أردنا ببنائه (الا الحسنى) يعني الا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم (والله يشهد انهم لكاذبون) يعني في قيلهم وحلفهم روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذي أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه ان يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظروني حتى أخرج اليكم بنار فدخل أهله فاخذ من سعف النخل فاشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فاحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقي فيها الجيف والنتن والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروي ان بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته فسألوه ان يأذن لمجمع بن جارية ان يؤمهم في مسجدهم فقال لا ولا نعمة عين أليس هو امام مسجد الضرار قال مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا

(وتفريقا بين المؤمنين) لانهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فارادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم (وارصادا لمن) واعدادا لاجل من (حارب الله ورسوله) وهو الراهب أعدوه ليصلي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مسجد بني مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار (من قبل) متعلق بحارب أي من قبل بناء هذا المسجد يعني يوم الخندق (وليحلفن) كاذبين (ان أردنا الا الحسنى) ما أردنا ببناء هذا المسجد الا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين (والله يشهد انهم لكاذبون) في حلفهم

شيوخا لا يقرؤن فصليت بهم ولا أحسب الا أنهم يتقربون الى الله ولم أعلم مافى أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء قال عطاء لما فتح الله على عمر بن الخطاب الامصار أمر المسلمين ان يبنوا المساجد وأمرهم ان لا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس معناه لا تصل فيه أبدا منع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى فى مسجد الضرار (لمسجد أسس على التقوى) اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعنى بنى أصله ووضع أساسه على التقوى يعنى على تقوى الله عز وجل (من أوّل يوم) يعنى من أول يوم بنى ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى (أحق أن تقوم فيه) يعنى مصليا واختلفوا فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى مسجد المدينة ويدل عليه ماروى عن أبى سعيد الخدرى قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى المسجدين أسس على التقوى قال فاخذ كفا من حصى فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة أخرجه مسلم (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة أخرجه النسائى قوله رواتب يعنى ثوابت يقال رتب بالمكان اذا اقام فيه وثبت وفى رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ويدل على أنهم أهل قباء ماروى عن أبى هريرة قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الاصول من رواية أبى داود والترمذى موقوفا على أبى هريرة ورواه البغوى من طريق أبى داود مرفوعا عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ماروى عن ابن عمر قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتى قباء راكبا وماشيا زاد فى رواية فيصلى فيه ركعتين وفى رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله أخرج الرواية الاولى والزيادة البخارى ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخارى عن سهل ابن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج حتى يأتى هذا المسجد مسجد قباء فيصلى فيه كان له كعدل عمرة أخرجه النسائى عن أسيد بن ظهير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الصلاة فى مسجد قباء كعمرة أخرجه الترمذى ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) يعنى من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين قال عطاء ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبرى بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل قباء انى أسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فما هذا الطهور قالوا يارسول الله مانعمل شيأ الا أن جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء ان الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فما تصنعون قالوا انا نغسل عنا أثر الغائط والبول وقال الامام فخر الدين الرازى المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصى وهذا القول متعين لوجوه الاول أن التطهر من الذنوب هو المؤثر فى القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد

(لا تقم فيه أبدا) للصلاة (لمسجد أسس على التقوى) اللام للابتداء وأسس نعت له وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة (من أول يوم) من أيام وجوده قيل القياس فيه مذ لانه لابتداء الغاية فى الزمان ومن لابتداء الغاية فى المكان والجواب ان من عام فى الزمان والمكان (أحق أن تقوم فيه) مصليا (فيه رجال يحبون أن يتطهروا

والله يحب المطهرين) قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه السلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء قالوا نعم قال عليه السلام مؤمنون أنتم ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الانصار ان الله عزوجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يارسول الله نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبي عليه السلام رجال يحبون أن يتطهروا قيل هو عام في التطهر عن النجاسات كلها وقيل هو التطهر من الذنوب بالتوبة ومعنى محبتهم للتطهر انهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشئ ومعنى محبة الله اياهم أنه يرضى عنهم ويحسن اليهم كما يفعل المحب بمحبوبه (أفمن أسس بنيانه) وضع أساس ما يبنيه (على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) هذا سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير أم من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لانه جعل مجازا عما ينافي التقوى والشفا الحرف والشفير وجرف الوادي جانبه الذي ينحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا والهار الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف وألفه ليس بألف فاعل انما هي عينه وأصله هور فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره أفمن أسس بنيانه أم من أسس بنيانه شامي ونافع جرف شامي وحمزة ويحيى هار بالامالة أبو عمرو وحمزة في رواية ويحيى (فانهار به في نار جهنم) فطاح به الباطل في نار جهنم ولما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور ان المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها قال جابر رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار (والله لا يهدي القوم الظالمين) لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم

الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك الا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية الوجه الثالث ان طهارة الظاهر انما يحصل لها أثر عند الله اذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الامرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الاحداث والنجاسات بالماء (والله يحب المطهرين) فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لانفسهم من المداومة على محبة الطهارة

قوله سبحانه وتعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه والمعنى أن الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه (خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) الشفا هو الشفير وشفا كل شئ حرفه ومنه يقال أشفى على كذا اذا دنا منه وقرب أن يقع فيه والجرف المكان الذي أكل الماء تحته فهو الى السقوط قريب وقال أبو عبيد الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الاودية فينحفر بالماء فيبقى واهيا هار أي هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل من هار يهار اذا انهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في أثر بعض كما يهار الرمل والشئ الرخو (فانهار به) يعني سقط بالباني (في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور باهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار واذا كان كذلك كان أسرع الى السقوط في نار جهنم ولان الباني الاول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء والباني الثاني قصد ببنائه الكفر والنفاق واضرار المسلمين فكان بناؤه أخس البناء وكانت عاقبته الى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم الى النار وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرؤي الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة) يعني شكا ونفاقا (في قلوبهم) والمعنى أن ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم لان المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازدادوا غما وحزنا وبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك سبب الريبة في قلوبهم وقيل انهم كانوا يحسبون انهم محسنون في بنائه كما حبب العجل الى بني اسرائيل فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لاي سبب أمر بتخريبه وقال السدي لا يزال

هدم بنيانهم ريبة أي حرارة وغيظا في قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) أي تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء اما بالسيف واما بالموت والمعنى أن هذه الريبة باقية في قلوبهم الى أن يموتوا عليها (والله عليم) يعني باحوالهم وأحوال جميع عباده (حكيم) يعني فيما حكم به عليهم ۞ قوله عز وجل (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) الآية قال محمد بن كعب القرظي لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا اذا فعلنا ذلك فمالنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة قال ابن عباس بالجنة قال أهل المعاني لا يجوز أن يشتري الله شيأ هو له في الحقيقة لان المشتري انما يشتري مالا يملك والاشياء ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا اياها لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء الى الطاعة والجهاد وذلك لان المؤمن اذا قاتل في سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله في سبيل الله عوضه الله الجنة في الآخرة جزاء بما فعل في الدنيا جعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة والمراد باشتراء الاموال انفاقها في سبيل الله وفي جميع وجوه البر والطاعة (يقاتلون في سبيل الله) هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الامر أي قاتلوا في سبيل الله (فيقتلون ويقتلون) يعني فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعة الله وسبيله (وعدا عليه حقا) يعني ذلك الوعد بان لهم الجنة وعدا على الله حقا (في التوراة والانجيل والقرآن) يعني ان هذا الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والانجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على أن الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل (ومن أوفى بعهده من الله) يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) يعني فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم الله به (وذلك) يعني هذا البيع (هو الفوز العظيم) لانه رابح في الآخرة قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال ان الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فاغلى لهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (التائبون) قال الفراء استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الاولى وانقطاع الكلام وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون الى آخره لهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين لترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للاول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله ان الله اشترى وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرؤا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق وقيل التائبون من جميع المعاصي لان لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل واعلم أن التوبة المقبولة انما تحصل بامور أربعة أولها احتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها في المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته (العابدون) يعني المطيعين

(والله عليم) بعزائمهم (حكيم) في جزاء جرائمهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) مثل الله اثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء وروى تاجرهم فاغلى لهم الثمن وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابي وهو يقرؤها فقال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو واستشهد (يقاتلون في سبيل الله) بيان محل التسليم (فيقتلون ويقتلون) أي تارة يقتلون العدو وطورا يقتلهم العدو فيقتلون ويقتلون حمزة وعلي (وعدا عليه) مصدر أي وعدهم بذلك وعدا (حقا) صفته أخبر بان هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته (في التوراة والانجيل والقرآن) وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه ثم قال (ومن أوفى بعهده من الله) لان اخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكريم منا فكيف باكرم الاكرمين ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن منه وأبلغ (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) فافرحوا غاية الفرح فانكم تبيعون فانيا بباق (وذلك هو الفوز العظيم) قال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها (التائبون) رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين أو هو مبتدأ خبره (العابدون) أي الذين عبدوا الله

لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهي أن تكون العبادة خالصة لله تعالى (الحامدون) يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء روى البغوي بغير سند عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة انما سمي الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الازهري قيل للصائم سائح لان الذي يسيح في الارض متعبد لا زاد معه فكان ممسكا عن الاكل وكذلك الصائم ممسك عن الاكل وقيل أصل السياحة استمرار الذهاب في الارض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لانهم ينتقلون من بلد الى بلد في طلبه وقيل ان السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لان السائح لا بد أن يلقى أنواعا من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته (الراكعون الساجدون) يعني المصلين وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لانهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلي وغيره (الآمرون بالمعروف) يعني يامرون الناس بالايمان بالله وحده (والناهون عن المنكر) يعني عن الشرك بالله وقيل انهم يامرون الناس بالحق في أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحسن أما انهم لم يامروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة وفتحت أبوابها وقيل فيه وجه آخر وهو ان الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر (والحافظون لحدود الله) قال ابن عباس يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون الى أمره ونهيه فلا يضيعون شيأ من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهيا نهاهم عنه (وبشر المؤمنين) يعني بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به اذا وفوا الله تعالى بعهده فانه موف لهم بما وعدهم من ادخال الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الافعال التسع وهو قوله تعالى التائبون الى آخر الآية بان له الجنة وان لم يغز ۞ قوله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم والدعلى وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة اترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله

وحده وأخلصوا لله العبادة وما بعده خبر بعد خبر أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وعن الحسن هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق (الحامدون) على نعمة الاسلام (السائحون) الصائمون لقوله عليه السلام سياحة أمتي الصيام أو طلبة العلم لانهم يسيحون في الارض يطلبونه في مظانه أو السائرون في الارض للاعتبار (الراكعون الساجدون) المحافظون على الصلوات (الآمرون بالمعروف) بالايمان والمعرفة والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصي ودخلت الواو للاشعار بان السبعة عقد تام أو للتضاد بين الامر والنهي كما في قوله ثيبات وأبكارا (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه أو معالم الشرع (وبشر المؤمنين) المتصفين بهذه الصفات وهم عليه السلام ان يستغفر لابي طالب فنزل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) أي ما صح له الاستغفار في حكم الله

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاستغفرن لك مالم أنه عنك فانزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى وأنزل الله فى أبى طالب انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء أخرجاه فى الصحيحين فان قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية فى شان أبى طالب وذلك ان وفاته كانت بمكة أول الاسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهى من آخر القرآن نزولا قلت الذى نزل فى أبى طالب قوله تعالى انك لاتهدى من أحببت فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لك مالم أنه عنك كما فى الحديث فيحتمل انه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له فى بعض الاوقات الى أن نزلت هذه الآية فنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت قل لااله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فابى فانزل الله انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء الآية وفى رواية قال لولا تعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فانزل الله الآية (ق) عن أبى سعيد الخدرى انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه وفى رواية يغلى منه دماغه من حرارة نعليه (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يارسول الله ما أغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك قال هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الاسفل من النار وفى رواية قال قلت يارسول الله ان عمك أباطالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال نعم وجدته فى غمرات من نار فاخرجته الى ضحضاح وقال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وروى الطبرى بسنده عن بريدة ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظنى انه قال قبر أمه فجلس اليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يارسول الله انا رأينا ماصنعت قال انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فاذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يؤذن لى فمارؤى باكيا أكثر من يومئذ وحكى ابن الجوزى عن بريدة قال ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف اليهم فقالوا ما أبكاك قال مررت بقبر أمى فصليت ركعتين ثم استأذنت ربى أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربى أن أستغفر لها فزجرت زجرا فابكانى ثم دعا براحلته فركبها فماسار الاهنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحى فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى الآية (ق) عن أبى هريرة قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربى فى ان استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فاذن لى فزوروا القبور فانها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبى صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله هذه الآية وروى الطبرى بسنده عنه قال ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يانبى الله ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الارحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلى والله لاستغفرن لابى كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله عزوجل ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية ثم عذر الله ابراهيم فقال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه الآية عن على بن أبى طالب قال سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لابويك وهما مشركان فقال استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائى والترمذى وقال حديث حسن وأخرجه الطبرى وقال فيه فانزل الله عزوجل وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى

الآية ما كان ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لان الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه مالا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى لان النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ۞ ثم ذكر الله عز وجل سبب المنع فقال تعالى (من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) يعني تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضا فقد قال تبارك وتعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده ۞ أما قوله سبحانه وتعالى (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) فمعناه وما كان طلب ابراهيم لابيه المغفرة من الله الامن أجل موعدة وعدها ابراهيم اياه أن يستغفر له رجاء اسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما أنزل الله خبرا عن ابراهيم انه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لابويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر ابراهيم لابيه فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فانزل الله عز وجل قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك يعني ان ابراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار لانه انما استغفر لابيه وهو مشرك لمكان الموعد الذي وعده أن يسلم (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فعلى هذا الهاء في اياه راجعة الى ابراهيم والوعد كان من أبيه وذلك ان أبا ابراهيم وعد ابراهيم أن يسلم فقال ابراهيم سأستغفر لك ربي يعني اذا أسلمت وقيل ان الهاء راجعة الى الاب وذلك ان ابراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء اسلامه ويؤكد هذا قوله سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضا قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه يعني فلما ظهر لابراهيم وبان له ان أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل ان الله سبحانه وتعالى أوحى الى ابراهيم ان أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة انه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ماروى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول ابراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتني ان لا تخزيني يوم يبعثون فاي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى اني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال ياابراهيم ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والانثى ذيخة ۞ وقوله تبارك وتعالى (ان ابراهيم لاواه حليم) جاء في الحديث ان الاواه الخاشع المتضرع وقال ابن مسعود الاواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الاواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الاواه الموقن وقال كعب الاحبار هو الذي يكثر التأوه وكان ابراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وقال عقبة بن عامر الاواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه انه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا المتضرع ايقانا ولزوما للطاعة وقال الزجاج انتظم في قول أبي عبيدة جميع ماقيل في الاواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه ان عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض مابه من الحزن والشدة وأما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالاحسان واللطف كما فعل ابراهيم بابيه حين قال له لئن لم تنته لارجمنك فاجابه ابراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقال ابن عباس الحليم السيد وانما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له اصراره على الكفر فاقتدوا

وحكمته (من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) من بعد ماظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ثم ذكر عذر ابراهيم فقال (وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) أي وعد أبوه اياه أن يسلم أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله لاستغفرن لك دليله قراءة الحسن وعدها أباه ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله اعطاء الاسلام الذي به يغفر له (فلما تبين) من جهة الوحي (له) لابراهيم (أنه) ان أباه (عدو لله) بان يموت كافرا وانقطع رجاؤه عنه (تبرأ منه) وقطع استغفاره (ان ابراهيم لاواه) هو المتأوه شفقا وفرقا ومعناه انه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر (حليم) هو الصبور على البلاء الصفوح عن اذى لانه كان يستغفر لابيه وهو يقول لارجمنك

به أنتم في هذه الحالة أيضا ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم) يعني وما كان الله
ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد ان رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به
وبرسوله وذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر
منهم فاعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم (حتى يبين لهم ما يتقون) يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن يقدم اليهم
النهي عن ذلك الفعل فاما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل ان جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل
النهي عن الاستغفار للمشركين فلما امتنعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك
فانزل الله عز وجل هذه الآية وبين أنه لا يؤاخذهم بعمل الا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه
وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة وقال
الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في أمر المنسوخ
وذلك ان قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة
ورجعوا الى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة الى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد
ذلك الى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت الى الكعبة فقالوا يا رسول الله قد كنت على دين
ونحن على غيره فنحن على ضلال فانزل الله عز وجل وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم يعني وما كان الله
ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ (ان الله بكل شئ عليم) يعني انه سبحانه وتعالى عليم بما
خالط نفوسكم من الخوف عند ما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه (ان
الله له ملك السموات والارض) يعني انه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والارض وما فيهما
عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء (يحيي ويميت) يعني انه تعالى يحيي من يشاء على الايمان ويميته عليه ويحيي من
يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لاحد عليه في حكمه وعبيده (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير)
يعني انه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم ۞ قوله عز وجل (لقد تاب
الله على النبي والمهاجرين والانصار) الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين
والانصار ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته باذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك
وهو كقوله سبحانه وتعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم فهو من باب ترك الافضل لا أنه ذنب يوجب عقابا وقال
أصحاب المعاني هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فان لله خمسه ومعنى هذا ان ذكر النبي بالتوبة
عليه تشريف للمهاجرين والانصار في ضم توبتهم الى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول الى
اسم الله في قوله فان لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وأما معنى توبة الله على المهاجرين والانصار فلاجل
ما وقع في قلوبهم من الميل الى القعود عن غزوة تبوك لانها كانت في وقت شديد وربما وقع في قلوب بعضهم انا
لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر
والوساوس النفسانية وقيل ان الانسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره اما من باب الصغائر واما من
باب ترك الافضل ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على
تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لاجل ما تحملوه من الشدائد
العظيمة في تلك الغزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم وانما ضم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم تنبيها على
عظم مراتبهم في الدين وانهم قد بلغوا الى الرتبة التي لاجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الى ذكرهم
(الذين اتبعوه) في تلك الغزوة من المهاجرين والانصار وقد ذكر بعض العلماء ان النبي صلى الله عليه وسلم
سار الى تبوك في سبعين ألفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والانصار وغيرهم من سائر القبائل (في ساعة
العسرة) يعني في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة

(وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين انه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للاسلام ولا يخذلهم الا اذا قدموا عليه بعد بيان حظره وعلمهم بانه واجب الاجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي فاما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف (ان الله بكل شئ عليم ان الله له ملك السموات والارض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير لقد تاب الله على النبي) أي تاب عليه باذنه للمنافقين في التخلف عنه كقوله عفا الله عنك (والمهاجرين والانصار) فيه بعث للمؤمنين على التوبة وانه ما من مؤمن الا وهو محتاج الى التوبة والاستغفار حتى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والانصار (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) في غزوة تبوك ومعناه في وقتها والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق وكانوا في

العسرة والجيش الذى سار فيه يسمى جيش العسرة لانه كان عليهم عسرة فى الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون ومامعهم الا التمرات اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه و يعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تاتى على آخرهم ولا يبقى من التمرة الا النواة فضوا مع النبى صلى الله عليه وسلم على صدقهم و يقينهم رضى الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه و يجعل مابقى على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن ان رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق يارسول الله ان الله عز وجل قدعودك فى الدعاء خيرا فادع الله قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعا حتى أرسل الله سحابة فمطرت فملؤا مامعهم من الاوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبرى عن عمر ﴿قوله تعالى (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) يعنى من بعد ماقارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التى نالتهم والزيغ فى اللغة الميل وقيل هم بعضهم أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التى نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ماخطر فى قلوبهم فلاجل ذلك قال تعالى (ثم تاب عليهم) يعنى انه سبحانه وتعالى علم اخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الانابة والتوبة فان قلت قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار قلت انه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطيبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قدقبل توبتهم وعفا عنهم ثم اتبعه بقوله (انه بهم رؤف رحيم) تأكيدا لذلك ومعنى الرؤف فى صفة الله تعالى أنه الرفيق بعباده لانه لم يحملهم مالا يطيقون من العبادات وبين الرؤف والرحيم فرق لطيف وان تقاربا فى المعنى قال الخطابى قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) هذا معطوف على ماقبله تقديره لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الانصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لامر الله وفى معنى خلفوا قولان أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبى لبابة وأصحابه وذلك انهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبى لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثانى أنهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روى عن ابن شهاب الزهرى قال أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ان عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال وكان أعلم قومه وأوعاهم لاحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط الا فى غزوة تبوك غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها انما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وان كانت بدر أذكر فى الناس منها وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك

عسرة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة و بلغت بهم الشدة حتى اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ومن الماء حتى نحروا الابل وعصروا كرشها وشربوه فى شدة زمان من حرارة القيظ ومن الجدب والقحط (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) عن الثبات على الايمان أوعن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه وفى كاد ضمير الشأن والجملة بعده فى موضع النصب وهو كقولهم ليس خلق الله مثله أى ليس شأن خلق الله مثله يزيغ حمزة وحفص (ثم تاب عليهم) تكرير للتوكيد (انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة) أى وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال ابن أمية وهو عطف على النبى (الذين خلفوا) عن الغزو

الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فاخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب الاظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فانا اليها أصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فارجع ولم أقض شيأ فاقول في نفسي أنا قادر على ذلك اذا أردت فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيأ ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فادركهم فياليتني فعلت ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أسوة الا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك مافعل كعب بن مالك فقال رجل من بني سلمة يارسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ ابن جبل بئس ماقلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أباخيثمة فاذا هو أبو خيثمة الانصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت اني لن أنجو منه بشئ أبدا فاجمعت صدقه فاصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم من سفر بدأ بالسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه و يحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم و بايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يارسول الله اني والله لوجلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عقبى الله وفي رواية عفو الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ماعلمناك أذنبت ذنبا قبل هذا القد عجزت أن لاتكون اعتذرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك قال فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت وقيل لهما مثل ماقيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الارض فما هي بالارض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب

القوم وأجلدهم فكنت أخرج فاشهد الصلاة وأطوف فى الاسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فاقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلى
قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى واذا التفت نحوه أعرض عنى حتى اذا طال على
ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس الى فسلمت
عليه فوالله مارد على السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم انى أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت
فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا
أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على
كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له الى حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا
فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا
نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى اذا مضت أربعون من
الخمسين واستلبث الوحى واذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل الى
صاحبى مثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحقى باهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الامر قال فجاءت
امرأة هلال بن أمية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له
خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت انه والله مابه حركة الى شئ ووالله مازال يبكى منذ
كان من أمره ما كان الى يومه هذا قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى
امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومايدرينى مايقول لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك
عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة
على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل عنا قد ضاقت على نفسى وضاقت
على الارض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول باعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال
فخررت ساجدا وعرفت انه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا
حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض رجل الى فرسا وسعى
ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى
نزعت له ثوبى فكسوتهما اياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنؤنى بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك
حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس فقام الى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى
صافحنى وهنأنى والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما
سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ
ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله فقال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا سر استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه
قلت يارسول الله ان من توبتى أن انخلع من مالى صدقة الى الله والى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فانى أمسك سهمى الذى بخيبر قال وقلت يارسول الله ان الله
انما أنجانى بالصدق وان من توبتى أن لا أحدث الا صدقا مابقيت قال فوالله ما علمت ان أحدا من المسلمين
أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى الله والله

ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا وانى لارجو أن يحفظنى الله فيما
بقى قال فانزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة حتى
بلغ انه بهم رؤف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله
وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد ان هدانى للاسلام أعظم فى نفسى
من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فاهلك كما هلك الذين كذبوا ان الله عز وجل
قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لاحد فقال الله سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم
اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم
لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن
أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ
رسول الله صلى الله عليه وسلم امرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا
وليس الذى ذكر مما خلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه ايانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل
منه وفى رواية ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلامى وكلام صاحبى ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين
غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الامر فما من شئ أهم الى من أن أموت فلا
يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكون من الناس بتلك المنزلة فلا
يكلمنى أحد منهم ولا يصلى على ولا يسلم على قال وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين
بقى الثلث الاخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى
معتنية بامرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت أفلا أرسل اليه
فابشره قال اذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
صلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا أخرجه البخارى ومسلم * شرح غريب هذا
الحديث قوله حين تواثقنا على الاسلام التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل أو الناقة
القويان على الحمل والسفر وقوله ورى بغيرها يقال ورى عن الشئ اذا أخفاه وأظهر غيره والمفازة البرية
القفراء سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها قوله فجلا هو بالتخفيف يعنى كشف لهم مقصدهم وأظهره
لهم والاهبة الجهاز وما يحتاج اليه المسافر قوله فانا اليها أصعر هو بالعين المهملة أى أميل والصعر الميل قوله
وتفارط الغزو أى تباعد ما بينى وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار اليه
بالعيب يقال فلان ينظر فى عطفيه اذا كان معجبا بنفسه ويقال زال به السراب يزول اذا ظهر شخص الانسان
خيالا فيه من بعد والسراب هو ما يظهر للانسان فى البرية فى وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء
لابس البياض قوله كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه اللهم اجعله أبا خيثمة أى لتوجد يا هذا
الشخص ابا خيثمة حقيقة قوله الذى لمزه المنافقون يعنى عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره الى
وطنه قوله حضرنى بثى البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عنى الباطل أى زال وذهب عنى
وأجمعت صدقه أى عزمت عليه لقد أعطيت جدلا أى فصاحة وقوة فى الكلام بحيث أخرج عن عهدة
ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد وهو الغضبان قوله فما زالوا يؤنبوننى أى يلوموننى أشد
اللوم قوله حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فما هى بالارض التى أعرف معناه تغير على كل شئ من الارض
وتوحشت على وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فاما صاحباى فاستكانا يعنى خضعا وسكنا قوله تسورت
حائط أبى قتادة أى علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والانباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم
والمضيعة مفعلة من الضياع والاطراح قوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أى فقصدت بالصحيفة التى أرسل

بهاملك غسان فاحرقتها فى التنور وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت أتأمم يعنى أقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس يقال برق وجهه اذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله انخلع من مالى أى أخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الانسان قميصه قوله ماعلمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى البلاء والابتلاء يكون فى الخير وفى الشر واذا أطلق كان فى الشر غالبا فاذا أريد به الخير قيد به كما قيده هنا بقوله أحسن مما أبلانى أى أنعم على قوله أن لا أكون كذبته هكذا هو فى جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فاهلك هو بكسر اللام وارجاؤه أمرنا تأخيره وقوله فى الرواية الاخرى يحطمكم الناس أى يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعنى باقى الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا أى أعلم والأذان الاعلام والله أعلم ۞ قوله عز وجل (حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) يعنى بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد ان كان واسعا (وضاقت عليهم أنفسهم) يعنى من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس اياهم وترك كلامهم (وظنوا) يعنى وأيقنوا وعلموا (أن لا ملجأ) يعنى لا مفزع ولا مفر (من الله الا اليه) ولا عاصم من عذابه الا هو (ثم تاب عليهم) فيه اضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه فرحمهم ثم تاب عليهم وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لانه قد ذكر توبتهم فى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا كما تقدم بيانه وانه عطف على قوله لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار أى وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ۞ وقوله تعالى (ليتوبوا) معناه ان الله سبحانه وتعالى تاب عليهم فى الماضى ليكون ذلك داعيا لهم الى التوبة فى المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل ان أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا الى حالتهم الاولى يعنى الى عادتهم فى الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك (ان الله هو التواب) يعنى على عباده (الرحيم) بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والاحسان وانه لا يجب على الله تعالى شئ ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين امنوا اتقوا الله) يعنى فى مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) يعنى مع من صدق النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا فى البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعنى مع أبى بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك باخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا فى الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالاعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لان الصدق يهدى الى الجنة والكذب الى الفجور كما ورد فى الحديث وقال ابن مسعود الكذب لا يصلح فى جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيأ ثم لا ينجزه اقرؤا ان شئتم وكونوا مع الصادقين وروى أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الانصار فى يوم السقيفة وذلك أن الانصار قالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر يا معشر الانصار ان الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه للفقراء المهاجرين الى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الانصار أنتم هم فقال أبو بكر ان الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فامركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الامراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين ۞ قوله سبحانه وتعالى (ما كان لاهل المدينة) يعنى لساكنى المدينة من المهاجرين والانصار (ومن حولهم من الاعراب) يعنى سكان البوادى من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل هو عام فى كل الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم أولى (أن يتخلفوا عن رسول الله) يعنى اذا غزا وهذا ظاهره خبر ومعناه النهى أى ليس لهم أن يتخلفوا عن

(حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت) برحبها أى مع سعتها وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا (وضاقت عليهم أنفسهم) أى قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لانها حرجت من فرط الوحشة والغم (وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه) وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله الا الى استغفاره (ثم تاب عليهم) بعد خمسين يوما (ليتوبوا) ليكونوا من جملة التوابين (ان الله هو التواب الرحيم) عن أبى بكر الوراق أنه قال التوبة النصوح أن تضيق على التائب الارض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فى ايمانهم دون المنافقين أو مع الذين لم يتخلفوا أو مع الذين صدقوا فى دين الله نية وقولا وعملا والآية تدل على أن الاجماع حجة لانه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم (ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) المراد بهذا النفى النهى وخص هؤلاء بالذكر وان استوى كل الناس فى ذلك لقربهم منه ولا يخفى عليهم خروجه

(ولا يرغبوا) ولا أن يضنوا (بأنفسهم عن نفسه) عما يصيب نفسه أى لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه فى الشدائد بل أمروا بأن يصحبوه فى البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه فى كل شدة (ذلك) النهى عن التخلف (بأنهم) بسبب أنهم (لا يصيبهم ظمأ) عطش (ولا نصب) تعب (ولا مخمصة) مجاعة (فى سبيل (٢٩٤) الله) فى الجهاد (ولا يطؤن موطئا) ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم (يغيظ الكفار) يغضبهم ويضيق صدورهم (ولا ينالون من عدو نيلا) ولا يصيبون منهم إصابة بقتل أو أسر أو جرح أو كسر أو هزيمة (إلا كتب لهم به عمل صالح) عن ابن عباس رضى الله عنهما لكل روعة سبعون ألف حسنة يقال نال منه إذا رزأه ونقصه وهو عام فى كل ما يسوءهم وفيه دليل على أن من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك وعلى أن المدد يشارك الجيش فى الغنيمة بعد انقضاء الحرب لأن وطء ديارهم مما يغيظهم وقد أسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب والموطئ إما مصدر كالمورد وإما مكان فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار يغيظهم وطؤه (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أنهم محسنون والله لا يبطل ثوابهم (ولا ينفقون نفقة) فى سبيل الله (صغيرة) ولو تمرة (ولا كبيرة) مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة (ولا يقطعون واديا) أى أرضا فى ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو فى الأصل فاعل من ودى إذا سال ومنه الودى وقد شاع فى الاستعمال بمعنى الأرض (إلا كتب لهم) من الإنفاق وقطع الوادى (ليجزيهم الله) متعلق بكتب أى أثبت فى صحائفهم لأجل الجزاء (أحسن ما كانوا يعملون) أى يجزيهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يرغبوا) يعنى ولا أن يرغبوا (بأنفسهم عن نفسه) يعنى ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه فى حال الشدة والمشقة وقال الحسن لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بأنهم لا يصيبهم) فى سفرهم وغزوانهم (ظمأ) أى عطش (ولا نصب) أى تعب (ولا مخمصة) يعنى مجاعة شديدة (فى سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار) يعنى ولا يضعون قدما على الأرض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم (ولا ينالون من عدو نيلا) يعنى أسرا أو قتلا أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (إلا كتب لهم به عمل صالح) يعنى إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) يعنى إن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد أحسن فى عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفى الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيآت إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة وقال الوليد بن مسلم سمعت الأوزاعى وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون فى هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الإسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدى عن عطية أنه قال وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم وأمرهم قال هذا هو الصحيح لأنه لا تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا أمر وكذا غيره من الأئمة والولاة قالوا إذا ندبوا أو عينوا لأنا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم ۞ وقوله عز وجل (ولا ينفقون) يعنى فى سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) يعنى تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) يعنى ولا يجاوزون فى مسيرهم واديا مقبلين أو مدبرين فيه (إلا كتب لهم) يعنى كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم (ليجزيهم الله) يعنى ليجازيهم (أحسن ما كانوا يعملون) قال الواحدى معناه بأحسن ما كانوا يعملون وقال الإمام فخر الدين الرازى فيه وجهان الأول أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والثانى أن الأحسن صفة للجزاء أى يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفى الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها وفى رواية وما فيها (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن

ادخله

أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما من كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل لفظ مسلم وللبخارى بمعناه (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار (م) عن أبى مسعود الانصارى البدرى قال جاء رجل بناقة مخطومة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه فى سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذى والنسائى ﴿قوله سبحانه وتعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس انها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم اذا رجعوا اليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا اذا انطلقنا اليهم فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم الى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا اذا أتوا قومهم نادوا ان من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى ان الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون اليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويدعوهم الى الاسلام وينذروهم النار ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فأصابوا من الناس معروفا ومن الخطب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم الا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير وقعد طائفة (ليتفقهوا فى الدين) ليسمعوا ما أنزل الله (ولينذروا قومهم) من الناس (اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيرون الا باذنه فاذا رجعت السرايا وقد نزل فى بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا فى الدين يقول ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا اذا رجعت اليهم لعلهم

على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لاجرهم (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) اللام لتأكيد النفى أى أن نفيرا الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للافضاء الى المفسدة (فلولا نفر) فحين لم يكن نفير الكافة فهلا نفر (من كل فرقة منهم طائفة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق فى تحصيلها (ولينذروا قومهم) وليجعلوا مرمى همتهم الى التفقه وانذار قومهم وارشادهم (اذا رجعوا اليهم) دون الاغراض الخسيسة من التصدر والترؤس والتشبه بالظلمة فى المراكب والملابس (لعلهم يحذرون) ما يجب اجتنابه وقيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعث بعثا بعد غزوة تبوك بعد ما أنزل فى المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم الى النفير وانقطعوا جميعا عن التفقه فى الدين فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة الى الجهاد ويبقى سائرهم

بعذر ومن نقل هذه الاقوال كلها الطبرى وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال انها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال انها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الاول فقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى الغزو ولم يتخلف عنه الا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شئ من الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغى للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم الى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب أن ينقسموا قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون الى الجهاد لان ذلك الوقت كانت الحاجة داعية الى انقسام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قسمين قسم للجهاد وقسم لتعلم العلم والتفقه فى الدين لان الاحكام والشرائع كانت تتجدد شيأ بعد شئ فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون ما نزل من الاحكام وما تجدد من الشرائع فاذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعنى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا الى الجهاد اذا رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعنى مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة وقيل ان التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ومعنى ذلك أن الفرقة النافرة اذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وأن الله يريد اعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وان الفئة القليلة قد غلبت جمعا كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير الى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول ان هذا النوع لا يعد تفقها فى الدين ويمكن أن يجاب عنه بأنهم اذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة فى ايمانهم فيكون ذلك فقها فى الدين وأما الاحتمال الثانى وهو أن يقال ان هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد ان ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البوادى فاصابوا معروفا ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم الا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرجا فاقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا فى الدين ويبلغوا ذلك الى النافرين لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون يعنى بأس الله ونقمته اذا خالفوا أمره وفى الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق الى الحق وارشادهم الى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم لهذا القصد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الاخسرين أعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم و يعطى الله ولم يزل أمر هذه الامة مستقيما حتى تقوم الساعة وحتى يأتى أمر الله (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد أخرجه الترمذى وأصل الفقه فى اللغة الفهم يقال فقه الرجل اذا فهم وفقه فقاهة اذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفى الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم باحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم

يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذى هو الجهاد الاكبر اذ الجهاد بالحجاج أعظم أثرا من الجهاد بالنصال والضمير فى ليتفقهوا للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم ولينذروا قومهم ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم وعلى الاول الضمير للطائفة النافرة الى المدينة للتفقه

طلب العلم فريضة على كل مسلم ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة اذا صار له مال يجب في مثله الزكاة وعلم أحكام الحج اذا وجب عليه وأما فرض الكفاية من الفقه فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا واذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا واذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم أخرجه الترمذي مع زيادة فيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة أخرجه الترمذي عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلم ثلاثة وماسوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة أخرجه أبو داود الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ماليس بمنسوخ والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في امضائها قال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما في ملكوت السموات وأخرجه الترمذي موقوفا وقال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ۞ قوله سبحانه وتعالى (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب فالاقرب اليهم في الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقال ابن عمر هم الروم لانهم كانوا سكان الشام والشأم أقرب الى المدينة من العراق وقال بعضهم هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء انه قال نزلت هذه الآية قبل الامر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة لقوله سبحانه وتعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقال المحققون من العلماء لاوجه للنسخ لانه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم الطريق الاصوب الاصلح وهو أن يبدؤا بقتال الاقرب فالاقرب حتى يصلوا الى الابعد فالابعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لان قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم الى قتال سائر العرب ثم انتقل الى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل الى غزو الروم في الشام فكان فتح الشام في زمن الصحابة ثم انهم انتقلوا الى العراق ثم بعد ذلك الى سائر الامصار لانه اذا قاتل الاقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الابعد ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وليجدوا فيكم غلظة) يعني شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا أن الله مع المتقين) يعني بالعون والنصرة ۞ قوله عز وجل (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا) يعني واذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعني يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعني السورة ايمانا يعني تصديقا ويقينا وانما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال الله سبحانه وتعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يعني تصديقا ويقينا وقربة من الله ومعنى الزيادة ضم شيء الى آخر من جنسه مما هو في صفته فالمؤمنون اذا أقروا بنزول سورة من القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله عز وجل زادهم ذلك الاقرار والاعتراف ايمانا وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الايمان في أول سورة الانفال (وهم يستبشرون) يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيأ بعد شيء لانهم كلما نزل ازدادوا ايمانا وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة وكما تحصل الزيادة في الايمان

(ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم) يقربون منكم (من الكفار) القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الاقرب فالاقرب أوجب وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم الشأم والشأم أقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية ان يقاتلوا من وليهم (وليجدوا فيكم غلظة) شدة وعنفا في القتال قبل القتال (واعلموا أن الله مع المتقين) بالنصرة والغلبة (واذا ما أنزلت سورة) ما صلة مؤكدة (فمنهم) فمن المنافقين (من يقول) بعضهم لبعض (أيكم زادته) هذه السورة (ايمانا) انكارا واستهزاء بالمؤمنين وأيكم مرفوع بالابتداء وقيل هو قول المؤمنين للحث والتنبيه (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا) يقينا وثباتا أو خشية أو ايمانا بالسورة لانهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلا (وهم يستبشرون) يعدون زيادة التكليف بشارة التشريف

بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة فى الكفر وهو قوله سبحانه وتعالى (وأما الذين فى قلوبهم مرض)
أى شك ونفاق سمى الشك فى الدين مرضا لانه فساد فى القلب يحتاج الى علاج كالمرض فى البدن اذا حصل
يحتاج الى العلاج (فزادتهم) يعنى السورة من القرآن (رجسا الى رجسهم) يعنى كفرا الى كفرهم وذلك
أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الاول وسمى الكفر رجسا لانه أقبح
الاشياء وأصل الرجس فى اللغة الشئ المستقذر (وماتوا) يعنى هؤلاء المنافقين (وهم كافرون) يعنى وهم
جاحدون لما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد فى هذه الآية الايمان يزيد وينقص
وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقال على بن أبى طالب
كرم الله وجهه ان الايمان يبدو لمعة بيضاء فى القلب وكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض حتى
يبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء فى القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب
كله وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود
۞ قوله سبحانه وتعالى (أولا يرون) قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على أنه خبر عن
المنافقين المذكورين فى قوله فى قلوبهم مرض (أنهم يفتنون) يعنى يبتلون (فى كل عام مرة أو مرتين)
يعنى بالامراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم
وقيل انهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل انهم ينقضون عهدهم فى السنة مرة أو مرتين (ثم
لا يتوبون) يعنى من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله (ولا هم يذكرون) يعنى ولا يتعظون بما
يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين (واذا ما أنزلت سورة) يعنى فيها عيب المنافقين وتوبيخهم
(نظر بعضهم الى بعض) يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض اشارة (هل يراكم من أحد) يعنى
هل أحد من المؤمنين يراكم ان قمتم من مجلسكم فان لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وان علموا أن أحدا
يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال (ثم انصرفوا) يعنى عن الايمان بتلك السورة النازلة وقيل
انصرفوا عن مواضعهم التى يسمعون فيها ما يكرهون (صرف الله قلوبهم) يعنى عن الايمان وقال الزجاج
أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بأنهم قوم لا يفقهون) يعنى لا يفقهون عن الله دينه ولا شيأ فيه نفعهم
۞ قوله سبحانه وتعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) هذا خطاب للعرب يعنى لقد جاءكم أيها العرب
رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس
قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه
شئ من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى خرجت من نكاح ولم أخرج
من سفاح هكذا ذكره الطبرى وذكر البغوى باسناد الثعلبى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ما ولدنى من سفاح أهل الجاهلية شئ ما ولدنى الا نكاح كنكاح أهل الاسلام قال قتادة جعله الله من
أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء فى تفسير قول ابن عباس ليس
قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم يعنى من مضرها وربيعتها ويمانها فأما ربيعة ومضر
فهم من ولد معد بن عدنان واليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه الى عرب اليمن وهم القحطانية فان آمنة لها
نسب فى الانصار وان كانت من قريش والانصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبا فعلى هذا القول
يكون المقصود من قوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم ترغيب العرب فى نصره والايمان به فانه تم شرفهم
بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والامانة والصيانة والعفاف وطهارة
النسب والاخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهرى من أنفسكم بفتح الفاء ومعناه انه من أشرفكم وأفضلكم
(خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من

(وأما الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق وهو فساد يحتاج الى علاج كالفساد فى البدن (فزادتهم رجسا الى رجسهم) كفرا مضموما الى كفرهم (وماتوا وهم كافرون) هو اخبار عن اصرارهم عليه الى الموت (أو لا يرون) يعنى المنافقين وبالتاء حمزة خطاب للمؤمنين (أنهم يفتنون) يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون) عن نفاقهم (ولا هم يذكرون) لا يعتبرون أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوبون بما يرون من دولة الاسلام ولا هم يذكرون بما يقع بهم من الاصطلام (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا للوحى وسخرية به قائلين (هل يراكم من أحد) من المسلمين لننصرف فانا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم أو اذا ما أنزلت سورة فى عيب المنافقين أشار بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ان قمتم من حضرته عليه السلام (ثم انصرفوا) عن حضرة النبى عليه السلام مخافة الفضيحة (صرف الله قلوبهم) عن فهم القرآن (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لا يفقهون) لا يتدبرون حتى يفقهوا (لقد جاءكم رسول) محمد عليه السلام (من أنفسكم) من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشى مثلكم

القرن الذي كنت منه (م) عن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ان قريشا جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فانا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا أخرجه الترمذي وقيل ان قوله سبحانه وتعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم اذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والاخذ عنه ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (عزيز عليه ما عنتم) أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم وقيل يشق عليه ضلالكم (حريص عليكم) يعني حريص على ايمانكم وايصال الخير اليكم وقال قتادة حريص على هدايتكم وان يهديكم الله (بالمؤمنين رؤف رحيم) يعني أنه صلى الله عليه وسلم رؤف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وقد سماه الله رؤفا رحيما قال الحسن بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لاحد من أنبيائه بين اسمين من اسمائه الا للنبي صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال سبحانه وتعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (فان تولوا) يعني فان أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الايمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب (فقل حسبي الله) يعني يكفيني الله وينصرني عليكم (لا اله الا هو عليه توكلت) يعني لا على غيره وبه وثقت (وهو رب العرش العظيم) انما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لانه أعظم المخلوقات فيدخل مادونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفا له كما يقال بيت الله روي عن أبي بن كعب أنه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة آخر القرآن نزولا وفي رواية عنه قال أحدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام﴾

نزلت بمكة الا ثلاث آيات وهي قوله سبحانه وتعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك الى آخر الثلاث آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة وفي رواية أخرى عن ابن عباس ان فيها من المدني قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية وقال مقاتل هي مكية الا آيتين وهي قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته والتي تليها وهي مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ قوله عز وجل (الر) قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة الر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية (تلك آيات الكتاب) المراد من لفظ تلك الاشارة الى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب وهو القرآن الذي أنزله الله اليك يا محمد وذلك ان الله عز وجل وعده أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل ان لفظة تلك للاشارة الى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى ان تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم وفي قول آخر ان المراد بآيات الكتاب الكتب التي قبل

(عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب (حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لاحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم (فان تولوا) فان أعرضوا عن الايمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض اليه أمورك فهو كافيك معرتهم وناصرك عليهم (لا اله الا هو عليه توكلت) فوضت أمري اليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله خلق مطافا لاهل السماء وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز عن أبي آخر آية نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم الآية (سورة يونس عليه السلام) مائة وتسع آيات مكية وكذا ما بعدها الى سورة النور ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر) ونحوه ممال حمزة وعلي وأبو عمرو وهو تعديد للحروف على طريق التحدي (تلك آيات الكتاب) اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة

(وقدره) وقدر القمر أى وقدر مسيره (منازل) أو وقدره ذا منازل كقوله والقمر قدرناه منازل (لتعلموا عدد السنين) أى عدد السنين والشهور وفا كتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور (والحساب) وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا) ملتبسا (بالحق) الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثا (يفصل الآيات) مكى و بصرى وحفص

و بالنون غيرهم (لقوم يعلمون) فينتفعون بالتأمل فيها (ان فى اختلاف الليل والنهار) فى مجىء كل واحد منهما خلف الآخر وفى اختلاف لونيهما (وما خلق الله فى السموات والارض) من الخلائق (لآيات لقوم يتقون) خصهم بالذكر لانهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر الى النظر (ان الذين لا يرجون لقاءنا) لا يتوقعونه أصلا ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم عن التفطن للحقائق أو لا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذى يجب أن يخاف (ورضوا بالحيوة الدنيا) من الآخرة وآثروا القليل الفانى على الكثير الباقى (واطمأنوا بها) وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا (والذين هم عن آياتنا غافلون) لا يتفكرون فيها ولا وقف عليه لان خبر ان (أولئك مأواهم النار) فأولئك مبتدأ ثان ومأواهم مبتدأ ثالث والنار خبره والجملة خبر أولئك والباء فى (بما كانوا يكسبون) يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام وهو جوزوا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يسددهم بسبب ايمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدى الى الثواب ولذا جعل

خص الشمس بالضياء لانها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء ولانهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر (وقدره منازل) قيل الضمير فى وقدره يرجع الى الشمس والقمر والمعنى قدرهما منازل أو قدر مسيرهما منازل لا يجاوزانها فى السير ولا يقصران عنها وانما وحد الضمير فى وقدره للايجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقيل الضمير فى وقدره يرجع الى القمر وحده لان سير القمر فى المنازل أسرع و به يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لان الشهور المعتبرة فى الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة فى الشرع هى السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهى الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر و بطن الحوت فهذه منازل القمر وهى مقسومة على اثنى عشر برجا وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلث منزل و ينزل القمر كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة (لتعلموا عدد السنين) يعنى قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها (والحساب) يعنى ولتعلموا حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها (ما خلق الله ذلك الا بالحق) يعنى للحق واظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا (يفصل الآيات لقوم يعلمون) يعنى يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته (ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون) تقدم تفسير هذه الآية فى نظائرها (ان الذين لا يرجون لقاءنا) يعنى لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أى لم يخفه والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لا يطمعون فى ثوابنا (ورضوا بالحيوة الدنيا) يعنى اختاروها وعملوا فى طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها (واطمأنوا بها) يعنى وسكنوا اليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التى حصلت فى قلوب الكفار من الميل الى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم يصل ذلك الى قلوبهم (والذين هم عن آياتنا غافلون) قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقال ابن عباس عن آياتنا يعنى عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون أى معرضون (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يعنى من الكفر والتكذيب والاعمال الخبيثة ۞ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يعنى يهديهم ربهم الى الجنات ثوابا لهم بايمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط الى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا أن المؤمن اذا خرج من قبره يصور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة

والكافر

والكافر بالضد فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الانبارى يجوز أن يكون المعنى ان الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف و بصائر ينور بها قلوبهم و يزيل بها الشكوك عنهم و يجوز أن يكون المعنى و يثبتهم على الهداية وقيل معناه بايمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم (تجرى من تحتهم الانهار) يعنى بين أيديهم ينظرون اليها من أعالى أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به أنه تحتها وهى قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجرى بأمرهم (فى جنات النعيم) يعنى ذلك لهم فى جنات النعيم (دعواهم فيها) أى قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أى دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهى كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء و نقيصة قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم فى الطعام فاذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم فى الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل فى ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة فى كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وقيل ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفى هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم و يدل عليه ما روى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفى رواية التسبيح والحمد أخرجه مسلم قوله جشاء أى يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وتحيتهم فيها سلام) يعنى يحيى بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وانهم اذا اشتهوا شيأ قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشئ واذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج أعلم الله ان أهل الجنة يبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه و يختمون بشكره والثناء عليه وقيل انهم يفتحون كلامهم بالتسبيح و يختمونه بالتحميد وقيل انهم يلهمون ذلك كما ذكر فى الحديث ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) يعنى ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم فى الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه فى نفس أو مال قال ابن عباس هذا فى قول الرجل لاهله و ولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله و ولده بما يكره أن يستجاب له فيه (استعجالهم بالخير) يعنى كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم اجابة دعائهم بالخير (لقضى اليهم أجلهم) يعنى لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشئ قبل وقته والاستعجال طلب العجلة وقال ابن قتيبة ان الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة واعطاء السؤال يقول لو أجابهم الله اذا دعوه بالشر الذى يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم يعنى لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعى بالخير ولا يستجيب له فى الشر وقيل ان هذه الآية نزلت فى النضر بن الحرث حين قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعا و يدل على صحة هذا القول قوله

(تجرى من تحتهم الانهار) بيانا له وتفسيرا اذ التمسك بسبب السعادة كالوصول اليها أو يهديهم فى الآخرة بنور ايمانهم الى طريق الجنة ومنه الحديث ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار وهذا دليل على أن الايمان المجرد منج حيث قال بايمانهم ولم يضم اليه العمل الصالح (فى جنات النعيم) متعلق بتجرى أو حال من الانهار (دعواهم فيها سبحانك اللهم) أى دعاؤهم لان اللهم نداء لله ومعناه اللهم انا نسبحك أى يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذا بذكره لا عبادة (وتحيتهم فيها سلام) أى يحيى بعضهم بعضا بالسلام أو هى تحية الملائكة اياهم وأضيف المصدر الى المفعول أو تحية الله لهم (وآخر دعواهم) وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح (أن الحمد لله رب العالمين) أن يقولوا الحمد لله رب العالمين ان مخففة من الثقيلة وأصله انه الحمد لله رب العالمين والضمير للشأن قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدؤن بتعظيم الله وتنزيهه و يختمون بالشكر والثناء عليه و يتكلمون بينهما بما أرادوا (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير اشعارا بسرعة اجابته لهم والمراد أهل مكة وقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء أى ولو عجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم اليه (لقضى اليهم أجلهم) لأميتوا وأهلكوا لقضى اليهم أجلهم شامى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل

(فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) شركهم وضلالهم (يعمهون) يترددون ووجه اتصاله بما قبله ان قوله ولو يعجل الله متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي اليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم الزاما للحجة عليهم (واذا مس الانسان) (٣٠٤) أصابه والمراد به الكافر (الضر دعانا) أي دعا الله لازالته (لجنبه) في موضع الحال بدليل عطف الحالين أي (أو قاعدا أو قائما) عليه أي دعانا مضطجعا وفائدة ذكر هذه الاحوال ان المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر فهو يدعونا في حالاته كلها كان مضطجعا عاجزا عن النهوض أو قاعدا لا يقدر على القيام أو قائما لا يطيق المشي (فلما كشفنا عنه ضره) أزلنا ما به (مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) أي مضى على طريقته الاولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد أو مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع اليه كأنه لا عهد له به والاصل كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن (كذلك) مثل ذلك التزيين (زين للمسرفين) للمجاوزين الحد في الكفر زين الشيطان بوسوسته (ما كانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر واتباع الكفر (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) أشركوا وهو ظرف لأهلكنا والواو في (وجاءتهم رسلهم) للحال أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم (بالبينات) بالمعجزات (وما كانوا ليؤمنوا) ان بقوا ولم يهلكوا لان الله علم منهم أنهم يصرون الام
على كفرهم وهو عطف على ظلموا أو اعتراض واللام لتأكيد النفي يعني ان السبب في اهلاكهم تكذيبهم للرسل وعلم الله أنه لا فائدة في امهالهم بعد ان ألزموا الحجة ببعثة الرسل (كذلك) مثل ذلك الجزاء يعني الاهلاك (نجزي القوم المجرمين) وهو وعيد لاهل مكة على

سبحانه وتعالى (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت (في طغيانهم) يعني في تمردهم وعتوهم (يعمهون) يعني يترددون (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (واذا مس الانسان الضر) أي الشدة والجهد والمراد بالانسان في هذه الآية الكافر (دعانا لجنبه) أي على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) يريد جميع حالاته لان الانسان لا ينفك عن احدى هذه الحالات الثلاث والمعنى ان المضرور لا يزال داعيا في جميع حالاته الى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أو قاعدا أو قائما وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى اذا مس الانسان الضر لجنبه أو مسه قاعدا أو مسه قائما وهذا القول فيه بعد لان ذكر الدعاء الى هذه الاحوال أقرب من ذكر الضر (فلما كشفنا عنه ضره) يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعناه عنه (مر) يعني على طريقته الاولى قبل مس الضر (كأن لم يدعنا) فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وانما أسقط الضمير على سبيل التخفيف (الى ضر مسه) والمعنى انه استمر على حالته الاولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك باقدار الله اياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وانما سمي الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الاصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الاصنام وسدنتها يعني خدامها وقال ابن جريج في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم وبيان مقصود الآية ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء طالبا من الله ازالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع الى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا لله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام أعلى من هذا وهو ان المؤمن اذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن ان الله تبارك وتعالى مالك الملك على الاطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم انه ان أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يعني أهلكنا الامم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة (لما ظلموا) يعني لما أشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) يعني فكذبوهم (وما كانوا ليؤمنوا) يعني هذه الامم رسلهم ويصدقوهم بما جاؤا به من عند الله (كذلك نجزي القوم المجرمين) يعني كما أهلكنا

الامم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) الخطاب لاهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الارض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم (لننظر كيف تعملون) يعني خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون قال أهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى اظهارا للعدل لانه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ذكره الواحدي والرازي (م) عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء ۞ قوله سبحانه وتعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني واذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه اليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لانهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فانه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) قال قتادة قال ذلك مشركو مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قال هؤلاء للنبي صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وان لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الامام فخر الدين الرازي اعلم أن اقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين أحدهما انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء الثاني أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى انه لو فعل ذلك علموا انه كان كاذبا في قوله ان هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لا يكون الا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يجيبهم بقوله (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء (ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) يعني ان هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس الي وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به (ان أتبع الا ما يوحى الي) يعني فيما آمركم به وأنهاكم عنه وما أخبركم الا ما يخبرني الله به وان الذي أتيتكم به هو من عند الله لا من عندي (اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أي قل لهم يا محمد اني أخشى من الله ان خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ۞ قوله سبحانه وتعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء

اجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم) الخطاب للذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم أي استخلفناكم في الارض بعد القرون التي أهلكناها (لننظر كيف تعملون) أي لننظر أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب عملكم وكيف في محل النصب بتعملون لا بننظر لان معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم أم الاغترار بما فيكم قال عليه السلام الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) حال (قال الذين لا يرجون لقاءنا) لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد لاهل الطغيان (ائت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك (أو بدله) بان تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فامر بان يجيب عن التبديل لانه داخل تحت قدرة الانسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله (قل ما يكون لي) ما يحل لي (أن أبدله من تلقاء نفسي) من قبل نفسي (ان أتبع الا ما يوحى الي) لا أتبع الا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل لان الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فابدله (اني أخاف ان عصيت ربي) بالتبديل من عند نفسي (عذاب يوم عظيم) أي يوم القيامة وأما الاتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الانسان وقد ظهر لهم العجز عنه الا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ويقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا ولا يحتمل أن يريدوا بقوله ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي لقوله اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد اما اقتراح ابدال قرآن بقرآن ففيه انه من عندك وانك قادر على مثله فابدل مكانه آخر واما اقتراح التبديل فلاختبار الحال وانه ان وجد منه تبديل فاما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله (قل

المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لوشاء الله ماتلوته عليكم) يعني لوشاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم (ولاأدراكم به) قال ابن عباس ولاأدراكم الله به ولاأعلمكم به (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) يعني فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى الى هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشئ ووجه هذا الاحتجاج ان كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا أحواله وانه كان أميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي وذلك أربعون سنة ثم بعد الاربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الاحكام والآداب ومكارم الاخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم ان هذا لم يحصل الا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله (أفلا تعقلون) يعني ان هذا القرآن من عند الله أوحاه الى لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفى صلى الله عليه وسلم وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيأ وثمان سنين يوحى اليه وأقام بالمدينة عشرا وتوفى وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة قالت توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيي الدين النووي وورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه صلى الله عليه وسلم توفى وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على ان أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضا بانها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني نور الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحي من الله عز وجل وقوله ليس بالابيض الامهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص والمراد انه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة ۞ قوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني فزعم أن له شريكا وولدا والمعنى انى لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه في قولي ان هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم ان له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه ان هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث اني افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه الى وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث انكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى (أو كذب بآياته) يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد (انه لا يفلح المجرمون) يعني المشركين وهذا وعيد وتأكيد لما سبق (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) يعني ويعبد هؤلاء

(لوشاء الله ماتلوته عليكم) يعني ان تلاوته ليست الا بمشيئة الله واظهاره أمرا عجيبا خارجا عن العادات وهو ان يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتابا فصيحا يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحونا بعلوم الاصول والفروع والاخبار عن الغيوب التي لا يعلمها الا الله (ولاأدراكم به) ولاأعلمكم الله بالقرآن على لساني (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) من قبل نزول القرآن أي فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطيا شيأ من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت موصوفا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه (أفلا تعقلون) فتعلموا انه ليس الا من عند الله لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو ولد وان يكون تفاديا مما أضافوه اليه من الافتراء (أو كذب بآياته) بالقرآن فيه بيان ان الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء (انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) ان تركوا عبادتها (ولا ينفعهم) ان عبدوها

المشركون الاصنام التي لا تضرهم ان عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم ان عبدوها لانها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وان العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق الا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الاصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع (ويقولون هؤلاء) يعني الاصنام التي يعبدونها (شفعاؤنا عند الله) قال أهل المعاني توهموا ان عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم اياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الاصنام فانها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وفي هذه الشفاعة قولان أحدهما انهم يزعمون انها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس والثاني انها تشفع لهم في الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت (قل) أي قل لهم يا محمد (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) يعني أتخبرون الله ان له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الارض وهذا على طريق الالزام والمقصود نفي علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له البتة لانه لو كان موجودا لعلمه الله وحيث لم يكن معلوما لله وجب أن لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور في العرف فان الانسان اذا أراد نفي شيء حصل في نفسه يقول ما علم الله ذلك مني مقصوده انه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والاضداد والانداد وتعالى أن يكون له شريك في السموات والارض ولا يعلمه ﴿قوله سبحانه وتعالى (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا) يعني فتفرقوا الى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام ويدل على ذلك ان آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الاسلام الى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا وقيل بقوا على ذلك الى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل انهم كانوا على دين الاسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الاسلام من عهد ابراهيم الخليل عليه السلام الى أن غيره عمرو بن لحي فعلى هذا القول يكون المراد من الناس في قوله وما كان الناس الا أمة واحدة العرب خاصة وقيل كان الناس أمة واحدة يعني في الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وتقديره انه لا مطمع في أن يصير الناس على دين واحد فانهم كانوا أولا على الكفر وانما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس أمة واحدة وليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من ايمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل معناه انهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الاديان واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمراد بالفطرة في الحديث فطرة الاسلام ﴿قوله سبحانه وتعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعني انه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلا وقضى بذلك في سابق الازل قال الكلبي هي امهال هذه الامة وانه لا يهلكهم بالعذاب (لقضي بينهم) يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت في حكمة الله انه لا يقضي عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضي بينهم في الدنيا فادخل المؤمنين الجنة بأعمالهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الاجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله انه لا يؤاخذ أحدا الا بعد اقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التي سبقت من الله هي قوله ان رحمتي سبقت غضبي ولولا رحمته لعجل لهم العقوبة في الدنيا ولكن أخرهم برحمته الى يوم القيامة ثم يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعني في الدنيا (ويقولون) يعني كفار مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعني هلا نزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات (فقل) اي فقل لهم يا محمد (انما الغيب لله) يعني ان الذي سألتمونيه هو من الغيب وانما الغيب

بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أو يوم القيامة ان يكن بعث ونشور (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو انباء بما ليس بمعلوم لله واذا لم يكن معلوما له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيأ وقوله (في السموات ولا في الارض) تأكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو معدوم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه ذاته عن ان يكون له شريك وبالتاء حمزة وعلي وما موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين تشركونهم به أو عن اشراككم (وما كان الناس الا أمة واحدة) حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم عليه السلام الى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا (فاختلفوا) فصاروا مللا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم بينهم الى يوم القيامة (لقضي بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) فيما اختلفوا فيه وليميز الحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهي ان هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أي آية من الآيات التي اقترحوها (فقل انما الغيب لله) أي هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن انزال الآيات المقترحة لا غير

الله لا يعلم أحد ذلك الا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية الا هو (فانتظروا) يعنى نزولها (انى معكم من المنتظرين) وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار الحق على المبطل انى معكم من المنتظرين ﴿ قوله عز وجل (واذا أذقنا الناس رحمة) يعنى رخاء ونعمة (من بعد ضراء مستهم) يعنى من بعد شدة و بلاء ضيق فى العيش أصابهم والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك ان الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم ان الله سبحانه وتعالى رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم تعظوا بذلك بل رجعوا الى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد أى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ما روى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فامامن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأمامن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب أخرجاه فى الصحيحين قوله على أثر سماء كانت من الليل أى مطر كان قد وقع فى الليل وسمى المطر سماء لانه يقطر من السماء والانواء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون فى الجاهلية انه لابد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضا فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لانه ناء أى ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبى عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده اذا اعتقد ان النجم فاعل ذلك التأثير وأمامن يجعله دليلا فهو جاهل بمعنى الدلالة وأمامن أسند ذلك الى العادة التى يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لان المكر عبارة عن صرف الشئ عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون فى دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد (قل الله أسرع مكرا) أى قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء وان عذابه فى هلاككم أسرع اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) يعنى الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون و يحفظون عليهم الاعمال القبيحة السيئة الى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها و يجزون على مكرهم ﴿ قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يعنى هو الله الذى يسيركم يعنى يحملكم فى البر على ظهور الدواب وفى البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادى لكم فى السير فى البر والبحر طلبا للمعاش أو هو المهيئ لكم أسباب السير فى البر والبحر (حتى اذا كنتم فى الفلك) يعنى السفن ولفظة الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فان أريد بها الواحد كان كبناء قفل وان أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) يعنى وجرت السفن بركابها فان قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود منه المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها و يستدعى منهم مزيد الانكار والتقبيح وقال غيره ان مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل ان الالتفات فى الكلام من الغيبة الى الحضور و بالعكس من فصيح كلام العرب (بريح طيبة) يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة (وفرحوا بها) يعنى وفرح ركبان تلك الفلك

روى انه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فلما رحمهم طفقوا يطعنون فى آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه فاذا الاولى للشرط والثانية جوابها وهى للمفاجأة وهو كقوله وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذاهم يقنطون أى وان تصبهم سيئة قنطوا واذا أذقنا الناس رحمة مكروا والمكر اخفاء الكيد وطيه من الجارية المكورة المطوية الخلق ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وانما قال (قل الله أسرع مكرا) ولم يصفهم بسرعة المكر لان كلمة المفاجأة دلت على ذلك كانه قال واذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا اليه قبل ان يغسلوا رؤسهم من مس الضراء (ان رسلنا) يعنى الحفظة (يكتبون ما تمكرون) اعلام بان ما تظنونه خافيا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم وبالياء سهل (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالارجل والدواب والفلك الجارية فى البحار أو يخلق فيكم السير ينشركم شامى (حتى اذا كنتم فى الفلك) أى السفن (وجرين) أى السفن (بهم) بمن فيها رجوع من الخطاب الى الغيبة للمبالغة (بريح طيبة) لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة (وفرحوا بها) بتلك الريح للينها واستقامتها

(جاءتها) أى الفلك أو الريح الطيبة أى تلقتها (ريح عاصف) ذات عصف أى شديدة الهبوب (وجاءهم الموج) هو ما علا على الماء (من كل مكان) من البحر أو من جميع أمكنة الموج (وظنوا أنهم أحيط بهم) أهلكوا جعل احاطة العدو بالحى مثلا فى الاهلاك (دعوا الله مخاصين له الدين) من غير اشراك به لانهم لا يدعون حينئذ معه غيره يقولون (لئن أنجيتنا من هذه) الاهوال أو من هذه الريح (لنكونن من الشاكرين) لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ولم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما فى حيزها كانه قيل يسيركم حتى اذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجىء الريح العاصف وتراكم الامواج والظن والهلاك والدعاء بالانجاء وجواب اذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لان دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك فهو ملتبس به (فلما أنجاهم اذاهم يبغون فى الارض) يفسدون فيها (بغير الحق) باطلا أى مبطلين (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) أى ظلمكم يرجع اليكم كقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها (متاع الحيوة الدنيا) حفص أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم غيره بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله فبغى عليهم ومعناه انما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر أو متاع خبر مبتدأ مضمر أى هو متاع الحياة الدنيا وفى الحديث أسرع الخير ثوابا صلة

بتلك الريح الطيبة لان الانسان اذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك (جاءتها ريح عاصف) قيل ان الضمير فى جاءتها رجع الى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف شديدة فأقلبتها وقيل الضمير فى جاءتها يرجع الى الفلك يعنى جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ومعنى عصفت الريح شدت وأصل العصف السرعة وانما قال عاصف لانه أراد به ذات عصوف أو لاجل ان لفظ الريح قد يذكر (وجاءهم الموج من كل مكان) يعنى وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (وظنوا أنهم أحيط بهم) يعنى وظنوا ان الهلاك قد أحاط بهم وأحدق وقيل المراد من الظن اليقين أى وأيقنوا انه الهلاك وقيل بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والاشراف عليه (دعوا الله مخلصين له الدين) يعنى انهم أخلصوا فى الدعاء لله عزوجل ولم يدعوا أحدا سواه من آلهتهم وقيل فى معنى هذا الاخلاص العلم الحقيقى لا اخلاص الايمان لانهم كانوا يعلمون حقيقة أنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا الا الله تعالى فكانوا اذا وقعوا فى شدة وضر و بلاء أخلصوا الله الدعاء (لئن أنجيتنا) أى قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا (من هذه) يعنى من هذه الشدائد التى نحن فيها وهى الريح العاصفة والامواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) يعنى من الشاكرين لك على انعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) يعنى فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التى كانوا فيها (اذاهم يبغون فى الارض بغير الحق) يعنى انهم أخلفوا الله ما وعدوه و بغوا فى الارض فتجاوزوا فيها الى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصى على ظهرها وأصل البغى مجاوزة الحد قال صاحب المفردات البغى على ضربين أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل الى الاحسان والفرض الى التطوع والثانى مذموم وهو مجاوزة الحق الى الباطل أو الى الشبهة قال صاحب الكشاف فان قلت ما معنى قوله بغير الحق والبغى لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) يعنى ان وبال بغيكم راجع عليكم (متاع الحياة الدنيا) قيل هو كلام مبتدأ والمعنى ان بغى بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ ان يبغى بعضكم على بعض الا أياما قليلة وهى مدة حياتكم مع قصرها فى سرعة انقضائها والبغى من منكرات الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال

يا صاحب البغى ان البغى مصرعة ❁ فارجع فخير مقال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل ❁ لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعكم) يعنى يوم القيامة (فننبئكم) أى فنخبركم (بما كنتم تعملون) يعنى فى الدنيا من البغى والمعاصى فنجازيكم عليها ❁ قوله عزوجل (انما مثل الحيوة الدنيا) يعنى فى فنائها

الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغى وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ الا باهله ومن نكث فانما ينكث على نفسه (ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فنخبركم به ونجازيكم عليه (انما مثل الحيوة الدنيا

كما أنزلناه من السماء) من السحاب (فاختلط به) بالماء (نبات الارض) أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا (مما يأكل الناس) يعني الحبوب والثمار والبقول (والانعام) يعني الحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه (وازينت) وتزينت به وهو أصله وأدغمت التاء في الزاي وهو كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين (وظن أهلها) أهل الارض (أنهم قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها (أتاها أمرنا) عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم (ليلا أو نهارا فجعلناها) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث حذف المضاف في هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى (٣١٠) (بالامس) هو مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفا (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) فينتفعون بضرب الامثال وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما أن صفو الماء في أعلى الاناء قال ألم تر أن العمر كأس سلافة * فأوله صفو وآخره كدر وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلاف وثمام الآثام وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب وألعاب اللعب ثم كما يبدو معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايل الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته في الرمس كأن لم تغن بالامس الى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولابد من ترك ما زاد كما لابد من أخذ الزاد وأخذ المال لا يخلو من زله كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه واهلاكه فما دون النصاب بضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهي الزكاة وعمارتها بذل الصلات فتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال عليه السلام الزكاة قنطرة الاسلام وكذا المال يباعد الاوغاد دون الامجاد كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف

وزوالها (كما أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به) أي بالمطر (نبات الارض) قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون (مما يأكل الناس) يعني من الحبوب والثمار (والانعام) يعني ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور (وازينت) أي وتزينت (وظن أهلها) يعني أهل تلك الارض (أنهم قادرون عليها) يعني على جدادها وقطافها وحصادها رد الكناية الى الارض والمراد النبات اذ كان مفهوما وقيل رده الى الثمرة والغلة وقيل الى الزينة (أتاها أمرنا) أي قضاؤنا باهلاكها (ليلا أو نهارا) يعني في الليل أو النهار (فجعلناها حصيدا) يعني محصودة مقطوعة (كأن لم تغن بالامس) يعني كأن لم تكن تلك الاشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الارض وأصله من غني فلان بالمكان اذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك أنه تعالى لما قال يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الارض وتجبر فيها وركن الى الدنيا وأعرض عن الآخرة لان النبات في أول بروزه من الارض ومبدأ خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء وجعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك أن الارض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم ان الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الارض صاعقة أو بردا أو ريحا فجعلها حصيدا كأن لم تكن من قبل قال قتادة ان المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ووجه التمثيل ان غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه ولان المتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لان الزرع اذا انتهى وتكامل في الحسن الى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية ثم ان الله سبحانه وتعالى قادر على اعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على اعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على اعادة الاموات أحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يعني

كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفنا كم حكمها كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سببا موجبا لزوال الشك والشبهة من القلوب ﴿ قوله سبحانه وتعالى (والله يدعو الى دار السلام) لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وأنها فانية زائلة لا محالة دعا الى داره دار السلام قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغير وقيل انه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لان الخلق سلموا من ظلمه وقيل انه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذى السلام أى لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات الا هو وقيل دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة والمعنى أن من دخلها فقد سلم من جميع الآفات كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد وقيل سميت الجنة دار السلام لان الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم قيل ان من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده أن دعاهم الى جنته التى هى دار السلام وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعو الا الى عظيم ولا يصف الا عظيما وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة فى آيات كثيرة من كتابه (ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) يعنى والله يهدى من يشاء من خلقه الى صراطه المستقيم وهو دين الاسلام عم بالدعوة أولا اظهارا للحجة وخص بالدعوة ثانيا استغناء عن الخلق واظهارا للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ) عن جابر قال جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا ان لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فان العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعى محمد فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفى رواية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رأيت فى المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا وعن النواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب مثلا صراطا مستقيما على كنفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الابواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم والابواب التى على كنفى الصراط حدود الله فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب ﴿ قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى) قال ابن عباس للذين شهدوا أن لا اله الا الله الجنة وقيل معناه للذين أحسنوا عبادة الله فى الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه الحسنى قال ابن الانبارى الحسنى فى اللغة تأنيث الاحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها وقيل معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى (وزيادة) اختلف المفسرون فى معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال القول الاول أن الحسنى هى الجنة والزيادة هى النظر الى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الاشعرى وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدى ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روى عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى زاد فى رواية ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أخرجه مسلم وروى الطبرى بسنده عن كعب بن عجرة عن النبى صلى

(والله يدعو الى دار السلام) هى الجنة أضافها الى اسمه تعظيما لها أو السلام السلامة لان أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم الا قيلا سلاما سلاما (ويهدى من يشاء) ويوفق من يشاء (الى صراط مستقيم) الى الاسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية والمعنى يدعو العباد كلهم الى دار السلام ولا يدخلها الا المهديون (للذين أحسنوا) آمنوا بالله ورسله (الحسنى) المثوبة الحسنى وهى الجنة (وزيادة) رؤية الرب عز وجل كذا عن أبى بكر وحذيفة وابن عباس وأبى موسى الاشعرى وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم وفى بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادة النظر الى الله تعالى وعن صهيب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيرفع الحجاب فينظرون الى الله تعالى فما أعطوا شيأ أحب اليهم من النظر الى ربهم ثم تلا للذين أحسنوا الحسنى وزيادة والعجب من صاحب الكشاف أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة وقال انه حديث مدفوع مع أنه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح فى الصحاح وقيل زيادة المحبة فى قلوب العباد وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان

الله عليه وسلم فى قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن أبى بن كعب انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله الكريم وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر الى وجه الله وعن أبى موسى الاشعرى قال اذا كان يوم القيامة بعث الله الى أهل الجنة مناديا ينادى هل أنجزكم الله ماوعدكم به فينظرون الى ماأعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول الله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر الى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفى رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة وذكره بمعناه وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقى من حقكم شئ لم تعطوه قال فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شئ أعطوه ثم قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هى النظر الى وجه ربهم فهذه الاخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هى النظر الى وجه الله تبارك وتعالى وأما المعقول فنقول ان الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة فى قوله سبحانه وتعالى والله يدعو الى دار السلام فثبت بهذا ان المراد من لفظة الحسنى هى الجنة واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرا مغايرا لكل مافى الجنة من النعيم والا لزم التكرار واذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فاثبت لاهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثانى النظر الى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضا فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى وقالت المعتزلة لايجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية لان الدلائل العقلية دلت على ان رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولان الاخبار التى تقدمت توجب التشبيه ولان جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ماقلتم أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بان الدلائل العقلية قد دلت على امكان وقوع رؤية الله تعالى فى الآخرة واذا لم يوجد فى العقل مايمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الاحاديث الصحيحة باثبات الرؤية وجب المصير اليها واجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا احاطة وأجيب عن قولهم ولان الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بان المزيد عليه اذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه واذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور فى الآية لفظ الحسنى وهى الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب ان الزيادة عليها تكون شيأ مغايرا النعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية وأجيب عن قولهم ولان جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بانه معارض بقول جماعة من المفسرين بان الزيادة هى الرؤية والمثبت مقدم على النافى والله أعلم القول الثانى فى معنى هذه الزيادة ماروى عن على بن أبى طالب انه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب القول الثالث ان الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف الى تمام العشرة والى سبعمائة قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى ولدينا مزيد يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله قال قتادة كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف القول الرابع ان الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد القول الخامس قول ابن زيد ان الحسنى هى الجنة والزيادة ماأعطاهم فى الدنيا لايحاسبهم به يوم القيامة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولا يرهق وجوههم) يعنى ولا يغشى وجوه أهل الجنة (قتر) أى كآبة ولا كسوف ولا غبار وقال ابن عباس هو سواد الوجوه (ولا ذلة) يعنى ولا هوان قال ابن أبى ليلى هذا بعد نظرهم الى ربهم تبارك وتعالى (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يعنى

(ولا يرهق وجوههم) ولا يغشى وجوههم (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم مايرهق أهل النار (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

والذين كسبوا) عطف على للذين أحسنوا أى وللذين كسبوا (السيا آت) فنون الشرك (جزاء سيئة بمثلها) الباء زائدة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أو التقدير جزاء سيئة مقدرة بمثلها (وترهقهم ذلة) ذل وهوان (مالهم من الله) من عقابه (من عاصم) أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أى جعل عليها غطاء من سواد الليل أى هم سود الوجوه وقطعا جمع قطعة وهو مفعول ثان لأغشيت قطعا مكى وعلى من قوله بقطع من الليل وعلى هذه القراءة مظلما صفة لقطع وعلى الاول حال من الليل والعامل فيه أغشيت لان من الليل صفة لقطعا فكان افضاؤه الى الموصوف كافضائه الى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ويوم نحشرهم) أى الكفار وغيرهم (جميعا) حال (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) أكد به الضمير فى مكانكم لسده مسد قوله الزموا (وشركاؤكم) عطف عليه (فزيلنا) ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا (وقال شركاؤكم) من عبدوه من دون الله من أولى العقل أو الاصنام ينطقها الله عز وجل (ما كنتم ايانا تعبدون) انما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم ان تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم وهو قوله ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم الى قوله بل كانوا يعبدون الجن (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى كفى الله شهيدا وهو تمييز (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) فى ذلك المكان أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلو كل نفس) تختبر وتذوق (ما أسلفت) من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن أنافع أم ضار أمقبول أم مردود وقال الزجاج تعلم كل نفس ما قدمت

ان هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبدا ﴿قوله سبحانه وتعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) اعلم انه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعد لهم من الكرامة شرح فى هذه الآية حال من أقدم على السيآت والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيئات يعنى والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصى جزاء سيئة بمثلها يعنى فلهم جزاء السيئة التى عملوها مثلها من العقاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لان الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما وأما السيآت فانه يجازى عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى (وترهقهم ذلة) قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله اياهم (ما لهم من الله من عاصم) يعنى ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله اذا نزل بهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) يعنى كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية الى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا لموقف الحساب وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسئلوا وفى هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين (أنتم وشركاؤكم) يعنى أنتم أيها المشركون والاصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله (فزيلنا بينهم) يعنى ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا فان قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضى بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر فى المستقبل فما وجهه قلت السبب فيه ان الذى حكم الله فيه بانه سيكون صار كالكائن الآن ﴿قوله (وقال شركاؤهم) يعنى الاصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله وانما سماهم شركاءهم لانهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم أو لانه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم فقد صاروا شركاء فى هذا الخطاب (ما كنتم ايانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين فان قلت كيف صدر هذا الكلام من الاصنام وهى جماد لا روح فيها ولا عقل لها قلت يحتمل ان الله سبحانه وتعالى خلق لها فى ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فان قلت اذا أحياهم الله فى ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم قلت الكل محتمل ولا اعتراض على الله فى شئ من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة الا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة فان قلت ان الاصنام قد أنكرت ان الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها قلت قد تقدمت هذه المسئلة وجوابها فى تفسير سورة الانعام ونقول هنا قال مجاهد تكون فى يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فتقول الآلهة والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم انكم تعبدوننا فيقولون والله اياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين) والمعنى قد علم الله وكفى به شهيدا انا ما علمنا انكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم ايانا من دون الله الا غافلين ما نشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى فى ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة اطلاق اسم المكان على الزمان وفى قوله تبلو قرا آت قرئ بتاءين ولهما معنيان أحدهما

تتلو حمزة وعلى أى تتبع ما أسلفت لان عمله هو الذى يهديه الى طريق الجنة أوالنار أو تقرأ فى صحيفتها ما قدمت من خير أوشر كذا عن الاخفش (وردوا الى الله مولاهم الحق) ربهم الصادق فى ربوبيته لانهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة أوالذى يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذى لا يظلم أحدا (وضل عنهم ما كانوا يفترن) وضاع عنهم ما كانوا يدعون انهم شركاء الله أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة (قل من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات (أم من يملك السمع والابصار) من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان

يؤذيهما أدنى شئ (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها (ومن يدبر الامر) ومن يلى تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص (فسيقولون الله) فسيجيبونك عند سؤالك ان القادر على هذه هو الله (فقل أفلا تتقون) الشرك فى العبودية اذا اعترفتم بالربوبية (فذلكم الله) أى من هذه قدرته هو الله (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه لمن حقق النظر (فماذا بعد الحق الاالضلال) أى لاواسطة بين الحق والضلال فمن تخطى الحق وقع فى الضلال (فانى تصرفون) عن الحق الى الضلال وعن التوحيد الى الشرك (كذلك)

مثل ذلك الحق (حقت كلمت ربك) كلمات شامى ومدنى أى كما حق وثبت ان الحق بعده الضلال أوكما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك (على الذين فسقوا) تمردوا فى كفرهم وخرجوا الى الحد الاقصى فيه (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان أوحق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير كائن أوأراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أى لانهم لا يؤمنون (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) انما ذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالاعادة لانه لظهور برهانها جعل أمرا مسلما على أن فيهم من يقر بالاعادة ويحتمل اعادة غير البشر كاعادة الليل والنهار واعادة الانزال والنبات (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أمر نبيه بان ينوب عنهم فى الجواب يعنى أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم عنهم (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن قصد السبيل

انه من تلاه اذا تبعه أى تتبع كل نفس ما أسلفت لان العمل هو الذى يهدى النفس الى الثواب أوالعقاب الثانى أن يكون من التلاوة والمعنى ان كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أوشر وقرئ تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تختبر وتعلم والبلو الاختبار ومعناه اختبارها ما أسلفت يعنى أنه ان قدم خيرا أوشرا قدم عليه وجوزى به (وردوا الى الله مولاهم الحق) الرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا الى ما يظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى أمرهم فان قلت قد قال الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى وأن الكافرين لا مولى لهم فما الفرق قلت المولى فى اللغة يطلق على المالك و يطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه فى الدنيا وهو قولهم ان هذه الاصنام تشفع لنا ۞ قوله عزوجل (قل من يرزقكم من السماء والارض) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والارض يعنى النبات (أم من يملك السمع والابصار) يعنى ومن أعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يعنى انه تعالى يخرج الانسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والقول الاول أقرب الى الحقيقة (ومن يدبر الامر) يعنى ان مدبر أمر السموات وما فيها ومدبر أمر الارض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله (فسيقولون الله) يعنى أنهم يعترفون أن فاعل هذه الاشياء هو الله واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) أى قل لهم يا محمد (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ من هذه الامور (فذلكم الله ربكم الحق) يعنى فذلكم الذى يفعل هذه الاشياء و يقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لا هذه الاصنام (فماذا بعد الحق الا الضلال) يعنى اذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطيعة ان الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا و باطلا (فانى تصرفون) يعنى اذا عرفتم هذا الامر الظاهر الواضح فكيف تستخيرون العدول عن الحق الى الضلال الباطل (كذلك) أى كما ثبت أنه ليس بعد الحق الى الضلال (حقت) أى وجبت (كلمت ربك) فى الازل (على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) قيل المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ انهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع (قل هل من شركائكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الاصنام التى تزعمون انها آلهة (من يبدأ الخلق) يعنى من يقدر على ان ينشئ الخلق على غير مثال سبق (ثم يعيده) أى ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة وهذا السؤال استفهام انكار (قل) أى قل أنت يا محمد (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) يعنى ان الله هو القادر على ابتداء الخلق واعادته (فأنى تؤفكون) يعنى فانى تصرفون

(قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق) يرشد اليه (قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق ان يتبع أمن لايهدى الاأن يهدى)
يقال هداه للحق والى الحق فجمع بين اللغتين ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة على أمن لايهدى
بمعنى يهتدى لايهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكى وشامى و ورش باشمام الهاء فتحة أبو عمرو و بكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير
يحيى والاصل يهتدى وهى قراءة عبد الله فادغمت التاء فى الدال وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين

عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الامر الواضح وعدلوا عنه الى غيره (قل) أى قل يا محمد (هل من شركائكم من يهدى الى الحق) يعنى هل من هذه الاصنام من يقدر على أن يرشد الى الحق فاذا قالوا لا ولا بد لهم من ذلك (قل) أى قل لهم أنت يا محمد (الله يهدى للحق) يعنى أن الله هو الذى يرشد الى الحق لاغيره (أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى الاأن يهدى) يعنى ان الله هو الذى يهدى الى الحق فهو أحق بالاتباع لاهذه الاصنام التى لاتهدى الاأن تهدى فان قلت الاصنام جماد لا تتصور هدايتها ولاأن تهدى فكيف قال الاأن يهدى قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوها الاول أن معنى الهداية فى حق الاصنام الانتقال من مكان الى مكان فيكون المعنى أنها لاتنتقل من مكان الى مكان آخر الاأن تحمل وتنقل فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الاصنام الوجه الثانى أن ذكر الهداية فى حق الاصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الاصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع و يعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع و يعقل و يعلم ووصفها بهذه الصفة وان كان الامر ليس كذلك الوجه الثالث يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الاصنام والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدى الى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق الى الدين بما أظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فانهم لايقدرون على هداية غيرهم الااذا هداهم الله الى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فما لكم كيف تحكمون) قال الزجاج فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم أى شئ لكم فى عبادة هذه الاصنام ثم قال كيف تحكمون يعنى على أى حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لانفسكم بالجور حين تزعمون ان مع الله شريكا وقيل معناه بئسما حكمتم اذ جعلتم لله شريكا من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية (ومايتبع أكثرهم الاظنا) يعنى ومايتبع أكثر هؤلاء المشركين الاما لاعلم لهم بحقيقته وصحته بل هم فى شك منه وريبة وقيل المراد بالاكثر الكل لان جميع المشركين يتبعون الظن فى دعواهم ان الاصنام تشفع لهم وقيل المراد بالاكثر الرؤساء (ان الظن لايغنى من الحق شيأ) يعنى ان الشك لايغنى عن اليقين شيأ ولا يقوم مقامه وقيل فى الآية ان قولهم ان الاصنام آلهة وانها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعنى انها لاتدفع عنهم من عذاب الله شيأ (ان الله عليم بما يفعلون) يعنى من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين ۞ قوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) يعنى وما كان ينبغى لهذا القرآن ان يختلق و يفتعل لان معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شئ يمكن أن يفترى به على الله لان المفترى هو الذى يأتى به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فاخبر الله عز وجل أن هذا القرآن وحى أنزله الله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لايقدر عليه أحد الا الله تعالى ثم ذكر سبحانه وتعالى مايؤكد هذا بقوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) يعنى ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل وتقرير هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لايقرأ ولا يكتب ولم يجتمع باحد من العلماء ثم انه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن

و بكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيى لاتباع مابعدها و بسكون الهاء وتشديد الدال مدنى غير ورش والمعنى أن الله وحده هو الذى يهدى للحق بما ركب فى المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر فى الادلة التى نصبها لهم و بما وفقهم وألهمهم و وقفهم على الشرائع بارسال الرسل فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداد الله أحد يهدى الى الحق مثل هداية الله ثم قال أفمن يهدى الى الحق أحق بالاتباع أم الذى لايهدى أى لايهتدى بنفسه أولا يهدى غيره الاأن يهديه الله وقيل معناه أم من لايهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا أن يهدى الاأن ينقل أولايهتدى ولا يصح منه الاهتداء الاأن ينقله الله من حاله الى أن يجعله حيا ناطقا فيهديه (فما لكم كيف تحكمون) بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد الله (ومايتبع أكثرهم) فى قولهم للاصنام انها آلهة وأنها شفعاء عند الله والمراد بالاكثر الجميع (الاظنا) بغير دليل وهو اقتداؤهم باسلافهم ظنا منهم أنهم مصيبون (ان الظن لايغنى من الحق) وهو العلم (شيأ) فى موضع المصدر أى اغناء (ان الله عليم بما يفعلون) من اتباع الظن وترك الحق (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى افتراء من دون الله والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله فى علو أمره واعجازه مفترى (ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) وهو ما تقدم من الكتب المنزلة

(وتفصيل الكتاب) وتبيين ما كتب وفرض من الاحكام والشرائع من قوله كتاب الله عليكم (لاريب فيه من رب العالمين) داخل في حيز الاستدراك كأنه قال ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لاريب في ذلك فيكون من رب العالمين متعلقا بتصديق وتفصيل ويكون لاريب فيه اعتراضا كما تقول زيد لاشك فيه كريم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون اختلقه

(قل) ان كان الامر كما تزعمون (فأتوا) أنتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فانتم مثلي في العربية (وادعوا من استطعتم من دون الله) أي وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين) أنه افتراه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) بل سارعوا الى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ومعنى التوقع في ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للآباء وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع الى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع ليؤذن انهم علموا بعد علو شأنه واعجازه لما كرر عليهم التحدي وجربوا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيا وحسدا (كذلك) مثل ذلك التكذيب (كذب الذين من قبلهم) يعني كفار الامم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدبرها عنادا وتقليدا للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعني أنه كتاب معجز من جهتين من جهة اعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الاخبار بالغيوب فتسرعوا الى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه و بلوغه حد الاعجاز وقبل أن يجربوا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن ما فيه من القصص والاخبار مطابقة لما في التوراة والانجيل مع القطع بانه ما علم ما فيها فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل في معنى قوله ولكن تصديق الذي بين يديه يعني من أخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ما أخبر (وتفصيل الكتاب) يعني وتبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والاحكام (لاريب فيه من رب العالمين) يعني أن هذا القرآن لاشك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعني أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام انكار وقيل أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه (قل) أي قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانكم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة فان قلت قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزا في نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني من انسان أي مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه في عدم الكتابة والقراءة وأما قوله سبحانه وتعالى فأتوا بسورة مثله أي فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني ان السورة في نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه (ان كنتم صادقين) يعني في قولكم ان محمدا افتراه ثم قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعني القرآن أي كذبوا بما لم يعلموه وقال عطاء يريد انه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لانهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل انهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الامم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لان القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على استيعابها وتحصيلها (ولما يأتهم تأويله) يعني انهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول اليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في القرآن به من العقوبة والمعنى انهم لم يعلموا ما تؤول اليه عاقبة أمرهم وقيل معناه انهم لم يعلموه تنزيلا ولا علموه تأويلا فكذبوا به وذلك لانهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الامم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الامم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يحتمل أن يكون

ومنهم من يؤمن به) بالنبي أو بالقرآن أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) لا يصدق به ويشك فيه أو يكون للاستقبال أي ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر (وربك أعلم بالمفسدين) بالمعاندين أو المصرين (وان كذبوك) وان تموا على تكذيبك ويئست من اجابتهم (فقل لي عملي) جزاء عملي (ولكم عملكم) جزاء أعمالكم (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) فكل مؤاخذ بعمله (ومنهم من يستمعون اليك) ومنهم ناس يستمعون اليك اذا قرأت القرآن

الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر أيها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله ۞ قوله عز وجل (ومنهم من يؤمن به) يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن (ومنهم من لا يؤمن به) لعلم الله السابق فيه أنه لا يؤمن (وربك أعلم بالمفسدين) يعني الذين لا يؤمنون (وان كذبوك) يعني وان كذبك قومك يا محمد (فقل) أي فقل لهم (لي عملي) يعني الطاعة وجزاء ثوابها (ولكم عملكم) يعني الشرك وجزاء عقابه (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) قيل المراد منه الزجر والرجوع وقال مقاتل والكلبي هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الامام فخر الدين الرازي وهو بعيد لان شرط الناسخ أن يكون رافعا الحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بافعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيأ من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا ۞ قوله تعالى (ومنهم) يعني ومن هؤلاء المشركين (من يستمعون اليك) يعني باسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك (أفأنت تسمع الصم) يعني كما أنك لا تقدر على اسماع الصم فكذلك لا تقدر على اسماع من أصم الله سمع قلبه (ولو كانوا لا يعقلون) يعني ان الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال اذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضا كالصم الذين لا يعقلون شيأ ولا يفهمونه لعدم التوفيق (ومنهم من ينظر اليك) يعني بابصارهم الظاهرة (أفأنت تهدي العمي) يريد عمي القلوب (ولو كانوا لا يبصرون) لان الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيأ من الهدى وفي هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل انك لا تقدر ان تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدي من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للايمان من حكمت عليه أن لا يؤمن (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) قال العلماء لما حكم الله عز وجل على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلما منه لانه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالما وانما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لان الفعل منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم) يعني واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم (كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار) يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا الا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم الا قدر ساعة من النهار والوجه الاول أولى لان حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور الى وقت الحشر فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو انهم لما لم ينتفعوا باعمارهم في الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله وسبب استقلال الكفار مدة مقامهم في الدنيا انهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل انهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم في الدنيا لان مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا (يتعارفون بينهم) يعني

وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون فهم كالصم (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أتطمع أنك تقدر على اسماع الصم ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الاصم العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع في صماخه دوي الصوت فاذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تم الامر (ومنهم من ينظر اليك) ومنهم ناس ينظرون اليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون (أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) أتحسب انك تقدر على هداية العمي ولو انضم الى فقد البصر فقد البصيرة لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدث وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعني انهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر (ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ولكن الناس حمزة وعلي أي لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جمادا وهم أحياء (ويوم نحشرهم) وبالياء حفص (كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار) استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الامر عليهم كأن لم يلبثوا حال من هم أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا الا ساعة وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم ويتعارفون بينهم حال بعد حال أو مستأنف على تقدير هم يتعارفون بينهم

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) على ارادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هي شهادة من الله على خسرانهم والمعنى انهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الايمان بالكفر (وما كانوا مهتدين) للتجارة عارفين بها وهو استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم (واما نرينك بعض الذي نعدهم) من العذاب (أو نتوفينك) قبل عذابهم (فالينا مرجعهم) جواب نتوفينك

يعرف بعضهم بعضا اذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم اذا عاينوا أهوال يوم القيامة وفي بعض الآثار ان الانسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية وقيل ان أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف بعضهم بعضا وفي بعضها ينكر بعضهم بعضا لهول ما يعاينون في ذلك اليوم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لانه آثر الفاني على الباقي (وما كانوا مهتدين) يعني الى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار (واما نرينك) يعني يا محمد (بعض الذي نعدهم) يعني ما نعدهم به من العذاب في الدنيا فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فانك ستراه في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (فالينا مرجعهم) يعني في الآخرة وفيه دليل على أن الله يري رسوله صلى الله عليه وسلم أنواعا من عذاب الكافرين وخزيهم في حال حياته في الدنيا وقد أراه ذلك في يوم بدر وغيره من الايام وسيريه ما أعد لهم من العذاب في الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم يعني انه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (ولكل أمة رسول) لما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال الانبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى ولكل أمة يعني قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعني مبعوثا اليهم يدعوهم الى الله والى طاعته والايمان به (فاذا جاء رسولهم) في هذا الكلام اضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى بينهم بالقسط) يعني حكم بينهم بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه في الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل الى كل أمة رسولا لتبليغ الرسالة واقامة الحجة وازالة العذر فاذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم وبين رسلهم في الدنيا فيهلك الكافرين وينجي رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلا لا ظلما لان قبل مجيء الرسول لا يكون ثواب ولا عقاب القول الثاني ان وقت القضاء في الآخرة وذلك ان الله اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة في اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعني من جزاء أعمالهم شيأ ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله وقيل معناه انهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم (ويقولون) يعني هؤلاء الكفار (متى هذا الوعد) يعني الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) يعني فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع لان كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى ان كنتم صادقين أنت واتباعك يا محمد أو ذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم (قل) أي قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) يعني لا أملك لنفسي دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك (الا ما شاء الله) يعني أن أقدر عليه أو أملكه والمعنى ان انزال العذاب على الاعداء واظهار النصر للاولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه الا الله فتعيين الوقت الى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم اذا حضر ذلك الوقت الذي وقته الله لحدوث هذه الاشياء فانه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى (لكل أمة أجل) أي مدة مضروبة ووقت معين (اذا جاء أجلهم) يعني اذا انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعني لا يتأخرون عن ذلك الاجل الذي أجل لهم ولا يستقدمونه (قل) أي قل يا محمد

وجواب نرينك محذوف أي واما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة (ثم الله شهيد على ما يفعلون) ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وقيل ثم هنا بمعنى الواو (ولكل أمة رسول) يبعث اليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم الى دين الحق (فاذا جاء رسولهم) بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه (قضى بينهم) بين النبي ومكذبيه (بالقسط) بالعدل فأنجي الرسول وعذب المكذبين أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان قضى بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) لا يعذب أحد بغير ذنبه ولما قال واما نرينك بعض الذي نعدهم أي من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل (ويقولون متى هذا الوعد) أي وعد العذاب (ان كنتم صادقين) أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبي والمؤمنين (قل) يا محمد (لا أملك لنفسي ضرا) لهؤلاء من مرض أو فقر (ولا نفعا) من صحة وغنى (الا ما شاء الله) استثناء منقطع أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب (لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح فاذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا (قل

أرأيتم ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلونه (بياتا) نصب على الظرف أى وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون (أونهارا) وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا يستعجل منه المجرمون) أى من العذاب والمعنى ان العذاب مكروه موجب للنفور فأى شئ تستعجلون منه وليس شئ منه يوجب الاستعجال والاستفهام فى ماذا يتعلق بأرأيتم لان المعنى أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أوتعرفوا الخطأ فيه ولم يقل ماذا يستعجلون منه لانه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الاجرام أوماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط نحو ان أتيتك ماذا

تطعمنى ثم تتعلق الجملة بأرأيتم أو

لهؤلاء المشركين من قومك (أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا) يعنى ليلا يقال بات يفعل كذا اذا فعله بالليل والسبب فيه ان الانسان فى الليل لا يكون الا فى البيت غالبا فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل (أونهارا) يعنى فى النهار (ماذا يستعجل منه المجرمون) يعنى ما الذى يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى انهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله ماذا يستعجل منه المجرمون يعنى أى شئ يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلا قبيحا ماذا جنيت على نفسك (أثم اذا ما وقع) يعنى اذا ما نزل العذاب ووقع (آمنتم به) يعنى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع (آلآن) فيه اضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أى حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون) يعنى تكذيبا واستهزاء (ثم قيل للذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) يعنى فى الدنيا من الاعمال ۞ قوله سبحانه وتعالى (ويستنبئونك أحق هو) يعنى ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة (قل اى وربى) أى قل لهم يا محمد نعم وربى (انه لحق) يعنى ان الذى أعدكم به حق لا شك فيه (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين من العذاب لان من عجز عن شئ فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) يعنى أشركت (ما فى الارض) يعنى من شئ (لافتدت به) يعنى يوم القيامة والافتداء بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب الا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه (وأسروا الندامة) يعنى يوم القيامة وانما جاء بلفظ الماضى والقيامة من الامور المستقبلة لان أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضى والاسرار يكون بمعنى الاخفاء وبمعنى الاظهار فهو من الاضداد فلهذا اختلفوا فى قوله وأسروا الندامة فقال أبو عبيدة معناه وأظهروا الندامة لان ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا يعنى أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والاتباع خوفا من ملامتهم اياهم وتعييرهم لهم (لما رأوا العذاب) يعنى حين عاينوا العذاب وأبصروه (وقضى بينهم بالقسط) يعنى وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والاتباع وقيل بين الكفار لاحتمال ان بعضهم قد ظلم بعضا فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى (وهم لا يظلمون) يعنى فى الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد فى عذاب الظالم (ألا ان لله ما فى السموات والارض) يعنى ان كل شئ فى السموات والارض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شئ يفتدى به من عذاب الله يوم القيامة لان الاشياء كلها لله وهو أيضا ملك لله فكيف يفتدى من هو مملوك لغيره بشئ لا يملكه (ألا ان وعد الله حق) يعنى ما وعد

(أثم اذا ما وقع) العذاب (آمنتم به) جواب الشرط وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الايمان ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء فى أفأمن أهل القرى أوأمن أهل القرى (آلآن) على ارادة القول أى قيل لهم اذ آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به (وقد كنتم به تستعجلون) أى بالعذاب تكذيبا واستهزاء آلان بحذف الهمزة التى بعد اللام والقاء حركتها على اللام نافع (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المضمر قبل آلآن (ذوقوا عذاب الخلد) أى الدوام (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) من الشرك والتكذيب (ويستنبئونك) ويستخبرونك فيقولون (أحق هو) وهو استفهام

على جهة الانكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود (قل) يا محمد (اى وربى) نعم والله (انه لحق) ان العذاب كائن لا محالة (وما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة (ولو أن لكل نفس ظلمت) كفرت وأشركت وهو صفة لنفس أى ولو أن لكل نفس ظالمة (ما فى الارض) فى الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها (لافتدت به) لجعلته فدية لها يقال فداه فافتدى ويقال افتداه أيضا بمعنى فداه (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) وأظهروها من قولهم أسر الشئ اذا أظهره أوأخفوها عجزا عن النطق لشدة الامر فأسر من الاضداد (وقضى بينهم بالقسط) بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم (وهم لا يظلمون) ثم أتبع ذلك الاعلام بأن له الملك كله بقوله (ألا ان لله ما فى السموات والارض) فكيف يقبل الفداء وانه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب أو العقاب فهو حق لقوله (ألا ان وعد الله) بالثواب أو بالعذاب (حق)

الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصى حق لاشك فيه (ولكن أكثرهم لايعلمون) يعنى حقيقة ذلك (هو يحيي ويميت) يعنى الذى يملك ما فى السموات والارض قادر على الاحياء والاماتة لايتعذر عليه شئ مما أراد (واليه ترجعون) يعنى بعد الموت للجزاء ۞ قوله عز وجل (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) قيل أراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الاصح وهو اختيار الطبرى قد جاءتكم موعظة من ربكم يعنى القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة ما يدعو الى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة والقرآن داع الى كل خير وصلاح بهذا الطريق (وشفاء لما فى الصدور) يعنى ان القرآن ذو شفاء لما فى القلوب من داء الجهل وذلك لان داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هى الاخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الامراض كلها لان فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الامراض القلبية وانما خص الصدر بالذكر لانه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع فى بدن الانسان لمكان القلب فيه (وهدى) يعنى وهو هدى من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) يعنى ونعمة على المؤمنين لانهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم (قل بفضل الله وبرحمته) الباء فى بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الافضال ويكون معنى الآية على هذا ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهو القرآن بافضال الله عليكم ورحمته بكم وارادته الخير لكم ۞ ثم قال سبحانه وتعالى (فبذلك فليفرحوا) أشار بذلك الى القرآن لان المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ وأشار الى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا اشارة الى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والانعام فليفرحوا قال الواحدى الفاء فى قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر * فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى * فالفاء فى قوله فاجزعى زائدة وقال صاحب الكشاف فى معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكانه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح فانه لا مفروح به أحق منهما والفرح لذة فى القلب بادراك المحبوب المشتهى يقال فرحت بكذا اذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح فى اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أى ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالايمان وسكون النفس اليه (هو خير مما يجمعون) يعنى من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعانى فى هذه الآية وأما مذهب المفسرين فغير هذا فان ابن عباس والحسن وقتادة قالوا فضل الله الاسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عمر فضل الله الاسلام ورحمته تزيينه فى قلوبنا وقيل فضل الله الاسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن فعلى هذا الباء فى بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (قل) أى قل يا محمد لكفار مكة (أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) يعنى من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما فى الارض بالانزال لان جميع ما فى الارض من خير ورزق فانما هو من بركات السماء (فجعلتم منه) يعنى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) يعنى ما حرموه على أنفسهم فى الجاهلية من الحرث والانعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى

من موعظة وتنبيه على التوحيد والموعظة التى تدعو الى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب فما فى القرآن من الاوامر والنواهى داع الى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب اذ الامر يقتضى حسن المأمور به فيكون مرغوبا وهو يقتضى النهى عن ضده وهو قبيح وعلى هذا فى النهى (وشفاء لما فى الصدور) أى صدوركم من العقائد الفاسدة (وهدى) من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) لمن آمن به منكم (قل) يا محمد بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وايجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كانه قيل ان فرحوا بشئ فليخصوهما بالفرح أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والاسلام فى الحديث من هداه الله للاسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه الى يوم يلقاه وقرأ الآية (هو خير مما يجمعون) وبالتاء شامى فلتفرحوا يعقوب (قل أرأيتم) أخبرونى (ما أنزل الله لكم من رزق) ما منصوب بأنزل أو بأرأيتم أى أخبرونيه (فجعلتم منه حراما وحلالا) فبعضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله ما فى بطون هذه

الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا والارزاق تخرج من الارض ولكن لما نيطت أسبابها بالسماء نحو المطر الذى تنبت الارض النبات والشمس التى بها النضج وينع الثمار أضيف انزالها الى السماء (قل آلله أذن لكم) متعلق بأرأيتم وقل تكرير للتوكيد والمعنى أخبرونى آلله أذن لكم فى التحليل والتحريم فانتم تفعلون ذلك باذنه (أم

على الله تفترون) أم أنتم تكذبون على الله فى نسبة ذلك اليه أو الهمزة للانكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرا للافتراء والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الاحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد فى شئ جائز أو غير جائز الا بعد ايقان واتقان والا فهو مفتر على الديان (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) ينسبون ذلك اليه (يوم القيامة) منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أى أى شئ ظن المفترين فى ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالاحسان والاساءة وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره (ان الله لذو فضل على الناس) حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحى وتعليم الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا اليه (وما تكون فى شأن) ما نافية والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والشأن الامر (وما تتلو منه) من التنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لان كل جزء منه قرآن والاضمار قبل الذكر تفخيم له ومن الله عزوجل (ولا تعملون) أنتم جميعا (من عمل) أى عمل (الا كنا عليكم شهودا) شاهدين رقباء نحصى عليكم (اذ تفيضون فيه) تخوضون من أفاض فى الامر اذا اندفع فيه (وما يعزب عن ربك) وما يبعد وما يغيب بكسر الزاى على حيث كان (من مثقال ذرة) وزن نملة صغيرة (فى الارض ولا فى السماء

والحامى قال الضحاك وهو قوله سبحانه وتعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا (قل آلله أذن لكم) يعنى قل لهم يا محمد آلله أذن لكم فى هذا التحريم والتحليل (أم على الله تفترون) يعنى بل أنتم كاذبون على الله فى ادعائكم ان الله أمرنا بهذا (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) يعنى اذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفترى على الله الكذب (ان الله لذو فضل على الناس) يعنى ببعثة الرسل وانزال الكتب لبيان الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) يعنى لا يشكرون الله على ذلك الفضل والاحسان

﴿ قوله سبحانه وتعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والامر الذى يتفق ويصلح ولا يقال الا فيما يعظم من الاحوال والامور والجمع الشؤن تقول العرب ما شأن فلان أى ما حاله والشأن اسم اذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا اذا كان معناه القصد والذى فى هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه وما تكون يا محمد فى شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن فى شأن من شؤن الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعنى قصد الشئ وما تتلو منه من قرآن اختلفوا فى الضمير فى منه الى ماذا يعود فقيل يعود الى الشأن اذ تلاوة القرآن شأن من شؤن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم شؤنه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وما تكون فى شأن الا أنه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته وقيل انه راجع الى القرآن لانه قد تقدم ذكره فى قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعنى من سورة وشئ منه لان لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير فى منه راجع الى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وأما قوله سبحانه وتعالى (ولا تعملون من عمل) فانه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأمته داخلون فيه ومرادون به لان من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون فى الخطابين الاولين ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (الا كنا عليكم شهودا) يعنى شاهدين لاعمالكم وذلك لان الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شئ وعالم بكل شئ لانه لا محدث ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل فى الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل فى علمه وهو شاهد عليه (اذ تفيضون فيه) يعنى أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون فى ذلك العمل والافاضة الدخول فى العمل على جهة الانصباب اليه والانبساط فيه وقال ابن الانبارى معناه اذ تدفعون فيه وتنبسطون فى ذكره وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنتشرون فيه يقال أفاض القوم فى الحديث اذا انتشروا فيه (وما يعزب عن ربك) يعنى وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شئ لانه عالم به وشاهد عليه وأصل العزوب البعد يقال منه كلام عازب اذا كان بعيد المطلب (من مثقال ذرة) يعنى وزن ذرة والمثقال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهى خفيفة الوزن جدا (فى الارض ولا فى السماء) فان قلت لم قدم ذكر الارض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الارض فى سورة سبأ وما فائدة ذلك قلت كان حق السماء أن يقدم على الارض كما فى سورة سبأ الا أنه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على أهل الارض وأحوالهم وأعمالهم ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الارض على السماء فى هذا الموضع

لهذه الفائدة (ولا أصغر من ذلك) يعني من الذرة (ولا أكبر) يعني منها (الا في كتاب مبين) يعني في اللوح المحفوظ ﴿ قوله سبحانه وتعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اعلم أننا نحتاج أولا في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله فقال هم الذين اذا رؤوا ذكر الله وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الايمان الا بالتقوى وقال قوم هم المتحابون في الله ويدل على ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله لاناسا ماهم بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يارسول تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أخرجه أبو داود وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الاشعري قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان لله عبيدا ليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفي ناحية القوم اعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يارسول الله عنهم من هم قال فرأيت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى ان أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم هكذا ذكره البغوي بغير سند وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله عبادا يغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يارسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الغبطة نوع من الحسد الا ان الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة ان الحاسد يتمنى زوال ماعلى المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه وقال أبو بكر الاصم أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة اليه وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب الى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فان رأى رأى دلائل قدرة الله وان سمع سمع آيات الله وان نطق نطق بالثناء على الله وان تحرك تحرك في طاعة الله وان اجتهد اجتهد فيما يقربه الى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله فهذه صفة أولياء الله واذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا وقال المتكلمون ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيا بالاعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة واليه الاشارة بقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون وهو أن الايمان مبني على جمع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل مانهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى لا خوف عليهم يعني في الآخرة اذا خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) رفعهما حمزة على الابتداء والخبر (الا في كتاب مبين) يعني اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفي الجنس وقدمت الارض على السماء هنا وفي سبأ قدمت السموات لان العطف بالواو وحكمه حكم التثنية (ألا ان أولياء الله) هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة أوهم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذي آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه أوهم المتحابون في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها أوهم المؤمنون المتقون بدليل الآية الثانية (لا خوف عليهم) اذا خاف الناس (ولا هم يحزنون) اذا حزن الناس

قال بعض المحققين زوال الخوف والحزن عنهم انما يحصل لهم فى الآخرة لان الدنيا لا تخلو من هم وغم وأنكاد وحزن قال بعض العارفين ان الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله واذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شئ ولا يحزن على شئ لان مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن ۞ وأما قوله سبحانه وتعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فقد تقدم تفسيره وأنه صفة لاولياء الله ۞ وقوله سبحانه وتعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) اختلفوا فى هذه البشرى فروى عن عبادة بن الصامت قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له أخرجه الترمذى وله عن رجل من أهل مصر قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى فى الحياة الدنيا قال ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وقال ما سألنى عنها أحد غيرك منذ أنزلت هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له قال الترمذى حديث حسن (خ) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يبق بعدى من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة لفظ البخارى ولمسلم اذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزأ من النبوة والرؤيا ثلاث الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه قال بعض العلماء ووجه هذا القول انا اذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى أن لا تحصل هذه الحالة الا لهم وذلك لان ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فانه عند النوم لا يبقى فى قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن معرفة الله فى القلب لا تفيد الا الحق والصدق فاذا رأى الولى رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولى قال الخطابى فى هذه الاحاديث توكيد لامر الرؤيا وتحقيق منزلتها وانما كانت جزأ من أجزاء النبوة فى حق الانبياء دون غيرهم وكان الانبياء عليهم السلام يوحى اليهم فى منامهم كما يوحى اليهم فى اليقظة قال الخطابى قال بعض العلماء معنى الحديث أن الرؤيا تاتى على موافقة النبوة لأنها جزء من النبوة وقال الخطابى وغيره فى معنى قوله الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة أقام النبى صلى الله عليه وسلم فى النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى فى المنام الوحى فهى جزء من ستة وأربعين جزأ وقيل ان المنام لعل أن يكون فيه اخبار بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير فى جانب النبوة لانه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبيا يشرع الشرائع ويبين الاحكام ولا يخبر بغيب أبدا فاذا وقع لاحد فى المنام الاخبار بغيب يكون هذا القدر جزأ من النبوة لا أنه نبى واذا وقع ذلك لاحد فى المنام يكون صدقا والله أعلم وقيل فى تفسير الآية أن المراد بالبشرى فى الحياة الدنيا هى الثناء الحسن وفى الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روى عن أبى ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال الشيخ محيى الدين النووى قال العلماء معنى هذه البشرى المعجلة له بالخير وهى دليل للبشرى المؤخرة له فى الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه الى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول فى الارض هذا كله اذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم والا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين اذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نورا فيفيض من ذلك النور الذى فى قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهرى وقتادة فى تفسير البشرى هى نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل

(الذين آمنوا) منصوب باضمار أعنى أولانه صفة لاولياء أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف اى هم الذين آمنوا (وكانوا يتقون) الشرك والمعاصى (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا) ما بشر الله به المؤمنين المتقين فى غير موضع من كتابه وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وعنه عليه السلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهذا لان مدة الوحى ثلاث وعشرون سنة وكان فى ستة أشهر منها يؤمر فى النوم بالانذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزأ أو هى محبة الناس له والذكر الحسن أو لهم البشرى عند النزع بان يرى مكانه فى الجنة (وفى الآخرة) هى الجنة

(لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده (ذلك) اشارة الى كونهم مبشرين فى الدارين هو الفوز (العظيم) وكلتا
الجملتين اعتراض ولا يجب ان يقع بعد الاعتراض كلام كما تقول فلان ينطق بالحق والحق أبلج وتسكت (ولا يحزنك قولهم) تكذيبهم
وتهديدهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك

وابطال أمرك (ان العزة) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالى لا أحزن فقيل ان

العزة (لله) ان الغلبة والقهر فى ملكه لا يملك أحد شيأ منهم مالاهم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم كتب الله لأغلبن أنا ورسلى انا لننصر رسلنا أو به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قولهم لئلا يصير ان العزة مقول الكفار (جميعا هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا ان لله من فى السموات ومن فى الارض) يعنى العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم ليؤذن ان هؤلاء اذا كانوا له وفى مملكته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكا له فيها فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) ما نافية أى وما يتبعون حقيقة الشركاء وان كانوا يسمونها شركاء لان شركة الله فى الربوبية محال (ان يتبعون الا ظن) الا ظنهم أنهم شركاء الله (وان هم الا يخرصون) يحزرون
ويقدرون أن يكونوا شركاء تقديرا باطلا أو استفهامية أى وأى شئ يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى
الاول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون أو موصولة
معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده
بقوله (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب التردد فى النهار (والنهار مبصرا) مضيئا

عليه قوله سبحانه وتعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون
وقال عطاء عن ابن عباس البشرى فى الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفى الآخرة بعد خروج
نفس المؤمن يعرج بها الى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هى ما بشر الله به المؤمنين فى كتابه
من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى (لا تبديل لكلمات الله) يعنى لا خلف لوعد الله الذى وعد به
أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد (ذلك هو الفوز العظيم) يعنى ما
وعدهم به فى الآخرة (ولا يحزنك قولهم) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء
المشركين لك ولا يغمك تخويفهم اياك (ان العزة لله جميعا) يعنى ان القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو
المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم وقال سعيد بن المسيب ان العزة لله جميعا فيعز من
يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى فى آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا منافاة بين الآيتين فان عزة
الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين باعزاز الله اياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعا وهو الذى يعز من
يشاء ويذل من يشاء وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فاخبر الله سبحانه
وتعالى أن جميع ذلك لله وفى ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع)
لاقوالكم ودعائكم (العليم) بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية ۞ قوله سبحانه وتعالى (ألا ان لله من فى
السموات ومن فى الارض) ألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لاحد فى السموات ولا فى الارض الا الله عز وجل
فهو يملك من فى السموات ومن فى الارض فان قلت قال سبحانه وتعالى فى الآية التى قبل هذه ألا ان لله ما فى
السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى فى هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك قلت ان لفظة ما تدل على ما لا
يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من فى السموات
ومن فى الارض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفى ملكه وقيل ان لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن
فى السموات الملائكة العقلاء ومن فى الارض الانس والجن وهم العقلاء أيضا وانما خصهم بالذكر لشرفهم
واذا كان هؤلاء العقلاء المميزون فى ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الاولى أن يكونوا فى ملكه اذا
ثبت هذا فتكون الاصنام التى يعبدها المشركون أيضا فى ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحا
فى جعل الاصنام شركاء لله معبودة دونه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) لفظة ما استفهامية
معناه وأى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعنى انهم ليسوا على شئ لانهم
يعبدونها على أنها شركاء الله تشفع لهم وليس الامر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى (ان يتبعون
الا الظن) يعنى ان فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع لهم وأنها تقربهم الى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له (وان
هم الا يخرصون) يعنى ان هم الا يكذبون ۞ قوله عز وجل (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار
مبصرا) يعنى هو الله ربكم الذى خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون
فيه وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب
معايشكم وأضاف الابصار الى النهار وانما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام
العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير

لقد

لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع مذكر معتبر (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغنى) علة لنفى الولد لانه انما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به والكل أمارة الحاجة فمن كان غنيا غير محتاج كان الولد عنه منفيا ولان الولد بعض الوالد فيستدعى أن يكون مركبا وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج الى الغير فكان حادثا فاستحال القديم أن يكون له ولد (له مافى السموات ومافى الارض) ملكا ولا تجتمع البنوة معه (ان عندكم من سلطان بهذا) ماعندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله ان عندكم على أن يجعل القول مكانا لسلطان كقولك ماعندكم بارضكم موز كانه قيل ان عندكم فيما تقولون سلطان ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال (أتقولون على الله مالا تعلمون قل ان الذين يفترون على الله الكذب) باضافة الولد اليه (لايفلحون) لاينجون من النار ولا يفوزون بالجنة (متاع فى الدنيا) أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة فى الدنيا حيث يقيمون به رياستهم فى الكفر ومناصبة النبى صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به (ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد) المخلد (بما كانوا يكفرون) بكفرهم (واتل عليهم) واقرأ عليهم (نبأ نوح) خبره مع قومه والوقف عليه لازم اذ لو وصل لصار اذ ظرفا لقوله واتل بل التقدير واذكر (اذ قال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم) عظم وثقل كقوله وانها لكبيرة الا على الخاشعين (مقامى) مكانى يعنى نفسه كقوله ولمن خاف مقام ربه جنتان أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين أظهركم ألف سنة الا خمسين عاما أو مقامى (وتذكيرى بآيات الله) لانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا (فعلى الله توكلت) أى فوضت أمرى اليه (فأجمعوا أمركم) من أجمع الامر اذا نواه وعزم عليه

لقد لمتنا ياأم غيلان فى السرى * ونمت وماليل المطى بنائم

فاضاف النوم الى الليل ووصفه به وانما عنى نفسه وانه لم يكن نائما هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب الى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء ۞ قوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يعنى يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذى خلق هذه الاشياء كلها هو الاله المعبود المنفرد بالوحدانية فى الوجود (قالوا) يعنى المشركين (اتخذ الله ولدا) يعنى به قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد (هو الغنى) يعنى انه سبحانه وتعالى هو الغنى عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وانما يتخذ الولد من هو محتاج اليه والله تعالى هو الغنى المطلق وجميع الاشياء محتاجة اليه وهو غنى عنها (له مافى السموات ومافى الارض) يعنى انه مالك مافى السموات ومافى الارض وكلهم عبيده وفى قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم ولما نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالانكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى (ان عندكم من سلطان بهذا) يعنى انه لا حجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ فى الانكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله مالا تعلمون) يعنى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون اليه مالا يجوز اضافته اليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان (قل ان الذين يفترون على الله الكذب) أى قل يامحمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولدا (لايفلحون) يعنى لا يسعدون وان اغتروا بطول السلامة والبقاء فى النعمة والمعنى ان قائل هذا القول لا ينجح فى سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف تام يعنى قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى (متاع فى الدنيا) وفيه اضمار تقديره لهم متاع فى الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم فى الدنيا وهى أيام يسيرة بالنسبة الى طول مقامهم فى العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (ثم الينا مرجعهم) يعنى بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يعنى ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون فى الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله ۞ قوله سبحانه وتعالى (واتل عليهم نبأ نوح) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك فى بيان قصص الانبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة بمن سلف من الانبياء وتسلية له ليخف عليه مايلقى من أذى قومه وان الكفار من قومه اذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الامم الماضية من العذاب والهلاك فى الدنيا كان ذلك سببا لخوف قلوبهم وداعيا لهم الى الايمان ولما كان قوم نوح أول الامم هلاكا وأعظمهم كفرا وجحودا ذكر الله قصتهم وانه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعنى واقرأ على قومك يامحمد خبر قوم نوح (اذ قال لقومه ياقوم) وهم بنو قابيل (ان كان كبر) يعنى ثقل (عليكم مقامى) يعنى فيكم (وتذكيرى بآيات الله) يعنى ووعظى اياكم بآيات الله وقيل معناه ان كان ثقل وشق عليكم طول مقامى فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيرى بآيات الله يعنى ووعظى بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلى وطردى (فعلى الله توكلت) يعنى فهو حسبى وثقتى (فأجمعوا أمركم) يعنى فأحكموا أمركم واعزموا عليه قال الفراء

(وشركاءكم) الواو بمعنى مع اى فاجمعوا أمركم مع شركائكم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى غما عليكم وهما والغم والغمة كالكرب والكربة أو ملتبسا فى خفية وا لغمة السترة من غمه اذا ستره ومنه الحديث لا غمة فى فرائض الله أى لا تستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولا يكن قصدكم الى هلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونني به (ثم اقضوا الى) ذلك الامر الذى تريدون بى أى أدوا الى ما هو حق عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه أو اصنعوا ما أمكنكم (ولا تنظرون) ولا تمهلونى (فان توليتم) فان أعرضتم عن تذكيرى ونصحى الاولى أو فما سألتكم من أجر ففاتنى ذلك بتوليتكم (ان أجرى الا على الله) وهو الثواب (فما سألتكم من أجر) فاوجب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى ما نصحتكم الا لله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة منع أخذ الاجر على تعليم القرآن والعلم الدينى (وأمرت أن أكون من المسلمين) من المستسلمين لاوامره ونواهيه أجرى بالفتح مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص (فكذبوه) فداموا على تكذيبه (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف) يخلفون الهالكين بالغرق فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له (ثم بعثنا من بعده) من بعد نوح عليه السلام (رسلا الى قومهم) أى هودا وصالحا وابراهيم ولوطا وشعيبا (فجاؤهم بالبينات) بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم (فما كانوا ليؤمنوا) فاصروا على الكفر بعد المجىء (بما كذبوا به من قبل) من قبل مجيئهم يعنى يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث اليهم أحد (كذلك نطبع) مثل ذلك الطبع نختم (على قلوب المعتدين) المجاوزين الحد فى التكذيب (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا) بالآيات التسع (فاستكبروا) عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوما مجرمين) كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤا على ردها (فلما جاءهم الحق من عندنا) فلما عرفوا أنه هو الحق وانه من عند الله

الاجماع الاعداد والعزيمة على الامر وقال ابن الانبارى المراد من الامر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيأ الا أحضرتموه (وشركاءكم) يعنى وادعوا شركاءكم يعنى آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وانما حثهم على الاستعانة بالاصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم انها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) يعنى لا يكن أمركم عليكم خفيا مبهما ولكن ليكن أمركم ظاهرا منكشفا من قولهم غم الهلال فهو مغموم اذا خفى والتبس على الناس (ثم اقضوا) ثم امضوا (الى) بما فى أنفسكم من مكروه وما توعدونى به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان اذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون (ولا تنظرون) أى ولا تؤخرونى ولا تمهلونى بعد اعلامكم اياى ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام انه كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله وانه كان واثقا بنصره اياه غير خائف من كيدهم علما منه بانهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وان مكرهم لا يصل اليه (فان توليتم) يعنى فان أعرضتم عن قولى وقبول نصحى (فما سألتكم من أجر) يعنى من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فاذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة الى الله شيأ كان أقوى تأثيرا فى النفس (ان أجرى الا الله) أى ما ثوابى وجزائى على تبليغ الرسالة الا على الله (وأمرت أن أكون من المسلمين) يعنى انى أمرت بدين الاسلام وأنا ماض فيه غير تارك له واء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لامر الله ولكل مكروه يصل الى منكم لاجل هذه الدعوة (فكذبوه) يعنى فكذبوا نوحا عليه السلام (فنجيناه ومن معه فى الفلك) يعنى فى السفينة (وجعلناهم خلائف) يعنى وجعلنا الذين نجيناهم معه فى الفلك سكان الارض بعد الهالكين (واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى فانظر يا محمد أو يا أيها الانسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك (ثم بعثنا من بعده) يعنى من بعد نوح (رسلا الى قومهم) لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهم من الرسل (فجاؤهم بالبينات) يعنى بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التى تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) يعنى ان أولئك الاقوام والامم التى جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ولم زجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعنى مثل اغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم فى التكذيب ۞ قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعنى من بعد الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه) يعنى أشراف قومه (بآياتنا فاستكبروا) يعنى عن الايمان بما جاء به موسى وهرون (وكانوا قوما مجرمين) يعنى مستكسبين للاثم (فلما جاءهم الحق من عندنا)

(قالوا) لحبهم الشهوات (ان هذا لسحر مبين) وهم يعلمون أن الحق أبعد شئ من السحر (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هو انكار ومقولهم محذوف أى هذا سحر ثم استأنف انكار سحر آخر فقال (أسحر هذا) خبر ومبتدأ (ولا يفلح الساحرون) أى لا يظفر (قالوا أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الاصنام أو عبادة فرعون (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك لان الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو (فى الارض) أرض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) بمصدقين فيما جئتما به ويكون حماد ويحيى (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) سحار حمزة وعلى (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) ما موصولة واقعة مبتدأ وجئتم به صلتها والسحر خبر أى الذى جئتم به هو السحر لا الذى سماه فرعون وقومه سحرا من آيات الله آلسحر بعد وقف أبو عمرو على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أى أى شئ جئتم أهو السحر (ان الله سيبطله) يظهر بطلانه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبته بل يدمره (ويحق الله الحق) ويثبته (بكلماته) بأوامره وقضاياه أو يظهر الاسلام بعداته بالنصرة (ولو كره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى) فى أول أمره (الا ذرية من قومه على خوف من فرعون) الا طائفة من ذرارى بنى اسرائيل كأنه قيل الا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف والضمير فى قومه لفرعون والذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وماشطته والضمير فى (وملئهم) يرجع الى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر أو لانه ذو أصحاب يأتمرون

يعنى فلما جاء فرعون وقومه الحق الذى جاء به موسى من عند الله (قالوا ان هذا لسحر مبين) يعنى ان هذا الذى جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الاول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الانكار يعنى أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال (ولا يفلح الساحرون) يعنى حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا (قالوا) يعنى قال قوم فرعون لموسى (أجئتنا لتلفتنا) يعنى لتصرفنا وتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا) يعنى من الدين (وتكون لكما الكبرياء) يعنى الملك والسلطان (فى الارض) يعنى فى أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمى الملك كبرياء لانه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا (وما نحن لكما بمؤمنين) يعنى بمصدقين (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) يعنى ان فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بانواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) انما أمرهم موسى بالقاء ما معهم من الحبال والعصى التى فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين ان ما أتوا به فاسد (فلما ألقوا) يعنى ما معهم من الحبال والعصى (قال موسى ما جئتم به السحر) يعنى الذى جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم (ان الله سيبطله) يعنى يهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) يعنى لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه (ويحق الله الحق) يعنى ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه (بكلماته) يعنى بوعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة (ولو كره المجرمون)

﴿قوله سبحانه وتعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه) لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى انه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان كثير الاهتمام بايمان قومه وكان يغتم بسبب اعراضهم عن الايمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى ان له اسوة بالانبياء عليهم الصلاة والسلام لان الذى جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه الا ذرية والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا فى هاء الكناية فى قومه فقيل انها راجعة الى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو اسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده قال مجاهد هم أولاد يعقوب الذين أرسل اليهم موسى هلك الآباء وبقى الابناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك ان فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى اسرائيل كانت المرأة فى بنى اسرائيل اذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشؤا بين القبط فلما كان اليوم الذى غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ذرية من قومه يعنى من بنى اسرائيل وقيل انها راجعة الى فرعون يعنى الا ذرية من قوم فرعون روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطته قال الفراء سموا ذرية لان آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بنى اسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله فى الايمان وذلك كما يقال لاولاد فارس الذين دخلوا الى اليمن الابناء لان أمهاتهم من غير جنس الآباء (على خوف من فرعون وملئهم) الملأ الاشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن

له أو الى الذرية أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى اسرائيل لانهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم
دليله قوله (أن يفتنهم) يريد أن يعذبهم فرعون (وان فرعون لعال فى الارض) لغالب فيها قاهر (وانه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد وفى
الكبر والعتو بادعائه الربوبية (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) فاليه
أسندوا أمركم فى العصمة من فرعون (ان كنتم مسلمين) شرط فى التوكل الاسلام وهو أن يسلموا نفوسهم لله أى يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط (فقالوا على الله توكلنا) انما قالوا ذلك لان القوم كانوا مخلصين لا جرم أن الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى أرضه فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط الى الاخلاص (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) موضع فتنة لهم أى عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أى يضلوننا والفاتن المضل عن الحق (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى من تعذيبهم وتسخيرهم (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) تبوأ المكان اتخذه مباءة كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعا يرجعون اليه للعبادة والصلاة فيه (واجعلوا
بيوتكم قبلة) أى مساجد متوجهة نحو القبلة وهى الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون الى الكعبة وكانوا فى أول ويصلوا
الامر مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم فى خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك فى أول
الاسلام بمكة (وأقيموا الصلاة) فى بيوتكم حتى تأمنوا (وبشر المؤمنين) ياموسى ثنى الخطاب أولا ثم جمع ثم وحد آخرا لان اختيار مواضع

أشرافهم وهم ملا الذرية لانه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى اسرائيل وقيل أراد بالملا ملا فرعون وانما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له (أن يفتنهم) أى يصرفهم ويصدهم عن الايمان وانما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لان قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لامره (وان فرعون لعال فى الارض) يعنى انه لغالب قهار متكبر فيها (وانه لمن المسرفين) يعنى من المجاوزين الحد لانه كان عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبنى اسرائيل (وقال موسى) يعنى لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) يعنى فبه فثقوا ولامره فسلموا فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) يعنى ان كنتم مستسلمين لامره قيل انما أعيد قوله ان كنتم مسلمين بعد قوله ان كنتم آمنتم بالله لارادة ان كنتم موصوفين بالايمان القلبى وبالاسلام الظاهرى ودلت الآية على ان التوكل على الله والتفويض لامره من كمال الايمان وان من كان يؤمن بالله فلا يتوكل الا على الله لا على غيره (فقالوا) يعنى قال قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) يعنى عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يعنى لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا انا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يعنى وخلصنا برحمتك من أيدى قوم فرعون الكافرين لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى الاعمال الشاقة ۞ قوله عز وجل (وأوحينا الى موسى وأخيه) هرون (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يعنى اتخذا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا اذا اتخذه مباءة أى وطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون اليها للصلاة والعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) اختلف أهل التفسير فى معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التى يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم الى القبلة واختلفوا فى هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها الا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة لموسى وهرون وهو قول مجاهد أيضا قال ابن عباس قالت بنو اسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فاذن الله لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة الى جهة بيت المقدس وقيل أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أى مقابلة يعنى يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا فى بيوتكم قبلة تصلون اليها فان قلت انه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب فى أول الآية بقوله سبحانه وتعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم انه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه قلت انه سبحانه وتعالى أمر موسى وهرون بان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الانبياء فخصا بالخطاب لذلك ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم بالخطاب الجميع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة (وأقيموا الصلاة) يعنى فى بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بنى اسرائيل من فرعون وقومه اذا صلوا فى الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذوهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا فى بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو اسرائيل لا يصلون الا فى الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فامروا أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم

العبادة مما يفوض الى الانبياء ثم جمع لان اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها وللمبشر بها (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) هو ما يتزين به من لباس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك (وأموالا) أي نقدا ونعما وضيعة (في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) ليضلوا الناس عن طاعتك كوفي ولا وقف على

ويصلوا فيها خوفا من فرعون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهرون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الاعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر المؤمنين) يعني بانه لا يصل اليهم مكروه ۞ قوله سبحانه وتعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والانكار لما جاء به أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم التي كانت سبب اصراره على ما يوجب الدعاء عليه ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لا جرم ان موسى لما أخذ في الدعاء قدم هذه المقالة فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا والزينة عبارة عما يتزين به كاللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والاشياء الجميلة والمال ما زاد على هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى (ربنا ليضلوا عن سبيلك) اختلفوا في هذه اللام فقال الفراء هي لام كي فعلى هذا يكون المعنى ربنا انك جعلت هذه الاموال سببا لضلالهم لانهم بطروا وطغوا في الارض واستكبروا عن الايمان وقال الاخفش انما هي لما يؤل اليه الامر والمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هي لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الانباري هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا انك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس ازالة أثر الشيء بالمحو ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيآتها وقال مجاهد أهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا ان أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظي صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لان موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا وأثلاثا وقيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فاخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة وقال السدي مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والاطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) يعني اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للايمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الايمان قال الواحدي وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) يعني الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه قال موسى قبل أن يأتي فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الايمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الايمان قال بعض العلماء انما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم ان سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لا يؤمنون وذلك ان الله سبحانه وتعالى كتب عليهم في الازل انهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم (قال) الله عز وجل لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) انما نسب الدعاء اليهما والداعي هو موسى وحده لان هرون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لانه طلب وسؤال أيضا ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى في الدعاء فلذلك قال

الدنيا لان قوله ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار الاول للالحاح في التضرع قال الشيخ أبو منصور رحمه الله اذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله وهو كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما فتكون الآية حجة على المعتزلة (ربنا اطمس على أموالهم) أي اهلكها وأذهب آثارها لانهم يستعينون بنعمتك على معصيتك والطمس المحو والهلاك قيل صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيآتها منقوشة وقيل وسائر أموالهم كذلك (واشدد على قلوبهم) اطبع على قلوبهم واجعلها قاسية (فلا يؤمنوا) جواب الدعاء الذي هو اشدد (حتى يروا العذاب الاليم) الى ان يروا العذاب الاليم وكان كذلك فانهم لم يؤمنوا الى الغرق وكان ذلك ايمان يأس فلم يقبل وانما دعا عليهم بهذا لما أيس من ايمانهم وعلم بالوحي انهم لا يؤمنون فاما قبل ان يعلم بانهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء لانه أرسل اليهم ليدعوهم الى الايمان وهو يدل على ان الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرا (قال قد أجيبت دعوتكما) قيل كان موسى عليه السلام يدعو وهرون يؤمن فثبت ان التأمين دعاء فكان اخفاؤه أولى والمعنى ان دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته

(فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق الاجابة وحكمة الامهال فقد كان بين الدعاء والاجابة أربعون سنة ولا تتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية شامي وخطأه بعضهم لان النون الخفيفة واجبة السكون وقيل هو اخبار عما يكونان عليه وليس بنهي أو هو حال وتقديره فاستقيما غير متبعين (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هو دليل لنا على خلق الافعال (فأتبعهم فرعون وجنوده) فلحقهم يقال تبعته حتى أتبعته (بغيا) تطاولا (وعدوا) ظلما وانتصبا على الحال أو على المفعول له (حتى اذا أدركه الغرق) ولا وقف عليه لان (قال آمنت) جواب اذا (انه) حمزة وعلي على الاستئناف بدل من آمنت وبالفتح غيرهما على حذف الباء التي هي صلة الايمان (لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) وفيه دليل على ان الايمان والاسلام واحد حيث قال آمنت ثم قال وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار (آلآن) أتؤمن بالساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك قيل قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن (وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) من الضالين المضلين عن الايمان روي ان جبريل اخرجه عليه السلام أتاه بفتيا ما قول الامير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه فعرفه

تعالى قد أجيبت دعوتكما (فاستقيما) يعني على تبليغ الرسالة وامضيا الامر الى أن يأتيهم العذاب (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) يعني ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فان وعدي لا خلف فيه ووعيدي نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام و بين الاجابة أربعون سنة قال الامام فخر الدين الرازي واعلم ان هذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه ﴿ قوله عز وجل (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) أي وقطعنا ببني اسرائيل البحر وعبرناهم اياه حتى جاوزوه وعبروه (فأتبعهم فرعون وجنوده) يعني لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرج مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك انه لما أجاب الله دعاء موسى وهرون أمرهما بالخروج ببني اسرائيل من مصر في الوقت الذي أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلا عنهم فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الارض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الالوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بني اسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا في البحر وهموا بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى (حتى اذا أدركه الغرق قال) يعني فرعون (آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل قال العلماء ايمانه غير مقبول وذلك أن الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى فلهذا قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) يعني آلآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل ان القائل لذلك هو الله تعالى عرّف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الارض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك والقول الاول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة

أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وفى رواية أخرى عنه عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس ذكر أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر ان جبريل عليه السلام جعل يدس فى فى فرعون الطين خشية أن يقول لا اله الا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

﴿فصل فى الكلام على هذا الحديث﴾ لانه فى الظاهر مشكل فيحتاج الى بيان وايضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففى الطريق الاول عن ابن زيد بن جدعان وهو وان كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فانه كان شيخا نبيلا صدوقا ولكنه كان سيء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وانما يخشى من حديثه اذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف فى هذا الحديث لان فى الطريق الآخر شعبة عن عدى بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الاسناد على شرط البخارى ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وان كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا ان لهذا الحديث أصلا وان رواته ثقات ليس فيهم متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره فان قلت ففى الحديث الثانى شك فى رفعه لانه قال فيه ذكر أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قلت ليس بشك فى رفعه انما هو جزم بان أحد الرجلين رفعه وشك شعبة فى تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدى ابن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه أحدهما وشك فى تعيينه لم يكن هذا علة فى الحديث وقوله من حال البحر أى من طين البحر كما فى الرواية الاخرى

﴿فصل﴾ ووجه اشكاله ما اعترض به الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره فقال هل يصح أن جبريل أخذ يملا فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه والجواب الاقرب أنه لا يصح لان فى تلك الحالة اما ان يقال التكليف هل كان ثابتا أم لا فان كان ثابتا لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وان كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بجلال الله ان يأمر جبريل بان يمنعه من الايمان ولو قيل ان جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بامر ربك فهذا وجه الاشكال الذى أورده الامام على هذا الحديث فى كلام أكثر من هذا والجواب عن هذا الاعتراض ان الحديث قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض عليه لاحد وأما قول الامام ان التكليف هل كان ثابتا فى تلك الحالة أم لا فان كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فان هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله وان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر فانهم يقولون ان الله يحول بين الكافر والايمان ويدل على ذلك قوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وقوله تعالى وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة فان خبر الله سبحانه وتعالى انه قلب أفئدتهم مثل تركهم الايمان به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزاء على تركه الايمان أولا فدس الطين فى فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الايمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الافعال لله ومن المنكرين لخلق الافعال من اعترف أيضا ان الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الايمان فاما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فان غاية ما يقال فيه ان الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الايمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق

ورده الا يمان لما جاءه وأما فعل جبريل من دس الطين فى فيه فانما فعل ذلك بامر الله لا من تلقاء نفسه فاما قول الامام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا اذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا وأما اذا كان جبريل انما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذى منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لامر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل عليه السلام اما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل الا ما أمر الله به واما ان يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه اعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهى عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر انه أمره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا وقوله وان كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة فجوابه أن يقال ان للناس فى تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السؤال أصلا وقد زال الاشكال والقول الثانى ان أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لاجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب وان ايمانه لا ينفعه دس الطين فى فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان قالها فى وقت لا ينفعه فدس الطين فى فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضى عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى عليه السلام لما دعا ربه بان فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم والايمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين فى فيه لييأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق اجابة الدعوة التى وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعى جبريل فى تكميل ما سبق فى حكم الله أنه يفعله فيكون سعى جبريل فى مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمر به وقدره وقضاه على فرعون وأما قوله لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر فجوابه ما تقدم من ان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وجبريل انما يتصرف بأمر الله ولا يفعل الا ما أمره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فانما رضى بالامر لا بالمأمور به فأى كفر يكون هنا وأيضا فان الرضا بالكفر انما يكون كفرا فى حقنا لانا مامورون بازالته بحسب الامكان فاذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به واما من ليس مامورا كأمرنا ولا مكلفا كتكليفنا بل يفعل ما يامره به ربه فانه اذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه وعلى هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فى فرعون كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذا لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يامر جبريل بان يمنعه من الايمان فجوابه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وان قيل ان جبريل انما فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فجوابه انما فعل ذلك بامر الله منفذا لامر الله والله اعلم بمراده وأسرار كتابه ۞ قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) أى نلقيك على نجوة من الارض وهى المكان المرتفع قال أهل التفسير لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه وأخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو اسرائيل ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلوبهم من

(فاليوم ننجيك) نلقيك بنجوة من الارض فرماه الماء الى الساحل كانه ثور (ببدنك) فى موضع الحال أى فى الحال التى لا روح فيك وانما أنت بدن أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شئ ولم يتغير أو عريانا لست الا بدنا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه بابدانك وهو مثل قولهم هو باجرامه أى ببدنك كله وافيا باجزائه أو بدروعك لانه ظاهر بينها

الرعب لاجله فامر الله عز وجل البحر فالقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو اسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا أبدا ومعنى قوله ببدنك يعنى نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كانه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك وقيل أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه (لتكون لمن خلفك آية) يعنى عبرة وموعظة وذلك انهم ادعوا ان مثل فرعون لا يموت أبدا فاظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لانه كان فى غاية العظمة فصار الى نهاية الخسة والذلة ملقى على الارض لا يهابه أحد (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ۞ قوله عز وجل (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) يعنى أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر واغراق عدوهم فرعون والمعنى أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وانما وصف المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيأ اضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشئ اذا كان كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وفى المراد بالمكان الذى بوؤا قولان أحدهما انه مصر فيكون المراد ان الله أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره والقول الثانى انه أرض الشام والقدس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) يعنى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) يعنى فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذى كانوا يعلمونه حقا فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه علما لانه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفى كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان الاول ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث كذبوه بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم والوجه الثانى أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون ۞ وقوله تعالى (ان ربك) يعنى يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى من أمرك وأمر نبوتك فى الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار ۞ قوله سبحانه وتعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) الشك فى موضوع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الانسان لوجود أمارتين أو لعدم الامارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكا فاذا قيل فلان شك فى هذا الامر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب فى قوله فان كنت فى شك أنه للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد فى شك مما أنزلنا اليك يعنى من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعنى القرآن (فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) يعنى علماء أهل

(لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو اسرائيل وكان فى أنفسهم ان فرعون أعظم شأنا من ان يغرق وقيل أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فالقاه الله على الساحل حتى عاينوه وقيل لمن خلفك لمن يأتى بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته وان ما كان يدعيه من الربوبية محال وانه ما كان عليه من عظم الملك آل أمره الى ما ترون لعصيانه ربه فما الظن بغيره (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام (ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا) فى دينهم (حتى جاءهم العلم) أى التوراة وهم اختلفوا فى تأويلها كما اختلف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى تأويل الآيات من القرآن أو المراد العلم بمحمد واختلاف بنى اسرائيل وهم أهل الكتاب اختلافهم فى صفته انه هو أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم انه هو (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يميز المحق من المبطل ويجزى كلا جزاءه (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) لما قدم ذكر بنى اسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بان العلم قد جاءهم لان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب فى التوراة والانجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ويبالغ فى ذلك فقال فان وقع لك شك فرضا وتقديرا وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع الى حلها بالرجوع الى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء فسل علماء أهل الكتاب فانهم من الاحاطة بصحة ما أنزل اليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلا عن غيرك فالمراد وصف الاحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشك فيه

الكتاب يخبر وك بأنك مكتوب عندهم في التوراة والانجيل وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه ههنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبي صلى الله عليه وسلم فيما أنزل عليه أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك واذا كان شاكا في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه قلت الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء فانه أورد هذا السؤال ثم قال احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من اثبات شك النبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحي اليه فانه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم جملة بل قد قال ابن عباس لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وحكى عن قتادة أنه قال بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا انتهى كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين أحدهما ان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرك فثبت ان المراد به غيره ومن أمثلة العرب * اياك أعني واسمعي ياجاره * فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد يا أيها الانسان الشاك ان كنت في شك مما أنزلنا اليك على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فاسئل الذين يقرؤن الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التاويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني الآية فبين أن المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح وأيضا لو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكا في نبوته لكان غيره أولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل ان الله سبحانه وتعالى علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يارب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج ان الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله فان كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبي اذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا في هذا الخطاب كان الاعتراض موجودا والسؤال واردا وقيل ان لفظة ان في قوله فان كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك مما أنزلنا اليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقينا والقول الثاني أن هذا الخطاب ليس هو للنبي صلى الله عليه وسلم البتة ووجه هذا القول ان الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تعالى فان كنت أيها الانسان في شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وانما وحد الله الضمير في قوله فان كنت وهو يريد الجمع لانه خطاب لجنس الانسان كما في قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم لم يرد في الآية انسانا بعينه بل أراد الجمع واختلفوا في المسؤل عنه في قوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك من هم فقال المحققون من أهل التفسير هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لانهم هم الموثوق باخبارهم وقيل المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لان المقصود من هذا السؤال الاخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانه مكتوب عندهم صفته ونعته فاذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والاول أصح وقال الضحاك يعني أهل التقوى وأهل الايمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بانك رسول الله حقا وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك (فلا تكونن من الممترين) يعني من الشاكين في صحة ما أنزلنا اليك (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) يعني بدلائله وبراهينه الواضحة

(لقد جاءك الحق من ربك) أي ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مجال فيه للشك (فلا تكونن من الممترين) الشاكين ولا وقف عليه للعطف (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله

فتكون

(فتكون من الخاسرين) أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله أو هو على طريق التهييج والالهاب كقوله فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق أو خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أي وان كنتم في شك مما أنزلنا اليكم كقوله وأنزلنا اليكم نورا مبينا أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب اذا عز أخوك فهن أو ان للنفي أي فما كنت في شك فسل أي ولا نأمرك بالسؤال لانك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد ابراهيم عليه السلام بمعاينة احياء الموتى فان قلت انما يجيء ان للنفي اذا كان بعده الا كقوله ان الكافرون الا في غرور قلت ذلك غير لازم ألا ترى الى قوله ان أمسكهما من أحد من بعده فان للنفي وليس بعده الا (ان الذين حقت عليهم كلمت ربك) ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا أو قوله لأملأن جهنم الآية ولا وقف على (لا يؤمنون) لان (ولو جاءتهم كل آية) تتعلق بما قبلها (حتى يروا العذاب الاليم) أي عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم أو عند القيامة ولا يقبل منهم (فلولا كانت قرية آمنت) فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الايمان قبل المعاينة ولم تؤخر كما أخر فرعون الى أن أخذ بخنقه (فنفعها ايمانها) بان تقبل الله ايمانها بوقوعه في وقت الاختيار الا قوم يونس استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس أو متصل والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة الا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين) الى آجالهم روي أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم الى بعض وأظهروا الايمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا لما نزل بهم العذاب الى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم وعن الفضيل قدس الله روحه قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله

(فتكونن من الخاسرين) يعني الذين خسروا أنفسهم واعلم أن هذا كله على ما تقدم من أن ظاهره خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا أن المراد به غيره والله أعلم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين حقت عليهم) يعني وجبت عليهم (كلمت ربك) يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وقال قتادة سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه في الازل (لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) فانهم لا يؤمنون بها (حتى يروا العذاب الاليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان لان الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم وصرفهم عن الايمان فلا ينفعهم شيء ۞ قوله سبحانه وتعالى (فلولا) يعني فهلا (كانت قرية) وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لان الاستفهام معنى الجحد والمراد هل كانت قرية (آمنت) يعني عند معاينة العذاب (فنفعها ايمانها) يعني في حال اليأس (الا قوم يونس) هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فانهم آمنوا فنفعهم ايمانهم في ذلك الوقت وهو قوله (لما آمنوا) يعني لما أخلصوا الايمان (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين) يعني الى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا وقال الاكثرون انهم رأوا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون الا بعد الوقوع أو اذا قرب وقوعه

۞ ذكر القصة في ذلك ۞

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا ان قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فارسل الله سبحانه وتعالى اليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان بالله وترك عبادة الاصنام فدعاهم فابوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم الى ثلاث فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليه كذبا قط فانظروا فان بات فيكم الليلة فليس بشيء وان لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤسهم قال ابن عباس ان العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه الا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا الى الصحراء بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح

وأظهروا الاسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض الى البعض فحن الاولاد الى الامهات والامهات الى الاولاد وعلت الاصوات وعجوا جميعا الى الله وتضرعوا اليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا الى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم مانزل بهم من العذاب بعد ماأظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قال ابن مسعود بلغ من توبتهم ان ترادوا المظالم فيما بينهم حتى ان كان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا انه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا ياحي حين لاحي و ياحي محيي الموتى و ياحي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين وقال الفضيل بن عياض انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا مانحن أهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم يرشيأ فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف أرجع اليهم فيجدوني كذابا وكان من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتي القصة في سورة والصافات ان شاء الله تعالى فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد مانزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته قلت أجاب العلماء عن هذا بأجوبة أحدها ان ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل مايشاء و يحكم مايريد الجواب الثاني ان فرعون ما آمن الا بعد ماباشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت و يرجو العافية الجواب الثالث ان الله عز وجل علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ماصدق في ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه ايمانه والله أعلم ﴿قوله سبحانه وتعالى (ولوشاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولوشاء ربك يامحمد لآمن بك وصدقك من في الارض كلهم جميعا ولكن لم يشأ أن يصدقك و يؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص ان يؤمن به جميع الناس و يتابعوه على الهدى فاخبره الله عز وجل انه لايؤمن به الا من سبقت له من الله السعادة في الذكر الاول ولم يضل الا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الاول وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فاخبره الله أنه لايؤمن به الا من سبقت له العناية الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يعني ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لاحد سوانا (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق الا بقضاء الله لها بالايمان فان هدايتها الى الله وهو الهادي المضل وقال ابن عباس معنى باذن الله بامر الله وقال عطاء بمشيئة الله ﴿قوله تعالى (و يجعل) قرئ بالنون على سبيل التعظيم أي ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه و يجعل الله (الرجس) يعني العذاب وقال ابن عباس يعني السخط (على الذين لايعقلون) يعني لايفهمون عن الله أمره ونهيه ﴿قوله عز وجل (قل انظروا) أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر (ماذا في السموات والارض) يعني ماذا خلق الله في السموات والارض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم مسخرها طالعة وغاربة وانزال المطر من السماء وفي الارض الجبال والبحار والمعادن والانهار والاشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال الشاعر

وفي كل شئ له آية ✽ تدل على انه واحد

(ولوشاء ربك لآمن من في الارض كلهم) على وجه الاحاطة والشمول (جميعا) مجتمعين على الايمان مطبقين عليه لايختلفون فيه أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته انه لوشاء لآمن من في الارض كلهم ولكنه شاء ان يؤمن به من علم منه اختيار الايمان به وشاء الكفر ممن علم انه يختار الكفر ولا يؤمن به وقول المعتزلة المراد بالمشيئة مشيئة القسر والالجاء أي لوخلق فيهم الايمان جبرا لآمنوا لكن قد شاء ان يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا دليله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أي ليس اليك مشيئة الاكراه والجبر في الايمان انما ذلك الى فاسد لان الايمان فعل العبد وفعله مايحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتأويله عندنا ان الله تعالى لطفا لوأعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم أنهم لايؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق والاستفهام في أفأنت بمعنى النفي أي لاتملك أنت يامحمد أن تكرههم على الايمان لانه يكون بالتصديق والاقرار ولا يمكن الاكراه على التصديق (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه (ويجعل الرجس) أي العذاب أو السخط أو الشيطان أي ويسلط الشيطان (على الذين لايعقلون) لاينتفعون بعقولهم ونجعل حماد ويحيى (قل انظروا) نظر استدلال واعتبار (ماذا في السموات والارض) (وما

من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار (وماتغنى الآيات) مانافية (والنذر) والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لايؤمنون) لايتوقع ايمانهم وهم الذين لايعقلون (فهل ينتظرون

الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم)

(وماتغنى الآيات والنذر) يعنى الرسل (عن قوم لايؤمنون) وهذا فى حق أقوام علم الله أنهم لايؤمنون لما سبق لهم فى الازل من الشقاء (فهل ينتظرون) يعنى مشركى مكة (الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يعنى من مضى من قبلهم من الامم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما كقوله تعالى وذكرهم بايام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد الا يوما يعاينون فيه العذاب مثل مافعلنا بالامم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعا فان كانوا ينتظرون ذلك العذاب (فقل فانتظروا) يعنى قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب (انى معكم من المنتظرين) يعنى هلاككم قال الربيع بن أنس خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم انه اذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) يعنى من العذاب والهلاك (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) يعنى كما أنجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لان تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بانه حق واجب من حيث الوعد والحكم لأنه واجب بسبب الاستحقاق لانه قد ثبت ان العبد لايستحق على خالقه شيأ ۞ قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك اليهم فشكوا فى أمرك ولم يؤمنوا بك (ان كنتم فى شك من دينى) يعنى الذى أدعوكم اليه وانما حصل الشك لبعضهم فى أمره صلى الله عليه وسلم لما رأى الآيات التى كانت تظهر على يد النبى صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال ان كنتم فى شك من دينى الذى أدعوكم اليه فلا ينبغى لكم أن تشكوا فيه لانه دين ابراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وانما ينبغى لكم أن تشكوا فى عبادتكم لهذه الاصنام التى لا أصل لها البتة فان أصررتم على ما أنتم عليه (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) يعنى هذه الاوثان وانما وجب تقديم هذا النفى لان العبادة هى غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لاخس الاشياء وهى الحجارة التى لاتنفع لمن عبدها ولاتضر ان تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الاماتة والاحياء وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) والحكمة فى وصف الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذى يستحق العبادة فاعبده أنا وأنتم هو الذى خلقكم أولا ولم تكونوا شيأ ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقى وقيل لما كان الموت أشد الاشياء على النفس ذكر فى هذا المقام ليكون أقوى فى الزجر والردع وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذى هو قادر على اهلاككم ونصرى عليكم (وأمرت أن أكون من المؤمنين) يعنى وأمرنى ربى أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهى من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الايمان لانه من أعمال القلوب (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الواو فى قوله وان أقم واو عطف معناه وأمرت ان أقيم وجهى يعنى أقم نفسك على دين الاسلام حنيفا يعنى مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفى وقيل أراد بقوله وان أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته الى طلب الدين الحنيفى غير مائل عنه (ولا تكونن من المشركين) يعنى ولاتكونن ممن يشرك فى عبادة ربه غيره فيهلك وقيل ان النهى عن عبادة الاوثان قد تقدم فى الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهى على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وانه المستحق للعبادة لاغيره فلا ينبغى له أن يلتفت الى غيره بالكلية هذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى (ولا تدع من

يعنى وقائع الله فيهم كما قال أيام العرب لوقائعها (قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا) معطوف على كلام محذوف يدل عليه الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم كانه قيل نهلك الامم ثم ننجى رسلنا على حكاية الاحوال الماضية (والذين آمنوا) ومن آمن معهم (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) أى مثل ذلك الانجاء ننجى المؤمنين منكم ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض أى وحق ذلك علينا حقا ينجى بالتخفيف على وحفص (قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (ان كنتم فى شك من دينى) وصحته وسداده فهذا دينى فاستمعوا وصفه ثم وصف دينه فقال (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى الاصنام (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) يميتكم وصفه بالتوفى ليريهم انه الحقيق بان يخاف ويتقى ويعبد دون مالا يقدر على شئ (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى بان أكون يعنى ان الله أمرنى بذلك بما ركب فى من العقل وبما أوحى

فى كتابه (وان أقم وجهك للدين) أى وأوحى الى أن أقم ليشاكل قوله أمرت أى استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم اليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا (حنيفا) حالا من الدين أو الوجه (ولاتكونن من المشركين ولا تدع من

دون الله مالا ينفعك) ان دعوته (ولا يضرك) ان خذلته (فان فعلت) فان دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فكنى عنه بالفعل ايجازا (فانك اذا من الظالمين) اذا جزاء الشرط وجواب لسؤال مقدر كان سائلا سأل عن تبعة عبادة الاوثان وجعل من الظالمين لانه لا ظلم أعظم من الشرك (وان يمسسك الله) يصبك (بضر) مرض (فلا كاشف له) لذلك الضر (الا هو) الا الله (وان يردك بخير) عافية (فلا رادّ لفضله) فلا رادّ لمراده (يصيب به) بالخير (من يشاء من عباده) قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة الا اليه والاعتماد الا عليه (وهو الغفور) المكفر بالبلاء

(الرحيم) المعافى بالعطاء اتبع النهى عن عبادة الاوثان ووصفها بانها لا تنفع ولا تضر ان الله هو الضار النافع الذى ان أصابك بضر لم يقدر على كشفه الا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذى لا شعور به وكذا ان أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والاحسان فكيف بالاوثان وهو الحقيق اذا بان توجه اليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته وانما ذكر المس فى أحدهما والارادة فى الآخر كانه أراد أن يذكر الامرين الارادة والاصابة فى كل واحد من الضر والخير وانه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فاوجز الكلام بان ذكر المس وهو الاصابة فى أحدهما والارادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على انه قد ذكر الاصابة بالخير فى قوله يصيب به من يشاء من عباده (قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (قد جاءكم الحق) القرآن أو الرسول (من ربكم فمن اهتدى) اختار الهدى واتبع الحق (فانما يهتدى لنفسه) فما نفع باختياره الا نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) ومن آثر الضلال فما ضر الا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم انما أنا بشير ونذير (واتبع ما يوحى اليك واصبر) على تكذيبهم وايذائهم (حتى يحكم الله) لك بالنصرة عليهم والغلبة (وهو خير الحاكمين) لانه المطلع على السرائر فلا يحتاج الى بينة وشهود ﴿سورة هود عليه السلام مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية﴾

دون الله مالا ينفعك) يعنى ان عبدته ودعوته (ولا يضرك) يعنى ان تركت عبادته (فان فعلت) يعنى ما نهيتك عنه فعبدت غيرى أو طلبت النفع ودفع الضر من غيرى (فانك اذا من الظالمين) يعنى لنفسك لانك وضعت العبادة فى غير موضعها وهذا الخطاب وان كان فى الظاهر للنبى صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيأ البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الانسان من دون الله مالا ينفعك الآية ۞ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعنى وان يصبك الله بشدة و بلاء (فلا كاشف له) يعنى لذلك الضر الذى أنزله بك (الا هو) يعنى لا غيره (وان يردك بخير) يعنى بسعة ورخاء (فلا راد لفضله) يعنى فلا دافع لرزقه (يصيب به) يعنى بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده) قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر الاوثان و بين انها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى انه هو القادر على ذلك كله وان جميع الكائنات محتاجة اليه وجميع الممكنات مستندة اليه لانه هو القادر على كل شئ وانه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله (وهو الغفور الرحيم) وفى الآية لطيفة أخرى وهى ان الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار و يكشفها لان الاستثناء من النفى اثبات ولما ذكر الخير قال فيه فلا رادّ لفضله يعنى ان جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لانه هو الذى يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعنى الساتر لذنوب عباده الرحيم يعنى بهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعنى القرآن والاسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من الله عزوجل (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) لان نفع ذلك يرجع اليه (ومن ضل فانما يضل عليها) أى على نفسه لان و باله راجع اليه فمن حكم الله له بالاهتداء فى الازل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشئ أبدا (وما أنا عليكم بوكيل) يعنى وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف (واتبع ما يوحى اليك) يعنى الامر الذى يوحيه الله اليك يا محمد (واصبر) يعنى على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك (حتى يحكم الله) يعنى ينصرك عليهم باظهار دينك (وهو خير الحاكمين) يعنى انه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه واظهار دينه و بقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب وفيه اذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام﴾

وهى مكية فى قول ابن عباس و به قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفى رواية عن ابن عباس انها مكية غير آية وهى قوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هى مكية الا قوله سبحانه وتعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وهى مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون

وستون حرفا عن ابن عباس قال قال أبو بكر يارسول الله قد شبت قال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وفي رواية غيره قال قلت يارسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية قال بعض العلماء سبب شيبه صلى الله عليه وسلم من هذه السور المذكورة في الحديث لما فيهما من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الركتاب أحكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع (ثم فصلت) يعني بينت وقال الحسن أحكمت آياته بالامر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس قال أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالامر والنهي وقال قتادة أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظما رصينا محكما بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل ان آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الاحكام والمواعظ والقصص والاخبار عن المغيبات وقال مجاهد فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فان قلت كيف عم الآيات هنا بالاحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات قلت ان الاحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الاحكام العام هنا انه لا يتطرق الى آياته التناقض والفساد كاحكام البناء فان هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالاحكام الخاص المذكور في قوله منه آيات محكمات ان بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضا لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أي معظم آياته محكمة وان كان قد دخل النسخ على البعض فاجرى الكل على البعض لان الحكم للغالب واجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول أكلت طعام زيد وانما أكلت بعضه وقوله تعالى (من لدن حكيم) يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله (خبير) يعني باحوال عباده وما يصلحهم (ألا تعبدوا الا الله) هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الانداد والاصنام وما كانوا يعبدون والرجوع الى الله تعالى والى عبادته والدخول في دين الاسلام (انني لكم منه) أي قل لهم يا محمد انني لكم من عند الله (نذير) ينذركم عقابه ان ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه (وبشير) يعني وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا اليه لان الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية الى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا اليه في المستقبل وقال الفراء ثم هنا بمعنى الواو لان الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد (يمتعكم متاعا حسنا) يعني انكم اذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير قال بعضهم المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور (الى أجل مسمى) يعني يمتعكم متاعا حسنا الى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم فان قلت قد ورد في الحديث ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى قلت وأما قوله صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن فهو بالنسبة الى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فانه في

(الركتاب) أي هذا كتاب فهو خبر مبتدأ محذوف (أحكمت آياته) صفة له أي نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم (ثم فصلت) كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والاحكام والمواعظ والقصص أو جعلت فصولا سورة سورة وآية آية أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة أو فصل فيها ما يحتاج اليه العباد أي بين ولخص وليس معنى ثم التراخي في الوقت ولكن في الحال (من لدن حكيم خبير) صفة أخرى لكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لاحكمت وفصلت أي من عنده احكامها وتفصيلها (ألا تعبدوا الا الله) مفعول له أي لئلا تعبدوا أو أن مفسرة لان في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل قال لا تعبدوا الا الله أو أمركم أن لا تعبدوا الا الله (انني لكم منه نذير وبشير) أي من الله (وأن استغفروا ربكم) أي أمركم بالتوحيد والاستغفار (ثم توبوا اليه) أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا اليه بالطاعة (يمتعكم متاعا حسنا) يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة (الى أجل مسمى) الى أن يتوفاكم

سجن فى الدنيا حتى يفضى الى ذلك المعدله وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة الى ما أعد الله له فى الآخرة من العذاب الاليم الدائم الذى لا ينقطع فهو فى الدنيا فى جنة حتى يفضى الى ما أعد الله له فى الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن فى بعض الاوقات فانما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيآت وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن فى جميع أحواله فى عيشة حسنة لانه راض عن الله فى جميع أحواله ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ويؤت كل ذى فضل فضله) أى ويعط كل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره وثوابه فى الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت حسناته ودرجاته فى الجنة لان الدرجات تكون على قدر الاعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيآته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من حسناته العشرة واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده اعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله فى المستقبل لطاعته (وان تولوا) يعنى وان أعرضوا عما جئتهم به من الهدى (فانى أخاف عليكم) أى فقل لهم يا محمد انى أخاف عليكم (عذاب يوم كبير) يعنى عذاب النار فى الآخرة (الى الله مرجعكم) يعنى فى الآخرة فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسىء على اساءته (وهو على كل شئ قدير) يعنى من ايصال الرزق اليكم فى الدنيا وثوابكم وعقابكم فى الآخرة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره فنزلت ألا انهم يثنون صدورهم يعنى يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب اذا طويته وقال عبد الله بن شداد بن الهاد نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كى لا يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كى لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى وقال السدى يثنون صدورهم أى يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى (ليستخفوا منه) يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عز وجل ان استطاعوا (ألا حين يستغشون ثيابهم) يعنى يغطون رؤسهم بثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور) ومعنى الآية على ما قاله الازهرى ان الذين أضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم فى كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخارى فى افراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومى أنه سمع ابن عباس يقرأ ألا انهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (وما من دابة فى الارض) الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض وأطلق لفظ الدابة على كل ذى أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمى وغيره من جميع الحيوانات (الا على الله رزقها) يعنى هو المتكفل برزقها فضلا منه لا على سبيل الوجوب فهو الى مشيئته ان شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى من أى من الله رزقها وقال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال ابن عباس مستقرها المكان الذى تأوى اليه فى ليل أو نهار ومستودعها المكان الذى تدفن فيه بعد الموت وقال ابن مسعود مستقرها أرحام الامهات والمستودع المكان الذى تموت فيه وقيل

(وان تولوا) وان تتولوا (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة (الى الله مرجعكم) رجوعكم (وهو على كل شئ قدير) فكان قادرا على اعادتكم (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه لان من أقبل على الشئ استقبله بصدره ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (ليستخفوا منه) ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم (ألا حين يستغشون ثيابهم) يتغطون بها أى يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة الاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى لا تفاوت فى علمه بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده قيل نزلت فى المنافقين (انه عليم بذات الصدور) بما فيها (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) تفضلا لا وجوبا (ويعلم مستقرها) مكانه من الارض ومسكنه (ومستودعها) حيث كان مودعا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة

المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر (كل فى كتاب مبين) أى كل ذلك مثبت فى اللوح المحفوظ قبل خلقها

﴿ قوله عز وجل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) يعنى قبل خلق السموات والارض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء وقال ضمرة ان الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما خلق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه الى يوم القيامة ثم ان ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيأ من خلقه وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء على أى شئ كان الماء قال على متن الريح وقال وهب بن منبه ان العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والارض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات فى يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الارض منها ثم خلق الاقوات فى يومين والسموات فى يومين والارض فى يومين ثم فرغ آخر الخلق فى اليوم السابع قال بعض العلماء وفى خلق جميع الاشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لان البناء الضعيف اذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والارض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب فاتى ناس من بنى تميم فقال اقبلوا البشرى يا بنى تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول هذا الامر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شئ قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وكتب فى الذكر كل شئ ثم أتانى رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فاذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم عن أبى رزين العقيلى قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذى وقال قال أحمد يريد بالعماء أنه ليس معه شئ قال أبو بكر البيهقى فى كتاب الاسماء والصفات له قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شئ قبله يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله وكان عرشه على الماء يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب فى الذكر كل شئ وقوله فى عماء وجدته فى كتاب عماء مقيدا بالمد فان كان فى الاصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله فى عماء أى فوق سحاب مدبراله وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى أأمنتم من فى السماء يعنى من فوق السماء وقال تعالى لاصلبنكم فى جذوع النخل يعنى على جذوعها وقوله ما فوقه هواء أى ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله وما تحته هواء أى ما تحت السحاب هواء وقد قيل ان ذلك العمى مقصور والعمى اذا كان مقصورا فمعناه لا شئ ثابت لانه مما عمى عن الخلق لكونه غير شئ فكأنه قال فى جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أى ليس فوق العمى الذى هو لا شئ موجود هواء ولا تحته هواء لان ذلك اذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروى صاحب الغريبين قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء هذا آخر كلام البيهقى وقال ابن الأثير العماء فى اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولا بد فى الحديث من حذف مضاف تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى وكان عرشه على الماء وحكى عن بعضهم فى العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن وقال الازهرى قال أبو عبيد انما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم والا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء قال الازهرى فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال

(كل فى كتاب مبين) كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها فى اللوح يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين (وهو الذى خلق السموات والارض) وما بينهما (فى ستة أيام) من الاحد الى الجمعة تعليما للتأنى (وكان عرشه على الماء) أى فوقه يعنى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والارض الا الماء وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والارض قيل بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر اليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحا فاقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لاهل الافكار

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفى رواية فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والارض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة قوله فرغ يريد اتمام خلق المقادير لأنه كان مشغولا ففرغ منه لان الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وقوله سبحانه وتعالى (ليبلوكم) يعنى ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) يعنى بطاعة الله وأورع عن محارم الله (ولئن قلت) يعنى ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (انكم مبعوثون من بعد الموت) يعنى للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعنون القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة) يعنى الى أجل محدود وأصل الامة فى اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى الى انقراض أمة ومجىء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) يعنى أى شئ يحبس العذاب وانما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشئ قال الله عز وجل (ألا يوم يأتيهم) يعنى العذاب (ليس مصروفا عنهم) أى لا يصرفه عنهم شئ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) يعنى ونزل بهم وبال استهزائهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) يعنى رخاء وسعة فى الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا (ثم نزعناها منه) يعنى سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به (انه ليؤس كفور) يعنى يظل قانطا من رحمة الله آيسا من كل خير كفور أى جحود لنعمتنا عليه أولا قليل الشكر لربه قال بعضهم يا ابن آدم اذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فان نزعت عنك فينبغى لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فانه العوّاد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) يعنى ولئن نحن أنعمنا على الانسان وبسطنا عليه من العيش (ليقولن) يعنى الذى أصابه الخير والسعة (ذهب السيآت عنى) يعنى ذهب الشدائد والعسر والضيق وانما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجراءة عليه لانه لم يضف الاشياء كلها الى الله وانما أضافها الى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال (انه لفرح فخور) أى انه أشر بطر والفرح لذة تحصل فى القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهى عنه ۞ ثم استثنى فقال تبارك وتعالى (الا الذين صبروا وعملوا الصالحات) قال الفراء هذا الاستثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فانهم ليسوا كذلك فانهم ان نالتهم شدة صبروا وان نالتهم نعمة شكروا عليها (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعنى لذنوبهم (وأجر كبير) يعنى الجنة ۞ قوله عز وجل (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى

اليك

(ليبلوكم) أى خلق السموات والارض وما بينهما للممتحن فيهما ولم يخلق هذه الاشياء لانفسها (أيكم أحسن عملا) أكثر شكرا وعنه عليه السلام أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال ليبلوكم أى ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لاحوالكم كيف تعملون (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) أشار بهذا الى القرآن لان القرآن هو الناطق بالبعث فاذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته انكار ما فيه من البعث وغيره ساحر حمزة وعلى يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل (ولئن أخرنا عنهم العذاب) عذاب الآخرة أو عذاب يوم بدر (الى أمة) الى جماعة من الاوقات (معدودة) معلومة أو قلائل والمعنى الى حين معلوم (ليقولن ما يحبسه) ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء (ألا يوم يأتيهم) العذاب (ليس) العذاب (مصروفا عنهم) ويوم منصوب بمصروفا أى ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم (وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) العذاب الذى كانوا به يستعجلون وانما وضع يستهزؤن موضع يستعجلون لان استعجالهم كان على وجه الاستهزاء (ولئن أذقنا الانسان) هو للجنس (منا رحمة) نعمة من صحة وأمن وجدة واللام فى لئن لتوطئة القسم (ثم نزعناها منه) ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم (انه ليؤس) شديد اليأس من أن يعود اليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه (كفور) عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله نساء له (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذى ناله (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى ساءتنى (انه لفرح) أشر بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر (الا الذين صبروا) فى المحنة والبلاء (وعملوا الصالحات) وشكروا فى النعمة والرخاء (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) يعنى الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشادا لانهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية فى ارشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى اليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فهيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك) أى لعلك تترك أن

اليك ربك ان تبلغه الى من أمرك ان تبلغ ذلك اليه (وضائق به صدرك) يعني ويضيق صدرك بما يوحى اليك فلا تبلغه اياهم وذلك ان كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك ذكر آلهتهم ظاهرا فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على انه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فانه معصوم فيه من الاخبار عن شئ منه بخلاف ما هو به لا خطأ ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وانه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل الله عليه الى أمته ولم يكتم منه شيأ وأجمعوا على انه لا يجوز على رسول الله صلى الله عليه وسلم خيانة في الوحي والانذار ولا يترك بعض ما أوحي اليه لقول أحد لان تجويز ذلك يؤدي الى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لان المقصود من ارسال الرسول التبليغ الى من أرسل اليه فاذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك شيأ آخر سوى ما ذكره المفسرون وللعلماء في ذلك أجوبة أحدها قال ابن الانباري قد علم الله سبحانه وتعالى ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ مما يوحى اليه اشفاقا من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسوله صلى الله عليه وسلم في متابعة الابلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الآية الثاني ان هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريضه على أداء ما أنزله اليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه الثالث ان الكفار كانوا يستهزؤن بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وان يلقي اليهم ما لا يقبلونه ويستهزؤن به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحي اليه وأن لا يلتفت الى استهزائهم وأن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شئ من الوحي والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لان الانسان اذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الاقدام على الفعل وقيل ان الله سبحانه وتعالى مع علمه بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يترك شيأ من الوحي هيجه لاداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم الى قبول قوله بقوله فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أي لعلك تترك ان تلقيه اليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بان تتلوه عليهم (أن يقولوا) يعني مخافة ان يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) يعني يستغني به وينفقه (أو جاء معه ملك) يعني يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي والمعنى انهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شئ وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهلا أنزل عليك ملك يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فأخبر الله عز وجل انه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عز وجل (انما أنت نذير) تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك (والله على كل شئ وكيل) يعني انه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة ۞ قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعني بل يقول كفار مكة اختلقه يعني ما أوحي اليه من القرآن (قل) أي قل لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال صلى الله عليه وسلم هبوا اني اختلقته من عند نفسي ولم يوح الي شئ وان الامر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فانكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام ولهذا قال سبحانه

تلقيه اليهم وتبليغه اياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به (وضائق به صدرك) بان تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت لانه عليه السلام كان أفسح الناس صدرا ولانه أشكل بتارك (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه والملائكة لتصدقه ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه (انما أنت نذير) أي ليس عليك الا أن تنذرهم بما أوحي اليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك ان ردوا أو تهاونوا (والله على كل شئ وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك اليه وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت الى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم (أم يقولون) أم منقطعة (افتراه) الضمير لما يوحى اليك (قل فأتوا بعشر سور) تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخابر في الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب فاذا تبين له العجز عن ذلك قال قد اقتصرت منك على سطر واحد (مثله) في الحسن والجزالة ومعنى مثله أمثاله ذهابا الى مماثلة كل واحدة منها له (مفتريات) صفة لعشر سور لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله أرخى معهم العنان وقال هبوا أني اختلقته من عند نفسي فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلي

(وادعوا من استطعتم من دون الله) الى المعاونة على المعارضة (ان كنتم صادقين) أنه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو) أى أنزل ملتبسا بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز للخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه واعلموا

عند ذلك أن لا اله الا الله وحده وأن توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم وانما جمع الخطاب بعد افراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله قل لان الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم أو لان الخطاب للمشركين والضمير فى فان لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا انما أنزل بعلم الله أى باذنه أو بامره (فهل أنتم مسلمون) متبعون للاسلام بعد هذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا على انه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق وهم الكفار أو المنافقون (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) وحبط فى الآخرة على ما صنعوه أو صنيعهم أى لم يكن لهم ثواب لانهم لم يريدوا به الآخرة انما أرادوا به الدنيا وقد وفى اليهم ما أرادوا (وباطل ما كانوا يعملون) أى

وتعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه فان قلت قد تحداهم بان يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قال فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز قلت قد قال بعضهم ان سورة هود نزلت قبل سورة يونس وانه تحداهم أولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال ان سورة يونس نزلت أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعنى مثله فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد وقوله فى سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعنى فى مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بان يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) اعلم انه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين أحدهما أمر وخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات والثانى أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار فى المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون فى معنى الآية على قولين أحدهما أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم اليه من المعارضة وعجزوا عنه (فاعلموا انما أنزل بعلم الله) يعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لانهم كانوا عالمين بانه منزل من عند الله وقيل الخطاب فى قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبى صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثانى ان قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك انه سبحانه وتعالى لما قال فى الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل فى هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وانه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وأن لا اله الا هو) يعنى الذى أنزل القرآن هو الله الذى لا اله الا هو لا من تدعون من دونه (فهل أنتم مسلمون) فيه معنى الامر أى أسلموا وأخلصوا لله العبادة وان حملنا معنى الآية على انه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أى دوموا على ما أنتم عليه من الاسلام ۞ قوله عز وجل (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البر نزلت فى كل من عمل عملا يبتغى به غير الله عز وجل (نوف اليهم أعمالهم فيها) يعنى أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم فى الرزق ويدفع عنهم المكاره فى الدنيا ونحو ذلك (وهم فيها لا يبخسون) يعنى انهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) يعنى وبطل ما عملوا فى الدنيا من أعمال البر (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله واختلف المفسرون فى المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها فى اليهود والنصارى وعن الحسن مثله وقال الضحاك من عمل عملا صالحا فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك أعطى على ذلك أجرا فى الدنيا وهو ان يصل رحما أو يعطى سائلا أو يرحم مضطرا أو نحو هذا من أعمال البر فيعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا يوسع عليه فى المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره فى الدنيا وليس له فى الآخرة نصيب ويدل

على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار الآية وهذه حالة الكافر فى الآخرة وقيل نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لانهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل ان حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذى هذه صفته والمؤمن الذى يأتى بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد فى هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لان قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار لا يليق بحال المؤمن الا اذا قلنا ان تلك الاعمال الفاسدة والافعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه أخرجه مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعنى ريحها أخرجه أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤن بأعمالهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال البغوى وروينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر قال الرياء أخرجه بغير سند والرياء هو ان يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذى لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوى وقيل هذا فى الكفار يعنى قوله من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وارادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا أخرجه البغوى بغير سند ۞ قوله سبحانه وتعالى (أفمن كان على بينة من ربه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر فى هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أى كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة الا النار وانما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كمن هو فى ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذى أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالبينة اليقين يعنى أنه على يقين من ربه أنه على الحق (ويتلوه شاهد منه) يعنى ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا فى الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وابراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين انه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبى صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبى صلى الله عليه وسلم وروى عن محمد بن الحنفية قال قلت لابى يعنى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنت التالى قال وما تعنى بالتالى قلت قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت انى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول ان اللسان لما كان يعرب عما فى الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لان اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم ويسدده وقال الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن لان اعجازه وبلاغته وحسن نظمه يشهد للنبى صلى الله عليه وسلم بنبوته ولانه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر وقال الحسين بن على وابن زيد الشاهد منه هو محمد صلى الله عليه

كان عملهم فى نفسه باطلا لانه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لا ثواب له (أفمن كان على بينة من ربه) أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه أى لا يعقبونهم فى المنزلة ولا يقاربونهم يعنى ان بين الفريقين تباينا بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أى على برهان من الله وبيان ان دين الاسلام حق وهو دليل العقل (ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله أو من القرآن فقد مر ذكره آنفا

وسلم ووجه هذا القول ان من نظر الى النبي صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال علي بن أبي طالب ما من رجل من قريش الا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال علي ما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله منه يعني من النبي صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعني الانجيل وهو اختيار الفراء والمعنى ان الانجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والامر بالايمان به وان كان قد نزل قبل القرآن ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ومن قبله) يعني ومن قبل نزول القرآن وارسال محمد صلى الله عليه وسلم (كتاب موسى) يعني التوراة (اماما ورحمة) يعني انه كان اماما لهم يرجعون اليه في أمور الدين والاحكام والشرائع وكونه رحمة لانه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة ۞ وقوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يعني أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار اليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن يكفر به) يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم (من الاحزاب) يعني من جميع الكفار وأصحاب الاديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وغيرهم والاحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الانبياء (فالنار موعده) يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به الا كان من أصحاب النار قال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بلغني هذا الحديث لا يسمع بي أحد من هذه الامة الحديث قال سعيد فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ومن قبله كتاب موسى الى قوله سبحانه وتعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال فالاحزاب أهل الملل كلها ۞ ثم قال سبحانه وتعالى (فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك) فيه قولان أحدهما ان معناه فلا تك في شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله من قوله تعالى أم يقولون افتراه والقول الثاني أنه راجع الى قوله ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده يعني فلا تك في شك من ان النار موعد من كفر من الاحزاب والخطاب في قوله فلا تك في مرية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعني لا يصدقون بما أوحينا اليك أو بأن موعد الكفار النار قوله عز وجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني أي الناس أشد تعديا ممن اختلق على الله كذبا فكذب عليه وزعم ان له شريكا أو ولدا وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لان قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ورد في معرض المبالغة (أولئك) يعني المفترين على الله الكذب (يعرضون على ربهم) يعني يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا (ويقول الاشهاد) يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم قاله مجاهد وقال ابن عباس هم الانبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة الاشهاد الخلق كلهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) يعني في الدنيا وهذه الفضيحة تكون في الآخرة لكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) يعني يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازني قال بينما ابن عمر يطوف بالبيت اذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة أي ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام (اماما) كتابا مؤتما به في الدين قدوة فيه (ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل اليهم وهما حالان (أولئك) أي من كان على بينة (يؤمنون به) بالقرآن (ومن يكفر به) بالقرآن (من الاحزاب) يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) مصيره ومورده (فلا تك في مرية) شك (منه) من القرآن أو من الموعد (انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم) يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم (ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) ويشهد عليهم الاشهاد من الملائكة والنبيين بانهم الكذابون على الله بانه اتخذ ولدا وشريكا (ألا لعنة الله على الظالمين) الكاذبين على ربهم والاشهاد جمع شاهد كاصحاب وصاحب أو شهيد كشريف وأشراف

(الذين يصدون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دينه (و يبغونها عوجا) يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد (وهم بالآخرة هم كافرون) هم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به (أولئك لم يكونوا

وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وفي رواية ثم تطوى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول الاشهاد وفي رواية فينادى بهم على رؤس الاشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين قوله سبحانه وتعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله الذي هو دين الاسلام (و يبغونها عوجا) يعني و يطلبون القاء الشبهات في قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الاسلام (وهم بالآخرة هم كافرون) يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت و ينكرونه (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لم يكونوا معجزين في الارض) قال ابن عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الارض والمعنى أنهم لا يعجزون الله اذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم في قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه اذا طلبهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يعني وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله اذا أراد بهم سوأ أو عذابا (يضاعف لهم العذاب) يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وانكارهم البعث بعد الموت (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولا يبصرون خيرا فيأخذون به وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه حال بين أهل الشرك و بين طاعته في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فانه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم (أولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني ان هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني و بطل كذبهم وافكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والاصنام تشفع لهم (لاجرم) يعني حقا وقال الفراء لا محالة (انهم في الآخرة هم الاخسرون) لانهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين ۞ قوله عزوجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) لما ذكر الله عزوجل أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الاخبات يتعدى بالى و باللام فاذا قلت أخبت فلان الى كذا فمعناه اطمأن اليه واذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اشارة الى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا اشارة الى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عزوجل يعني ان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة الا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فاذا فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام أنهم يأتون بالاعمال الصالحة مطمئنين الى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الاعمال أو يكونون مطمئنين الى ذكره سبحانه وتعالى واذا فسرنا الاخبات بالخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالاعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع (أولئك) يعني الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال ۞ قوله سبحانه وتعالى (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة

أي ما كانوا (معجزين في الارض) بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ولكنه أراد انظارهم وتأخير عقابهم الى هذا اليوم وهو من كلام الاشهاد (يضاعف لهم العذاب) لانهم أضلوا الناس عن دين الله يضعف مكي وشامي (ما كانوا يستطيعون السمع) أي استماع الحق وما كانوا يبصرون الحق (أولئك الذين خسروا أنفسهم) حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله (وضل عنهم) و بطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو (ما كانوا يفترون) من الآلهة وشفاعتها (لاجرم أنهم في الآخرة هم الاخسرون) بالصد والصدود وفي لاجرم أقوال أحدها أن لارد لكلام سابق أي ليس الامر كما زعموا ومعنى جرم كسب وفاعله مضمر وانهم في الآخرة في محل النصب والتقدير كسب قولهم خسرانهم في الآخرة وثانيها أن لاجرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقا وان في موضع رفع بانه فاعل لحق أي حق خسرانهم وثالثها أن معناه لا محالة (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) واطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الارض المطمئنة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) شبه فريق الكافرين بالاعمى والاصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع

(هل يستويان) يعني الفريقين (مثلا) تشبيها وهو نصب على التمييز (أفلا تذكرون) فتنتفعون بضرب المثل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) أى بانى والمعنى أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كان والمعنى على الكسر و بكسر الالف شامى ونافع وعاصم وحمزة على ارادة القول (أن لا تعبدوا الا الله) أن مفسرة متعلقة بارسلنا أو بنذير (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وصف اليوم بأليم من الاسناد المجازى لوقوع الالم فيه (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يريد الاشراف لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة (ماراك الا بشرا مثلنا) أرادوا انه كان ينبغى أن يكون ملكا وملكا (وما راك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أخساؤنا جمع الارذل (بادى) و بالهمزة أبو عمرو (الرأى) وبغير همز أبو عمرو أى اتبعوك ظاهر الرأى أو أول الرأى من بدا يبدو اذا ظهر أو بدأ يبدأ اذا فعل الشئ أولا وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف اليه مقامه أرادوا أن اتباعهم لك شئ عن لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك وانما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الاسباب الدنيوية لانهم كانوا جهالا ماكانوا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الاشراف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالاسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه اكرامهم واهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحدا من الله وانما يبعده ولا يرفعه بل يضعه (وما نرى لكم علينا من فضل) فى عقل ورأى يعنون نوحا وأتباعه (بل نظنكم كاذبين) أى نوحا فى الدعوة ومتبعيه فى الاجابة والتصديق يعنى تواطأتم على الدعوة والاجابة تسبيبا للرياسة (قال ياقوم أرأيتم) أخبرونى (ان كنت على بينة) برهان (من ربى) وشاهد منه يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) يعنى النبوة (فعميت عليكم) أى خفيت فعميت حمزة وعلى وحفص أى أخفيت أى فعميت عليكم البينة فلم تهتدوا كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره

ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالاعمى وهو الذى لا يهتدى لرشده والاصم وهو الذى لا يسمع شيأ البتة والبصير وهو الذى يبصر الاشياء على ماهيتها والسميع وهو الذى يسمع الاصوات ويجيب الداعى فمثل المؤمنين كمثل الذى يسمع و يبصر وهو الكامل فى نفسه ومثل الكافر كمثل الذى لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص فى نفسه (هل يستويان مثلا) قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الاعمى والاصم فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع فى حيز كانهما واحد وهما من وصف المؤمن (أفلا تذكرون) يعنى فتتعظون ۞ قوله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) يعنى أن نوحا عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله اليهم انى لكم أيها القوم نذير مبين يعنى بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره وهو قوله سبحانه وتعالى (أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) يعنى مؤلم موجع قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة قيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يعنى الاشراف والرؤساء من قوم نوح (ماراك) يانوح (الا بشرا مثلنا) يعنى آدميا مثلنا لا فضل لك علينا لان التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدعوة الى الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك و يظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يتأتى ذلك الا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله الى عباده ۞ ثم قال سبحانه وتعالى اخبارا عن قوم نوح (وماراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) يعنى سفلتنا والرذل الدون من كل شئ قيل هم الحاكة والاساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة فى الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم فى الدين (بادى الرأى) يعنى انهم اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك وقيل معناه ظاهر الرأى يعنى اتبعوك ظاهرا من غير أن يتفكروا باطنا (وما نرى لكم علينا من فضل) يعنى بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة (بل نظنكم كاذبين) قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم (قال) يعنى نوحا (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على بيان ويقين من ربى بالذى أنذرتكم به (وآتانى رحمة من عنده) يعنى هدى ومعرفة ونبوة (فعميت عليكم)

(أنلزمكموها) أى الرحمة (وأنتم لها كارهون) لاتريدونها والواو دخلت هنا تتمة للميم وعن أبى عمرو اسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن الا خلسة خفيفة فظنها الراوى سكونا وهو لحن لان الحركة الاعرابية لا يسوغ طرحها الا فى ضرورة الشعر (و ياقوم لاأسئلكم عليه) على تبليغ الرسالة لانه مدلول قوله انى لكم نذير (مالا) أجرا يثقل عليكم ان أديتم أو على ان أبيتم (ان أجرى) مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص (الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم (انهم ملاقوا ربهم) فيشكوننى اليه ان طردتهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم أو انهم خير منكم (و ياقوم من ينصرنى من الله) من يمنعنى من انتقامه (ان طردتهم أفلا تذكرون) تتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) فادعى فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل (ولا أعلم الغيب) حتى أطلع على ما فى نفوس اتباعى وضمائر قلوبهم وهو معطوف على عندى خزائن أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب (ولا أقول انى ملك) حتى تقولوا لى ما أنت الا بشر مثلنا (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فى الدنيا والآخرة لهوانه عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم (الله أعلم بما فى أنفسهم) من صدق الاعتقاد وانما على قبول ظاهر اقرارهم اذ لا أطلع على خفى أسرارهم (انى اذا لمن الظالمين) ان قلت شيأ من ذلك والازدراء افتعال من ذرى عليه اذا عابه وأصله تزترى فابدلت التاء دالا (قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) فى وعدك (قال انما يأتيكم به الله

يعنى خفيت وألبست عليكم (أنلزمكموها) الهاء عائدة على الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعنى أنا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا (وأنتم لها كارهون) وهذا استفهام معناه الانكار أى لا أقدر على ذلك والذى أقدر عليه أن أدعوكم الى الله وليس لى أن أضطركم الى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبى الله لالزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك (و ياقوم لا أسألكم عليه مالا) يعنى لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا (ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) وذلك انهم طلبوا من نوح أن يَطرُدَ الذين آمنوا وهم الارذلون فى زعمهم فقال ما يجوز لى ذلك لانهم يعتقدون (انهم ملاقوا ربهم) فلا أطرُدُهم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) يعنى عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه أنكم تجهلون ان هؤلاء المؤمنين خير منكم (و ياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم) يعنى من يمنعنى من عذاب الله ان طردتهم عنى لانهم مؤمنون مخلصون (أفلا تذكرون) يعنى فتتعظون (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) هذا عطف على قوله لا أسئلكم عليه مالا والمعنى لا أسألكم عليه مالا ولا أقول لكم عندى خزائن الله يعنى التى لا يفنيها شئ فأدعوكم الى اتباعى عليها لاعطيكم منها وقال ابن الانبارى الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق وانما وجب أن يكون هذا جوابا من نوح عليه السلام لهم لانهم قالوا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وادعوا أن المؤمنين انما اتبعوه فى ظاهر ما يرى منهم وهم فى الحقيقة غير متبعين له فقال مجيبا لهم ولا أقول لكم عندى خزائن الله التى لا يعلم منها ما ينطوى عليه عباده وما يظهرونه الا هو وانما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس واستتارها عنهم والقول الاول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندى خزائن الله و بين قوله (ولا أعلم الغيب) يعنى ولا أدعى علم ما يغيب عنى مما يسرونه فى نفوسهم فسبيلى قبول ايمانهم فى الظاهر ولا يعلم ما فى ضمائرهم الا الله (ولا أقول انى ملَكٌ) وهذا جواب لقولهم ما نراك الا بشرا مثلنا أى لا أدعى انى من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم الى الله وأبلغكم ما أرسلت به اليكم ﴿فصل﴾ استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الانبياء قال لان نوحا عليه السلام قال ولا أقول انى ملك لان الانسان اذا قال أنا لا أدعى كذا وكذا لا يحسن الا اذا كان ذلك الشئ أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب ان نوحا عليه السلام انما قال هذه المقالة فى مقابلة قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا لما كان فى ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر انما يكونون من الملائكة فاعلمهم ان هذا ظن باطل وأن الرسل الى البشر انما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى ولا أقول انى ملك ولم يرد ان درجة الملائكة أفضل من درجة الانبياء والله أعلم * وقوله سبحانه وتعالى (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) يعنى تحتقر وتستصغر أعينكم يعنى المؤمنين وذلك لما قالوا انهم أراذلنا من الرذالة وهى الخسة (ان يؤتيهم الله خيرا) يعنى توفيقا وهداية وايمانا وأجرا (الله أعلم بما فى أنفسهم) يعنى من الخير والشر (انى اذا لمن الظالمين) يعنى ان طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لايمانهم يعنى انى ان فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا) يعنى خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) يعنى خصومتنا (فأتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعنى فى دعواك انك رسول من الله الينا (قال انما يأتيكم به الله

ان شاء) يعنى قال نوح لقومه حين استعجلوه بانزال العذاب ان ذلك ليس الىّ انما هو الى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء ان أراد انزال العذاب بكم (وما أنتم بمعجزين) يعنى وما أنتم بفائتين ان أراد الله نزول العذاب بكم (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم) يعنى ولا ينفعكم انذارى وتحذيرى اياكم عقوبته ونزول العذاب بكم (ان كان الله يريد أن يُغويكم) يعنى يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لان الاغواء يؤدى الى الهلاك (هو ربكم) يعنى انه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه (واليه ترجعون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم باعمالكم (أم يقولون افتراه) أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود الى الوحى الذى جاءهم به (قل انِ افتريتُه) أى اختلقته (فعلىّ اجرامى) أى اثم اجرامى والاجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنها كتسب الذنب وافتعله (وأنا برىء مما تجرمون) يعنى من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهى من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل أم يقولون يعنى المشركين من كفار مكة افتراه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة فى قصة نوح ﷺ ثم رجع الى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون انه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله وروى ان شيخا منهم جاء متكئا على عصاه ومعه ابنه فقال يابنى لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال ياأبت أمكنى من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله اليه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) يعنى فلا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما كانوا يفعلون) يعنى بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبد الله بن عمير الليثى انه بلغه انهم كانوا يبطشون نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذى قبله ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيأ فشكا نوح الى الله عز وجل فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فأوحى الله سبحانه وتعالى اليه (واصنع الفلك) يعنى السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع (بأعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) يعنى بامرنا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقونْ) يعنى بالطوفان والمعنى ولا تخاطبنى فى امهال الكفار فانى قد حكمت باغراقهم وقيل ولا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل ان جبريل أتى نوحا فقال له ان ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجارا فقال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى (ويصنع الفلكَ) يعنى كما أمره الله سبحانه وتعالى قال

ان شاء) أى ليس الاتيان بالعذاب الىّ وانما هو الى من كفرتم به (وما أنتم بمعجزين) أى لم تقدروا على الهرب منه (ولا ينفعكم نصحى) هو اعلام موضع الغى ليتقى والرشد ليقتفى ولكنى اى نصحى مدنى وأبو عمرو (ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى يضلكم وهذا شرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما فى الحكم لما عرف تقديره ان كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم وهو دليل بين لنا فى ارادة المعاصى (هو ربكم) فيتصرف فيكم على قضية ارادته (واليه ترجعون) فيجازيكم على اعمالكم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون افتراه (قل ان افتريته فعلى اجرامى) أى ان صح أنى افتريته فعلى عقوبة اجرامى أى افترائى يقال أجرم الرجل اذا أذنب (وأنا برىء) أى ولم يثبت ذلك وأنا برىء منه ومعنى (مما تجرمون) من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم ومعاداتكم (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) اقناط من ايمانهم وأنه غير متوقع وفيه دليل على أن للايمان حكم التجدد كانه قال ان الذى آمن يؤمن فى حادث الوقت وعلى ذلك تخرج الزيادة التى ذكرت فى الايمان بالقرآن (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتئاس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وايذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك (واصنع الفلك باعيننا) هو فى موضع الحال أى اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا باعيننا كأن لله معه اعينا تكلؤه من أن يزيغ فى صنعته عن الصواب (ووحينا) وانا نوحى اليك ونلهمك كيف تصنع عن ابن عباس رضى الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك (انهم مغرقون) محكوم عليهم بالاغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل الى كفه (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية

اهل

(وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يانوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم) عند رؤية الهلاك (كما تسخرون) منا عند رؤية الفلك روى ان نوحا عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع أو ألفا ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعا أو ستمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب نوح ومن معه في البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزا بين الرجال والنساء (فسوف تعلمون من يأتيه) من في محل نصب بتعلمون أي فسوف تعلمون الذي يأتيه (عذاب يخزيه) ويعني به اياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) وينزل عليه (عذاب مقيم) وهو عذاب الآخرة (حتى) هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهي غاية لقوله ويصنع الفلك أي وكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد وما بينهما من الكلام حال من يصنع أي يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا وقال استئناف على تقدير سؤال سائل أو قال جواب وسخروا بدل من مر أو صفة لملأ (اذا جاء أمرنا) عذابنا (وفار التنور) هو كناية عن اشتداد الامر وصعوبته وقيل معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار الى نوح عليه السلام وقيل التنور وجه الارض

أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحا بعمل السفينة أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء القار وكل ما يحتاج اليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون به وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يانوح قد صرت نجارا بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوي وزعم أهل التوراة ان الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وان يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا وطوله في السماء ثلاثين ذراعا والذراع الى المنكب وان يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وطولها في السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الاوسط الدواب والانعام وركب هو ومن معه في البطن الاعلى وجعل معه ما يحتاج اليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها وروى عن الحسن انه كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الاول أشهر وهو ان طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك وقال كعب الاحبار عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروى انها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للانس والطبقة العليا للطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى الى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فاقبلوا على الروث فاكلوه فلما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى اليه أن اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة والقط فاقبلا على الفار فاكلاه ۞ قوله سبحانه وتعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه) أي جماعة من قومه (سخروا منه) يعني استهزؤا به وذلك انهم قالوا ان هذا الذي كان يزعم انه نبي قد صار نجارا وقيل قالوا يانوح ماذا تصنع قال أصنع بيتا يمشي على الماء فضحكوا منه (قال) يعني نوحا لقومه (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) يعني ان تستجهلونا في صنعنا فانا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه فان قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون قلت انما سمى هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى انا نرى غب سخريتكم بنا اذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون) يعني فسترون (من يأتيه) يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم (عذاب يخزيه) يعني يهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذي لا انقطاع له ۞ قوله عز وجل (حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور) يعني وغلى والفور الغليان وفارت القدر اذا غلت والتنور فارسي معرب لا تعرف له العرب اسما غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل ان لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وقيل ان لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربيا مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رأيت الماء قد فار على وجه الارض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الامر العظيم وقال علي فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد

والشعبي ان التنور هو الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس أيضاً وهذا القول أصح لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه فان قلت الالف واللام في لفظ التنور للعهد وليس هنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الامر والمعنى اذا رأيت الماء يشتد نبوعه و يقوى فانج بنفسك ومن معك قلت لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار الى نوح وقيل له اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة قال الشعبي اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروى عن ابن عباس انه كان بالهند قال والفوران الغليان (قلنا احمل فيها) يعني قلنا لنوح احمل في السفينة (من كل زوجين اثنين) الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والانثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا وأنثى فحشر الله سبحانه وتعالى اليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه في كل جنس منها فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة (وأهلك) أي واحمل أهلك ولدك وعيالك (الا من سبق عليه القول) يعني بالهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان (ومن آمن) يعني واحمل معك من آمن من قومك (وما آمن معه الا قليل) اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الاعمش كانوا سبعة نوح وبنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح و بنوه سام وحام و يافث وستة نفر آمنوا وابنو نوح وأزواجهم جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم قال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال الله عز وجل وما آمن معه الا قليل فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق ابليس بذنبه فلم تنتقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك علي يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله قال لا بد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة هكذا نقله البغوي وقال الامام فخر الدين الرازي وأما الذي يروى ان ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق وأيضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه قال البغوي وروى عن بعضهم ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه في السفينة الا ما يلد و يبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم

(قلنا احمل فيها) في السفينة (من كل زوجين اثنين) تفسيره في سورة المؤمنين (وأهلك الا من سبق عليه القول) عطف على اثنين وكذا (ومن آمن) أي واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول انه من أهل النار وما سبق عليه القول بذلك الا للعلم بانه يختار الكفر بتقديره وارادته جل خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد (وما آمن معه الا قليل) نوح وأهله و بنوه الثلاثة عليه السلام كانوا ثمانية ونساؤهم وقيل كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجالا ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء

(وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) بسم الله متصل باركبوا حالا من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت اجرائها
ووقت ارسائها امالان المجرى والمرسى للوقت واما لانهما مصدران كالاجراء والارساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم خفوق النجم
ويجوز أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهى مبتدأ وخبر يعنى ان نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم
أخبرهم بان مجراها ومرساها بذكر اسم الله أى بسم الله اجراؤها وارساؤها وكان اذا أراد ان تجرى قال بسم الله فجرت واذا أراد ان ترسو قال
بسم الله فرست مجريها بفتح الميم وكسر الراء من جرى اما مصدرا أو وقت حمزة وعلى وحفص وبضم الميم وكسر الراء أبو عمرو والباقوت
بضم الميم وفتح الراء (ان ربى لغفور) لمن آمن منهم (رحيم) حيث خلصهم (وهى تجرى بهم) متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله
كأنه قيل فركبوا فيها يقولون بسم الله وهى تجرى بهم أى السفينة تجرى وهم فيها (فى موج كالجبال) يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر
وتمرة وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة فى خلاله شبه كل

موجة منه بالجبل فى تراكمها وارتفاعها (ونادى نوح ابنه) كنعان وقيل يام والجمهور على انه ابنه الصلبى وقيل كان ابن امرأته (وكان فى معزل) عن أبيه وعن السفينة مفعل من عزله عنه اذا نحاه وأبعده أو فى معزل عن دين أبيه (يابنى) بفتح الياء عاصم اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة من قولك يابنيا غيره بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة (اركب معنا) فى السفينة أى اسلم واركب (ولا تكن مع الكافرين قال سآوى) ألجأ (الى جبل يعصمنى من الماء) يمنعنى من الغرق (قال لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم) الا الراحم وهو الله تعالى أولا

يحمل منها شيأ ۞ قوله سبحانه وتعالى (وقال اركبوا فيها) يعنى وقال نوح لمن حمل معه اركبوا فى السفينة
(بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم) يعنى بسم الله اجراؤها وارساؤها وقال الضحاك كان نوح
اذا أراد أن تجرى السفينة قال بسم الله فتجرى وكان اذا أراد ان ترسو يعنى تقف قال بسم الله فترسو أى
تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمرا فلا ينبغى له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت
الشروع حتى يكون ذلك سببا للنجاح والفلاح فى سائر الامور (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) الموج
ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبال فى عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء
بالسير أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا أبواب
السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر يعنى صار الماء نصفين نصفا من السماء
ونصفا من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل
شئ وروى انه لما كثر الماء فى السكك خافت أم صبى على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت
به الى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت
على الجبل فلما بلغ الماء الى رقبتها رفعت الصبى بيديها حتى ذهب بهما الماء فاغرقهما فلو رحم الله منهم
أحدا لرحم أم الصبى (ونادى نوح ابنه) يعنى كنعان وكان كافرا (وكان فى معزل) يعنى عن نوح لم يركب
معه (يابنى اركب معنا) يعنى فى السفينة (ولا تكن مع الكافرين) يعنى فتهلك معهم (قال)
يعنى قال كنعان (سآوى) يعنى سألتجئ وأصير (الى جبل يعصمنى) يعنى يمنعنى (من الماء قال) يعنى
قال له نوح (لاعاصم) يعنى لامانع (اليوم من أمر الله) يعنى من عذابه (الامن رحم) يعنى الامن رحمه
الله فينجيه من الغرق (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يعنى كنعان (وقيل) يعنى بعد ما تناهى
الطوفان وأغرق الله قوم نوح (ياأرض ابلعى ماءك) أى اشربيه (ويا سماء أقلعى) أى أمسكى (وغيض
الماء) أى نقص ونضب يقال غاض الماء اذا نقص وذهب (وقضى الامر) يعنى وفرغ من الامر وهو هلاك
قوم نوح (واستوت) يعنى واستقرت السفينة (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل
(وقيل بعدا) يعنى هلاكا (للقوم الظالمين) قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب

عاصم اليوم من الطوفان الامن رحم الله أى لامكان من رحم الله من المؤمنين وذلك انه لما
جعل الجبل عاصما من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعنى
السفينة أو هو استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله مالهم به من علم الا اتباع الظن (وحال بينهما الموج) بين
ابنه والجبل أو بين نوح وابنه (فكان من المغرقين) فصار أو فكان فى علم الله (وقيل ياأرض ابلعى ماءك) انشفى وتشربى والبلع النشف
(ويا سماء أقلعى) أمسكى (وغيض الماء) نقص من غاضه اذا نقصه وهو لازم ومتعد (وقضى الامر) وانجز ما وعد الله نوحا من اهلاك قومه
(واستوت) واستقرت السفينة بعد ان طافت الارض كلها ستة أشهر (على الجودى) وهو جبل بالموصل (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى
سحقا للقوم نوح الذين غرقوا يقال بعد بعدا وبعدا اذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك خص بدعاء السوء ۞ والنظر فى
هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان

وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول ان الله تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الارض الى بطنها فارتد وان نقطع طوفان السماء فانقطع وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض وأن نقضى أمر نوح وهو انجاز ما كنا وعدناه من اغراق قومه فقضى وأن نسوى السفينة على الجودى فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالامر الذى لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ فى تكوين المقصود تصويرا لاقتداره العظيم وان السموات والارض منقادة لتكوينه فيهما ما يشاء غير ممتنعة لارادته فيهما تغييرا وتبديلا كانهما عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لامره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال عز وجل وقيل على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال مخاطبا لهما يا أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ثم استعار لغور الماء فى الارض البلع الذى هو اعمال الجاذبة فى المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفى ثم استعار الماء للغذاء تشبيها له بالغذاء لتقوى الارض بالماء فى الانبات كتقوى الآكل بالطعام ثم قال ماءك باضافة الماء الى الارض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالارض كاتصال الملك بالمالك ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم التأتى ثم قال وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا ولم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال بعدا كما لم يصرح بقائل يا أرض و يا سماء سلوكا فى كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك فى فعله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعى ماءك و يا سماء أقلعى ولا أن يكون الغائض والقاضى والمسوى غيره ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكى (٣٥٤) مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلما لانفسهم اظهارا لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ما كان الا لظلمهم * ومن جهة علم المعانى وهو النظر فى فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتاخير فيما بين جملها وذلك انه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام اظهار العظمة والملكوت وابداء العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن لاجل بالتهاون به ولم يقل يا أرضى لزيادة التهاون اذ الاضافة تستدعى القرب ولم يقل يا أيتها الارض للاختصار واختير لفظ الارض والسماء لكونهما أخف وأدور واختير ابلعى على ابتاعى لكونه أخصر ولتجانس بينه وبين أقلعى وقيل أقلعى ولم يقل عن المطر وكذا لم يقل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت و يا سماء أقلعى فاقلعت اختصارا واختير غيض على غيض وقيل الماء دون أن يقول ماء الطوفان والامر ولم يقل أمر نوح وقومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودى أى أقرت على نحو قيل وغيض اعتبار البناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله وهى تجرى بهم ارادة للمطابقة ثم قيل بعدا للقوم ولم يقل ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر الى تركيب الكلم وأما من حيث النظر الى ترتيب الجمل فذلك انه قدم النداء على الامر فقيل يا أرض ابلعى و ياسماء أقلعى ولم يقل ابلعى يا أرض وأقلعى يا سماء جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى الترشيح ثم قدم أمر الارض على أمر السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ثم أتبع وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ثم ذكر ما هو المقصود وهو قوله وقضى الامر أى أنجز الموعود من اهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه فى الفلك وعلى هذا فاعتبر * ومن جهة الفصاحة المعنوية وهى كما ترى نظم للمعانى لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد ومن جهة الفصاحة اللفظية فالفاظها على ما ترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء فى السلاسة وكالعسل فى الحلاوة وكالنسيم فى الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته الا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور

ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع اليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون فى منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التى فى عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت و روى أن نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق و بقى موضعه فطافت السفينة به سبعا وأودع الحجر الاسود جبل أبى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكرا لله تعالى و بنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهى أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وسبب نجاته من الهلاك ان نوحا عليه السلام احتاج الى خشب ساج

(ونادى نوح ربه فقال رب) نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله رب مع ما بعده من اقتضاء وعده فى تنجية أهله (ان ابنى من أهلى) أى بعض أهلى لانه كان ابنه من صلبه أو كان ربيبا له فهو بعض أهله (وان وعدك الحق) وان كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لا شك فى انجازه والوفاء به وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فما بال ولدى (وأنت أحكم الحاكمين) أى أعلم الحكام وأعدلهم اذ لا فضل لحاكم على غيره الا بالعلم والعدل ورب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر (قال يانوح انه ليس من أهلك) ثم علل لانتفاء كونه من اهله بقوله (انه عمل غير صالح) وفيه ايذان بان قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وان نسيبك فى دينك وان كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك ومن لم يكن على دينك وان كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة فى ذمه كقولها * فانما هى اقبال وادبار * أو التقدير أنه ذو عمل وفيه اشعار بانه انما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لانهم أهله وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته عمل غير صالح على قال الشيخ أبو منصور رحمه الله كان عند نوح عليه السلام ان ابنه كان على دينه لانه كان ينافق والا لا يحتمل أن يقول ابنى من أهلى ويسأله نجاته وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله بقوله ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فكان يسأله على الظاهر الذى عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله ليس من أهلك أى من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر

لاجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام الى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك فان قلت كيف اقتضت الحكمة الالهية والكرم العظيم اغراق من لم يبلغوا الحلم من الاطفال ولم يدخلوا تحت التكاليف بذنوب غيرهم قلت ذكر بعض المفسرين ان الله عز وجل أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوى لانه يرد عليه اغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضا اهلاك أطفال الامم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح والجواب الشافى عن هذا كله ان الله سبحانه وتعالى متصرف فى خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ۞ قوله عز وجل (ونادى نوح ربه) أى دعاه وسأله (فقال رب ان ابنى من أهلى) يعنى وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى (وان وعدك الحق) يعنى الصدق الذى لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) يعنى انك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك قال يعنى قال الله تعالى (يا نوح انه) يعنى هذا الابن الذى سألتنى نجاته (ليس من أهلك) اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال انه ليس من أهلك وقال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلى ولم يقل منى وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد ابن جبير والضحاك وأكثر المفسرين انه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الاولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور ما صح عن ابن عباس أنه قال ما بغت امرأة نبى قط ولان الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى ونادى نوح ابنه ونوح صلى الله عليه وسلم أيضا نص عليه بقوله يا بنى اركب معنا وهذا نص فى الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وانما خالف هذا الظاهر من خالفه لانه استبعد أن يكون ولد نبى كافرا وهذا خطأ ممن قاله لان الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق فى الجنة وهم المؤمنون وفريق فى السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق فى ذلك بين الانبياء وغيرهم فان الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من صلب آدم عليه السلام وهو نبى وكان قابيل كافرا وأخرج ابراهيم من صلب آزر وهو نبى وكان آزر كافرا فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبى فهو المتصرف فى خلقه كيف يشاء فان قلت فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا قلت قد ذكر بعضهم أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافرا فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره انما حمله على أن ناداه رقة الابوة ولعله اذا رأى تلك الاهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فاجابه الله عز وجل بقوله انه ليس من أهلك يعنى أنه ليس من أهل دينك لان أهل الرجل من يجمعه واياهم نسب أو دين أو ما يجرى مجراهما ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب فى كثير من الاحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح انه ليس من أهلك (انه عمل غير صالح) قرأ الكسائى ويعقوب عمل بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه أن سؤالك اياى أن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لان طلب نجاة الكافر بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى انه عمل غير صالح ويجوز أن يعود الضمير فى أنه على ابن نوح أيضا ويكون التقدير على هذه القراءة ان ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء

والطاهر (فلا تسألن) اجتزأ بالكسرة عن الياء كوفي تسألني بصري تسألني مدني تسألن شامي بحذف الياء واجتزأ بالكسرة والنون نون التأكيد تسألن مكي (ما ليس لك به علم) بجواز مسئلته (اني أعظك أن تكون من الجاهلين) حوكما نهى رسولنا بقوله فلا تكونن من الجاهلين (قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) أي من أن أطلب منك في المستقبل مالا علم لي بصحته تأدبا بأدبك واتعاظا بوعظتك (والا تغفر لي) ما فرط مني (وترحمني) بالعصمة عن العود الى مثله (أكن من الخاسرين قيل يانوح اهبط بسلام منا)

بتحية منا أو بسلامة من الغرق (وبركات عليك) هي الخيرات النامية وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه فقد جعل أكثر الانبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله (وعلى أمم ممن معك) من للبيان فتراد الامم الذين كانوا معه في السفينة لانهم كانوا جماعات أوقيل لهم أمم لان الامم تتشعب منهم أولا بتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الامم الى آخر الدهر وهو الوجه (وأمم) رفع بالابتداء (سنمتعهم) في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وانما حذف لان ممن معك يدل عليه (ثم يمسهم منا عذاب أليم) أي في الآخرة والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون الى النار وكان نوح عليه السلام أبا الانبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة وعن محمد بن كعب دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر (تلك) اشارة الى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهي من (أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) اخبار أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة اليك مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) الوقت أو من قبل ايحائي اليك واخبارك بها

فانما هي اقبال وادبار * قال الواحدي وهذا قول أبي اسحق يعني الزجاج وأبي بكر بن الانباري وأبي علي الفارسي قال أبو علي ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان اذا كثر منه فعلى هذا لا حذف (فلا تسألن ما ليس لك به علم) وذلك أن نوحا عليه السلام سأل ربه انجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك محظور لاصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسألة وأعلمه أن ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألني ما ليس لك به علم بجواز مسئلته (اني أعظك) يعني أنهاك (أن تكون من الجاهلين) يعني لمثل هذا السؤال (قال) يعني قال نوح (رب اني أعوذ بك) يعني ألجأ اليك وأعتذر اليك (أن أسألك ما ليس لي به علم) يعني انك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني فاعتذر اليك من مسئلتي ما ليس لي به علم (والا تغفر لي) يعني جهلي واقدامي على سؤال ما ليس لي به علم (وترحمني) يعني برحمتك التي وسعت كل شئ (أكن من الخاسرين)

(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الانبياء) وبيانه أن قوله انه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألني ما ليس لك به علم وقوله سبحانه وتعالى اني أعظك أن تكون من الجاهلين يدل على أن ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بان ينجيه وأهله فاخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى فاقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فاشفق نوح من اقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ الى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأله المغفرة والرحمة لان حسنات الابرار سيآت المقربين وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله واقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم ۞ قوله سبحانه وتعالى قيل يانوح اهبط أي أنزل من السفينة أو من الجبل الى الارض (بسلام) أي بأمن وسلامة (منا وبركات عليك) البركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين الى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم (وعلى أمم ممن معك) يعني وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك في السفينة والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجيء من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون قال محمد بن كعب القرظي دخل في هذا كل مؤمن الى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) هذا ابتداء كلام أي وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا الى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب أليم) يعني في الآخرة (تلك من أنباء الغيب) هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أن هذه القصة التي أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب (نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) يعني من قبل نزول القرآن عليك فان قلت ان قصة نوح كانت مشهورة معروفة

(فاصبر) على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح وأقومه (ان العاقبة) فى الفوز والنصر والغلبة (للمتقين) عن الشرك (والى عاد أخاهم) واحدا منهم وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا أى وأرسلنا الى عاد أخاهم (هودا) عطف بيان (قال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (مالكم من اله غيره) بالرفع نافع صفة على محل الجار والمجرور وبالجر على اللفظ (ان أنتم الا مفترون) تفترون على الله الكذب باتخاذكم الاوثان له شركاء (ياقوم لا أسئلكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى) مامن رسول الا واجه قومه بهذا القول لان شأنهم النصيحة والنصيحة لا يمحضها الا حسم المطامع ومادام يتوهم شئ منها لم تنجع ولم تنفع (أفلا تعقلون) اذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجرا الا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك (و ياقوم استغفروا ربكم) آمنوا به (ثم توبوا اليه) من عبادة غيره (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) حال أى كثيرة

الدرور (ويزدكم قوة الى قوتكم) انما قصد استمالتهم الى الايمان بكثرة المطر وزيادة القوة لانهم كانوا أصحاب زروع و بساتين فكانوا أحوج شئ الى الماء وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة وقيل أراد القوة بالمال أو على النكاح وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود عليه السلام المطر والاولاد على الايمان والاستغفار وعن الحسن ابن على رضى الله عنهما أنه وفد على معاوية فلما خرج قال له بعض حجابه انى رجل ذو مال ولا يولد لى علمنى شيأ لعل الله يرزقنى ولدا فقال الحسن عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشر بنين فبلغ ذلك معاوية فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح و يمددكم بأموال و بنين (ولا تتولوا) ولا تعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه (مجرمين) مصرين على اجرامكم وآثامكم (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أنزل عليه آية من ربه مع فوت آياته الحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) هو حال من الضمير فى تاركى آلهتنا كأنه قيل وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك (وما نحن لك بمؤمنين) وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم اليه اقناطا له من الاجابة (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ان حرف نفى فنفى جميع القول الا قولا واحدا وهو قولهم اعتراك أصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون وخبل وتقديره ما نقول قولا الا هذه المقالة أى قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء (قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برئ

معروفة فى العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا قلت يحتمل أن يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها و بيانها وجواب آخر وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها (فاصبر) يا محمد على أذى مشركى قومك كما صبر نوح على أذى قومه (ان العاقبة) يعنى النصر والظفر على الاعداء والفوز بالسعادة الاخروية (للمتقين) يعنى للمؤمنين ۞ قوله عز وجل (والى عاد) يعنى وأرسلنا الى عاد (أخاهم هودا) يعنى أخاهم فى النسب لا فى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) يعنى وحدوا الله ولا تشركوا معه شيأ فى العبادة (مالكم من اله غيره) يعنى أنه تعالى هو الهكم لا هذه الاصنام التى تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع (ان أنتم الا مفترون) يعنى ما أنتم الا كاذبون فى عبادتكم غيره (ياقوم لا أسئلكم عليه) يعنى على تبليغ الرسالة (أجرا) يعنى جعلا آخذه منكم (ان أجرى) يعنى ما ثوابى (الا على الذى فطرنى) يعنى خلقنى فانه هو الذى يرزقنى فى الدنيا و يثيبنى فى الآخرة (أفلا تعقلون) يعنى فتتعظون (و ياقوم استغفروا ربكم) أى آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الايمان لانه هو المطلوب أولا (ثم توبوا اليه) يعنى من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم (يرسل السماء عليكم مدرارا) يعنى ينزل المطر عليكم متتابعا مرة بعد مرة فى أوقات الحاجة له وذلك ان بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فامسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فاجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فاخبرهم هود عليه السلام أنهم ان آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله اليهم المطر فاحيا به بلادهم كما كانت أول مرة (ويزدكم قوة الى قوتكم) يعنى شدة مع شدتكم وقيل معناه انكم ان آمنتم يقوكم بالاموال والاولاد وذلك انه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام ان آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالا و يعيد أرحام الامهات الى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالاموال والاولاد وقيل تزدادون قوة فى الدين الى قوة الابدان (ولا تتولوا مجرمين) يعنى ولا تعرضوا عن قبول قولى ونصحى حال كونكم مشركين (قالوا ياهود ما جئتنا ببينة) أى ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) يعنى وما نترك عبادة آلهتنا لاجل قولك (وما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يعنى أنك ياهود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا الا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لانك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك الا على هذا (قال) يعنى قال هود مجيبا لهم (انى أشهد الله) يعنى على نفسى (واشهدوا) يعنى واشهدوا أنتم أيضا على (انى برئ

مما تشركون من دونه) أى من اشراككم آلهة من دونه والمعنى انى أشهد الله أنى برىء مما تشركون واشهدوا أنتم أيضا انى برىء من ذلك وجىء به على لفظ الامر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه و بينه اشهد على أنى لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله (فكيدونى جميعا) أنتم وآلهتكم (ثم لا تنظرون) لا تمهلون فانى لا أبالى بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وان تعاونتم على وكيف تضرنى آلهتكم وما هى الا جماد لا يضر ولا ينفع وكيف تنتقم منى اذا نلت منها وصددت عن عبادتها بان تخبلنى وتذهب بعقلى

(انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أى مالكها ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ومن كون كل دابة فى قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه والاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربى على صراط مستقيم) ان ربى على الحق لا يعدل عنه أو ان ربى يدل على صراط مستقيم (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) هو فى موضع فقد ثبتت الحجة عليكم (ويستخلف ربى قوما غيركم) كلام مستأنف أى يهلككم الله ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم (ولا تضرونه) بتوليكم (شيأ) من ضرر قط اذ لا يجوز عليه المضار وانما تضرون أنفسكم (ان ربى على كل شئ حفيظ) رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم أو من كان رقيبا على الاشياء كلها حافظا لها وكانت الاشياء مفتقرة الى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) أى بفضل منا لا بعلمهم أو بالايمان الذى أنعمنا عليهم (ونجيناهم من عذاب غليظ) وتكرار نجينا للتأكيد أو الثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه (وتلك عاد) اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيحوا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم استأنف وصف أحوالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لانهم اذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله لا نفرق بين أحد من رسله

مما تشركون من دونه يعنى هذه الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) يعنى احتالوا فى كيدى وضرى أنتم وأصنامكم التى تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع (ثم لا تنظرون) يعنى ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك انه كان وحيدا فى قومه فقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت الا لثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى انه فوض أمره الى الله واعتمد عليه (ما من دابة) يعنى تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) يعنى انه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لان من أخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الرأس وسمى الشعر الذى عليه ناصية للمجاورة قيل انما خص الناصية بالذكر لان العرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم فاذا وصفوا انسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتقدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم (ان ربى على صراط مستقيم) يعنى ان ربى وان كان قادرا وأنتم فى قبضته كالعبد الذليل فانه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف والعدل فيجازى المحسن باحسانه والمسيء بعصيانه وقيل معناه ان دين ربى هو الصراط المستقيم وقيل فيه اضمار تقديره ان ربى يحملكم على صراط مستقيم (فان تولوا) يعنى تتولوا بمعنى تعرضوا عن الايمان بما أرسلت به اليكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) يعنى انى لم يقع منى تقصير فى تبليغ ما أرسلت به اليكم انما التقصير منكم فى قبول ذلك (ويستخلف ربى قوما غيركم) يعنى انكم ان أعرضتم عن الايمان وقبول ما أرسلت به اليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه وفيه اشارة الى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد (ولا تضرونه شيأ) يعنى بتوليكم انما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيأ اذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربى على كل شئ حفيظ) يعنى أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شئ فيحفظنى من أن تنالونى بسوء ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولما جاء أمرنا) يعنى باهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) وذلك ان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) يعنى الريح التى أهلكت بها عاد وذلك ان الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهى الايام النحسات فاهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيأ وقيل المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى انه تعالى كما نجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لانه أعظم من عذاب الدنيا (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك عاد رده الى القبيلة وفيه اشارة

(وأتبعوا أمر كل جبار عنيد) يريد رؤساءهم ودعاتهم الى تكذيب الرسل لانهم الذين يجبرون الناس على الامور و يعاندون ربهم ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة) لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين (ألا ان عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد) تكرار ألا مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لامرهم و بعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم والدعاء ببعدا بعد هلاكهم وهو دعاء بالهلاك للدلالة على انهم كانوا مستأهلين له (قوم هود) عطف بيان لعاد وفيه فائدة لان عادا عادان الاولى القديمة التى هى قوم هود والقصة فيهم والاخرى ارم (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض) لم ينشئكم منها الا هو وانشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم (واستعمركم فيها) وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها أو استعمركم من العمر أى أطال أعماركم فيها وكانت أعمارهم من ثلثمائة الى ألف وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وعمروا الاعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فاوحى الله اليه انهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى (فاستغفروه) فاسألوه مغفرته بالايمان (ثم توبوا اليه ان ربى قريب) دانى الرحمة (مجيب) لمن دعاه (قالوا ياصالح قد كنت فينا) فيما بيننا (مرجوا قبل هذا) للسيادة والمشاورة فى الامور أو كنا نرجوان تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) حكاية حال ماضية (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد (مريب) موقع فى الريبة من أرابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة) نبوة أتى بحرف الشك مع انه على يقين انه على بينة لان خطابه للجاحدين فكانه قال قدروا انى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة وانظروا ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره (فمن ينصرنى من الله) فمن يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) فى تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الاوثان

الى قبورهم وآثارهم كانه قال سيروا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعنى المعجزات التى أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعنى هودا وحده وانما أتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم أولان من كذب برسول فقد كذب كل الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يعنى ان السفلة منهم واتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع فى نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذى لا يقبل الحق ولا يتبعه (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) يعنى أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والابعاد من رحمة الله (و يوم القيامة) يعنى وفى يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما تتبعهم فى الدنيا ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذى استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) يعنى هلاكا لهم وقيل بعدا عن الرحمة فان قلت اللعنة معناها الابعاد والهلاك فما الفائدة فى قوله ألا بعدا لعاد لان الثانى هو الاول بعينه قلت الفائدة فيه ان التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وانهم كانوا مستحقين له (قوم هود) عطف بيان لعاد فان قلت هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة فى قوله قوم هود قلت ان عادا كانوا قبيلتين عادا الاولى القديمة التى هم قوم هود وعادا الثانية وهم ارم ذات العماد وهم العماليق فاتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو ان المبالغة فى التنصيص تدل على تقوية التأكيد ۞ قوله عز وجل (والى ثمود أخاهم صالحا) يعنى وأرسلنا الى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحا يعنى فى النسب لا فى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة (مالكم من اله غيره) يعنى هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى (هو أنشأكم من الارض) يعنى انه هو ابتدأ خلقكم من الارض وذلك أنهم من بنى آدم وآدم خلق من الارض (واستعمركم فيها) يعنى وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة الى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد أعمركم من العمرى أى جعلها لكم ما عشتم (فاستغفروه) يعنى من ذنوبكم (ثم توبوا اليه) يعنى من الشرك (ان ربى قريب) يعنى من المؤمنين (مجيب) لدعائهم (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) يعنى قبل هذا القول الذى جئت به والمعنى انا كنا نرجوا أن تكون فينا سيدا لانه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم و يغنى فقيرهم وقيل معناه انا كنا نطمع أن تعود الى ديننا فلما أظهر دعاءهم الى الله وعاب الاصنام انقطع رجاؤهم منه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) يعنى الآلهة (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) يعنى من عبادة الله (مريب) يعنى انا مرتابون فى قولك من أرابه اذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس ووقوعها فى التهمة (قال) يعنى قال صالح مجيبا لقومه (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على يقين وبرهان (وآتانى منه رحمة) يعنى نبوة وحكمة (فمن ينصرنى من الله) أى فمن يمنعنى من عذاب الله (ان عصيته) يعنى ان

(فما تزيدونني) بقولكم أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا (غير تخسير) بنسبتكم اياي الى الخسار أو بنسبتي اياكم الى الخسران (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) نصب على الحال قد عمل فيها مادل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل ولكم متعلق بآية حالا منها متقدمة لانها لوتأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال (فذروها تأكل في أرض الله) أي ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها (ولا تمسوها بسوء) عقر أو نحر (فيأخذكم عذاب قريب) عاجل (فعقروها) يوم الاربعاء (فقال) صالح (تمتعوا) استمتعوا بالعيش (في داركم) في بلدكم وتسمى البلاد الديار لانه يدار فيها أي

يتصرف أو في دار الدنيا (ثلاثة أيام) ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت (ذلك

وعد غير مكذوب) أي غير مكذوب فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به أو وعد غير كذب على ان المكذوب مصدر كالمفعول (فلما جاء أمرنا) بالعذاب أو عذابنا (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قال الشيخ رحمه الله هذا يدل على ان من نجى انما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام لا يدخل أحد الجنة الا برحمة الله (ومن خزي يومئذ) باضافة الخزي الى اليوم وانجرار اليوم بالاضافة وبفتحها مدني وعلي لانه مضاف الى اذ وهو مبني وظروف الزمان اذا أضيف الى الاسماء المبهمة والافعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف اليه كقوله * على حين عاتبت المشيب على الصبا * والواو للعطف وتقديره ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذله وفضيحته ولا

خالفت أمره (فما تزيدونني غير تخسير) قال ابن عباس معناه غير بصارة في خسارتكم وقال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون الا نسبتي الى الخسارة (وياقوم هذه ناقة الله لكم آية) وذلك ان قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا اليها فدعا الله عز وجل فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلا يشبهها وقوله ناقة الله اضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام (فذروها تأكل) يعني من العشب والنبات (في أرض الله) يعني فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) يعني بعقر (فيأخذكم) يعني ان قتلتموها (عذاب قريب) يعني في الدنيا (فعقروها) يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها (فقال) يعني فقال لهم صالح (تمتعوا) يعني عيشوا (في داركم) أي في بلدكم (ثلاثة أيام) يعني ثم تهلكون (ذلك) يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) أي هو غير كذب روي انه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الاول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء أمرنا) يعني العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) أي بنعمة منا بان هديناهم الى الايمان فآمنوا (ومن خزي يومئذ) يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ سمي خزيا لان فيه خزي الكافرين (ان ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان ربك يا محمد (هو القوي) يعني هو القادر على انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين (العزيز) يعني القاهر الذي لا يغلبه شيء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى (وأخذ الذين ظلموا) يعني أنفسهم بالكفر (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أتيته وأقمت به (ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الاعراف ۞ قوله عز وجل (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كانوا أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الاولى لان أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الاقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة باسحق ويعقوب وقيل باهلاك قوم لوط (قالوا سلاما)

خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وجاز أن يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة (ان ربك هو القوي) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب باهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام (فأصبحوا في ديارهم) منازلهم (جاثمين) ميتين (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها (ألا ان ثمودا كفروا ربهم) ثمود حمزة وحفص (ألا بعدا لثمود) على الصرف للذهاب الى الحي أو الاب الاكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة (ولقد جاءت رسلنا) جبريل وميكائيل واسرافيل أو جبريل مع أحد عشر ملكا (ابراهيم بالبشرى) هي البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط والاول أظهر (قالوا سلاما) سلمنا عليك

يعني

يعنى ان الملائكة سلموا سلاما (قال) يعنى لهم ابراهيم (سلام) أى عليكم أو أمركم سلام (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) يعنى مشويا والحنيذ هو المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الارض وهو من فعل أهل البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال ابراهيم عليه السلام البقر وقيل مكث ابراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل الا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافا لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوى (فلما رأى أيديهم) يعنى أيدى الاضياف (لا تصل اليه) يعنى الى العجل المشوى (نكرهم) يعنى أنكرهم وأنكر حالهم وانما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام (وأوجس منهم خيفة) يعنى وقع فى قلبه خوف منهم والوجس هو رعب القلب وانما خاف ابراهيم صلى الله عليه وسلم منهم لانه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل ان ابراهيم عرف انهم ملائكة وانما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والاقرب ان ابراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة فى أول الامر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم اليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما قدمه اليهم لعلمه ان الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولانه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأى الملائكة خوف ابراهيم عليه السلام (قالوا لا تخف) يا ابراهيم (انا) ملائكة الله (أرسلنا الى قوم لوط وامرأته) يعنى سارة زوجة ابراهيم وهى ابنة هاران بن ناحورا وهى ابنة عم ابراهيم (قائمة) يعنى من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة فى خدمة الرسل وابراهيم جالس معهم (فضحكت) أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الاسنان عنده سميت مقدمات الاسنان الضواحك ويستعمل فى السرور المجرد وفى التعجب المجرد أيضا وللعلماء فى تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا فى سبب هذا الضحك فقال السدى لما قرب ابراهيم الطعام الى أضيافه فلم يأكلوا خاف ابراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا انا لا نأكل طعاما الا بثمن قال فان له ثمنا قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل الى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا فلما رأى ابراهيم وسارة أيديهم لا تصل اليه ضحكت سارة وقالت يا عجبا لاضيافنا نخدمهم بانفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا وقال قتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم وقال مقاتل والكلبى ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن ابراهيم وذلك انها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فبشرناها باسحق فضحكت يعنى تعجبا من ذلك وقيل انها قالت لابراهيم اضمم اليك ابن أخيك لوطا فان العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشرت بعذابهم سرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت القول الثانى فى معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أى حاضت فى الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك قال الراغب وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيرا لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وانما ذكر ذلك تنصيصا لحالها فان جعل ذلك أمارة لما بشرت به فحيضها فى الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لان المرأة ما دامت تحيض فانها تحمل وقال الفراء ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة وقال الزجاج ليس بشئ ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الانبارى قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد

تضحك الضبع لقتلى هذيل * وترى الذئب بها يستهل

قال أراد انها تحيض فرحا وقال الليث فى هذه الآية فضحكت أى طمثت وحكى الازهرى عن بعضهم فى قوله

(سلاما قال سلام) أمركم سلام سلم حمزة وعلى بمعنى السلام (فما لبث أن جاء بعجل) فما لبث فى المجىء به بل عجل فيه أو فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة وكان مال ابراهيم البقر (حنيذ) مشوى بالحجارة المحماة (فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم) نكر وأنكر بمعنى وكانت عادتهم أنه اذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه والا خافوه والظاهر أنه أحس بانهم ملائكة ونكرهم لانه تخوف أن يكون نزولهم لامر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه دليله قوله (وأوجس منهم خيفة) أى أضمر منهم خوفا (قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط) بالعذاب وانما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا وانما قالوا لا تخف لانهم رأوا أثر الخوف والتغير فى وجهه (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع تحاورهم أو على رؤسهم تخدمهم (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب أو خافت

(فبشرناها باسحق) وخصت بالبشارة لان النساء أعظم سرورا بالولد من الرجال ولانه لم يكن لها ولد وكان لابراهيم ولد وهو اسمعيل (ومن وراء اسحق) ومن بعده (يعقوب) بالنصب شامي وحمزة وحفص بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أي فبشرناها باسحق و وهبنا لها يعقوب من وراء اسحق وبالرفع غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبر كما تقول في الدار زيد (قالت يا ويلتا) الالف مبدلة من ياء الاضافة وقرأ الحسن يا ويلتي بالياء على الاصل (أألد وأنا عجوز) ابنة تسعين سنة (وهذا بعلي شيخا) ابن مائة وعشرين سنة هذا مبتدأ و بعلي خبره وشيخا حال والعامل معنى الاشارة التي دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذي دل عليه هذا (ان هذا لشيء عجيب) أن يولد ولد من هرمين وهو

استبعاد من حيث العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله) قدرته وحكمته وانما أنكرت الملائكة تعجبها لانها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب والى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالانعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب وهو كلام مستأنف علل به انكار التعجب كأنه قيل اياك والتعجب لان أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بني اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم وأهل البيت نصب على النداء أو على الاختصاص (انه حميد) محمود بتعجيل النعم (مجيد) ظاهر الكرم بتأجيل النقم (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) بالولد (يجادلنا في قوم لوط) أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سرورا بسبب البشرى فرغ للمجادلة وجواب لما محذوف تقديره أقبل يجادلنا أو يجادلنا جواب لما وانما جيء به مضارعا لحكاية الحال والمعنى يجادل رسلنا ومجادلته اياهم انهم قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله

فضحكت أي حاضت قال و يقال أصله من ضحاك الطلعة اذا انشقت قال وقال الاخطل فيه بمعنى الحيض

تضحك الضبع من دماء سليم * اذ رأتها على الحراب تمور

وقال في المحكم ضحكت المرأة حاضت و به فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها باسحق وضحكت الارنب ضحكا يعني حاضت حيضا قال وضحك الارانب فوق الصفا * كمثل دم الخوف يوم اللقا يعني الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض قال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم انها تحيض وانما أراد الشاعر تكشر لاكل اللحوم وهذا سهو منه لانه جعل كشرها حيضا وقيل معناه انها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكا وقيل لانها تسر بهم فجعل سرورها ضحكا فان قلت أي القولين أصح في معنى الضحك قلت ان الله عز وجل حكى عنها انها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله أعلم أي ذلك كان ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) يعني ومن بعد اسحق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بانها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وانما فعلت ذلك تعجبا (قالت يا ويلتا) نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الانسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل يا عجباه (أألد وأنا عجوز) وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن اسحق وقال مجاهد كانت بنت تسع وتسعين سنة (وهذا بعلي) يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بأمرها سمي بعلا لذلك (شيخا) وكان سن ابراهيم يومئذ مائة وعشرين في قول محمد بن اسحق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة (ان هذا لشيء عجيب) لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وانما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما (قالوا) يعني قالت الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) معناه لا تعجبي من ذلك فان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فاذا أراد شيأ كان سريعا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) يعني بيت ابراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته (انه حميد) يعني هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لان يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال (مجيد) ومعناه المنيع الذي لا يرام وقال الخطابي المجيد الواسع الكرم وأصل المجد في كلامهم السعة يقال رجل ماجد اذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم ۞ قوله سبحانه وتعالى (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) يعني الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الاكل (وجاءته البشرى) يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى التي جاءته وهي البشارة بالولد (يجادلنا) فيه اضمار تقديره أخذ يجادلنا وجعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا (في قوم لوط) لان العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين

(ان ابراهيم لحليم) غير عجول على كل من أساء اليه أو كثير الاحتمال ممن آذاه الصفوح عمن عصاه (أواه) كثير التأوه من خوف الله (منيب)
تائب راجع الى الله وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين ان ذلك مما حمله على المجادلة

المفسر بن معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة ابراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فاربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال ابراهيم فان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وقيل انما طلب ابراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي قال ابن جريج كان في قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل (ان ابراهيم لحليم أواه منيب) تقدم تفسيره في سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لابراهيم (يا ابراهيم أعرض عن هذا) يعني أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال (انه قد جاء أمر ربك) يعني ان ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) يعني ان العذاب الذي نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم ۞ قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا لوطا) يعني هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند ابراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه (سيء بهم) يعني أحزن لوط بمجيئهم اليه وساءه ظنه بقومه (وضاق بهم ذرعا) قال الازهري الذرع يوضع موضع الطاقة والاصل فيه ان البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فاذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعا اذ لم يجد من المكروه في ذلك الامر مخلصا وقال غيره معناه ضاق بهم قلبا وصدرا ولا يعرف أصله الا أن يقال ان الذرع كناية عن الوسع والعرب تقول ليس هذا في يدي يعنون ليس هذا في وسعي لان الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعا بكذا اذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا عليه السلام لما نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه أو فاحشة وعلم انه سيحتاج الى المدافعة عنهم (وقال) يعني لوطا (هذا يوم عصيب) أي شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس قال قتادة والسدي خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطا نصف النهار وهو يعمل في أرض له وقيل انه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل انه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط ان قومي شر خلق الله تعالى فقال جبريل هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ما قال أولا حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل ان الملائكة جاؤا الى بيت لوط فوجدوه في داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم (وجاءه قومه يهرعون اليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون اليه وقال مجاهد يهرولون وقال الحسن الاهراع هو مشي بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز (ومن قبل) يعني ومن قبل مجيء الرسل اليهم قيل ومن قبل مجيئهم الى لوط (كانوا يعملون السيئات) يعني الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي اتيان الرجال في أدبارهم (قال) يعني قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا

فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة كما حمله على الاستغفار لابيه فقالت الملائكة (يا ابراهيم أعرض عن هذا) الجدال وان كانت الرحمة ديدنك (انه قد جاء أمر ربك) قضاؤه وحكمه (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا يرد بجدال وغير ذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل وهو آتيهم تقديره وانهم يأتيهم ثم خرجوا من عند ابراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية ابراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ (ولما جاءت رسلنا لوطا) لما أتوه ورأى هيآتهم وجمالهم (سيء بهم) أحزن لانه حسب انهم انس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم (وضاق بهم ذرعا) تمييز أي وضاق بمكانهم صدره (وقال هذا يوم عصيب) شديد روي ان الله تعالى قال لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية

قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها (وجاءه قومه يهرعون اليه) يسرعون كأنما يدفعون دفعا (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها وقل عندهم استقباحها فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء (قال

ياقوم هؤلاء بناتي) فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا في ذلك الوقت كما جاز في الابتداء في هذه الامة فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة أبي لهب وأبي العاص وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد لوط أن يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) أحل هؤلاء مبتدأ و بناتي عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتي خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر (فاتقوا الله) بايثارهن عليهم (ولا تخزون) ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء وبالياء أبو عمرو في الوصل (في ضيفي) في حق ضيوفي فانه اذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم واصالة المروءة (أليس منكم رجل رشيد) أي رجل واحد يهتدي الى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء (قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق) حاجة لان نكاح الاناث أمر خارج عن مذهبنا فمذهبنا اتيان الذكران (وانك لتعلم ما نريد) عنوا اتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة (قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد) جواب لو محذوف أي لفعلت بكم ولصنعت والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت الى قوي أستند اليه وأتمنع به فيحميني منكم فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته روي أنه أغلق بابه حين جاؤا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب (قالوا يالوط) ان ركنك لشديد (انا رسل ربك) فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة (لن [illegible]

انهم غلمان من بني آدم (ياقوم هؤلاء بناتي) يعني ازوجكم اياهن وقى أضيافه ببناته قيل انه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسن بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب ان شاء الله تعالى والدليل عليه ان بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن اياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الانبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل انما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق ۞ وفي قوله (هن أطهر لكم) سؤال وهو أن يقال ان قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال ان هذا جار مجرى قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد أعل هبل قال الله أعلى وأجل اذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة ۞ وقوله (فاتقوا الله) يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان (ولا تخزون في ضيفي) يعني ولا تسوؤني في أضيافي ولا تفضحوني معهم (أليس منكم رجل رشيد) أي صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لا اله الا الله وقال محمد بن اسحق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح (قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق) يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بازواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا في بناتك من حاجة لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ولا نريد ذلك (وانك لتعلم ما نريد) يعني من اتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك (قال) لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوة) أي لو اني أقدر أن أتقوى عليكم (أو آوي الى ركن شديد) يعني أو أنضم الى عشيرة يمنعوني منكم وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لو وجدت عشيرة لانضممت اليهم قال أبو هريرة ما بعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لاجبته قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه أشد الاركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث ان لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي الى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط اظهار العذر عند أضيافه وانه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف ان شاء الله تعالى قال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم (قالوا يالوط) ركنك شديد (انا رسل ربك لن يصلوا اليك) يعني بمكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن له فتحول الى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين

وراسه

ورأسه حبك مثل المرجان كأنه كالثلج بياضا وقدماه الى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء فى بيت لوط أسحر أقوام فى الارض قد سحرونا وجعلوا يقولون يالوط كما أنت حتى تصبح وسترى ما تلقى منا غدا يوعدونه بذلك (فأسر بأهلك) يعنى ببيتك (بقطع من الليل) قال ابن عباس بطائفة من الليل وقال الضحاك ببقية الليل وقال قتادة بعد مضى أوله وقيل انه السحر الاول (ولا يلتفت منكم أحد) يعنى ولا يلتفت منكم أحد الى ورائه ولا ينظر الى خلفه (الا امرأتك) فانها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى (انه مصيبها ما أصابهم) فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا (ان موعدهم الصبح) قال لوط انه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له (أليس الصبح بقريب) فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم أن لا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه الا امرأته فانها لما سمعت هدة العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت واقوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم (فلما جاء أمرنا) يعنى أمرنا بالعذاب (جعلنا عاليها سافلها) وذلك ان جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهى خمس مدائن أكبرها سدوم وهى المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرجع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليها) يعنى على شذاذها ومن كان خارجا عنها من مسافريها وقيل بعد ما قلبها أمطر عليهم (حجارة من سجيل) قال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه سنك كل فارسى معرب لان العرب اذا تكلمت بشئ من الفارسى صار لغة للعرب ولا يضاف الى الفارسى مثل قوله سندس واستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها فى ألفاظهم فصارت عربية قال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله فى موضع آخر حجارة من طين وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن أصل الحجارة طين فشدت وقال الضحاك يعنى الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل فى سماء الدنيا (منضود) قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشئ بعضه فوق بعض (مسومة عند ربك) صفة للحجارة يعنى معلمة قال ابن جريج عليها سيما لا تشاكل حجارة الارض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدى كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها أى على كل حجر اسم صاحبه الذى يرمى به (وما هى) يعنى تلك الحجارة (من الظالمين) يعنى مشركى مكة (ببعيد) قال قتادة وعكرمة يعنى ظالمى هذه الامة والله ما أجار الله منها ظالما بعده وفى بعض الآثار ما من ظالم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل ان الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى ان واحدا منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقا فى السماء أربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه

قوله عز وجل (والى مدين) يعنى وأرسلنا الى مدين (أخاهم شعيبا) مدين اسم لابن ابراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا الى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى وحدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام يبدؤن بالاهم فالاهم ولما كانت

جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لم يصلوا اليه ولم يقدروا على ضرره (فأسر) بالوصل حجازى من سرى (بأهلك بقطع من الليل) طائفة منه أو نصفه (ولا يلتفت منكم أحد) بقلبه الى ما خلف أو لا ينظر الى ما وراءه أو لا يتخلف منكم أحد (الا امرأتك) مستثنى من فأسر بأهلك وبالرفع مكى وأبو عمرو على البدل من أحد وفى اخراجها مع أهله روايتان روى أنه أخرجها معهم وأمر أن لا يلتفت منهم أحد الا هى فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وروى أنه أمر بان يخلفها مع قومها فان هواها اليهم فلم يسر بها واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين (انه مصيبها ما أصابهم) أى ان الامر وروى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا (ان موعدهم الصبح) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها أى أسفل قراها ثم رفعها الى السماء حتى سمع اهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم واتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) هى كلمة معربة من سنك كل بدليل قوله حجارة من طين (منضود) نعت لسجيل أى متتابع أو مجموع معد للعذاب (مسومة) نعت لحجارة أى معلمة للعذاب قيل مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به (عند ربك) فى خزائنه أو فى حكمه (وما هى من الظالمين ببعيد) بشئ بعيد وفيه وعيد لاهل مكة فان جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ظالمى أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة أو الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم (والى مدين أخاهم شعيبا) هو اسم مدينتهم أو اسم جدهم مدين بن ابراهيم أى وأرسلنا شعيبا الى ساكنى مدين أو الى بنى مدين (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره

ولا تنقصوا المكيال) أى المكيل بالمكيال - (والميزان) والموزون بالميزان (انى أراكم بخير) بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ماتفعلون (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) مهلك من قوله وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب الاستئصال فى الدنيا أو عذاب الآخرة (و ياقوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول لزيادة الترغيب فيه وجيء

به مقيدا بالقسط أى ليكن الايفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص كانوا ينقصون من أثمان مايشترون من الاشياء فنهوا عن ذلك (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) العثى والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيا منهم فى الارض (بقيت الله) مايبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم (خير لكم ان كنتم مؤمنين) بشرط ان تؤمنوا نعم بقية الله خير للكفرة أيضا لانهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف الا أن فائدتها تظهر مع الايمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لانغماس صاحبها فى غمرات الكفر وفى ذلك تعظيم للايمان وتنبيه على جلالة شأنه أو المراد ان كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به اياكم (وما أنا عليكم بحفيظ) لنعمه عليكم فاحفظوها بترك البخس (قالوا ياشعيب أصلواتك) و بالتوحيد كوفى وقال غير أبى بكر (تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له ماتستفيد بهذا فكان يقول انها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح فقالوا له على وجه الاستهزاء أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ما كان يعبد آباؤنا أو أن نترك التبسط فى أموالنا مانشاء من ايفاء ونقص وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازا كما سماها الله تعالى ناهية مجازا

الدعوة الى توحيد الله وعبادته أهم الاشياء قال شعيب اعبدوا الله مالكم من اله غيره ثم بعد الدعوة الى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى الكيل والوزن دعاهم الى ترك هذه العادة القبيحة وهى تطفيف الكيل والوزن فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) النقص فى الكيل والوزن على وجهين أحدهما أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون و يزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو استيفاء الكيل والوزن لانفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان (انى أراكم بخير) قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة ان لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يعنى محيطا بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين (و ياقوم أوفوا المكيال والميزان) أى أتموهما ولا تطففوا فيهما (بالقسط) أى بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال (ولا تبخسوا الناس) أى ولا تنقصوا الناس (أشياءهم) يعنى أموالهم فان قلت قد وقع التكرار فى هذه القصة من ثلاثة أوجه لانه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الاول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرار قلت ان القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج فى المنع منه الى المبالغة فى التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولان قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بايفاء العدل وهذا غير الاول ومغاير له ولقائل ان يقول النهى ضد الامر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز ان ينهى عن التنقيص ولا يأمر بايفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتزيد المبالغة فى الامر والنهى وأما قوله ثانيا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضا لانه سبحانه وتعالى لما خصص النهى عن التنقيص والامر بايفاء الحق فى الكيل والوزن عمم الحكم فى جميع الاشياء التى يجب ايفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والذرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم ﴿قوله سبحانه وتعالى (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) يعنى بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم (بقيت الله خير لكم) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعنى طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعنى ما أبقاه لكم من الثواب فى الآخرة خير لكم مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (ان كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى احفظ أعمالكم قال بعضهم انما قال لهم شعيب ذلك لانه لم يؤمر بقتالهم (قالوا ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) يعنى من الاصنام (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) يعنى من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل انهم كانوا يمرون به فيرونه يصلى فيستهزئون به ويقولون هذه المقالة

(انك لأنت الحليم الرشيد) أى السفيه الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء أوانك حليم رشيد عندنا واست تفعل بنا مايقتضيه حالك (قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه) من لدنه (رزقا حسنا) يعنى النبوة والرسالة أومالا حلالا من غير بخس وتطفيف وجواب رأيتم محذوف أى أخبرونى ان كنت على حجة واضحة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى والانبياء لايبعثون الالذلك يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) يعنى أن أسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم (ان أريد الا الاصلاح) ماأريد الا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر (مااستطعت) ظرف أى مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لاآلو فيه جهدا (وماتوفيقى الا بالله) وما كونى موفقا لاصابة الحق فيما آتى وأذر الا بمعونته وتأييده (عليه توكلت) اعتمدت (واليه أنيب) أرجع فى السراء والضراء جرم مثل كسب فى تعديه الى مفعول واحد والى مفعولين ومنه قوله (وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) أى لايكسبنكم خلافى اصابة العذاب (مثل ماأصاب قوم نوح أوقوم هود أوقوم صالح) وهو الغرق والريح والرجفة (وماقوم لوط منكم ببعيد) فى الزمان فهم أقرب الهالكين منكم أوفى المكان فمنازلهم قريبة منكم أوفيما يستحق به

وقال الاعمش أقراءتك لان الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعنى أدينك يأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أوأن نفعل فى أموالنا مانشاء وذلك انهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم انه محرم عليهم وانما ذكر الصلاة لانها من أعظم شعائر الدين (انك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس أرادوا السفيه الغاوى لان العرب قد تصف الشئ بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة وقيل هو على حقيقته وانما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية وقيل معناه انك لأنت الحليم الرشيد فى زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه انك ياشعيب فينا حليم رشيد فلا يحمد بك شق عصا قومك ومخالفتهم فى دينهم (قال) يعنى قال لهم شعيب (ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على بصيرة وهداية وبيان (ورزقنى منه رزقا حسنا) يعنى حلالا قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما آتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب ان الشرطية محذوف تقديره أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعنى مع هذه النعمة أن أخون فى وحيه أوأن أخالف أمره أوأتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءهم وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك انهم قالوا له انك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة ۞ وقوله (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف يقال خالفنى فلان الى كذا اذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفنى الى الماء يريد انه قد ذهب اليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا ومنه قوله وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه أى أن أسبقكم الى شهواتكم التى نهيتكم عنها لاستبد بها دونكم قال الامام فخر الدين الرازى وتحقيق الكلام فيه ان القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الاصوب الاصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا ان الذى اخترته لنفسى هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة الى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها الا ما أنتم عليه وقال الزجاج معناه أنى لست أنهاكم عن شئ وأدخل فيه انما أختار لكم ماأختار لنفسى وقال ابن الانبارى بين ان الذى يدعوهم اليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو مايرتضيه لنفسه ولا ينطوى الا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم (ان أريد) يعنى ماأريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه (الا الاصلاح) يعنى فيما بينى وبينكم (مااستطعت) يعنى مااستطعت الا الاصلاح وهو الابلاغ والانذار فقط ولا أستطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله فانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء (وماتوفيقى الا بالله) التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك الا الله تعالى فلذلك قال تعالى وماتوفيقى الا بالله (عليه توكلت) يعنى على الله اعتمدت فى جميع أمورى (واليه أنيب) يعنى واليه أرجع فيما ينزل من النوائب وقيل اليه أرجع فى معادى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه ۞ وقوله تعالى (وياقوم لايجرمنكم شقاقى) أى لايحملنكم خلافى وعداوتى (أن يصيبكم) يعنى عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة (مثلُ ماأصاب قوم نوح) يعنى الغرق (أوقوم هود) يعنى الريح التى أهلكتهم (أوقومَ صالح) يعنى ماأصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعا (وماقوم لوط منكم ببعيد) وذلك انهم كانوا حديثى عهد

الهلاك وهو الكفر والمساوى وسوى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم) يغفر لاهل الجفاء من المؤمنين (ودود) يحب أهل الوفاء من الصالحين (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) أى لا نفهم صحة ما تقول والا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الانبياء (وانا لنراك فينا ضعيفا) لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا ان أردنا بك مكروها (ولولا رهطك لرجمناك) ولو عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل اليهم والاكرام لهم (وما أنت علينا بعزيز) أى لا تعز علينا ولا نكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من أهل ديننا وقد دل ايلاء ضميره حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل لا فى الفعل كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا ولذلك (قال) فى جوابهم (ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب وانما قال أرهطى أعز عليكم من الله والكلام واقع فيه وفى رهطه وانهم الاعزة عليهم دونه لان تهاونهم به وهو نبى الله تهاون بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألا ترى الى قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) ونسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به والظهرى منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم فى النسبة الى الامس امسى (ان ربى بما تعملون محيط) قد أحاط بأعمالكم علما فلا يخفى عليه شئ منها (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) هى بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة أو مصدر من مكن مكانة فهو مكين اذا تمكن من الشئ يعنى اعملوا قارين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى أو اعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لها (انى عامل) على حسب ما يؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى (سوف تعلمون

بهلاككم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك انهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم (واستغفروا ربكم) يعنى من عبادة الاصنام (ثم توبوا اليه) يعنى من البخس والنقصان فى الكيل والوزن (ان ربى رحيم) يعنى بعباده اذا تابوا واستغفروا (ودود) قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده اذا أحببته وقيل يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه ان عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة افضاله واحسانه اليهم وقال الحليمى هو الواد لاهل طاعته أى الراضى عنهم بأعمالهم والمحسن اليهم لاجلها والمادح لهم بها وقال أبو سليمان الخطابى وقد يكون معناه من يتودد الى خلقه (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) يعنى ما نفهم ما تدعونا اليه وذلك ان الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لا تعى ولا تفهم ما ينفعها وان كانوا فى الظاهر يسمعون ويفهمون (وانا لنراك فينا ضعيفا) قال ابن عباس وقتادة كان أعمى قال الزجاج ويقال ان حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفا وقال الحسن وأبو روق ومقاتل يعنى ذليلا قال أبو روق ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا أعمى ولا نبيا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذى يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله (ولولا رهطك) يعنى جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة (لرجمناك) يعنى لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول (وما أنت علينا بعزيز) يعنى بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له فى صدورهم وانهم انما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لاجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لانهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) يعنى أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلى لمكان رهطى عندكم فالاولى أن تحفظونى فى الله ولاجل الله لا لرهطى لان الله أعز وأعظم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) يعنى ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشئ الملقى الذى لا يلتفت اليه (ان ربى بما تعملون محيط) يعنى أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعا لا يخفى عليه منها شئ فيجازيكم بها يوم القيامة (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) يعنى على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة من الشر (انى عامل) يعنى ما أقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الامر فى قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى (سوف تعلمون) أينا الجانى على نفسه المخطئ فى فعله فان قلت أى فرق بين ادخال الفاء ونزعها فى قوله سوف تعلمون قلت ادخال الفاء فى قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها فى قوله سوف تعلمون وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعنى عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن فى البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب

من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كأنه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أى يفضحه وأينا هو كاذب أو موصولة قد عمل فيها كأنه قيل سوف تعلمون الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه والذى هو كاذب فى زعمكم ودعواكم وادخال الفاء فى سوف وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ونزعها وصل تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون والاتيان بالوجهين للتفنن فى البلاغة وأبلغهما الاستئناف (وارتقبوا) وانتظروا العاقبة وما أقول لكم (انى معكم رقيب) منتظر والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا وانما ذكر فى آخر قصة عاد ومدين ولما جاء وفى آخر قصة ثمود ولوط فلما جاء لانهما وقعا بعد ذكر الوعد وذلك قوله ان موعدهم الصبح ذلك وعد غير مكذوب فجيء بالفاء الذى هو للتسبيب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت وأما الاخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ماقبلهما كما تعطف قصة على قصة (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) الجاثم اللازم لمكانه لا يريم يعنى ان جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة (كأن لم يغنوا فيها) كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين (ألا بعدا لمدين) البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى الرشد ألا ترى الى قوله (كما بعدت ثمود) وقرئ كما بعدت والمعنى فى البناءين واحد وهو نقيض القرب الا أنهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء كما فرقوا بين ضمانى الخير والشر فقالوا وعد وأوعد (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) المراد به العصا لانها أبهرها (الى فرعون وملئه فاتبعوا) أى الملأ (أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره وهو ضلال مبين وذلك انه ادعى الالوهية وهو بشر مثلهم وجاهر بالظلم والشر الذى لا يأتى الا من شيطان ومثله بمعزل عن الالوهية وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا أن مع موسى الرشد والحق ثم عدلوا عن اتباعه الى اتباع من ليس فى أمره رشد قط أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه يوم القيامة) أى يتقدمهم وهم على عقبه تفسيرا له وايضاحا أى كيف يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل فى كل ما يحمد ويرتضى كما استعمل الغى فى كل ما يذم ويقال قدمه بمعنى تقدمه (فاوردهم النار) ادخلهم وجيء بلفظ الماضى لان الماضى يدل على أمر موجود مقطوع به فكأنه قيل يقدمهم فيوردهم النار لا محالة يعنى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه (وبئس الورد) المورد (المورود) الذى وردوه شبه بالفارط

العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) يعنى بسبب عمله السيء أو أينا الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه (ومن هو كاذب) يعنى فيما يدعيه (وارتقبوا) يعنى وانتظروا العاقبة وما يؤول اليه أمرى وأمركم (انى معكم رقيب) أى منتظر والرقيب بمعنى المراقب (ولما جاء أمرنا) يعنى بعذابهم واهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) يعنى بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم للطاعة (وأخذت الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا وقيل أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعا (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) يعنى ميتين وهو استعارة من قولهم جثم الطير اذا قعد ولطأ بالارض (كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (الا بعدا) يعنى هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) قال ابن عباس لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد الا قوم شعيب وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة من فوقهم ۞ قوله عز وجل (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) يعنى بحججنا والبراهين التى أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته (وسلطان مبين) يعنى ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه أيضا قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره وقال الزجاج السلطان هو الحجة وسمى السلطان سلطانا لانه حجة الله فى الارض (الى فرعون وملئه) يعنى أتباعه وأشراف قومه (فاتبعوا أمر فرعون) يعنى ما هو عليه من الكفر وترك الايمان بما جاءهم به موسى (وما أمر فرعون برشيد) يعنى وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو الى خير (يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار) يعنى كما تقدم قومه فادخلهم البحر فى الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم والمعنى كما كان قدوتهم فى الضلال والكفر فى الدنيا فكذلك هو قدوتهم وامامهم فى النار (وبئس الورد المورود) يعنى وبئس المدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون فى تقدمه على قومه الى النار بمن يتقدم على الوارد الى الماء وشبه اتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محمودا عند الواردين لانه يكسر العطش قال فى حق فرعون

الذي يتقدم الواردة الى الماء وشبه اتباعه بالواردة ثم قال بئس الورد المورود الذي يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش والنار ضده (واتبعوا في هذه) أي الدنيا (لعنة ويوم القيامة) أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة (بئس الرفد المرفود) رفدهم أي بئس العون المعان أو بئس العطاء المعطى (ذلك) مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض انباء القرى المهلكة مقصوص عليك (منها) من القرى (قائم وحصيد) أي بعضها باق وبعضها عاف الاثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) باهلاكنا اياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب ما به أهلكوا (فما أغنت عنهم آلهتهم) فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله (التي يدعون) يعبدون وهي حكاية حال ماضية (من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) عذابه ولما منصوب بما أغنت (وما زادوهم غير تتبيب) تخسير يقال تب اذا خسر وتببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيأ بل أهلكتهم (وكذلك) محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الاخذ (أخذ ربك اذا أخذ القرى) أي اهلها (وهي ظالمة) حال من القرى (ان أخذه أليم شديد) مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالامهال (ان في ذلك) فيما قص الله من قصص الامم الهالكة (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) أي اعتقد صحته ووجوده (ذلك) اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له الناس) وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله اذا قلت يجمع له الناس وانما لا آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم وانه أثبت أيضا لاسناد الجمع الى الناس وانهم لا ينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب (وذلك يوم مشهود) أي مشهود فيه فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول به أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد (وما نؤخره) أي اليوم المذكور والاجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها والعد انما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها فمعنى قوله وما نؤخره (الا لاجل معدود) الا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف أو ما نؤخر هذا اليوم الا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا

وأتباعه فاوردهم النار وبئس الورد المورود لان الاصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة (واتبعوا في هذه) يعني في هذه الدنيا (لعنة) يعني طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) يعني واتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا (بئس الرفد المرفود) يعني بئس العون المعان وذلك ان اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك انه ترادف عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وقوله سبحانه وتعالى (ذلك من أنباء القرى) يعني من أخبار أهل القرى وهم الامم السالفة والقرون الماضية (نقصه عليك) يعني نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب (منها) يعني من القرى التي أهلكنا أهلها (قائم وحصيد) يعني منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعني الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محي أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذي بعضه قائم على سوقه وبعضه قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود (وما ظلمناهم) يعني بالعذاب والاهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) يعني بالكفر والمعاصي (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) يعني بعذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب (وما زادوهم غير تتبيب) يعني غير تخسير وقيل غير تدمير (وكذلك أخذ ربك) يعني وهكذا أخذ ربك (اذا أخذ القرى وهي ظالمة) الضمير في وهي عائد على القرى والمراد أهلها (ان أخذه أليم شديد) (ق) عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد فالآية الكريمة والحديث دليل على ان من أقدم على ظلم فانه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة ورد الحقوق الى أهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه الآية حكمها مختص بظالمي الامم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم قوله عز وجل (ان في ذلك لآية) يعني ان فيما ذكر من عذاب الامم الخالية واهلاكهم لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) يعني ان اهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لانه اذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالانموذج مما أعد لهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله (ذلك يوم مجموع له الناس) يعني يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الاولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين (وذلك يوم مشهود) يعني يشهده أهل السماء وأهل الارض (وما نؤخره الا لاجل معدود) يعني وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة الا الى وقت معلوم محدود وذلك الوقت

(يوم يأت) وبالياء مكي وافقه أبو عمرو ونافع وعلي في الوصل واثبات الياء هو الاصل اذ لا علة توجب حذفها وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونظيره ما كنا نبغ وفاعل يأت ضمير يرجع الى قوله يوم مجموع له الناس لا اليوم المضاف الى يأت ويوم منصوب باذكر أو بقوله (لا تكلم) أي لا تتكلم (نفس الا باذنه) أي لا يشفع أحد الا باذن الله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه (فمنهم) الضمير لاهل الموقف لدلالة لا تكلم نفس عليه وقد مر ذكر الناس في قوله مجموع له الناس (شقي) معذب (وسعيد) أي ومنهم سعيد أي منعم (فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير) هو أول نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره أو هما اخراج النفس ورده والجملة في موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذي في النار (خالدين فيها) حال مقدرة (ما دامت السموات والارض) في موضع النصب أي مدة داوم السموات والارض والمراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للابد والدليل على أن لها سموات وأرضا قوله يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقيل مادام فوق وتحت ولانه لابد لاهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم اما سماء أو عرش وكل ما أظلك فهو سماء أو هو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع كقول العرب مالاح كوكب وغير ذلك من كلمات التأبيد (الا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود في عذاب النار وذلك لان أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار أو ما شاء بمعنى من شاء وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضا لمفارقتهم اياها بكونهم في النار أياما فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولا سعدوا سعادة من لا تمسه النار وهو مروي عن ابن عباس والضحاك وقتادة رضي الله عنهم

لا يعلمه أحد الا الله تعالى (يوم يأت) يعني ذلك اليوم (لا تكلم نفس الا باذنه) قيل ان جميع الخلائق يسكتون في ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه الا باذن الله تعالى فان قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله اخبارا عن محاجة الكفار والله ربنا ما كنا مشركين والاخبار أيضا تدل على الكلام في ذلك اليوم قلت يوم القيامة طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففي بعض الاحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الاهوال وفي بعض الاحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها تخفف عنهم تلك الاهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون وقيل المراد من قوله لا تكلم نفس الا باذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيأ الا أن يأذن الله لها في الشفاعة (فمنهم) يعني فمن أهل الموقف (شقي وسعيد) الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هي معاونة الامور الالهية للانسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة أخروية وهي السعادة القصوى لان نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضا شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهي الشقاوة القصوى لان نهايتها النار فالشقي من سبقت له الشقاوة في الازل والسعيد من سبقت له السعادة في الازل (ق) عن علي بن أبي طالب قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى الآية بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الانسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على ان أهل الموقف قسمان شقي وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه ومن استوت حسناته وسيآته وهم أصحاب الاعراف في قول والاطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيآت فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث (فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها) أي في النار من العذاب والهوان (زفير وشهيق) أصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس الى الصدر أو الزفير مده واخراجه من الصدر وقال ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف وقال الضحاك ومقاتل الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره اذا رده الى صدره وقال أبو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الجوف (خالدين فيها) يعني لابثين مقيمين في النار (ما دامت السموات والارض) قال الضحاك يعني ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لاهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فاظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فانهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والارض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد ۞ وقوله سبحانه وتعالى (الا ما شاء ربك) اختلف العلماء في معنى هذين الاستثناءين فقال ابن عباس والضحاك الاستثناء الاول المذكور في أهل الشقاء يرجع الى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم

يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لان الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقياء، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة وفي رواية ان الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة أخرجه البخاري ومسلم عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين وفي رواية ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون (خ) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع الى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة (ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) أن يدخله النار أولا ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول ان الاستثناءين يرجع كل واحد منهما الى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لان اجماع الامة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها أبدا وقيل ان الاستثناءين يرجعان الى الفريقين السعداء والاشقياء وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه الا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف الا ألفين أي سوى ألفين وقيل الا بمعنى الواو يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله عز وجل وتعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا أي ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لاخرجهم منها ولكنه لم يشأ لانه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لاضربنك الا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الاقوال في معنى الاستثناء ترجع الى الفريقين والصحيح هو القول الاول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ان ربك فعال لما يريد يعني من اخراج من أراد من النار وادخالهم الجنة فهذا على الاجمال في حال الفريقين فأما على التفصيل فقوله الا ما شاء ربك في جانب الاشقياء يرجع الى الزفير والشهيق وتقريره ان يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لانه اذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني الا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل ان الاستثناء الاول في جانب الاشقياء معناه الا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حر النار الى البرد والزمهرير وفي جانب السعداء معناه الا ما شاء ربك أن يرفع بعضهم الى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الاول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة في الجنة ان الامة مجتمعة على ان من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالدين فيها ۞ وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعني غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لاهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لاهل النار وروي عن ابن مسعود أنه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا وعن أبي هريرة نحوه وهذا ان صح عن ابن مسعود وأبي هريرة فمحمول عند أهل السنة على اخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد اخراجهم منها لانه ثبت بالدليل الصحيح القاطع اخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولا على اخراج الكفار من حر النار الى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا فوق عذابهم والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) يعني فلا تك في شك

متعد (ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه أو معناه الا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاستثناء في الآيتين لاهل الجنة ومعناه ما ذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصي الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها ولا يكون له أيضا خلود في الجنة لانه لم يدخل الجنة ابتداء والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الاحاديث المروية في هذا الباب وكفى به اثما مبينا (عطاء غير مجذوذ) غير مقطوع ولكنه ممتد الى غير نهاية كقوله لهم أجر غير ممنون وهو نصب على المصدر أي أعطوا عطاء قيل كفرت الجهمية بأربع آيات عطاء غير مجذوذ أكلها دائم وما عند الله باق لا مقطوعة ولا ممنوعة لما قص الله قصص عبدة الاوثان وذكر ما حل بهم من نقمه وما أعد لهم من عذابه قال (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله

صلى الله عليه وسلم وعدة بالانتقام منهم ووعيد الهم ۞ ثم قال (مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) يريد أن حالهم فى الشرك مثل حال آبائهم وقد بلغك مانزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية ومافى مما وكما مصدرية أو موصولة أى من عبادتهم وكعبادتهم أو مما يعبدون من الاوثان ومثل مايعبدون منها (وانا لموفوهم نصيبهم) حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم انصباءهم (غير منقوص) حال من نصيبهم أى كاملا (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فاختلف فيه) آمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف فى القرآن وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) انه لايعاجلهم بالعذاب (لقضى بينهم) بين قوم موسى او قومك بالعذاب المستأصل (وانهم لفى شك منه) من القرآن أو من العذاب (مريب) من أراب الرجل اذا كان ذا ريبة على الاسناد المجازى (وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه يعنى وان كلهم أى وان جميع المختلفين فيه وان مشددة (لما) مخفف بصرى وعلى ما مزيدة جىء بها ليفصل بها بين لام ان ولام (ليوفينهم) وهو جواب قسم محذوف واللام فى لما موطئة للقسم والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم (ربك أعمالهم) أى جزاء أعمالهم من ايمان وجحود وحسن وقبيح بعكس الاولى ابو بكر مخففان مكى ونافع على اعمال المخففة عمل الثقيلة اعتبارا لاصلها الذى هو التثقيل ولان أن تشبه الفعل والفعل يعمل قبل الحذف وبعده نحو لم يكن ولم يك فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل واحسن ماقيل فيه انه من لممت الشئ جمعته لما ثم وقف فصار لما ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وجاز أن يكون مثل الدعوى والثروى ومافيه ألف التأنيث من المصادر وقرأ الزهرى وان كلا لما بالتنوين كقوله أكلا لما وهو يؤيد ماذكرنا والمعنى وان كلا ملمومين أى مجموعين كانه قيل وان كلا جميعا كقوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون وقال صاحب الايجاز لما فيه معنى الظرف وقد دخل فى الكلام اختصار كانه قيل وان كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم وقال الكسائى ليس لى بتشديد لما علم (انه بما يعملون خبير فاستقم كما امرت) فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى امرت بها غير عادل عنها (ومن تاب معك) معطوف على المستتر فى استقم وجاز للفاصل يعنى فاستقم انت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع الى الله مخلصا (ولا تطغوا) ولا تخرجوا عن حدود الله (انه بما تعملون بصير) فهو مجازيكم فاتقوه قيل ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت اشق عليه من هذه الآية ولهذا قال شيبتنى هود

يا محمد فى هذه الاصنام التى يعبدها هؤلاء الكفار فانها لاتضر ولا تنفع (مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) يعنى أنه ليس لهم فى عبادة هذه الاصنام مستند الا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم (وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) يعنى وانا مع عبادتهم هذه الاصنام نرزقهم الرزق الذى قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعنى من العذاب الذى قدر لهم فى الآخرة كاملا موفرا غير ناقص ۞ قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (فاختلف فيه) يعنى فى الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعنى بتأخير العذاب عنهم الى يوم القيامة لكان الذى يستحقونه من تعجيل العقوبة فى الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى (لقضى بينهم) يعنى لعذبوا فى الحال وفرغ من عذابهم واهلاكهم (وانهم لفى شك منه) يعنى من القرآن ونزوله عليك يا محمد (مريب) يعنى انهم قد وقعوا فى الريب والتهمة (وان كلا) يعنى من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم فى القيامة فيجازى المصدق على تصديقه الجنة ويجازى المكذب على تكذيبه النار (انه بما يعملون خبير) يعنى انه سبحانه وتعالى لايخفى عليه شئ من أعمال عباده وان دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين ۞ قوله سبحانه وتعالى (فاستقم كما أمرت) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى فاستقم يا محمد على دين ربك والعمل به والدعاء اليه كما أمرك ربك والامر فى فاستقم للتأكيد لان النبى صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها فهو كقولك للقائم قم حتى آتيك أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك (ومن تاب معك) يعنى ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضا على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب الاستقامة أن تستقيم على الامر والنهى ولا تروغ منه روغان الثعلب (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم (ولا تطغوا) يعنى ولا تجاوزوا أمرى الى غيره ولا تعصونى وقيل معناه ولا تغلوا فى الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه (انه بما تعملون بصير) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لايخفى عليه شئ منها قال ابن عباس مانزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتنى هود وأخواتها (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة قوله ان الدين يسر اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل فى الدين وترك التشدد فان

هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فان يغالب ولن يقاوى فسددوا أى اقصدوا السداد من الامور وهو
الصواب وقاربوا أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح
الرجوع عشيا والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا
بالليل أيضا وقوله شئ من الدلجة اشارة الى تقليله ۞ وقوله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) قال ابن
عباس ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال أبو العالية لا ترضوا بأعمالهم وقال السدى لا تداهنوا
الظلمة وعن عكرمة لا تطيعوهم وقيل معناه ولا تسكنوا الى الذين ظلموا (فتمسكم النار) يعنى فتصيبكم النار
بحرها (ومالكم من دون الله من أولياء) يعنى أعوانا وانصارا يمنعونكم من عذابه (ثم لا تنصرون) يعنى ثم
لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غدا فى القيامة ففيه وعيد لمن ركن الى الظلمة أو رضى
باعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة فى أنفسهم نعوذ بالله من الظلم ۞ قوله عز وجل (وأقم الصلوة طرفى
النهار) سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى عن أبى اليسر قال أتتنى امرأة تبتاع تمرا فقلت ان فى البيت
تمرا هو أطيب منه فدخلت معى البيت فاهويت اليها فقبلتها فاتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على
نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم
أصبر فاتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا
حتى تمنى انه لم يكن أسلم الا تلك الساعة حتى ظن انه من أهل النار قال واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم
طويلا حتى أوحى الله اليه وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الى قوله ذلك ذكرى للذاكرين قال أبو
اليسر فاتيته فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل
للناس عامة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وابو اليسر هو
كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله بن مسعود ان رجلا أصاب من امرأة قبلة فاتى النبى صلى الله عليه وسلم
فذكر ذلك له فنزلت وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يا رسول الله ألى هذه الآية
قال لمن عمل بها من أمتى وفى رواية فقال رجل من القوم يا نبى الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة عن معاذ
ابن جبل قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقى امرأة وليس بينهما
معرفة فليس يأتى الرجل الى امرأته شيأ الا قد أتى هو اليها الا انه لم يجامعها قال فانزل الله عز وجل وأقم الصلوة
طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين فامره النبى صلى الله عليه
وسلم ان يتوضأ ويصلى قال معاذ فقلت يا رسول الله أهى له خاصة أم للمؤمنين عامة فقال بل للمؤمنين عامة أخرجه
الترمذى وقال هذا الحديث ليس بمتصل لان عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ أما التفسير فقوله
سبحانه وتعالى وأقم الصلوة طرفى النهار يعنى صلاة الغداة والعشى وقال مجاهد طرفى النهار يعنى صلاة
الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعنى صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف
وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعنى صلاة العشاء وقال الحسن طرفى النهار الصبح والعصر
وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفى النهار الغداة والعشى يعنى صلاة الصبح والمغرب
قال الامام فخر الدين الرازى كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والاشهر أن الصلاة التى فى طرفى النهار هى
الفجر والعصر وذلك لان أحد طرفى النهار هو طلوع الشمس والثانى هو غروبها فالطرف الاول هو صلاة
الفجر والطرف الثانى لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لانها داخلة تحت قوله تعالى وزلفا من الليل فوجب
حمل الطرف الثانى على صلاة العصر (وزلفا من الليل) يعنى وأقم الصلاة فى زلف من الليل وهى ساعاته

(ولا تركنوا الى الذين ظلموا) ولا تميلوا قال الشيخ رحمه الله هذا خطاب لاتباع الكفرة اى لا تركنوا الى القادة والكبراء فى ظلمهم وفيما
يدعونكم اليه (فتمسكم النار) وقيل الركون اليهم الرضا بكفرهم وقال قتادة ولا تلحقوا بالمشركين وعن الموفق انه صلى
خلف الامام فلما قرأ هذه الآية غشى عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالظالم وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ولا تطغوا ولا تركنوا وقال سفيان فى جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعى ما من شئ ابغض الى الله من عالم يزور عاملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله فى ارضه ولقد سئل سفيان عن ظالم اشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت قال دعه يموت (ومالكم من دون الله من اولياء) حال من قوله فتمسكم النار اى فتمسكم النار وانتم على هذه الحالة ومعناه ومالكم من دون الله من اولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولا يقدر على منعكم منه غيره (ثم لا تنصرون) ثم لا ينصركم هو لانه حكم بتعذيبكم ومعنى ثم الاستبعاد اى النصرة من الله مستبعدة (واقم الصلوة طرفى النهار) غدوة وعشية
(وزلفا من الليل) وساعات من الليل جمع زلفة وهى ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه اذا قربه وصلاة الغدوة واحدتها
الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر لان ما بعد الزوال عشى وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفى النهار على الظرف لانهما مضافان
الى الوقت كقولك أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه

(ان الحسنات يذهبن السيئات) ان الصلوات الخمس يذهبن الذنوب وفى الحديث ان الصلوات الخمس تكفر مابينهما من الذنوب أو الطاعات
قال عليه السلام اتبع السيئة الحسنة تمحها أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (ذلك) اشارة الى فاستقم فما بعده أو القرآن
(ذكرى للذاكرين) عظة للمتعظين نزلت فى عمرو بن غزية الانصارى بائع التمر قال لامرأة فى البيت تمر أجود فدخلت فقبلها فندم فجاءه
باكيا فنزلت فقال عليه السلام هل شهدت معنا العصر قال نعم قال هى كفارة لك فقيل أله خاصة قال بل للناس عامة (واصبر) على امتثال
ماأمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شئ منه الا به (فان الله لا يضيع أجر

المحسنين) جاء بما هو مشتمل على جميع الاوامر والنواهى من قوله فاستقم الى قوله واصبر وغير ذلك من الحسنات (فلولا كان من القرون من قبلكم) فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل (أولو بقية) أولو فضل وخير وسمى الفضل والجودة بقية لان الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا (ينهون عن الفساد فى الارض) عجب محمد عليه السلام وأمته ان لم يكن فى الامم التى ذكر الله اهلاكهم فى هذه السورة جماعة من أولى العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصى (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أى ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون
نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى ومن فى ممن أنجينا للبيان لا للتبعيض لان النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله أنجينا الذين ينهون
عن السوء وأخذنا الذين ظلموا (واتبع الذين ظلموا) أى التاركون للنهى عن المنكر وهو عطف على مضمر أى الا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا
عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا (ما أترفوا فيه) أى اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة
وطلب أسباب العيش الهنىء ورفضوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) اعتراض وحكم عليهم
بانهم قوم مجرمون (وما كان ربك ليهلك القرى) اللام لتأكيد النفى (بظلم) حال من الفاعل أى لا يصح أن يهلك الله القرى ظالما لها
(وأهلها) قوم (مصلحون) تنزيها لذاته عن الظلم وقيل الظلم الشرك أى لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون فى المعاملات فيما

واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء (ان الحسنات يذهبن السيئات)
يعنى ان الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارات لما بينهن زاد فى رواية مالم تغش الكبائر وزاد فى رواية
أخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر (ق) عن أبى هريرة أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من
درنه شئ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا (خ) عن جابر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات قال
الحسن وما يبقى من الدرن قال العلماء الصغائر من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحات مثل الصلاة
والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة
النصوح ولها ثلاث شرائط الشرط الاول الاقلاع عن الذنب بالكلية الثانى الندم على فعله الثالث
العزم التام أن لا يعود اليه فى المستقبل فاذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شاء الله
تعالى وقال مجاهد فى تفسير الحسنات انها قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والقول الاول
أصح أنها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد فى احدى الروايتين عنه
والقرظى والضحاك وجمهور المفسرين (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل
هو اشارة الى القرآن (ذكرى للذاكرين) يعنى عظة للمؤمنين المطيعين (واصبر) الخطاب للنبى صلى الله
عليه وسلم يعنى واصبر يا محمد على أذى قومك وما تلقاه منهم وقيل معناه واصبر على الصلاة (فان الله لا يضيع
أجر المحسنين) يعنى أعمالهم قال ابن عباس يعنى المصلين ۞ قوله سبحانه وتعالى (فلولا كان من القرون) يعنى
فهلا كان من القرون التى أهلكناهم (من قبلكم) يعنى يا أمة محمد (أولو بقية) يعنى أولو تمييز وطاعة وخير
يقال فلان ذو بقية اذا كان فيه خير وقيل معناه أولو بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير اذا كان
على خصلة محمودة (ينهون عن الفساد فى الارض) يعنى يقومون بالنهى عن الفساد فى الارض والآية
للتقريع والتوبيخ يعنى لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد فى الارض فلذلك أهلكناهم (الا قليلا)
هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) يعنى من آمن من الامم الماضية وهم اتباع الانبياء
كانوا ينهون عن الفساد فى الارض (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) يعنى واتبع الذين ظلموا أنفسهم
بالكفر والمعاصى ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى انهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وايثار اللذات على
الآخرة ونعيمها (وكانوا مجرمين) يعنى كافرين (وما كان ربك) يعنى وما كان ربك يا محمد (ليهلك القرى
بظلم) يعنى لا يهلكهم بظلم منه (وأهلها مصلحون) يعنى فى أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم

السيئات وقيل في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء ان حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد ۞ قوله عز وجل (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة (ولا يزالون مختلفين) يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان قد اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة أخرجه أبو داود قال الخطابي قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق أمتي فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والاهواء والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وقوله سبحانه وتعالى (الا من رحم ربك) يعني لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق الى الحق وهداه الى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون (ولذلك خلقهم) قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم قال أشهب سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعني الذين يرحمهم وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لان يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحاصل الآية ان الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم الى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا صريح بان الله سبحانه وتعالى خلق أقواما للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ۞ قوله سبحانه وتعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الامم الماضية والقرون الخالية وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وأمكنه الصبر عليه (وجاءك) يا محمد (في هذه الحق) اختلفوا في هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الاقرب وهو قول الاكثرين فان قلت قد جاءه الحق في سور القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وانما خصها بالذكر تشريفا لها (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أي وهذه

بينهم لا يضمون الى شركهم فسادا آخر (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي متفقين على الايمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك وقال المعتزلة هي مشيئة قسر وذلك رافع للابتلاء فلا يجوز (ولا يزالون مختلفين) في الكفر والايمان أي ولكن شاء ان يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك (الا من رحم ربك) الا ناسا عصمهم الله عن الاختلاف فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه (ولذلك خلقهم) أي ولما هم عليه من الاختلاف فعندنا خلقهم للذي علم انهم يصيرون اليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذي علم انهم يصيرون اليه كذا في شرح التأويلات (وتمت كلمة ربك) وهي قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) لعلمه بكثرة من يختار الباطل (وكلا) التنوين فيه عوض من المضاف اليه كانه قيل وكل نبأ وهو منصوب بقوله (نقص عليك) وقوله (من أنباء الرسل) بيان لكل وقوله (ما نثبت به فؤادك) بدل من كلا (وجاءك في هذه الحق) أي في هذه السورة أو في هذه الانباء المقتصة ما هو حق (وموعظة وذكرى للمؤمنين) ومعنى

السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون اذا ذكروا أحوال الامم الماضية وما نزل بهم (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) فيه وعيد وتهديد يعنى اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله اعملوا ماشئتم (انا عاملون) يعنى ما أمرنا به ربنا (وانتظروا) يعنى ما يعدكم به الشيطان (انا منتظرون) يعنى ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه اما فى الدنيا واما فى الآخرة (ولله غيب السموات والارض) يعنى يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعنى ان علمه سبحانه وتعالى نافذ فى جميع الاشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء (واليه يرجع الامر كله) يعنى الى الله يرجع أمر الخلق كلهم فى الدنيا والآخرة (فاعبده) يعنى ان من كان كذلك كان مستحقا للعبادة لا غيره فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره (وتوكل عليه) يعنى وثق به فى جميع أمورك فانه يكفيك (وما ربك بغافل عما تعملون) قال أهل التفسير هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى انه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه منها شئ فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته قال كعب الاحبار خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله أعلم بمراده واسرار كتابه

﴿تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث أوله سورة يوسف﴾

تثبيت فؤاده وزيادة يقينه لان تكاثر الادلة أثبت للقلب (وقل للذين لا يؤمنون) من أهل مكة وغيرهم (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها (انا عاملون) على مكانتنا (وانتظروا) بنا الدوائر (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة باشباهكم (ولله غيب السموات والارض) لا يخفى عليه خافية مما يجرى فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم (واليه يرجع الامر كله) فلا بد أن يرجع اليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم يرجع نافع وحفص (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك وكافلك (وما ربك بغافل عما يعملون) وبالتاء مدنى وشامى وحفص أى أنت وهم على تغليب المخاطب قيل خاتمة التوراة هذه الآية وفى الحديث من أحب أن يكون اقوى الناس فليتوكل على الله تعالى

﴿فهرست الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم للامام على بن محمد المعروف بالخازن﴾

صحيفة

صحيفة

(تمت)